قادة الفتح الإسلامي

قادة فتح المغرب العربي

اللواء الركن

محمود شيت خطاب



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

Dar El Fikr - Printers- Publishers- Distributors- Beirut- Lebanon

محمود شيت خطاب

قادة فتح المغرب العربي

دار الفكر

بيروت - لبنان

قادة فتح المغرب العربي

قادة الفتح الإسلامي

قادة فتح المغرب العربي

الجزء الأول

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثامنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكم وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَات ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهم ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوفِهِم أَمْنًا ، يَعبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُم الفَاسِقُونَ "

(القرآن الكريم)

٥

الإهداء

إلى ذي النّورَين عثمان بن عفّان

كنتَ من السابقين الأوّلين ، فصلّيتَ إلى القبلتين ، وهاجرْتَ الهجرتين .

وجهّزتَ جيش العسرة بمالِك ، وجمعتَ القرآن الكريم في أيامِك .

وكنتَ أوّل من بعثَ الجيوشَ لفتح إفريقية ، فأصبحتْ تلك البلاد عربيّةً إسلاميةً منذ فتحها المسلمون ، وستبقى عربيّة إسلاميةً إلى الأبد بإذن الله .

وهذا الكتاب تذكيرٌ بجهادِك وذِكرى لأمجادِك ، فهو منكَ وإليكَ . رضيَ الله عنكَ وأرضاكَ ، وجعل الجنّةَ مستقرّكَ ومثواكَ .

محمود شيت خطّاب



المقدمة

" قُلْ للهِ المَشرقُ وَالمغَرب ، يهْدِي مَن يَشَاء إلى صِراطٍ مُستَقيم "

(القرآن الكريم)

البلاد والسكّان والتاريخ
قبل الفتح الإسلامي وفي أيّامه

مُستهَل

في المغرب العربي حركة مباركة تدعى : حركة التعريب ، هدفها إعادة لغة القرآن الى مكانتها السامية في ربوعه، لغة يتخاطب بها الناس في دورهم وفي أسواقهم وفي دواوينهم الرسمية وغير الرسمية وفي مدارسهم وجامعاتهم .

لقد حاول المستعمرون أن يفرضوا لغتهم على بلاد المغرب العربي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وبذلوا من أجل تحقيق مآربهم هذه جهوداً جبارة ، ورافق استعمارهم العسكري والسياسي والإقتصادي استعمار من نوع آخر ، هو : الاستعمار الفكري ؛ فنجحوا في أستعمارهم الفكري في بعض أجزاء المغرب العربي ونسي بعض سكانه لغتهم الأصلية ، واستعاضوا عن لغتهم الأم بلغة المستعمر ، ولولا المدارس الدينية وبعض الكتاتيب التي بذلت جهودها المشكورة لتعليم القرآن الكريم ، لتضاعف أثر الإستعمار الفكري في المغرب العربي ، ولازداد عدد الذين انقطعت صلتهم بالعربية من أهله ، ولأصبح عدد الذين يرطنون باللغات الأجنبية : الايطالية والفرنسية والإسبانية أضعاف ما هم عليه اليوم .

لقد كنت في فرنسا سنة ١٩٥٥ م في طريق عودتي من إنكلترا بعد اجتيازي دورة الضباط الأقدَمِين ، فوجدت كثيراً من الجزائريين في باريس : أسماؤهم عربية إسلامية ، ولغتهم فرنسية ، وكنت اسمعهم يتخاطبون بهذه اللغة في جامع باريس ، ولا يعرفون حرفاً واحداً من اللغة العربية .

وزار العراق وفد عسكري من إحدى دول المغرب في سنة ١٩٥٦ م ، فكان في منهجه زيارة قطعات الموصل العسكرية . وحين زار هؤلاء وحدات الموصل العسكرية ، لم نستطع التفاهم مع أعضاء الوفد إلاّ بلغة أجنبية !!! .

وزارت العراق وفود كثيرة من قادة المغرب العربي بعد سنة ١٩٦٣ م ، فوجدتُ أكثرهم لا يحسن التفاهم بلغة القرآن ، وكنا نكلمهم بلغة أجنبية أيضاً !! .

ولكننا وجدنا في العامل البسيط الذي رأيناه في باريس ، وفي الضابط الكبير الذي زار القطعات العسكرية المرابطة في مدينة الموصل ، وفي الزعيم السياسي الذي زار العراق رسمياً ــ وجدنا في كل هؤلاء حرصاً لامزيد عليه لتعلّم اللغة العربية والتخلّص نهائياً من بقايا الاستعمار الفكري .

من هنا بدأت حركة التعريب المباركة بعد حصول أقطار المغرب العربي على استقلالها، فأقبل على تعلّم العربية بشوق لا مزيد عليه سكّان المغرب العربي ، ونظّم المسؤولون في تلك البلاد المناهج الدراسية لتحقيق هذا التعريب بأقصر وقت ممكن .

وهذا الكتاب هو جهد المقل معاونة للتعريب، وكل عربي وكل مسلم مسؤول عن دعم هذه الحركة الميمونة بما يستطيع من جهد أو مال .

إن هذا الكتاب يذكّر أهل المغرب العربي في أقطاره كافة ، كيف دخلت العربية الى بلادهم ، وكيف انتشر الإسلام في ربوعها ، وكيف ضحّى آباؤهم وأجدادهم بأنفسهم وأموالهم مجاهدين من أجل تحقيق هذه الغاية السامية .

وإذا كان سكّان المغرب العربي في هذا القرن، قد ضحّوا بما لا مزيد عليه من الشهداء لإعادة المغرب عربياً إسلامياً ، فقد ضحّى آباؤهم وأجدادهم من قبل بما لا مزيد عليه من الشهداء في القرن الأول الهجري ليكون المغرب عربياً إسلامياً .

ولا عجب في ذلك ، فهؤلاء الأشبال هم من أبناء أولئك الأسود ...

وفي هذه المقدمة ، سأتحدّث عن بلاد المغرب العربي من الناحيتين الجغرافية والتاريخية : من الناحية الجغرافية لمعرفة معاني أسماء بعض الأماكن التي تَرِدُ كثيراً في تاريخ القادة الفاتحين ، ومن الناحية التاريخية لمعرفة سكّان المغرب القدماء والدول التي كانت تحكمه قبل الإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي .

البـــلاد

١ - إفريقـيّة :

أطلق الفينيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (Utica) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة ؛ وعنهم أخذه اليونان ، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الى المحيط ، ومن ثمّ سميت هذه المنطقة : (أفريكا) ، أي بلاد الأفْرِي ، واستُعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة . وأخذ معنى هذا اللفظ يتّسع شيئاً فشيئاً كلّما اتّسع سلطان الرومان في إفريقية ، فأصبحت ولاية إفريقيـــة القنصلية تضمّ ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية ، والمنطقة الداخلية منها التي تمتدّ حتّى (فزّان) ؛ أما بقية إفريقية الرومانية ، فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية : نوميديا ، ويلي ذلك موريتانيا[١] بقسميها القيصرية والطنجيّة . فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة من برقة الى طنجة .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ : إفريقية ، فأرادوا به في أول الأمر كلّ ما يلي مصر غرباً حتّى ساحل المحيط الأطلسي[٢] ، وهذا هو مفهوم إفريقية

---

(١) تعريب للفظ (Mauretania) ، وهكذا رسمها البكري في وصف افريقية (٢١٠) .
(٢) فتح العرب للمغرب (١ - ٢) . والمؤرخون والجغرافيون الأقدمون يذكرون أن إفريقية =

بلاد القيروان[1] أو ما يسمى اليوم : بتونس .

السكان

١ ــ البربر :

أ ــ البربر سكان المغرب الأصليون ، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسي ، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي .

ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (Barbari) مع تغيير معناه ، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين[2] .

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة : (بربر) ، فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها الى قسمين : أولهما ، تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً ، لأن لغة القوم فيها رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التي لا تفهم ، فقيل لهم : « ما أكثر بربرتكم » ! كما يقال : بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة[3] . أما ثانيهما ، فتفسير كلمة : (البربر) ، حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب ، إذ قيل : إن شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين ، وهو بَرّ بن قَيْس عَيْلان[4] ! ولكن ابن حزم يقول عن ذلك : « ... وهذا

ـ جبلياً هاماً يربط بين المغرب الشرقي والمغرب الغربي. وهناك ثلاث مدن بهذا الاسم: في المغرب وهي المراد هنا ، وفي الاندلس قرب مدينة لوقا وفي العراق على الطريق بين كركوك وجلولاء وبعقوبة وبغداد وهذه المعلومات من الاستاذ عبد الهادي التازي .

(١) انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٧) .

(٣) ابن خلدون (٦/٨٩) .

(٤) ابن خلدون (٦/٨٩) .

العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب . أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية ، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر الى (بجاية) في ولاية (قسطنطينة)[1] . وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب .

٢ ــ المغرب :

بلاد المغرب مصطلح يقصد به كلّ الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الإفريقية[2] ، وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث : (برقة وطرابلس وفزّان) ، وتونس ، والجزائر بصحرائها المترامية الى تخوم السودان ، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف الى عهد قريب باسم مراكش نسبة الى عاصمته الجنوبية ، ويمتد طبيعياً نحو الجنوب الى تخوم السنغال والنيجر [3] .

والمغرب عند الكتاب الأوائل يبدأ مما يلي إفريقية غرباً الى سواحل المحيط ، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب[4] ، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية . والمغرب الأقصى ، هو بلاد مراكش (المغرب) ؛ والمغرب الأوسط ، هو بلاد الجزائر الحالية ؛ وخط التقسيم بين المغربين : الأقصى والأوسط ، هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا)[5] . أما المغرب الأدنى ، فهو

= سميت باسم شخص معين . انظر معجم البلدان (١/٣٠٠) ومنهم من يذكر أنها مشتقة من لفظة : فرّق . انظر ابن خلدون (٦/٩٨) .

(١) تاريخ المغرب العربي (١١) .

(٢) في المسالك والممالك (٣٣) ومعجم البلدان (٨/١٠٣) أن الأندلس من المغرب أيضاً .

(٣) تاريخ المغرب العربي (٣) .

(٤) البلاذري (٢٣٣) .

(٥) تازا : معناها في اللغة البربرية : الصخرة العظيمة ، وهي مدينة في المغرب ، وتعتبر مضيقاً =

باطل لا شك فيه ، وما علم النسّابون لقيس عيلان ابناً اسمه : بَرُّ أصلاً ، ولا كان لِحمْيَرَ طريق الى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن[1] » .

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دُوّنت بالعربية وأصبحت علماً مثل أنساب العرب[2] ، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب الى قسمين كبيرين ينحدران من قحطان وعدنان — نموذجاً ، فقسموا قبائل البربر الى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس والبتر ، وقالوا : إن الجماعة الأولى أبناء بُرْنس ابن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادْغِيس بن بر الذي لقب بالأبتر[3] .

ب — البرانس :

ومن قبائلهم المشهورة عشر : أزْداجَة، مَصْمُودة، أوْرَبَة، عَجِيسَة ، كُتَامَة ، صِنْهَاجَة ، أوريغة[4] ، ويضاف اليهم حسب رأي البعض لمطه وهَكسورة وجزولة (كزولة)[5] .

وهذه الاصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فقبيلة هَوَّارة تنحدر من أوريغة ، وقبيلة مَلِيلْة تنحدر من هوارة ، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

جـ — البـــتر

ومن قبائلهم المشهورة أربعة : أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لُوا الأكبر .

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم الى فروع صغيرة ، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نَفْزَاوة ولَواتَه ، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (ولهاصة) ، وينحدر من (ولهاصة) قبيلة (تيرغاش) ، ومن (تيرغاش) تنحدر

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٢) أنظر مجمل أنساب البربر في جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ — ٥٠٢) .

(٣) ابن خلدون (٨٩/٦) .

(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٥) انظر تاريخ المغرب العربي (٣٠) .

قبيلة (ورفجومة) ... الخ

د – والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر الى برانس وبتّر، وانقسام هؤلاء الى قبائل مختلفة، فإن القرابة قريبة بين الجماعتين، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما؛ فالنسابة يختلط عليها الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس[1]، ثم يعدونها من البتّر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترِيَّة (عن طريق الأم)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواوة التي تعد من البتّر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية[2].

هـ – وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر الى العرب[3] مثل ابن حزم[4]. والحق أن لنسابة العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي، فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر[5]؛ وهذا أمر وليد البيئة، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب عليها الطابع الصحراوي، وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتّب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران. لذلك ينقسم البربر الى طائفتين متباينتين، وهما طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت)، وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام)، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحارى والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً[6].

---

(١) ابن خلدون (٦/٩٠).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٩٦).

(٣) ابن خلدون (٦/٩٣).

(٤) جمهرة انساب العرب (٤٩٥).

(٥) من أراد التفاصيل في نسب البربر عليه مراجعة: ابن خلدون (٦/٨٩ – ٩٦) وجمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) وانظر أيضاً: تاريخ المغرب العربي (٢١ – ٥١) وفتح العرب للمغرب (٧ – ٩) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٥ – ١٢) ... الخ

(٦) انظر فتح العرب للمغرب (٦) وتاريخ المغرب العربي (٣٢).

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، إذ أن البربـــر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (أوراس)، أي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب المغرب وبعض أجزاء تونس الغربية ، وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين واللاّتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة ، وظهر فيهم نفر أخذ بأسباب الحضارة اللاّتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما ، و (يوجرتا) عدو الرومان اللّدود، و (ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن ، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون الى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران.

كان هذا الإختلاف في الأحوال الاجتماعية ، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرّة بين الفريقين ، فكان الرحّل لاينفكّون يغيرون على مزارع المستقرّين وقراهم ، فاضطر هؤلاء الى أخذ الحذر منهم والإحتماء من شرّهم ، والإستعانة عليهم باللاّتين أو البيزنطيين؛ مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح ، كان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي ؛ إذ حال دون إتحاد أهلها ، وسهّل غزوها ، ومكّن الفاتح الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاتف متناسق.

أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبّت قدمهم فيها. أما البيزنطيون ، فلم يوفقوا الى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً[1] .

---

(١) فتح العرب للمغرب (٦ — ٧) .

و ـ ديانة البربر :

كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية ، وبعد ظهور المسيحية[1] ، وكانوا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم ، لأنهم كانوا مغلوبين لهم[2] .

ولكن المسيحية انتشرت بين القبائل البربرية التي كانت تعيش قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي المدن ، لأنهم كانوا بتماسٍ شديد مع الروم المسيحيين ، أما القبائل البربرية البدوية التي كانت تعيش في الصحراء ، فقد كان انتشار المسيحية بينهم محدوداً .

وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهلون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس حينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي ، بل كادت المسيحية أن تكون خيالاً زائلاً إبان الفتح الاسلامي للبلاد[3] .

ويبدو أن البربر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل الإسلام : كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية في القرون الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم[4] .

٢ ـ الأفارقة :

مع أن هذه التسمية نسبة الى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر وعن الروم . وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة هم أهل البلاد

---

(١) جاء الروم الى افريقية مرتين : مرة قبل الوندال ، ومرة بعدهم . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨).

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

(٤) فتح العرب للمغرب (٢٨١) .

الذين اختلطوا بالروم ، فأصبحوا من المولّدين، ودخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية . ورغم أن كثيرين من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام ، فإن الكثيرين منهم ظلّوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية أو لهجة محلية[١] .

٣ ـ يهود :

وجد العرب أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها الى البلاد عن طريق الفينيقيين ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من يهود الى المغرب على أيام الرومان ، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر[٢] .

٤ ـ السودان :

بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية ، ونلاحظ أن كُتّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب . والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان ، فكان من الطبيعي ان تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود[٣].

٥ ـ الروم والفرنج :

رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلّوا يكوّنون جماعة منفصلة عن البربر . حقيقة أنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين ، إلا أن الإمتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية في بعض الأحيان .

---

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٢) .
(٢) تاريخ المغرب العربي (٥٢ ـ ٥٣) .
(٣) تاريخ المغرب العربي (٥٤ ـ ٥٥) .

وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي . ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكّن من النجاة وأنهم لجأوا الى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر ، والأقرب الى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر ، بدلاً من القول : بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الاشقر[1] .

وكلمة : الفرنج ، يقصد منها الفرنسيس، قال ابن خلدون : « وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالإفرنسيس ، نسبة الى بلد من أمّهات أعمالهم تسمى : فرانسة ... الخ[2] »

تاريخ المغرب قبل الإسلام[3]

١ ــ عصر ما قبل التاريخ :

ظلّ تاريخ المغرب مجهولاً الى عصر الفينيقيين ، أما قبل ذلك فلا نعرف عنه إلا قليلاً ، لأن المغاربة الأقدمين الذين كانوا يعيشون في تلك العصور ، لم يكتبوا تاريخهم . ولكن علماء الآثار ، استطاعوا أن يحصلوا على بعض المعلومات عن تلك العصور الغابرة نتيجة لما اكتشفوه من الآثار .

تدلّ تلك الآثار ، على أن المغرب كان مسكوناً بالإنسان منذ عهد بعيد ، أي قبل أكثر من عشرة آلاف سنة . وتدلّ تلك الآثار على أن سكان المغرب الأولين كانوا سوداً ، وأن شمال إفريقية وجنوب أوربا ، كانت تسكنهما أمة سوداء ثم انقرضت .

---

(١) تاريخ المغرب العربي (٥٦) .

(٢) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩) .

(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٢٧ – ٥٩) .

وتدلّ تلك الآثار، على أن الصحراء الكبرى كانت فيها بحيرات وأنهار، وكان هواؤها معتدلاً، وكانت تسكنها أمم؛ فلما غيّرت الطبيعة ما كان فيها من جمال وماء هاجر منها أهلها وقصدوا شمال إفريقية.

وتدلّ تلك الآثار أيضاً، على أن الحاميين منذ عهد قديم، استوطنوا بلاد المغرب، وأنهم أتوا اليها من بلاد العرب؛ ولا يزالون يسكنون المغرب حتّى اليوم، وهم سكان المغرب الأقدمون.

هذه المعلومات القليلة، لا تعطي صورة واضحة عما كان يجري في المغرب في ذلك العصر، فلا نعرف كيف كان أولئك المغاربة الأقدمـــون يعيشون، وما كانوا يفعلون.

٢ ــ عصر الفينيقيين :

أ ــ الفينيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم : صيدا وصور وطرابلس الشام وبيروت، وكانوا يتردّدون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم الى الأسواق التي تروج فيها، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شؤون حياتهم[١].

والفينيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت الى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان : فينيقيا.

وتقع فينيقيا في شواطىء أرض الشام، في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة (أرْوَاد)[٢] شمالاً

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٢ ــ ١٣).
(٢) أرواد : اسم جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٠٧).

الى مدينة (عكا) جنوباً. وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة: الفينيقيين، نسبة الى الكلمة اليونانية: فينكس، ومعناها عندهم: النخل واللون الأحمر، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر وكانوا يصوّرون النخل على نقودهم.

وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠) سنة، وأحسنت الى الإنسانية، وعنها تعلّمت الإنسانية القراءة والكتابة.

وينقسم تاريخ الفينيقيين الى عصرين: العصر الأول — عصر صيدا، والعصر الثاني — عصر صور.

ب — عصر صيدا: من سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد الى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد.

في هذا العصر أسّس الفينيقيون عدّة مدن في فينيقيا، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا، وكانت عاصمتهم، ولهذا سمي هذا العصر بعصر صيدا. وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠٠) سنة، وقد أجمع المؤرخون على أن الفينيقيين كانوا أول من ركب البحر وأول من صنع السفن البحرية.

وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر الى الهند وبابل وآشور وبلاد فارس لتبيع مصنوعاتهم في تلك الأقطار، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب الى شواطىء البحر، تعرض المصنوعات الفينيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يشترون من هذه الأمم المواد الخام لمصنوعاتهم.

ولما عظم أمرهم وكثر عددهم، صاروا يرسلون الى شواطىء الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فينيقية تجارية، لتكون مركز الإتصال بينهم وبين تلك الأمم.

أسّسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة (برسيوم) وأطلقوا على تلك

الجهة كلمة (بزاسين) ، ومعنى ذلك في لغتهم : الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم (زوجيتان) وسموا تلك الجهة بهذا الإسم [1].

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون فيه ما يشاءون ، ولا ينازعهم فيه أحد الى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، ففي هذا العصر ظهرت في البحر سفن أمم جديدة ، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفينيقيين ، وكان من أعظم هذه الأمم أمة الإغريق ، التي صارت تحارب سفن الفينيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لفينيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأسود ، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولّت وجهها شطر بلاد المغرب ، فمن هذا التاريخ اشتدّ اتصال الفينيقيين بالمغاربة ، وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة .

وفي سنة (١٢١٥) قبل الميلاد ، انتصر بنو إسرائيل على الكنعانيين الذين كانوا في فلسطين ، وأرغموهم على الهجرة منها ، فهاجر بعضهم إلى أرض إخوانهم الفينيقيين ، فنقلهم هؤلاء على سفنهم إلى شمال إفريقية ، ونزلوا على إخوانهم الكنعانيين الأقدمين .

وكان هؤلاء الكنعانيون الذين أتت بهم السفن الفينيقية الى المغرب ، على جانب عظيم من الحضارة والقوة ، كما تصفهم التوراة بذلك — وقد خلّفوا في فلسطين أكثر من ستين مدينة كانت من أرقى المدن في تلك العصور ، وكانوا على جانب عظيم من الغنى .

ويحدّثنا مؤرخو اليونان فيقولون : إنهم كتبوا في شمال إفريقية على الرخام الأبيض هذه الكلمات : « إننا لحقنا بهذه الديار هرباً من قاطع السبل يوشع بن نون » .

وفي سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد ، استوطن قوم من جزيرة (كريت)

---

(١) تونس الحالية كانت تسمى : زوجيتانيا . انظر فتح العرب للمغرب (٢) .

الشواطىء الشامية ما بين غزة وعسقلان ، وعرفوا عند المؤرخين بالفلسطينيين ؛ وهؤلاء هم الذين قضوا على مدينة صيدا وخرّبوها على حين غفلة من أهلها ، وبذلك انتهى العصر الأول للفينيقيين سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد .

لقد استفاد المغاربة من اتصالهم بالفينيقيين أهل صيدا كثيراً ، فهم الذين علّموهم الكتابة والقراءة والفلاحة والصناعة .

وهم الذين حملوا الى المغرب أمة عظيمة غنية من الكنعانيين ، حملت معها حضارتها وغناها ، وأسّست في المغرب مدناً كثيرة انقرضت كلّها ولم يبق لها أثر [١].

ج – عصر صور : من سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد الى سنة (٣٣١) قبل الميلاد .

في هذا العصر تزعّم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفينيقية ، وصارت صور من أعظم مدن العالم ، وكانوا يسمونها: أمّ البحار ، لأنها كانت أعظم مدينة تجتمع فيها سفن العالم .

وقد استطاع الفينيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت ، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقية وكوّنوا في موريتانيا [٢] ونوميديا وزوجيتان مدناً كثيرة .

وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطّة لسفنهم التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط .

وظلّ الفينيقيون متمتعين بسيادة البحر الى سنة (٣٣١) قبل الميلاد ، ففي هذه السنة احتلّ الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرّب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم . وبهذا الحادث انتهى مجد الفينيقيين وعظمتهم ، وورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيّون؛ وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨)

---

(١) انظر تاريخ المغرب (٣١/١ – ٣٣) .

(٢) تعريب Mauretania . وقد رسمها البكري : مرطانية في وصف إفريقية (٢١٠) .

سنة ، وعاشت الأمة الفينيقية أكثر من (٣١٧٠) سنة .

وقد خلّف أهل صور آثاراً كثيرة في المغرب ضاع أكثرها ، ومن أشهر آثارهم الباقية : أصنام هرقل ، وهو هيكل عظيم كانوا يتقرّبون اليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين ، وكانت أصنام هرقل في الجبال المحيطة بمضيق جبل طارق ، ومن أجل ذلك سميت هذه الجبال : بأصنام هرقل .

وكان تأثير الفينيقيين في الحضارة الإنسانية عظيماً ، فهم الذين اخترعوا الحروف الهجائية ، وعنهم أخذتها جميع أمم الأرض ، وهم الذين اخترعوا الزجاج ، وهم أول من ركب البحر ، وهم الذين اخترعوا السفن البحرية ، وهم أول من أتقن فنّ الملاحة ، وهم أول من عرف بحار العالم وأحاط علماً بما في هذه الأرض من أراضٍ ، وهم الذين علّموا اليونان العلوم والفلسفة[١] .

٣ - عصر قرطاجنة :

أسّس الفينيقيون مدينة قرطاجنّة في القطر الذي يسمى اليوم : تونس ، سنة (٨٤٠) قبل الميلاد[٢] تقريباً .

ومعنى كلمة قرطاجنة ، المدينة الجديدة ، أو القرية الحديثة ، وقد أسّستها أميرة فينيقية كانت تسمى (أليسا) أو (ديدون) ؛ والسبب في بناء هذه المدينة ، أن هذه الأميرة كانت متزوجة بأحد رجال الدين الفينيقيين ، وكان من أكبر أغنياء العالم حينذاك . وقد قتله ملك الفينيقيين ليأخذ أمواله ، وكان هذا الملك أخاً للأميرة : أليسا ، ففرّت منه بعد أن قتل زوجها ، وأخذت معها كثيراً من أموال زوجها وكثيراً من أعيان صور ونبلائها ، واستقرّت

---

(١) انظر تاريخ المغرب (٣٥/١ - ٣٨) وانظر وصف الكتب القديمة للحضارة الفينيقية في تاريخ المغرب (٣٨/١ - ٤٠) .

(٢) وقيل إنها بنيت سنة (٨٨٠) ق . م . وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد بعاز ملك يهوذا سنة (٨٤٦) ق . م . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٣) .

هي وجماعتها في هذه المدينة الجديدة ، التي صارت بعد زمن أعظم مدن العالم ، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة [1] ، واستطاع أهلها أن يكوّنوا إمبراطورية عظيمة ، كانت من أعظم إمبراطوريات العالم في العصور القديمة ، فكانت تتكوّن من شواطىء شمال إفريقية وتملك أغلب أرض إسبانيا ، وكثيراً من جزائر البحر الأبيض المتوسط .

وكان أسطولها أعظم أساطيل الدنيا ، وبلغ أهلها من الحضارة والرقي الى درجة كبيرة ، وعاشت متمتعة بالعظمة والرفاهية أكثر من ستة قرون ونصف من (٨٤٠) الى (١٤٦) قبل الميلاد .

وفي سنة (٤٨٠) ق . م . صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية الى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوربا الجنوبي الى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك : أعمدة هرقل[2] .

وفي سنة (٢٦٤) قبل الميلاد ، إشتبكت في صراع عنيف على الرومان دام أكثر من مائة سنة ، وأخيراً تغلّب عليها الرومانيون سنة (١٤٦) قبل الميلاد وقضوا عليها القضاء النهائي [3] ، ومحوا آثارها من الوجود ، فتحوّلت زعامة الدنيا من شمال إفريقية الى جنوب أوربا .

كان القرطاجنيون كجدودهم الفينيقيين ، على جانب عظيم من الحضارة ، غير أنه لم يصل الينا من آثار حضارتهم إلا أقلّ القليل، لأن أعداءهم الرومان طمسوا على كل شيء يتصل بالقرطاجنيين ، ولم يبق من آثارهم إلا بعض آثار مدنهم في إسبانيا وشمال إفريقية ، والمذكرة التي كتبها البحار القرطاجني (حنون) عن رحلته البحرية ، وكتاب في الفلاحة ، وبعض معلومات

---

(١) انظر تفاصيل قصتها في كتاب هنبعل (١/٣٠ - ٤٨) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤) .

(٣) انظر تفاصيل تلك الحروب في كتاب : هنبعل .

قليلة عنهم في كتب المؤرخين اليونانيين – ومن هذه الآثار الباقية نستطيع أن نفهم أن قرطاجنّة كانت على جانب عظيم من الحضارة، وأن حضارتها كانت أرقى من حضارة الرومان، وأن القرطاجنيين كالفينيقيين نشروا حضارتهم في العالم عن طرق السلم والتجارة.

وقد تحدّث الفيلسوف أرسطاليس عن نظام الحكم في قرطاجنّة، فقال: «إن لقرطاجنّة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول، ولها شرائع غاية في الحسن، ومن الدليل على ما وعتـه من الحكمة، أنها مع ما للأمة عندها من السلطان، لم نجدها قط بدّلت شكل الحكم، ولا نشبت فيها فتنة». ثم يقول: «إن القضاء عند القرطاجنيين أفضل منه عند اليونانيين، لأنهم لا يرضون له أغفال الناس، بل يولّونه أحسنهم طريقة، وأحمدهم سيرة». ومن كلام هذا الفيلسوف العظيم، نفهم أن قرطاجنّة كانت تتمتع بحكومة عادلة، وأنها كانت على جانب عظيم من الحضارة.[1]

لقد كان نظام الحكم في قرطاجنة أشبه بالجمهوري، وكان يدير شؤون الحكم فيها مجلس مكوّن من مائة عضو من الأعيان والتجار، وكان لهم رئيسان ينتخبان في كل سنة، وكانت ديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم: بعل[2].

وكانت معاملة أهل قرطاجنة للأمم المتوحشة التي كانت تسكن في شواطىء إفريقية معاملة مبنية على الإحترام والصدق وحسن السياسة[3].

وكان القرطاجنيون يبعثون الى شواطىء البحار سفنهم مملوءة بالمؤن والرجال لاستكشاف الأراضي وتأسيس المدن. وفي القرن السادس قبل الميلاد بعث مجلس الشيوخ القرطاجني الى السواحل الإفريقية الربان: حنون، ليكشف تلك الشواطىء ويؤسس بعض المدن، وقد خرج في ثلاثين ألفاً

---

(١) تاريخ المغرب (١ / ٤٣ – ٤٤).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٤).

(٣) تاريخ المغرب (١/٤٤).

من الرجال والنساء ، ومعهم ستون سفينة عظيمة لكل منها خمسون مجدافاً . وقد كتب هذا الربّان مذكرة رفعها الى حكومته، ووصلت الينا عن طريق ترجمتها باللغة اليونانية . وما يخص المغرب من هذه المذكرة ما يلي : « بعد أن أجرنا أصنام هرقل بيومين ، أنشأنا أول المدن وسميناها (ثميتيرية) [١] ، وهي مطلّة على سهول رحبة ، ثم أقلعنا منها نحو الشرق الى : (سلو) [٢] ، وقد بسقت فوق أرضه أشجار غضّه ، فبنينا هناك معبداً للإله (بوصيدن) ، ثم عكفنا الى الشرق مسيرة نصف يوم ، فاذا بنا على سمت بحيرة قريبة من الشاطىء تكاتف عليها القصب ورعت حولها الفيلة [٣] . وعلى مسيرة يوم أنشأنا عدّة قرى قريبة من الساحل سميناها : حصن قريكون ــ غيته ــ عكرة ــ مليطة ــ أرنبي . ومن ثم انتهت بنا السفن الى : لكسوس [٤] ، وهو نهر غراق منحدر من هضاب ليبيا ، وعلى مشارعه قبيلة : لكسته ، وقد سرحت مواشيها على ضفتيه ، وهي قبيلة عظيمة مضيافة ، آخيناها وأقمنا عندها أياماً » ، ثم يقول : « وقد استصحبنا معنا تراجم من قبائل لكسته ، وانطلقنا بمراكبنا نحو الجنوب » ، وهكذا صار يقصّ علينا ما شاهده في شواطىء إفريقية الى أن وصل الى غينيا .

ومن هذا التقرير يظهر ، أن أهل قرطاجنة وسكان شواطىء المغرب كانوا أصدقاء ويتفاهمون مع بعضهم . وأنهم بنوا للمغاربة كثيراً من المعابد والقرى ، وأن الفيل كان موجوداً في المغرب في تلك العصور ، وأن أهل قرطاجنة استوطنوا المغرب الأقصى في تلك المدن التي ذكرها حنون في رحلته ، والتي كانت موجودة بين الصورة وأغادير [٥]

---

(١) هي المسماة الآن بالمهدية .

(٢) رأس كنتين .

(٣) كان الفيل في المغرب في هذا العصر ، ثم انقرض .

(٤) هو نهر سوس .

(٥) تاريخ المغرب (١/٤٥ ــ ٤٦) .

ومن آثار أهل قرطاجنة في المغرب من المدن — وهي التي بقيت من بين أكثر من ثلاثمائة مدينة انقرضت كلها — :

تينجيس : طنجة .

لكسوس : مدينة قرب العرائش انقرضت .

روسادير : مليلية ، وكان العرب يسمونها : مليله .

جدير[1] .

٤ — عصر الرومان :

أ — أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة ، فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين سنة (٢٦٤) الى (١٤٦) ق . م .

الحرب الأولى : ابتدأت من سنة (٢٦٤) ق.م، وانتهت سنة (٢٤١)ق.م ، انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية ، وانهزم فيها الجيش القرطاجني في صقلية .

الحرب الثانية : ابتدأت سنة (٢١٨) ق . م ، وانتهت سنة (٢٠٢) ق . م ، انتصر بها (هنبعل) القائد القرطاجني في ايطاليا في معركة (كان)[2] . وقتل فيها من الرومان ما يربو على سبعين ألفاً ؛ وكانت سنة (٢١٦) ق.م ، وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء . وانتصر عليه الرومان في معركة (زاما)[3] سنة (٢٠٢)

---

(١) تاريخ المغرب (١/٤٥) .

(٢) كان : بلدة في غرب ايطاليا كانت تابعة لها ، والآن تابعة لفرنسا وتقع في جنوبها . وهنبعل هو : هانيبال .

(٣) زاما : هي (جاما) ، وهي قرية قرب الكاف غربي المملكة التونسية ، ويسميها الروم : زاما . انظر تفاصيل هذه المعركة في كتاب : هنبعل (٢/٢٩ — ٤٠) .

ق . م ، ففرّ الى الشام ومات في إنطاكية .

والحرب الثالثة: ابتدأت سنة (١٤٩) ق . م ، وانتهت سنة (١٤٦) ق . م ، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين ، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم . وانتهز البربر فرصة رجحان كفّة الرومان فانضموا اليهم بزعامة (ماكسن) البربري ، فملك الرومان قرطاجنّة وخرّبوها وأحرقوها بالنار ، فأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة (١٤٦) قبل الميلاد[1] .

ولكن المغاربة أبوا الخضوع للرومان ، فكانت بينهم وبين الرومانيين حروب طويلة ، وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ، ترحل القبائل من أمامهم وتلجأ الى الجبال والأماكن الوعرة ، بحيث لا يقدر الرومانيون أن يتوصلوا اليها .

أما السواحل ، فقد احتل الرومان منها سواحل تونس أولاً ، ثم سواحل الجزائر عقب القضاء على قرطاجنة ؛ أما سواحل المغرب الأقصى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يحتلّوها إلا في سنة (٤٢) بعد الميلاد ، أي بعد سقوط قرطاجنة بـ (١٨٠) سنة ، وكانوا يسمّون هذه السواحل : موريتانيا ، ولم يتعد احتلالهم مدينة (سَلاَ)[2] التي كانت تسمى : (سلاكولونيا) ، ولم يخضع باقي بلاد المغرب الأقصى للرومان إلا مدة قصيرة .

كان الرومان يعاملون المغاربة معاملة قبيحة ، لأنهم كانوا يحتقرون الشعوب التي يملكونها ، لهذا كان المغاربة كثيراً ما يثورون عليهم ؛ وأشهر الزعماء الذين ثاروا على الرومان هو (تاكفراس) سنة (١٧) ميلادية ، فقد حرّض هذا الزعيم المغاربة على العصيان فأجابوه الى ذلك وحاربوا الرومان ، واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنوات ، ولكن الرومان تغلّبوا عليهم .

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٥) نقلا عن تاريخ مختصر تونس (حسن حسني عبد الوهاب).
(٢) سلا : مدينة بأقصى المغرب : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٩٩) .

كانت عاصمة المغرب الأقصى في عصر الرومان مدينة تينجيس (طنجة) ، وكانت من أعظم المدن الرومانية في ذلك العصر ، وكانوا يسمّون المغرب : موريتانيا الغربية أو التانجيسية .

ومن أشهر المدن التي كانت على البحر الأبيض المتوسط مدينة روسادير (مليلية) . أما المدن التي كانت لهم على شاطىء المحيط الأطلسي فهي مدينة ليكسوس ومدينة سلا كولونيا ، وأشهر المدن التي كانت لهم في الداخل مدينة : فيوبولس .

وكانت تربط هذه المدن طرق معبّدة تشبه الطرق العصرية ، وكانت هذه الطرق محمية بأبراج وقلاع تصدّ الغارات التي يقوم بها المغاربة على المدن الرومانية ؛ وكان في المغرب مدن رومانية أخرى كثيرة . وقد ظل المغرب خاضعاً للرومان الى سنة (٤٢٩) ميلادية ، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما ، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر ؛ وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته ، وهم (الوندال) [1] الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا ، فأسرع ملك الوندال وهو (جينسريك) الى بلاد المغرب ومعه (٨٠,٠٠٠) جندي ، وانضم اليهم كثير من المغاربة لأنهم كانوا يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم . ولكن (برنيفاس) أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلّون المغرب لأنفسهم ، فصار يحاربهم الى أن انتصروا عليه ، فاحتلوا شواطىء المغرب وتونس والجزائر ، وجعلوا عاصمتهم مدينة (قرطاجنّة) . وغادر (بونيفاس) بلاد المغرب سنة (٤٣١) ميلادية ، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم اليها الامبراطورية الشرقية لاعانة روما سنة (٤٣٥) ميلادية ، وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب ، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣) سنة [2] .

---

(١) هم من الأصل الجرماني (الألمان) .

(٢) تاريخ المغرب (١/٥١ - ٥٣) .

ب ــ وعند مقارنة حكم القرطاجنيين بحكم الرومان ، نجد أن القرطاجنيين كانوا يعتبرون المغاربة إخواناً لهم ، لأنهم أبناء عمهم . وقد استفاد المغاربة كثيراً من القرطاجنيين ومن الفينيقيين قبلهم ؛ فلما انتهى عصر قرطاجنة كان المغاربة متقدمين في الحضارة والقوّة ، وورثوا عن قرطاجنة كثيراً من المدن ، وتعلموا عنهم أنواعاً كثيرة من العلوم .

وفي عصر الرومان ، خسر المغاربة ما قد اكتسبوه من حضارة في عصر القرطاجنيين ، لأن الرومان كانوا يعتبرون المغاربة عبيداً لهم : لا يحترمونهم ، ولا يريدون أن يتعلم المغاربة من حضارتهم شيئاً . لهذا كان احتلال الرومان للمغرب خسارة عظمى أصابت المغاربة ، لأن قرطاجنة كانت دولة مغربية تتزعم الدنيا ، فلما انقرضت أصبح المغاربة عبيداً خاضعين لعدوّهم الذي قضى عليهم وعلى زعامتهم .. لهذا كان المغاربة يكرهون الاحتلال الروماني ، ولم يستفيدوا منه إلا قليلا ...

٥ ــ عصر الوندال :

الوندال هم من الأصل الجرماني (الألمان) زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلّوها وأقاموا بها دولة عظيمة .

ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوربا وتستولي على أراضيها ، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الامبراطورية الرومانية قبائل الوندال . وبعد أن احتلوا فرنسا تقدّموا الى اسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس ، وإليهم ينسب هذا الإقليم ، فقد كان يسمى : فاندلوسيا نسبة اليهم .

كان ملك روما تنوب عنه امرأة في حكم إفريقية يقال لها : (إبلاليديا) ومقر حكمها قرطاجنّة ، وكان (بونيفاس) أحد ولاة الرومان على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها ، فلم تطق صبراً على معاكسته إياها . وفي سنة

(٤٢٩)[١] ميلادية ، أرادت أن تنتقم منه ، فشقّ عصا الطاعة على روما واستدعى (بونيفاس) الروماني (جنسريك) ، وكان ملكاً عظيماً كوّن للوندال أسطولاً عظيماً ، فكانت سفنهم تبعث الرعب في قلوب سكان البحر الأبيض المتوسط . ولي جنسريك طلب بونيفاس ، واجتاز من اسبانيا الى المغرب واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى الى أن احتل قرطاجنّة سنة (٤٣٥)[٢]م وقضى على ملك روما في إفريقية ، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة ، وأصبح الشمال الإفريقي كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية .

واستفحل أمر الوندال ، فاحتلوا روما سنة (٤٥٥) م وأطلقوا أيدي الجند فيها خمسة عشر يوماً ، فنهبوا كل ما فيها من ذخائر نفيسة ، وعبثوا بالنظام الروماني في إفريقية حتى قضوا على آثاره فيها .

ومكث جنسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً ، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية ، فلما مات سنة (٤٧٧) م تولى ابنه (هنريك) وكان قاسياً على الكاثوليك ، فقبض سنة (٤٨٣) م على خمسة آلاف من رهبانهم وشرّدهم في الصحراء واغتصب أموالهم وكنائسهم . وفي سنة (٥٢٣) م تولى على الوندال (هلدريك) ، وكان ضعيف الارادة منحل العزيمة ، منحل العزيمة ، فخلعوه وولوا مكانه (جليمير) ، فاستنجد (هلدريك) المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه ، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال واسترجاع إفريقية ، فهاجم ، فهاجم (بيليساريوس) القائد الرومي قرطاجنة سنة (٥٤٤) م وأسر ملك الوندال (جليمير) واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال الى بيزنطة (القسطنطينية) ، فزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة[٣] .

---

(١) وقيل سنة (٤٢٧)م .

(٢) وقيل سنة ٤٣٩ م .

(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٥٥ — ٥٦) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٦ — ١٧) وفيه: إن الروم احتلوا قرطاجنة سنة ٥٣٤ م .

٦ ـ عصر الروم[1] :

أ ـ استعاد جوستنيان إفريقية في بضعة شهور على يد قائده الماهر بليساريوس ، فلم يكد يغلب من بها من حكّام الوندال حتى أعلن إن إفريقية قد ردّت اليه ، وبعث اليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلاً بين الحاكم والمحكوم لا سبباً من أسباب الاتصال بينهما . ولم يلبث الأفارقة أن عصوا قانونه ، فسارع اليهم يرغمهم على طاعته فبدأ النزاع الذي أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يحمد أوارها بين الروم وأهل البلاد ، وأصبح مع الزمن مدار تاريخ إفريقية خلال القرن الذي انقضى بين وفاة جوستنيان وإشراق شمس الإسلام عليها .

ب ـ كان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومة وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور الى أصغر رعاياه يغرمون بجنون الخصومات الدينية غراماً شديداً . وكان الغالب أن تخفي المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكانت مصلحة الدولة لا مجرد الرغبة في التجديد الديني ، هو الدافع للأباطرة الى ما أتوا من الأمر في كثير من الأحيان .

وكان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس الى حلقات الملاعب والمسرّات ، وكانت النساء كذلك سبّاقات اليها يخالطن الرجال في تبذّل انتهى بالمجتمع كله الى تدهور سريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث ، فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام ، بعضها أنصار ، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين

---

(١) اعتمدنا كتاب : فتح العرب للمغرب (١١ – ٤٧) في ايراد أكثر ما جاء في هذه الفقرة من معلومات .

والسياسة ، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب .

جـ ـ وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدُّون للمضي الى شمال إفريقية ، فلم يكن للدولة بد من ان تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي ، فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف ؛ فبدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام الى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين . ولم يكد الفريقان يحسّان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين ، حتى خيّل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيدٌ يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فعظم الإضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها ..

د ـ وكان جوستنيان على ما يبدو على شيء من العلم بطبيعة إفريقية ، فأفردها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوي على الحذر الشديد من أهلها ، ويرمي الى جعلها مورداً من موارد المال والمئونة للدولة ، فلم تكد بشائر الفتح ترد عليه حتى رفع إفريقية الى مصاف ولايات الدولة الكبرى، وأقام على حكومتها عاملاً مدنياً لا عسكرياً .

وكانت إفريقية البيزنطية لا تشمل المغرب كله من حدود مصر الى المحيط ومن البحر الى قلب الصحراء ، وإنما كانت جزءاً صغيراً يبدأ من حدود مصر

ويضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الأوراس ، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسبتة . أما في الجنوب ، فلم يكن يتعدى نصف إمتداد إفريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل تو نس وهضبة الأوراس ، ووقفت حدوده الجنوبية عند (تبسه) ومسكولا (Mascula) وتمجاد (Thamugadi) ولمبيزه (Lambeisis) وطبنـــه (Tabna) والمسيلة (Masila) ، أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض المواني من أمثال تيفش (Tipasa) وقيصريـــة (Caesaria) وتانس (Tenes) ووهران (Oran) .

وكانت البلاد مقسمة الى سبعة أقسام إدارية :

(١) الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية)	Proconsularium	يحكمها قناصل Consulaies
(٢) الولاية الداخلية (بيزاسيوم)	Byzacium	
(٣) طرابلس	Tripolitania	
(٤) نوميديا	Numidia	يحكمها مديرون Praesides
(٥) موريتانيا الأولى	Mauritania Sitifiensis	
(٦) موريتانيا الثانية وتشمل (شمال مراكش)	Mauritania Cesariensis Mauritania Tingtana	
(٧) سردانية		

وقد امتد سلطان الدولة في أول الأمر الى أبعد من هذا الحد الرسمي ، فدخل في طاعتها نفر من بدو البربر الضاربين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخير لكي تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخذت تنسحب الى الشمال ، حتى لم يبق من املاكها آخر الأمر الا ساحل ضيّق وبضع محارس حصينة في الداخل ، مثل تِبِسه وسُبَيْطِلة ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس (أنطابلس)، وكذلك طرابلس لم تعد ثغور الساحل مثل (سرت Syrta) وطرابلس نفسها وصبرة وقابس.

هـ — وجمع جوستنيان لحاكم إفريقية كل السلطات، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطيق.

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالاً طائلاً، وكان عليه كذلك أن يرسل الى العاصمة كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية، فكان العبء ثقيلاً على ولاية فقيرة كإفريقية. ومن البديهي أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل، فلجأت الحكومة الى أخذ السكان بالعنف للحصول على الأموال بالضغط والإرهاق، فاشتطت مع رعاياها اشتطاطاً بالغاً، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم، واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين.

هكذا كانت حكومة إفريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر، فكان مقدّراً لهذه الحكومة ولأي حاكم يقوم بأمرها الفشل التـــام.

وكان لا بد من حراسة البلاد حتّى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب، فاتجهت عناية الدولة الى إقامة حاميات قوية في حصون متقاربة، واقامت في كل حصن حامية تستطيع حمايته والدفاع عنه. وأسرفت الدولة في ذلك إسرافاً يسترعي النظر، فلم تكتف بحامية واحدة بل أقامت ثلاث حاميات في حصون متعاقبة عمقاً، وقسّمت البلاد الى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي ترابط فيها قوة ضاربة بقيادة قائد أو دوق (Dux)، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون والقلاع؛ ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن بالامكان المحافظة على هذه التحصينات في حالة حسنة، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها؛ فاذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن متينة البناء إذ أقيمت على عجل، استطعنا أن نعرف مدى قوة هذا النظام الدفاعي لإفريقية البيزنطية.

طبيعي بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية .

و — ولم تكن العلاقات بين الحاكمين والمحكومين على ما يرام ، إذ كان الروم مضطرين الى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها ، لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف . واشتدّ ضغط الجباة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان ، وأخذت أسباب الاضطراب تتوافق وتتكاثر ، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهلين ويروّعون الآمنين ، وتحوّلوا شيئاً فشيئاً الى طلاب مغانم وقطاع طرق ، وعجزت الحكومة عن ردّهم الى الطاعة ، فأصبحوا من عوامل الفوضى والإضطراب . وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباتهم العسكرية ، فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادّعوا الحاجة الى الطعام أو اصطنعوا التعب واعتذروا بشدّة البرد ، وإذا ساروا الى القتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم ، وربما تركوه دون تردد ساعة الخطر !!!

وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكّام وتتحرّك الثورة في نفوسهم ، ولم يلبث الإرهاق الذي أصاب أهل البلاد أن مهّد لهم السبيل ليعلنوا ما يضمرون من كراهية وحقد .

واستبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهيّن ، فأخذت تميل الى الاعتماد على الأساليب العسكرية في التفاهم مع الأهلين ، فتحوّلت إفريقية الى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد عسكري ، لكي يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهلين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردّهم الى الطاعة .

وهكذا فشل الحكم البيزنطي في إفريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعلياً ، فأصبح جندها في حال أقرب الى الاستقلال ، وبدأ قادتهـا يفكرون في الانفصال وإعلان أنفسهم حكاماً بأمرهم .

ز — دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق مصر وربما عن طريق روما كذلك خلال القرن الثاني الميلادي ، فاعتنقها كثير من البربر . وانتشر الرهبان

بين البربر ، فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ ق . م الى ٤٣٥ ب . م) وبين الأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفّق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد .

وقامت الدولة الرومانية باتخاذ الاجراءات التي رأتها كفيلة بالمحافظة على وحدتها السياسية وخاصة على أيام الإمبراطور دسيوس (Decius) الذي طلب في سنة (٢٥٠ م) من جميع رعاياه أن يعلنوا عن وطنيتهم بإعلانهم التمسك بالديانة الوطنيـــة المتمثلة في عبـــادة الأباطرة الى جانب آلهـــة روما ، والتنصل من كل العبادات الأخرى ، وخاصة المسيحية والمانوية . وترك كثير من المسيحيين ديانتهم واضطهدت الدولة النصارى وعطّلت كنائسهم وصادرت أملاكهم . وعلى عهد دقلديانوس (٢٧٠ – ٢٧٥ م) اشتدّت الدولة ضد المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم وقاموا بما يشبه العصيان المدني ، فرفضوا الخدمة العسكرية . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي ، توثقت العلاقات بين الدولة والكنيسة ، حتى أن الكنيسة أعلنت حرمان من يلقي السلاح من رحمتها .

ورغم أن الكنيسة نجحت في تنظيم نفسها بفضل هذا التحالف وأنشأت كثيراً من الكنائس ، فان المسيحية بقيت على سواحل المغرب مع الرومان ولم تصل الى القبائل الوطنية في المغرب الأقصى . وإلى جانب ذلك عرفت المسيحية الانحرافات المذهبية المتأثرة بالأفكار الآتية من المشرق البعيد عن طريق مصر ، مثل مذهب الحلول الإلهي ومذهب المانوية الثنوية . ثم إن الكنيسة المغربيـــة عرفت انقساماً خاصاً بها ، وهو المذهب الدوناتي – نسبة الى صاحبة دونات (Donat) الكبير أسقف الوطنيين الذي رفض الإعتراف بشرعية انتخاب سيليان اسقفاً لقرطاجنّة ، فأعلن دونات طلب الاستشهاد واستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين[1] .

(١) انظر : تاريخ المغرب العربي (٦٥ – ٦٦) .

ورفع البربر علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر ، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية .

ولم يلبث الوندال أن أقبلوا خلفاء للرومان على إفريقية ، فأنشأوا يضطهدون الدونانتيين وأعداءهم معاً ، وفرضوا على الناس مذهبهم الآريوسي — الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية — واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها .

بهذا تفرّق أمر المسيحيين في إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً ، فلم يلبث أن ارتدّ عنها الكثيرون ، وضعف أثرها في الداخل ، فكان على جوستنيان أن يحاول نشرها في البلاد من جديد .

واهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً باعادة المسيحية الى إفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها ، وشجّع البعثات التبشيرية ، فأخذت المسيحية تنشط من جديد ، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة (**Sabrata**) وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شِلِف (حول تلمسان) .

بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي ، واقترف القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد . وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفرّوا الى داخل البلاد نجاةً من الإضطهاد ، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعمّد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين .

وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر ، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجوري في تفرّق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في

شؤون كنيسة افريقية ليكسب رعاياها الى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينية من أتباع كنيسة روما ، تنشأ في إفريقيّة وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزّون بها ويخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة في إفريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أحدّ وأقسى ، وزاد في انحلال البلاد التي كانت — لهذا الزمن — قد تفككت تفككاً بالغاً لا يرجى معه أمل في صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن ، قاضية على الآثار القليلة التي خلّفها الرومان في نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر البدو الى العدوان على الولايات البيزنطية التي قامت فيها معالم الحضارة ، ولو لم تكن المسيحية قد ثبتت بعض الثبات في بعض النواحي كالزاب وتلمسان لما كان للبيزنطيين أي أثر في حضارة أهل البلاد .

ج — تبين الأباطرة أن نظام الحكم الذي وضعه جوستنيان لإفريقيّة لم يحقق الغرض المراد منه ، إذا استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً . وثبت في أذهانهم أنه لا بدّ أن يراعى في النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية ، وجعل الاولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جوستنيان . وأقيم على الولاية حاكم عسكري له الاشراف التام على كل مرافقها وموظفيها بما فيها الحاكم المدني . وأقيم على الأقسام الادارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون : بالدوق (Dux) وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

وكان تحويل إفريقية البيزنطية من ولاية مدنية الى منطقة عسكرية نذيراً

بفشل البيزنطيين في حكم البلاد وإيذاناً بوقوف كل الجهود السلمية والاصلاحية التي كان يرجى قيامها في ظلهم !

وفي سنة (٦٠٨ م) أقام موريس (Maurice) على إفريقية البطريق (هرقل) وهو قائد ماهر من أصل أرمني، ونُدب لمعاونته في إدارة البلاد أخوه (جريجوريوس)، فبدءا يعملان معاً ليعيدا الأمور الى نصابها في إفريقية المضطربة، ولكن هرقل لم يكد يبدأ العمل حتى فوجىء سنة (٦٠٢ م) بثورة في القسطنطينية انتهت بقتل موريس وإقامة فوكاس إمبراطوراً.

ولم يستطع هرقل أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمع به من مظالم فوكاس، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وانشأ يعمل على الإنفصال عن الدولة، وكان أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك، أن حجز في قرطاجنة السفن التي تنقل القمح الى القسطنطينية كل عام، فلم يلبث الموتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة وتوجهوا بآمالهم نحوه، وانثالت عليه الرُجى تستحثه الى المبادرة بانقاذ الدولة مما صارت اليه.

بيد أن هرقل كان في الستين من عمره، وقد علت به السنّ عن أن ينهض بعمل كهذا فندب ابنه هرقل لانفاذه. فلم يجد هذا صعوبة في إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم ما يريد؛ فلما تمّ له ذلك أحبّ أن يعود الى إفريقية، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحوا عليه في قبول التاج حتى قبل، فاحتفل بتتويجه سنة (٦١٠ م).

وساد الهدوء النسبي في إفريقية خلال السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطي، لأن هرقل الكبير بعد أن أصبح ابنه امبراطوراً لم يعد يعنى بشؤون إفريقية كثيراً، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشيء من الحرية. وكان هرقل يعرف لأهل إفريقية يدهم التي أسدوها اليه والى ابنه، وفضلهم فيما صار اليه من ملك وسلطان، ولما كان من حسن عونهم

له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرّب منهم ؛ فركنوا الى الهدوء والسكون ، فكانت البلاد أهدأ حالاً وأكثر ازدهاراً في ذلك الحين منها في أي وقت آخر من العصر البيزنطي .

ط– ومات هرقل الكبير سنة (٦١٠ م) فخلفه أخوه جريجوريوس الذي كـ ، يساعده منذ زمن طويل في إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيراً ، إذ خلفه عليها بطريق اسمه (قيصريوس) (Caesarius) ، ثم أعقبه نقيتاس (Nicetas) ابن جريجوريوس وابن عم الإمبراطور الذي كان ساعده الأيمن في الهجوم على القسطنطينية . وخلف نقيتاس في ولاية إفريقية ابنه جريجوريوس ، وهو الذي يسميه المؤرخون العرب (جرجير) .

طبيعي أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل إفريقية من روم وبربر علاقات طيبة ، فقد طـال بهم العهد في حكم هذه البلاد . وكان الحكام الثلاثة الذين تولوا الأمر من هذه الأسرة ذوي خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الحظوة عند الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة .

وانتعشت إفريقية في أيام جريجوريوس بعض الإنتعاش ، بسبب الهدوء القصير الذي تمتعت به في ظل أبيه وجدّه ، لذلك فان غالبية مؤرخي شمال إفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد ساعة دخولهم كثيرة الزروع وافرة الثمرات .

ازدهرت البلاد إذن ازدهاراً طارئاً قصير الأجل في أواخر أيام الحكم البيزنطي ، لأن الهدوء الذي سادها في ظل آل جريجوريوس وركون البربر الى السلام – لحسن سياسة هذه الأسرة ، كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض النهوض ، وربما اقتصر الانتعاش الى الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى في سهل تونس وهضبة الأوراس .

ي– في ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة

وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً ، تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة الى درك عميق . وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١ م) يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه ، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد (قيرس) الذي ندبه هرقل هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر .

وتلقى الإفريقيون مذهب هرقل الجديد بالسخط ، وأصر أساقفتهم ورهبانهم على ألا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، واستعدوا للقاء أي شر يراد بهم في سبيل العقيدة . وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا الى بيزنطة في مسائل الدين ، فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به أنهم يبتعدون عن الدولة مرة أخرى .

ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل الى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة الى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجة ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الإضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم . وكان جريجوريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، فخيل للناس أن ما وَهيَ من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلاً ، إذ قتل قسطنطين في مايس (مايو) سنة (٦٤١ م) ، وكانت الإمبراطورة (مارتينه) التي قيل

إنها دبرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير مكانه ، كانت على مذهب هرقل ، فبدأت ترد الى الأرثوذكسية ما أسلفت من أذى الى مذهبها ، فتوترت العلاقات مرة أخرى بين جرجير (جريجوريوس) والدولة .

وحوالي سنة (٦٤٠ م) أقبل على إفريقية رجل من أشهر رجال الدين في القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد في مصير إفريقية السياسي والديني ، وهو الراهب : مكسيم . وأنشأ هذا الراهب يبث في رهبان إفريقية تعاليمه ، ليعدّ هؤلاء القساوسة السذج البسطاء الذين أضعفهم الإنقسام ، لكي يكافحوا ويثبتوا لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسطة في أمور الدين . وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمـــال أهل إفريقية للنجاة مما يراد بهم من مساءات ، فاشتد ساعده بولائهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الإمبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها .

ولقيت هذه الآراء هوى في نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الإستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكد رهبان إفريقية يرون أنهم في أمن من غدر الدولة بحماية جريجوريوس ، حتى اجتمعوا ووجهوا للامبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ما هو سائر فيه من ابتداع وإفساد في الدين .

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولاً لدى البابوية ، فلم تتردد في بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ؛ وكان مكسيم يميل للبابوية ويحببها إلى أتباعه ، فصار لها في افريقية مكان مرموق .

وهكذا أسلمت الدولة البيزنطية رعاياها الى البابوية من الناحية الدينية كما ستسلمهم للعرب المسلمين من الناحية السياسية .

وبذلك كانت الظروف كلها مواتية لجريجوريوس ليخرج على الدولة ، فلم يكد البابا تيودور يلمح منه هذا الميل حتى صارحه : « بأن الله يرضى

عن ثورته ويقدِّر له التوفيق فيها » ، وأهاب بالقسس ، فأحاطوا بجريجوريوس يستحثونه على المبادرة بإنفاذ هذا الأمر .

بيد أن طائفة أخرى من قساوسة إفريقية ، لم يكن يرضيهم هذا الإنفصال ، ويغلب على الظن ، أن مخاوف هذا الفريق لم يكن مرجعها الميل الى الكنيسة الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الفتح الاسلامي الذي كان قد أتى منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ ينذر إفريقية نفسها بمثل هذا المصير[1] .

كانت هذه هي حالة المسيحية في المغرب قبل ظهور الاسلام : مذاهب منشقة ، وجدل بيزنطي ، ومنافسة بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية ؛ وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، فوقف الأهلون موقف العدو من كل ما يتصل بهم من دين وحضارة[2] .

* * *

وبعد ..

كيف بدأ نور الاسلام يضيء دروب المغرب ؟ كيف أصبحت العربية لغة المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا هذا النور في العقول والقلوب معاً في أرجاء المغرب ؟ من هم الذين أدخلوا لغة القرآن في أنحاء المغرب ؟ كيف تغلغل الاسلام عقيدة والعربية لغة بين سكان المغرب ؟

من هم الذين شيدوا صروح الاسلام على أسس رصينة متينة ، وأشادوا لغة القرآن على دعائم قوية ثابتة في المغرب ، بحيث تكسرت على أسسها ودعائمها محاولات الصليبيين والاستعمار لتبديل عقيدة أهلها ولغتهم ، وبقي الاسلام والعربية سائدين عبر القرون ، وسيبقيان سائدين حتى يرث الله الأرض

---

(١) فتح العرب للمغرب (١١ - ٤٧) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠) .

ومن عليها .

من هم القادة الفاتحون الذين رفعوا رايات الإسلام عالية في المغرب ، ونشروا لغة القرآن في ربوعه ؟

ذلك ما ستقرأه في هذا الكتاب ، الذي يصدر والمغرب يرفل في استقلاله بعد تضحيات كثيرة بالأنفس والأموال من أجل الحفاظ على إسلام المغرب وعروبته ، وحسبنا أن نذكر باجلال وإكبار جهاد ليبيا ضد الإيطاليين ، وتونس والجزائر والمغرب ضد الفرنسيين ، وحسبنا أن نذكر ثورة الجزائر التي ضحت بمليون شهيد لتثبت أنها بلد إسلامي عربي ، لا قطعة من فرنسا .

ولست أشك أن العرب المسلمين ، وغير العرب المسلمين ، في المغرب وفي غيره ، سيقفون مبهورين أمام عظمة أولئك الفاتحين ، وسيقول كل عربي مسلم : « أولئك آبائي ، فجئني بمثلهم » ... وهيهات .

والحمد لله الذي يسّر لي التفرّغ لكتابة تاريخ قادة فتح المغرب ، وصلى الله على القائد الأول والرائد الأكبر ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

القادة العامون

١. عمرو بن العاص السهمي[1].
٢. عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري.
٣. معاوية بن حديج السكوني.
٤. عقبة بن نافع الفهري.
٥. أبو المهاجر دينار.
٦. زهير بن قيس البلوي.
٧. حسان بن النعمان الأزدي الغساني.
٨. موسى بن نصير اللخمي.

---

(١) انظر: قادة فتح الشام ومصر (١٢٣- ١٦٣).



عبدالله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري

فاتح إفريقية[1] (تونس)

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح [2] بن حُبَيِّب بن جَذِيمة[3] ابن حِسْل بن عامر بن لؤي القرشي العامري [4]؛ ويكنى : أبا يحي[5] .

واسم أبي سرح : الحسام[6] . وكان من المنافقين [7] الكفار [8] . وأمه أشعرية واسمها : مهابة بنت جابر [9] الأشعري ، أرضعت عثمان

(١) إفريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية ، وينتهي آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة الى الشرق والأندلس منحرفةعنها الى جهة الغرب وحد إفريقية من طرابلس الغرب الى بجاية ، وقيل الى مليانة . وقال آخر : حدها من برقة شرقاً الى طنجة غرباً وعرضها من البحر الى الرمال التي في أول بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (١٤٨) .

(٢) في الاستيعاب (٣/ ٩١٨) : ابن ابي السرح .

(٣) في الاستيعاب (٣/ ٩١٨) : ابن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، وفي أسد الغابة (٣/ ١٧٣) : ابن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي .

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٩٦) ، وانظر تهذيب الاسماء واللغات (١/ ٢٦٩) وجمهرة أنساب العرب ص (١٧٠) . وفي أسد الغابة (٣/ ١٧٣) : إنه كان من قريش الظواهر وليس من قريش البطاح .

(٥) الاصابة (٤/ ٧٦) وأسد الغابة (٣/ ١٧٣) والاستيعاب (٣/ ٩١٨). وتهذيب الاسماء واللغات (١/ ٢٦٩) والروض الآنف (٢/ ٢٧٤) ومعالم الايمان (١/ ١١٠) .

(٦) معالم الايمان (١/ ١١٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٧٩) .

(٧) المعارف ص (٣٠١) والاصابة (٤/ ٧٧) .

(٨) الاصابة (٤/ ٧٧) .

(٩) الاصابة (٤/ ٧٦ – ٧٧) .

ابن عفان ، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة[1] .

أسلم عبد الله قديماً[2] قبل فتح مكة المكرمة ، وهاجر الى المدينة المنورة ، فهو من السابقين الأولين[3] ، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم افتتن وخرج من المدينة الى مكة مرتداً[4] ؛ فنزلت فيه : (ومن قال : سأنزل مثلما أنزل الله ؟!)[5] .

ولما فتح المسلمون مكة المكرمة ، عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسلمين بقتل نفر من الكفار سمّاهُم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد، ففر ابن سعد الى أخيه بالرضاعة عثمان بن عفان، فغيّبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة ، فاستأمن له ، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : « نعم » ؛ فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : « لقد صَمَتُّ ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه » ، فقال رجل من الأنصار : « فهلا أومأت إليّ يا رسول الله » ؛ فقال : « إنّ النبي لا يقتل بالاشارة »[6] ؛ فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٩/١) ومعالم الايمان (١١٠/١) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤٩٧) والاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) والنجوم الزاهرة (٧٩/١) وسيرة ابن هشام (٢٨/٤) .

(٢) ذيل المذيل للطبري (٣٢) وطبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) .

(٣) شذرات الذهب (٤٤/١) .

(٤) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) وانظر أسد الغابة (١٧٣/٣) والاستيعاب (٩١٨/٣) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) ، وجاء فيها : نزل فيه قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) اقول : والآية الكريمة من سورة الاعراف (٧ : ٣٧) ولم أجد ما يؤيد نزولها في عبد الله بن سعد في تفسير ابن كثير والبغوي والزمخشري والبيضاوي . وانظر البيان المغرب في أخبار المغرب (٤/١) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٦٩/١) .

(٥) المعارف ص (٣٠٠) والآية الكريمة من سورة الانعام (٦ : ٩٣) . انظر تفسيرها في البغوي (٣٦٠/٣) والكشاف (٤٦١/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (٢٨/٤-٢٩) . وفي الاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) =

ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه[1].

لقد بايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الاسلام وقال: «الاسلام يَجُبّ ما قبله»[2]؛ ولكن عبد الله كان يفرّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أينما رآه خجلاً منه، فذكر ذلك عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «الاسلام يَجُبّ ما كان قبله»، فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلّم عليه[3].

أسلم عبد الله وحسن إسلامه وعُرف فضله وجهاده[4]، فأصبح وثيق الايمان كامل الشعور بجلال الاسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة.

جهـــاده:

١ - في مصر:

كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من (قَيْسَارِيّة)[5] الى أن فرغ من حربه[6]، فشهد فتح مصر وكان

= ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاب الأنصاري: «إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين». وانظر السيرة الحلبية (٣/٣٦٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٢). وفي البيان المغرب (١/٤): إن عبد الله بن سعد استجار بدار عثمان بن عفان، فأخذ له عثمان الأمان من النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) أسد الغابة (٣/١٧٣) والاستيعاب (٣/٩١٨) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) وجوامع السيرة ص (٢٣٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٧).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٤).

(٤) الروض الآنف (٢/٢٧٤).

(٥) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة طيبة البقعة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٩٥).

(٦) فتح مصر والمغرب ص (٨٥) وانظر رياض النفوس (١/٤٤).

صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحـــاته[1] وفي حروبه هناك كلهـــا[2]؛ وكان عمرو بن العاص يبعثه الى أطراف (إفْريْقيِّة) غازياً ويمدّه بالجنود فيعود من غزواتـــه ظافراً غانماً[3].

وتولى عبد الله (صَعِيد)[4] مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاّه (الصعيد)[5] فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره[6] وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجرية[7].

٢ - فتح افريقية

لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب، بعث المسلمين في جرائد الخيل، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا[8]، فكتب عبد الله الى عثمان ابن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين واستأذنه في غزوها[9].

---

(١) معالم الايمان (١/١١١) والروض الآنف (٢/٢٧٤) والإصابة (٤/٧٧) والنجوم الزاهرة (١/٨٣). وقد جاء ذكر الصحابة الذين شهدوا فتح مصر في: فتح مصر والمغرب ص (١٣٥) ومنهم عبدالله بن سعد.

(٢) الاستيعاب (٣/٩١٩) وأسد الغابة (٣/١٧٣).

(٣) ابن الاثير (٣/٣٣) والطبري (٣/٣١٠) وفي رياض النفوس (١/٤٤): انه دخلها سنة سبع وعشرين هجرية.

(٤) الصعيد: بلاد واسعة كبيرة فيها عدة من عظام المدن منها أسوان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٠) والمسالك والممالك ص (٤٠) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (٢١٣).

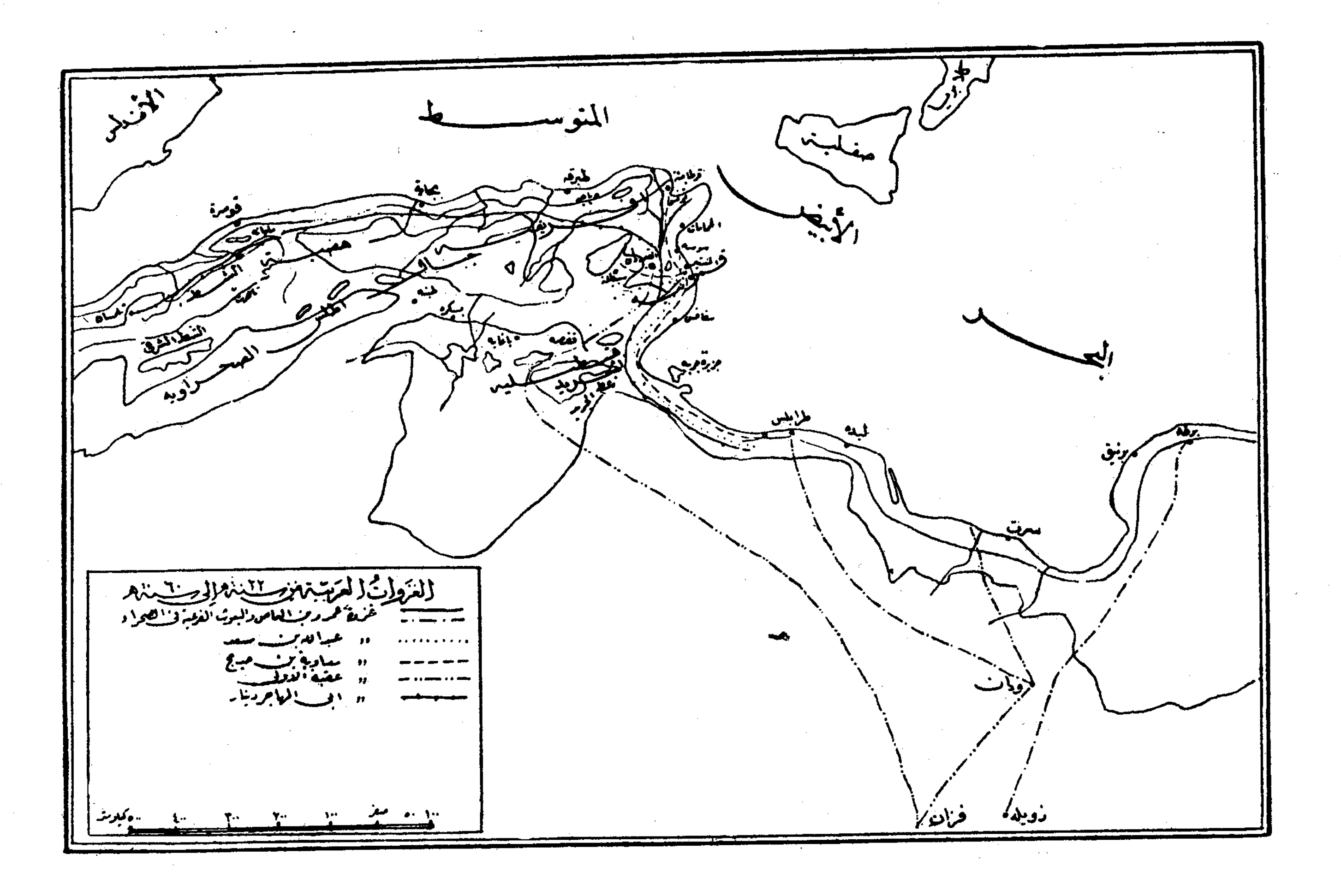
(٥) فتح مصر والمغرب ص (٢٣٣).

(٦) النجوم الزاهرة (١/٦٦).

(٧) النجوم الزاهرة (١/٧٩) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) وفتح مصر والمغرب ص (٢٣٥) والبلاذري ص (٢٢٤) وأسد الغابة (٣/١٧٣) والإصابة (٤/٧٧). وفي ابن الأثير (٣/٣٤) وابن خلدون (٢/١٢٨ ملحق) وابي الفدا (١/١٦٧): ان عبد الله تولى مصر سنة ست وعشرين هجرية.

(٨) البلاذري ص (٢٢٧) وفتح مصر والمغرب (٢٤٦).

(٩) فتح مصر والمغرب (٢٤٦) وابن الاثير (٣/٣٤).



الغزوات العربية من سنة ٢٢ هـ إلى سنة ٦٠ هـ
غزوة عمرو بن العاص والبعوث العربية في الصحراء
" عبد الله بن سعد
" معاوية بن حديج
" عقبة بن نافع
" أبي المهاجر دينار
١٠٠ ٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كيلومتر
البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
صقلية
سرت
طرابلس
لبدة
برقة
زويلة
فزان
ودان
جربة
قفصة
بجاية
قوصرة
طبرقة

واستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بالاقدام على غزو إفريقية ، فجهّز عثمان العساكر من المدينة وأمدّ عبد الله بجيش عظيم ، وخرج في هذه الغزاة ممن حول المدينة خلق كثير [1] ، كان فيهم : عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ، لذلك سمي هذا الجيش : جيش العبادلة [2].

وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً [3] سنة ست وعشرين هجرية [4] الى (إفريقية) ، فلما وصلوا الى (بَرْقَة) [5] لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين — وكان عقبة ومن معه حامية هناك ، فساروا جميعاً الى (طَرَابُلُس) [6] الغرب فنهبوا مَن عندها من الروم [7] .

وتقدم عبد الله بجيشه نحو (إفريقية) ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم (جرجير) [8] ملكه من (طرابلس) الى (طنجة) [9] ،

---

(١) البلاذري ص (٢٢٨) .

(٢) انظر ابن خلدون (٢/١٢٨) الملحق .

(٣) البلاذري ص (٢٤٧) .

(٤) ابن خلدون (٢/١٢٩) الملحق . وفي البلاذري ص (٢٢٨) : إن عثمان كتب الى عبد الله في سنة سبع وعشرين يأمره بغزو إفريقية .. انتهى . وفي معالم الايمان (١/١١١) : أن عثمان ولاه إفريقية سنة سبع وعشرين هجرية .

(٥) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣) والمسالك والممالك ص (٣٣) .

(٦) طرابلس الغرب : أو طرابلس المغرب ، مدينة من عمل إفريقية مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم ، خصبة واسعة الكورة حصينة جداً . انظر التفاصيل في المسالك والممالك ص (٣٣) ومعجم البلدان (٦/٣٤) .

(٧) ابن الأثير (٣/٣٤) وابن خلدون (٢/١٢٩) ملحق .

(٨) جرجير : هو جرجيريوس . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٩) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب ، وهو قاعدة لمنطقة دولية في الوقت=

وكان مستقر ملكه في مدينة يقال لها : (قَرْطَاجَنّـــة)[1] ، وكان (هرقل) قيصر الروم قد ولاّه إفريقية فهو يحمل اليه الخراج كل سنة .

والتقى المسلمون بجيش جرجير البالغ عدده مائة ألف وعشرين ألفاً بمكان يدعى : (عقوبة)[2] بينه وبين مدينـــة (سُبَيْطِلَة)[3] يوم وليلة ، فنشبت معركة حامية بين الطرفين هناك[4] .

وراسل عبد الله بن سعد ملك الروم جرجير يدعوه الى الاسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبّر عن قبول أحدهما .

واستأنف عبد الله القتال ، فاستمرّت الحرب أياماً حتى وصل للمسلمين مدد بقيادة عبد الله بن الزبير ، وحين سمع جرجير بوصول هذا المدد الى المسلمين فتّ ذلك في عضده .

ورأى عبد الله بن الزبير أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ، فاذا أذّن الظهر عاد كل فريق الى خيامه ، كما أنه افتقد في اليوم التالي عبد الله بن سعد في المعركة ، فسأل عنه فقيل : « إنه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي ! وهو يخاف ! » ، فحضر ابن الزبير عنده وأشار عليه بأن يأمر منادياً ينادي : « من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته ، واستعملته عـــلى

= الحاضر ، وكانت طنجة مرفأ للفينيقيين في القرن السادس قبل الميلاد. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٦٢) والمسالك والممالك ص (٣٤) .

(١) قرطاجنة : ويطلق عليها اسم قرطاجا ، وهي مدينة لا تزال آثارها باقية بالقرب من مدينة تونس، ويقال ان مدينة تونس قد بنيت من خرابها . والاسم مكون من جزءين : قرطا، بمعنى مدينة ، وأضيف اليها جنة لطيبها ونزهتها . وقد كانت قرطاجنة مقر امبراطورية جبارة قاومت الرومـــان وهاجمت روما في أيام هنيبال . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٢) .

(٢) عقوبة : موقع بينه وبين (سبيطلة) يوم وليلة . انظر البلاذري ص (٢٢٨) .

(٣) سبيطلة : مدينة من مدن إفريقية ، بينها وبين القيروان سبعون ميلا . انظر معجم البلدان (٤/٣٣) .

(٤) ابن الاثير (٣/٣٤) وابن خلدون (٢/١٢٩) ملحق

بلاده » ، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

وقال ابن الزبير لعبد الله بن سعد : « إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا ، فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرّة ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم » ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم ، فوافقوه على ذلك .

وفي اليوم التالي ، فعل ابن سعد ما اتّفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ، وحضر الباقون فقاتلوا الروم الى الظهر قتالاً شديداً ؛ فلما أذّن الظهر همّ الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم عبد الله بن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ؛ ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، وألقى كل من الطرفين سلاحه ، وكان قد بلغ التعب من الروم حداً بالغاً . وأخذ ابن الزبير مَنْ كان مستريحاً من شجعان المسلمين وهاجم بهم الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ؛ وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من أخذ سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، فقُتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية .

وحاصر ابن سعد (سُبَيْطِلَة) ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار .

وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبلغت (قَفْصَة)[1] ، فسبوا

---

(١) قفصة : بلد صغير في طرف إفريقية من ناحية المغرب ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) .

وغنموا ، كما سيّر جيشاً الى حصن (الأجم)[١] وقـد احتمى به أهل تلك البلاد ، فحصروه وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألـف دينار[٢] ؛ فأرسل عبد الله بن الزبير الى عثمان بالبشارة بفتح افريقية ، وعاد ابن سعد الى مصر بعد أن أمضى بافريقية سنة وثلاثة أشهر[٣] .

وفي رواية : أن عبد الله بثّ السرايا ففرّقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه ، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا الى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم ، فقبـل ذلك[٤] . ومعنى ذلك أن هؤلاء دفعوا هذا المبلغ ليكفّ المسلمون أيديهم عنهم وتتوقف الحرب ويسود السلام بين أهل إفريقية من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى . فاجتمع أهل إفريقية على الطاعة والاسلام وحسن إسلامهم[٥] ؛ وليس معـنى ذلك خروج المسلمين من إفريقية نهائياً كما توهم بعض المؤرخـين[٦] ، وأكبر دليل على ذلك إن إفريقية انتقضت فعاد عبدالله لحربها كماسيرد ذلك.

---

(١) الأجم : الأجم -العجم- الأعجام، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (Thysdera) وكانت مركزاً حربياً هاماً طوال العمر البيزنطي . انظر فتح العرب للمغرب ص (٨٣) .

(٢) وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطار من ذهب . انظر البلاذري ص (٢١٨) .

(٣) ابن الأثير (٣٤/٣ - ٣٥) وابن خلدون (١٢٩/٢ ملحق) . وانظر فتح مصر وإفريقية (٢٤٦ - ٢٤٩) والبلاذري (٢٢٧ - ٢٢٩) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١) ومعالم الايمان (١١١/١) والبيان المغرب (٤/١ - ٨) وفي النجوم الزاهرة (٧٩/١) : ان جيش عبد الله كان عشرة آلاف . وانظر البدء والتاريخ (١٩٩/٥) وأسد الغابة (١٧٣/٣) ومعجم البلدان (٣٠١/١)

(٤) البلاذري (٢٢٨) ومعجم البلدان (٣٠١/١) .

(٥) النجوم الزاهرة (٨٠/١) .

(٦) انظر : فتح العرب للمغرب ص (١٠٦) ، فقد ورد فيه : لم يوفق عبد الله بن سعد فيما قصد اليه من فتح إفريقية ، ولم تزد رحلته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً .. انتهى . واذا كان انتشار الاسلام فيها وخضوعها للمسلمين ليس أثراً كبيراً ، فما هو الأثر الكبير ؟؟!

لقد افتتح عبد الله بن سعد إفريقية سهلها وجبلها [1] ، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً [2] ، وأذلت تلك الواقعة الروم بافريقية وأصابهم رعب شديد [3] فاذا كان ذلك كل ليس فتحاً (مستداماً) بل (غارة) ، فكيف يكون الفتح ؟؟!

٣ . في قُبرُس [4] :

وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة ، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام الى فتح (قُبْرُس) وقال له : « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ! خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » ، فسار المسلمون من الشام الى (قبرس) ، وسار اليها عبدالله بن سعد من مصر ، فاجتمعوا عليها ؛ فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة [5] .

وبذلك فتح المسلمون (قبرس) وكان لعبدالله فضل كبير في فتحها .

٤ . في النُوْبَــة [6] :

بعث عمرو بن العاص عقبةَ بن نافع الفهري لفتح (النُوْبَة) ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً ، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام ، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحُدُق مفقودة .

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٧٩) .

(٢) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) .

(٣) البيان المغرب (١/٨) .

(٤) قبرس : جزيرة في بحر الروم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٦) .

(٥) ابن الأثير (٣/٣٦ - ٣٧) ، وانظر الطبري (٣/٣١٨) والاستقصا لدول المغرب الأقصى (١/٣٥) وابن خلدون (٢/١٣٠ - ١٣١ ملحق) وتاريخ أبي الفدا (١/١٦٧) .

(٦) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٣) .

ولم يصالحهم عمرو بن العاص ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد ، فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً ، فأصيبت يومئذٍ عيون كثير من المسلمين ، فقال الشاعر :

لم تر عيني مثل يوم (دُمْقُلَة)[1] والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فهادنهم الهدنة الباقية الى اليوم ؛ وصالحهم : على أنهم لا يغزونهم ولا يغزو النوبةُ المسلمين ، وأن النوبة يؤدون كل سنة الى المسلمين كمية من السبي ، وأن المسلمين يؤدون اليهم كمية من القمح والعدس في كل سنة مقابل السبي ، وعقد لأهل (مقرة)[2] بعد دخول جيش المسلمين (دنقلة) عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان الى حدودهم الجنوبية ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الاسلامية ، وقد اختلط العرب بالنوبة والبجة واعتنق كثير منهم الاسلام[3] .

٥ . في إفريقية ثانية :

وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، أعاد عبد الله الكرّة على إفريقية حين نقض أهلها العهدَ ، فانتصر عليهم وأعاد النظام الى ربوعهم ، وأقرّهم

---

(١) دمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .

(٢) مقرة : (Maqurra) : مدينة بالنوبة .

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٥٢ – ٢٥٣) وانظر البلاذري (٢٣٨ – ٢٣٩) وتهذيب الاسماء (٢٧٠/١) . وانظر نص العقد بين عبد الله بن سعد وبين اهل النوبة في المواعظ والاعتبار (١٩٩/١) طبعة بولاق ، وانظر الروض الآنف (٢٧٤/٢) ومعجم البلدان (٨٢/٤) حول هدنة عبد الله بن سعد الباقية الى الآن . وانظر الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) والاصابة(٧٧/٤) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) حول حدوث هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين هجرية. وفي جمل فتوح الاسلام – ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٤٥) : غزاهم عبد الله بن سعد فصالحهم على رقيق يؤدونه ، وبنى على باب مدينة ملكهم مسجداً وشرط عليهم حفظه أبداً ، ثم اسلمت البجة كلهم .

على الاسلام والجزية [1] .

لقد كان فتح إفريقية فتحاً (مستداماً) بدون شك ، ولم يكن (غارة) من الغارات .

٦ . في غزوة ذات الصّواري .

وفي سنة أربع وثلاثين هجرية [2] غزا عبد الله غزوة : ذات الصواري ، في البحر من ناحية الاسكندرية [3] ، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثـله مذ كان الاسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة [4] ، والمسلمون في مائتي مركب [5] .

وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف ، قام بين ظهراني الناس فقال : « بلغني أن ابن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب ، فأشيروا عليّ ! » ، فما كلّمه رجل من المسلمين .

وجلس عبد الله قليلاً لترجع الى سامعيه أفئدتهم ، ثم قام الثانية وكلّمهم ، فما كلّمه أحد . وجلس ثم قام الثالثة فقال : « إنه لم يبق شيء ، فأشيروا عليّ ! » ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوّعاً مع عبد الله بن سعد فقال : « أيها الأمير ! إن الله جلّ ثناءه يقول : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) [6]، فقال عبد الله : « اركبوا باسم الله » ، فركبوا ، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته ، إذ قد خرج النصف الآخر

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٨٠) وابن الاثير (٣/٥٢) .

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (١/٨٠) والاستيعاب (٣/٩١٩) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٢) .

(٣) النجوم الزاهرة (١/٨٠) .

(٤) الطبري (٣/٣٤٠) وابن الأثير (٣/٤٤) . وفي فتح مصر والمغرب (٢٥٥) والنجوم الزاهرة (١/٨٠) : أن عدد مراكب الروم كان ألف مركب .

(٥) فتح مصر والمغرب (٢٥٦) والنجوم الزاهرة (١/٨٠) .

(٦) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٤٩) .

الى البر للقتال في منطقة أخرى[1].

وقدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم؛ فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم! فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرءون القرآن ويصلّون.

وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا، فقرّبوا سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها الى بعض؛ وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر.

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى؛ وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد[2].

في هذه المعركة بالذات تعرّضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف، فقطعها[3] وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله في معركة (ذات الصواري)[4] بطولة فائقة، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام.

---

(١) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٦).

(٢) الطبري (٣/٣٤٠ - ٣٤١) وابن الاثير (٣/٤٤) وانظر ابن خلدون (٢/١٣٠ ملحق).

(٣) فتح مصر والمغرب ص (٢٥٧).

(٤) سميت هذه المعركة بذات الصواري، لكثرة صواري المراكب واجتماعها، انظر النجوم الزاهرة (١/٨٠).

الإنسان :

عاد عبد الله بن سعد الى مصر من غزوة (ذات الصواري) سنة خمس وثلاثين الهجرية ، فوافاه خبر من ثار على عثمان بن عفان. وخرج عبد الله من مصر متوجهاً الى عثمان[1] ، إذ استدعى عثمان عمّاله وجمعهم وشاورهم وقال لهم: «إن لكل امرىء وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي؛ وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبّون؛ فاجتهدوا رأيكم!»؛ فكان رأي عبد الله من بين المؤتمرين: «إن الناس أهل طمع، فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم»[2].

وقُتِلَ عثمان بن عفان واستخلف علي بن أبي طالب، فعزل عبد الله عن مصر وولاها لقيس بن سعد بن عبادة[3] ، فكان عزله عن مصر سنة ست وثلاثين الهجرية بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين[4] ، إذ لم يزل والياً بمصر حتى قتل عثمان بن عفّان[5].

وسار عبد الله الى (الرَّمْلَة)[6] أو الى (عَسْقَلان)[7] لما بلغه مقتل عثمان وحصول الفتنة واعتزل الفتنة[8] ولم يبايع لعلي ومعاوية[9] ،

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٨٠ – ٨١).

(٢) ابن الأثير (٣/٥٧) والطبري (٣/٣٧٣).

(٣) النجوم الزاهرة (١/٨١) ، وانظر ابن الأثير (٣/١٠٦) والبلاذري ص (٢٢٩).

(٤) النجوم الزاهرة (١/٨٢).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٧) والنجوم الزاهرة (١/٧٩).

(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٨٦).

(٧) عسقلان : مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غـزة وبيت جبرين. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٧٤).

(٨) معالم الايمان (١/١١٢) والروض الآنف (٢/٢٧٤) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٧٠) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٣).

(٩) النجوم الزاهرة (١/٨٣) ومعالم الايمان (١/١١٢) وأسد الغابة (٣/١٦٤).

فأقام بعسقلان، ودعا على نفسه قائلاً : « اللّهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح » ، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ ثم صلى الصبح ، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات ، والثانية بأم القرآن وسورة[1] ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليسلّم عن يساره ، فقبض الله روحه سنة ست وثلاثين هجرية[2] (٦٥٦ م) ، ودفن بموضع معروف يقال له : مقابر قريش بعسقلان[3] قبل اجتماع الناس على معاوية[4] .

ينبغي أن نجعل حداً فاصلاً بين عبد الله بن سعد في إسلامه الأول وعبد الله بن سعد في إسلامه الثاني ، لأن الوقائع تبيّن أنّ الرجل يختلف كثيراً في الدور الأول عنه في الدور الثاني . فعبد الله الأول فتى يافع لا يكاد يحسن فهم الأشياء ، فيستهين بثقة الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وتؤثر فيه دعايات قريش ، ويحجب عنه صغر السن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يلبث أن يفتتن[5] ويرتد الى الشرك ويلقي بنفسه في أحضان قريش ، ويقول في نزق : «كان يملي عليّ : عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم حكيم ، فيقول كل صواب»[6] ؛ فلا يبالي أن يفتري الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاراةً لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام . أما عبد الله الثاني ، فجندي باسل وقائد ممتاز وإداري حازم ،

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١) والنجوم الزاهرة (٨٣/١) .

(٢) معالم الايمان (١١٢/١) والروض الآنف (٢٧٤/٢) والنجوم الزاهرة (٨٣/١) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٧٠/١) ، وانظر شذرات الذهب (٤٤/١) والاستيعاب (٩٢٠/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) والاصابة (٧٧/٤) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) وابن الأثير (١١٤/٣) ورياض النفوس (٤٥/١) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤٣٤/٧) وانظر النجوم الزاهرة (٨٣/١) .

(٤) معالم الايمان (١١٢/١) .

(٥) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧) .

(٦) أسد الغابة (١٧٣/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٣/٧) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) ، والمعارف ص (٣٩٠) .

وهو فوق ذلك وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته[1] ، حسن إسلامه ولم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك[2] وحسن حاله[3] : يأمر بقراءة القرآن ويأمر بالصبر في المعارك[4] ، ويعتزل الفتنة الكبرى ورعاً ؛ وهو أحد العقلاء النجباء من قريش وفارس بني عامر بن لؤي والمقدم فيهم[5] . ولما ولي مصر أحسن السيرة في الرعية وكان جواداً كريماً[6] ، وكان محموداً في ولايته[7] ، له مواقف محمودة في الفتوح[8] ؛ وقد أخطأ بعض المؤرخين في الحكم عليه لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ، وهي ارتداده عن الإسلام ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله ومزاياه قائداً وإدارياً وانساناً .

والحق ، أن عبد الله بن سعد ، قد عانى كثيراً من نكران فضله في حياته وبعد موته على حد سواء ، وكان لتوليه مصر أثر كبير في بعث كوامن الحسد ضده في نفوس منافسيه وضد عثمان بن عفان أخيه بالرضاعة لأنه ولاّه مصر .

كان عبد الله على (صعيد) مصر ، فقدم عمرو بن العاص على عثمان وسأله عزل ابن أبي سرح عن (الصعيد) ، فامتنع عثمان عن ذلك وعزل عمرو ابن العاص عن مصر وعقد لعبد الله بن سعد على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره[9] ؛ إذ وفد عمرو الى عثمان بعد استخلافه وكلّمه في عزل عبد

---

(1) فتح العرب للمغرب ص (٧٨) .

(2) الاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) .

(3) جمهرة أنساب العرب ص (١٧٠) .

(4) الطبري (٣٤١/٣) .

(5) معالم الايمان (١١١/١) والاستيعاب (٩١٨/٣) وأسد الغابة (١٧٣/٣) وتهذيب ابن عساكر (٤٣٢/٧) ورياض النفوس (٤٤/١) .

(6) النجوم الزاهرة (٧٩/١) .

(7) الاصابة (٧٧/٤) .

(8) النجوم الزاهرة (٨٣/١) والاصابة (٧٧/٤) .

(9) النجوم الزاهرة (٦٦/١) .

الله عن (الصعيد) ، فقال عثمان : « ولاّه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ، وقد علمت أنه أخي في الرضاعة ، فكيف أعزله عما ولاّه غيري ؟! » ؛ فغضب عمرو وقال : « لست راجعاً الى عملي ذلك ! » ، فكتب عثمان الى عبد الله بن سعد يؤمّره على مصر كلها ، فجاءه الكتاب بـ (الفيّوم)[1] بتوليته خلفاً لعمرو بن العاص[2] .

وفي رواية أخرى ، أن عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد ، فاختلفا ؛ فكتب عبد الله الى عثمان : « إن عمراً كسر عليّ الخراج » ، وكتب عمرو الى عثمان : « إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب » ، فعزل عثمان عمراً واستقدمه واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها[3] ؛ وكتب اليه يعلمه أن الاسكندرية فتحت مرة عنوة وانتقضت مرتين ، ويأمره أن يلزموا رابطة لا تفارقها وأن يدرّ عليهم الأرزاق ويعقب بينهم في كل ستة أشهر[4] .

وفي رواية ثالثة ، أنّ الإسكندرية انتقضت فافتتحها عمرو بن العاص وقتل المقاتلة وسبى الذرية ، فأمر عثمان برد السبي الذين سُبوا من القرى الى مواضعهم للعهد الذي كان لهم ، ولم يصح عنده نقضهم ، وعزل عمرو ابن العاص وولى عبد الله مكانه على مصر[5] .

ومهما يكن من شيء ، فقد ثار الخلاف بين عمرو بن العاص وبين عبد الله بن سعد ، فأراد عثمان أن يحسم هذا الخلاف ويولي عبد الله مصر ويعزل

---

(١) الفيوم : ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤١٤) .

(٢) فتح مصر والمغرب ص (٢٣٣) ، وانظر النجوم الزاهرة (١/٧٩) .

(٣) الطبري (٣/٣١٤ – ٣١٥) وابن الأثير (٣/٣٣) وابن خلدون (٢/١٢٨) ملحق والبلاذري ص (٢٢٤) .

(٤) البلاذري ص (٢٢٤) وفتح مصر والمغرب ص (٢٥٨ – ٢٥٩) .

(٥) الاستيعاب (٣/٩١٩) وانظر البدء والتاريخ (٥/١٩٧ – ١٩٨) .

عنها عمراً ، لأن السيطرة على عبد الله أسهل بكثير من السيطرة على عمرو ، كما أن عبد الله له مزايا تؤهله لتسم هذا المنصب الرفيع ، بالاضافة إلى أنه أخو عثمان بالرضاعة ، وأنه مخلص غاية الاخلاص لعثمان : لا ينسى يده عليه حين استأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ينسى عثمان لعبد الله يده عليه حين أشار على عبد الرحمن بن عوف أن يبايع عثمان قائلاً : « إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان »[1] .

ولست أشك أن عبد الله كان كفوءاً كل الكفاية لمنصبه قائداً وإدارياً ، وأن من حق عثمان أن يولي الأكفاء الذين يثق باخلاصهم له ويستطيع السيطرة عليهم بيسر وسهولة ، ولكن عزل عثمان لعمرو بن العاص عن مصر ، جعل عمراً يطعن على عثمان وعلى عبد الله بن سعد ، ويؤلب على عثمان ويسعى في إفساد أمره ؛ فلما بلغه قتل عثمان ــ وكان معتزلاً بفلسطين قال : « إني إذا نكأت قرحة أدميتها »[2] .

ولم يحاول عمرو أن يكتم نقمته على عثمان وعامله على مصر عبد الله بن سعد حتى على عثمان نفسه ، فقد قال عثمان لعمرو : « «كيف تركت عبد الله بن سعد؟ » ، قال : «كما أحببت ! » ؛ فقال : « وما ذاك ؟! » ؛ فقال : « قوي في ذات نفسه ، ضعيف في ذات الله » ؛ فقال : « لقد أمرته أن يتبع أثرك » ، فقال : « لقد كلفته شططاً »[3] .

وجبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفي ألف ، وجباها عبد الله بن سعد أربعة آلاف ألف ، فقال عثمان لعمرو : « إن اللقاح بمصر درّت بعدك ألبانها » ، فقال : « ذاك لأنكم أعجفتم أولادها ! »[4] .

---

(١) ابن الاثير (٢٧/٣) .

(٢) الاستيعاب (٩١٩/٣) وأسد الغابة (١٧٤/٣) .

(٣) اليعقوبي (١٤٢/٢) .

(٤) البلاذري ص (٢١٧) .

ولم يكن عمرو بن العاص وحده ناقماً على عثمان وعلى عماله ومنهم عبد الله بن سعد ، بل كان كثير من الذين يطمعون بمنصب عبد الله بن سعد ينقمون عليه — حتى في أحرج الظروف والمواقف لم ينسوا هذه النقمة عليه ؛ فقد أقام عبد الله أياماً بذات الصواري ، فكان أول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة ، إذ أظهروا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر ، يقولان : « استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره ... ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر » ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال : « لا تركبا معنا » ، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين ؛ ولقوا العدو وكانا أنكل المسلمين قتالاً ، فقيل لهما في ذلك ، فقالا : « كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد؟ استعمله عثمان ، وعثمان فعل كذا وكذا » ، فأرسل اليهما عبد الله ينهاهما أشد النهي ، وقال : « والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين ، لعاقبتكما وحبستكما »[1] ؛ وفعلاً ثار محمد بن أبي حذيفة بن عتبة وسرّب المصريين الى عثمان فحصروه[2] مُنتهزاً فرصة استدعاء عبد الله الى المدينة المنورة لمواجهة عثمان ، كما شهد محمد بن أبي بكر قتل عثمان[3] ، فقال عبد الله بن سعد معلقاً على تآمر محمد بن أبي حذيفة : « أبعد الله محمد بن أبي حذيفة ! بغى على ابن عمه وسعى عليه ، وقد كان كفله وربّاه وأحسن إليه ، فأساء جواره ووثب على عماله ، وجهّز الرجال اليه حتى قتل ؛ ثم ولي عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، ولم يمتعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ، ولم يره بذلك أهلاً[4] » ، يقصد عدم إقراره من علي بن أبي طالب على مصر

---

(١) الطبري (٣/٣٤١ – ٣٤٢) وابن الأثير (٣/٤٥) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٣) .

(٣) ابن الاثير (٣/٦٩) والطبري (٣/٣٩٢) .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٣٣) .

بعد توليه الخلافة .

ولعلّ عبد الله بن سعد استأثر بقسط وافر من شغب عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً فأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويلقي بينهم الشر[1] ، واستقر بمصر في أيام عمرو بن العاص فحرّض الناس على الاستعفاء منه وسألوا تولية عبد الله بن سعد فأشركه عثمان مع عمرو وجعله على الخراج وولى عمراً على الحرب ولم يعزله ، ثم دخل بينهما حتى كتب كل واحد منهما الى عثمان بالذي بلغه عن صاحبه ، فلما عُزل عمرو عن مصر وجّه ابن سبأ همّه للشغب على عبد الله بن سعد[2] .

ولكن ، هل كان عبد الله وحده موضع نقمة منافسيه على الحكم ومنافسي عثمان بن عفان ونقمة ذوي الميول الهدّامة الذين كانوا يعملون بوحي عبد الله بن سبأ ؟ إن عثمان وعماله جميعاً كانوا موضع تلك النقمة ، فبعث عثمان رجالاً يثق بهم [3] الى الأمصار فرجعوا بأخبار عماله ولم ينكروا شيئاً على عماله ؛ فبعث الى عمال الأمصار ليقدموا عليه في موسم الحج : عبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ومعاوية بن أبي سفيان ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص[4] ، فقال : « ما هذه الشكاية والاذاعة ؟! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلا بي ! » ، فقالوا : « ألم تبعث ؟! ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟! والله ما صدقوا ولا برّوا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة » ، فقال عثمان : « أشيروا عليّ ! » ، فأبدى كل واحد منهم رأيه في كيفية معالجة هذا الشغب الظالم ، وكان رأي عبد الله : « خذ من الناس الذي

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٢٨) .

(٢) انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٧/٤٢٨ – ٤٣٠) .

(٣) هم : محمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر . انظر ابن الأثير (٣/٥٩) والطبري (٣/٣٧٩) .

(٤) الطبري (٣/٣٧٩ – ٣٨٠) وابن الأثير (٣/٦٠).

عليهم ، إذ أعطيتهم الذي لهم »[1]

تُرى ، هل كان عمال عثمان لا يستحقّون مناصبهم ؟! أم أن الشغب عليهم كان أمراً مصنوعاً يلقى في السر فيتحدّث به الناس ، كما قال سعيد ابن العاص لعثمان ؟

لقد كان ينقص عثمان بن عفان رضي الله عنه شيء غير قليل من شدّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيطرته ، لذلك تجرأ الناس عليه في أمور لم يكونوا يتجروؤن في أمثالها على عمر ، وما أصدق عثمان حين قال : « ألا فقد والله عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله[2] » ؛ فكان عبد الله من جملة ضحايا لين عثمان وسماحته .

فقد كان الناقمون على عبد الله يرددون قصة ارتداده عن الإسلام حين كان فتى يافعاً ، بينما عفا عن زلته هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « الإسلام يجُبّ ما قبله » ، فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

إن عبد الله لم يكن موضع ثقة عثمان فحسب ، بل كان موضع ثقة عمر ابن الخطاب أيضاً ، إذ ولاّه قيادة الميمنة في جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر[4] ، وولاه (الصعيد) بعد فتح مصر[5] ؛ وما أصعب أن يكون المرء موضع ثقة عمر فيوليه قيادة الرجال وإدارة البلاد .

لقد حسن إسلام عبد الله ، وكان أميراً محموداً[6] ، اختط بمصر داره اللاصقة بقصر الروم يقال لها : دار الحنيّة ، والدار التي يقال لها : دار

(١) ابن الأثير (٣/٦٠) والطبري (٣/٣٨٠) .
(٢) ابن الأثير (٣/٥٨) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٣/٤٣٣).
(٤) معالم الايمان (١/١١١) وانظر رياض النفوس (١/٤٤) .
(٥) النجوم الزاهرة (١/٧٩) .
(٦) فتح مصر والمغرب (١٥٤) .

الموز ، وبنى قصراً كبـيراً يعرف بقصر الجِنّ في أيـام عثمان ، وقد أمر ببنائه حين خرج الى المغرب لغزو إفريقية[1] . وحين عاد من إفريقية قال عبد الله للمقداد بن الأسود الكندي : «كيف ترى بنيان هذه الدار ؟ » ، فقال له المقداد : « إن كنت بنيتها من مالك فقد أسرفت ، وإن كنت بنيتها من مال الله فقد أفسدت » ، فقال عبد الله : « لولا أن يقول قائل : أفسد مرتين لهدمتها »[2]، وهذا دليل على أنه يتذكر إذا ذكّر ، وأن شعوره الديني مرهف لذلك يرضخ للحق ويعترف بالخطأ .

وقد نزل (السّبخة) التي في شرقي (القيْرَوَان) [3] ، ولذلك سمي المكان : باب عبد الله ، واختط هناك مسجداً يعرف به[4] .

وكان شاعراً ، قال في حصار عثمان[5] :

أرى الأمر لا يزداد إلا تفاقماً
وأنصـارنا بالمكّتين قليـل
وأسلمنا أهل المدينة ، والهوى
هوى أهل مصر ، والذليل ذليل

وله حديث واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم[6] :

إن عبد الله كان والياً قديراً وفاتحاً عظيماً ومؤمناً حقاً ، وكانت له مزايا إنسانية عالية وأعمال مشرفة ، وكل قول يخالف ذلك لا يستند على مصادر التاريخ الصحيح .

---

(١) فتح مصر والمغرب ص (١٥٥) .
(٢) فتح مصر والمغرب وتهذيب (١٥٥) ابن عساكر (٤٣٣/٧) .
(٣) القيروان: مدينة عظيمة بافريقية ، وهي مدينة مصرت بالاسلام في أيام معاوية بن ابي سفيان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧) .
(٤) معالم الايمان (١١١/١) ورياض النفوس (٤٤/١) .
(٥) الروض الآنف (٢٧٤/٢) وتهذيب ابن عساكر (٧ ٤٤٣) .
(٦) الاصابة (٧٧/٤) .

القائــد :

كان عبد الله فارس بني عامر بن لؤي [1] ، وقد أثبت شجاعة فائقة في معاركه ، خاصة في معركة (ذات الصّواري) ، وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة . وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها : ينجز تحشيد قواته ، ويكمل قضاياها الإدارية ، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصّلة ــ كل ذلك يساعده على وضع خطة مثلى تؤمّن له النصر المبين .

وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها ، ولا يأنف أبداً من الإنصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر ، بل كان يشجّع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبّقه فوراً ، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس .

والظاهر من سير معاركه التي خاضها ، أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال (غازياً) على أن يكون في القصور (والياً) . فقد شهد فتح أرض الشام ومصر وفتوحات عمرو بن العاص كافة قبل أن يتولى هو مصر ، فلما أصبح والياً عليها بعد عمرو بن العاص ، أمضى سنتي ست وعشرين وسبع وعشرين في فتح إفريقية ، وأمضى سنة ثمان وعشرين في فتح (قبرس) ، وأمضى سنة إحدى وثلاثين في النوبة ، وأمضى سنة ثلاث وثلاثين في استعادة فتح إفريقية ، وأمضى سنة أربع وثلاثين في (ذات الصّواري) ، فلما عاد سنة خمس وثلاثين من (ذات الصّواري) وافاه خبر من ثار على عثمان ، فقضى أيامه الباقية في سفره الى الحجاز وفي مكوثه هناك لمعاونة عثمان على معالجة موقفه المتأزم ؛ أي أن عبد الله قضى سبع سنوات من مدة حكمه مصر غازياً وقضى ثلاث سنوات فقط بين أهله ، ولا بد أن هذه السنوات الثلاثة قضاها هي الأخرى أو قضى أكثرها على أقل تقدير لإنجاز استعداداته

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٠) .

للقتال ، إذ أن الاستعدادات لخوض معركة ما لا تقل أهمية عن خطّة خوض المعركة ، وكل نقص في الاستعدادات يؤدي الى الفشل .

إن حرص عبد الله على قيادة رجاله بنفسه ، ورغبته في مشاركتهم بتحمل أعباء القتال، وقضاءه أكثر مدة حكمه بعيداً عن أهله وعن مأمنه غازياً ، كل ذلك يدل على أنه طراز نادر من القادة المُمتازين .

وكان قائداً (تعرضياً) يهتّم كثيراً بتطبيق مبدأ (المباغتة) أهم مبادىء الحرب .

لقد كان قائداً ممتازاً حرياً بمنصبه القيادي ، وأعماله الباهرة في الفتح أدلة واضحة على أنه من أبرز قادة الفتح الإسلامي قابلية ومقدرة وكفاية وتضحية .

لقد كان عبد الله قائداً ممتازاً .

عبدالله في التاريخ :

يذكر التاريخ لابن سعد فتحه بـلاد تونس الخضراء وشرقي الجزائر (إفريقية) وقبرس والنوبة ، ونشره الإسلام في ربوعها .

ويذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة (ذات الصّواري) .

ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل الشجاع ، القوي الأمين ، القائد الفاتح ، عبد الله بن سعد بن أبي سرْح العامري القرشي .

مُعَاوِيَة بن حُدَيج السَّكوني

فَاتح بنزرت[1] وَسُوسَة[2] وجلولاء[3]

نسبه وأيامه الأولى :

هو معاوية بن حُدَيْج[4] بن جَفْنَة بن قنبرة[5] بن حارثة بن عبد شمس ابن معاوية بن جعفر بن أسامة بن شعد بن أشْرَس بن شبيب بن السَّكُون السَّكُوني[6] ، يكنى : أبا نُعَيْم[7] ، وقيل : أبا عبد الرحمن[8] .

قيل : إنه خولاني وليس بشيء ، والصحيح إنه سكُوني . أما قولهم :

---

(١) بنزرت : مدينة بإفريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٩٢) وتقويم البلدان (١٤٢ – ١٤٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٥٩) .

(٢) سوسة : مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٤) .

(٣) جلولاء : مدينة مشهورة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٢٩) والمشترك وضعاً (١٠٦)، وهي الآن خراب يعرف مكانها بعين جلولاء، انظر الفتح العربي في ليبيا (٦٤) .

(٤) في أسد الغابة (٤/٣٨٣) : خديج .

(٥) في جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) : قتيرة ، وكذلك في تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٦) الاستيعاب (٣/١٤١٣) وأسد الغابة (٤/٣٨٣) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والإصابة (٦/١١١) .

(٧) جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والإصابة (٦/١١١) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) ومعالم الايمان (١/١١٣) .

(٨) الاستيعاب (٣/١٤١٤) والإصابة (٦/١١١) .

إنه سكوني ، وقيل : تُجيبي ، وقيل : كِنْدي ، فمن يرى هذا يظنّه متناقضاً ، ، والحقيقة : إن السَّكُون من كِنْدَة[1] ، وولد السكون شبيباً ، فولد شبيب أشْرَس ، فولد أشرس عدِياً وسعداً أمهما : تُجِيْب بهما يُعرف أولادهما ؛ فكل تجيبي سكوني ، وكل سكوني كندي[2] ؛ فمن نسبه الى جدّه الأقرب قال : سكوني ؛ ومن نسبه الى جدّه الأبعد قال : كندي ؛ وكلاهما صواب[3] .

وأمه هي كبشة بنت معدي كرب الشاعرة[4] .

صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه[5] ، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم[6] ، وهاجر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[7] ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه[8] .

والظاهر انه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يشهد غزواته . لذلك نال معاوية شرف الصحبة وما أعظمه من شرف ولَم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

---

(١) السكون بن أشرس بن ثور وهو كندة . انظر اسد الغابة (٤/٣٨٣) .

(٢) أسد الغابة (٤/٣٨٤) ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) .

(٣) معالم الايمان (١/١١٣) .

(٤) الاعلام (٨/١٧١) .

(٥) طبقات ابن سعد (٧/٥٠٣) ورياض النفوس (١/١٧) والخلاصة النقية (٤) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) والاستقصا (١/٦٨) . وفي تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) : إنه مختلف في صحبته. والأول أصح لتواتره .

(٦) الإصابة (٦/١١١) وانظر الخلاصة النقية ر ٤) ومعالم الايمان (١/١١٣) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٧) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٨) الاستقصا (١/٦٨) والإصابة (٦/١١١) .

جهـــاده :

١ – في مصر والنوبة :

أ – شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والاسكندرية[١] ؛ وقد ذكر معاوية ابن حديج قصة وفادته على عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية فقال : « بعثني عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأتني شاحباً عليّ ثياب السفر ، فأتتني وقالت : من أنت ؟ قلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص ... فانصرفت عني ثم أقبلت تشتدّ أسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني ، فقالت : قم فأجب ! أمير المؤمنين يدعوك ... فتبعتها ، فلما دخلتُ فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ويشدّ إزاره بالأخرى ، فقال : ما عنـــدك ؟ قلت : خـــير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية ... فخرج معي الى المسجد فقال للمؤذن : أذّن في الناس : الصلاة جامعة ... فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فاخبر أصحابك ، فقمت فأخبرتهم ؛ ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال : يا جارية ! هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل ! فأكلت على حياء . ثم قال : يا جارية ! هل من تمر ؟ فأتت بتمر في طبق ، فقال : كل ! فأكلت على حياء ؟ ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيتَ المسجد.؟.. فقلت : قلتُ أمير المؤمنين قائل[٢] ! فقال : لبئست ما قلتَ أو بئس ما

---

(١) الإصابة (٦/١١١) وفتح مصر والمغرب (١٣٧) والإستقصا (١/٦٨) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١/١١٣) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٢) القائلة : الظهيرة ، يقال : أتانا عند القائلة ، وقد يكون بمعنى (القيلولة) أيضاً وهي النوم في الظهيرة ، تقول : قال من باب باع وقيلولة أيضاً ومقيلا فهو : قائل ، وقوم قيْلٌ وقُيَّلٌ أيضاً بالتشديد . والقيل : شرب نصف النهار ، يقال : قيّله فتقيّل ، أي سقاه نصف النهار فشرب .

ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعنّ الرعية ، ولئن نمتُ الليل لأضيعنّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟! .[١]

إن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح ، دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية لامعة في جيش المسلمين الذي فتح مصر في جهاده وعقله ومنطقه وتصرّفه . كما أنه دليل على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب ، إذ لا يمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره .

ب ـ وفي سنة إحدى وثلاثين الهجرية شهد ابن حديج فتح (النُوبة)[٢] تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي سرْح ، فذهبت عينه يوم (دمقُلة)[٣] من بلاد النوبة[٤] ، فأصبح أعور[٥] .

٢ ـ في افريقية :

غزا ابن حديج إفريقية ثلاث مرات : الأولى سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفّان[٦] ، حين كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر ، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة واتّخذ قيرواناً عند (القرن)[٧] ، ولم يزل فيها حتى خرج الى مصر[٨] .

---

(١) فتح مصر والمغرب (١١٩ – ١٢٠) .
(٢) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر . أول بلادهم بعد أسوان . انظر معجم البلدان (٣٢٣/٨) .
(٣) دمقلة : مدينة كبيرة في بلاد النوبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٢/٤) .
(٤) فتح مصر والمغرب . وانظر معالم الايمان (١١٥/١) وتهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) .
(٥) معالم الايمان (١١٥/١) .
(٦) معالم الايمان (١١٣/١) ورياض النفوس (١٨/١) وانظر فتح مصر والمغرب (٢٦١) .
(٧) القرن : موضع مدينة القيروان . انظر كتاب فتح العرب للمغرب (١٢٠) .
(٨) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) .

وغزا معاوية إفريقية سنة إحدى وأربعين الهجرية[1] ، ففتح مدينة (بنزَرت) ، وكان معه عبد الملك بن مروان[2] .

ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي سرح ولمعاوية بن حديج ، أجبروا البربر في إفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا لأن ذلك ليس في طاقتهم ، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم ؛ فوقع القتال بين خليفة (جرجير) ملك إفريقية وبين القائد الرومي ، فهزم هذا القائد خليفة جرجير ففرّ الى الشام واتصل هناك بمعاوية ابن سفيان وزيّن له فتح إفريقية واصفاً له خيراتها وثراءها ، ودلّه على عورات الروم ؛ فبعث معاوية بن حديج لفتحها[3] فغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية[4] .

فقد وجّهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة الاف رجل[5] ، معهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبدالملك بن مروان[6] .

ومضى معاوية حتى وصل الى (إفريقية) وكانت تضطرم ناراً[7] ، فنزل بجيشه على (قمُونيَة)[8] وهي قيروان إفريقية[9] ، وكان عامل

---

(1) معالم الايمان (١/١١٤) . اما في فتوح مصر والمغرب (٢٦١) فيذكر انه غزاها سنة أربعين . والأول أصح لأن معاوية استقر ملكه سنة إحدى وأربعين هجرية .

(2) معجم البلدان (٢/٢٩٣) .

(3) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٢) .

(4) رياض النفوس (١/١٧) والبيان المغرب (١/١٧) والاستقصا (١/٦٩) والخلاصة النقية (٤) .

(5) الاستقصا (١/٦٩) والخلاصة النقية (٤) .

(6) رياض النفوس (١/١٧ – ١٨) .

(7) ابن الاثير (٣/٣٥) والبيان المغرب (١/١٧) وابن خلدون (٢/١٢٩ الملحق) .

(8) قمونية : مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٢) .

(9) رياض النفوس (١/١٨) .

(جرجير) وهو ملك (سُبَيْطلة)[1] على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجّههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب المسلمين عن إفريقية ، فلم تغن قوات الروم شيئاً ، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن (الأجم)[2] ، ثم بثّ السرايا في البلاد وبعث عبدالله بن الزبير الى (سُوْسَة) ففتحها[3] .

وبعث رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري بحراً الى (جَرْبَة)[4] ففتحها ثم عاد أدراجه الى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها[5] .

وبعث عبد الملك بن مروان الى (جَلُولاء) ففتحها[6] .

واستقر معاوية في جبل (القَرْن[7]) وجعله مقراً له ، فبقي هناك ثلاث سنين[8] ، فبنى بناحية القرن مساكن سمّاها : (قيروان)[9] ، واحتفر بها آباراً تسمى : آبار حديج ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق عند مصلى الجنائز[10] .

---

(١) سبيطلة : مدينة تبعد عن القيروان سبعون ميلا وعن قفصة مرحلة واحدة ، وكانت عاصمة افريقية في القديم . انظر تقويم البلدان (١٤٠) ومعجم البلدان (٣٣/٥) .

(٢) الأجم : الأجم – العجم – الأعجام، كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم (Thysderas) وكانت مركزاً حربياً هاماً طول حكمهم . أنظر فتح العرب للمغرب (٨٣) .

(٣) الاستقصا (٦٩/١) وانظر ابن الاثير (٣٥/٣) وابن خلدون (١٢٩/٢ – ١٣٠ الملحق) .

(٤) جربة : جزيرة في تونس قرب قابس كان يسكنها البربر . انظر معجم البلدان (٧٣/٣–٧٤) .

(٥) انظر ترجمة رويفع بن ثابت الأنصاري في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وانظر تاريخ المغرب الكبير (٢٢/٢) وفتح العرب للمغرب (١٢٦) ومعجم البلدان (٧٣/٣ – ٧٤) والاصابة (٢١٤/٢) والعبر (٥٤/١) وشذرات الذهب (٥٥/١) .

(٦) البيان المغرب (١٠) والاستقصا (٦٩/١) وابن خلدون (١٣٠/٢ الملحق) وسترد ترجمة عبد الملك بن مروان في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٧) القرن : جبل بافريقية . انظر معجم البلدان (٦٦/٧) ، وهو الجبل المعروف اليوم بجبل (وسلات) . انظر تاريخ المغرب الكبير (٢٥) .

(٨) معالم الايمان . (١١٤/١) .

(٩) رياض النفوس (١٩/١) والخلاصة النقية (٥)

(١٠) معالم الايمان (١١٣/١ – ١١٤) .

إنه غزا إفريقية مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين الهجرية[1]، ولكن المؤرخين اقتصروا على ذكر ثلاث غزوات منها، وهي أهمّ غزواته على ما يظهر.

وعاد معاوية بعد ذلك الى مصر بعد أن خلّد آثاراً حسنة في إفريقية[2]، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[3].

٣ - في البحر :

أ - كان معاوية أول من غزا جزيرة (صِقِلِيّة)[4]، إذ بعث اليها عبدالله بن قيس[5] فأصاب أصناماً من ذهب وفضّة مكللة بجوهر[6]، وقد وجّه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب[7]، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية[8].

---

(١) تهذيب التهذيب (٢٠٤/١٠) والاصابة (١١١/٦) .
(٢) الاستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقبة (٥) .
(٣) البلاذري (٢٣٧) .
(٤) صقلية : من جزائر البحر الأبيض المتوسط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٣/٥) .
(٥) ستَرد قصة حياته في كتاب قادة فتح الاندلس والبحار .
(٦) البيان المغرب (١٩/١) .
(٧) الا ستقصا (٦٩/١) والخلاصة النقية (٥) .
(٨) البيان المغرب (١٢/١) . وفي كتاب : فتح العرب للمغرب (١٢٥) : يذكر بعض المؤرخين غزوة بعثها معاوية في ذلك الحين الى صقلية ويجعلون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوصفوا هنا حملة معاوية بن حديج التي بعثه عليها معاوية سنة (٢٧) أو (٢٨) في خلافة عثمان ، فغزا رودس ثم صقلية ... انتهى .

اقول : إن البلاذري في (٢٣٧) يذكر : غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية ، وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك . ثم يذكر : سبى عبدالله بن قيس بن مخلد صقلية فأصاب أصنام ذهب انتهى . وما ذكرناه أعلاه يظهر أن ابن حديج لم يغز هو صقلية بل بعث عبدالله بن قيس إليها ، وأن هذه الغزوة كانت (غارة) ولم تكن (فتحا) . وقد ورد نص واضح حول ذلك في البيان المغرب (١٠) : أغزى معاوية جيشاً في البحر الى صقلية في مائتي مركب ، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا ... انتهى . كما أن غزوة معاوية سنة ٢٧ أو ٢٨هـ، كانت لجزيرة قبرس لا لصقلية أو رودس .

ب – وفي سنة تسع وأربعين الهجرية وجّه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر[1].

الإنسان :

كان معاويةَ صحابياً صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه[2] أربعة أحاديث[3] منها ما رواه : « سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[4]. وهاجر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[5] ووفد على عمر الفاروق رضي الله عنه بفتح الإسكندرية[6] ، وكان عثمانياً[7].

وكان معاوية بمصر حين غلب عليها محمد بن أبي حُذيفة بعد أن خرج عنها أميرها عبدالله بن سعد بن أبي سرح الى عثمان بن عفان[8].

وبقي معاوية موالياً لعثمان بن عفان لا يشارك المصريين الذين غادروا مصر الى المدينة لمحاصرة عثمان ، فاعتزل محمد بن أبي حذيفة وبارزه[9] وناصبه العداء السافر حرصاً على الوحدة وإطاعة للخليفة القائم ، وبقي معاوية صامداً على ولائه لعثمان لا يخشى ابن أبي حذيفة الثائر على الخليفة

---

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب (١/١٣) و(٢/١٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٥٠٣) وانظر البداية والنهاية (٨/٦١) ورياض النفوس (١/١٧) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣ – ٢٠٤) ودول الاسلام (١/٢٧) والإستقصا (١/٦٨) والخلاصة النقية (٤) ومعالم الايمان (١/١١٣) وجمهرة أنساب العرب (٤٢٩) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/١٠٢) .

(٣) اسماء الصحابة الرواة – ملحق بجوامع السيرة لابن حزم – (٢٩١) .

(٤) أسد الغابة (٤/٣٨٤) والاصابة (٦/١١١) ومعالم الإيمان (١/١١٥) .

(٥) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣) .

(٦) البداية والنهاية (٨/٦١) وانظر طبقات ابن سعد (٨/٥٠٣) .

(٧) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٤) والبيان المغرب (١/١٨) وطبقات ابن سعد (٧/٥٠٣) .

(٨) ابن الأثير (٣/٦٢) .

(٩) الولاة والقضاة (١٥) .

عثمان والذين شايعوه من أهل مصر[1].

وعاد عبدالله بن سعد أدراجه الى مصر ليحول دون الفتنة، ولكن محمد بن أبي حذيفة وأصحابه منعوه من دخولها، فعاد الى فلسطين وبقي هناك حتى قتل عثمان[2]، فسجن الثائرون معاوية في داره[3]، خوفاً من سطوته ورجولته.

وفي رواية، أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح بعث معاوية بن حديج الى المدينة لنجدة عثمان[4]، ولكن عثمان قتل قبل أن يدركه معاوية أو تدركه جيوش الأمصار[5]، فعاد معاوية من حيث أتى.

وبعث محمد بن أبي حذيفة الى معاوية وهو أرمد ليكرهه على البيعة، ولكن أحد أصدقائه[6] دفع عن معاوية ما كره، فبايع معاوية شيعةُ عثمان وعقدوا له عليهم، فكان أول من بايع على الطلب بدم عثمان؛ فسار برجاله الى (الصعيد) من أرض مصر[7].

ومضى معاوية حتى بلغ (بَرْقة) ثم رجع الى الإسكندرية[8]، واستقر به المطاف في (خَربِتا)[9] ومعه أصحابه وبعض رجالات العرب[10].

وتولى قيس بن سعد الأنصاري مصر لعلي بن أبي طالب، وكان صاحب راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، وكان من ذوي

---

(١) الولاة والقضاة (١٧).

(٢) ابن الأثير (٦٢/٣) والولاة والقضاة (١٧).

(٣) الولاة والقضاة (١٨).

(٤) الطبري (٣٨٨/٣) وابن الأثير (٦٢/٣).

(٥) ابن الأثير (٦٦/٣) والطبري (٤٠٢/٣).

(٦) هو كنانة بن بشر. انظر الولاة والقضاة (١٨).

(٧) الولاة والقضاة (١٨).

(٨) الولاة والقضاة (١٩).

(٩) خربتا: من كور مصر حوالي الاسكندرية. انظر معجم البلدان (٤١٤/٣).

(١٠) الولاة والقضاة (٢١).

الرأي والبأس[١] ، فبعث قيس الى أهل (خَرِبْتَا) : «إني لا أكرهكم على البيعة ، وإني كافٌ عنكم » ، فهادنهم وجبى الخراج ليس أحد ينازعه[٢] .

وكان قيس بن سعد من أثقل الناس على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام مخافة أن يُقبل اليه عليٌ في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع معاوية بينهما[٣]، كما كان قيس من ذوي الرأي الدهاة، فكان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جاهدين أن يخرجاه من مصر ، وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدرا أن يدخلا مصر حتّى كاد معاوية بن أبي سفيان قيساً من قِبَل علي بن أبي طالب ، فكان معاوية بن أبي سفيان يحدّث رجالاً من ذوي الرأي من قريش فيقول : «ما ابتدعتُ من مكايدة قط أعجب إليّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد . حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام : لا تسبّوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه ، فإن قيساً لنا شيعة : تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بـ (خربْتا) ، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمّن سِرْبهم[٤] ويحسن الى كل راتب[٥] يأتيه منهم ؟! قال معاوية : وطفقت أكتب بذلك الى شيعتي من أهل العراق ، فسمع بذلك جواسيس (عليٍّ) بالعراق ، فأنهاه الى محمد بن أبي بكر وعبدالله بن جعفر ، فاتّهم (عليٌّ) قيساً ، فبعث اليه يأمره بقتال أهل (خربتا) وبخربتا يومئذ عشرة آلاف ، فأبى

---

(١) ابن الأثير (٣/١٠٦) .

(٢) ابن الأثير (٣/١٠٧) والطبري (٣/٥٥١) .

(٣) الطبري (٣/٥٥١) .

(٤) سرب : السارب ، الذاهب على وجهه في الأرض ، ومنه قوله تعالى : (وسارب بالنهــار) أي ظاهر ، وبابه دخل . والسرب بالكسر : النفس ، يقال : فلان آمن سربه ، أي في نفسه ، وهو ايضاً القطيع من القطا والظباء والوحش والخيل والحمر والنساء . والسرب : بفتحتين ، بيت في الأرض . وانسرب الحيوان وتسرب ، دخل في بيته ، ومنه قوله تعالى : (فاتخذ سبيله في البحر سربا) .

(٥) راتب : دائم ، ثابت . وأمر راتب ، أي دائم ثابت .

قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وقد رضوا مني بأن أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم ، وهم أسود العرب منهم بُسر بن أبي أرطاة ومَسْلمة بن مُخلّد ومعاوية بن حديج ، فأبى عليه إلا قتالهم ، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى علي : إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري »[1] .

وعزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قيساً وولى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق مصر ، فلقي قيسٌ محمد بن أبي بكر فقال له فيما قال : « ..... دع معاوية بن حديج ومَسْلَمة بن مُخلّد وبُسْر بن أبي أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا فلا تطلبهم ... » ، فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، فكتب الى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته ، فلم يجيبوه ، فبعث رجالاً هدموا دور الخارجة ونهبوا أموالهم وسجنوا ذراريهم ، فبلغهم ذلك ، فنصبوا له الحرب وهمّوا بالنهوض إليه ، فلما علم أنه لا قوّة له بهم أمسك عنهم[2].

وبعد معركة (صفين) بين علي ومعاوية ، كتب معاوية الى مسلمة ابن مخلّد ومعاوية بن حديج يحثها على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة في سلطانه ، فلما وقفا على كتاب معاوية أجاب مسلمة بن مخلّد عن نفسه وعن ابن حديج : « أما بعد : فإن الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة

(١) الولاة والقضاة (٢١) وانظر الطبري (٣/٥٥١ — ٥٥٥) وابن الأثير (٣/١٠٧ — ١٠٨) حول مكايدة معاوية بن أبي سفيان لعلي بن أبي طالب لتشكيكه باخلاص قيس بن سعد بن عبادة له .

(٢) الولاة والقضاة (٢٧) .

على من سعى على إمامنا . وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك ، فتاالله أن ذلك أمر ماله نهضنا ولا إياه أردنا ، فعجل الينا بخيلك ورجلك ، فإن عدوّنا قد أصبحوا لنا هائبين ، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك ، والسلام » ، فأمر معاوية عمرو بن العاص أن يتجهز الى مصر ، وبعث معه ستة آلاف رجل [1].

وكان علي ومعاوية حين أجمعا على الحكَمين ، أغفل عليٌّ أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر [2] ، فسار عمرو بن العاص حتى نزل أداني أرض مصر ، فاجتمعت اليه العثمانية [3] ، وكان ابن حديج على الخارجة [4] من أهل مصر ، فأحاطوا بأصحاب محمد بن أبي بكر [5] واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم أهل مصر ، فدخل عمرو بأهل الشام الفُسطاط [6] .

وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر حتى قتله [7] ، فلما رأته نائلة امرأة عثمان قبّلت رجله وقالت : « أدركت ثأري من ابن الخثعميّة » تعني محمد بن أبي بكر [8] .

وفي سنة سبع وأربعين الهجرية ، ولاّه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد عبدالله بن عمرو بن العاص ، فمرّ به عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال له : « يا معاوية ! قد أخذت جزاءك من معاوية ؟؟ .. قد قتلت أخي محمد بن أبي بكر لتلي مصر ، فقد وليتها » ، فقال : « ما قتلت محمداً

---

(١) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٢) الولاة القضاة (٢٨) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٤) الولاة والقضاة (٢٩) .
(٥) ابن الأثير (٣/١٤٣) .
(٦) الولاة و القضاة (٢٨) .
(٧) البيان المغرب (١/١٨) وابن الأثير (٣/١٤٤) وأسد الغابة (٤/٣٨٤) والاستيعاب (٣/١٤١٤) .
(٨) الولاة والقضاة (٣٠) وكان محمد بن أبي بكر من قتلة عثمان .

إلا بما صنع بعثمان » ، فقال عبدالرحمن : « فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع ، حيث عمل عمرو (يقصد عمرو بن العاص) بالأشعري (يقصد أبا موسى الأشعري) ما عمل ، فوثبت أول الناس فبايعته[1] » .

وفي سنة خمسين الهجرية عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن إفريقية وأقرّه على ولاية مصر ، ووجّه الى إفريقية عقبة بن نافع الفهري[2] ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية[3] ، فمات بها سنة اثنتين وخمسين الهجرية[4] (٦٧٢ م) .

كان معاوية بن حديج من الثقاة[5] يُعدّ من أهل مصر وحديثه عندهم[6] ، وكان محله بمصر عظيماً[7] ، عاقلاً حازماً واسع العلم مقداماً[8] .

لقد اجتهد أن يكون بعيداً عن الفتن ، فقاوم أهل مصر الذين أرادوا سوءاً بعثمان ، فلما قُتل عثمان مظلوماً ، بقي معاوية مُصِراً على المطالبة بدمه ، فكان عثمانياً في أيام علي ببلاد مصر[9] .

---

(١) ابن الأثير (٣/١٨١) والبيان المغرب (١/٤٧) ، وفي البيان المغرب (١/١٨) : إنه تولى مصر لمعاوية سنة ثمان وأربعين الهجرية .

(٢) البيان المغرب (١/١٩) .

(٣) الخلاصة النقية (٤) .

(٤) الإصابة (٦/١١١) والبداية والنهاية (٨/٦١) وشذرات الذهب (١/٥٨) والعبر (١/٥٧) وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٤) ودول الاسلام (١/٢٧) وفي الإصابة (٦/١١١) إنه ولي مصر ليزيد بن معاوية وقد نقل ذلك الزركلي في الاعلام (٨/١٧١) ، وهذا خطأ ، لأن يزيد تولى الخلافة سنة ستين الهجرية . انظر البداية والنهاية (٨/١١٥) وابن الأثير (٤/٢) والعبر (١/٦٤) وشذرات الذهب (١/٦٥) .

(٥) البداية والنهاية (٨/٦١) .

(٦) اسد الغابة (٤/٣٨٤) والاستيعاب (٣/١٤١٤) .

(٧) اسد الغابة (٤/٣٨٤) .

(٨) الاعلام (٨/١٧١) .

(٩) البداية والنهاية (٨/٦١) .

وأرى أنه كان مخلصاً لعثمان الخليفة القائم ، وبقي مخلصاً له حتى بعد قتله ، ولم يكن في موقفه هذا طالباً دنيا ولا راجياً جزاء ، كما تدل على ذلك مواقفه التي ذكرناها .

لقد بنى مساكن بناحية (القرن) وسماها : قيروانا[1] ونشر الإسلام بين البربر[2] وحفر الآبار في محل القيروان[3] وخلّد آثاراً حسنة في مصر والمغرب[4] .

إنه كان إنساناً ممتازاً وإدارياً حازماً .

القائـــد :

كان معاوية من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبـــار .

وكان من ضباط ركن عمرو بن العاص في فتح مصر ومن ضباط ركن عبدالله بن سعد بن أبي سرح في فتح إفريقية والنوبة ، فلما تولى القيادة كان خبيراً بالمغرب عارفاً لشؤونه وطبيعة أرضه ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهّلت له فتح كثير من بلاد المغرب .

والذي يتتبّع قصّة جهاده بإمعان ، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد ، فكان يفضّل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغى على أن يكون والياً في باحـــات القصور .

لقد كان جندياً بالطبع ، وكان من أسود العرب[5] .

سألت عائشة أم المؤمنين يوماً بعض رجاله فقالت : «كيف كان

---

(١) رياض النفوس (١٩/١) .
(٢) الاستقصا (٦٨/١) .
(٣) الاستقصا (٦٨/١) والخلاصة النقية (٤) .
(٤) الخلاصة النقية (٤) .
(٥) الولاة والقضاة (٢١) .

أميركم في غزاتكم ؟ » تعني معاوية بن حديج ، فقالوا : « ما نقمنا عليه شيئاً » ، وأثنوا عليه خيراً ، وقالوا : « إن هلك بعير أخلف بعيراً ، وإن هلك فرس أخلف فرساً ، وإن أبق[1] خادم أخلف خادماً » ، فقالت : « استغفر الله ! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم من رفق بأمتي فارفق به ، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه[2] » ، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون ...

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ، ذا شخصية قوية نافذة ، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة ، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يعرف مبادىء الحرب ويطبقها ، ويعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، يثق برجاله ويثقون به ويبادلونه حباً بحب وتقديراً بتقدير ، له تجربة طويلة في الحرب وماض ناصع في الجهاد .

لقد كان معاوية قائداً ممتازاً .

معاوية في التاريخ :

قضى معاويةَ حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء .

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر ، ونشر لغة القرآن بينهم .

ويذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقية في تونس والجزائر والمغرب

ويذكر له أنه أول من أغزى (صِقليّة) ، فمهّد للعرب المسلمين فتحها بعد ذلك .

ويذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، أمير البحر وقائد البر معاوية بن حُدَيْج السَّكُوني .

---

(١) أبق : أبقاً وإباقاً ، هرب ، فهو آبق وأبوق .

(٢) أسد الغابة (٣٨٤/٤) والاستيعاب (١٤١٤/٣) .

عُقبة بن نافِع الفِهري القرشي

فاتح زَوِيلَة[1] وَغدامِس[2] وبَعض كور[3] السودان وفزان[4] وعامّة بلاد البَربَر[5] وباغاية[6] وَبلاد الزّاب[7] وطنجة[8] والسوس الأدنى[9] والسوس الأقصى[10] واختطّ القيروان[11]

« يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك »

(عقبة بن نافع)

نسبه وأهلــه :

هو عُقْبَة بن نافـع بن عبد القَيْس بن لَقِيْط بن عَامر بن أُميّة[12] ابن الضرب بن الحارث بن فِهْر القُرَشي[13] .

---

(١) زويلة : مدينة من مدن فزان القديمة ، تقع في الجنوب الشرقي من (مرزق) بنحو (١٥٠) ك.م. وتبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب الشرقي بنحو (٧٧٠) ك.م. ويعبر عنها المؤرخون بـ (زويلة السودان) إحترازاً عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس ، وكانت زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزان بدل مرزق . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٤) ومعجم البلدان (٤/٤١٨ - ٤١٩) وآثار البلاد (٩٤) والمشترك وضعاً (١٣٦) والمسالك والممالك (٣٤) .

(٢) غدامس : إسمها البربري القديم (سيداموس) ، وهي واحة من واحات طرابلس الغرب الصحراوية ذات شكل مستدير تقريباً ، وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد (٥٠٠) ك.م على جهة المسامته ؛ اما على الطريق الذي يمر بالعزيزية وبئر الغنم ، وتيجي ، ونالوت ثم يذهب الى سيناون ، فتبعد عنها حوالي (٦٥٨) ك.م. وهي من أقدم مراكز الحضارة في صحراء طرابلس . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٣) ومعجم البلدان (٦/٢٦٨) وتقويم البلدان (١٤٦) .

(٣) كورة : جمعها كور ، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى

أبوه : نافع بن عبد القيس الفِهري ، كان ممن نخس بزينب بنت رسول

من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها اسم الكورة كقولهم : كورة نهر الملك ..الخ انظر معجم البلدان (٣٦/١) .

(٤) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود (الهروج) ، ومن الجنوب جبال (التبو) وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين غدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول في الدرجة (١٨) . وطولها من الشرق الى الغرب (٩٠٠)ك.م. ومن الشمال الى الجنوب (٨٠٠)ك.م. وارتفاعها على سطح البحر نحو (٥٠٠) متر ، وفيها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الأماكن نحو (١٥٠) متراً تحت سطح البحر ، ومساحتها أكثر من (٣٠٠) ألف كيلو متر مربع . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٥) ومعجم البلدان (٣٧٤/٦–٣٧٥) .

(٥) بلاد البربر : تمتد من جبال المغرب من برقة الى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب الى بلاد السودان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٤/٢ – ١٠٦) .

(٦) باغاية : مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة ، وهي حصن بربري قديم ، وكان سكانها من البربر والروم . انظر معجم البلدان (٤١/٢) وتاريخ المغرب الكبير (٤٢).

(٧) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة . وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة ، والنهر متسلط عليها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٤/٤ – ٣٦٥) والمشترك وضعاً (٢٢٩ – ٢٣٠) . وفي تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم : ولاية قسنطينة .

(٨) طنجة : مدينة قديمة على البحر بينها وبين سبته مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٩) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية . وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الاطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(١٠) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يحتف بها طوائف من البربر . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩) ومعجم البلدان (١٧٢/٥) .

(١١) القيروان : مدينة كبيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ – ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ – ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

(١٢) الإصابة (٨١/٥) وأسد الغابة (٤٣٠/٣). وفي نسب قريش (٤٤٥) : إنه عقبة بن نافع

الله صلى الله عليه وسلم لما توَجّهت مهاجرة الى المدينة المنوّرة[١] فأفزعها ، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها بعد أيام [٢] ، وقد مات قبل فتح مكة مشركاً في رواية [٣] ، وفي رواية أخرى : أنه أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر ، وبعثه عمرو الى (بَرْقَة)[٤] ، وقد بقي الى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه [٥] .

وأمه : سبيّة من (عَنَزَة) اسمها : النابغة ، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه[٦] . وفي رواية : أنه ابن خالة عمرو بن العاص[٧] ؛ وفي رواية : أن عمرو بن العاص خاله[٨] ؛ وفي رواية : أنه ابن أخي العاص ابن وائل السهمي لأمه[٩] ؛ وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش .

ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة[١٠] (٦٢١ م) ، وفي رواية ، أنه ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة[١١] ، وهذه الرواية

ابن عبد قيس بن لقيط بن أمية .

(١٣) جمهرة أنساب العرب (١٧٦ – ١٧٧) ونسب قريش (٤٤٤) وانظر الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (١/٦٩) والبيان المغرب (١/١٩) .

(١) الإصابة (٥/٨١) وانظر سيرة ابن هشام (٢/٣٠٢) .

(٢) أنساب الأشراف (١/٣٩٧) .

(٣) الإصابة (٥/٨١) .

(٤) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها إنطابلس ، وتفسيره الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣) .

(٥) انظر التفاصيل في الإصابة (٦/٢٢٦) .

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٦٣) .

(٧) المغرب في حلى المغرب (١/١٩) – طبعة جامعة فؤاد الأول ، وأسد الغابة (٣/٤٢٠) والاستيعاب (٣/١٠٧٥) .

(٨) الاصابة (٥/٨١) .

(٩) سير اعلام النبلاء (٣/٣٤٩) .

(١٠) الخلاصة النقية (٥) .

(١١) البيان المغرب (١/١٣) وبغية الرواد (١/٧٦) .

لا صحّة لها ، لأن عقبة شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص واختط بها [١] ، وكان فتح مصر سنة عشرين الهجرية [٢] ، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح (زويلة) سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين الهجرية ، فليس من المعقول أن يشهد عقبة غمار الحرب وعمره عشر سنين وأن يتولى قيادة جيش وعمره إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة !

لقد نشأ عقبة في بيئة إسلامية خالصة ذات طابع عسكري بحت ، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد ، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع وتجرّد وإقــدام .

نشأ في بيئة إسلامية خالصة ، فقد ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصّح له صحبة [٣] ، ويقال ؛ له صحبة ولا يصلح [٤] ، وعلى كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة [٥] ، وقد تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانوا لا يؤمّرون في الفتوح غير الصحابة [٦] ، وكان عمر بن الخطاب لا يولي إلاّ الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي .

ونشأ في بيئة ذات طابع عسكري بحت : أهله من بني (فِهْر) لهم ماض مشرف في الحروب ولهم حاضر مشرف في الفتح ، وأقرباؤه وعلى رأسهم عمرو بن العاص هم أبرز قادة الفتح ، وقومه قريش هم قادة الفتح

---

(١) الإصابة (٥/٨١) وسير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) .
(٢) ابن الاثير (٢/٢١٨) .
(٣) الإصابة (٥/٨١) وأسد الغابة (٣/٢٤٠) وتجريد أسماء الصحابة (٢١٦ – ٣١٧) . والاستيعاب (٣/١٠٧٥) .
(٤) الاصابة (٥/٨١) .
(٥) الاستقصا (١/٦٩) .
(٦) الإصابة (٢/١٩٤) .

وأمراء الأمصار ؛ وكانت أيامه التي عاشها منذ أول شبابه أيام الفتح الإسلامي الذهبية وأيام الجهاد الخالدة.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع في تكوينه: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الاطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي.

جهـــاده:

١ ـ في مصر وليبيا والنُوْبَة:

أ ـ شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختلط بها كما أسلفنا، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية، وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك.

ب ـ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من العرب المسلمين الى (زَوِيْلَة)، فافتتحها صلحاً[١] وصار ما بين (برْقة) و (زويلة) سلماً للمسلمين[٢]، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية[٣]. وقد كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يعلمه: أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ (زويلة)، وأن مَنْ بين (زويلة) و (برقة) سلم كلهم حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقرَّ معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل (زويلة) ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخـــذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل الى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم[٤].

---

(١) ابن الاثير (٣/٨) والطبري (٣/٢٢٧) والبلاذري (٢٢٦).
(٢) المغرب في حلى المغرب (١/٤٥) والطبري (٣/٢٢٧).
(٣) ابن الاثير (٣/٨) والطبري (٣/٢٢٧).
(٤) البلاذري (٢٢٦).

جـ ـ وفي هذه السنة ، أي سنة إحدى وعشرين الهجرية ، بعثه عمرو الى (النُوْبَة)[1] ، فلقي المسلمون من (النوبة) قتالاً شديداً ، ثم انصرف المسلمون من (النوبة)[2] ، وبذلك كان عقبة أول من مهّد لفتح (النوبة) من المسلمين[3] .

د ـ لقد قدّر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر ، لذلك بعث عقبة الى (زويلة) وسار هو الى (ليبيا) وبعث عقبة الى (النوبة) ، وبذلك كان لعقبة فضل كبير على تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر .

هـ ـ وحين كان عمرو بن العاص على مصر ، كان عقبة على رأس المسلمين حامية ا (برقة) . وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين[4] وعقد عثمان لعبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر كلها مضافاً (للصَّعِيْد)[5] وغيره[6] ، فأقر ابن أبي سرح عقبة على منصبه قائداً لحامية (برقة) .

و ـ وسار عبدالله بن سعد بن أبي سرح بجيشه البالغ تعداده عشرين

---

(١) النوبة : بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، أول بلادهم بعد أسوان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٣) .

(٢) اليعقوبي (٢/١٣٤) .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن غزو زويلة والنوبة شيء واحد وغزوة واحدة لمكان واحد ! وأرى أن هاتين الغزوتين اللتين حدثتا في سنة واحدة هما غزوتان منفصلتان : الأولى انتهت صلحاً والثانية انتهت بقتال شديد .

(٤) النجوم الزاهرة (١/٧٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٧٠) والولاة والقضاة (١١). وفي العبر (١/٢٩) : انه عزل سنة سبع وعشرين الهجرية .

(٥) الصعيد : بلاد واسعة كبيرة فيها مدن عظام منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ثم قوص وقفط وأخميم والبهنسا وغير ذلك . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٠) .

(٦) النجوم الزاهرة (١/٦٦) .

ألفاً[1] سنة ست وعشرين الهجرية[2] ، فلما وصلوا الى (برقة) لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك ، فساروا جميعاً الى (طَرَابُلُس) الغرب فنهبوا من عندها من الروم[3] .

وشهد عقبة فتوحات ابن أبي سرح في إفريقية ، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي سرح أعظم البلاء .

ز ــ لقد كان عقبة على رأس حامية (برقة) ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا ، وقد حافظ على تلك المنطقة حتّى في أخطر الظروف والأحوال .

كما أنه حمى منطقة (برقة) من الروم ، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها الى فتح (إفريقية) ؛ لذلك كان عقبة ذا فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية .

٢ ــ في البحر :

أ ــ بقي عقبة في (برقة) بعد ابن أبي سرح أيضاً في أيام معاوية بن حُدَيج السكوني ، وفي سنة تسع وثلاثين الهجرية غزا عقبة الروم في البحر بأهل مصر[4] .

ب ــ وفي سنة تسع وأربعين الهجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني ، غزا عقبة الروم في البحر ، فشتا هناك بأهل مصر[5] .

---

(١) البلاذري (٢٤٧) .

(٢) ابن خلدون (٢/١٢٩ الملحق) .

(٣) ابن الاثير (٣/٣٤) وابن خلدون (٢/١٢٩ الملحق) .

(٤) الطبري (٤/١٧٣) وابن الأثير (٣/١٨١) .

(٥) البيان المغرب (١/١٣) وابن الأثير (٣.١٨١) .

٣ ـ من ليبيا الى القيروان :

أ. الفتح :

بقي عقبة في (برقة) بعد عثمان بن عفان وفي أيام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية ، استعمل عمرو ابن العاص عقبة على (إفريقية)[١] ، فانتهى الى (لُواتَه)[٢] ، وكانوا قد صولحوا فكانوا على صلحهم حتّى نقضوا زمن معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبة فتنحوا ناحية (أطْرابُلُس) ، فقاتلهم عقبة حتّى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : « إنه ليس لمشرك عهد عندنا . إن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه : (كيف يكون للمشركين عهد؟)، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذامتي ، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم[٣] » . وعقد عمرو لعقبة على (هَوّارَة) [٤] فأطاعوا هم و (لواته) ثمّ كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبى[٥] . وفي سنة

---

(١) كانت مصر وإفريقية ولاية واحدة في أيام ولاية عمرو بن العاص أيام معاوية بن أبي سفيان .

(٢) لواته : من أشهر قبائل البربر ، كانت زمن الفتح العربي الإسلامي تسكن برقة ، وهي من أكبر بطون البربر البتر ، ينسبون الى (لو) الأصغر بن (لو) الأكبر ، و (لو) الأصغرهو (نفزاو) ، والبربر إذا أرادوا الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا : « لوات » ، فلما عربته العرب حملوه على الافراد ، وألحقوا به الهاء . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ - ١٢) ، وانظر الولاة والقضاة (٣٢) . وفي جمهرة أنساب العرب (٤٩٨) ، وردت : (لواته) بفتح اللام . وأن (لواته) من القبط ، ولا صحة لذلك بل هم من البربر .

(٣) الولاة والقضاة (٣٢) .

(٤) هوارة : وردت في ابن الأثير (٣/١٦٧): (مَزّاتة) ، وفي ابن خلدون (٣/١٠) : (مرانة) ، ووردت في : الولاة والقضاة (٣٢) وفي تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٦) : (هوارة) ، وهي أشهر قبائل البربر ، وهي بطن من (البرانس) تنسب الى (هوار بن أوريغ بن برنس) جد البرانس. ومن بطون هوارة : غريان وورفل ومسراته وسلاته ومجريس. وسلاته وغريان ومجريس أبناء هوار . وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس الى ما يقارب سرت والى قصر ميمون من ناحية الجنوب . وكانت هوارة ظواعن وأهلين ، ومنهم من رحل الى بلاد السودان ، وما زالوا يقال لهم : (هكار) قلبت العجمة واوها كافاً أعجمية . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١ - ١٢) .

(٥) في الولاة القضاة (٣٣) : أن ذلك جرى سنة ثلاث وأربعين الهجرية .

اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة (غَدَامِس) وقتل وسبى . وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية افتتح كوراً من كور السودان[1] . وافتتح (ودّان)[2] ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ست وأربعين الهجرية[3] ، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتّى نزل بـ (مغداش)[4] من (سُرْت)[5] ، وكانت (ودّان) نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بُسر بن أبي أرطاة سنة ثلاث وعشرين الهجرية ، فترك عقبة جيشه بـ (مغداش) في أرض (سُرْت) ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، وسار إليها في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء: على كل جمل قربتان لحمل الماء ، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ، وقبض على ملكهم فجدع أذنه ،

---

(١) ابن الأثير (٣/١٩٧) وابن خلدون (٣/١٠) والعبر (١/٥١) وشذرات الذهب (١/٥٣) .

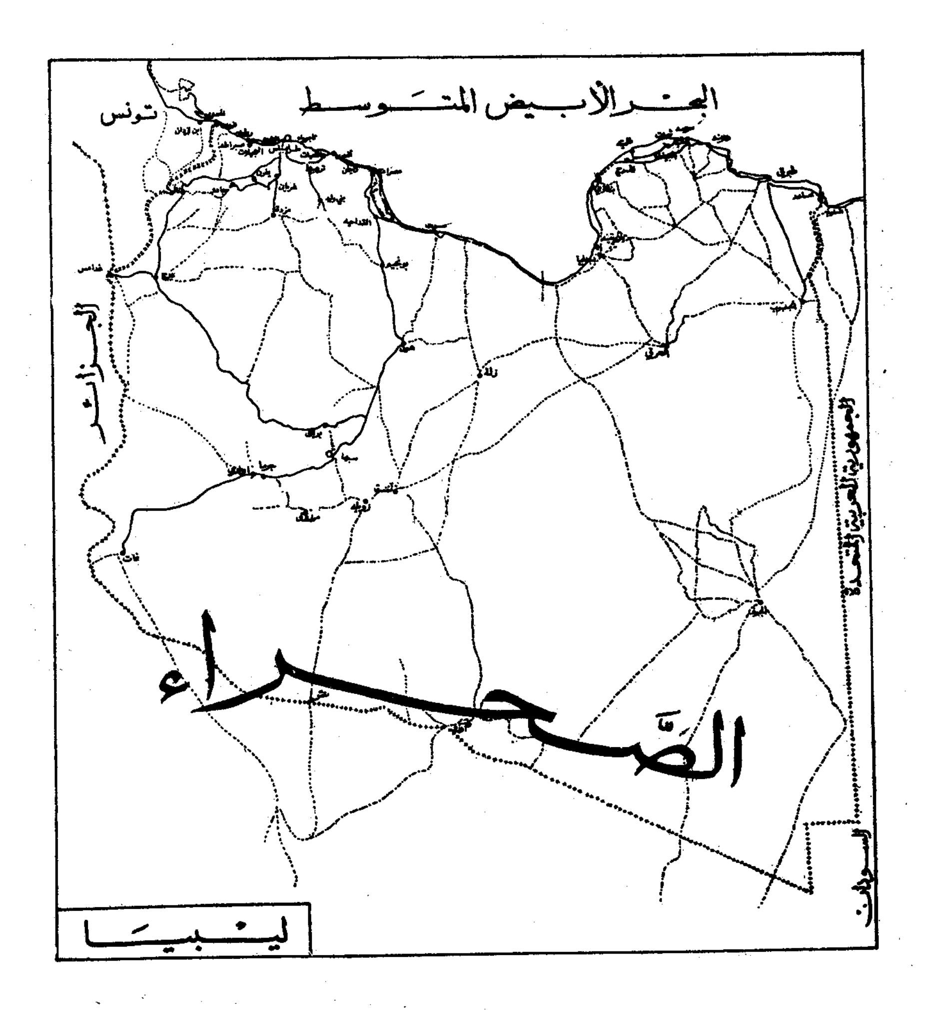
(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ، ويتبعها : زلة وهون وسوكنة وما جاورها ، ويطلق على الكل : بلاد ودان ، وكانت ودان زمن الفتح الاسلامي هي العاصمة ، وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٧٦٩) كلم ، والى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠) كلم ، انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧) ، وانظر معجم البلدان (٨/٤٠٥) والمشترك وضعاً (٤٣٥) .

(٣) معجم البلدان (٨/٤٠٥) .

(٤) مغداش : بلد قريب من (سرت) في طرابلس الغرب بليبيا . انظر هامش : فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) .

(٥) سرت : مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن ، وهذا الخليج يمتد من مدينة مصراته ، الى الجنوب حتّى بويرات الحسون ، ثم يتجه شرقاً الى العقيلة على مسافة (٥٨٥) كلم ، من مصراته ، ثم يتقوّس الى الشمال حتّى مدينة بنغازي مسافة (٢٨٥) كلم ، ومدينة بنغازي ، في الشرق تقابلها مدينة مصراته في الغرب ، ويقع خليج سرت جنوبي الخط الوهمي الذي يصل بين المدينتين .

وسرت تبعد عن البحر الى الجنوب بنحو أربعة كيلومترات ، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٤٥٥) كلم ، وكانت محاطة بسور من التراب ، وهي غير سرت المعروفة الآن ، لأن سرت الحديثة انشئت في العهد العثماني سنة ١٣٠٣ هـ . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦) وانظر معجم البلدان (٥/٦٢).


البحر الأبيض المتوسط
تونس
الجزائر
الجمهورية العربية المتحدة
السودان
الصحراء
ليبيا

فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » ، فقال عقبة : « فعلت هذا بك أدباً لك . إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب ! » ، واستخرج منهم ما كان بُسر بن أبي أرطاة فرضه عليهم سنة ثلاث وعشرين الهجرية : ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد .

ولما استتبّ الأمر لعقبة في بلاد (ودّان) ، سأل عقبة أهلها : « هل من ورائكم من أحد ؟ » ، فقيل له : (جَرْمَة)[1] ، فسار إليها ثماني ليال من (ودّان) ، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ؛ فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغِبَ[2] ، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم ، فقال له : «لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟! » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا ذكرته لم تحارب العرب » ؛ وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً .

ومضى عقبة من فوره لإنجاز فتح بلاد (فزّان) حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام في ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزّان فاتحين[3] .

وسأل عقبة أهل (فزّان) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقالوا : « أهل (خاوَر)[4] ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر

---

(1) جرمة : اسم قصبة بناحية فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٨٩) وهي عاصمة بلاد فزان في أيام الفتح الاسلامي . وسميت جرمة باسم أمة : الجرمنت ، وهي أمة قديمة كانت تسكن فزان . انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(2) اللغوب : التعب والاعياء .

(3) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ - ٢٦٣) وانظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩) .

(4) خاور : أكبر مدينة في كورة كاوار ، وهي قصبة كاوار . وتقع في جنوبي فزان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٩٤) .

جبل ، وهو قصبة (كاوّار)[1] » ؛ فسار اليه خمس عشرة ليلة ، فلما وصل اليه دعا أهله الى الإسلام فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم ، فحاربهم وأقام على حصارهم شهراً دون جدوى . وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد (كاوّار) ، ففتحها حتّى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » ، فقال عقبة : « أدباً لك ! إذا أنت نظرت الى إصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً[2] .

وكان في نيّة عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل (كاوار) : « هل من ورائكم أحد ؟ » ، فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » ؛ فانصرف عقبة راجعاً ، فمرّ بقصر (خاور) ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ؛ ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم . وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم (ماء فَرَس) ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرس يمصّ ذلك الماء . وأبصره عقبة فنادى في الناس : « أن احتفروا » ، فحفروا سبعين حِسْياً[3] وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك : (ماء فَرَس) .

ورجع عقبة إلى (خاور) من غير طريقه التي كان أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم ؛ فاستباح ما في المدينة من ذرّياتهم وأموالهم ، وقتل مقاتلتهم .

لقد كانت عودة عقبة المفاجئة بجيشه الى (خاور) حركة بارعة جداً ،

---

(1) كاوار : ناحية واسعة في جنوبي فزان بها مدن كثيرة ومياه جارية ونخل كثير . انظر معجم البلدان (٧/٢١٠) .

(2) فتوح مصر والمغرب (٢٦٣) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩ - ٧٠) .

(3) الحسى : الحفرة القريبة العمق .

طبّق بها عقبة مبدأ (المباغتة) بالزمان ، فأطبق على (خاور) في وقت لم يتوقعه أهلها .

وانصرف عقبة بعد فتح (خاور) حتى نزل بموضع (زويلة) اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمّت خيولهم وظهورهم .

لقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة ، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلّة المياه فيها ، ولأنه قدّر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو ، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان ، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفّر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى ، فليس أمام عقبة غير قوات سكّان الصحراء الاصليين ، وهؤلاء قليلون يمكن التغلّب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ...

ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة ، وفعلاً أنجز واجبه وحقّق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر .

وسار عقبة بجيشه الى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم[1] وأخذ الى أرض (هوارة)[2] ، فافتتح كلّ قصر بها[3] . ومضى الى (صِفْر)[4] ، فافتتح قلاعها وقصورها . ثم بعث خيلاً الى (غدامِس) فاستعاد فتحها

---

(١) يقصد بالطريق الاعظم : الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٢) هوارة : وردت في فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) : مزاته ، والصحيح ما ذكرناه ، وهوارة قبيلة بربرية .

(٣) من تلك القصور ، قصر ميمون من ناحية الجنوب : جنوبي طرابلس الغرب — سرت .

(٤) صفر : وردت كذا في فتوح مصر والمغرب (٢٦٤)، واسمها الحالي : صفرو ، وهي مدينة في شمال المغرب ، في قلب جبال أطلس الوسطى .

ثانية ، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول ، فاضطر عقبة الى فتحها ثانية . وتوجّه الى (قَفَصَة)[1] فافتتحها ، ثم افتتح (قَسْطِيلِيَة)[2] ثم انصرف الى (القَيْروان)[3] .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلّ المقاومات المعادية بين (برقـة) و (القيروان) ، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين ، حَرِيَّة أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوّات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

ب . القاعدة الأمينة (القيروان) :

وصل عقبة الى (القيروان) الذي كان في مدينة (قَمُونِيَة)[4] والذي كان معاوية بن حُديج قد بناه من قبل ، فلم يعجب به[5] ، فقد كان مكان (القيروان) وهو ناحية في الوسط الشرقي لإفريقية ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية ، وكان (القيروان) منه بجانب سبخة . لقد كان العرب منذ أيام عبدالله بن سعد بن أبي سرح يؤثرون (قمونية) لنزولهم ، لأنها بسيط من الأرض ، كثير

---

(١) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان. انظر فتوح مصر والمغرب (٢٦٤)، وهي بلدة صغيرة في طرف إفريقية (تونس) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٢) قسطيلية : إحدى بلاد الزاب الكبير بالمغرب، تقع في أقصى بلاد المغرب على حدود الصحراء. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٨/٧) وفتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) .

(٤) قمونية : مدينة بافريقية كانت موضع القيروان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٢/٧) والقيروان معرب : كاراوان الفارسية ، وتكلمت به العرب قديماً ، والنسبة اليه : قيرواني وقيروي ، ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب ، ويظهر أنه أطلق على المكان لنزول الجيش فيه أو القافلة . انظر كتاب : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧١) .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٤) وأسد الغابة (٤٢٠/٣ - ٤٢١) والاستيعاب (١٠٧٦/٣) .

المراعي ، جيد الهواء ، خصب التربة ، كثير المياه[1] ، ولكن مكان (قمونية) ليس صالحاً — من الناحية العسكرية — ليكون قاعدة أمينة لقوّات المسلمين ، لأن بعض غير المسلمين يسكنون (قمونية) مع المسلمين ، وقد يكون بعض هؤلاء رتلاً خامساً[2] على المسلمين ، وما أخطر ذلك على المسلمين وهم في جهاد دائب لفتح إفريقية ونشر الإسلام في ربوعها .

والقيروان معناه : مدينة أو معسكر أو مسلحة[3] ، ولفظ قيروان فارسي معرّب أصله : كروان أو كربان ، ومعناه قافلة ، أو مراح القوافل ، ويفهم من لسن العرب أنه كان مستعملاً حتى في الجاهلية بهذا المعنى ، إذ روى أن امرىء القيس قال في وصف غارة له :

وغـــارة ذات قيروان   كأن أسرابهـــا الرعال[4]

ومن معاني القيروان : معظم العسكر ، والقافلة من الجماعة ، وموضع اجتماع الناس والجيش ، ومحط أثقال الجيش ، وقيل : هي الجيش نفسه .

وليس هناك ما يؤيد القول : بأن القيروان ، كان علماً على مدينة قديمة بإفريقية ، اختطت القيروان مكانها ، فلم يبق إلا القول بأن عقبة وأصحابه أرادوا به محطاً لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم[5] .

قال عقبة لرجاله : « إن إفريقية إذا دخلها إمامٌ أجابوه للإسلام ، فاذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر ؛ فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام الى آخر الدهر » ، فاتّفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتمّ لهم الجهاد والرباط . وقال لعقبة بعض أصحابه : « قرِّبها من البحر ليكون

---

(1) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٨) .

(2) الرتل الخامس : ما يطلق عليه في مصر : الطابور الخامس ، وهم من المخربين والجواسيس .

(3) المسلحة : جمعها ، مسالح . والمسلحة هم الجماعة المسلحون المعدون للقتال .

(4) معجم البلدان (٧/١٩٣) .

(5) فتح العرب للمغرب (١٥٣ — ١٥٤) وانظر معالم الايمان (١/٧) .

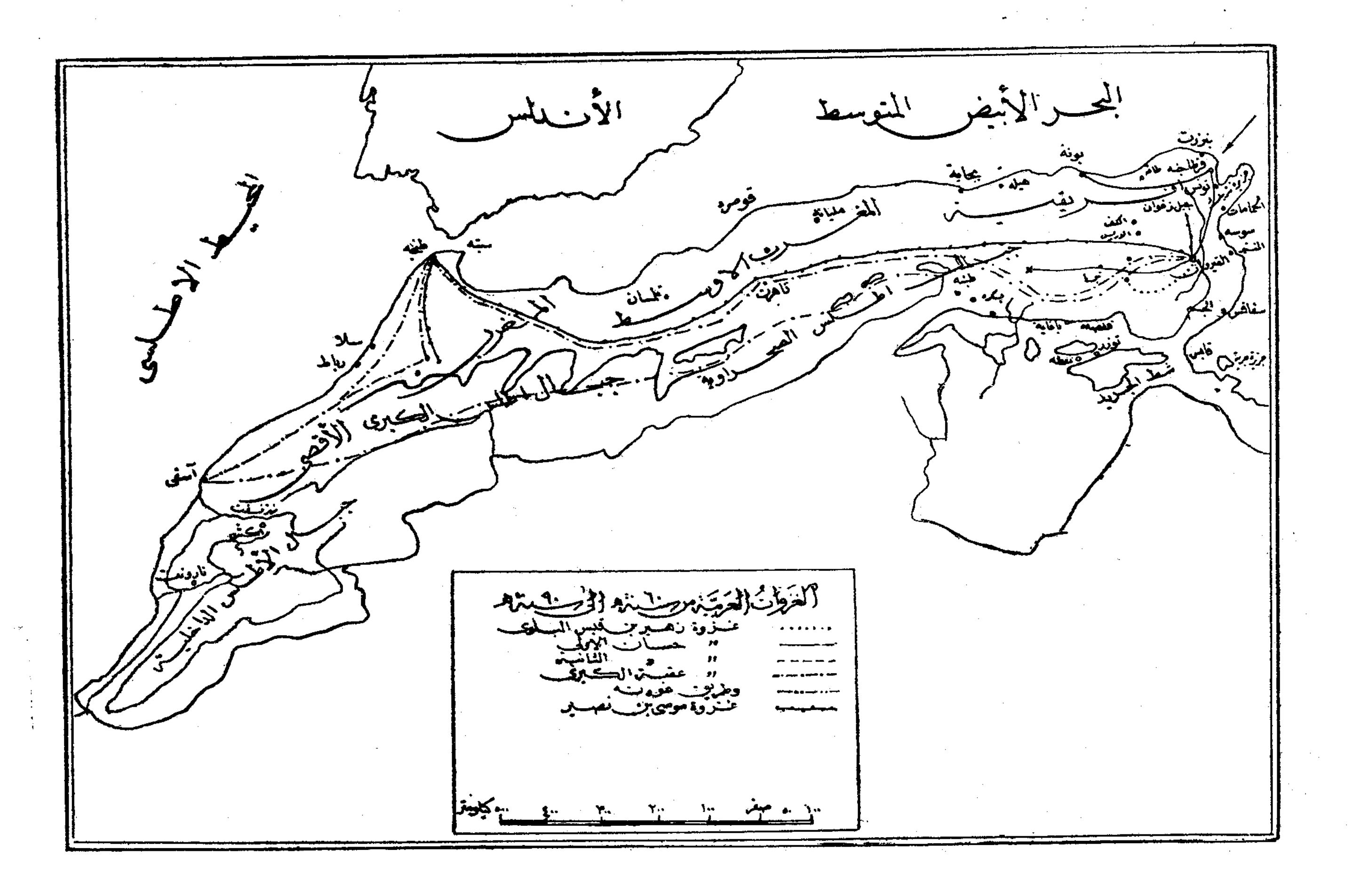
أهلها مرابطين » ، فقال لهم : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر ، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجّة حتى يستره الليل ، فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل ، فيخرج ، فيقيم في غارته الى نصف النهار ، فلا تدركها منه غارة أبداً . فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير[1] ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم ، وهم عسكر معقود الى آخر الدهر ، وميّتهم في الجنة » ؛ فاتفق رأيهم على ذلك فقال : « قرّبوها من السبخة » ، فقالوا : « نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرّها في الصيف » ، فقال : « لا بدّ لي من ذلك ، لأن أكثر دوابكم الإبل ، وهي التي تحمل عسكرنا ، والبربر قد تنصّروا وأجابوا النصارى الى دينهم ، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدّ من المغازي والجهاد ، ونفتح الأول منها فالأول ، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى ، فركب الى موضع (القيروان) اليوم وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيّات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه[2] .

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضاف اليه من أسلم من البربر ،

---

(١) تقصير الصلاة .

(٢) انظر رياض النفوس (١/٦ – ٧) والبيان المغرب (١/١٣ – ١٤)، وفيهما : أن رجاله قالوا له : « إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض » ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه. ومضى الى السبخة وواديها ونادى : « أيتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها ، ونادى في الناس : « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » . فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام ، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر . وانظر آثار البلاد (٢٤٢) وابن الاثير (٣/١٨٤) وأسد الغابة (٣/٤٢٠ – ٤٢١) .



البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
المحيط الأطلسي
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
أطلس الصحراوية
شط الجريد
طنجة
سبتة
سلا
رباط
آسفي
تلمسان
تاهرت
بجاية
بونة
بنزرت
تونس
القيروان
سوسة
صفاقس
الجم
قابس
باغاية
طبنة
الغزوات العربية من سنة ٦٠ هـ الى سنة ٩٠ هـ
غزوة زهير بن قيس البلوي
" حسان الأولى
" الثانية
" عقبة الكبرى
وطريق عودته
غزوة موسى بن نصير
١٠٠ ٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كيلومتر

فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية ، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، فأصبحت المدينة عسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة (القيروان) وأمنوا واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها . وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين[١] ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب[٢] ، وأصبحت القيروان القاعدة الأمينة للمسلمين في شمال إفريقية .

٤ . من القيروان الى المحيط :

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمة ابن مخلد الأنصاري الخزرجي على مصر وإفريقية وعزل عقبة عن إفريقية[٣] ، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار ، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخفّ به[٤] وسجنه وأوقره حديداً[٥] فأقام في الحبس شهوراً ثم أطلقه[٦] حين أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[٧] .

---

(١) ابن الاثير (١٨٤/٣) وانظر ابن خلدون (١٠/٣). وفي البيان المغرب (١٦/١) : أن محيطها كان (١٣٦٠٠) ذراعاً .
(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢٨/٢) .
(٣) البيان المغرب (١٦/١) .
(٤) ابن الأثير (١٨٤/٣) .
(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) .
(٦) اليعقوبي (٢٠٤/٢) .
(٧) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ - ٢٦٦) .

وسار عقبة الى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر ، فاعتذر معاوية اليه ووعده أن يعيده الى عمله[1] ، وفي رواية : أنه توجّه الى الشام فلما قدم على معاوية وجده قد توفي[2] ، فردّه يزيد والياً على (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[3] .

وسار عقبة الى (إفريقية) من الشام حتّى قدم على (القيروان) بعشرة آلاف فارس، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيّده وأخذ ما معه من الأموال ، وجدّد بناء (القيروان)، وشيدها ونقل اليها الناس، فعمرت وعظم شأنها[4] .

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل (القيروان) الى المغرب بعد أن ترك في (القيروان) جنداً مع الذراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي[5] . وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً ، فدعا بأولاده قبل مغادرته (القيروان) وقال لهم : « إني قد بعت نفسي من الله عزّ وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله »[6] ، ثم قال : « يا بني ! أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيّعوها : إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عزّ وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهمّ بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم

---

(١) ابن الأثير (٣/١٨٤) .

(٢) رياض النفوس (١/٢٢) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٧٤٩) .

(٤) رياض النفوس (١/٢٢) .

(٥) في رياض النفوس (١/٢٢) : أنه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي .

(٦) ابن الأثير (٤/٤٢) .

دين الله ويفرّقوا بينكم وبين الله تعالى ؛ ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا » . ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » ، ثم قال : « اللّهم تقبّل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك »[1] .

وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى الى مدينة (بَاغَايَة) ، لا يدافعه أحد ، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً[2] فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة . واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم[3] .

ورحل عقبة فنزل على (تِلِمْسَان)[4] وهي من أعظم مدائنهم ، فانضم اليها من حولها من الروم والبربر ، فخرجوا اليه في جيش ضخم لجب . والتحم القتال ووقع الصبر ، حتى ظن المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجأوهم الى حصونهم ، فقاتلوهم الى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .[5]

وسار عقبة الى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له (أَرَبَة)[6] وهي دار ملكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية

---

(١) رياض النفوس (٢٢/١) .

(٢) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٣) ابن الأثير (٤٢/٤) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير ، على بعد مرحلة من وهران. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٠٩/٢) .

(٥) رياض النفوس (٢٣/١) .

(٦) أربة : اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب ، وهي أكبر مدينة بالزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٦/١) وقد وردت في رياض النفوس (٢٣/١) : أدنة تصحيفاً .

كلها عامرة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم الى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى ، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم[1] .

ورحل عقبة الى (تَاهَرْت)[2] ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « أيها الناس ! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة . وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم ربّ العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ؛ ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا ! فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عزّ وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة ، فان الله عزّ وجل جعلكم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين » . والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً[3] ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، ولكنهم انتصروا أخيراً ، فانهزمت الروم والبربر ، وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم[4] .

وسار عقبة حتى نزل على (طنْجَة) ، فلقيه بطريق من الروم[5] اسمه

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٢) وانظر رياض النفوس (١/٢٣) .

(٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ، يقال لأحدهما : تاهرت القديمة ، وللأخرى : تاهرت المحدثة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٠٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٦٩) .

(٣) رياض النفوس (١/٢٣ – ٢٤) .

(٤) ابن الأثير (٤/٤٢) .

(٥) في تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٤) : إنه يليان الغماري ، ملك غمارة ، وهو بربري . =

(يليان) فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه[1] . وأراد عقبة فتح الأندلس ، فقال له يليان : « أتترك كفّار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين المدد ؟! » ، فقال عقبة : « وأين كفّار البربر ؟ » ، فقال : « في بلاد السوس ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » ، فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق ، وإنما هم كالبهائم » ، وكانوا على دين المجوسية يومئذ ؛ فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة (وَلِيلي)[2] بازاء جبل (زَرْهُون)[3] وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين (سَبُو) [4] و (ورغة) [5]، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة : (قصر فرعون) ، فافتتحها عقبة وغنم وسبى[6] .

وانتهى عقبة الى (السوس الأدنى) وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه ؛ ثم سار حتى وصل الى (السوس الأقصى)، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم . وسار عقبة حتى بلغ (مَالَبان)[7]، ورأى البحر المحيط ، فقال : « يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »[8] ، ثم قال : « اللّهم اشهد . إني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى

= وفي فتح العرب المغرب (١٩٢) : إنه قوطي من اسبانيا كما يؤكد مؤرخو الاندلس .

(١) ابن الأثير (٣/٤٢) .

(٢) وليلي : مدينة بالمغرب قرب طنجة . انظر معجم البلدان (٨/٤٣٤) .

(٣) زرهون : جبل بقرب فاس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٨٨) .

(٤) سبو : نهر بالمغرب قرب طنجة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٢) .

(٥) ورغة : نهر بالمغرب ، ولم أعثر على ذكره في معجم البلدان .

(٦) الاستقصا (١/٧٣) .

(٧) مالبان : بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط . انظر معجم البلدان (٧/٣٦٧) .

(٨) ابن الأ (٣/٤٢ – ٤٣) .

لا يعبد أحد من دونك »[1]

٥ . الشهيد :

رجع عقبة إلى (القيروان) ، فلما انتهى الى ثغر (إفريقية) وهي (طُبْنَة)[2] أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا (القيروان) فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه ![3] .

ومال عقبة بخيل يسيرة يريد (تهُوْذة)[4] ، وكان معه حوالي ثلاثمائة فارساً[5] ، فلما رآه الروم في قلّة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه[6] .

وبعث الروم الى (كَسيْلَة)[7] الذي كان في عسكر عقبة مضمراً للغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد

---

(١) رياض النفوس (١/٢٥) وانظر ما جاء عن ذلك مختصراً في العرب والاسلام (١٤٠).

(٢) طبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٨) .

(٣) ابن الاثير (٤/٤٣) ورياض النفوس (١/٢٥) .

(٤) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية افريقية ، لهم أرض تعرف بهم، انظر معجم البلدان (٢/٤٣٨) وهي مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بمسافة ٣٧و٥ ميل . انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٦) .

(٥) الخلاصة النقية (٥) والاستقصا (١/٧٤) .

(٦) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٧) كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي: كان أمير أعلى البرانس كلهم، وكان نصرانياً جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره فأسلم كسيلة على يدي أبي المهاجر ، وكانت قيادة أوربة لكسيلة منذ سنة (٥١ هـ). وقد حسن إسلام كسيلة فاستصفاه أبو المهاجر واتصلت بينهما صداقة موصولة الأسباب . وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع سنة ثلاث وستين الهجرية، فصفا له الجو وخضع له المغرب من أقصاه الى أقصاه واحتل القيروان وطرد جميع العرب من بلاد المغرب ، وخضع له الروم الذين كانوا في المغرب أيضاً ، وكون في المغرب دولة مغربية ظلت أكثر من خمس سنوات ، وقد قتله زهير بن قيس البلوي سنة تسع وستين الهجرية . انظر ابن الأثير (٤/ ٤٣ – ٤٤) وتاريخ المغرب (١/٦٤) والاستقصا (١/٨١) والبرانس من قبائل البربر ، وأوربة بطن من بطون البرانس .

عقبة، فقال أبو المهاجر : «عاجله قبل أن يقوى جمعه» ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على (كسيلة) ، فتنحىّ كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثّل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تُصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة» ، فلم يفعل وقال : «وأنا أيضاً أريد الشهادة» . وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدّموا الى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم[1] ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ (تهوذة)[2] .

الإنسان :

استشهد عقبة سنة ثلاث وستين الهجرية[3] (٦٨٣ م) في معركة (تهوذة) ، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (٦٢١ م) ، وقبره يزار بالزاب[4] ، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم اسنمة ثم جصّصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات[5] .

كان صحابياً بالولادة، وكان إدارياً حازماً : اختطّ القيروان سنة

---

(١) ابن الاثير (٤٣/٤) .
(٢) الاستقصا (٧٤/١) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والبداية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الاثير (٤٣/٤) والاصابة (٨١/٥) .
(٤) الخلاصة النقية (٥) .
(٥) (الاستقصا (٧٤/١) .

خمسين الهجرية ، والقيروان اليوم حيث اختطها عقبة [١] ، كما اختطّ المسجد الأعظم وكان يصلي فيه[٢] ، فكانت هذه المدينة منذ اختطاطها إسلامية بحتة لا يسكنها غيرهم كما قال عقبة : « ... ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم (غير المسلمين) رأياً ، ولكن رأيت أن أبني ههنا مدينة يسكنها المسلمون[٣] » ، كما أصبحت القيروان مقراً لعسكر المسلمين [٤] .

فقد كان عقبة على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وكان مجاب الدعوة[٥] ، ولا نعلم أنه شارك في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان بلسانه أو بسيفه ، بل كان حينذاك حامية في ثغور المسلمين في منطقة (برقة) . كما لا نعرف أنه أثرى من الفتح أو شغل نفسه بالغنائم والبناء ، بل إنه كرّس حياته كلّها للجهاد ، وكان يوصي ولده بقوله : « لا تقبلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من ثقة وإن لبسَ العباء ، ولا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن »[٦] .

وكان له عقب ، وولده بمصر والشام وإفريقية[٧] ، وكان ذا شجاعة وحزم وديانة[٨] .

لقد كان مثالاً حياً للسلف الصالح من العرب المسلمين خلقاً وورعاً وشجاعة وحزماً ، وقد نشر الإسلام في مناطق واسعة من شمال إفريقية وخاصة بين قبائل البربر ذات الشجاعة والرجولة والإقدام ، الذين كانوا

---

(١) الاستيعاب (١٠٧٦/٣) .
(٢) رياض النفوس (٧/١) .
(٣) آثار البلاد (٢٤٢) .
(٤) أبو الفدا (١٨٧/١) .
(٥) الاستيعاب (١٠٧٧/٣) وأسد الغابة (٤٢١/٣) وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .
(٦) الإصابة (٨١/٥ - ٨٢) .
(٧) الإصابة (٨١/٥) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) .

نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتّصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط .[1]

القائــد :

١ ـ كان عقبة من أولئك الرجال الذين ابتلوا بإفراط المعجبين به قائداً إنساناً، وتفريط الناقدين له قائداً .

أفرط المعجبون بقيادته ـ وخاصة من المؤلفين القدامى ـ فجعلوا منه القائد الأول والأخير في فتح (إفريقية) ، وأسبغوا على أعماله العسكرية طابع الخوارق والكرامات .

وأفرط المعجبون به إنساناً ، فجعلوا منه شخصية هي أقرب الى أولياء الله الصالحين منها الى الرجل المجاهد الصابر المحتسب الذي نذر نفسه لله ولعقيدته .

وكان من تفريط الناقدين به قائداً ، أنهم جعلوا منه قائداً فاشلاً : لا هدف له من حملته الكبرى ولا خطّة له في إدارة الحرب ، وحتّى لم يعمل على نشر الإسلام حسب خطّة مرسومة وغاية واضحة[2].

فما هي حقيقة قيادة عقبة بعيداً عن الإفراط والتفريط واستناداً على الحقائق التاريخية العسكرية البحتة دون تحيّز ومحاباة ولا تجنّي وتحامل ؟؟

٢ ـ كان عمرو بن العاص أول من اكتشف مزايا عقبة العسكرية ، فولاّه بموافقة عمر بن الخطاب وفي أيام خلافته قيادة جيش من جيوش المسلمين .

ولست أشك أن توليته مثل هذا المنصب لم يكن لأنه كان قريب القرابة لعمرو بن العاص، إذ أن عمراً كان له أقرباء كثيرون ، فلماذا يؤثر عقبة بالقيادة على غيره من ذوي قرباه ؟! وقد يتساهل من يؤثر أقرباءه على غيرهم من

---

(١) جمل فتوح الاسلام لابن حزم ـ ملحق بجوامع السيرة (٣٤٤) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٠٢ ـ ٢٠٣) ، وآمل أن يعيد المؤلف الفاضل النظر فيما كتبه عن عقبة في الطبعات الجديدة لهذا الكتاب القيم .

الناس في إعطائهم المناصب الإدارية التي تؤمّن لهم الراحة والسلطة والمال ، أما أن يؤثرهم بالمناصب القيادية على غيرهم ، فأمر فيه نظر ، إذ أن مثل هذه المناصب تقود أصحابها الى حتوفهم وتقود رجالهم الى المهالك ، وتودي بسمعه من ولاّهم القيادة الى الحضيض !... فليس بالمتوقع من مثل عمرو ابن العاص – وهو من هو دهاءً وبعد نظر – أن يولي مناصب القيادة أحد أقربائه لأنه قريبه فقط دون أن يكون قديراً على قيادة الرجال ممارساً لإدارة القتال . وإذا جاز أن يجري مثل ذلك في أيام غير أيام عمر بن الخطاب ، فمن المستحيل أن يجري مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب[1] .

لقد تولى عقبة منصب القيادة بعد أن بذل جهوداً مشرفة في فتح مصر ، وبعد أن لمس عمرو بن العاص بنفسه تلك الجهود ، لذلك لم يستطع أمراء مصر بعد عمرو أن يعزلوا عقبة عن منصبه القيادي وبقي قائداً حتّى سنة خمس وخمسين الهجرية في أيام مسلمة بن مخلد ، ولم يكن عزله حينذاك لعجزه ، وإنما كان لأسباب أخرى سترد وشيكاً .

ولم يخيِّب عقبة ظنّ عمرو بن العاص به ، فنجح في فتح (زويلة) وأمّن الحدود الغربية لمصر وصار ما بين (زويلة) و (برقة) سلماً للمسلمين ، وذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية . كما أن عمرو بن العاص بعثه في ذلك العام الى (النوبة) ، فكان أول من مهّد لفتح النوبة من المسلمين وأمّن الحدود الجنوبية لمصر .

وقد تسنّم عقبة منصب قيادة حامية (برقة) لحماية الحدود الغربية لمصر ، فحمى تلك الحدود في أيام عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب وأوائل عهد عثمان بن عفان ، فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة خمس وعشرين الهجرية أقرّ عقبة على منصبه وكان من أبرز قادته الذين عاونوه في فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان.

---

(١) انظر الشروط التي كان يلاحظها عمر بن الخطاب في تولية القادة في كتاب : (الفاروق القائد) (٤٣ – ٤٨) الطبعة الثانية .

وبقي عقبة في أيام علي بن أبي طالب على حامية (برقة) فلم يعزله عنها قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعلي بن أبي طالب[1]، ولم يعزله عنها محمد بن أبي بكر الصديق الذي تولى مصر سنة سبع وثلاثين الهجرية لعلي بن أبي طالب أيضاً[2].

وأصبح عقبة على (إفريقية) منذ سنة إحدى وأربعين الهجريّة حين استعمله عمرو بن العاص في أيام ولايته الثانية على مصر، وبقي عليها في أيام عبد الله بن عمرو بن العاص وفي أيام عتبة بن أبي سفيان الذي تولى مصر سنة ثلاث وأربعين الهجرية[3] وفي أيام عقبة بن عامر الجهني.

وفي أيام معاوية بن حديج السّكوني الذي تولى مصر سنة سبع وأربعين الهجرية[4] أقر ابن حديج عقبة على قتال إفريقية، وهو الذي بعثه سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[5].

وبعد عزل ابن حديج عن إفريقية سنة خمسين الهجرية، أقرّ معاوية ابن ابي سفيان عقبة عليها ووجّهه لفتحها[6].

هكذا بقي عقبة قائداً في إفريقية طيلة أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وشطراً من أيام معاوية بن أبي سفيان، وعمل بإمرة عدد كبير من أمراء مصر طيلة عهود هؤلاء الخلفاء الأربعة، اي منذ سنة إحدى وعشرين الهجرية الى سنة خمس وخمسين الهجرية، فلم ينزعه عن قيادته خليفة ولا أمير، وهذا دليل واضح على ما كان يتمتّع به من كفاية وكياسة ومقدرة، لأنهم جميعاً كانوا بحاجة ماسة الى خبرته الطويلة المفيدة

---

(١) الولاة والقضاة (٢٠).

(٢) للولاة والقضاة (٢٧).

(٣) الولاة والقضاة (٣٥).

(٤) ابن الأثير (١٨/٣) والبيان المغرب (٤٧/١).

(٥) البلاذري (٢٣٧).

(٦) البيان المغرب (١٩/١).

في شؤون إفريقية ، ولأنه كان جندياً فحسب متفرغاً للجهاد بعيداً عن التيّارات السياسية .

لقد أصبح عقبة على مرِّ الأيام خبيراً بقتال إفريقية ، وكان سيفه دائماً للعرب المسلمين ... لا عليهم ...

٣ – فما هي حصيلة أعماله في هذه الفترة من تولّيه منصب القيادة في إفريقية ؟

فتح (زويلة)، ومهّد لفتح (النوبة) ، وأمّن الحدود الغربية والجنوبية لمصر قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في إفريقية ، وعاون ابن أبي سرح وابن حديج في فتح إفريقية ، وحمى (برقة) القاعدة الأمامية للفتح في إفريقية من الروم ومن البربر حتى في أيام الفتنة الكبرى والحروب الداخلية بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان ، وغزا البحر مرتين ، وافتتح (غدامس) وكوراً من كور السودان ، واستعاد (ودّان) ، وفتح (فزّان) حتى أتى على آخرها ، وفتح بلاد (كاوار) حتى أتى على آخرها أيضاً ، وفتح قصر (خاور) مطبقاً مبدأ (المباغتة) على أحسن وجه .

لقد كان عقبة في هذه الفترة من قيادته أوّل من فتح (زويلة) وأول من مهّد لفتح (النوبة) وأول من أدخل العرب فاتحين الى (فزان) ، وأول من نشر الإسلام في ربوع ليبيا ، وأول من تغلغل فاتحاً في الصحراء الليبية .

وأخيراً توّج أعماله ببناء (القيروان) القاعدة الأمينة المتقدِّمة للمسلمين ، حتى إذا أنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية ، واستعدّ لاستئناف الفتح مستنداً على تلك القاعدة الأمينة ، جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، إذ عزل عقبة عن (إفريقية) في الوقت الذي تهيّأت له كل الأسباب والإستعدادات لفتح المغرب الأوسط والأقصى ، فلم يدرك مناه ولم ينفذ كل خططه في الفتح .

تلك هي مجمل حصيلة أعماله في ميادين الحرب والدعوة في فترة ولايته الأولى ، فهل هناك من يستطيع غمزه بالتقصير أو اتهامه بأنه تولى القيادة لأنه من أقرباء عمرو بن العاص فحسب ؟؟

وإذا لم تكن هذه المفاخر – بل بعضها ، كافية لتقدير قيادة عقبة ، فماذا بإمكان أي قائد أن يفعل ليستحوذ على التقدير والإعجاب ؟؟

لقد كانت نتائج أعمال عقبة في هذه الفترة مدعاة للفخر والإعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية الفنية تستحق كلّ التقدير والإكبار .

٤ – فلماذا عُزِل عن (إفريقية) بعد كل هذه الجهود وهذا الجهاد ؟

في سنة خمس وخمسين الهجرية استعمل معاوية بن أبي سفيان مَسلَمَة بن مُخلَّد الأنصاري على مصر وإفريقية ، فعزل مسلمة عقبة عن إفريقيَة واستعمل مولى له يقال له : أبو المهاجر دينار .

ولم يعزل معاوية أو مسلمة عقبة عن إفريقية لريبة أو تقصير ، ولكن معاوية أراد أن يكافىء مسلمة الذي كان من أبرز أعوانه على إخلاصه له ، فولاّه مصر مكافأة له ووفاء بحقه عليه .

فقد كان مسلمة عثمانياً في أيام عثمان ، ولم يتزعزع أبداً عن إخلاصه لعثمان ، حتى بعد قتله : فقد أرسل مسلمة هو وصحبه في أيام عثمان من يخبره بشغب محمد بن أبي حُذيفة عليه[1] ، وكان مع الخارجين على أمير مصر لعلي بن أبي طالب قيس بن سعد بن عبادة[2] ومحمد بن أبي بكر من بعده[3]. وقد شهد مع معاوية معركة (صفين) ، وكان من أكبر أعوان عمرو بن العاص في استعادة مصر من أميرها محمد بن أبي بكر وكان ممن شهد قتله[4]،

(١) الولاة والقضاة (١٥) .
(٢) الولاة والقضاة (٢١) .
(٣) الولاة والقضاة (٢٧) وانظر العبر (٤١/١) .
(٤) أسد الغابة (٣٦٥/٤) .

وكان من الذين وطّدوا أركان الدولة الأموية في مصر ، فلم يكن لمعاوية مناص من تولية مسلمة بعد أن ولى من قبله أمثاله من أعوانه المقربين اليه والمخلصين له كعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج .

أما مسلمة فقد ولّى أبا المهاجر دينار مولاه على (إفريقية) ، لأنه كان من رجاله المقرّبين اليه الذين صمدوا الى جانبه في أيام الشدّة ، والذين كانوا من أكبر أعوانه في السلم والحرب ، ومن الطبيعي أن يعتمد كل أمير جديد على أقرب أعوانه في تسيير دفّة الحكم في البلاد التي يتولاّها. قيل لمسلمة : « لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً ! » ، فقال مسلمة: « إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نحب أن نكافئه »[1].

لذلك لم يستطع معاوية ولا يزيد من بعده أن يعيد عقبة الى (إفريقية) على الرغم من خبرته الطويلة فيها ومعرفته الدقيقة لمسالكها ومداخلها ومخارجها وسكانها قبل أن يتوفى مسلمة سنة اثنتين وستين الهجرية[2].

لقد كان عزل عقبة عن إفريقية ليس كرهاً له بل محبّة بمسلمة وأبي المهاجر ومكافأة لهما على خدماتهما وإخلاصهما للحاكمين حينذاك .

٥ ـ بعد موت مسلمة بن مُخَلّد ، اضطر يزيد بن معاوية على إعادة عقبة الى (إفريقية) فاستعمله عليها سنة اثنتين وستين الهجرية[3] ، وقال يزيد : « أدركوها قبل أن يخرّبها »[4] ، ويريد بذلك : أدركوا (إفريقية) قبل أن يخرّبها أبو المهاجر . وعلى الرغم من أن أبا المهاجر أبلى بلاء حسناً في أعماله ، بل قام بأعمال مجيدة هناك كما سيرد تفصيله عند الحديث عنه ، ولكن ليس كل قائد يستطيع أن يملأ الفراغ الذي يملأه عقبة .

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) .
(٢) الولاة والقضاة (٤٠) والإصابة (٦/٩٨) والعبر (١/٦٦) وشذرات الذهب (١/٧٠) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٨٤ – ١٨٥) .
(٤) رياض النفوس (١/٢٢) .

وأكاد أتبيّن بوضوح ، أن الحاجة الملحّة الى عقبة هي التي جعلت يزيد يوليه (إفريقية) ، وإلاّ فلا نعرف أن عقبة شغل نفسه في التيارات السياسية التي سادت في أواخر أيام عثمان وفي أيام الفتنة الكبرى وفي عهد معاوية ، فليس له ذكر في الفتن الداخلية ولا في الحروب التي دارت رحاها بين المسلمين ولا في محاولة معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد ...

لقد كان عقبة جندياً فقط ، لا تستهويه السياسة من قريب ولا بعيد .

فما هي حصيلة أعماله في عهد ولايته الثانية على (إفريقية) التي امتدّت سنة واحدة وبضعة شهور ؟؟

بدون مبالغة ولا تحيّز ، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة ، قد حقّق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حدّ الروعة والإعجاز .

لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية من (القيروان) حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدث فعلاً استناداً الى النصوص التاريخية الموثوق بها ! !

لم يكد يصل الى (القيروان) إلا وترك الذراري والأثقال فيها ، وترك قوة مناسبة من رجاله لحمايتها ، ثم اندفع متغلغلاً في مجاهل المغرب متنقلاً من نصر الى نصر ناشراً الإسلام داعياً الى الله ، حتى وصل الى بلاد (أسفى)[1] على المحيط الأطلسي وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه : « إرفعوا أيديكم » ، ففعلوا ، فقال : « اللّهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يُشرك بك شيء . اللّهم إنا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال

---

(١) أسفى : بلدة على شاطىء البحر المحيط بأقصى المغرب . انظر معجم البلدان (١/٢٣٢) .

والإكرام » ، ثم انصرف راجعاً[1] .

وقد أخذ عليه بعض المؤرخين الأجانب وبعض المؤرخين العرب بعض المآخذ حول أعماله العسكرية في هذه الصفحة من صفحات معاركه؛ ولعلّ أهمّ تلك المآخذ هي : عدم تأمين خطوط مواصلاته الطويلة التي قارب طولها ألفي كيلو متر من القيروان الى ساحل المحيط ، وأنه ترك بعض المدن المعادية دون أن يفتحها ودون أن يؤمّن ظهره وخط رجعته تاركاً أعداءه متحصنين وراء ظهره ، وأنه لم يكن له هدف واضح ولا خطّة معينة[2] .

وأفترض هنا أن دافع هذا النقد هو عدم التخصص في النواحي العسكرية ، وبتعبير آخر : أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا عسكريين من ذوي الإختصاص وقد يفترض غيري دوافع أخرى لهذا النقد .

إن تأمين خطوط المواصلات الطويلة في تلك الأزمان ، كان بوضع حاميات في المراكز المهمة كالمدن والقرى والمراحل ومحلاّت عبور الأنهار ، وهذا ما فعله عقبة ، وإذا كان قد وضع حامية في (القيروان) وهي مدينة إسلامية ، فهل يغفل عن وضعها في المراكز المهمة الأخرى ؟؟!!

وإذا أغفل التاريخ ذكر تدابير عقبة في تخصيص تلك الحاميات والمسالح التي تهدف الى حماية خطوط مواصلاته ، فهل معنى ذلك أنه لم يعمل على وضع تلك الحاميات والمسالح الضرورية لتأمين خطوط مواصلاته ؟!

إن خطوط المواصلات ، وهي التي تربط القاعدة الرئيسة أو المتقدمة بالجبهة ، هي الشرايين التي إذا لم تؤمّن بكل دقة لتتدفّق عليها وبواسطتها الإمدادات والقضايا الادارية ، كان مصير القائد وقواته الفناء الأكيد ، فهل هناك قائد واحد في الدنيا كلها يغفل عن حماية خطوط مواصلاته ليلاقي

---

(١) الاستقصا (١/٧٤) .

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٠٢ – ٢٠٤) والفتوحات العربية الكبرى (٦٣٤ – ٦٤١) .

هو ورجاله الموت والفناء ؟؟

إنّ تأمين خطوط المواصلات أمر بدهيٌّ لا يغفل عنه أي قائد ، فكيف يغفل عنه قائد مثل عقبة ؟

أما أن عقبة ترك بعض المدن دون أن يفتحها ، فقد حدث فعلاً ، ولكن لا غبار على تصرّفه هذا من الناحية العسكرية .

إن المبادىء العسكرية في حصار المدن تقول : « إذا لم تكن المدينة هدفاً سوقياً (ستراتيجياً) ، وخشي القائد مغبة تعطيل قواته لحصارها ، فبإمكانه تخصيص قوة مناسبة لمراقبتها ومنع العدو فيها من قطع خط المواصلات ، والانصراف بعد ذلك الى أهدافه الأخرى ؛ لأن بقاء قواته الضاربة مدة طويلة لمحاصرتها سيضيع الوقت على القائد سدى وسيحرمه من تحقيق أهدافه الأخرى » .

ولست أشك أن عقبة طبّق هذا المبدأ في تغلغله عمقاً في (إفريقية) ، فقد كانت المدن التي أجّل فتحها أهدافاً غير سوقية ، كما أن القوات المعادية التي تدافع عنها لا قيمة لها من الناحية العسكرية ، وكان قراره في تركها حصارها وإبقاء قوة مناسبة لمراقبتها ولحماية خطوط مواصلاته قراراً صائباً جداً .

أما الإدعاء بأن عقبة لم يكن له هدف واضح ولا خطّة معينة للفتح ، فهذا ادعاء متهافت ، إذ كان هدفه هو هدف الفتح الإسلامي في كل مكان وهو : نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله ، وهذا ما صرّح به عقبة وما كان يتوخّاه . أما خططه العسكرية فهي التي أمّنت له الانتصارات المتوالية بأقصر وقت وبأقل جهود وبقوة مناسبة ، وإلا فكيف استطاع الانتصار على أعدائه في معارك متسلسلة وفي عقر ديارهم ؟!

٦ ـ سلك عقبة في ذهابه من (القيروان) الى المحيط طريق الأطلس التلي ، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي ، لأنه أقرب طريق الى

(القيروان) ، وقد نجا بتغيير طريقه من الفخاخ التي بنيت له[1]، ذلك لأن ابن الكاهنة البربري خرج في أثر عقبة بعد مغادرته (القيروان) ، فكان كلّما رحل من منهل[2] دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى (السوس) ولا يشعر عقبة بما صنع البربري[3] .

وأرى أن من جملة الأسباب التي حدت بعقبة على تبديل طريق عودته ، هو أنه شعر بما فعله ابن الكاهنة من تغوير المياه ، إذ أن المياه ضرورية للقوات ولحيواناتها ، فلا يمكن أن يغفل مثل عقبة عن استحصال المعلومات اللازمة عنها .

كما أنه بدّل طريق عودته ، لأن قوات الروم والبربر ذات شأن وقوّة على جانبي طريق الذهاب القريبة من البحر والمدن ، وهي أقل شأناً وقوة في طريق العودة الصحراوي ، لذلك فالمقاومات المحتملة للمسلمين السائرين على هذه الطريق تأتي من سكانه البربر بالدرجة الأولى ومن حلفائهم الروم بالدرجة الثانية بعكس المقاومات المحتملة على الطريق القريبة من الساحل الآهلة بالسكان والمدن .

كما قدّر أن الصحراء هي ميدان قتال العرب وليس ميدان قتال الروم ، لذلك كان قرار عقبة عن تبديل طريق عودته قراراً صائباً حقاً .

ولكن محذور طريق العودة هو قلّة مياهه ، وهذا العامل هو الذي حدا بعقبة إلى أن يبعث بقواته إرسالاً حتى بقي أخيراً ومعه قوات قليلة تبلغ الثلاثمائة فارساً أو تزيد على هذا العدد الضئيل قليلاً .

هذا هو الجواب للمتسائلين عن : «كيف أرسل عقبة قواته أمامه بقدمات متعاقبة وبقي مع قوات قليلة ؟» .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (١/٤٥) .
(٢) المنهل : مكان شرب الماء . وابن الكاهنة هو كسيلة .
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٨) .

إن قلّة المياه في طريق عودته هي التي اضطرته على إرسال قواته بقدمات متعاقبة ، لأن قلّة المياه تجعل الحركة على هذه الطريق بقوات جسيمة أمراً مستحيلاً .

وإذا كان القائد الذي يعرف مسؤولياته ويقدّرها حقّ قدرها يكون دائماً في (المقدمة) أثناء التقدّم وفي الهجوم ، فهو دائماً يكون في (المؤخرة) أثناء الإنسحاب والعودة ، وهذا ما فعله عقبة فعلاً ، إذ بقي مع (الساقة) في عودته من المحيط الى (القيروان) ، وأشرف على حماية قواته حتى وصلت الى مثابتها سالمة وسقط هو وساقته شهداء من أجل القسم الأكبر من قوات المسلمين .

ألم يكن بإمكان عقبة أن يتقدّم قواته فيصل مع المقدمة الى مدينة (القيروان)؟ ألم يكن بإمكانه أن يرافق القسم الأكبر من قواته ويترك قيادة الساقة لبعض من يعتمد عليهم من قادته فيكون هو بعيداً عن الأخطار ؟

لقد كان بإمكانه أن يفعل ذلك غير ملوم ، ولكنّ حرصه على أرواح قواته وسلامتها ، ولكنّ تقاليده العسكرية العريقة، ولكنّ تطبيقه أسلوب القتال الذي ينصّ على : أن يكون قائد القوم أقرب ما يكون الى الخطر ليعطي بمثاله الشخصي لرجاله أروع الأمثال ... كلُّ ذلك أبى عليه إلا أن يزجّ بنفسه في الخطر المحدق لتنجو قواته الضاربة من خطر محيق ..

٧ — بقي علينا أن نجيب عن أسباب إساءة أبي المهاجر دينار عزل عقبة ؟ وهل كان ذلك مجرّد اجتهاد منه أم كان مدفوعاً من غيره ؟

الظاهر أن الشعبية التي كان يتمتع بها عقبة في إفريقية بين العرب والبربر المسلمين كانت طاغية ، لذلك قدّر أبو المهاجر أنه لن يستطيع السيطرة على ولايته بسهولة ويسر ما لم يحجز حرية عقبة ولو الى فترة وقتية ، والظاهر ايضاً أنه لم يكن ليقدم على مثل هذا العمل ما لم يأخذ موافقة مسلمة بن مخلد سلفاً .

والدليل أن أبا المهاجر كان يخشى عقبة ، أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة ، أرسله برسل من قبله حتى أخرجوه من (قابس)[1] وهو حنق على أبي المهاجر[2]، فدعا عقبة على أبي المهاجر ، فبلغ ذلك أبا المهاجر ، فلم يزل خائفاً منذ بلغته دعوته[3] ، مما يدل على أن أبا المهاجر كان يقدّر عقبة كلّ التقدير ، وأنه كان لعقبة مكانة مرموقة في نفس أبي المهاجر .

وحين قدم عقبة مصر ركب اليه مسلمة بن مخلّد، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر ، وأنه قد أوصى أبا المهاجر به خاصة[4] ، وهذا الإدعاء لا يبرىء ساحة مسلمة من إقدام أبي المهاجر على حجز حرية عقبة بعلمه ، إذ لم يكن بإمكان مسلمة إلا أن يعتذر إلى عقبة بمثل هذا الإدعاء — خاصة بعد استنكار معاوية لاعتقال عقبة وبعد أن أمر باطلاق سراحه ، وبعد أن علم بأن عقبة في طريقه الى الشام لعرض ظلامته على معاوية بن أبي سفيان .

ولكنني اتبيّن من إقدام مسلمة على الموافقة على اعتقال عقبة وإقدام أبي المهاجر على اعتقاله ، رغبتهما في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الشخصية لعقبة ، إذ قدّرا أن عقبة لن يسكت بسهولة على عزله ، فاذا سكت هو فلن يسكت أنصاره وأقرباؤه من العرب ومن قريش بالذات .

ولكن، هل كان عقبة من الذين يشغبون على أمرائهم خضوعاً لمصالحهم الشخصية ؟ أكاد أجزم بأنه ليس من أولئك النفر من الناس ، فقد كان عقبة مؤمناً حقاً ، ومثله يدوس بقدميه كلّ مصلحة شخصية له ، ولكنه حنق على اعتقاله أشدّ الحنق، واستنكر عزله لأن ذلك حال بينه وبين تنفيذ خططه التوسعيّة في الفتح .

---

(١) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢) وتقويم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) .

(٢) رياض النفوس (٢١/١) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٢٦) .

وما يقال عن اعتقال عقبة ، يقال عن اعتقال أبي المهاجر الذي اعتقله عقبة في ولايته الثانية ، فقد أحسن أبو المهاجر في عمله واستمال قلوب كثير من أتباعه ، خاصة من البربر وعلى رأسهم أميرهم (كسيلة)[1]، الذي كان صديقاً حميماً لأبي المهاجر ، فقد صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم (كسيلة) وأحسن اليه ، وكان (كسيلة) قد أسلم وحسن إسلامه وصحب أبا المهاجر[2] .

٨ ــ وأخيراً ، كلّل عقبة حياته الحافلة بالجهاد المليئة بالنشاط والحركة لخدمة الإسلام ونشره بتضحيته بحياته ، فسقط شهيداً مع أصحابه الأبطال .

فهل كانت خاتمته المفجعة والمشرفة في آن واحد نتيجة لإهماله وعدم تقديره عواقب الأمور ، أم أن هذه الخاتمة لم تكن متوقعة في تقدير موقفه العسكري ؟

الذي يتتبّع الحوادث منذ بداية الفتح في إفريقية على يد عقبة وعمرو بن العاص وعبد الله بن سَعد بن ابي سرح ومعاوية بن حديج وغيرهم من القادة الفاتحين الى إمارة عقبة الثانية ، لا يجد أثراً ملحوظاً للبربر في الدفاع عن إفريقية، وكلّ ما لاقاه العرب المسلمون من مقاومة كانت من الروم ؛ ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدّون مهمة الجند ، أو المحافظة على الأمن في الحصون والمدن ، ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة والجموع المحتشدة من البربر لردّ العرب المسلمين ولمقاومة فتحهم مثل ما حدث في أيام عقبة في إمارته الثانية . وكانت كلُّ مقاومات الروم مقتصرة على المدن الساحلية وعلى محاور الطرق الساحلية . كان العرب المسلمون يسلكون أيام الفتح الطرق التي تمرّ في قلب بلاد البربر وفي وسط منازلهم ، فكانوا يمرون ببرقة وهي موطن (لُواته) ومنها يمرون بـ (سرت)

---

(١) رياض النفوس (٢١/١) .
(٢) ابن الأثير (٤٣/٤) .

وما بعدها الى طرابلس ، وهي مواطن (هوارة) ، ويقع على جنوب طريقهم إلى إفريقية جبل (نَفُوْسَة)[1] وهو موطن من مواطن قبائل البربر القوية ؛ ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لتلك القبائل البربرية أيَّ نشاط عدائي لمقاومة الفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية[2] .

لعلَّ من أسباب عدم مقاومة البربر للفتح الإسلامي قبل إمارة عقبة الثانية ، – أو على الأصح – قبل عودة عقبة من المحيط الى (القيروان) ، إذ أنه في أيام تقدّمه من القيروان الى المحيط سار لا يدافعه أحد[3] ، أن البربر كانوا ينظرون الى الروم نظرة المستعمر الغاشم ، فانتهزوا فرصة الفتح الإسلامي فخلّوا بينهم وبين الروم انتقاماً من الروم ، كما أن البربر نظروا الى الفاتحين الجدد نظرة المحرِّر لهم من ربقة الإستعمار الذي طال تعسُّفه واستغلاله لمواردهم . كما أن الفاتحين بذلوا جهدهم لنشر الإسلام في صفوف البربر ، فعاون البربر المسلمون إخوانهم العرب المسلمين في الفتح .

ولكنّ عقبة أخطأ في معاملة رؤساء البربر ؛ فلما ولي عقبة عرّفه أبو المهاجر محلّ كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخفّ بكسيلة . وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها من السلاّخين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة » ، فشتمه وأمره بسلخها ، ففعل ... فقبّح أبو المهاجر هذا عند عقبة ، فلم يرجع ! فقال له : « أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه » ، فتهاون به عقبة ، فأضمر كسيلة الغدر ؛ فلما رأى الفرصة سانحة له جمع أهله وبني عمه وقصد عقبة[4] . وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر ، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به[5] .

---

(١) نفوسة : جبال في المغرب بعد إفريقية عالية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٠٥) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٩) .

(٣) رياض النفوس (١/٢٣) .

(٤) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٥) رياض النفوس (١/٢٥) .

لقد أدرك أبو المهاجر خطأ عقبة في اضطهاده كسيلة ، فنصح عقبة أن يتألّف كسيلة ولا يستهين به، فقال لعقبة : « أصلح الله الأمير ! ما هذا الذي صنعت ؟! كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعُيينة بن حصن ، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ! توثّق من الرجل ، فإني أخاف فتكه ! » ، فتهاون عقبة ، فلما انصرف كسيلة نكث البربر ما كانوا عليه [1] .

لقد كان عقبة من أولئك القادة الذين يقسون على رؤساء أعدائهم ليكونوا عبرة لأمثالهم فلا يقدمون على محاربة المسلمين ، وقد كان خالد ابن الوليد يطبّق هذا المبدأ في حربه الفرس والروم ، فنجح خالد وفشل عقبة ، لأن الفرس والروم لم يكونوا قبائل تعتدّ بالكرامة الشخصية وتؤمن بأخذ الثأر ، وتجلّ رؤساءها وتدين لهم بالطاعة ، وتعتبر كلّ اعتداء عليهم اعتداء على قبائلهم كما كان البربر ، وكما كان العرب أنفسهم ، فهم يعتبرون كلّ ذلك من جملة تقاليدهمَ العريقة التي لا يحيدون عنها قيد أنملة ويرون أن التغاضي عنَ الأخذ بتلك التقاليد عاراً دونه كلّ عار .

فكيف يُسلم البربر عظيماً من عظمائهم ورئيساً من رؤسائهم وهو كسيلة الى المذلة والهوان ؟

لقد استثار عقبة بمعاملة كسيلة معاملة فيها كثير من التحدي وكثير من الاستهانة به ذوي قرباه وأهله وقبيلته ، فعمل هؤلاء على جمع الحشود الضخمة من البربر حتى بلغ جمعهم خمسين ألفاً من المقاتلين [2] ، فما كان أحرى بعقبة أن يتألّف كسيلة وأمثاله لتكون سيوفهم له كما كانت لأبي المهاجر من قبله لا عليه كما أصبحت من بعد !

---

(١) رياض النفوس (١/٢٦) .
(٢) رياض النفوس (١/٢٦) .

لقد كان عقبة قائداً لامعاً يليق للمعامع ، أما للسياسة فلا ...

٩ . لقد عمل عقبة على نشر الإسلام في ربوع إفريقية عملاً دائباً ، بل كان أول الفاتحين من العرب المسلمين الذين بدأوا بنشر رايات الإسلام في ليبيا ، وكان أول من تغلغل في مجاهل الصحراء الليبية وأول من تغلغل في مناطق إفريقية جديدة مثل (فزان) والمغرب الأوسط والأقصى ، ولو لم يعمل عقبة وغيره من الفاتحين على نشر الاسلام بين البربر لكان مصير العرب المسلمين في إفريقية بعد نكسة عقبة في معركة (تهوذة) مهدداً بالفناء ، فقد أسر محمد بن أوس في نفر يسير من أصحاب عقبة الذين شهدوا معه تلك المعركة واستشهد فيها عقبة ، فخلّصهم صاحب (قفصة) وبعث بهم الى (القيروان)[1] لأنه كان مسلماً . بل إن كسيلة نفسه حين دخل القيروان وكان بها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين ، فطلبوا الأمان منه فآمنهم[2] ، مما يدلُّ على خشيته من الذين بقوا على الإسلام من رجال قبيلته ورجال القبائل البربرية الأخرى .

لقد جمع كسيلة جميع أهل المغرب ، وزحف الى (القـيروان) ، فانقلبت إفريقية نارا[3] مما يدل على أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فكيف نعلّل هذه الثورة إلاّ بأنه كان في إفريقية حينذاك نفر عظيم لم يرضهم سقوط (القيروان) في يد (كسيلة) ، فأثارهم ذلك وثارت المنازعات بينهم وبين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربراً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا الى (برقة) مع زهير بن قيس البلوي ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف

---

(١) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٢) ابن الاثير (٤/٤٣) .

(٣) رياض النفوس (١/٢٨) .

المسلمين منها وخلاصها للبربر والروم[1].

لقد أشعل الفاتحون وعلى رأسهم عقبة جذوة الإيمان بين سكّان (إفريقية) ، وهيهات أن تخبو حتّى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن الانصاف ألاّ نلقي اللوم كله على عقبة في استثارة البربر في شخص رئيس من روساِئهم (كسيلة) تلك الاستثارة التي أدّت الى نكسة الفتح الاسلامي إلى فترة امتدت الى سنة تسع وستين الهجرية[2]، ذلك لأنه منذ حركته من (القيروان) الى المحيط ، وعودته من المحيط الى (القيروان) لم تصله أية إمدادات عسكرية من يزيد بن معاوية ومن خلفائه من بعده ، فاضطر الى الإصطلاء بناره معتمداً على ما لديه من رجال ؛ والحرب في طبيعتها تحتاج الى الإمدادات المستمرة بالرجال وبالقضايا الادارية ، خاصة إذا طالت خطوط المواصلات كما هو الحال في حرب عقبة ، تلك الخطوط التي امتدّت الى أكثر من ألفي كيلومتر ، وتلك الحرب التي سقط فيها كثير من الشهداء والجرحى والمرضى .. الخ

وكانت الدولة الأموية في تلك الأيام تعاني كثيراً من الفتن الداخلية: في العراق وخراسان والحجاز واليمن ، وكان عليها أن تعالج بما لديها من قوات تلك الفتن. لذلك لم تستطع أن تمدّ الجبهة الإفريقية بما تحتاجه من جيوش، حتى تولى عبد الملك بن مروان ، فذكر عنده من بالقيروان من المسلمين ، فأنفذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم وذلك سنة تسع وستين الهجرية[3].

ولكن ، هل كان تغلغل عقبة بالفتح عمقاً من القيروان الى المحيط شراً كله ؟؟

لا شك أن ذلك التغلغل العميق في إفريقية لم يكن شراً كله على العرب

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٠٧) .

(٢) ابن الأثير (٤٣/٤) .

(٣) ابن الاثير (٤٣/٤)، وسيرد تفصيل ذلك في ترجمة زهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب.

المسلمين كما يتبادر إلى أذهان غير العسكريين لأول وهلة ، بل كان فيه خير كثير على الفتح الإفريقي ، وقد عاد بالنفع عليهم وعلى الفتح في المدى البعيد ، ونتائج الحرب ليست كلها آنية ، بل منها ما يظهر نفعه في الحال أو في المستقبل القريب أو البعيد ...

لقد حصّل الرواد الأولون للفتح الذين جابوا أقطار إفريقية وأمصارها ومجاهلها من (القيروان) إلى المحيط على معلومات مفيدة لا تثمّن عن طبيعة الأرض : مداخلها ومخارجها ، ومسالكها وخواص أرضها ومنابعها ومواطن الخيرات فيها ومواطن الجدب في أنحائها .

وحصلوا على معلومات قيمة لا تثمن أيضاً عن طبيعة سكانها : أجناسهم ومزاياهم وقوتهم وأساليب قتالهم وأساليب معيشتهم ومواطن القوة والضعف فيهم ، وكيف يمكن التغلّب عليهم وكيف يمكن تجنّب الزلل في معاملتهم ، وما هي الطرق الناجعة لحربهم .

وحصلوا على معلومات عن تسليحهم وتجهيزهم وتنظيمهم ومواردهم الإدارية وعدد حصونهم وقوتها وكيف يمكن التغلّب عليها .

هذه المعلومات عن طبيعة الأرض التي يجري القتال عليها ، وعن العدو وعن تسليحه وتنظيمه وتجهيزه وموارده ، ضرورية جداً من الناحية العسكرية ، وهي التي تيسر لكل قائد الفرص الكاملة للانتصار ، وبدونها يسير القائد أعمى في الظلام ، وما أسهل اندحار الأعمى الذي يسير في الظلام .

وهذه المعلومات تحصّل تارة من الأدلاء وتارة من العيون والأرصاد ، وتارة بمفارز الإستطلاع ... كما تحصل تارة بالقتال حين لا يكون من القتال مفر .

ومثل هذه المعلومات لا يتردّد القائد لكي يحصل عليها أن يستفيد من كل منابعه ومن ضمنها القتال .

إن استشهاد عقبة وأصحابه لم يذهب عبثاً ، بل زوّد المسلمين بمعلومات

حيوية لا تنضب عن عدوِّهم وعن أرضه ، وقد اقتطف المسلمون ثمرات استشهاد عقبة بعد ست سنوات من استشهاده ، فكان فتح إفريقية الى المحيط فتحاً (مستداماً) منذ كان حتى اليوم .

ولو قدِّر لعقبة أن يبقى حياً لما استطاع أن يديم ما فتحه ، لأن الدولة الأموية كانت تدور في دوامة من الفتن والاضطرابات الداخلية حينذاك ، وكانت مشغولة عن كل شيء خارجي حتى الفتح لأنها مكرسة كل طاقاتها ومواردها المادية والمعنوية للقضاء على تلك الفتن والاضطرابات .

يكفي أن نذكر من تلك الفتن والاضطرابات : كارثة استشهاد الحسين ابن علي ووقعة الحرّة بالمدينة المنورة سنة ثلاث وستين الهجرية[1] ، وثورة عبد الله بن الزبير وحصار مكة سنة أربع وستين الهجرية[2] وتوجّه مروان ابن الحكم الى مصر لاستعادتها من أصحاب ابن الزبير سنة خمس وستين الهجرية[3] ، وحدوث الوباء العظيم بمصر وثورة المختار بالعراق ووقعة الخازر بالعراق سنة ست وستين الهجرية[4] ، ونشوب القتال المرير بالعراق بين المختار الثقفي وبين مصعب بن الزبير سنة سبع وستين الهجرية[5] ، حتى لقد اضطر عبد الملك بن مروان الذي تولى الخلافة سنة خمس وستين الهجرية الى دفع الأتاوة لملك الروم كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين[6] ، وحتى تفرّق المسلمون الى درجة وقوف أربعة ألوية في عرفات في سنة واحدة في موسم الحج هي سنة ثمان وستين الهجرية[7] ، هذا بالاضافة الى الفتن الأخرى كثورات الخوارج وثورات أقرباء بني أمية ... الخ .

---

(١) العبر (٦٧/١) .
(٢) العبر (٦٩/١) .
(٣) العبر (٧١/١) .
(٤) العبر (٧٣/١) .
(٥) العبر (٧٥/١) .
(٦) ابن الأثير (١١٩/٤) .
(٧) ابن الأثير (١١٥/٤) .

فهل كان بإمكان بني أمية ـ وهذا وضعهم وهذا ما يعانونه ، أن يديموا نجيوش إفريقية بالإمدادات ؟ وهل كان بإمكان عقبة أن يديم ما فتحه بدون إمدادات ؟

لقد كانت غزوة عقبة التي امتدّت من (القيروان) الى المحيط ، فشلاً تعبوياً[1] ، ولكنها كانت على كل حال نصراً سوقياً (ستراتيجياً)[2] ولا يعد الفشل التعبوي شيئاً يذكر الى جانب النصر السوقي.

١٠ ـ فما هي سمات قيادة عقبة ؟

كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر ، وكان يؤمن أن النصر هو من الله جلّ ثناؤه[3] ، وكان يعتقد أن الانتصارات الاسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها الى العالم مؤمنون صادقون ، ويذود عنها حماة قادرون .

وكان يحب رجاله ويحبونه ، ويثق بهم ويثقون به ، وقد بلغت ثقتهم به حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ؛ فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويغضّ الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال ، ويستعتب مقصِّرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له ، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة ، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة[4] .

وكان ميمون النقيبة ، كامل العقل ، طويل التجربة ، بعيد الصّوت ،

---

(١) التعبية : الأعمال العسكرية في المعركة . والفشل التعبوي يؤثر على نتائج معركة محدودة ولا يؤثر على نتائج الحرب كلها .

(٢) السوق : الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب . والنصر السوقي ، يعني نتائج الحرب كلها لا نتائج معركة واحدة . انظر الرسول القائد (١٨٣) ـ الطبعة الثالثة .

(٣) مختصر سياسة الحروب (١٥) .

(٤) مختصر سياسة الحروب (١٦) .

بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، يحسن تعبئة أصحابه، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوّهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً سخياً [1].

وكان ذا شجاعة وحزم وديانة[2] مستقيماً فصيح القول نزيهاً شريفاً، ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية[3]، فقد كان جندياً فحسب من أخمص قدمه الى قمة رأسه، ولم يكن يعرف أساليب السياسة وأحابيلها ولفّها ودورانها.

وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة، ذا إرادة قوية ثابتة وشخصية رصينة متّزنة، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردّد، له نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم، وله ماض ناصع مجيد.

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادىء الحرب، نجد أنه طبّق مبدأ (المباغتة) في حروبه، وكانت حروبه (تعرضية)، يعمل على (تحشيد قوته) قبل المعركة، و (يقتصد بالمجهود) ويطبّق مبدأ (الأمن) ويعمل على (إدامة المعنويات) ويذلّل (الامور الإدارية) كافة لقواته، ويحسب لها أدق حساب.

لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي.

عقبة في التاريخ:

يذكر التاريخ لعقبة، أنه كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي، ومن

---

(١) مختصر سياسة الحروب (١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩).

(٣) الفتوحات العربية الكبرى (٦٣٦).

أحرص دعاة الدين الإسلامي .

لقد كان أول من نشر الإسلام في زويلة والصحراء الليبية وفي النوبة والسودان وفي أصقاع كثيرة من المنطقة الشاسعة الكائنة بين القيروان والمحيط الأطلسي . « فأسلم البربر وكانوا نصارى ، وفشا الإسلام الى أن اتصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط»[1] .

وكان نشر الإسلام في إفريقية — نهاية الإستعمار الفكري فيها وبداية الإستقلال الفكري ، ذلك الاستقلال الذي أمدّ إفريقية المسلمة بطاقات لا تنضب من القوة والمنعة وبالمصل الواقي من المبادىء الوافدة التي بذلت جهوداً جبارة منذ انحسار مد الفتح الاسلامي حتى اليوم لتحويل تلك البلاد عن عقيدتها — دون جدوى .

ويذكر له أنه فتح أوشارك في فتح كل أصقاع إفريقية العربية المسلمة : (مصر وليبيا والجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا والسودان) ، فكان فتحه وفتح أصحابه القادة الفاتحين فتحاً (مستداماً) ، لأنه كان فتح عقيدة ومبادىء لا فتح استغلال واستعباد .

لقد شارك في فتح مصر وكان أول من فتح زويلة والصحراء الليبية وبعض كور السودان ، وأول من وصل الى المحيط الأطلسي ، وأول من مهّد لفتح (النوبة) ، وأول من أدخل العرب فاتحين الى (فزّان) ، وأول من بنى القيروان) لتكون مدينة عربية إسلامية خالصة ولتكون القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامي في إفريقية .

لقد كان له جهاد مشرّف في أيام ولايته الأولى لنشر الإسلام في البلاد الكائنة من قناة السويس الى القيروان وفتح تلك المناطق أو المشاركة في فتحها .

وكان له جهاد مشرّف في أيام ولايته الثانية لنشر الإسلام في البلاد الواقعة

---

(١) جمل فتوح الاسلام — ملحق بجوامع السيرة — لابن حزم (٣٤٤) .

ما بين القيروان والمحيط الأطلسي .

لقد انتهى في فتحه الأول بالعرب المسلمين الى أعماق الصحراء ، وانتهى في فتحه الثاني الى المأهول من إفريقية الى المحيط .

واخيراً ، بذل روحه الغالية رخيصة لبناء صرح الفتح الإسلامي في إفريقية ، فبقي ذلك الصرح شامخاً صلباً صلداً متماسكاً تهاوت تحت أقدامه محاولات الصليبيين في القرون الوسطى ومحاولات الاستعمار الحديث لتكون تلك البلاد قطعة من أوربا ... فكان قدوة حية لأحفاده البررة الذين تساقطوا شهداء ليبقوا مسلمين طيلة القرون الطويلة ، ويكفي أن نذكر أن مليون شهيد قدّموا أرواحهم رخيصة لتبقى الجزائر فقط قطعة من مكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد دار السلام والشام والقاهرة .

ترى ! هل يعرف أبناء مصر والسودان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا [١] اليوم من هو عقبة وماذا قدّم من أجلهم من تضحيات جسام ؟ وهل يعرفون أنه كان من أوائل قادة الفتح الذين أدخلوا العرب في بلادهم ومن أوائل رواد الدعوة الذين أدخلوا الإسلام في ربوعها ؟؟

رضي الله عن القائد الفاتح ، الفارس الشجاع ، البطل الشهيد ، عُقْبَة ابن نافع الفِهري القرشي .

---

(١) آمل من حكومات وشعوب إفريقية العربية المسلمة أن تدرس سيرة هذا القائد البطل في مدارسها ، وأن تطلق اسمه على كلياتها وشوارعها ومعالمها ، وأن تخلد ذكره بانشاء المكتبات والمستشفيات والمعاهد والكليات باسمه ، وتنشر البحوث عنه . وآمل من الحكومة المغربية أن تعمل على تحقيق مكان وقوفه على ساحل المحيط الأطلسي وتنشىء جامعاً شامخاً هناك .

إن ذلك أقل ما نأمله من إفريقية العربية المسلمة ، ليعرف أبناؤها البربرة مكانة عقبة وأثره في جعل بلادهم عربية إسلامية .

أبو المهاجر دينار
فاتح المغرب الأوسط

توليته إفريقية :

أبو المهاجر دينار هو مولى مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري[1] فهو مولى الأنصار[2] ، وكان من التابعين[3].

ولاّه مَسْلمة بنُ مُخلّد الأنصاري (إفْرِيقية) بعد عُقْبَة بن نافِع الفِهري وذلك سنة خمس وخمسين الهجريــة (٦٧٤ م) ، فقدمها في هذه السنة[4] ، فأساء أبو المهاجر عزل عقبة بن نافع وسجنه وأوقره حديداً ، حتى أتــاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخليته سبيله وإشخاصه اليه[5] .

وقد كان قيل لمسلمة بن مخلّد : « لو أقررت عقبة ، فإن له جزالةً وفضلا » ، فقال مسلمة : « إنّ أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نَيْلٍ ، فنحن نُحبّ أن نكافئه » ؛ فلما قدم أبو المهاجر (إفريقية) كره أن ينزِّل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى حتى خلّفه

---

(١) ابن خلدون (٣/١٠) والبلاذري (٢٣٠) والاستقصا (١/٧١) وابن الأثير (٣/١٨٤) والبيان المغرب في أخبار المغرب (١/١٧) ورياض النفوس (١/١٩) .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥) . وفي الاستقصا (١/٧١) وقيل : إنه مولى بني مخزوم .

(٣) رياض النفوس (١/١٩) .

(٤) الاستقصا (١/٧١) وفي رياض النفوس (١/٢١): أنه وصل الى إفريقية سنة سبع وخمسين الهجرية ، والرواية الأولى أصح ، لأنه ليس من المعقول أن يبقى سنتين بعيداً عن منصبه .

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٥ – ٢٦٦) .

بميلين، فابتنى ونزل [1]، وبذلك هُجرت مدينة (القيروان) التي ابتناها عقبة لفترة من الزمن امتدت حتّى عاد عقبة إلى منصبه في (إفريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[2].

لقد أخلص أبو المهاجر لمسلمة، ولكن إخلاصه وحده لم يكن ليؤهله الى تسنم منصب قيادي رفيع في (إفريقية) لو لم تكن له مزايا عسكرية وإدارية أخرى أهّلته لتسنم مثل منصبه الرفيع.

جهـــاده:

عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه الى (إفريقية)[3]، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الادارية وإعداده خطط الفتح، سار بجيشه الى (قَرْطَاجَنّة)[4] عاصمة الروم في شمال (افريقية)، لأن الروم لا زالوا قوّة في ساحل المغرب من (بنزرت)[5] الى (طَنْجَة)[6]، وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم ومواطنهم، فلا بد من تطهير تلك المناطق منهم[7] ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمري (إفريقية) القدامى وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ونازل أبو المهاجر (قرطاجنة)، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدّد أبو المهاجر عليهم الحصار. ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦).

(٢) انظر ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب (٩٠-١٣٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (٢١/١).

(٤) قرطاجنة: بلد قديم من نواحي افريقية، وكانت مدينة عظيمة شامخة البناء أسوارها من الرخام الأبيض، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٢/٧).

(٥) بنزرت: مدينة بينها وبين تونس يومان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٢).

(٦) طنجة: مدينة قديمة على البحر، بينها وبين سبته مسيرة يوم واحد. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٦) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢).

(٧) تاريخ المغرب الكبير (٣٤/١).

يحققوا هدفهم بفتح (قرطاجنة) ، طلبوا الصلح ، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة (شريك)[1] التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابةً لتحشّد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين[2] ، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها ، وبهذا أثبت أبو المهاجر عملياً بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية ، فيفضّل المواقع السوقية (الاستراتيجية) التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل (قرطاجنة) مقابل إقراره الصلح بين الطرفين .

وفي رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني – صنعاء الشام – الى جزيرة شَريك[3] ، ففتحها[4] .

وكان هدف أبي المهاجر فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدّهم إذا همّوا بالمسير الى المسلمين أثناء غزوه للبلاد ، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط مواصلات أبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً .

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد ، حتى وصل (مِيلَة)[5] في الجنوب الشرقي لـ (بِجَايَة)[6] وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً ، فوجدها مستعدة للقتال ، وكان فيها طائفة من البربر

---

(١) جزيرة شريك : كورة بافريقية بين سوسة وتونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٩٩) . وهي في الواقع شبه جزيرة . انظر الخريطة المرفقة .

(٢) انظر معجم البلدان (٣/١٠٠) .

(٣) هو شريك العبسي ، وكان احد العاملين على هذه الجزيرة فسميت باسمه ، وشريك هذا هو والد قرة بن شريك عامل مصر المشهور .

(٤) الاستقصا (١/٧١) .

(٥) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى افريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٦) .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر ، بين إفريقية والمغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٦٢) .

والروم قد تحصّنوا فيها ، فنازلها أبو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها واستقرّ فيها [١] .

كانت (ميْلَة) تتوسّط المغربين الأدنى والأوسط ، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع ، فجعل أبو المهاجر (ميلة) مقرّه وأقام فيها سنتين[٢] ، وكان خلال هذه المدة يتّصل بالبربر وينشر فيهم الدين ، ويريهم حقيقة المسلمين .

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة (أُورْبَة) [٣] لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها ، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم الأوربي ؛ وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد ، غيوراً على وطنه ، وكان البربر يجلّونه ويحبونه ، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه . ورأى كسيلة أبا المهاجر في (ميلة) فعلم أنه لا بدّ أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ؛ فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد . واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم ، فسمع أبو المهاجر بجمعه ، فسار اليه .

وكان كسيلة قد عسكر بـ(تِلِمْسان)[٤] ، فقصده أبو المهاجر ، والتقى الجيشان هناك ، فدارت معركة حامية بينهما ، فانتصر المسلمون وأُسر كسيلة ، فحُمِلَ الى أبي المهاجر ، فأحسن اليه أبو المهاجر وقرّبه ، وعامله معاملة الملوك[٥] . وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٤ – ٣٥) .

(٢) النجوم الزاهرة (١/١٥٧) .

(٣) أوربة : تنقسم الأمة البربرية الى قسمين كبيرين ، كل قسم يحتوي على قبائل كثيرة ، وهذان القسمان هما : البرانس والبتر . والبرانس تشتمل على قبائل كثيرة أكبرها هي هوارة وكتامة وزواوة وصنهاجة وأوربة ومصمودة . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) .

(٤) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير ، على بعد مرحلة من وهران . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤٠٩) .

(٥) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٨) والاستقصا (١/٧١) .

فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه[1] ، وانتهى الى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر[2] ، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط[3] فصالح أبو المهاجر بربر (إفريقية) وفيهم كسيلة الأوربي وصالح عجم (إفريقية) ، ثم رجع الى (القيروان) وأقام بها[4] .

الشهيـــد :

ردّ يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري الى (افريقية) سنة اثنتين وستين الهجرية[5] ، فخرج عقبة سريعاً[6] ، فوصل الى (القيروان) مجداً وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد[7] وأساء عزله وغزا به معه وهو في الحديد[8] .

وأراد عقبة أن ينهض إلى (طنجة) فقال له أبو المهاجر : « ليس بطنجة عدو لك ، لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد – يريد كسيلة – فابعث معه والياً » ، فأبى عقبة إلا أن خرج بنفسه[9] .

وكان كسيلة في جيش عقبة قد استصحبه معه في غزواته ، وكان يستهين به ويمتهنه ، فأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه ، فدفعها كسيلة الى غلمانه ، فأراده عقبة على أن يتولاّها بنفسه وانتهره ، فقام اليها كسيلة مغضباً وجعل كلّما دسّ يده في الشاة مسح بلحيته . وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو

---

(١) الاستقصا (١/٧١ – ٧٢) .
(٢) رياض النفوس (١/٢١) والاستقصا (١/٧٢) .
(٣) الاستقصا (١/٧٢) .
(٤) رياض النفوس (١/٢١) .
(٥) رياض النفوس (١/٢٢) والاستقصا (١/٧٢) وابن الاثير (٤/٤٢) .
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .
(٧) ابن الأثير (٤/٤٣) .
(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧) .
(٩) رياض النفوس (١/٢٦) .

معتقل عند عقبة ، فبعث اليه ينهاه ، ويقول : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد الى رجل جبار في قومه وبدار عزه ، حديث عهد بالشرك، فتفسد قلبه ؟ ! توثق من الرجل فإني أخاف فتكه » ، فتهاون به عقبة ؛ فلما انصرف نكث البربر ما كانوا عليه . وأقبلت النفرة الى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : « عاجله قبل أن يجتمع أمره »[1] .

وغشى كسيلة عقبة بقرب (تَهُوْذَة)[2] في جيش كثيف ، فنزل عقبة عن فرسه وقال : « أطلقوا أبا المهاجر » ، ثم قال له : « إلحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين ، وأنا أغتنم الشهادة » ، فقال أبو المهاجر : « وأنا أغتنم الشهادة مثلك » ؛ فكسر كل واحد منهما غمد سيفه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم ، وقاتلوا حتى قتلوا[3] .

وفي رواية أن أبا المهاجر كان موثقاً بالحديد ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تصمّ المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة » ، فلم يفعل[4] . وقيل : إن عقبة أمر بتخلية أبي المهاجر ، فقاتل وهو موثوق بالحديد[5] ، فقتل عقبة ومن معه ، وقتل أبو المهاجر

---

(١) رياض النفوس (١/٢٦) وانظر الاستقصا (١/٧٤) .
(٢) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان (٢/٤٣٢) .
(٣) رياض النفوس (١/٢٦ - ٢٧) .
(٤) ابن الأثير (٤/٤٣) .
(٥) رياض النفوس (١/٢٧) .

وهو موثوق في الحديد[1]، وكان مقتل عقبة وأصحابه ومنهم أبو المهاجر[2] سنة ثلاث وستين الهجرية[3] (٦٨٣ م) وقتل مع عقبة زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ (تهوذة)، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصّصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة، وهو في عداد المزارات[4].

الانسان :

نجهل كل شيء عن أصل أبي المهاجر ومولده ونشأته الأولى، ولعلّ معاملة أبي المهاجر القاسية لعقبة كان لها أثر بالغ في اغفال بعض المؤرخين لذكره، على الرغم ما كان يتمتّع به من مزايا سامية وخصال حميدة.

فهل كان أبو المهاجر معتدياً على عقبة في سجنه؟ الظاهر أن أبا المهاجر كان منفذاً لأوامر مسلمة بن مخلّد ليس إلاّ، إذ ليس من المعقول ولا من المنطق أن يُقدم أبو المهاجر وهو مولى على سجن عقبة الصحابي العامري القرشي مخالفاً أوامر مسلمة بن مخلد وبدون موافقته[5]، وإنما حبسه – كما يبدو – لأنه كان يتمتّع بشعبية طاغية ما كان لأبي المهاجر أن ينجح في أعماله وعقبة طليقاً حراً. يدلّنا على ذلك أن معاوية لما أمر بإطلاق سراح عقبة، أطلقه أبو المهاجر وأرسله برسل من قبله حتّى أخرجوه من (قابس)[6]،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٣) والبداية والنهاية (٢١٧/٨) وابن الأثير (٤٣/٤) والاصابة (٨١/٥).

(٣) الاستقصا (٧٤/١).

(٤) الاستقصا (٧٤/١).

(٥) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٦): فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد، فأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر، ولقد أوصيته بك خاصة ... انتهى. ومن المحتمل ان يكون مسلمة قد اعتذر عن تقصيره من عقبة بذلك ليس إلا.

(٦) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢) وتقويم البلدان (١٤٢ – ١٤٣). وانظر رياض النفوس (٢١/١) حول إخراج عقبة.

فلو لم يكن أبو المهاجر يخشى عقبة لما أرسله مخفوراً الى حدود ليبيا ، وعلى كل ، فان حبس عقبة كان أحد تدابير الأمن التي اتخذها أبو المهاجر منعاً للفتن والشغب الذي كان يتوقعه من أنصار عقبة ، ولم يكن هذا الاجراء إلا من أجل المصلحة العامة التي هي فوق مصالح الأشخاص مهما يكونوا .

وما يقال عن سجن عقبة ، يقال عن سجن أبي المهاجر بعد ولاية عقبة الثانية ، إذ أصبح لأبي المهاجر شعبية طاغية أيضاً خاصة عند البربر وزعيمهم كسيلة بالذات ، لأن ابا المهاجر حين ظفر بكسيلة عرض عليه الإسلام فأسلم ، فأحسن اليه أبو المهاجر واستعفاه ، وكان في عسكر المسلمين حتى عزل أبو المهاجر[1] ؛ وقيل : إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبي المهاجر ، لأنه كان صديقه ، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به[2] .

لقد كان أبو المهاجر يوقّر عقبة ويعرف ما له من المقام العظيم . فقد بلغ أبا المهاجر أن عقبة دعا عليه وقال : « اللهم لا تمتني حتى تمكّني من أبي المهاجر دينار بن أبي دينار » ، فلم يزل أبو المهاجر خائفاً منذ بلغته دعوته[3] ، فكيف يعاقبه أبو المهاجر ويسيء اليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راغماً[4] ؟؟

وقد أثبت أبو المهاجر بأنه لم يحقد على عقبة لأن عقبة حبسه وقيّد حريته ، فقد أسدى لعقبة من النصح والمشورة على الصعيدين العسكري والإداري ، وهو سجين وأخيراً بذل نفسه رخيصة في سبيل عقيدته ، ففضّل الموت شهيداً بيد صديقه الحميم كسيلة على النجاة بحياته بيد هذا الصديق الحميم مشاركاً عقبة الذي سجنه مصيره المشرف ، فخسر كلّ شيء إلا الشرف !

لقد كانت سيوف المسلمين للمسلمين لا عليهم ، وكانت سيوفهم على

---

(١) رياض النفوس (١/٢٥ - ٢٦) .

(٢) رياض النفوس (١/٢٥) .

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦) وانظر رياض النفوس (١/٢١) .

(٤) أنظر فتح العرب للمغرب (١٥٢) .

أعدائهم حتى ولو كان أولئك الأعداء او لا زالوا من الأصدقاء..

فمن حق أبي المهاجر أن يعرف العرب المسلمون حقّه عليهم، ومن حقّه ألاّ يغمطوا هذا الحق، وأن يذكروه بالفخر والتقدير والاعزاز، ويكفي أن يذكروا قولته: «ألقى الله في حديدي»[1]، مُفضِّلاً الموت الأكيد بعزة على العيش الأكيد بذلة، ليعرفوا مبلغ عمق ايمانه وعظم تضحيته في سبيل مبادئه وعقيدته وشرفه.

لقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً، وكان مؤمناً حقاً وعلى شيء كثير من الحكمة وبُعْد النظر.

القـــائد:

كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها الى (الفُسْطاط)[2]، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر: أقام بها الشتاء والصيف، واتخذها منزلاً[3] ... وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية، وهو أن (إفريقية) أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمئنون فيه دون أن يعودوا الى مصر بعد كل غزوة، أي أنها أصبحت رغم تبعيّتهـــا لمصر ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية؛ فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون (إفريقية) ثم يقفلون منها الى الفسطاط، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها، فإنهم يقيمون بها العام كله، ويخرجون للغزو من قيروانها ثم يعودون اليه مرة أخرى. وقد صاحب هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٨).

(٢) الفسطاط: مدينة محدثة بناها عمرو بن العاص لما فتح ديار مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان في موضع الفسطاط قصر قديم يقال له: قصر الشمع؛ وكان فسطاط عمرو حيث الجامع المعروف بجامع عمرو في القاهرة الآن. انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١١٨-١١٩) ومعجم البلدان (٦/٣٨٠) والمسالك والممالك (٤٠).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٦).

للبلاد تحوّل جوهري في سير الفتوح فيها ، فقد أصبحت غاية الغزوات إتمام فتح (إفريقية) وجعلها بلاداً إسلامية كمصر والشام سواء بسواء[1].

ومن الإنصاف هنا ، أن نذكر لعقبة بن نافع الفهري فضله في هذا المجال ، فقد عمل جاهداً لبناء (القيروان) ليكون القاعدة المتقدمة للمسلمين في إفريقية : تخرج منها جيوشهم للفتح ، وتعود اليها بعد إنجاز مهمتها ، وتتحصّن فيها عند الخطر ، وتكون مستودعاً لأرزاقهم وعتادهم وموادهم الإدارية الأخرى . وما كان تحوّل أبي المهاجر عنها ليقضي على قيمتها العسكرية الحاسمة ، بل بقيت الأغراض التي بنُيت من أجلها مدينة القيروان قائمة .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا فضل لأبي المهاجر في هذا التطور السياسي الذي جدّ على سير الفتوح في (إفريقية) ، بل كان لما اتّسم به أبو المهاجر من بُعد النظر أثره الكبير الحاسم على هذا التطوّر ، ولعل خير دليل على بعد نظره وعزمه الأكيد على جعل الفتح الإسلامي في (إفريقية) ليس مجرد غارات تستهدف جمع الأموال والغنائم ، هو ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل (قرطاجنة) بشرط إخلاء جزيرة (شريك) التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين ، حتّى يحرم الروم من تلك القاعدة الحيوية ، وحتّى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم .

لقد فضّل أبو المهاجر جزيرة (شريك) الموقع السوقي (الإستراتيجي) على المال والغنائم ، وهذا دون شك ، قرار عسكري في منتهى الأهمية ، وله دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد نظر وتفكير عسكري سليم .

فقد أراد أبو المهاجر من ذلك أن يكون الفتح الإسلامي في (إفريقية) فتحاً مستداماً تترسّخ به أقدام المسلمين في (إفريقية) ، وتكون (إفريقية)

---

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٦ - ١٥٧).

به بلاداً إسلامية أسوة بالبلاد المفتوحة الأخرى ، وألاّ يقتصر الفتح الإسلامي في (إفريقية) على الغارات التي قد يكون من نتائجها الربح المادي فقط دون الربح المعنوي الذي هو الهدف الأول للفتح الإسلامي ، هذا الربح المعنوي الذي يهدف الى نشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة ، فيكون بذلك فتحاً فكرياً يبقى على الزمن لا استعماراً من أجل المنافع المادية ؛ لذلك استقرّ أبو المهاجر في (ميلة) سنتين يدعو البربر الى الإسلام ، وينشر هذا الدين في ربوعهم ؛ فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا.

لقد صاحب أبو المهاجر مسلمة بن مخلّد الأنصاري مدة طويلة في حروبه : في فتح مصر وفي القضاء على الفتن الداخلية ، فلما تولى (إفريقية) كان مهيئاً للقيادة نظراً لتجربته الطويلة في معاناة الحروب.

وفي أيام قيادته في (إفريقية) عانى أبو المهاجر حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ الى شروط أبي المهاجر ، وهذا النوع من الحروب يتميّز القائد الذي يعانيها بالضبط الشديد والصبر الجميل.

كما عانى حروب الميدان حول (تلمسان) ، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر ، وهذا النوع من الحروب ، يتميّز القائد الذي يعانيها بالشجاعة والإقدام ، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة ، وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية.

لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم : يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفراً من ذلك ، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم وبالعقيدة البناءة المنشئة ؛ فاذا كان لسيفه بعض الأثر على انتصاره ، فقد كان لعقله أكبر الأثر على هذا الانتصار.

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته التأييد والنصر ، وكان محباً لرجاله محبوباً

منهم ، يثق بهم ويثقون به ، وكان كامل العقل ، طويل التجربة ، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، حسن التعبية ، حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً ، بعيد النظر ، صحيح القرارات والخطط .

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه طبّق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته) ، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً ، فهو داعية أولاً وقائد ثانياً ؛ وأنه طبّق مبدأ (التعرض) ، فكانت معاركه كلها تعرضيّة ، وانه طبّق مبدأ (تحشيد القوة) قبل البدء بحركاته ، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء[1] ، وأنه طبق مبـدأ (الإقتصاد بالمجهود) فلم يفرّط بقواته دون مبرِّر ، وأنه طبّق مبدأ (الأمن) فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة ، وأنّه طبّق مبدأ (المرونة) فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ؛ وأنه طبّق مبدأ (التعاون) فوحّد جهود رجاله لإحراز النصر ، وأنه طبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ومبدأ (الأمور الإدارية) بشكل ملحوظ .

لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً .

أبو المهاجر في التاريخ :

يذكر التاريخ لأبي المهاجر فتحه للمغرب الأوسط ونشره الإسلام في ربوعه .

ويذكر التاريخ لأبي المهاجر ، عمله الدائب المنظّم لنشر الإسلام بين قبائل البربر بالسياسة الحكيمة والحسنى والمنطق والحجة البالغة .

---

(١) رياض النفوس (١/٢١) .

ويذكر له ، أنه آثر الاستشهاد مع أبناء عقيدته ، على الحياة مع أصدقائه الشخصيين وأعداء عقيدته .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الداعية الموهوب ، القائد الفاتح ، الإداري الحازم ، السياسي المحنّك، البطل الشهيد ، أبي المهاجر دينار .

زهير بن قيس البلوي[1]
فاتح منطقة مدينة تونس[2]
وقائد المعركة الحاسمة[3] في إفريقية على البربر

« إنما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحبِّ الدنيا »

(زهير بن قيس البلوي)

نسبه وأيامه الأولى :

هو زهير بن قيس البلوي[4]، يكنى أبا شدّاد[5]، يقال له صحبة[6]، وجزم بعضهم بصحبته ، فقال : « هو من الصحابة »[7] . شهد فتح مصر[8] وكان فتحها سنة عشرين الهجرية[9] ، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام

---

(١) بلي : بفتح الباء وكسر اللام . علي بن ابي طالب وزن علي ، من قضاعة . انظر جمهرة أنساب العرب (٤٧٩) ، ومن بطون قضاعة بلي بن عمرو بن مالك بن إلحاف بن مالك بن قضاعة . انظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٤٠ .

(٢) تونس : بالضم ثم السكون والنون تضم وتفتح وتكسر . مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم : ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٢/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٢ - ١٤٣) والمسالك والممالك (٣٣) .

(٣) المعركة الحاسمة : هي معركة لسحق جيش العدو الذي هو هدف الحركات الخطير ، وبذلك تستسلم بلاده لعدم وجود قوة ضاربة تدافع عنها .

(٤) الاصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) وتهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٥) الاصابة (١٧/٣) .

(٦) الإصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) والاستقصا (٧٦/١) .

(٧) تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥) .

(٨) الإصابة (١٧/٣) .

(٩) ابن الأثير (١٨/٢) والعبر (٢٣/١) وشذرات الذهب (٣١/١) وأبو الفدا (١٦٣/١)

الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو صحابي بالمولد .

روى زهير عن جماعة الصحابة وروى عنه جماعة من التابعين [1]، وقد عدّه بعضهم من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر [2] ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

جهـــاده :

١ ـ شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، وغزا (إفريقية) ووليها [3] ، وفي سنة اثنتين وستين الهجرية ردّ يزيد بن معاوية عُقبة بن نافع الفهري الى (إفريقية) [4] فاستخلف على (القيروان) زهيراً [5] وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة [6] .

٢ ـ ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في (تَهُوْذَة) [7] سنة ثلاث وستين الهجرية [8] (٦٨٣ م) قصد (كسيلة بن لَمْزَم القـيروانَ في جمع كثير من الروم والبربر ؛ فعزم زهير على القتال، فخالفه حَنَش

(١) انظر التفاصيل في الإصابة (٣/١٧) وتهذيب ابن عساكر (٥/٣٩٣) .
(٢) رياض النفوس (١/٦٠) والاستقصا (١/٧٦) .
(٣) رياض النفوس (١/٦٠) .
(٤) رياض النفوس (١/٢٢) والاستقصا (١/٧٢) .
(٥) ابن الأثير (٤/٤٣) . وفي رياض النفوس (١/٢٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٦٧) انه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي .
(٦) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٨) .
(٧) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم . انظر معجم البلدان (٢/٤٣٨) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) والبداية والنهاية (٨/٢١٧) وابن الأثير (٤/٤٣) والإصابة (٥/٨١) .

الصنعاني وعاد[1] إلى مصر فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير الى العودة معهم ، فسار الى (بَرْقَةَ)[2] وأقام بها[3] .

وقد زحف كسيلة البرنسي الى القيروان سنة أربع وستين الهجرية وانتزعها من يد المسلمين في المحرم[4] ، فعظم البلاء على المسلمين ، فقام زهير بن

---

(١) حنش الصنعاني : هو حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد من صنعا دمشق . روى عن فضالة بن عبيد ورويفع بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد ، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة . غزا المغرب وسكن إفريقية وعداده في المصريين وهو تابعي كبير ثقة . دخل الأندلس وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتل علي وغزا المغرب والأندلس . كان حنش إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرب المصحف وإناء فيه مـاء ، فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء ، وإذا تمايا في آية نظر في المصحف ، وكان إذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح بأهله : « أطعموا السائل » ، حتى يطعم . نزل مصر ومات سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتي به عبد الملك في وثاق فعفا عنه ، وذلك لأن عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقيـة سنة خمسين الهجرية ، فحفظ له ذلك . وكان حنش أول من ولي عشور إفريقية في الإسلام ، وكان له عقب بمصر . غزا الأندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : إن جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه وأنه أول من اختطه . وفي رواية : أن أبا المهاجر دينار بعث حنش الصنعاني الى جزيرة شريك (في إفريقية) فافتتحها . أنظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٥/٩-١١) ومعجم البلدان (٥/٣٩٢-٣٩٣) والاستقصا (١/٧١) ، وقد جاء في ابن الأثير (٤/٤٣) ... فخالفه جيش الصنعاني .. انتهى ، والصحيح هو حنش لا جيش كما هو واضح .

(٢) برقة : إسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية واسم مدينتها : إنطابلس ، وتفسيره : الخمس مدن . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣) .

(٣) ابن الأثير (٤/٤٣) .

(٤) الاستقصا (١/١٧) . وفي فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) : ثم زحف ابن الكاهنة (كسيلة) الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه . وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر لاجتماع ملأ البربر ، وأقام ضعفاء أصحابهما ومن كان خرج معهما من موالي إفريقية بأطرابلس ، وكان مقتل كسيلة في سنة أربع وستين الهجرية ... انتهى .

ومن الواضح ان هذه الرواية مرجوحة ، إذ أن كسيلة هو الذي جمع البربر والروم سنة أربع وستين الهجرية لقتال المسلمين في (القيروان) ، فاذا استطاع المسلمون قتله وقتل أصحابه ، فلماذا ينسحبون من (القيروان) ؟؟

قيس خطيباً في الناس ، فقال : «يا معشر المسلمين ! إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة ، وقد من الله عليهم بالشهادة ؛ فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك » ؛ فقال حنش الصنعاني : « لا والله ، ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين الى مشرقهم » ، ثم قال : «يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول الى مشرقه فليتبعني » ، فأتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ؛ فنهض في أثره ولحق بقصره بـ (برقة) ، فأقام بها مرابطاً الى دولة عبد الملك بن مروان . وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره ، فلما قرب من (القيروان) خرج من كان فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، فأمّن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين ، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان[1] . ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال ، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من العرب . واضطرم المغرب ناراً ، وفشت الردة في البربر ، إلى أن استقلّ عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق ، فالتفت الى المغرب[2] ليصفي حسابه هناك .

وفي رواية ، أن زهيراً خليفة عقبة في القيروان ، لما بلغه ما جرى على عقبة ، رعب رعباً شديداً ، وأراد الإنصراف الى مصر ، فمنعه أحد أصحابه[3] وقال : «لا تفعل ، فإنها هزيمة الى مصر » ، ثم برز للعدو فكان أول من برز فضرب خباءه ، فلما رأى زهير عزمه ،

---

(١) الاستقصاء (١/١٨) : وقد ورد في الاستقصا (١/٧٥) في خطاب زهير : « ... فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم » .

(٢) الاستقصا (١/٧٥) .

(٣) منعه ابن حيان الحضرمي . انظر رياض النفوس (١/٢٨) .

عزم معه ، وكان معه ستة آلاف رجل : ألفان من البربر، وأربعة آلاف من العرب . وزحف زهير الى كسيلة وقاتله قتالاً شديداً ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه مالا يحصى وتفرقوا[1] .

والظاهر أن الرواية الأولى هي أصح الروايات ، إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر ، وبعد أن ارتفعت معنوياتهم نتيجة لانتصارهم على عقبة بن نافع في (تهوذة) واستشهاده واستشهاد زهاء ثلاثمائة رجل من أصحابه معه ، خاصة وأن الرجال الذين كانوا مع زهير في القيروان على قلتهم ، لم يكونوا من المحاربين الممتازين ، إذ ليس هناك قائد يمكن أن يستغني عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ويبقيهم في الخلف وهم من محاربي الدرجة الأولى ؛ بل إن القادة يتركون في الخلف وراءهم محاربي الدرجة الثانية من كبار السن ، أو ذوي العاهات أو من غير الشجعان ... الخ ، ومثل هذا الجيش لا يستطيع صدّ جيش لجب كجيش كسيلة يتمتع بمعنويات عالية فائقة .

لذلك انسحب زهير من القيروان الى (برقة) ، وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية ، لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر ، يؤدي الى كارثة عسكرية تحل بجيشه دون مبرر ولا جدوى .

٣ ــ ولما استقلّ عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية كان زهير مرابطاً في (برقة) منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري[2] ، فذُكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم[3] من يد (كسيلة) وأن يُعزّ الإسلام بها كما كان في أيام عقبة ، فقال لهم عبد الملك : « من للأمر مثل عقبة ؟! » ،

---

(١) رياض النفوس (٢٨/١ – ٢٩) .

(٢) الاستقصا (٨١/١) .

(٣) ابن الأثير (٤٣/٤) .

فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير ، وكان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين ؛ فوجّه اليه عبد الملك ، وأمره بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فسرّ ذلك زهيراً وسارع الى الجهاد [1] .

ولكن زهيراً كتب الى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر [2] ، وبقلّة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ؛ فسارع الناس الى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير ؛ فلما وصلوا اليه خرج بهم إلى (إفريقية) . فلما دنا من (القيروان) نزل بقرية يقال لها (قَلْشَانَة) [3] وذلك في سنة تسع وستين الهجرية ، فبلغ ذلك كسيلة — وكان في خلق عظيم من الروم والبربر ، فدعا كبارهم وأشرافهم ، وشاورهم وقال لهم : « أرى أن ننزل بـ (مَمِّس) [4] لئلا يركبنا مَنْ بالقيروان فنهلك [5] ، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا ، فإذا نزلنا (ممس) أمناهم وقاتلنا زهيراً ، فإن ظفرنا بهم تبعناهم الى (طرابلس) وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا تعلّقنا بالجبال ونجونا [6] . كما أن الماء بـ (ممس) كثير » ، فأجابوه الى ذلك . ورحل الى (ممس) فبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح [7] .

---

(1) رياض النفوس (٢٩/١) .

(2) الاستقصا (٨١/١) .

(3) وردت في رياض النفوس (٣٠/١) : قرشانة ، ووردت في معجم البلدان (١٤٧/٧) قلشانة ، وهي مدينة بافريقية بضواحي القيروان . انظر معجم البلدان (١٤٧/٧) وهامش رياض النفوس (٣٠/١) .

(4) وقد وردت في ابن الأثير (٤٣/٤) : ممش وهي في المضبة في الجنوب الشرقي لجبال أوراس في الجزائر الآن .

(5) رياض النفوس (٣٠/١) وفي ابن خلدون (١٨٧/٤) : أن زهيراً زحف سنة سبع وستين .

(6) ابن الأثير (٤٣/٤ — ٤٤) .

(7) ابن الأثير (٤٤/٤) ورياض النفوس (٣٠/١) . والبيان المغرب (٢٠/١) .

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس[1] وسائر البربر ولقيه بـ (ممس) من نواحي القيروان. وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول؛ فلما أصبح زحف اليه. وأقبل كسيلة ومن معه، فالتحم الفريقان، ونزل الضر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل. ومضى الناس في طلب البربر والروم، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم، وجدّوا في طلبهم الى وادي (مَلْوِيّة) واد بـ (طنجة) بالمغرب، وفتح (شِقّبنارِية)[2] وقلاعاً أُخَر[3]، وفتح مدينة (تُونس)[4]؛ وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم[5]، وقتل رجال البربر والروم ملوكهم وأشرافهم[6]، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا الى الحصون والقلاع[7] واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر[8]. وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، وكسرت شوكة (أوربة)[9] من بينهم، واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة (وَلِيلْى) وكانت فيما بين (فاس) و (مكناسة) بجانب جبل (زَرْهُون)، ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر[10].

لقد كانت معركة (ممس) معركة حاسمة حقاً، فقد قضى زهير على

---

(١) البرانس: قبيلة من البربر.

(٢) هي مدينة Sicca Vaneria الرومانية القديمة، وتسمى الآن: الكف.

(٣) رياض النفوس (٣٠/١) وانظر ابن الأثير (٤٤/٤) والبيان المغرب (٢٠/١) والاستقصا (٨١/١).

(٤) البلاذري (٢٣١).

(٥) الاستقصا (٨١/١).

(٦) ابن الأثير (٤٤/٤).

(٧) البيان المغرب (٢٠/١).

(٨) الاستقصا (٨١/١) وقد وردت كلمة الفرنجة بديلا من كلمة الاسلام.

(٩) قبيلة من قبائل البربر.

(١٠) الاستقصا (٨١/١).

مقاومة البرانس ، فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ؛ لأن بُتر[1] البربر كانوا إلبـاً مع العرب أنصاراً لهم لانتشار الإسلام فيهم ، وأن البرانس من البربر حملوا لواء المقاومة يمدّهم الروم بالعون ؛ فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب[2] .

٤ ــ وعاد زهير الى (القيروان) ، فرأى بإفريقية ملكاً عظيماً ، فأبى ان يقيم بهـــا وقال : « إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن أميل الى الدنيا فأهلك » ، وكان من روؤساء العابدين وكبراء الزاهدين ؛ فترك القيروان آمنة ، وانصرف عنها ، وأقام بها كثير من أصحابه[3] .

ترك القيروان آمنة ، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة ، ورحل في جمع كثير الى مصر ، فبلغ الروم خروجه من (إفريقية) الى (برقة) ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة[4] من القسطنطينية وجزيرة صقلية[5] ، فأغاروا على برقة وأصابوا بها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير الى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم . وأشرف على الروم ، فاذا هم في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ؛ فنادى بأصحابه : «النزول» ، فنزلوا ، وكان أكثرهم من التابعين . ونزل الروم اليهم ، وتلقّوهم بعدد عظيم ، فالتحم القتال وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير وأشراف من كانوا معه مـــن

(١) قبيلة من البربر .

(٢) فتح العرب المغرب (٢٣٠) .

(٣) انظر ابن الأثير (٤٤/٤) والبيـــان المغرب (٢٠/١) والاستقصا (٨١/١) ورياض النفوس (٣١/١) .

(٤) البيان المغرب (٢١/١) .

(٥) ابن الأثير (٤٤/٤) .

العرب[1] ، ولم ينج منهم أحد ؛ وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية[2] .

وفي رواية ، أن الروم بالقسطنطينية عندما بلغهم مسير زهير من برقة الى إفريقية لقتال كسيلة ، اغتنموا خلوّها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة ، فأصابوا منها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم . ورحل هو ومن معه ، وكان الروم خلقاً كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به ، فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال ، فاشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيراً وأصحابه ، ولم ينج منهم أحد ، فعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية[3]

ونحن جديرون أن نتأمل قليلاً هاتين الروايتين : الأولى أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من إفريقية الى برقة ، والثانية أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من برقة إلى إفريقية .

والفرق بين الروايتين كبير جداً من الناحية العسكرية ، فالرواية الأولى تدل على أن الروم استهدفوا من حملتهم جيش زهير بالدرجة الأولى ، لذلك جرى إنزالهم في برقة لا في الموانى الإفريقية الأخرى وهي على طريق عودته من القيروان الى مصر ، لأجل سحق جيش زهير وهو الهدف السوقي (الاستراتيجي) الحيوي في الحرب ، لأن القضاء على الجيش معناه انتهاء كل مقاومة معادية .

ومما يدل على أن خطة الروم كانت ترمي الى القضاء على جيش زهير بالدرجة الأولى ، هو تحشيد جيش ضخم من القسطنطينية ومن صقلية في آن واحد وتوقيت إنزاله في برقة في وقت معين محدّد هو موعد وصول

(١) البيان المغرب (٢١/١).
(٢) ابن الأثير (٤٤/٤).
(٣) ابن الأثير (٤٤/٤).

جيش زهير الى تلك المنطقة ، ولو كانت نيّات الروم مجرّد غارة لما بذلوا كلّ هذه الاستعدادات الضخمة في إعداد الخطط الموقوتة وتحشيد الجيوش الكبيرة ، ولما اجروا إنزالهم في وقت وصول طلائع جيش زهير الى برقة أو قبله .

أما الرواية الثانية ، فتدل على أن خطة الروم كانت غارة لجمع الغنائم والأسلاب ، وهذه الغارة لا تحتاج إلى تلك الاستعدادات الدقيقة الموقوتة وتحشيد الجيوش الضخمة .

فمن الواضح إذاً ، أن الروم أجروا إنزالهم في برقة — مع كل ما ذكرنا من ضخامة الجيوش وضخامة الإستعدادات — للقضاء على جيش زهير ليفوّتوا عليه فرصة نجاحه الكبير في معركة (ممس) وليستعيدوا سلطتهم الكاملة على (إفريقية) ؛ لذلك فإن الرواية الأولى هي المقبولة ، لأنها تتفق مع والواقع الذي جرى فعلاً ، ولأن سير الحوادث يؤيدها من كل الوجوه .

لقد شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب المسلمين كانوا إذ ذاك يحاصرون القسطنطينية حصارهم الأول الذي بدأ سنة ثمان وأربعين الهجرية واستمر الى ما بعد سنة خمسين الهجرية ، ولبثت الدولة الرومانية بضعة أعوام بعد ذلك تقاسي عقابيل هذه المحنة التي كادت تودي بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها إلا بعد سنة خمس وخمسين الهجرية[1] ؛ إذ نشط الروم بعدها نشاطاً مفاجئاً ترجع أسبابه إلى إسترجاع الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه الديني واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في (إفريقية) وغيرها[2] ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة أستطاع فيها الروم أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم

---

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٩).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢١٣).

إستعداداً لصراع حاسم[1] .

فلماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في (ممس) ؟ إن تعليل المراجع لذلك بقولها : إنه خشي الفتنة على نفسه ، وكان من العباد المخبتين ، فقال : « إنما جئت للجهاد في سبيل الله ، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فأهلك[2] » .. الخ تعليل ضعيف ، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط في دار الحرب ، فإذا فضّل على ذلك العودة الى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه ، بل دليل أمور أخرى وبدافعها[3] . فما أسباب عودته مسرعاً ؟ الظاهر أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة ، لذلك سارع الى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولاً ، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانياً ؛ خاصة أنه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريباً ، لعدم تيسّر قوات إسلامية كافية فيها تحميها من غارات الروم بجيوش ضخمة عليها ، وليس معنى ذلك أن تلك المنطقة كانت محرومة تماماً من مدافعين عنها ، إذ أن ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقاً من الناحية العسكرية فلا بدّ أن يكون فيها عدد مناسب من الرجال لحمايتها من الغارات المحدودة أو من قوات معادية قليلة وذلك بمشاغلتهم مدة من الزمن حتى تردهم النجدات والإمداد ، إذ لا يمكن أن يترك أي قائد أية منطقة على خطوط مواصلاته دون حماية كافية ، ولكن القوة التي تركها في برقة لا ترقى أن تكون كافية في صد جيوش كبيرة ، وهذا ليس خطأ زهير بتاتاً ، إذ ليس بامكانه أن يوزع رجاله بأعداد كبيرة ليكوّنوا حاميات على طول خطوط مواصلاته التي تمتد الى قرابة ألفي ميل ، وليس هناك قوة كافية لهذا الغرض ، فلم

---

(1) فتح العرب للمغرب (215).

(2) الاستقصا (1/81).

(3) فتح العرب للمغرب (227).

يكن له إلاّ أن يترك حاميات صغيرة في النقاط السوقية (الاستراتيجية) المهمة لحمايتها من قوات معادية محدودة ولفترة محدودة من الزمن.

ولكن المعلومات التي وردت عليه عن حشود الروم الضخمة باتجاه منطقة برقة، جعلته يقرّر فوراً العودة أدراجه الى تلك المنطقة لمواجهتها بقواته الضاربة، وفعلاً وصل الى تلك المنطقة في الوقت المناسب، ولكنه دُحر أمام الروم لأن قواته لم تكن كافية في إحراز الظفر عليها، بالرغم من إقدام زهير وإقدام رجاله على مقاتلة الروم بشجاعة وتضحية وفداء.

وهكذا سقط زهير وكثير من رجاله شهداء في ساحة الوغى، لأن القوتين العربية والرومية لم تكونا متكافئتين، ولأن العرب كانوا مجهدين من سفرهم الشاق الطويل آلاف الأميال، ولأن الوقت المتيسر لزهير لم يكن كافياً في إعداد الخطة العسكرية الدقيقة لمقاومة الغزو ولتلقّي الإمداد من المشرق، فاندفع زهير ودفع قواته بمثل تلك الظروف بحوافز عاطفية لتخليص الأسرى المسلمين من أيدي الروم، فوقعت الكارثة بزهير ورجاله، فخسروا كل شيء... إلا الشرف... ولم يكن بإمكانهم ولا بإمكان أي قائد آخر في مثل تلك الظروف والأحوال، أن يفعل غير ما فعله زهير وأصحابه فيلاقي نفس المصير الذي لاقوه.

الإنسان:

كان زهير صحابياً ولكننا لا نعلم عن أيامه الأولى شيئاً كثيراً، وكان ممن لزم عمرو بن العاص ودخل معه دمشق. وفي سنة أربع وستين الهجرية كان زهير بمصر فبعثه أميرها[1] إلى (أيْلَة)[2] ليمنع عبد العزيز بن

---

(١) كان أميرها حينذاك عبد الرحمن بن عتبة بن إياس الفهري. انظر الولاة والقضاة (٤١) وهو المعروف بابن جحدم.

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩١).

مروان من المسير إليها ، وكان زهير حينذاك الى جانب عبد الله بن الزبير على بني أمية ، فهُزم زهير ومن معه أمام عبد العزيز بن مروان[1] . ولعلّ هذا الحادث ترك أثره في نفس عبد العزيز بن مروان على زهير ، فقد ندب عبد العزيز زهيراً الى (برقة) وكان عبد العزيز أميراً على مصر ، فخاطب زهيراً بشيء ، فأجابه زهير : « أتقول هذا لرجل جمع ما أنزل الله على على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ »[2] .

كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين[3] صاحب فضل ودين[4] ، وكان من العباد المخبتين[5] ، وكان من العلماء المتفقهين .

شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية كما أسلفنا ، فاذا كان عمره يوم شهد فتح مصر زهاء عشرين عاماً ، واستشهد سنة إحدى وسبعين الهجرية[6] (٦٩٠ م) فليس من المعقول أن يكون عمره حينذاك اكثر من إحدى وسبعين سنة ، وإلا ما استطاع قيادة الجيوش ومعاناة أمور الحرب وتحمل أعبائها . لذلك كان من المحتمل أن يكون زهير قد ولد في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) ، وقد دفن بـ(دَرْنَة)[7] قريباً من الشاطىء الذي استشهد فيه ، وقبره وقبور الشهداء الذين سقطوا معه معروفة هناك[8] .

وقد ورد في بعض المصادر أنه استشهد سنة ست وسبعين الهجرية[9] ، مع أن خليفته حسان بن النعمان تولى إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية[10] ،

---

(١) الولاة والقضاة (٤٣).
(٢) الاصابة (٢٧/٣) وانظر تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥).
(٣) رياض النفوس (٢٩/١).
(٤) البيان المغرب (٢١/١).
(٥) الاستقصا (٨٤/١) .
(٦) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٥) نقلا عن المؤنس .
(٧) درنة : مدينة في ليبيا على ساحل البحر شرقي بنغازي .
(٨) معجم البلدان (٥٥/٤).
(٩) الإصابة (١٧/٣) ومعجم البلدان (٥٥/٤).
(١٠) ابن الأثير (١٤٣/٤).

فلا بدّ أن حسان بن النعمان تولاّها بعد استشهاد زهير لا قبله !

كما ورد في بعض المصادر ، أن زهيراً قُتِلَ سنة تسع وستين الهجرية[1]، وهذا مرجوح أيضاً ، لأنه ليس من المعقول أن يتولى زهير إفريقية وهو بـ(برقة) في هذه السنة، ثم يُعِدّ جيشه ويتلقى الإمداد ويسير الى (القيروان) ويقاتل هناك ويطارد العدو ، ثم يعود أدراجه من القيروان الى (برقة) بعد مكوثه في (القيروان) ردحاً من الزمن ، ويتّم كل ذلك خلال سنة واحدة ! !

ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير ، عظم عليه واشتد[2]، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة بن نافع قبله[3] لمكانة زهير السامية في نفوس العرب المسلمين .

لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح : شجاعة وبطولة وايماناً وورعـــاً .

القائـــد :

نشأ زهير في بيئة خالصة تتسم بالشجاعة والإقدام ، وترعرع في أيام الجهاد الاولى وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي ، وما كاد يشبّ إلا وانخرط في سلك المجاهدين الفاتحين ، فشهد فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، ثم شهد فتوح إفريقية ووليها أيضاً .

وحين أصبحت مصر بلداً إسلامياً وبدأ الفاتحون يتوغلون غرباً في إفريقية ، كان زهير مع أولئك الفاتحين . وفي سنة ست وأربعين الهجرية كان زهير في جيش عقَبة بن نافع ، فاستخلفه عقبة على جيشه بـ (مغداش)[4]

---

(١) ابن الأثير (٤/١٤٣).

(٢) ابن الأثير (٤/٤٤).

(٣) البيان المغرب (١/٢١) ورياض النفوس (١/٣١).

(٤) مغداش : مدينة قريبة من سرت في طرابلس . انظر هامش فتوح مصر والمغرب (٢٦٢).

وسار بنفسه بمن خف معه لفتح (وَدّان)[1]، ثم عاد عقبة الى عسكره بعد خمسة أشهر[2]. وفي سنة اثنتين وستين الهجرية استخلفه عقبة على (القيروان) حين يمّم شطر المغرب الأقصى الى المحيط الأطلسي[3] كما مرّ بنا ذلك.

لقد كان زهير من أقرب المقرّبين الى عقبة وكان ساعده الأيمن في حروبه وغزواته، فلا عجب أن تجمع آراء ذوي الرأي من المسلمين على اختياره خلفاً لعقبة في فتح (إفريقية)[4] وأخذ ثارات شهداء (تَهوذّة): عقبـة وأصحابه، واستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من كسيلة المتغلب عليها[5].

هذه التجربة لزهير في إدارة الحروب ومعاناتها، أفادت المسلمين عندما أصبح قائداً لجيش إفريقية، فخاض معركة حاسمة في (ممس): ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا الى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، وكسرت شوكة قبيلة (أوربة) القوية المتنفذة في إفريقية كما ذكرنا سابقاً.

وكان قرار زهير الخاص بمطاردة البربر بعد معركة (ممس) قراراً صائباً جداً يدعو الى التقدير والإعجاب، ولولا تلك المطاردة التي كانت بتماس شديد بالبربر لاستطاع البربر التسلل الى الجبال والتخلص

---

(١) ودان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٧٦٩) كلم. انظر التفاصيل في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧).

(٢) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ - ٢٦٤) وفي ترجمة عقبة بن نافع الفهري في هذا الكتاب.

(٣) ابن الأثير (٤٣/٤ - ٤٤).

(٤) البيان المغرب (٢٩/١).

(٥) الاستقصا (٨١/١).

من الخسائر الفادحة التي لحقت بقواتهم ؛ وكان من نتائج تلك المطاردة الموفقة تفويت الفرصة على البربر للتملص من المعركة الخاسرة الى الجبال، وهم الذين تركوا القيروان الى (ممس) ليسهل عليهم الإفلات من العرب المسلمين في حالة دحرهم وذلك باللجوء الى الجبال المحيطة بالمنطقة لتقليل خسائرهم في الأرواح والمواد.

كما كان قرار زهير في البقاء خارج (القيروان) وعدم دخولها. قراراً صائباً حقاً، لأن دخول المدينة يؤدي الى بعثرة قوات المسلمين للدفاع عنها، وبذلك تنقلب خطتهم الهجومية على جيش كسيلة الى خطة دفاعية، والهجوم وحده لا الدفاع هو الذي يؤدي الى إحراز الظفر.

أما استعداداته لإنجاز استحضارات جيشه عَدَداً وعُدَداً، فقد بلغت حدّ الروعة : أمره عبدالملك بن مروان بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية، فكتب الى عبدالملك يخبره بقلة من معه من الرجال والاموال. فأرسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر[1]، وبذلك طبّق زهير مبدئي (التحشد) و (الأمور الإدارية) على أحسن وجه.

ولكن زهيراً أخطأ في اصطدامه مع قوات الروم في منطقة (برقة) دون أن يتخذ كل الاجراءات اللازمة لضمان نجاح هذا الاصطدام، فمن الواضح أنه اصطدم مع الروم وهو بقوات قليلة هي قواته المتقدمة الخفيفة ؛ فقد عدل هو الى الساحل في خيل يسيرة[2]، فوجد أسطول الروم من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد اليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل، وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه[3]، فلما رآه المسلمون استغاثوا

(١) رياض النفوس (٢٩/١).

(٢) معالم الايمان (٥٤/١) وفي رياض النفوس (٣١/١) : انه عدل الى الساحل بقوات كثيرة.

(٣) الاستقصا (٨١/١).

به فلم يمكنه الرجوع ، وباشر القتال[1] ... وهذا يدل على أن الفرسان الذين معه كانوا قليلي العدد ، وأنهم جماعة متقدمة واجبها الاستطلاع فقط لا القتال ؛ ولكنه أنشب القتال خضوعاً لموجة عاطفية عارمة تورّط بتأثيرها هو وأصحابه في قتال غير متوقع في وقت ومكان غير مُناسبين ، وكان عليه أن يكبح جماح عاطفته ، إذ ليس في إعداد الخطط العسكرية مجال للأمور العاطفية ، ويجمع رجاله كافة ويستفيد من كل مقاتل متيسّر ، ويُعدّ الخطة المناسبة للقتال ، ويهيىء الأمور الإدارية لقواته ، ثم يختار هو الوقت والمكان المناسبين لمهاجمة الروم ... عند ذاك تكون فرص نجاحه متهيئة ، ويكون قد أعدّ كل متطلبات القتال قبل نشوبه .

وعلى كل ، فإن العاطفة الدينية المتأججة حينذاك ، ورؤية الرجال والأطفال والنساء أسرى يقادون قسراً الى سفن الروم أدى الى تحمّس رجاله وإقدامهم دون تدبّر وتقدير الى مهاجمة الروم دون خطة مناسبة ولا قوات كافية ، وذلك مما أدى الى تورّط قواته وتورّطه هو نفسه في معركة خاسرة دفع هو ورجاله حياتهم الغالية ثمناً لها .

وربما يتبادر الى الأذهان ، السؤال الآتي : كيف نوفّق بين معرفة زهير بوجود قوات الروم في تلك المنطقة ، وكان ذلك من أهم أسباب عودته من (القيروان) الى (برقة) ، وبين إقدامه على التقدم الى تلك القوات على رأس ثلة من الفرسان فيتورّط في معركة خاسرة ؟ ولماذا لم يتدخل القسم الأكبر من جيشه في تلك المعركة في اثناء نشوبها لإنقاذ زهير وفرسانه ؟ ولماذا لم يأخذ ذلك الجيش بثأره — في الأقل — بعد استشهاده واستشهاد فرسانه معه ؟ ؟

وأبادر إلى الجواب ، بأن مثل هذا السؤال قد يتبادر الى غير العسكريين ، أما العسكريون الذين خاضوا غمار الحروب واصطلوا بنارها ، فيقدّرون

---

(١) ابن الأثير (٤٤/٤) .

أن ما حدث أمر طبيعي جداً بسبب ظروف الحرب غير الإعتيادية التي قدَ تفلت أحياناً من ايدي قادتها فتسير وتتطوّر على غير ما يشتهون.

والى أولئك الذين يتبادر الى أذهانهم مثل هذا السوأل من المدنيين، والى العسكريين النظريين غير المجرّبين، أسوق هذا الجواب.

لست أشك أن حامية منطقة (برقة) التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتمّ بالحصول على المعلومات عن نيّات العدو المتربص بها، فلا بد أن يكون لها مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر والروم: دوريات استطلاعية بريّة وبحرية، ومراكب تمخر عباب البحر، وعيون وأرصاد في مختلف الأماكن والأصقاع. بل إذا حصل كل عربي مسلم وكل مسلم مسوءولاً كان أو غير مسوءول على معلومات مفيدة عن العدو، فإنه يرى نفسه مسوءولاً عند الله وعقيدته وقومه عن إيصال تلك المعلومات إلى المسوءولين بأسرع وقت وبإسرع وسيلة.

هذه الحامية الساهرة لمصالح المسلمين المرابطة دفاعاً عن أرواحهم وأرضهم وكرامتهم وعزّتهم، أنذرت زهيراً — على اعتباره المسوءول الأول عن إفريقية — بتحركات الروم من القسطنطينية ومن صقلية، وقد تكون هذه المعلومات — خاصة عن تحركات الروم من القسطنطينية — وصلت إليها من المشرق أو حصلت عليها بوسائلها الخاصة آو حصل عليها زهير بوسائله الخاصة، فعاد زهير بقواته الضاربة لحماية منطقة برقة المهدّدة بقوات الروم؛ ثم تقدّم زهير على رأس قطعاته الراكبة التي حرص على قيادتها بنفسه — وهذا من مميزات القائد الممتاز، إذ يكون دائماً في الأمام قريباً من مواطن الخطر — تقدم بنفسه لاستطلاع مواضع إنزال الروم، ومعرفة قوتهم وتسليحهم، وذلك لإعداد الخطة المناسبة لمقاومتهم، ولكنه — على ما يظهر — فوجىء بالمسلمين يقادون قسراً

وهم أسرى الى مراكب الروم ، فاستغاث به هولاء ، فتورطت جماعة من رجاله خضوعاً لعاطفتهم المتأججة في الاشتباك مع الروم دون خطة مدبرة ولا استعداد مسبّق لخوض المعركة ، فكانت الكارثة التي لحقت بزهير وبفرسانه الأبطال .

أما لماذا لم ينجدهم رجالهم الذين يتقدّمون باتجاه العدو ، فمن المحتمل أن يكونوا بعيدين عن ساحة المعركة ، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا بعيدين ولكنهم وصلوا الى ساحة المعركة بعد فوات الوقت المناسب ، ففت استشهاد قائدهم في اعضادهم ، فأصبحوا بغير قيادة ، وانهارت معنوياتهم ، ولا قيمة لجيش بغير قيادة ولا معنويات .

ومن المعلوم أن المعارك الحربية في العصور القديمة قبل اختراع البارود وقبل اختراع الأسلحة الحديثة ، يتقرّر مصيرها خلال ساعات قليلة ، وقد يكون استشهاد القائد وحده هو العامل المهم في الهزيمة .

ترى ! هل نلقي اللّوم كله على زهير في تورّطه بالاشتباك بالروم دون استعداد كافٍ وفي وقت ومكان غير مناسبين ؟ !

إن ظروف الحرب ظروف غير اعتيادية ، وشتان ما بين من يجلس الى مكتبه ليدرس معركة من المعارك فيقرّر وهو آمن مستريح : هذا صحيح وهذا خطأ ، وهذا أصاب وهذا أخطأ ؛ وبين من يعاني ويلات الحرب ويصطلي بنارها .

إن سير الحوادث في الحرب قد يكون تياراً عارماً يجرف القائد دون إرادة منه ويجرف من معه من الرجال .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاداً لا يقلّ روعة وجلالاً عن استشهاد عقبة بن نافع الفهري ، فأثار مصرعه ثائرة العرب المسلمين ، وحفزّهم الى مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه . وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح ، إذ كان زهير

قد حسب – بعد قتله كسيلة – أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، وأن البلاد أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب الى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببّوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ، ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان بن النعمان – من بعده – فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم ، حتى تمكن من ذلك تماماً[1].

وهكذا كانت حياة زهير الغالية بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ؛ وكانت خاتمة حياته المشرّفة ، بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة ...

لقد كان من نتائج استشهاده تكامل الفتح الإسلامي في إفريقية ، فأصبحت تلك البلاد إسلامية كما هو الحال في مصر وأرض الشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأصبح الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً مستداماً كما هو الحال في تلك الأقطار .

لقد كان زهير مجاهداً قائداً ، يتّسم بكل ما يتّسم به المؤمن بالجهاد من مزايا التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الله وهو كما قال : « إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا »[2] ، ولعلّ إيمانه العميق بالجهاد حبّب اليه الاستشهاد وجعله يستأثر بالخطر دون أصحابه ، فيكون دائماً قريباً من مواطن الخطر طلباً لما عند الله من أجر للشهداء ، وكان يحب رجاله ويحبونه ويثق بهم ويثقون به لما كان يتمتع به من ماض مجيد في الجهاد . وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب ، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده ، فكان مجاهداً من المهد الى اللحد كما يقولون .

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٢٩ – ٢٣٠) .

(٢) رياض النفوس (١/٣٠) .

وكان في حروبه يطبِّق مبدأ (التحشد) ومبدأ (التعرض) ومبدأ (الأمور الإدارية) ، فكانت استعداداته للقتال ممتازة حقاً .

لقد كان من أولئك الذين نذروا أنفسهم لعقيدتهم ، فسقط أخيراً في ساحات القتال دون أن يسقط السيف من يده .

زهير في التاريخ :

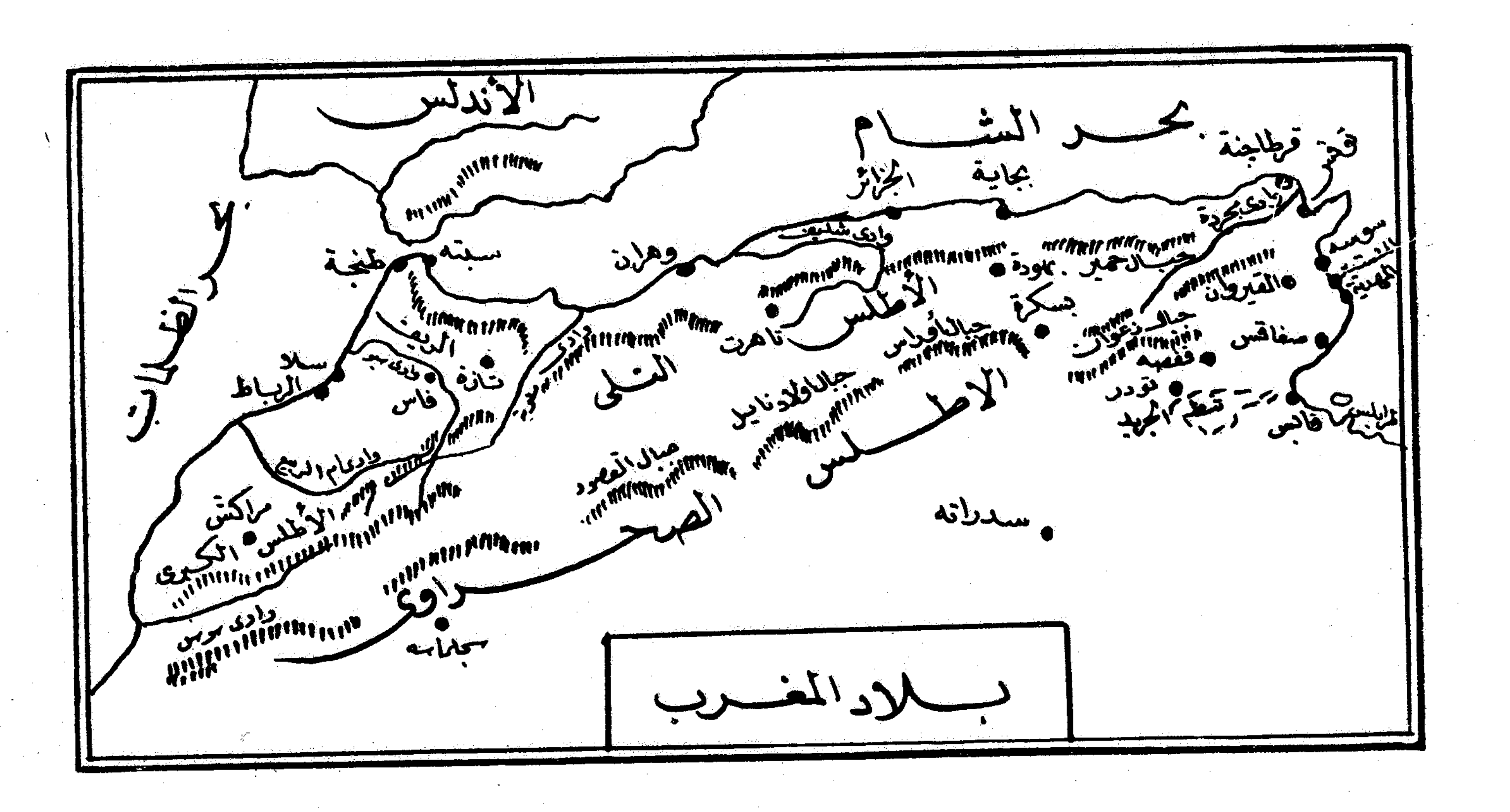
يذكر التاريخ لزهير استنقاذه القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها .

ويذكر له ، أنه كان نعم المطالب بدم عقبة بن نافع الفهري ، وهو الذي أخذ ثأر عقبة من قاتله كسيلة ، فهو الذي قتل كسيلة وقتل عدداً ضخماً من رجاله وفرسانه ورجال حلفائه الروم وفرسانهم .

ويذكر له أنه انتصر في معركة حاسمة على البربر في (ممس) ، ففزع منه أهل إفريقية واشتد خوفهم فلجأوا الى الحصون والقلاع .

ويذكر له ، أنه ضحى بنفسه من أجل عقيدته ولم يضح بعقيدته من أجل نفسه .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي النقي ، المؤمن الورع ، البطل الشهيد ، القائد الفاتح زهير بن قيس البَلَوِي .


بلاد المغرب
بحر الشام
الأندلس
بحر الظلمات
قرطاجنة
بجاية
الجزائر
وهران
سبتة
طنجة
سلا
الرباط
فاس
تازة
الريف
مراكش
الأطلس الكبير
وادي أم الربيع
وادي سوس
سجلماسة
التلي
تاهرت
وادي شلف
الأطلس
جبال أولاد نايل
جبال الأوراس
بسكرة
طولقة
جبال حمير
وادي مجردة
القيروان
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
قفصة
توزر
سدراته
الأطلس
الصحراء
جبال المصمودة

حسّان بن النُّعمان الأزدي الغسّاني(1)

فاتح قرطاجنّة وفاس
وقائد المعركة الحاسمة ضدّ الروم في إفريقية

« ما أعلم أحداً أكفأ بافريقية من حسان بن النعمان الغساني »

(عبد الملك بن مروان)

نسبه وأيامه الأولى :

هو حسّان بن النُّعمان بن عديّ بن مغيث بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء[2] بن الأزد[3].

أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للامبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي ، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً[4] ، فنشأ

---

(1) كل ولد عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد، يدعون غسان ، فغسان من الأزد . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) وانظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٦٣ - ٧٠) .

(2) عامر هو ماء السماء ، وكل أولاد عمرو بن عامر يدعون غسان ، وهم بنو الحارث ومالك وكعب بني عمرو مزيقياء فقط . انظر جمهرة أنساب العرب (٣٣١) ومزيقياء لقب عمرو المذكور ، وكان من ملوك اليمن ، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب ، فإذا أمسى مزقهما وخلعهما لأنه يكره أن يعوذ فيهما . وماء السماء لقب عامر لجوده وكثرة نفعه فشبه بالغيث . انظر وفيات الأعيان (٤/٤٣٩) .

(3) البيان المغرب (١/٢٣) .

(4) لا يزال أولاد الغساسنة في أرض الشام ، منهم مسلمون ومنهم نصارى حتى اليوم ، ومن المسلمين الأمير شكيب أرسلان .

وترعرع في بيت عريق له ماضٍ مجيد في القيادة والحكم. انتقل جدّه عمرو مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن الى أرض الشام[1]، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسّان.

كان حسّان من التابعين، وقد حدّث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2]، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس، حتى أطلق عليه لقب: الشيخ الأمين[3].

جهـــاده:

١ — لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البَلَوِي[4] وأصحابه إشتدّ عليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري وأصحابه. وسأل أشرافُ المسلمين عبد الملك أن ينظر إلى أهل (إفريقية) ويؤمّنهم من عدوّهم ويبعث الجيوش إليهم، فقال عبد الملك: «ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني»[5]. ولما قتل عبدالله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية[6] أصبح عبدالملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش الى إفريقية، اذ اجتمع المسلمون عليه، فجهزّ جيشاً كثيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان ابن النعمان وسيرهم اليها في سنة أربع وسبعين الهجرية[7]. وفي رواية أن حسان بن النعمان قدم والياً على المغرب أقره عليها عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية[8]. وفي رواية أنه قدم إفريقية سنة ثمان وسبعين

(١) وفيات الاعيان (٤/٤٣٩).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٣) الاستقصا (١/٨٢).
(٤) انظر ترجمته في هذا الكتاب (١٥٠ — ١٧٠).
(٥) رياض النفوس (١/٣١).
(٦) العبر (١/٨١) وشذرات الذهب (١/٧٩).
(٧) ابن الأثير (٤/١٤٣).
٨) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩).

الهجرية[1] . وفي رواية أنه قدمها خلال سنوات ست وسبعين أو سبع وسبعين أو ثمان وسبعين الهجرية[2] . وفي رواية أنه قدمها سنة تسع وسبعين الهجرية[3] . فما علّة هذا التباين الشديد ؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسّان قام بحملتين لا حملة واحدة : فتح في الاولى (قَرْطَاجَنّة)[4] ثم اتّجه نحو الكاهنة[5] فانهزم ، واتّجه في الثانية نحو الكاهنة ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلط الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل في كلتيهما ، وتردّدوا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره الثاني[6] .

ومن الواضح أن الموقف العسكري لعبد الملك بعد مقتل زهير بن قيس البَلَوي سنة إحدى وسبعين الهجرية لم يكن ليساعد على الاستغناء عن جيوشه لاسترداد ما ضاع من (إفريقية) : ففي سنة اثنتين وسبعين الهجرية قضى عبد الملك على مصعب بن الزبير في العراق[7] ، وفي هذه السنة جهّز الحجّاج

---

(١) البيان المغرب (٢٢/١) .

(٢) المؤنس (٣١) .

(٣) الخلاصة النقية (١٠) .

(٤) قرطاجنة : ويسميها أهل تونس اليوم المعلقة . وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها ، وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلا ، وكان بينهما قرى متصلة عامرة . وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية ضخمة وأعمدة قائمة ، وتونس عمرت من خراب قرطاجنة . انظر التفاصيل في البيان المغرب (٢٣/١) ومعجم البلدان (٥٢/٧) والمشترك وضعاً (٣٤٢) .

(٥) الكاهنة : امرأة بربرية قوية الشخصية ذكية الفؤاد ، احترفت السحر والكهانة . والكاهن في البربر كالكاهن عند العرب في الجاهلية ، هو عالم قومه ومستشار ناحيته والقاضي الذي يفصل في كثير من النوازل. واسم الكاهنة داهيا بنت ماتيا بن تيفان ، وكان زوجها ملكاً على جبال أوراس فترك لها ثلاثة أولاد – كما ذكر ابن عذارى المراكشي والسلاوي المغربي – صغار أوصى بالملك لهم ، فقامت أمهم مقامهم ، والكاهنة من قبيلة جراوة من زناتة القبيلة البربرية المشهورة التي كانت لها الزعامة والملك في جبال أوراس . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب الكبير (٧٢/٢ – ٧٧) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٨ – ٨٩) وفتح العرب للمغرب (٢٤٢ – ٢٤٦) والبيان المغرب (٢٥/١) وتاريخ المغرب (٦٥/١) والاستقصا (٨٢/١ – ٨٣) .

(٦) فتح العرب للمغرب (٢٣٥).

(٧) العبر (٨٠/١).

ابن يوسف الثقفي الى مكة لحرب عبد الله بن الزبير [١] ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية نازل الحجاجُ عبد الله بن الزبير وقضى عليه في جمادى الأولى ، فاستوثق الأمر لعبد الملك بمقتل ابن الزبير[٢] فحجّ سنة خمس وسبعين الهجرية[٣] ، مما يدل على استتباب الأمور وحلول الإستقرار .

وما كان لعبد الملك أن يصبر على ما يحدق بالمسلمين من خطر في (إفريقية) ولا أن يرضى بأقل من استعادتها وفتح ما استعصى فتحه على المسلمين منها بعد عام الجماعة وهو سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٤] ، لذلك كان أول عمل نفّذه هو إرسال حسّان إلى (إفريقية) بعد أن اجتمع أشراف العرب وسألوه أن ينظر لإفريقية من يسدّ ثغرها ويصلح أمرها[٥] ، وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٦] ، وهذا التاريخ هو أقرب التواريخ لسير الحوادث من الناحية العسكرية[٧].

٢ ـ ودأب حسّان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصر عدة لما يحدث . وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى (إفريقية) ويقول له: « إني أطلقت يدك في أموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة

---

(١) العبر (٨١/١).
(٢) العبر (٨١/١ - ٨٢).
(٣) العبر (٨٥/١).
(٤) تاريخ بغداد (٣٩٠/١٠).
(٥) البيان المغرب (٢١/١ - ٢٢).
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩).
(٧) انظر ترجمة عبد الملك . وفي كتاب فتح العرب للمغرب (٢٣٦) ، أن حملة حسان سارت سنة ٧٦ هـ أو سنة ٧٨ هـ ، لأن عبد الملك ما كان ليستغني عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٧٥ هـ ... انتهى ، والحق أن الفتن الداخلية لم تسكت حتى بعد ذلك التاريخ ، ولكنها كانت فتناً محلية عالجها الولاة المحليون ، فما كان منها في العراق ـ وهذه أهمها ـ عالجها الحجاج بن يوسف محلياً بمعاونة عبد الملك ، وهذه الفتن ليست بدرجة من الخطورة بحيث تهدد كيان الدولة في الشام .

الله وعونه »[1].

كم من الوقت أمضى حسّان لإنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألفاً ؟ إن الوقت الذي يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش : تسليحه وتجهيزه وتأمين قضاياه الإدارية ... الخ لا يقلّ عن عام أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة على كل حال ، لذلك سار هذا الجيش لاستعادة فتح إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية ، فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله[2] ، فكان حسّان أول من دخل إفريقية من أهل الشام في زمن بني أميّة[3] .

كانت المسافة بين (الفُسطاط) في مصر والقيروان في تُونس (١٥٣٠) ميلاً[4] ، يمكن قطعها بـ (٤٧) مرحلة[5] نظامية في أوقات السلم ولقوات قليلة كالمفارز الاستطلاعية أو موظفي البريد وبدون استراحة.

والقوات الجسيمة كجيش حسّان الذي قدم إفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط إفريقيّة بمثل ما دخلها[6] ، لا يمكن أن تقطع هذه المسافة بمثل هذا الوقت ، كما أنه لا بد لها من إعطاء فترات من الإستراحة لجمع شمل القطعات المتحركة وجرد موجودها وإدامة تجهيزاتها ونقليتها ،

---

(١) البيان المغرب (٢٢/١).

(٢) ابن الأثير (١٤٣/٤) ، وابن خلدون (١٨٧/٤).

(٣) رياض النفوس (٣١/١) ، وحسان كما مر بنا غساني من أهل الشام الأصليين ، وكان من سبقه من قادة الجيوش من غير أهل الشام .

(٤) المسافة بالأميال القديمة ، والميل القديم أربعة آلاف ذراع . أنظر معجم البلدان (٣٥/١) ، وهذه المسافة استخلصتها من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، فمن الفسطاط الى الاسكندرية (١٨٧) ميلا ، ومن الاسكندرية الى برقة (٥٢٢) ميلا ، ومن برقة الى اجدابية (١٥٤) ميلا ، ومن (اجدابية) الى سرت ١٨٦ ميلا ، ومن سرت إلى طرابلس (٢١١) ميلا ، ومن طرابلس الى قابس (١٥٨) ميلا ، ومن قابس الى القيروان (١٢١) ميلا ، فيكون مجموع مسافة الطريق (١٥٣٠) ميلا. انظر المسالك والممالك (٨٤ - ٨٦).

(٥) انظر تفاصيل المراحل في الأعلاق النفيسة (٣٤٢ - ٣٤٧).

(٦) البيان المغرب (٢٣).

كما أن حركة مثل هذه القوات الجسيمة باتجاه العدو لا يكون مسيراً سلمياً ، بل يجب إتخاذ تدابير تعبوية لحمايتها فيكون مسيرها مسيراً تعبوياً مما يؤدي إلى تأخير حركتها ؛ فإذا أدخلنا في حسابنا كل ذلك ، وأضفنا إليه ، أن كل ستة مراحل تحتاج إلى يوم إستراحة للقطعات ، وأنّ كل شهر من المسير ـ كمعدل ـ يحتاج إلى أسبوع واحد ـ كمعدّل أيضاً ـ استراحة القطعات ولنقليتها من الحيوانات ، علمنا أن جيش حسّان هذا لا يمكن أن يصل من الفسطاط في مصر إلى مثابته في القيروان ، قبل ثلاثة أشهر على أقل تقدير .

فإذا أضفنا إلى هذه المدة ، الفترة التي قضاها حسّان في القيروان لتجهيز جيشه وإكمال إستعداداته الإدارية للحرب ، وإنجاز إستطلاعاته الضرورية للحصول على المعلومات عن العدو : قوته وتسليحه والمنطقة التي سيقاتل عليها ، أدركنا أنه قضى سنة أربع وستين الهجرية في تحشيد قواته وإعدادها للحرب ، وأنه خاض معركة قرطاجنة سنة خمس وسبعين الهجرية أو ست وسبعين الهجرية (٦٩٥ م)، وهذا ما يتفق مع ما ذكره المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور من أن حسّان هاجم قرطاجنّة هجومه الأول سنة (٦٩٥ م) أي سنة ست وسبعين الهجرية [١] .

ومضى حسّان في جيشه الكبير ، حتى نزل (طرابلس) الغرب ، فاجتمع إليه بها من كان خرج معه من إفريقيّة وطرابلس ، فأرسل مقدّمة جيشه إلى إفريقية وعليها محمد بن أبي بكير وهلال بن ثَرْوان اللّواتي وزهير ابن قيس ، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة [٢] ، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة ، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق

---

(١) انظر فتح العرب للمغرب (٢٣٦) وهذا يتفق مع ما ذكره القيرواني في المؤنس (١٨٧) ، وهو يخالف ما ذكره صاحب معجم البلدان (٥٣/٧) : أن قرطاجنة هدمها حسان حوالي سنة سبعين الهجرية .

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩ - ٢٧٠).

سكان تلك المنطقة من المسلمين به ، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسّان، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة . وإن تولي هلال بن ثروان اللواتي ، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين ، يدل على أن العرب المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب ، ويدل على أن بعض البربر اطمأنوا للعرب المسلمين . ولكن نلاحظ أن زهيراً كان في مقدمة جيش حسّان ، وهذا يخالف ما ذكرناه في ترجمته من أنه استشهد في رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة .

٢ ــ كان مقتل زهير بن قيس البلوي وأصحابه على يد الروم ببرقة ، قد ترك أثره العميق في نفوس المسلمين كافة ، فكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه[١] ، وكان من نتائج مقتله أن المسلمين عرفوا أنه لا تمام لفتح إفريقية إلا إذا أزيل من ربوعها الروم .

وما كاد حسّان ينجز إستحضارات جيشه من كل الوجوه ، إلا وسأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ » ، فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك إفريقية[٢] ، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرّتها وإحدى عجائب الدنيا »، وكان يومئذ بها جموع من الروم أمم لا تحصى[٣]، ولم يكن المسلمون قط حاربوها[٤] وفتحوها عنوة ، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك[٥] كما ذكرنا سابقاً ويتركونها إلى أهداف أخرى .

---

(١) رياض النفوس (٣١/١).

(٢) البيان المغرب (٢٣/١).

(٣) الاستقصا (٨٢/١).

(٤) ابن الأثير (١٤٣/٤).

(٥) أنظر تفاصيل ذلك في ترجمة أبي المهاجر دينار كمثال على تصرف المسلين في حربهم لقرطاجنة .

فلما وصل حسّان إلى قرطاجنّة رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك إجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس[1] ، ففتحها عنوة[2] ، فسباها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمران ، فاجتمعوا إليه مسرعين ، فأمرهم بهدم قرطاجنّة وقطع القناة عنها[3] .

وانصرف حسّان عن قرطاجنّة عائداً إلى القيروان ، فعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب ملك قرطاجنّة عنها ، فبادروا إليها فدخلوها . ورحل إليها حسّان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتّى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم . وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين ، خوفاً من عظيم سطوته وشدّة بأسه ؛ فلما أتوه ولم يبق منهم أحد ، أمرهم بتخريب قرطاجنّة وهدمها ، فخرّبوها حتّى صارت كأمس الغابر[4] .

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون عنها مرة أخرى ، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة — وهذان العملان نفّذهما في فتحه الأول لقرطاجنة . ومن إجرائه هذا ، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية الحيوية فقط .

ولكنه في فتحها ثانية حاول أن يخرّب أكثر ما يمكن من مرافقها الحيوية ، حتّى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً ، ولكنه لم ينجح في تدمير مرافقها الحيوية كافة ، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ،

---

(١) ابن الأثير (٤/١٤٣).
(٢) الحلة السيراء (٢/٣٣١) وابن خلدون (٤/١٨٧) وابن الأثير (٤/١٤٣).
(٣) رياض النفوس (١/٣٢).
(٤) البيان المغرب (١/٢٤).

حتى أن الروم تحصّنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات[1] ، وهذا ما يفهم من قول النويري : « فهدم المسلمون ما أمكن منها »[2] ، ولم تصبح قرطاجنة عفاءً كأمس الغابر كما جاء في البيان المغرب في أخبار المغرب .

وتنبّه حسّان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة ، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون .. يحتمون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنّة نفسها ؛ فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في (صَطْفُوْرَة)[3] و (بَنْزَرْت)[4] وهما مدينتان ، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة ، ولكن المسلمين صبروا لهم ، فانهزم الروم ، وكثر القتل فيهم ، فاستولى المسلمون على بلادهم ؛ ولم يترك حسّان موضعاً من بلادهم إلاّ وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة (بَاجَة)[5] فتحصّنوا بها ، وتحصّن البربر بمدينة (بُوْنَة)[6] ؛ فعاد حسّان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا[7] .

لقد كانت معركة (قرطاجنّة) الأولى ــ تلك التي أدّت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس وإلى صقلية وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة ، معركة حاسمة ، أدّت إلى اندحار الروم اندحاراً حاسماً في إفريقيــة ،

---

(1) فتح العرب للمغرب (240).
(2) نهاية الأرب ص (74 ب).
(3) صطفورة : بلدة من نواحي إفريقية . انظر معجم البلدان (5/356).
(4) بنزرت : مدينة بإفريقية (تونس) بينها وبين مدينة تونس يومان ، وهي مشرفة على البحر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (2/292) وتقويم البلدان (142 - 143) وآثار البلاد (159).
(5) باجة : بلدة بإفريقية تعرف بـ (باجة القمح) لكثرة محصولاتها من القمح . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (2/25) والمشترك وضعاً (33).
(6) بونة : مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر.. انظر التفاصيل في معجم البلدان (2/309).
(7) ابن الأثير (4/143) والبيان المغرب (1/24) ورياض النفوس (1/32).

وكانت معركة قرطاجنّة الثانية ومعركة (صطفورة) و (بنزرت) تلك التي أدّت إلى تشتيت فلول قوّات الروم وبعض حلفائهم البربر، كانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، طهّر بها حسّان منطقة قرطاجنّة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم؛ وكان قرار حسّان في الإقدام على هذه المعارك الثانوية قراراً صائباً، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطىء قدم ورأس جسر يهيء للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنّة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدّي إلاّ إلى خسائر فادحة في الأرواح والمواد؛ كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برئت جراح أصحابه[1]، وأراح بها أياماً[2]، وأكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائباً أيضاً، إذ لا بد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولا بد للجيش من راحة بعد ما نال من رجاله طول القتال، ولا بد للقضايا الإدارية من معالجة وإكمال.

وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

٣ - وسأل حسان أهل القيروان، عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلّوه على إمرأة بجبل (أوراس)[3]، يقال لها: الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كلّه ولم يبق لك فيه مضاه ولا

---

(١) رياض النفوس (٣٢/١).

(٢) البيان المغرب (٢٥/١) والاستقصا (٨٢/١).

(٣) أوراس: جبل بإفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/١) ويقع بالجزائر، وكان الثوار يلجأون اليه أيام الثورة الجزائرية على الفرنسيين.

معاند[1] . وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة ، وكانت بربرية ، وقد إجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة[2] ، وهي إذ ذاك ملكة (جراوة) من قبائل البربر الكبيرة ، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر[3] ، بل هي ملكة البربر[4] دون منازع . وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم ، وربُّوا في حجرها ، فاستبدّت عليهم ، واعتزّت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة ، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها[5] .

وعزم حسّان على قصدها ، فخرج إليها بجيوشه ، فلما بلغ موضعا يقال له : (مَجّانة)[6] نزل بها ، وكانت قلعة لم تفتح ، فتحصّن بها الروم ، فمضى حسّان وتركهم[7] . وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل (أوراس) في عدد لا يحصى ، فنزلت في مدينة (بَاغَايَة)[8] فأخرجت من بها وهدمتها ، إذ ظنّت أن حسّان يريد حصنها ليتحصّن به منها . وأقبل حسّان حين بلغه الخبر إلى وادي (مِكْنَاسَة)[9] ، فقيل له : « إنها

---

(١) البيان المغرب (٢٥/١).

(٢) ابن الأثير (١٤٣/٤).

(٣) ابن خلدون (١٨٧/٤).

(٤) فتح مصر والمغرب (٢٧٠).

(٥) الاستقصا (٨٢/١).

(٦) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧).

(٧) رياض النفوس (٣٢/١).

(٨) باغاية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسنطينة . انظر معجم البلدان (٤١/٢).

(٩) مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر ، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق . وهناك مدينة مشهورة أخرى يقال لها : مكناسة الزيتون ، حصينة مكينة في طريق الماز من فاس الى سلا على شاطىء البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٣/٨) . ووردت : مكنامة في رياض النفوس (٣٣/١) ، ووردت : سكتانة تصحيف في البيان المغرب (٢٥/١) ولم أجد ذكراً لمثل هذا الاسم في معجم البلدان ، مما يدل على أن مكناسة أصح وأن سكتانة تصحيف . وسمي الوادي باسم هذه المدينة .

قد أقبلت في عدد لا يحصى » ، فقال لهم : « دلّوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه »[1] ، فمالوا الى نهر (نِينِيْ)[2] فنزل عليه[3] . وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ، فكان حسّان يشرب هو وأصحابه من أعلاه وتشرب هي وأصحابها من أسفل النهر . ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النهار[4] ، وأبى أن يقاتلها بالليل ، وبات الفريقان على مصافهم[5] ؛ فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وعظم البلاء ، وظن المسلمون أنه الفناء ، فانهزم حسّان بعد بلاء عظيم ، وقتل من العرب خلق كثير ، فسمي ذلك اليوم : يوم البلاء[6] ، وسمي النهر الذي التقوا عليه : نهر البلاء[7] ، فاتبعته الكاهنة بمن معها ، حتى خرج من حد (قَابِس)[8] ، فأسلم إفريقية ومضى على وجهه ، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي ، وكان رجلاً مذكوراً[9] . فأحسنت[10] إسارهم ، إلا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسّان ، فحبسته عندها ، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلوّ فأمرت به فَلُتَّ بزيت ، والبربر تسمي ذلك : (البسيسة)[11] ، وقالت لخالد : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولديّ » ، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت ، وجعلته

---

(١) رياض النفوس (١/٣٢ – ٣٣) والبيان المغرب (١/٢٥).
(٢) نيني : نهر مشهور بإفريقية . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٦٩).
(٣) ابن الأثير (٤/١٤٣) .
(٤) البيان المغرب (١/٢٥) .
(٥) أي على صفوفهم متهيئين للقتال .
(٦) رياض النفوس (١/٣٣) وانظر البلاذري (٢٣١) .
(٧) فتح مصر والمغرب (٢٧٠).
(٨) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان(٧/٢)
(٩) رياض النفوس (١/٣٣) .
(١٠) في معالم الايمان (١/٥٧) : أساءت
(١١) رياض النفوس (١/٣٣ – ٣٤) .

على ثدييها ، ودعت ولديها وقالت : «كلا معه على ثدييّ » ، ففعلا ؛ فقالت: « قد صرتم إخوة » ؛ وكانت الكاهنة من جماعة من البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم[1].

لماذا انتصر البربر على المسلمين في هذه المعركة ؟ أكان ذلك من جراء قلّة جيوش المسلمين ؟ إن جيش المسلمين كانوا أربعين ألفاً أو يزيدون ، وقد انتصروا على أقوى معقل للروم في إفريقية وهو قرطاجنّة ، وطهّروا المنطقة المحيطة بها من الروم ، ولم يكن البربر بدرجة من القوة والمنعة يتفوقون بهما على الروم حينذاك . أكان اندحار المسلمين من جراء نقص في تدابيرهم الإدارية ؟ لقد أنجز حسّان تدابيره الإدارية بشكل يدعو إلى التقدير بالإعجاب– حتّى لقد اهتم بتفاصيل تلك التدابير ، فعـاد إلى القيروان وبقي هناك مدة من الزمن إلى أن برئت جراح أصحابه[2] وأراح بالقيروان أياماً[3] ، لذلك لم يكن جند حسان مجهدين[4] حين خاضوا معركة (نيني) الحامية ، ولم تكن تدابيرهم الإدارية ناقصة !

هل كان فشل العرب المسلمين لضعف قيادتهم ورصانة قيادة البربر ؟ الحق أن الكاهنة كانت تتمتع بمزايا قيادية ممتازة ، فقد كانت مسيطرة على رجالها سيطرة مؤثرة واضحة ، فاستطاعت أن تثير البربر وتحفّزهم لقتال العرب المسلمين بحماسة وإقدام ، فلما انتهت المعركة طاردت المسلمين إلى حدود قابس ، مما يدل على صواب قراراتها وسيطرتها الكاملة على رجالها ، وأنها كانت تمتلك خطة مرسومة واضحة هي رد المسلمين عن منطقتها إلى

---

(١) البيان المغرب (٢٧/١) ولا تزال مثل هذه العادة موجودة عند بعض القبائل ، ومنها اليزيدية في العراق .

(٢) رياض النفوس (٣٢/١) وابن الأثير (١٤٣/٤) .

(٣) البيان المغرب (٢٥/١) .

(٤) ذلك ما جعله مؤلف كتاب : فتح العرب للمغرب (١٤٨) من أسباب فشل المسلمين ، وهذا غير وارد .

خارج حدودها ... ومع ذلك فكانت قيادة حسّان قيادة ممتازة أيضاً كما هو واضح من سير أعماله العسكرية، ولم يكن قائداً ضعيفاً بحيث يكون وجوده على رأس جيشه من مصلحة العدو.

لعلّ من أسباب فشل المسلمين في هذه المرّة، أنهم قاتلوا بدواً مثلهم يجيدون النزال في الميدان طال عهدهم بنزال البيزنطيين[1]، وأن المسلمين أعجبتهم كثرتهم فاستهانوا بعدوهم، فلم يبذلوا قصارى جهدهم في القتال: احتقروا البربر، واحتقروا قيادتهم المتمثلة بالكاهنة وهي إمرأة، فظنوا أن الإنتصار على البربر — وهم في كثرة كاثرة — وعدّة كاملة، سهل، وأن نتائج هذه المعركة مضمونة، فوقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه جيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة (حُنَيْن) إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً ...

فلماذا أحسنت الكاهنة إلى الأسرى من المسلمين؟ يبدو أنها أدخلت في حسابها احتمال إنتقام البربر المسلمين — وكان الإسلام قد تغلغل في صفوفهم — إذا هي أساءت معاملتهم، كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة، إذ أنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة (نيني)؟ وقد يكون لتقرّب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أثيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

ولكن، لماذا اكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في قلب الأوراس، ثم تتبعت حسّان حتى أخرجته من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل (كسيلة) من قبل؟؟

لقد استخلف حسّان أبا صالح علي إفريقية[2]، وقد كانت القيروان

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٤٨).

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٧٠).

عامرة بالمسلمين ، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان ؟؟.

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس ، فاكتفت بابعاد القوة الضاربة من المسلمين عنها ، تلك القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها[1] ، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين ، فلا خطر على الكاهنة منهم . كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها غير المحاربين بالفناء ، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرّر .

وإذا علمنا أن قوم الكاهنة هم من البدو ، وأن هؤلاء يحتاجون الى كثير مما تنتجه المدن من مواد غذائية وصناعية ، وأن المسلمين كانوا أقرب إلى نفوس البربر من الروم لرحمتهم والتزامهم بمبادىء الحق والعدل والإنصاف ، علمنا أن المحافظة على القيروان وسكانها الذين لا يشكلون خطراً على سلامة منطقة الكاهنة وأمنها ، كان من صالح قبائل الكاهنة التي تفتقر إلى ما ينتجه المسلمون من مواد زراعية وصناعية .

ومهما يكن من شيء ، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح ، ولم تحفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى (الأوراس) ، وبهذا لا نخطىء إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتقاض تام ، وكان حسّان يفهم هذه الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك[2] .

٤ ــ أ ــ طفق حسّان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا

---

(١) انظر : فتح العرب للمغرب (٢٤٩).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢٤٩).

به[1] ، وذلك أثناء انسحابه من معركة (نيني) ، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في إلقيروان كانوا غير محاربين ، فلما فصل من (قابس) كتب إلى أمير المؤمنين يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة ؛ فكتب إليه أمير المؤمنين : « قد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابي هذا ، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري » ، فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم : قصور حسّان ، فبنى هناك قصراً لنفسه[2] ونزل قصوراً من حيز (برقة) فسميت : قصور حسّان[3] ، وكانت (أنْطابُلُس[4]) و (لُوْبِية[5]) و (مَرَاقِية[6]) الى حد (أجْدابيَة[7]) من عمل حسان[8] ، فأقام بعمل (برقة) خمس سنوات[9] .

وتوافت على حسّان فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك ، فدعا حسّان عند ذاك برجل يثق به ، وبعثه الى خالد بن يزيد[10] ، فأتاه فقال له : « إن حسان يقول لك ، ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟ »[11] ، وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور ، فكتب خالد

---

(١) معالم الإيمان (١/٥٧) ورياض النفوس (١/٣٣).
(٢) رياض النفوس (١/٣٣).
(٣) قصور حسان : قصور بناها حسان في منطقة برقة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١١٤).
(٤) انطابلس : معناه بالرومية : الخمس مدن ، وهي مدينة بناحية برقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٥٣).
(٥) لوبية : هي ليبيا ، وهي المنطقة التي تقع غربي مصر وجنوبي البحر الأبيض المتوسط الى حدود تونس .
(٦) مراقية : أول بلد يلقي القاصد من الاسكندرية الى إفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٦). وهي بلدة في ليبيا .
(٧) أجدابية : بلد بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٢١).
(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠).
(٩) ابن الأثير (٤/١٤٣). وفي رياض النفوس (١/٣٣) : إنه أقام ثلاث سنين .
(١٠) البيان المغرب (١/٢٨).
(١١) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠).

في ظهر كتاب حسّان : « إن البربر متفرقون ، لا نظام لهم ولارأي عندهم ؛ فاطوِ المراحل وجدّ في السير » ، وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجّهه بها إلى حسّان[1] . وكان خالد قد أنضج الخبزة[2] فاحترق الكتاب بالنار[3] ، فلما كسر حسّان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه اليه خالد وجده قد أفسدته النار ؛ فقال له حسّان : « إرجع اليه » . وعاد الرجل إلى خالد ، فكتب إلى حسّان بما كتب أولاً وأودعه قربوس[4] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتّى استوى وخفي مكانه[5] .

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا ، فقد بذل حسّان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة ، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيّمة عن تفرّق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حدّ الروعة والإتقان ، فهو يخفي رسالته الى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه بالنار حتّى لا يشك في أمره أحد ، وهو تارة يخفيها في قربوس السرج ويطبق عليه حتّى يستوي ويخفي مكانه ، ولن يستطيع ضابط إستخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق كتماناً مما فعله خالد في تدابيره تلك ، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسّان علم ما يحتاج إليه[6] .

ب ــ فماذا كان يجري في الجانب الآخر ... عند الكاهنة وأتباعها ؛؟؟

ملكت الكاهنة إفريقية كلها ، وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[7] ،

---

(١) البيان المغرب (١/٢٨) وابن الأثير (٤/١٤٣) وانظر رياض النفوس (١/٣٤).
(٢) رياض النفوس (١/٣٤).
(٣) ابن الأثير (٤/١٤٣) والبيان المغرب (١/٢٨) .
(٤) القربوس : حنو السرج .
(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) وانظر ابن الأثير (٤/١٤٣).
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٧٠) .
(٧) ابن الأثير (٤/١٤٣).

أي ان الإضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التي نغيب العرب عنها خلالها ، وذلك طبيعي لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ؛ فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء هجوم العرب عارضها نفر منهم ، فاضطرّت الى اصطناع الشدة معهم فثاروا بها ، فانتشر الاضطراب في البلاد ، بل فكر بعضهم في الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سترى[1] .

ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات ، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : « إن العرب إنما يطلبون من إفريقيّة المدائن والذهب والفضّة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها ، حتّى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! » ، فوجّهت قومها إلى كل ناحية : يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ؛ فذكروا أن افريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى (طَنْجَة)[2] وقرى متّصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألفي ميل في مثله ؛ فخربت الكاهنة ذلك كلّه ... وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، فتفرّقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية[3] ...

وفي رواية ، أن الكاهنة لما علمت بمسير حسّان إليها قالت « إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، ولا أرى إلا أن أخرّب إفريقية حتى ييأسوا منها » ، وفرّقت أصحابها ليخربوا البلاد ، فخرّبوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال . وهذا هو التخريب الأول لإفريقية[4] .

---

(١) فتح العرب المغرب (٢٥٠) .

(٢) طنجة : مدينة قديمة على البحر ، بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٦٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٣) البيان المغرب (١/٢٦) ، وفي وصف حالة افريقية حينذاك مبالغة كما يبدو .

(٤) ابن الأثير (٤/١٤٣ - ١٤٤) .

كان تخريب إفريقية سياسة طائشة بلا شك ، فكان عمل الكاهنة هذا من أهم العوامل لتقويض ملكها وزوال سلطانها ، إذ استاء الروم والبربر على حد سواء مما فعلت ، واضطر كثير منهم إلى الجلاء عن إفريقية ، كما فترت عزائمهم في الدفاع عن بلادهم ، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم ، فلما أتت الكاهنة على ما في بلادهم من موارد الثروة وجمال العمران تركتهم ضحية للفقر والجوع ، فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلقعاً[1] .

لقد أضرّ هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيّدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء هذا التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . لهذا لم يلبث الإستياء أن عمّ البلاد من تصرّف الكاهنة ، وأسرع بعض أهلها فاستغاث بحسّان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها ، وزادت البلاد سوءاً على سوء[2] .

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد ، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لهدف العرب المسلمين من الفتح ، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها ؛ فلم تكن همّتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع ، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسّان ولا في سياسته ، ولم تجن الكاهنة من أعمالها تلك إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب العرب[3] .

---

(١) أنظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٩٠ — ٩١).
(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٣)
(٣) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٢).

جـ – فماذا عن الروم و حركاتهم في إفريقية بعد إندحار حسّان أمام الكاهنة ، وفي أثناء بقائه متحفزاً في قصور حسّان من أرض برقة بـ (سُرْت)[1].

وجد الروم في خروج حسّان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد – ليونتيوس – الذي خلف جستنيان الثاني سنة ٦٩٥ م (٧٤ هـ) قد أهمّهُ سقوط قرطاجنّة في يد العرب وتخريب حسّان لها ، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية – دون مقاومة – أمراً سهلاً على نفسه ، كما يقول ديل ، فلم تكد أخبار هزيمة حسّان على نهر نيني ترد إليه ، حتى عجّل بالعمل . فقد أعدّ حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تخيّر لقيادتها قائداً من أشهر قوّاد الدولة وأقدرهم هو البطريق[2] يوحنا (Patricius Jean) وأعدّ أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنّة في سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) ، وتمكّن من الاستيلاء على المدينة بيسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتى أنه كان ليقتل الكفّار بيده – كما يقول تيوفانس ونقفور – ؛ فلما تمّ له ذلك ، اكتفى به وأراح في قرطاجنّة طيلة شتاء هذه السنة ، غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر[3] .

وعلم حسّان بما فعله الروم بالمسلمين ، فأرسل أربعين رجلاً من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب اليه بما نال المسلمين من البلاء ،

---

(١) انظر تاريخ المغرب الكبير (٨٧/١) الذي يذكر أن قصور حسان تقع بسرت . وسرت مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٥) .

(٢) البطريق : الشريف .

(٣) فتح العرب للمغرب (٢٥٤) .

وأقام هناك مرابطاً ينتظر رأي عبد الملك[1].

يبدو أن حركة الروم كانت حركة إنتقامية ليس إلاّ ، قتلوا المسلمين وأسروا منهم ، ولو كان هدف الروم من حركتهم هذه إستعادة إفريقية لعملوا على الإتجاه شرقاً نحو منطقـــة برقة لمحاربة حسّان وإجباره على الإنسحاب من تلك المنطقة ؛ ولكنهم اكتفوا باستعادة قرطاجنّة والمدن المجاورة لها واستقروا فيها محتمين بأسوارها ؛ وربما كان استقرارهم هناك يعود إلى ضعف إمكاناتهم العسكرية ، فلم تكن قوّتهم بدرجة من المقدرة على محاربة المسلمين في أنحاء إفريقية الأخرى .

و ــ بهاتين الحركتين : حركة الكاهنة ، وحركة البطريق يوحنا ، تمّ انتقاض إفريقيـــة على العرب ، وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يـــلي (قابس) غرباً . وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه : أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي ، بينما اهتمّ يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتـــدّ من (سُوسَة[2]) الى (شِقَبّنَارية)[3] .

كان حسّان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقية وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها .

بينما كانت الكاهنة وكان الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى ــ كل ذلك يسّر لحسّان إستعادة فتح إفريقية وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها .

هـ ــ أقام حسّان خمس سنوات على مقربة من (سرت) في المكان المسمى : قصور حسان ، يلحّ على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات

---

(١) وصف إفريقية للبكري (٣٧ – ٣٨) نقلا عن فتح العرب للمغرب (٢٥٥).

(٢) سوسة : بلد بالمغرب بينها وبين سفاقس يومان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٣/٥).

(٣) شقبنارية : بلد بإفريقية . انظر معجم البلدان (٥٧/٥ – ٢٨١).

إليه ، فلماذا تأخّر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسّان الملحّة المشروعة ؟؟

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية : ففي سنة ست وسبعين الهجرية وجّه الحجاج زائدة بن قدامة الثقفي ابن عم المختار الثقفي لحرب شبيب بن قيس الخارجي الشيباني ، فاستظهر شبيب وقتل زائدة وهزم العساكر مرات ، واستفحل أمر شبيب[1] . وفي سنة سبع وسبعين الهجرية بعث الحجاج لحرب شبيب عتّاب بن وَرْقاء الخزاعي الرياحي ، فلقي شبيباً بسواد الكوفة فقتل شبيب عتاباً وهزم جيشه ؛ فبعث الحجاج لقتاله الحارث بن معاوية الثقفي ، فقتل الحارث أيضاً ؛ فوجه الحجاج إليه أبا الورد النضري فقتل ، فوجه إليه طهمان مولى عثمان بن عفان فقتل أيضاً ؛ فسار إليه الحجاج بنفسه فاستطاع القضاء على فتنته[2] . وفي هذه السنة خرج مطرّف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان، ولحق بالجبال فقتل هناك[3] . وفي سنة تسع وسبعين الهجرية أصاب أهل الشام الطاعون حتى كادوا يفنون من شدّته ، فلم يغز في تلك السنة أحد[4] . وفي سنة ثمانين بعث الحجاج على (سِجِسْتَان)[5] عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الكندي ، فلما استقرّ بها خلع الحجاج وخرج ، فكانت بينهما حروب طاحنة يطول شرحها[6] . وفي سنة إحدى وثمانين الهجرية اشتدت الحرب بين الحجاج وبين ابن الأشعث ، فقام مع ابن الأشعث عامة أهل

---

(١) شذرات الذهب (١/٨٣) والعبر (١/٨٦) وانظر التفاصيل في الطبري (٥/٥٧ – ٨٤).

(٢) شذرات الذهب (١/٨٣) والعبر (١/٨٧) وانظر التفاصيل في الطبري (٥/٨٤ – ١٠٦).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥/١٠٦ – ١١٩).

(٤) الطبري (٥/١٢٦) والعبر (١/٩٠) وشذرات الذهب (١/٨٧).

(٥) سجستان : اسم منطقة واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً ، وهي جنوبي هراة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧) وانظر حدودها في المسالك والممالك (١٣٨) وآثار البلاد (٢٠١).

(٦) شذرات الذهب (١/٨٧) والعبر (١/٩٠).

البصرة من العلماء والعباد ، فاجتمع له جيش عظيم لقوا الحجاج يوم الأضحى ، فانكشف عسكر الحجاج وانهزم هو ، وتمّت بينهما عدّة وقعات ، قيل : كان بينهما أربع وثمانون وقعة في مائة يوم ، ثلاث وثمانون على الحجاج ، والآخرة له[1] . وكانت ثورة ابن الأشعث ثورة خطيرة جداً ، حتى كاد ابن الأشعث أن يغلب على أهل العراق[2] ، واستمرت ثورته هذه حتى سنة أربع وثمانين الهجرية ، حيث قتل ابن الأشعث بـ (سجستان)[3].

هكذا مرّت هذه الفترة الحافلة : ثورات داخلية لا بد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها ، وغزوات للروم في سنة سبع وسبعين الهجرية[4] وثمانين الهجرية[5] ، وهذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية ، وذلك ، حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظامات الحروب ... وطاعون ذريع في أرض الشام لا يبقي ولا يذر ... كل ذلك منع عبد الملك بن مروان تلبية طلبات حسّان الملحّة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها ...

٥ – وسيّر عبد الملك إلى حسّان الجنود والأموال[6] ، وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها[7] ، حتى إذا أكمل إستحضاراته للقتال وتهيئة جيشه مادياً ومعنوياً ، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة[8] ، فرحل

---

(١) العبر (٩٢/١) وشذرات الذهب (٨٨/١) وانظر التفاصيل في الطبري (١٤٥/٥ – ١٥١).
(٢) العبر (٩٤/١) وشذرات الذهب (٩٠/١).
(٣) العبر (٩٧/١) وشذرات الذهب (٩٤/١).
(٤) العبر (٨٨/١).
(٥) العبر (٩٢/١).
(٦) ابن الأثير (١٤٣/٤).
(٧) البيان المغرب (٢٨/١).
(٨) ابن الأثير (١٤٣/٤).

حسان إليها[1] في أواخر سنة إحدى وثمانين الهجرية[2]. وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال (أوراس) في خلق عظيم[3].

ولما اقترب حسّان من الكاهنة، خرجت ناشرة شعرها، فقالت: «يا بنيّ! انظروا ماذا ترون في السماء؟»، فقالوا: «نرى شيئاً من سحاب أحمر»، فقالت: «لا وإلهي، ولكنها رَهْج[4] خيل العرب». ثم قالت لخالد بن يزيد: «إني إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم. أنا مقتولة، فأوصيك بأخويك هذين خيراً فانطلق فخذ لهما أماناً!»... فانطلق خالد فلقي حسّان، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أماناً[5].

وفي رواية: إن حسان لما رحل إلى الكاهنة وبلغها خبر رحيله، رحلت من جبل أوراس، في خلق عظيم. فلما كان في الليل قالت لابنيها: «إني مقتولة»، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسّان. فقال لها خالد بن يزيد: «فارحلي بنا وخلي له عن البلاد»، فامتنعت ورأته عاراً لقومها. فقال لها خالد وأولادها: «فما نحن صانعون بعدك»؟!، فقالت: «أما أنت يا خالد، فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم. وأما أولادي، فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر عزاً». ثم قالت: اركبوا واستأمنوا إليه»، فركب خالد وأولادها في الليل، وتوجّهوا إلى حسّان، فأخبره خالد بخبرها، وأنها علمت قتلها، وقد وجّهت إليك أولادها. فوكل بهما من يحفظهما، وقدّم خالداً على أعنّة الخيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها، فقالت: «انظروا ما دهمكم! فإني مقتولة»... ثم التحم

---

(1) البيان المغرب (28/1).

(2) فتح العرب للمغرب (256).

(3) البيان المغرب (28/1).

(4) الرهج: الغبار.

(5) فتوح مصر والمغرب (171) ورياض النفوس (34/1 - 35).

القتال واشتدّ الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فأتبعها حسّان حتى قتلها [1] .

ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل في باب القصص منها في التاريخ ، ولكن (جوتييه) يؤكد أنه لا يبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه دون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصّة الكاهنة إذ استأمن زعيم بربري لأولاده عند القائد الفرنسي ، وأقام هو على الحرب ، فكان أولاده يقاتلونه في الميدان في الموقعة التي مات فيهـــا [2] .

وكان مع حسّان جماعة من البربر استأمنوا اليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه إثني عشر ألفاً من قبائلهم يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه ، فعقد لولديّ الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر [3] .

وفي رواية ، أنه كان مع حسّان جماعة من البتْر (قبيلة من البربر) ، فولّى عليهم حسّان الأكبر من ابني الكاهنة وقرّبه . ومضى حسّان ومن معه ، فلقي الكاهنة في أصل جبل فقتلت وعامة من معها ، فسميت :

---

(١) البيان المغرب (١/٢٨ – ٢٩).

(٢) انظر فتح العرب للمغرب (٢٥٨). قال جوتييه في التعليق على هذه القصة : « هذه القصة في الواقع بربرية لحماً ودماً سببها تقسيمهم إلى برانس وبتر ، ويجد الإنسان شبيهاً لها في مراكش في القرن العشرين ، فقد حدث ذلك للفاتح الفرنسي . إذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة (زيان) واسمه : موحا أوحمو ، أن ينتصر على الفاتح الفرنسي انتصاراً حاسماً . وبعد إنقضاء سبع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن المقاومة مستحيلة ، فماذا يعمل؟ لجأ إلى حل خاص جداً ، هو بعينه ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب قبل خمسمائة وألف سنة ، هل يدع القتال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، فقد رأى ذلك عاراً عليه . ولكنه أمر أولاده أن يستأمنوا عند الفاتح ويسلموا له ! وأطاع هؤلاء دون تفكير واشتركوا في الموقعة الفاصلة الأخيرة التي قتل فيها أبوهم ، أي أنهم اشتركوا في قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أعزاء لبويمر خليفة حسان البعيد .

(٣) البيان المغرب (١/٢٩).

بئر الكاهنة[1] .

كيف استطاعت الكاهنة أن تتنبأ بقتلها ؟ يبدو أن الروم والبرانس ونفراً من البتر سئموا حكم الكاهنة ، فنفضوا أيديهم منها – خاصة بعد تخريب إفريقية – ولظلمها وتعسّفها ، يدلنا على ذلك أن حسّان عندما قرب من بلادها لقيه جميع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها ، فسرّه ذلك . وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء ، وجعل فيها عاملاً . وسار إلى (قَفْصَة)[2] ليتقرّب الطريق ، فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى (قَسْطيلية)[3] و (نَفزَاوة)[4]، وبلغ الكاهنة قدومه[5]، وهذا دليل على أن أهل البلاد سارعوا إلى لقاء العرب وانضموا تحت لوائهم ، فكان مع حسّان جماعة من البربر يستأمنون اليه[6] ، وكان معه جماعة من البربر البُتْر[7].

وماذا يكون مصير من انقلب عليه أعوانه فأصبحوا أعداءه ، وتخلّى عنه مناصروه فأصبحوا في صفوف خصومه ؟

لقد التفّ حول الكاهنة أعداء العرب من الروم ومن قومها ، فصاولوا جيش المسلمين في معركة (نيني) وانتصروا عليهم . وبدلاً من أن توطّد الكاهنة أركان ملكها بالعدل والعمران ، زعزعته بالظلم والتخريب ؛ وبدلاً

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

(٢) قفصة : بلدة صغيرة في طرف (إفريقية) من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧).

(٣) قسطيلية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٨/٧).

(٤) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٣/٨).

(٥) ابن الأثير (١٤٤/٤).

(٦) البيان المغرب (٢٩/١).

(٧) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

من أن يكون شعارها : كل يوم صديق أو أصدقاء جُدد ، كان شعارها : كل يوم عدو أو أعداء جدد ... ودار الزمن دورته خلال خمس سنوات ، كان المسلمون يتهيأون ليلاً ونهاراً للقضاء على ملكها ، وكانت هي تعمل ليلاً ونهاراً بصورة غير مباشرة لمعاونة المسلمين في تحقيق هدفهم ، وذلك بتصرفاتها الظالمة ، فلما حان وقت معركة الجولة الثانية ، تخلى عنها حلفاؤها من الروم والبربر ، فقاتلت بمعاونة رجال قبيلتها، ولكنها توقّعتْ مصيرها المحتوم ... مصير كل ظالم مخرّب .. وتنبأت سلفاً بمصيرها ... هذا المصير الذي لا يحتاج توقعه إلى كهانة أو معرفة بالغيب .

وكانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين الهجرية[1] (٧٠١ م) ، وبعد قتل الكاهنة أخلد البربر الى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام[2] ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم تبق أمام العرب غير مقاومات طفيفة من بعض قبائل البربر .

٦ ــ وعاد حسّان إلى (القيروان) بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية[3]، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية ، فلما استراح جيشه وأنجز حسّان إستحضاراته إتّجه إلى شمال القيروان ، إذ لا زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر ، وكانت جبال (زَغْوَان)[4] في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنّة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم ، ولعل قربها من قرطاجنة

---

(١) البيان المغرب (٢٩/١).

(٢) الفتح العربي في ليبيا (٩٢).

(٣) البيان المغرب (٢٩/١).

(٤) جبل زغوان : هو جبل بإفريقية ، بالقرب من مدينة تونس ، وهو جبل منيف مشرف، وفيه قرى كثيرة آهلة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٤/٤).

جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة ؛ فأرسل إليها حسّان مولاه (أبا صالح) فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى ، فأسرع إليها حسّان بنفسه ففتحها صلحاً .

ولم يبق على حسّان إلاّ استعادة فتح قرطاجنّة ، وكان (يوحنّا) ورجاله من الروم قد حصّنوها وأعادوا ما تهدّم من أسوارها ، وكانوا يرقبون حركات حسّان ؛ فسار إليهم ، فتحصّنوا بها . وحاصرهم حسّان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة ، فالتجأ إلى قرطاجنّة محتمياً بها[1] . وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنّة في يد حسّان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنّا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدّة أقوى، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنّة قط[2] .

كانت للروم سفن بباب النساء ، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلاً ، وأسلموا المدينة ، ولم يبق بها إلا الملك المسمى بـ (مرياف) وأهله وولده ، فكتب إلى حسّان : « هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشترط لنفسي ما شئته من المنازل ، وأسلم لك المدينة ؟ » . ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها ، فأجابه حسّان إلى ذلك ، فاشترط الأرض المسماة بمرياف ، وهي إذ ذاك قرى كثيرة ، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله ، فوفى له حسّان بما أعطاه من العهد ، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض ، وهي الناحية المسماة اليوم بمرياف في تونس[3] .

ولما فتح حسّان قرطاجنّة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ، ففتحها ... وكان قد استمد عبد الملك بن مروان ، فأمدّه بأسطول تحت

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٤ - ١٠٥).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٦٠).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٥) نقلا عن المسالك والممالك للبكري (٣٧) ونزهة الأنظار لابن مقديش الصفاقسي (٧٩).

قيادة عبد الملك بن قطن[1] ، فطهّر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء ، كما بعث إلى (فنّاس)[2] خيلاً فافتتحها[3].

بهذا خلصت إفريقيّة لحسّان ، ولم تعد هناك قوّة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد . نعم ، بقيت بضع نواحٍ لم يصل إليها العرب المسلمون بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربيّ قد تمّ ، وأن واجب حسّان الآن هو رفع السيف والإهتمام بناحية أخرى ، وهي نشر الإسلام في البلاد وتقرير أمورها وخراجها وشؤونها وما إلى ذلك[5] .

لقد استقامت بلاد إفريقية لحسان في سنة اثنتين وثمانين الهجرية[6] (٧٠١ م) .

٧ ـ أدرك حسّان بثاقب فكره وبعد نظره ، أن استعادة فتح قرطاجنّة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى والتحصّن فيها من جديد ما لم ينشىء ميناء جديدة ويكون له اسطول بحري قوي .

لقد أدرك عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه قبل حسّان ، ضرورة إنشاء قاعدة متقدمة تكون مستقراً للمدافعين عن إفريقية في الحروب البرية ، ولكن إفريقية كما مرّ بنا ، كانت مهددة دائماً من قوات برية من الروم والبربر ، ومن قوات بحرية من الروم ، فلا بد من ميناء بحرية تكون قاعدة متقدمة للدفاع عن إفريقية ضد الروم ، وللهجوم على الروم في عقر دارهم

---

(١) انظر ترجمته في رياض النفوس وتهذيب ابن عساكر .

(٢) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٢٩ - ٣٣١) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦) .

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٦) .

(٥) فتح العرب للمغرب (٢٦٠) .

(٦) البيان المغرب (١/٢٩) .

في جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولتكون مستقراً للأسطول العربي الإسلامي تنطلق منها في حالتي الدفاع والهجوم ، فيغير بهذا الاسطول على ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقية[١].

وبدأ حسّان يبحث عن موضع مناسب على البحر يستطيع أن ينشيء فيه ميناءه الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنّة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، فاسترعى هذا الموضع انتباهه ، لأن وقوعه على شاطىء السبخة أي إلى الداخل قليلاً يحبّب العرب في سكنى المدينة التي تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذذاك يطمئنون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، فيكفي حراسة مدخل السبخة لكي ينذر الحراس أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، كما أن الأرض السبخة هي مراعٍ طبيعية للإبل سفن الصحراء[٢].

كان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنة تدعى : (تُرْشِيْش)[٣] ، وكان يسكنها البربر والروم ، وهي على سفح جبل ، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها والسور الذي يمنع الأعداء عنها . وفي شرقيها بحيرة جميلة تلطّف جوّها وتزيد في سحرها وجمالها ، وحواليها سهول للزراعة . وقد نزلها حسان بجيشه في حصاره لقرطاجنّة فأعجب بمناعة موقعها وجمال مكانها[٤].

ولم يلبث حسّان أن وقـــع اختياره على (ترشيش) ، فبدأ يخطط المدينة من جديد . ويبدو أن المدينة اليونانية (ترشيش) كان قد اضمحل

---

(١) رحلة التيجاني (٢٣ أ).

(٢) انظر رياض النفوس (١/٦ – ٧) عن فائدة السبخة للمراعي . وانظر فتح العرب المغرب (٢٦١) .

(٣) ترشيش : اسم مدينة تونس التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٧٦).

(٤) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٥).

أمرها حين بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، فقد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم ، فيتأنسون بهم ، فقالوا : هذه البقعة تونس[1] وقيل : إن المسلمين سمّوها : تونس ، لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب[2] .

وكان على حسّان أن يبدأ بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر وأن يحفر في ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر ، وتصبح : تونس ، ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ؛ ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية (دار صناعة) للبلد الجديد حتى تستطيع السفن أن ترسو فيها وتقلع منها في أمان ، فخرق حسّان البحر إلى تونس[3] . وأراد حسّان أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء ، فأرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه نفراً ممن لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن ، فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس ، وكتب إلى حسّان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوّة وعدّة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ؛ فوصل القبط إلى حسّان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى (رَادِس)[4] إلى دار الصناعة ، وجرّ البربر الخشب ، وجعل فيها المراكب الكثيرة . وأمر

---

(1) المؤنس (٨).

(2) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٥).

(3) المؤنس (٣٣).

(4) رادس : البحر الذي على ساحله تونس بإفريقية يقال له : رادس ، وبذلك سمي ميناها =

القبط بعمارتها [1] .

بهذا استطاع حسّان أن ينشىء مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً بريّاً ومعسكراً للجند الإسلامي ؛ فقد أصبحت تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً بحرياً وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنّة ؛ ولو قد أوتي حسّان من فراغ الوقت أكثر من ذلك ، لتعهّد المدينة بالرعـــاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيهـــا مسجداً وخطّط دورها وما إلى ذلك ؛ ولكن العزل عاجله ، فبقي إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكماله عبيد الله بن الحَبْحَاب [2] مولى بني سلول والي إفريقية لهشام بن عبد الملك [3] بعد ثلاثين سنة ، فأنشأ المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها واتخذ لها دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية [4] .

بقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقيّة ، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب المسلمون شرّهم ، وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين [5] .

= مينارادس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٣–٢٠٤). وهي فرضة صغيرة على البحيرة تسمى (آدس Ades) وهذا الميناء هو الذي جعله جغرافيو العرب : آدس . انظر فتح العرب للمغرب (٢٦١).

(١) وصف إفريقية للبكري (٣٨ – ٣٩).

(٢) عبيد الله بن الحبحاب : هو مولى بني سلول ، وكان رئيساً نبيلا وأميراً جليلا ، بارعاً في الفصاحة والخطابة ، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها . وهو الذي بنى المسجد الجامع بتونس . وكان أول الأمر كاتباً ، ثم تناهت به الحال الى ولاية مصر وإفريقية والأندلس والمغرب كله . عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٢٣ هـ . أنظر التفاصيل في البيان المغرب (١/ ٥١–٥٥) وانظر ما جاء عنه في الولاة والقضاة (٧٣ – ٧٦) وابن خلدون (٤/١٨٨ – ١٨٩).

(٣) معجم البلدان (٢/٤٣٤).

(٤) ابن خلدون (٤ / ١٨٨ – ١٨٩).

(٥) فتح العرب للمغرب (٢٦٣).

وأقام حسّان لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد[1]، وبذلك عاد من الجهاد الأصغر وهو قتال الأعداء، إلى الجهاد الأكبر وهو الإصلاح، فوطد أركان دولة الإسلام في المغرب ونشر الإسلام في ربوعه، فأصبح الفتح الإسلامي هناك بحق فتحاً مستداماً.

الإنسان :

١ – حياته الخاصة :

لا نعرف عن حياة حسّان الخاصة غير أنه كان من التابعين من بيت عريق في الحكم والقيادة هو بيت الغساسنة أمراء الشام وملوكها الذين كانوا موالين للروم، وأنه قد حدّث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان له بدمشق دار[2].

كان حسان رجلاً عاقلاً رزيناً مخلصاً وفيّاً صادقاً تقيّاً ورعاً، وكان أميناً فكان يسمى : الشيخ الأمين[3]. وحين عاد إلى الشام معزولاً قال حسّان لمن معه : «إئتوني بقِرَب الماء !»، ففرّغ منها ما جاء به من الفضّة والذهب والجوهر، فقال له الوليد بن عبد الملك : «جزاك الله خيراً يا حسان»، فقال : «يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة»، فقال الوليد : «أنا أردّك إلى عملك، وأحسن إليك، وأنوّه بك !»، فحلف حسّان : «لا ألي لبني أميّة أبداً»[4].

«ليس مثلي يخون الله ولا الخليفة»، هكذا كان يثق بنفسه نزيهاً فوق الشبهات، فهو ربيب بيت عريق لو لم يمنعه دينه من الخيانة لمنعه حسبه، فكيف به وهو من هو نسباً، وهو من هو ديناً وورعاً !

---

(١) البيان المغرب (٣٠/١).

(٢) تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤).

(٣) البيان المغرب (٣١/١).

(٤) البيان المغرب (٣٠/١).

« ولا ألي لبني أميّة أبداً » ، فهو قد اقتنع بأنه لا جدوى من جهوده التي قوبلت بالعقوق ، ولن يرضى التعاون رجل يعرف قيمة نفسه ، مع وجود بعض المسؤولين لا يقدّرون أقيام الرجال.

ولسنا نعرف تفاصيل كافية عن حياته الشخصية : متى ولد ، وكيف أمضى حياته قبل تولي إفريقية. وكان عُقْبَة بن نافع الفِهْري أول من بنى جامع القيروانَ ، فلما وَلِيَ حسّان إفريقية هدمه — حاشى المحراب — وبناه بالطوب [1].

وقد لزم حسّان بيته بعد عزله[2] ، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك [3].

فمتى توفي حسّان؟ في رواية : إنه توفي سنة ثمانين الهجرية غازياً في أرض الروم[4] ، وهذا مرجوح لأنه كان في مدينة القيروان في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية[5]، وسير الحوادث التي مرّت بنا تؤيد ذلك.

كما أن عبد العزيز بن مروان هو الذي عزل حسّان[6] ، وقد مات عبد العزيز سنة خمس وثمانين الهجرية[7] ، فتولى بعده مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين الهجرية[8] ، فاستخلف حسّان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبي ونفيس الذخيرة ؛ فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله بن عبد الملك مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر. ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذٍ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنعه

---

(١) الحلة السيراء (١/١٦٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧) والعبر (٢/٩٢) وشذرات الذهب (١/٨٨).
(٥) البيان المغرب (١/٢٩).
(٦) البيان المغرب (١/٣١) وتهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٧) ابن الأثير (٤/١٩٧) وشذرات الذهب (١/٩٥).
(٨) الولاة والقضاة (٥٨) وانظر البيان المغرب (١/٣٤).

به عمّه عبد العزيز فغاظه ذلك وأنكره[1] ، وهذا معناه أن حسّان قدم مصر خلال سنة ست وثمانين الهجرية ، لأنه قدمها أيام عبد الله بن عبد الملك ، ولأنه وصل إلى دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان عبد الملك قد توفي سنة ست وثمانين الهجرية[2] في منتصف شوال من هذه السنة[3] ، فشكره الوليد ووعده بردّه إلى عمله ، فحلف حسّان ألا يلي لبني أمية عملاً[4] ، ولزم بيته[5] .

وأصرّ حسّان على ابتعاده عن تولي المناصب القيادية ، ولكنه بقي مجاهداً في ساحات الوغى ، فإذا صحّ أنه توفي غازياً في أرض الروم كما أسلفنا[6] ، فمن المحتمل أنه خرج غازياً سنة سبع وثمانين الهجرية الى أرض الروم للجهاد تحت لواء مسلمة بن عبد الملك ، فمات هناك ، أي أنه من المحتمل أن تكون وفاته في تلك السنة (٧٠٥ م) ، إذ ليس من المحتمل خروجه إلى أرض الروم في سنة ست وثمانين الهجرية وهو قد عاد تواً من سفر قاصد وجهاد طويل في إفريقية[7] .

٢ ـ حياته العامة :

أ ـ في إفريقية :

كان حسّان بمصر لما قتل زهير بن قيس البلَوي[8] ، فقال عبد الملك :

---

(١) الاستقصا (١/٨٤).

(٢) تاريخ بغداد (١/٣٩١) وتاريخ الخميس (٢/٣١١).

(٣) ابن الأثير (٤/١٩٨).

(٤) الاستقصا (١/٨٤).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).

(٦) انظر غزو الروم في تلك السنة في ابن الأثير (٤/٢٠٢).

(٧) ذهب إلى ذلك صاحب الأعلام في (٢/١٩٠). وهناك رواية ، أن حسان قدم دمشق وعبد الملك مريض . انظر الحلة السيراء (٢/٣٣٢) ، وهناك روايات أخرى في مصادر أخرى ، أثبتنا في أعلاه ما يتفق مع سير الحوادث .

(٨) الحلة السيراء (٢/٣٣١).

« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسّان بن النعمان الغسّاني » ، فبعثه أميراً إلى إفريقية[1] وأمره بغزو إفريقية[2] ، وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[3] .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية عزله عبد العزيز بن مروان ، وبذلك مكث حسّان أميراً على إفريقية اثنَي عشرة سنة .

فلماذا عزله عبد العزيز ؟

كان عبد العزيز قد ولّى على (برقة) عبداً له يقال له : (تليد) ، وكان بها أشراف الناس ، فكبرت عليهم إمامة (تليد) ، فأعتقه عبد العزيز . ثم إنه سأل حسّان أن يترك ولاية (برقة) لتليد ، فلم يتركها له ، فعزله عبد العزيز[4] . ورجع حسّان من مصر إلى عبد الملك شاكياً بأخيه عبد العزيز لتقديمه على برقة غلامه تليداً وخلّف ثقله بمصر ، فقدم على عبد الملك في الشام وهو مريض[5] ، والظاهر أنّ عبد الملك كان في مرض موته ، لذلك قدم على الوليد[6] الذي تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية[7] ، فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز ، فغضب الوليد لذلك[8] .

سبب عزله إذاً ، أنه كان معتدّاً بنفسه غاية الإعتداد ، فكان لا يسمح بالتدخّل في شؤون ولايته إفريقية ، فرأى في تدخل عبد العزيز بن مروان في شؤون إفريقيّة وتعيينه أحد رجاله ما يمسّ باستقلال ولايته أولاً ،

---

(١) رياض النفوس (٣١/١).
(٢) الحلة السيراء (٣٣١/٢).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٦٩).
(٤) تهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤).
(٥) الحلة السيراء (٣٣٢/٢) وانظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٤).
(٦) البيان المغرب (٣٠/١).
(٧) شذرات الذهب (٩٧/١) وأبو الفدا (١٩٨/١) والمعارف (٣٥٩).
(٨) البيان المغرب (٣٠/١).

وما يمس بكرامته وكرامة أشراف الناس في (برقة) ثانياً ، لذلك آثر التخلّي عن منصبه ، وعاد أدراجه إلى دمشق .

وفي رواية ، أن عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر ـ وكان الوالي على مصر يولىّ على إفريقية ، عزله وأمره بالقدوم عليه ؛ فعلم حسّان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضّة ، فجعله في قِرَب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة ، وأنواع الدوّاب ، والرقيق ، وسائر أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان ، أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر [1] . فكان أبو محجن نُصَيْب الشاعر يقول : « لقد حضرت عند عبد العزيز سبياً من البربر ما رأيت قط وجوهاً أحسن من وجوههم[2] » . وكان نُصَيب يقول : « حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسّان مائتي جارية ، منها ما يقام بألف دينار »[3] . ولكن عبد العزيز سلبه جميع ما معه من الخيل والأمتعة والوصائف والوصفان . ورحل حسّان بالأثقال التي بقيت له ، حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، ثم قال حسّان لمن معه : « إئتوني بقِرَب الماء ! » ، ففرّغ منها من الذهب والفضّة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسّان ، فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً ياحسّان ! »، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة ! » ، فقال له الوليد: « أنا أردّك إلى عملك وأحسن إليك وأنوّه بك »، فحلف حسان: « لا أولي لبني أميّة أبداً » ، فغضب الوليد بن عبد الملك على عمه عبد العزيز ! وكان عزل حسّان من قبل عبد العزيز دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته »[4]

---

(١) البيان المغرب (١/٣٠).

(٢) البلاذري (٢٣١).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٧٢).

(٤) البيان المغرب (١/٣٠ – ٣١).

وعلى الرغم من اضطراب ما في هذه الرواية من أخبار ، خاصة الأخبار التي ذكرت أن حسّان قدم على عبد العزيز في مصر ، وقدم على الوليد في دمشق ، بينما عبد العزيز مات في أيام عبد الملك كما ذكرنا ؛ إلا أنه يمكن أن نتبين مما ورد في هذه الرواية ، أن عبد العزيز كان مركزي السيطرة ، وكان يتدخل في شؤون أمراء إفريقية كما فعل مع زهير بن قيس البلوي قبل حسّان[1] ، وأنه كان حريصاً على جمع المال واقتناص الغنائم ، فأمر حسّان بالقدوم عليه — ومنها يشم رائحة الشك في نزاهة حسّان — ولكن حسان حين وصل إلى مصر كان عبد العزيز قد قضى نحبه ، لذلك فقد أهدى عبد الله ابن عبد الملك الذي خلف عبد العزيز على مصر مائتي جارية — وهي التي وصفها نصيب الشاعر كما ذكرنا — ، فقال حسان قولته للوليد : « إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله ، وليس مثلي من يخون الله ولا الخليفة » ، في معرض الدفاع عن نزاهته المجروحة ، وكان رد الفعل الذي ظهر على حسان ، عزمه على ألا يلي لبني أمية عملا !!

ولعلّ الرواية التالية عن عزله تؤيد ما ذهبنا اليه ، فقد ذكرت هذه الرواية : « واستمرّ حسان على المغرب الى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه ، فاستخلف حسّان على المغرب رجلاً من جنده اسمه أبو صالح ، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال وروائع السبي ، ونفيس الذخيرة ؛ فلما انتهى الى مصر أهدى الى عبد الله (وهذا يدل على أنه حين قدم مصر كان عبد العزيز قد توفي) مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج (يقصد الروم) والبربر ، فلم يقنعه ذلك ، وانتزع كثيراً مما بيده . ولما قدم على الخليفة بدمشق ، وهو يومئذ الوليد ابن عبد الملك ، شكا اليه ما صنع به عمّه عبد العزيز ، فغاظه ذلك وأنكره ثم أهدى اليه حسّان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليدوشكره عليه ، ووعده بردّه إلى عمله ، فحلف حسّان أن لا يلي لبني

---

(1) انظر فتوح مصر والمغرب (٢٧٢).

أمية عملاً أبداً .

من حق حسّان أن يحلف أن لا يلي لبني أمية ، فما مثله يتّهم بنزاهته من قريب أو بعيـد ، ومن حقّه ألا يتعاون أبـداً مع مَن اتّهمه بأعزّ ما يملك في الدنيا : استقامته ونزاهته . ومن حقّه أن يغضب لاقتطاع قسم من ولايته دون مبرر وتحكيم عبد لا يراه أهلاً للتحكّم في رقاب أشراف الناس من أهل الحسب والأيام .

ب ـ إصلاحاته :

أولاً ـ مجمل الإصلاحات :

في سنة اثنتين وثمانين استقامت بلاد إفريقية لحسان ، فدوّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية [1] من البربر [2]. ثم أوعز إليه عبد الملك باتخاذ دار الصناعة لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد [3] . ونزل موضع القيروان وبنى مسجد جماعتها [4]، وخطط مدينة تونس وبدأ ببنائها ، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر كما ذكرنا .

تلك إصلاحات مهمة جداً ، منها إدارية ، مثل بناء تونس وحفر قناتها وبناء مسجد القيروان ، أما باقي اصلاحاته فسنذكرها وشيكاً .

ومنها إصلاحات عسكرية ، كتجنيد جيش من البربر ، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي ، وسنذكر إصلاحاته العسكرية وشيكاً أيضاً .

ثانياً ـ تدوين الدواوين والاصلاحات الادارية :

دوّن حسّان الدواوين ، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى

---

(١) البيان المغرب (١/٣٠).
(٢) الاستقصا (١/٨٤).
(٣) الاستقصا (١/٨٤).
(٤) فتوح مصر والمغرب (١٧١).

ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولون ، ونظم الجيش وقسّمه على الثغور ، وفرض له العطاء من بيت المال[1] . وأقام العمال على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند وما الى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد العرب إذ ذاك[2] .

وأنشأ حسّان المساجد في المدن والقرى وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد وللفتوى في مسائل الدين[3] ، وأقام المدارس الإبتدائية بجانب كل مسجد لتعلّم أبناء المسلمين دينهم وتحفّظهم القرآن الكريم وتطبع ألسنتهم بلغته . واختار حنش بن عبد الله الصنعاني[4] عاملاً على الزكاة . وفرض حسّان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى ، وعيّن القضاة للنواحي ، وأقام الحرّاس في الأنهج والطرقات لحفظ الأمن[5] . وقسّم الأراضي بين قبائل البربر ، فعيّن لكل قبيلة خطّتها ، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين[6] . وقد عدّ حسّان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً ، لذلك أقرّ الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم . واعتنى حسّان بالمدن والقرى ، فمهّد الطرق للسابلة ، وأصلح القنوات للري ، وجدّد بناء مسجد القيروان ووسّعه ، هدمه كلّه إلا المحراب ، وحمل اليه المسلمون الساريتين الحمراوين الموشيتين بصفرة ، اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول[7] .

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية ، وأنشأ مرفأها

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١١).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢٧٦).
(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١١).
(٤) انظر ترجمته المختصرة في هامش ترجمة زهير بن قيس البلوي .
(٥) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٢ – ١١٣).
(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٣).
(٧) تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٤).

ودار الصناعة [١] . وكان أهل المغرب في حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يرون كتابته ، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها [٢]، فجدّ حسّان كل الجد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين [٣] .

وضرب حسّان السكّة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً ، وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزانطيين ، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم . فقد كان الدينار القرطاجني أيام حكم البيزنطيين يطبع على الوجهين ، فعلى أحدهما صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة ، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه ، وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثلاث درج ، وهو المعروف بالصليب القرطاجني ، ومكتوب على دائرته باللاتينية : ضرب هذا بإفريقية ، ثم ذكر السنة بحسب عقدٍ ذات عشر سنوات من اعتلاء ذلك القيصر حكم بلاده .

أما دينار حسّان اللاتيني العربي ، فهو عين الدينار القرطاجني المتقدم وزناً وشكلاً ، وإنما حذف من الصليب العمود الأفقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الرأسي ، وحذف الدرج الأسفل من السلم ، ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابنه بدلاً من قيصر البيزانطيين وولي عهده ، وكتب حسّان في سكّته باللغة اللاتينية كلمة التوحيد[٤] .

---

(١) **Arsenal** : دار لاختزان الأسلحة أو انتاجه ، مذخر حربي . اسبانية : **D'arsener** ثم في القرن الثامن عشر (**Atarzana**) ومنها أخذ المصريون تعبير : الترسانة ، ونسي الأصل . ثم **Arsenal** . إيطالية :**Arsenale** كتبت في القرن الرابع عشر **Arzona** . فرنسية **Arsenal** ي وهي دار صناعة العربية . انظر مجلة المعجم العلمي العراقي ، المجلد الثالث الجزء الثاني (١٣٧٤ هـ) ص (٣٩٤) وانظر تاريخ التمدن الإسلامي (١/١٩٩) .

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٩٨) .

(٦)تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٨) .

(٧)محاضرات الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي نشرتها جريدة الضياء المصرية في ٢٧ مارس ١٩٣١ - نقلا عن تاريخ المغرب الكبير (٢/١١٨-١١٨) وجاء فيها : وزاد في الكتابة اللاتينية بطريقة=

وكان حسّان قد قضى على الروم سياسياً وعسكرياً ، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزانطة ، وهي العلاقات الكنيسية ، فقطعها خوفاً من أن يتذرّع البيزانطيون فيتصلون بالمغرب ، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأورثوذوكسية في مصر ، وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزانطة [١] ، وكانت سياسة الروم في إفريقية سبباً في القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها ، إذ وقف الأهلون موقف العدو من الروم وكل ما يتصل بهم من دين او حضارة . بل أخذ بعضهم يهاجم الاديرة والكنائس [٢] . كما أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال تبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة : إذ تلاشى النظام الكنسي واقترف القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم الأكبر فيما يصدر إليهم من أوامر ، وكان آخرون يبذرون الشقاق في الأديرة بإثارة الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها في اضطراب داهم وتدهور مستمر ، إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صغار الرهبان بعقوبات بدنيـــة . فأدّت سياسة الروم في إفريقيـــة ، وسياسة الكنيسة الإفريقية . وغير ذلك ، الى أن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية

— إختصار الأحرف ما يأتي :

أ – الوجه الأول : **in Nadnimisr Cunds in Nmine Domi Miseri Cordis Unius**

وتعريبها : بسم الله الرحمن الإله الأوحد .

ب – وفي الوجه الثاني : **Unus Deus Nisl Socius Alis Similis**

وتعريبها : وحده لا شريك ولا مثيل له .

كما كتب على هذا الوجه أيضاً : **Fe Riei in Africa in Dictione**

وتعريبها : ضرب بإفريقية في العشرة الثالثة ويسامى (٨٥ هـ).

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/١٢٠).

(٢) فتح العرب للمغرب (٢٨٠).

بعيد تمام الفتح الإسلامي[١] ، فارتبطت الكنيسة القرطاجنيـــة بالكنيسة الأورثوذوكسية في مصر كما ذكرنا.

جـ - مؤسس ولاية المغرب :

بهذا اكتملت الأسباب ليكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل لخليفة المسلمين ويدين أهلها بالاسلام ، ويتخذون العربية لغة. وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن ، فان المغرب القديم إختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحلّ محله المغرب الإسلامي ؛ أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة ، وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة[٢] ... وكان لحسّان أثر بالغ على كل ذلك.

لهذا غضب كثير من رؤساء البربر لعزل حسّان ، فانفصلوا عن القيروان ، واستقلوا عن الدولة ، ورجعوا إلى ما يؤثره البربر من الإستقلال واللامركزية في الحكم ، فانفصلت كثير من النواحي منها جبال زغوان في شمال القيروان ونواحي أخرى من المغرب الأوسط والأقصى[٣].

وكان عزله خيبة أمل للعرب المسلمين أيضاً ، فغضب من أجله كثير منهم، ولعل ما قاله شعراؤهم في استهجان عزله خير دليل على تقييم جهود حسّان من العرب المسلمين والبربر المسلمين على حد سواء.

قال أبو عتيك :

أقـــول لأصحابي عشية جاءنـــا بغير الذي نهوى البريد المبشّرُ
ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا فقلّ متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوابق عبـــرة فنعم الفتى المعـــزول والمتنظر

(١) فتح العرب للمغرب (٢٨٢ - ٢٨٤).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢٩٩).
(٣) تاريخ المغرب الكبير (١٢٣/٢).

فإن يلك هذا الدهر جاء بعزلــه عليه ، فإن الدهر بالمرء يعثر[1]

لقد كان حسّان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الاسلامي العربي ، القــائد :

« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسّان بن النعمان الغساني »[2]، ذلك ما قاله عبد الملك بن مروان عن حسّان حين عزم على توليته أمر إفريقية .

والحق أن العرب المسلمين عانوا ما عانوا من صعوبات في فتح المغرب ، فقد مضى على المسلمين ستون سنة من (٢٢ هـ - ٨٢ هـ) وهم يبذلون قصارى جهدهم افتح المغرب حتّى تكللت مساعيهم بالنجاح على يد حسّان ، إذ انتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم في قرطاجنّة ، وانتصروا في معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد سكان إفريقية المحليين بقيادة الكاهنة ، فما أسباب صعوبات فتح المغرب ؟؟ .

إن المغرب ليس قطراً واحداً يتمّ خضوعه بمعاهدة شاملة أو بموقعة حاسمة ، « فإن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلّما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم » ، كما قال حسّان[3] ، وربما كان هذا الاضطراب الذي يسود تكوين المغرب السياسي والإجتماعي والطبيعي هو السبب الأول في طول مدة الفتح واختلاط سبيله على الفاتحين .

ومن تلك الصعوبات ، ظروف العرب المسلمين أنفسهم ، وما نزل بهم من الأحداث التي شغلتهم عن الفتح أو حالت بينهم وبين أن يتعهّدوه بما ينبغي له من العناية والإهتمام ، كالفتن الداخلية الكثيرة التي كانت تحول بين أولي الأمر من العرب المسلمين وبين إرسال الحملات الى إفريقية ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦ - ١٤٧) .
(٢) رياض النفوس (١/٣١) .
(٣) البيان المغرب (١/٢٦) .

وبُعْدِ المغرب الذي جعل إرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلّب العدة العظيمةَ والنفقة البالغة[1] . ومن تلك الصعوبات كره البربر للأجنبي ونفورهم من كلّ شيء يأتيهم من خارج وطنهم . ومنها وجود الروم الذين لم يألوا جهداً في إبعاد البربر عن المسلمين وإعداد العدّة لقتال الفاتحين[2] . ومنها النزاع بين ولاة مصر وقواد إفريقيّة ، ورغبة الأولين في السيطرة على هذه البلاد والتصرّف في مالها وغنائمها ، مما رأينا أثره في تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ براجهم وإدراك الغايات التي سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها ، كما رأينا في عدوان مسلمة بن مُخَلّد على عقبة بن نافع وعزله إياه وحرمانه من ثمرة جهوده ومنعه من تنفيذ براجه ، وعداء عبد العزيز ابن مروان لزهير بن قيس وحسّان بن النعمان مما انتهى بعزل الثاني وحرمان البلاد من خبرته واقتداره[3] .

وعظمة حسّان قائداً تتلخّص في تشخيصه أهم تلك الصعوبات : القضاء على قوة الروم ، وتفتيت قوة البربر ، ففتح قرطاجنّة عاصمة الروم في إفريقية ، وضيّق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة ... ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة ، ثم بذل قصارى جهده لنشر الاسلام بين البربر ، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان — هم في الحقيقة زبدة مقاتلي البربر — بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه !

ولم يكن عبد الملك بن مروان ، بما عرف عنه من دهاء وحنكة سياسية وخبرة عميقة بأقيام الرجال ، ليجهل الصعوبات التي تكتنف فتح إفريقيّة ، فعجم عود رجاله واختار أصلبهم عوداً وأكثرهم تجربة وأقواهم على تحمل مثل هذه المسؤولية الضخمة : فتح إفريقيّة ... كل ذلك يدل على أن حسّان لم يكن مجهول المكانة ولا خامل الذكر ، بل كان معروفاً بقابلياته الفذّة

---

(1) فتح العرب للمغرب (٢٦٨).
(2) تاريخ المغرب الكبير (١٠٨/٢).
(3) فتح العرب للمغرب (٢٦٨ — ٢٦٩).

وتجربته الطويلة في الإدارة والحرب .

وكان حسّان عند حسن ظنّ عبد الملك به بعد اختياره ، فبقي موضع ثقته حتى بعد اندحار قواته أمام الكاهنة ، فلم يفرّط عبد الملك بحسّان بعد هذا الاندحار ، بل أبقاه على رأس قوات المسلمين في (برقة) وعمل على إمداده بالرجال والعتاد والمال عندما تحسّنت ظروفه السياسية ؛ وهذا دليل على أن قابليات حسّان كانت فوق الشبهات ، وأن اندحاره لم يؤثر على سمعته الممتازة ومكانته السامية عند عبد الملك والناس .

فأي نوع من القادة كان حسّان ؟

مفتاح مزايا قيادته ، ما كان يتمتع به من بعد نظر ، وهذه المزيّة هي أول مزاياه قائداً .

لقد قدّر أن إفريقية لا يمكن أن يتمّ فتحها إلاّ بقوات ضاربة متفوقة من جهة ، وبأفكار سياسية حصيفة من جهة أخرى : القوات الضاربة تقضي على العدو ، والسياسة الحصيفة توطد أركان الفتح .

ودأب طيلة بقائه على إفريقيّة أن يسير سيفه وعقله معاً متكاملين متعاونين ، فلا يضع السيف في موضع العقل ، ولا يضع العقل في موضع السيف ، وبذلك نجح في إفريقية نجاحاً باهراً ، حتى ليمكن أن يعدّ حسّان بحق هو الفاتح الحقيقي لإفريقية ، فهو الذي استثمر جهود من سبقه من قادة الفتح ، ولولا جهوده لذهبت أكثر جهودهم أدراج الرياح .

وكان حريصاً على جمع المعلومات عن العدو ، فحرص على الاتصال بخالد بن يزيد ، وحصّل على معلومات قيّمة جداً عن تفرّق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم ، وبذلك سار إليهم وهو قرير البال مطمئن الفكر ، يعرف أن العدو الذي سيقاتله منهار المعنويات .

ومن سير معارك حسّان يتّضح أنه كانت له قابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً ، ذكياً فطناً متيقظاً ، ذا إرادة

قوية نافذة يتحمّل المسؤولية بلا تردّد ، يعرف مبادىء الحرب ويطبّقها بكفاية نادرة ، له نفسيّة لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار ، يتمتع بمزية سبق النظر بشكل ملحوظ ، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ويعطي كل واحد منهم ما يستحقه من مكانة بالنسبة لقابلياته ، يثق رجاله به ويثق بهم ويحبونه ويحبهم ، له شخصية قوية نافذة ، وله قابلية بدنية ممتازة تعينه على تحمل مشاق الحرب ، غير متهوّر ولا متردّد ، له ماض ناصع مجيد .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه طبّق مبدأ : (اختيار المقصد وإدامته) ، فكان مقصده واضحاً هو : القضاء نهائياً على الروم وقاعدتهم قرطاجنة ، وضرب قوات البربر المناوئة له ، ونشر الاسلام في ربوع إفريقية ، وتوطيد أركان الفتح الإسلامي في ربوعها وجعله فتحاً (مستداماً) كما هو الحال في مصر وفي أرض الشام وفي العراق وفي المشرق وغيرها من نواحي الدولة الإسلامية .

كما طبّق مبدأ (التعرض) ، فكانت غزواته كلها تعرّضيّة ، انتصر فيها جميعاً عدا معركة الكاهنة الأولى ، الذي اندحر فيها نتيجة لإعجاب أصحابه بكثرتهم واستهانتهم بعدوّهم ، فلم تغن عنهم كثرتهم من الاندحار شيئاً .

كما طبّق مبدأ (المباغتة) بضخامة ما أعدّه من قوات أولاً ، وبحصوله على المعلومات التفصيلية عن عدوه ، وعودته اليهم في وقت لا يتوقعونه وهو على هدي وبصيرة من أمره .

كما طبّق مبدأ (تحشيد القوة) ، فسار بجيش تعداده أربعون ألفاً لم يدخل إفريقية جيش مثله من قبل .

كما طبّق مبدأ (الإقتصاد بالمجهود) ، فلم يبذر بقواته ولم يعمل على تشتيتها لمصاولة أهداف ثانوية ، بل كانت قواته مجموعة بيديه يقاتل بها أهدافه السوقية (الاستراتيجية) ولا يحيد عن تلك الأهداف مطلقاً .

كما طبّق مبدأ (الأمن)، فحرص على جمع المعلومات عن عدوه ، وحرم العدو من الحصول على معلومات عن قطعاته ، وبذلك لم يستطع العدو مباغتة قواته أبداً .

كما طبّق مبدأ (المرونة) ، فكانت لقواته قابلية ممتازة على الحركة ، فقطعت مسافات شاسعة من (الفسطاط) الى (قرطاجنة) والى جبال (الأوراس) بكل كفاية ومقدرة .

كما طبّق مبدأ (التعاون) بين صنوف قطعاته من جهة ، وبينها وبين البربر من جهة أخرى ، وبذلك استفاد من القوات البربرية التي قاتلت مع رجاله جنباً إلى جنب .

كما طبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فكان لا يفتأ يريح قطعاته في المراحل وبعد كل معركة ، ويواسي الجرحى ، ويعدل بين الناس ويؤمّن لهم أعطياتهم بمساواة تامة .

كما طبق مبدأ (الأمور الإدارية) ، فبقي ردحاً من الزمن في مصر لإنجاز استحضارات جيشه الإدارية ، ومكث في القيروان بعد وصوله الى هناك ردحاً من الزمن لإنجاز تلك الاستحضارات ، وكانت قواته مجهزة بكل ما تحتاج إليه في المعركة من سلاح وعتاد ومال وأرزاق وقضايا صحية وبيطرية .

لقد كان حسّان قائداً ممتازاً بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

حسان في التاريخ :

يذكر التاريخ لحسّان ، أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء بإفريقية .

ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع العرب المسلمين لا عليهم .

ويذكر له أنه فتح (قرطاجنّة) وخرّبها ، فحرم الروم من عاصمتهم التي كانت بنفس الوقت القاعدة الأمينة لهم في إفريقية .

ويذكر له أنه فتح مدينة (فاس) .

ويذكر له ، أنه أنشأ مدينة (تونس) لتكون القاعدة المتقدمة البحرية للمسلمين في إفريقية .

ويذكر له ، أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر .

ويذكر له ، أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية ، كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد عربية إسلامية .

ويذكر له ، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً (مستداماً) : صمد أمام الغزو العسكري الغربي وأمام الغزو الفكري الغربي ، وتحمل من أجل الحفاظ على عروبته وإسلامه كثيراً من التضحيات بالأرواح والأموال .

رضي الله عن التابعي الجليل ، السياسي المحنّك ، الإداري الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسّان ابن النعمان الغسّاني .

موسى بن نُصَيْر اللّخمي[1]

فاتح المغرب الأوسط[2] ثانية والمغرب الأقصى[3] والأندلس

« أما والله ، لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية »

(موسى بن نصير)

نسبه وأيامه الأولى :

١ — هو موسى بن نُصَيْر بن عبد الرحمن بن زيد[4]، يكنى : أبا عبد الرحمن[5] من بني لخم[6] ، ويقال : إنه مولى لَخْم[7]. وقيل : إنه

---

(١) ورد اسمه : موسى بن نصير اللخمي في المعارف (٥٧٠) واليعقوبي (٣/٢٢) والبداية والنهاية (٩/١٧١) ورياض النفوس (١/٧٧). ولخم هو مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد . انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٢) وهم من بني سعد العشيرة بن مذحج من سبأ . انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٠ — ٤٢٢) وانظر بطون لخم في جمهرة أنساب العرب (٤٧٧).

(٢) المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ — ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ — ٣٥٣) والمسالك والممالك لا بن خرداذبة (٨٥ — ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ — ٨٨) وصفة المغرب (٢ — ٢٩) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣—٣٨) ؛ وهي جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر . أنظر تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٣) المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً الى (تلمسان) شرقاً، ومن (سبتة) الى (مراكش) ثم إلى (سجلماسة) وما في سمتها شمالا وجنوباً . انظر تقويم البلدان (١٢٢) والمصادر المنوه عنها في المادة (٢) أعلاه ؛ وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، والتي كانت تعرف إلى عهد قريب باسم : مراكش عاصمتها السياسية ، انظر : تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٤) البيان المغرب (١/٣٢).

(٥) نفح الطيب (١/٢٣٤) و (١/٢٥٤) والبيان المغرب (١/٣٢) .

(٦) بغية الملتمس (٢٤٢) ونفح الطيب (١/٢٥٤) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس —

من أراشة من بَلِيّ[١]، وقيل: من بكر بن وائل[٢]، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل، وغيرهم يقول: إنه مولى[٣].

إنه عربي[٤]، أبوه نُصير كان اسمه: نصراً فصغّر[٥]، كان من بين سبايا (عَيْن التمر)[٦] الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة الهجرية، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلّمون الإنجيل عليهم باب مغلق، فكسره عنهم وقال: «وما أنتم؟!»، فقالوا: «رُهُن!»، منهم نصير أبو موسى بن نصير، وكان نصير ينسب إلى بني (يَشْكُر)[٧]، فقسّمهم خالد في أهل البلاد[٨]، فأصل موسى من (عين التمر)[٩]. وقد أعتق نصيراً بعض بني أمية فرجع إلى الشام[١٠]، ثم أصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان[١١]، ثم أصبح على حرس معاوية[١٢] وعلى جيوشه[١٣]،

= (١١٤/٢) والنجوم الزاهرة (٢٣٥/١).

(٧) بغية الملتمس (٤٤٢) وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجذوة المقتبس (٣١٧) ووفيات الأعيان (٤٠٢/٤) والولاة والقضاة (٥٢).

(١) البلاذري (٢٤٨). وأراشة بن عبيلة بن قسميل بن فران بن بلي من قضاعة انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٤٢).

(٢) نفح الطيب (٢٣٤/١) والبيان المغرب (٣٢/١).

(٣) جمل فتوح الاسلام — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٤٤).

(٤) البلاذري (٢٤٨) والنجوم الزاهرة (٢٣٥/١).

(٥) البلاذري (٢٤٨).

(٦) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار (الفلوجة) غربي الكوفة، بقربها موضع يقال له: شفاثا. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٣/٦).

(٧) بنو يشكر بن بكر بن وائل. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨).

(٨) الطبري (٥٧٧/٢) وانظر ابن الأثير (١٥١/٢).

(٩) البداية والنهاية (١٧١/٩).

(١٠) البلاذري (٢٤٨) ومعجم البلدان (٢٦٧٧).

(١١) ابن خلدون (١٨٧/٤).

(١٢) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٢٤/١).

(١٣) نفح الطيب (٢٢٤/١).

وكانت منزلته عنده مكينة . ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب لم يخرج معه نصير ، فقال له معاوية : «ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها ؟؟» ، فقال : «لم يمكني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك ! » ، فقال : «ومن هو ؟! » ، فقال : «الله عزّ وجل » ، فأطرق معاوية ملياً ثم قال : « أستغفر الله » ورضي عنه[1] .

٢ ـ ولد موسى سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠ م) في خلافة عمر ابن الخطاب[2] رضي الله عنه بقرية يقال لها : (كَفَرمُتْرى)[3] ، ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية قريباً من قادة الفتح الإسلامي وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة وبتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان ومن حوله من قادة الفتح والفكر ، بكنف أبيه نُصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع ، فكان لكل ذلك أثره البالغ على حياة موسى قائداً وإنساناً .

وعندما اشتدّ عوده ، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً ، ولاّه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر ، فغزا (قُبْرُس)[4] وبنى هناك حصوناً مثل (الماعوصة) [5] و (بانس) وغير

---

(١) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٢٤/١ – ٢٢٥) .

(٢) نفح الطيب (٢٦٤/١) والبداية والنهاية (١٧١/٩) والبيان المغرب (٤٣/١) ، وانظر النجوم الزاهرة (٢٣٥/١) .

(٣) كفرمترى : وردت في البلاذري (٢٤٨) باسم : كفرمرى ، وهو تصحيف ، والصحيح أن اسم القرية : كفرمترى ، وهي قرية من قرى أرض الشام في جبل الجليل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٧/٧) . وفي النجوم الزاهرة (٢٣٥/١) : إنه ولد بقرية : (كفرتوثا) ، وهي قرية كبيرة من قرى الجزيرة بينها وبين (دارا) خمسة فراسخ وهي بين (دارا) و (رأس عين) ، وهي ايضاً من قرى فلسطين . انظر معجم البلدان (٢٦٣/٧) .

(٤) قبرس : جزيرة في البحر الأبيض المتوسط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٧) . ومن الأخطاء الشائعة أن بعض الجغرافيين يكتبونها (قبرص) ، والصحيح ، هو قبرس : انظر الطبري (٣١٥/٣) وابن الأثير (٣٦/٣) وأبي الفدا (١٦٧/١) . وقد وردت (قبرص) في ابن خلدون (١٣٠/٢)

(٥) الماعوصة : لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان ، كما لم أجد ذكراً لبانس أيضاً .

ذلك من الحصون التي بناها في (قُبْرُس) ، وكان نائب معاوية عليها[1] ؛ وكان معاوية قد فتح (قبرس) سنة ثمان وعشرين الهجرية[2] .

وبذلك ظهر موسى لأول مرة على مسرح الحوادث العامة .

٣ ــ وفي سنة أربع وستين الهجرية[3] شهد موسى معركة (مَرْج رَاهِط) [4] مع الضحاك بن قيس الفِهْري[5] الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبير[6] ثم دعا الى نفسه ، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان[7] فحماه عبد العزيز وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز ابن مروان وبين موسى بن نصير .

٤ ــ وفي سنة خمس وستين الهجرية توجّه مروان بن الحكم إلى مصر فتملكها واستعمل عليها ابنه عبد العزيز[8] ، وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيراً[9]، وكان موسى مع مروان بن الحكم حين دخوله مصر[10] ، وهذا يدل على أن موسى عاون مروان معاونة كبيرة في تملك مصر ، وأنه

---

(١) البداية والنهاية (١٧١/٩) ، وانظر النجوم الزاهرة (٢٣٥/١) ، وفيه : إنه غزا غير قبرس أيضاً .

(٢) الطبري (٣١٥/٣) وابن الأثير (٣٦/٣) والبداية والنهاية (١٧١/٩) ، والعبر (٢٩/١) . وفي البلاذري (١٥٨): إن معاوية فتح قبرس سنة ثمان وعشرين وقيل سنة تسع وعشرين وقيل سنة ثلاث وثلاثين الهجرية .

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥٨/٤) ، وانظر العبر (٧٠/١) وشذرات الذهب (٧٢/١) .

(٤) مرج راهط : بنواحي دمشق ، وهو أشهر المروج في الشعر ، فاذا قالوه مفرداً فإياه يعنون . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦/٨) .

(٥) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٦) ابن الأثير (٥٧/٤) .

(٧) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

(٨) العبر (٧١/١) وشذرات الذهب (٧٣/١) .

(٩) الولاة والقضاة (٤٧) .

(١٠) البداية والنهاية (١٧١/٩) .

كان موضع ثمة مروان وثقة ابنه عبد العزيز على حد سواء .

٥ – وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة[١] ، ثم ولاّه البصرة سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٢] ، فاجتمع له المصران : الكوفة والبصرة[٣] ؛ وكان بشر يومئذ حديث السن ، فجعل عبد الملك معه موسى وزيراً ومشيراً[٤] ، وجعله المسؤول الأول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق ، فدفع بشر إلى موسى خاتمه وتخلّى له عن جميع العمل[٥] .

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية توفي بشر بن مروان أمير العراقين[٦] بالبصرة ، وهو أول أمير مات بها[٧] ، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج ابن يوسف الثقفي العراق[٨] ، وأوصاه : ألاّ يفوته موسى لأنه احتجن

(١) ابن الأثير (١٣٣/٤).
(٢) ابن الأثير (١٤٠/٤) وابن خلدون (١٥١/٣).
(٣) البداية والنهاية (١٧١/٩) وابن الأثير (١٤٠/٤).
(٤) البداية والنهاية (١٧١/٩).
(٥) الإمامة والسياسة (٥٩/٢) ، وسأعتمد في هذا البحث على هذا المصدر – خاصة إذا اتفقت المعلومات الواردة فيه مع المعلومات الواردة في المصادر العربية الأخرى ، وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في هذا الكتاب مستقى من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل الى الحرفية في بعض الأحيان ، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن (دوزي) شك في صحة الكتاب كله . وقد ناقش رأي (دوزي) وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الامامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود علي مكي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب ابن قتيبة الدينوري مأخوذ من كتاب ضاع لمارك النصيري ، انظر فجر الأندلس (٤٦).
وقد اعتبر هذا الكتاب المستشرق الاسباني (جاينجوس Gayangos) قديماً وصحيحاً وإن كان يشك في نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ، وانتفع به المستشرق الألماني (فايل Weil) والمستشرق الايطالي (أماري Amari) . انظر كتاب دولة الاسلام في الأندلس (٢٤).
(٦) العبر (٨٦/١) وشذرات الذهب (٨٣/١).
(٧) المعارف (٣٥٥).
(٨) ابن الأثير (١٤٤/٤) والطبري (٤٠/٥) وأبو الفدا (١٩٦/١).

الأموال لنفسه حين كان على خراج البصرة ، فخاف موسى الحجاجَ وقصد إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر ، لانقطاع كان منه اليه ، فتوجّه عبد العزيز مع موسى إلى الشام ، ووفدا على عبد الملك ، فأغرمه عبد الملك مائة ألف دينار ، فغرم عنه عبد العزيز نصفها ، وعاد موسى مع عبد العزيز إلى مصر [١].

هل احتجن موسى الأموال لنفسه حقاً ؟ أم شحّت موارد البلاد لظروف طبيعية قاهرة لقلّة هطول الأمطار مثلاً فلم يصل بيت المال الدخل المقرّر [٢] ؟ أم أن بشر بن مروان لم يقم بواجبه أو بذّر في أموال الدولة فكان له الغنم ووقع الغرم على موسى ؟

إن اتّهام موسى باحتجان الأموال لنفسه ، يكتنفه شك واضح نظراً لاستقامته ، ولم يكن من أولئك الذين لا يقدّرون مسؤولياتهم حقّ قدرها ولا يحرصون على أمانتهم ونزاهتهم ، ليقع في مثل هذا العمل الذي لا يقع في مثله أمثاله من الرجال .

جهـــاده :

١ ــ توليتـــه :

هناك اختلاف كبير بين المؤرخين في تاريخ تولية موسى إفريقيّة والمغرب.

فقد ذكر بعض المؤرخين أنه تولّى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين الهجرية [٣] ، أو سنة ثمان وسبعين الهجرية [٤]، أو سنة تسع وسبعين الهجرية [٥]،

---

(١) البيان المغرب (٣٢/١) ، وانظر تفاصيل ذلك في الامامة والسياسة (٥٩/٢ — ٦٠).

٢) انظر مثلا المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢٣٧ — ٢٣٩) عن معدل واردات بعض النواحي ، مما يدل على وجود إحصائيات دقيقة عن معدل الواردات

(٣) اليعقوبي (٢٢/٣) ونفح الطيب (٢٢٣/١).

(٤) الحلة السيراء (٣٣٢/٢) وتهذيب ابن عساكر (١٤٦/٤) والعبر (٨٨/١) وشذرات الذهب (٨٤/١) والولاة والقضاة (٥٢) والنجوم الزاهرة (١٩٨/١).

(٥) البداية والنهاية (١٧١/٩) والبلاذري (٢٣٢) والامامة والسياسة (٦١/٢) وبغية =

أو سنة ست وثمانين الهجرية[1] ، أو ثمان وثمانين الهجرية[2] ، أو تسع وثمانين الهجرية[3] .

لقد استقامت بلاد إفريقيّة لحسّان بن النعمان الغسّاني[4] سلف موسى على إفريقيّة والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية ، فانصرف إلى (القيروان) بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان من تلك السنة[5] . وفي القيروان أمر حسان بتجديد بناء المسجد الجامع ، فبناه بناءً حسناً وجدّده في رمضان من سنة أربع وثمانين الهجرية[6] ؛ وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقيّة والمغرب بعد هذا التاريخ .

وقد عزل عبد العزيز بن مروان الذي كان على مصر حسّان بن النعمان وولّى مكانه موسى[7]، فلما قدم حسّان على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية ورحل إلى الشام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك[8] . وفي رواية أخرى ، أن حسّان لما ارتحل الى المشرق عن (القيروان) كان على مصر عبد الله بن عبد الملك[9] ، وقد توفي عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين الهجرية[10]، وعبد الله بن عبد الملك تولى مصر في جمادى الآخرة

= الملتمس (٤٤٢) وجذوة المقتبس (٣١٧).

(١) البيان المغرب (٣٥/١).

(٢) نفح الطيب (٢١٤/١) و (٢٣٤/١).

(٣) ابن الأثير (١٤٤/٤) و (٢٠٩/٤).

(٤) انظر ترجمته الكاملة في هذا الكتاب (١٧٢-٢٢٠) .

(٥) البيان المغرب (٢٩/١).

(٦) رياض النفوس (٣٧/١).

(٧) الحلة السيراء (٣٣٢/٢) والولاة والقضاة (٥٢) والبلاذري (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٤) والامامة والسياسة (٦١/٢) وتهذيب ابن عساكر (١٦٤/٤).

(٨) البيان المغرب (٣٠/١).

(٩) الاستقصا (٨٤/١).

(١٠) العبر (٩٦/١) وشذرات الذهب (٩٥/١). وفي الولاة والقضاة (٥٥): إنه توفي سنة ست وثمانين الهجرية .

سنة ست وثمانين الهجرية[1] ، وعبد الملك بن مروان توفي سنة ست وثمانين الهجرية[2]، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك. وهذا يدلّ على أن موسى تولى إفريقية والمغرب في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية ، إذ من المستبعد أن يُتْرَكَ أمرُ المغرب كلّه على صالح أو أبي صالح الذي استخلفه حسّان على المغرب بعد عزله[3] بدون والٍ أصلي مسؤول لمدة طويلة ، الى سنة ثمان وثمانين أو تسع وثمانين الهجرية ، أي لمدة ثلاث سنوات أو أربع سنوات من وفاة عبد العزيز بن مروان الذي عزل حسّان بن النعمان وولّى مكانه موسى بن نصير .

٢ ـ جهاده في المغرب :

أ ـ أعماله التمهيدية :

أولاً : عندما توافت الجيوش ، قام خطيباً ، فكان مما قاله : «... وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة ، فليحمد الله ، وليحضّ على مثلها ؛ ومن رأى مني سيئة ، فلينكرها ، فإني أُخطىء كما تخطئون، وأُصيب كما تصيبون ؛ وقد أمر الأمير أكرمه الله[4] لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله »[5].

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقيّة حشد جيشه وأكمل إستحضاراته الإدارية ، وساوى نفسه برجاله ، وأعطاهم ما يستحقونه من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً ، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها ... الخ .

---

(١) الولاة والقضاة (٥٨).

(٢) تاريخ بغداد (٣٩١/١) وتاريخ الخميس (٣١١/٢).

(٣) الاستقصا (٨٤/١).

(٤) يريد : عبد العزيز بن مروان بن الحكم .

(٥) انظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٦١/٢ – ٦٢).

لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمّل مسؤوليته الجسيمة.

ثانياً: وسار موسى متوجهاً إلى المغرب، وكان الأمن هناك غير مستتب[1]، فلما وصل الى إفريقية وبها صالح [2] الذى استخلفه حسّان ابن النعمان على إفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسّان[3]، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بيّن فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح[4]: قتال العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد.

ثالثاً: وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة، بدأ باستعادة جبل (زَغْوَان)[5]

---

(١) ورد في الامامة والسياسة (٢/٦٢): وكان قدوم موسى إفريقية وما حولها مخوفاً بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين، لقرب العدو منهم.

(٢) في الامامة والسياسة (٣/٦٢): إنه أبو صالح الفهري وقد غرمه موسى عشرة آلاف دينار ووجهه بالحديد إلى دمشق عاصمة الدولة.

(٣) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

(٤) في الامامة والسياسة (٢/٦٢ – ٦٣) نص خطاب موسى وهو: «أيها الناس! إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يكلم، ويحب أن يسلم، أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راض بالهوينى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم. ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلا في حزمه، جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجابن إقحاماً، ولا بالمتخاذل إحجاماً؛ إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً؛ راجياً من الله حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: (إن العاقبة للمتقين)، أي الحذرين.

«وبعد. فان كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة؛ وأيم الله، لا أريم هذه القلاع، والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

(٥) زغوان: جبل بإفريقية بالقرب من تونس، وهو جبل منيف مشرف، يرى على مسيرة الأيام الكثيرة، فيه قرى كثيرة آهلة كثيرة المياه والثمار. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٩٤).

البحر الابيض المتوسط

اسبانيا

المحيط الاطلسي

تونس
زغوان
القيروان
باغاية
قسنطينه
مدينة الجزائر
سبيطلة
جبال أوراس
تاهوت
جبل الاطلس
وهران
تلمسان
مليلة
سبتة
طنجة
مراكش
اغادير
السوس
نهر ورزة

خط سير موسى بن نصير اثناء استكمال فتح المغرب

وما حوله ، وبينه وبين (القيروان) مسيرة يوم كامل ، وبنواحي (زغوان) قبائل من البربر ؛ فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس[1] ، فاستعاد فتح (زغوان) وسبى منهم ، فكان ذلك السبي أول سبي دخل (القيروان)[2].

كما وجّه ابنه عبد الله بن موسى[3] إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي ، ثم وجّه ابنه مروان فأتى بمثلها ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفاً[4] ، وكان هؤلاء من البربر الخارجين عن الطاعة[5].

ومن الواضح أن هناك مبالغة شديدة في عدد الأسرى ، فاذا كان الخمس ستين ألفاً ، فإن السبي يكون مقداره ثلاثمائة ألف ، فاذا كان سبي زغوان عشرة آلاف رأس وسبي عبد الله مائة ألف وسبي مروان مائة ألف ، فيكون مجموع السبي عشرة آلاف ومائتي ألف لا ثلاثمائة ألف[6] !

ولكنّ أعمال موسى هذه لها دلالة واضحة على أنه استطاع القضاء على جيوب المقاومة في إفريقية ، وأنه استطاع إخضاع قبائل

---

(١) في الامامة والسياسة (٦٣/٢) : إن موسى بعث على رأس تلك القوة رجلا من (خشين) يقال له عبد الملك ... انتهى . وخشين هو خشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٥٤ - ٤٤٥).

(٢) البيان المغرب (٣٢/١) والامامة والسياسة (٦٣/٢) ، وفيهما : أن سبي زغوان بلغ عشرة آلاف ، وهذا لا يخلو من مبالغة .

(٣) ورد اسمه : عبد الرحمن بن موسى في الامامة والسياسة (٦٣/٢) ، بينما ورد اسمه في البيان المغرب (٣٢/١) : عبد الله بن موسى وكذلك في ابن الأثير (٢٠٦/٤)... الخ

(٤) البيان المغرب (٣٢/١) والامامة والسياسة (٦٢/٢) .

(٥) ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

(٦) في البيان المغرب (٣٢/١ - ٣٣) والامامة والسياسة (٦٣/١) : إن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً ، وكان ذلك وهماً من الكاتب : كتب ثلاثين ألفاً بدلا من ستين ألفاً ، فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب ، وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفاً ، استكثر ذلك ، ورأى أنه وهم من الكاتب لكثرته ، فكتب إلى موسى يقول له : « إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس ، فاستكثرت ذلك ، وظننته وهماً من الكاتب ، فاكتب بالحقيقة ! » ، فكتب إليه موسى : « قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً بلا وهم ! » . فلما بلغه الكتاب امتلأ سروراً ».

البربر التي خرجت علـى الطاعة بعد مسير حسّان إلى المشرق ، وأن موسى أراد أن يحلّ قضايا القبائل المتمرِّدة حلاً جذرياً ، فعاقب الخارجين عليه ، عقاباً صارماً .

وبذلك استطاع موسى أن يجعل من منطقة (القيروان) وما حولها قاعدة أمينة ينطلق منها موسى بن نصير وهو أمين على خطوط مواصلاته ، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

ب – استعادة المغرب الأوسط وفتح المغرب الأقصى :

أولاً : أرسل موسى ألف فارس[1] إلى هوارة و زناتة (من قبائل البربر) فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا[2]، فعرضوا الصلح ، فصالحهم المسلمون ، وكانت (كتامة) وهي قبيلة من البربر أيضاً قد قدمت على موسى فصالحته، فولىّ عليهم رجلاً منهم وأخذ منهم رهونهم . وحاولت رهون كتامة الفرار إلى قبيلتهم ، فوجّه الخيول في طلبهم وأُتي بهم ، فأراد صلبهم فقالوا : « لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتّى يتبين أمرنا ، فان آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ، ونحن في يدك ، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل » ، فأوقرهم حديداً ، وأخرجهم معه إلى كتامة ، وخرج هو بنفسه ؛ فلما بلغهم خروج موسى ، تلقّاه وجوه كتامة معتذرين ، فقبل منهم ، وتبينت له براءتهم ، واستحيا رهونهم[3] ، وقد كانت كتامة بوادي (دَرْعَة)[4] .

ثانياً : وأخبر الجواسيس موسى ، أن صِنْهَاجَة وهي من قبائل البربر أيضاً ، بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ؛ فأغار

---

(١) على رأسهم عياش بن أخيل . انظر الامامة والسياسة (٢/٦٦) .

(٢) في الإمامة والسياسة (٢/٦٦) : إن سبيهم بلغ خمسة آلاف رأس .

(٣) الإمامة والسياسة (٢/٦٦) وانظر البيان المغرب (١/٣٤) .

(٤) درعة : مدينة بالمغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ انظر معجم البلدان (٤/٥٣) .

عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المتطوعة، ومن قبائل البربر[1]. وسار موسى حتى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون، فقتلهم قتل الفناء وسبى منهم سبياً كثيراً[2]، ثم انصرف قافلاً الى (القيروان). ولقد لقي موسى صنهاجة في وادي (مَلْويّة) في المغرب الأوسط[3].

ثالثاً: وغزا موسى (سجومة) في المغرب الأوسط في عشرة آلاف من المسلمين[4]. وأعطى اللواء ابنه مروان بن موسى، حتى إذا كان بمكان يقال له: سجن الملوك، خلّف الأثقال[5] وتجرّد في الخيول، حتى انتهى إلى نهر يقال له نهر (ملوية)، فوجده في حالة فيضان، فكره طول المقام عليه خوفاً من نفاد الزاد، وأن يبلغ العدو مخرجه ومكانه. لذلك أحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع التي كره أن يجوز عليها[6]. فلما أجاز وانتهى إليهم، وجدهم قد أنذروا وتأهبوا وأعدوا للحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل شديد لا يصل اليهم إلاّ من أبواب معلومة. وبعد قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل (سجومة)[7]، ففتح المدينة وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة بن نافع: عياضاً وعثمان وأبا عبيدة، أن يأخذوا حقّهم من قاتل أبيهم، فقتلوا من أهل (سجومة) ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم موسى: «كفّوا»،

---

(1) كان على مقدمته عياض بن عقبة بن نافع، وعلى ميمنته المغيرة بن أبي بردة، وعلى ميسرته زرعة بن أبي مدرك. انظر الامامة والسياسة (2/67)..

(2) في الامامة والسياسة (2/66): إن السبي بلغ يومئذ مائة ألف رأس.

(3) انظر تاريخ المغرب (210 - 211) نقلا عن النص الجديد لعبيد الله.

(4) على مقدمته عياض بن عقبة بن نافع، وعلى ميمنته زرعة بن أبي مدرك، وعلى ميسرته المغيرة ابن بردة القرشي، وعلى ساقته نجدة بن مقسم. انظر الامامة والسياسة (2/67).

(5) ترك على الأثقال عمرو بن أوس في ألف. انظر الامامة والسياسة (2/67).

(6) من المحتمل أن يكون سبب ذلك وجود تلك المخاضة تحت رصد العدو أو أنها قريبة من تجمعاته فاذا عبر منها فسيكشف حركات جيشه لعدوه.

(7) الامامة والسياسة (2/67 - 68).

فكفوا[١]، فقال عياض بن عقبة : «أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم ، ومنهم عين تطرف[٢] » ، لأن البرانس وعلى رأسهم كسيلة بن لمزم هم الذين قتلوا عقبة بن نافع في معركة (تَهُوْذَة)[٣].

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقّت عصا الطاعة بعد مسير حسّان بن النعمان الى المشرق[٤] ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين ، فخرج من إفريقيّة نحو المغرب الأوسط وولاية (طَنْجَة)[٥] ، فتبدّدت القبائل أمامه نحو الغرب خوفاً من العرب[٦] ، فتتبعها عبر (السوس) الادنى[٧] حتى بلاد (سِجِلْمَاسَة)[٨] ووادي (درعة).

وكان من الطبيعي وقد حقّق موسى هذا النجاح الباهر أن يوسّع دائرة نشاطه في بقيّة أنحاء المغرب ، فسيّر ابنه مروان[٩] على رأس قوة من خمسة

---

(١) البيان المغرب (١/٣٤).

(٢) الإمامة والسياسة (٢/٦٨) وفيه : إن كسيلة بن لمزم قتل في هذه المعركة ، بينما كسيلة قتله زهير بن قيس البلوي ، وكسيلة هذا هو الذي قتل عقبة بن نافع . انظر ترجمتي عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي في هذا الكتاب .

(٣) تهوذة : اسم قبيلة من البربر بناحية افريقية لهم أرض تعرف بهم . أنظر معجم البلدان (٢/٤٣٨) وانظر ابن الاثير (٤/٤٣) والاستقصا (١/٧٤).

(٤) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

(٥) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط بينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٦٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢).

(٦) البيان المغرب (١/٣٦).

(٧) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٢) والمشترك وضعاً (٢٥٩).

(٨) سجلماسة : مدينة في جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٤١).

(٩) في ابن الأثير (٤/٢٠٦) ، ورد اسمه : هرون ، وهو تصحيف بدون شك ، استبدل الناسخ ميم مروان بهاء هرون .

آلاف رجل الى (السوس الأقصى)[1]، كما سيّر قائده زُرْعَة بن أبي مدرك الى بربر (مَصْمُودَة)[2] في (أطلس العليا)[3]. ونجحت الحملتان، فعاد مروان بسبي كثير[4]. أما زرعة فلم يلق حرباً من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم، وقدّموا إليه رهائنهم، كما قدّمت غير مصمودة الرهائن[5]، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها خيل العرب أرض مصمودة بعد دخول عقبة بن نافع لأول مرة، وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعاً[6].

ج ــ فتح طنجة:

وهكذا بعد أن تمّ لموسى إخضاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى من صحراء (درعة) الى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلّع موسى نحو (طَنجة) التي كانت تخضع للأمير الرومي بليان (جوليان) منذ أيام عقبة بن نافع. والمقصود بطنجة هنا، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر، وليس المدينة فقط[7].

خرج موسى من القيروان لفتح (طنجة)، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتّى بلغ مدينة (طنجة) وهي قصبة بلادهم وأمّ مدائنهم[8]؛ فلما دنا موسى من (طنجة) بثّ

---

(1) السوس الأقصى: أقصى بلاد البربر على المحيط. والسوس الأقصى إسم مدينة اطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ذات المدن والقرى الكثيرة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٢) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩).

(2) مصمودة: هي قبيلة مصمودة بن برنس من قبائل البربر البرانس. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠).

(3) النص الجديد (٢٢٤) نقلا عن تاريخ المغرب العربي (٢١٢).

(4) أنظر التفاصيل في البيان المغرب (١/٣٦).

(5) البيان المغرب (١/٣٦).

(6) البيان المغرب (١/٣٦ – ٣٨).

(7) انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٢).

(8) نفح الطيب (١/٣١٥) و (١/٢٣٤).

السرايا ، فانتهت خيله إلى (السوس الأدنى) ، فوطئهم وسباهم ، وأدوا إليه الطاعة ، وولّى عليهم والياً أحسن فيهم السير[1] .

وحاصر موسى طنجة حتّى افتتحها[2] ونزلها ، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين[3] ، فأسلم أهلها وخطّها موسى قيرواناً للمسلمين[4] .

وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن (سَبْتَة)[5] وعليها يليان (جوليان) ، فقاتله موسى ، فألفاه في نجْدة وقوة وعدّة فلم يُطِقْه ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف اليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قبل ملكها (غَيْطَشَة) ، فهم يذبّون عن (سبتَة) ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة[6] ، وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس[7]، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين .

كان بـ (طنجة) من البربر بطون (البُتْر) و (البرانس) ممن لم يكن دخل في الطاعة[8] ، فوضع موسى على ساحل (طنجة) حامية للرباط مؤلفة من الف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكن مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد[9] . وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلاّ إقليم (سبتة)

---

(١) فتح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٢) نفح الطيب (١/٢١٥) و (١/٢٣٤).

(٣) البلاذري (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٤) نفح الطيب (١/٢٣٤).

(٥) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٦).

(٦) نفح الطيب (١/٢٣٤).

(٧) معجم البلدان (٥/٢٦).

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦). انظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب الإسلام والعرب (١٤٠) .

(٩) فتوح مصر والمغرب (٢٧٥).

وانتشر الإسلام فيه .

وعاد موسى إلى (القيروان) بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام [1].

وفي الطريق إلى القيروان ، فتح موسى مدينة (مَجَّانة)[2] على مسيرة خمسة أيام من القيروان[3]، على الحدود الجزائرية ــ التونسية الحالية[4] على يد بشر بن فلان ، وكانت (مجانة) قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان[5] ، فاستعاد بشر هذا فتحها ، لأنها سبق أن فتحها بسر بن أبي أرطاة[6] .

لقد افتتح موسى بلاد المغرب وغنم منها أموالاً لا تعدّ ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة[7] ، وأسلم أهل المغرب على يديه وبثّ فيهم الدين والقرآن[8] ، فكان يأمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين[9] ، فلم يبق في إفريقيّة من ينازعه[10]، غير منطقة (سبتة) كما ذكرنا.

---

(١) نفح الطيب (١/٢٢٤).
(٢) مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٨٦).
(٣) معجم البلدان (٧/٣٨٦).
(٤) تاريخ المغرب العربي (٢١٤).
(٥) ابن الأثير (٤/٢٠٦).
(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٧/٣٨٦) وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة . في الجزء الثاني من هذا الكتاب .
(٧) البداية والنهاية (٩/١٧١).
(٨) البداية والنهاية (٩/١٧٢).
(٩) البيان المغرب (١/٣٦).
(١٠) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

٣ ـ جهاده في البحر :

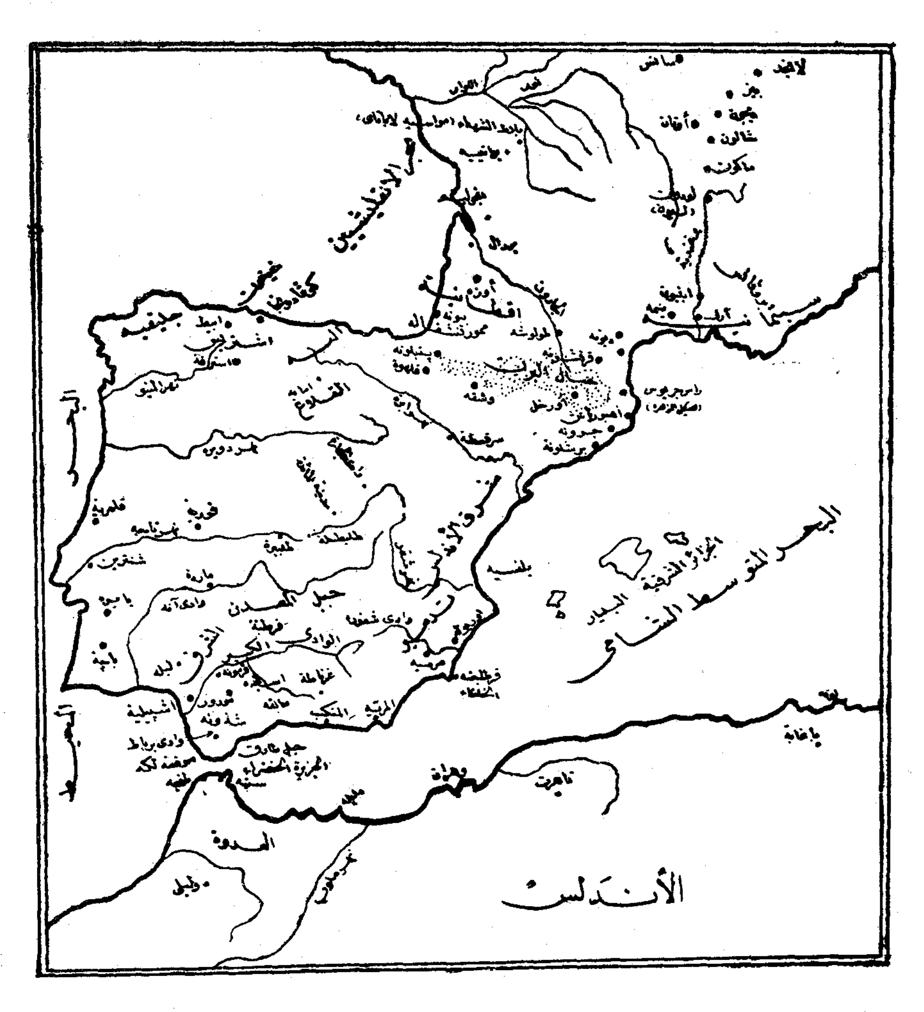
أ ـ مهّد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة (تونس) وتوسيع دار الصناعة بها ، وشق القناة التي توصل بين الميناء (رادس)[١] وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشتى للمراكب إذا هبّت الأنواء والأرياح ؛ ثم أمر بصناعة مائة مركب[٢] .

ب ـ وأمر موسى بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، فلم يبق شريف ممن كان معه إلاّ وقد ركب الفلك ، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم وأمّره ، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه . وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره ، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف . وسار عبد الله بن موسى في مراكبه ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية (البحر الأبيض المتوسط) . فأصاب في غزوته تلك (صِقِّلِيّة) ، وافتتح مدينة فيها ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف الى التسعمائة ، ثم انصرف قافلاً سالماً ، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين الهجرية[٣] .

جـ ـ وبعث موسى عيّاش بن أخيل على مراكب أهل إفريقيّة ، فشتا في البحر ، وأصاب مدينة يقال لها : (سَرَقُوسَة)[٤] ، ثم قفل في سنة ست وثمانين الهجرية[٥] .

---

(١) رادس : البحر الذي على ساحل تونس بإفريقية يقال له : رادس ، وبذلك سمي ميناها : مينارادس . ورادس اسم موضع كالقرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٣ ـ ٢٠٤) .
(٢) الامامة والسياسة (٢/٧٠) .
(٣) الامامة والسياسة (٢/٧٠ ـ ٧١) .
(٤) سرقوسة : أكبر مدينة بجزيرة صقلية ، وكان بها سرير ملك الروم قديماً . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧٤) .
(٥) الإمامة والسياسة (٢/٧١) .



د ـ وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر الى (سَرْدانِيَة)[1] فأرسى بـ (سُوسَة)[2] ، فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية (أرزاق وسلاح وتجهيزات)

(١) سردانية : جزيرة في البحر الأبيض المتوسط كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية أكبر منها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٦٦).

(٢) سوسة : مدينة بالمغرب بينها وبين سفاقس يومان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٣)

وكتب اليه « إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فأقم لا تغرَّر بنفسك ، فإنك في تشرين الآخر ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر » ، فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى ، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه[1]. وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة[2] ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف ، فغرق عطاء وأصحابه[3].

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية عقد موسى لعبد الله بن مرّة على بحر إفريقية ، فأصاب (سَرْدَانِيَة) وافتتح مدائنها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى[4].

هـ ــ وفي سنة تسع وثمانين الهجرية جهّز موسى ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي : (مَيُورْقَة)[5] و (مَنُورْقَة)[6] وهما جزيرتان في البحر بين (صِقِلّيَة) وجزيرة الأندلس[7].

---

(١) الامامة والسياسة (٢/٧٠).

(٢) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٨٢ - ٢٨٣).

(٣) الامامة والسياسة (٢/٧٠).

(٤) الامامة والسياسة (٢/٧١).. وفي معجم البلدان (٥/٦٦) : إن عسكر موسى بن نصير فتح سردانية سنة اثنتين وتسعين الهجرية . وكذلك في ابن الأثير (٤/٢١٦) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٥). والأقرب إلى المنطق أن يكون غزو سردانية قد تم من القواعد البحرية المغربية وليس من الأندلس ، ففتح الأندلس كان في بدايته، ولم يكن العرب المسلمون في سنة ٩٢ هـ قد وصلوا إلى سواحله الشرقية، فمن المرجح إذاً أن تلك الغارات البحرية قد وقعت قبل فتح الأندلس مباشرة ، ويمكننا القول: إنها التي شجعت على القيام بالمغامرة الكبرى فيما وراء بحر الزقاق . انظر تاريخ المغرب العربي (٢١٩).

(٥) ميورقة : جزيرة في شرقي الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقال لها : منورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٩).

(٦) منورقة : جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٨٥).

(٧) النجوم الزاهرة (١/٢١٦) وانظر العبر (١/١٠٤) وشذرات الذهب (١/٩٨) والبداية والنهاية (٩/٧٧).

٤ ـ جهاده في الأندلس :

أ ـ مقدمات الفتح :

أولاً ـ كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب ، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب[1] ، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام ، وبوجود القوة الضاربة في جانب العرب المسلمين .

ولم تستعص على موسى غير مدينة (سَبْتَة)[2] لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل (القوط) في اسبانيا[3] حاكم اسمه (خوليان Julian) ويسميه العرب (يليان)[4] أو (إليان)[5] أو (بوليان)[6] . وقد اختلفت المصادر في شخصية (يوليان) هذا ، فبعضها يذكر أنه قوطي ، وبعضها يزعم أنه رومي ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة[7] . والواقع أن يوليان كان حاكماً عاماً على إقليم (مورطانية الطنجية) ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية ـ إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية ، فلما عجزت الدولة البيزنطية

---

(١) أنظر المسالك والممالك للاصطخري (٣٣).

(٢) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهي على بر البربر ، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة ، وهي مدينة حصينة ضاربة في البحر ، بينها وبين (فاس) عشرة أيام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٥) وتقويم البلدان (١٣٢ - ١٣٣).

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس على رأسها سبتة . (انظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس نشره: E. Lafuen tente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ ص٤) .

(٤) البيان المغرب (٦/٢).

(٥) صفة المغرب للبكري (١٠٤).

(٦) ابن الأثير (٢١٣/٤).

(٧) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ - ٥٣).

عن حمايتها ، ولـّت (سبتة) وجهها شطر إسبانيا القوطية[1]. وقد بدأ يوليان ولايته لهذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتّى توثـّقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتّى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربرياً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التّي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنه كان يتوجـّه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الآونة [2].

ثانياً — وكان (يوليان) حليفاً للملك اسبانيا (غيطشة Witiza) الذي تولى عرش البلاد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه (إخيكا Egica) . وقد خـُلع غيطشة من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار (لذريق[3] Rodrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبّوا ضد هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشرعي ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلـّت مستمرة حتّى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفرّ ابن غيطشة المدعو (وقلة Achila) الذي تولى العرش بعد أبيه الى إفريقية، وأقام عند (يوليان) حاكم (سبتة) الذي كان لا يزال على ولائه للملك (غيطشة) وأولاده ، بينما استبقى (لذريق) ولدي (غيطشة)

---

(١) ذكر الحميري أن يوليان هذا كان عامل لذريق على سبتة. (انظر ابن عبد المنعم الحميري — صفة جزيرة الأندلس — نشره ليفي بروفنسال — القاهرة — ١٩٣٧) .

(٢) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ — ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣ — ٥٤).

(٣) ورد اسمه في الطبري (٥/٢٤٥): ادرينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، لذريق وفي ابن الأثير (٢١٣/٤) : رذريق ، وفي ابن خلدون (١١٧/٤) : لزريق ، وفي اليعقوبي (٢٩/٣) أدريق ... الخ ...

الآخرين وهما (أرطباس Artavasdes) و (المند Olmundo) إلى جواره حتى يستوثق من إخلاصهما له، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة. وساءت حال البلاد في عهد لذريق، إذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه، ويبدو أنه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في (طُلَيْطُلَة)[1] فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك، فلم يصغ لنصحهم، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب، وهي أسطورة بيت الحكمة[2].

ب - غزوة طريف :

وكان موسى يتوق الى افتتاح الأندلس، وكان عامله على (طنجة) وهو طارق بن زياد يتطلّع الى الأندلس أيضاً. وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من يوليان يعرض فيها تسليم معقله (سبتة) ويدعوه إلى فتح إسبانيا. وجرت بينهما المفاوضة في هذا

---

(١) طليطلة: مدينة كبيرة في الأندلس على شاطىء نهر تاجه. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) وتقويم البلدان (١٧٦ - ١٧٧).

(٢) خلاصة هذه الأسطورة، أنه كان في طليطلة، دار ملك القوط، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط، وكانت العادة، أنه إذا تولى من القوط ملك، زاد على البيت قفلا، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت، فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك، فأبى وظن أنه بيت مال، ففض الأقفال عنه ودخله، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان، وتابوت عليه قفل، فأمر بفتح التابوت، فألفاه فارغاً ليس فيه غير شقة مدرجة، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم، متقلدي السيوف، متنكبي القسى، رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية، فقرئت فاذا هي: إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح التابوت، فظهر ما فيه من هذه الصورة، فان الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها. انظر تفاصيل هذه القصة في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ - ٣٣) والبيان المغرب (٤/٢) ونفح الطيب (٢٣١/١ - ٢٣٢) و (٢٣٥/١).

المشروع الخطير ، وهنا تختلف الرواية في أمر هذا الإتصال ، فيقال : إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل : إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية وأن يوليان استدعى موسى الى (سبتة) وهناك جرت المفاوضات بينهما ؛ وقيل : إنهما إجتمعا في سفينة في البحر[1]. وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان[2]، واهتم بمشروعه اهتماماً كبيراً ، فكتب إلى الوليد ابن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع[3] ، فكتب إليه الوليد : بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرِّر بالمسلمين » ، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من البربر يسمى : طريفاً ، ويكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل ؛ فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجة) ، وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة طريف)[4] ، سميت باسمه لنزوله هناك[5] ،

---

(١) ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢).

(٢) تجمل بعض المصادر العربية أن أسباب اتصال يوليان بموسى ودعوته لغزو الأندلس وكشفه له عوراتها، وتهوين أمرها لموسى، أن يوليان كان قد أرسل إبنته الى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فية أسوة بغيرها من بنات سروات القوط في ذلك الزمان . وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه، حتى وُفِّق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها . انظر ابن خلدون (١١٧/٤) والمعجب في تاريخ المغرب (٧) ونفح الطيب (٢٣٥/١ - ٢٣٦) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧)... الخ . أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة (١١١٠) م ، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو : تاريخ راهب سيلوس ، ذكرها مجملة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية . انظر التفاصيل في كتاب فجر الأندلس (٥٩ - ٦٠).

(٣) في البيان المغرب (٦/٢) : أن موسى استشار الوليد بن عبد الملك ، إما مراسلة وإما نهض بنفسه إليه ، على خلاف في ذلك ... انتهى . ولعل ظروف موسى حينذاك لم تكن لتتيح له السفر الى دمشق لمفاتحة الوليد بن عبد الملك بذلك ، إذ كانت أعباؤه الجسام تحول دون سفره .

(٤) جزيرة طريف : تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية ، التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وتعرف هذه الجزيرة باسم: لاس بالوماس (Isla de Las Palomas). انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٠).

(٥) يسمي الحميدي طريفاً : طريف بن ملوك المعافري، ويسميه الرازي : طريف بن مالك =

فأغار منها على ما يليها الى جهة (الجزيرة الخضراء[1]) ، وأصاب سبياً ومالاً كثيراً ، ورجع سالماً ، وكانت إجازته في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية[2] (٧١٠ م) .

ج ــ فتح طارق :

أولاً : وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان ــ إبريل ٧١١ م) ، جهّز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق ابن زياد الّليثي[3] ، فعبر البحر من (سبتة) بجيشه تباعاً في سفن (يوليان) ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة الّتي لا تزال تحمل اسمه حتّى اليوم أعني : (جبل طارق)[4] .

ــالمعافري ، ويسميه ابن خلدون : طريف بن مالك النخعي . ويسميه المقري في نفح الطيب (٢١٤/١): طريف البربري . وانظر ما جاء عن طريف في نفح الطيب (٢١٤/١ و ٢١٧ و ٢٢٧ و ٢٢٨).

(١) الجزيرة الخضراء : مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي ، وهي مدينة طيبة نزهة توسطت مدن الساحل وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، ومخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ - ١٧٤).

(٢) البيان المغرب (٦/٢) ونفح الطيب (٢١٤/١) وانظر الطبري (٢٣٥/٥) ، ونص ما جاء في الطبري : غزا موسى بن نصير الأندلس ، ففتح على يديه أيضاً مدائن وحصون .. انتهى . وقد نسب فعل طريف إلى موسى بن نصير نسبة فعل المأمور الى الآمر ، فصدق عليه إضافته لموسى ، فيكون قول الطبري صادقاً . انظر البيان المغرب (٦/٢).

(٣) هكذا ورد اسمه في ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢١٧/١).

(٤) نفح الطيب (٢١٦/٢) والبيان المغرب (٨/٢). وهناك خلاف على الشهر الذي عبر فيه طارق ، فمن المراجع من يذكر أن عبور المسلمين كان في ربيع الثاني سنة ٩٢ هـ (٧١١ م). فلو أخذنا بنظر اعتبار من أن طارقاً نفسه وصل إلى الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ ، لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدأوا العبور في آخر ربيع الثاني . انظر البيان المغرب (٧/٢) .

كما أن بعض المصادر تذكر أن طارقاً كان معه (١٢) ألف جندي عند عبوره لفتح الأندلس . انظر البداية والنهاية (٨٣/٩) ونفح الطيب (٢٤١/١) .

وتوالت انتصارات طارق ، ففتح مدينة (قرطاجنة الجزيرة[1] Carteya) ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء)، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد.

وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح (الجزيرة الخضراء) وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصدّ المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به ، فأرسل اليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين[2] ، وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدّة من مع طارق اثني عشر ألفاً[3] .

والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز – يوليو سنة ٧١١ م) على وادي (بَرْبَاط)[4] أو وادي (لكة)[5] قرب مدينة (شَذُونَة)[6] ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة[7] ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين .

ثانياً : أحدث انتصار طارق في وادي (لكة) دوياً هائلاً في المشرق

---

(١) قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس تعرف بـ (قرطاجنة الحلفاء) قريبة من آلش من أعمال (تدمير) ، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بإفريقية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٤٢) . وانظر ما جاء عن هذا الفتح في البيان المغرب (٣/٢) ونفح الطيب (٢١٨/١).

(٢) نفح الطيب (٢١٦/١).

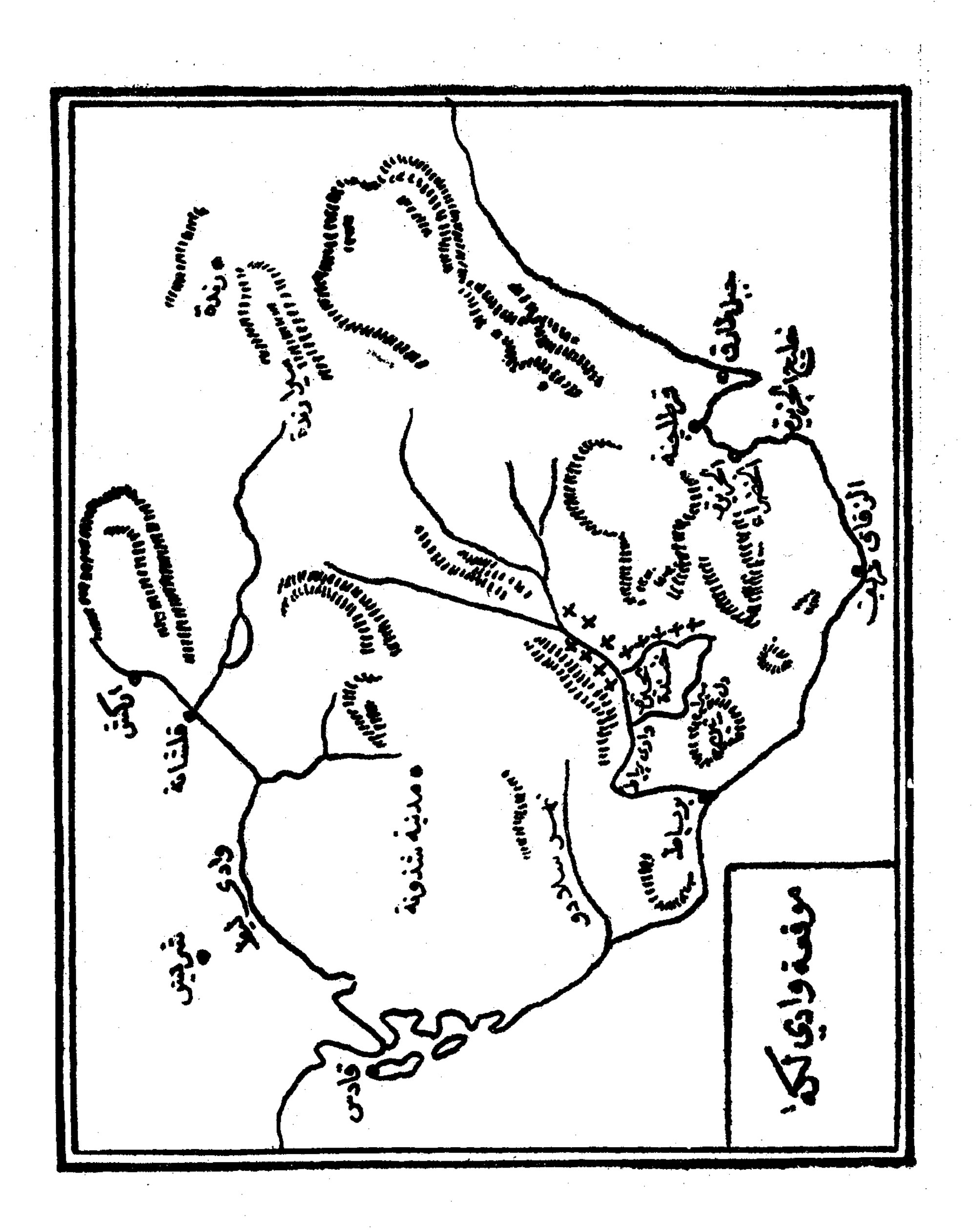
(٣) أخبار مجموعة (٧) ونفح الطيب (٢٤١/١).

(٤) وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال شذونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٣/٢) .

(٥) وادي لكة : ورد اسمه في البيان المغرب (١٠/٢) : وادي الطين . وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، ورد اسمه : وادي أم حكيم .

(٦) شذونة : مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤٤/٥). وفي ابن خلدون (١١٧/٤) ، أن الجيشين التقوا بفحص شريش . والصحيح أنها وقعت في فحص شذونة ، لأن شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

(٧) ابن خلدون (١١٧/٤) والبيان المغرب (١٠/٢).


موقعة وادي لكة
مدينة شذونة
قادس
شريش
قلتانة
بربياط
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف

والمغرب ، وتسامع الناس من أهل برّ العُدوَة بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرّقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر[1] ، فلحقوا بطارق[2] .

وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح (شذونة) عنوة ، ثم مضى الى (المُدُور[3] Almodovar) ثم عطف على (قَرْمُونَة[4] Carmona) ، ثم اتجه إلى (إشْبِيلية[5] Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى (إسْتِجَة[6] Eclja) وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعت هنـاك[7] ، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية[8] .

وفرّق طارق جيوشه من (إستجة) ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد ابن عبد الملك الى (قُرْطُبَة)[9] في سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر

---

(١) القشر في الأصل : السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا الزورق الصغير .

(٢) نفح الطيب (١/٢٤٣).

(٣) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤١٧) .

(٤) قرمونة : ورد إسمها في معجم البلدان (٧/٢) ، قرمونية ، وهي كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي اشبيلية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٦٢).

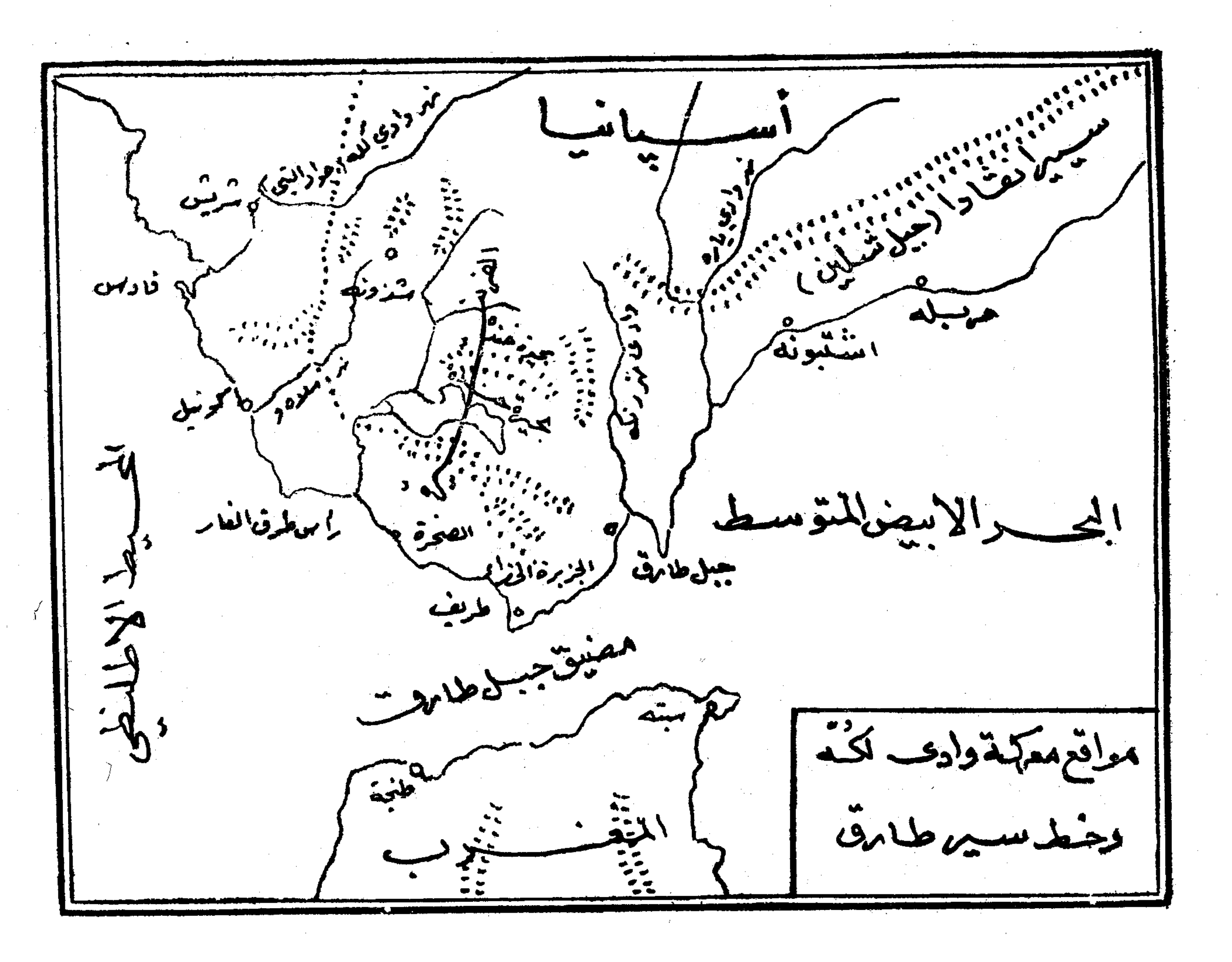
(٥) إشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة ليس بالأندلس أعظم منها ، وبها قاعدة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، وهي على شاطىء نهر عظيم تسير فيه المراكب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٥٤) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥).

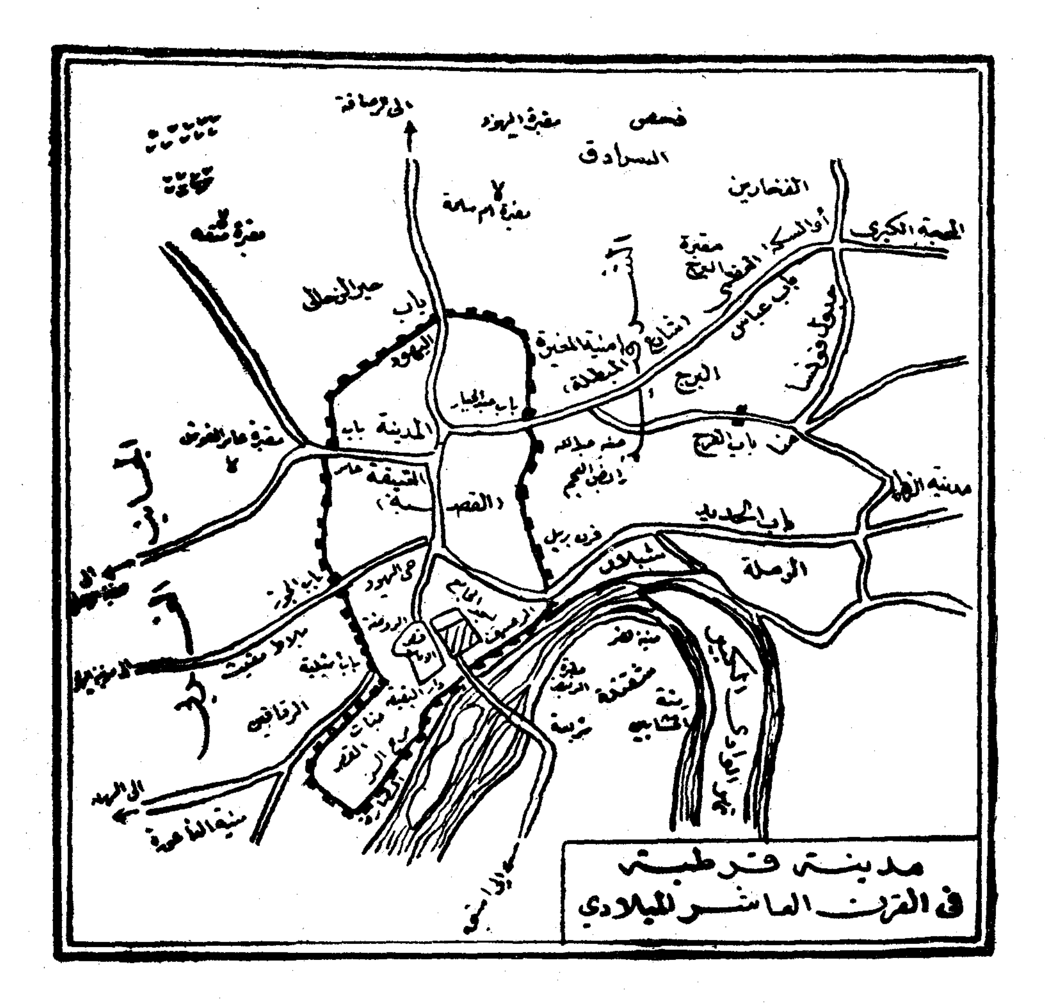
(٦) استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٢٤).

(٧) أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (٢٤٤).

(٨) نفح الطيب (١/٢٤٤).

(٩) قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، وكانت عاصمة لملكها وقصبتها . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٧/٥٢) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢).


مواقع معركة وادي لكة
وخط سير طارق
أسبانيا
سييرا نفادا (جبل شلير)
نهر وادي يارو
البحر الابيض المتوسط
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
الصخرة
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة
المغرب
البحر الاطلنطي
راس طرف الغار
شذونه
شريش
قادس
نهر وادي لكه (جوادالبتي)



مدينة قرطبة
في القرن العاشر الميلادي

إلى (مَالَقَة[1] Malaga) ، كما بعث جيشاً ثالثاً الى (البِيْرَة[2] Elvira)؛ أما هو فسار إلى كورة (جَيَّان)[3] بمعظم جنوده[4] في طريقه الى

---

(١) مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من أعمال (رية) سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٧/٣٦٧) وتقويم البلدان (١٧٤ – ١٧٥).

(٢) البيرة : بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٠).

(٣) جيان : مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٨٥).

(٤) نفح الطيب (١/٢٤٤).

(طُلَيْطُلَة)[1] . وعبر طارق الوادي الكبير ، فدخل (طليطلة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية دون مقاومة تذكر[2] .

لقد تغلغل طارق[3] تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس ، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات ، فماذا كان ردّ فعل موسى بن نصير القائد العام للمغرب كله ، والمسؤول الأول تجاه القائد الأعلى في الشّام ؟

د ــ فتح موسى :

أولاً ــ بين موسى وطارق :

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق ، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره ، فقد أمره موسى ألا يتعدّى (قرطبة) على قول ، أو موضع هزيمة لذريق ــ في وادي لكّة ــ على قول آخر[4] ، فسارع موسى الى عبور المجاز ودخول الأندلس .

وقيل : إنما جاز موسى باستدعاء طارق إياه[5] ، فقد كتب طارق الى موسى : « إنّ الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ... الغوث .. » ،

---

(١) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وهي على شاطىء نهر (تاجة) ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٥٦) .

(٢) البيان المغرب (١٧/٢) ونفح الطيب (٢٤٨/١) .

(٣) سترد تفاصيل فتوحات طارق بن زياد في ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار ومن أراد التوسع في تفاصيل فتوحاتــه فليراجع ابن الاثير (٢١٢/٤ – ٢١٦) وابن خلدون (١١٧/٤ – ١١٨) ونفح الطيب (٢١٥/١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩) ، والبيان المغرب (٥/٢ – ٢٢) والبداية والنهاية (٨٣/٩) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٧ – ٢٨٥) وتهذيب ابن عساكر (٣٨/٧ – ٤٠) وبغية الملتمس (١١ و ٣١٥) وانظر فجر الأندلس (٦٧ – ٨٤) ودولة الاسلام في الأندلس (٤٢ – ٥١) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٦٦ – ٩٠) ... الخ .

(٤) البيان المغرب (١٨/٢ – ١٩) .

(٥) البيان المغرب (١٩/٢) .

فلما أتاه الكتاب ، نادى في الناس وعسكر ... فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق الى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز الى طارق قبل دخول أبيه موسى . وخرج موسى بن نصير والناس معه ، حتى أتى المجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه [1] .

هذان السببان مقبولان غاية القبول من الناحية العسكرية الفنية البحت ، فقد شعر موسى أن المسلمين قد استرسلوا في الفتح أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر داهم ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بدّ من فتحها وإلاّ تعرّض المسلمون لخطر عزل قواتهم عن بعضها والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها، ولأن أجنحتها مكشوفة لوجود بلاد معادية غير مفتوحة ، ولأن قوات المسلمين كانت قليلة جداً بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها . وفعلاً حدث ما توقّعه موسى ، فقد أصبحت بعض قوات المسلمين منعزلة ، وأصبح موقف المسلمين خطيراً ، مما جعل طارق يستغيث بموسى ، فلا يرى موسى إلا أن يعبر إلى الأندلس بنفسه لمعالجة الأمور هناك ، ويحشد لحملته هذه كل قواته المتيسرة .

لقد كان نزول موسى الى الأندلس لسبب حربي ، وهو تدعيم الفتح وترصينه ، وحتّى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال .

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه ، وقرّر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح [2]، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط ، فمغالى فيه ، إذ لا

---

(١) الامامة والسياسة (٢/٧٤ - ٧٥). وفي البلاذري (٢٣٢) : إن موسى كتب إلى طارق كتاباً غليظاً لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالرأي في غزوه ، وأمر ألا يجاوز (قرطبة).

(٢) ابن الأثير (٤/٢١٥) والبداية والنهاية (٩/٨٣) والبيان المغرب (٢/١٩) وابن خلدون (٤/١١٧) ونفح الطيب (١/٢٥١).

يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى . ثم إنْ طارقاً كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً ، وكان يكتب اليه أخبار الفتح أولاً بأول ، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه، وذلك بعزله أو استدعائه الى (القيروان) ، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيء .

إن كل الدلائل تشير الى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام ، فقد بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى عندما وصلوا اليه في (طليطلة) وقالوا له : أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير ؟ فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم[1] » ، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسؤولية والالتزام بسلسلة المراجع .

ولعلّ أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعاونة طارق لا لتأديبه ، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت ، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس ، وانما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلّفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتشتيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة ، فلما تمّ له ذلك سار موسى الى طارق ولقيه في (طَلَبِيرَة) [2] على مقربة من (طليطلة) [3]، وحين التقيا قال موسى لطارق : « يا طارق ! إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق : « أيها الأمير ! والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي » ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه

---

(١) نفح الطيب (١/٢٤٩).

(٢) طلبيرة : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر (تاجه) بضم الجيم . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٣).

(٣) انظر فجر الأندلس (٨٥).

إلى أن بلغ الى (جِلّيقِيّة)[1] وهي على ساحل البحر المحيط[2].

---

(١) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٣١).

(٢) نفح الطيب (١/٢٢٧) ، فأين ذلك مما جاء في كتاب فتح مصر والمغرب (٢٨٣) : وأخذ موسى بن نصير طارق بن عمرو ، فشده وثاقاً وحبسه وهم بقتله ، وكان مغيث الرومي غلاماً للوليد بن عبدالملك ، فبعث اليه طارق : « إنك إن رفعت أمري الى الوليد ، فان فتح الأندلس كان على يدي ، وأن موسى حبسني يريد قتلي ، أعطيتك مائة عبد » وعاهده على ذلك ... فلما أراد مغيث الإنصراف ، ودّع موسى بن نصير ، وقال له : « لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره ، وأخاف عليك وجده » ، فانصرف مغيث وموسى بالأندلس !

فلما قدم مغيث على الوليد ، أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق ، وبحبس موسى إياه والذي أراد به من القتل ، فكتب الوليد إلى موسى يقسم له بالله ، لئن ضربته لأضربنك ، ولئن قتلته لأقتلن ولدك به ، ووجه الكتاب مع مغيث الرومي ... فقدم به على موسى الأندلس ، فلما قرأه أطلق طارقاً وخلى سبيله ، ووفى طارق لمغيث بالمائة عبد التي كان جعل له ... انتهى !!!

وفي كتاب فجر الأندلس (٨٦) : ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق ، فمرجعه على أغلب الظن ، الى مغيث الرومي ، فقد كان محنقاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد ، وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه الى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى في رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر . وانتشرت قالاته بين قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أحرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته ، لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى : « وضع السوط على رأس طارق وأنّبَهُ » ، كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : « إن موسى ضرب طارقاً بالسوط » ، بدلا من قوله : « وضع السوط على رأسه فقط » ... انتهى .

أقول : إن ما ذكره ابن عبد الحكم في كتابه : فتح مصر والمغرب (٢٨٠) ، يناقض ما ذكره هو أيضاً في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب . فقد ذكر في (٢٨٠) : فأجاز (موسى) من الخضراء ، ثم مضى إلى قرطبة ، فتلقاه طارق ، فترضاه ، وقال له : « إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك » .. ثم ذكر في نفس الصفحة أيضاً : « ويقال إن موسى هو الذي وجه طارقاً بعد مدخله الأندلس إلى طليطلة ، وأن النصف فيما بين قرطبة وأربونة ، وأربونة أقصى ثغر الأندلس » ... انتهى . وهذا يدل على أن موسى لم يحبس طارقاً ولم يهم بقتله ، وأن كل ما جاء عن ذلك لا نصيب له من الصحة .

لقد تحمّل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته لدرجة أجهدت الجند، فقد اقتحم هذا الجيش أرض الأندلس، وصادم القوط الغربيين في موقعة حاسمة، وتوغّل في قلب البلاد، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة، كل ذلك تمّ في أمد قصير. ثم إن المقاومة القوطية بدأت تتكوّن في نواحي البلاد، خاصة من جهة غرب الأندلس، حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة في إقليم (استرامادور) لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطية، وهذا يفسّر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نصير[1].

والواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس بتعاون وثيق، وأنّ خروج طارق للقاء موسى عند (طليرة) لم يكن لمجرد اللقاء، بل لغرض آخر حربي سنعرفه، وقد أتم الرجلان الفتح على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً[2].

ثانياً – عبور موسى:

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية[3] (٧١٢ م) من (طنجة)[4] على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس[5]. وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خفّ

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢).

(٢) فجر الأندلس (٨٧).

(٣) ابن الأثير (٤/٢١٥)، وفي فتح مصر والمغرب (٢٨٠): إن موسى خرج إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين.. ويحدد الرازي تاريخ خروجه من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين. انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) وكذلك في النجوم الزاهرة (١/٢٢٦)، وذكر عبد الملك بن حبيب أن موسى دخل الأندلس في جمادى الأولى، انظر نفح الطيب (١/٢٣١).

(٤) نفح الطيب (١/٢٥٤).

(٥) اخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية ص (١٩٢) و (١٩٨) وكان من بين الذين دخلوا مع موسى الأندلس واحد من أصاغر الصحابة هو المنيذر الإفريقي وأربعة من =

(يوليان) للقائه خفوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر[1] .

ونزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق)، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة ؛ فلما عزم على المسير ، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب وعددها يزيد على عشرين راية ؛ وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة العسكرية للفتح ، فأجمعوا على السير الى (إشبيلية) وغزو ما بقي من غرب الأندلس حتى (أكْشُونِيَة)[2] ، وكان هذا الاجتماع قد تمّ عقده في المسجد الذي أقيم فيه (مسجد الرايات) [3] إذ لم يبرح موسى موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً ، وكان يقابل بباب البحر من أبواب المدينة [4] .

وزحف موسى الى (شَذُونَة Medina Sidonia) فافتتحها عنوة ، ثم سار الى (قَرمُونَة) ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال ، فسأل موسى عن أمرها ، فقيل له : « لا تؤخذ إلا باللّطف والحيل » ، فقدّم إليها عُلُوجاً[5] كانوا من أصحاب (يوليان)

=التابعين هم: علي بن رباح اللخمي وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الأنصاري الحبلي ، وحنش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة الصنعاني، وحيوه بن رجاء التميمي . وفي بغية الملتمس (٥١) : إن محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري وهو من التابعين غزا الأندلس مع موسى بن نصير .

(١) نزهة المشتاق للإدريسي (٢١٣) من ترجمة دوزي.

(٢) اكشونية : مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل اشبونة ، وهي غربي قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٧/١).

(٣) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية في الأخبار الأندلسية (١٩٨).

(٤) صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب : الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

(٥) العلج : بوزن (العجل) ، الواحد من كفار العجم ، والجمع : (علوج) و (أعلاج) (علجة) ، بوزن (عنبة).

وغيرهم ، فأتوهم في هيئة المنهزمين ومعهم السلاح ، فأدخلوهم المدينة ؛ فلما علم موسى بدخولهم بعث اليهم الخيل ليلاً ، ففتحوا لهم باب المدينة ، وهو الباب المعروف بباب (قرطبة) ، فوثبوا على الأحراس وقتلوهم ، ثم دخل المسلمون المدينة عنوة[1] . وسار موسى الى رعواق (Alcala de Guadaira) المعروفة بقلعة وادي (أيرة) أو قلعة (جابو) فافتتحها[2] ، وبهذا أمّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء الى (قرطبة) ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة و (شذونة) و (رعواق) و (قرمونة) و (إستِجة) و (قرطبة) في يد المسلمين ، وأصبح بامكان موسى أن يتّجه نحو الغرب ليفتح (إشبيلية) كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد (طليطلة) إذ ذاك[3] .

لقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الفتح وحمايةِ الجناح الأيسر (الغربي) لمنطقة فتح طارق ، الأهداف الحيوية الأولى التي حقّقها موسى بعد إنزال قواته الأندلس .

ثالثاً ــ فتح إشبيلية :

وتقدّمت قوات موسى نحو إشبيلية ، وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأناً وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً ، وكانت دار ملك روم روما قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيّون عليها استوطنوا (طليطلة) وأقروا بها ملكهم ، وبقي بمدينة إشبيلية علماء أهل روما وكتّابهم ورؤساؤهم . وحاصرها موسى حصاراً شديداً ، ولكنّها امتنعت عليه أشهراً ، وأخيراً استطاع فتحها وانسحبت حاميتها الى (بَاجَة)[4] ، فترك

---

(١) البيان المغرب (٢/١٩ – ٢٠) وانظر ابن الأثير (٤/٢١٥) ونفح الطيب (١/٢٠٢) والأخبار المجموعة (١٦).

(٢) انظر فجر الأندلس (٩٢) وتاريخ المسلمن واثارهم في الأندلس (٩٤).

(٣) فجر الأندلس (٩٢).

(٤) باجة : كورة بالأندلس تتصل بنواحي ماردة . انظر التفاصيل في المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٣) ومعجم البلدان (٢/٢٥).

موسى[1] حامية ومضى قدماً لتحقيق أهدافه الأخرى .

رابعاً – فتح ماردة [2] :

وسار موسى قاصداً (مَارِدَة) متتبعاً طريقاً رومانية قديمة كانت تصل إشبيلية بماردة ، فاستولى في طريقه على بلد يسمى لقَنْت[3] سلّم له أهله دون مقاومة ، فسموا لذلك موالي موسى[4] ، وسمي الطريق التي سلكها موسى بـ (فج موسى) وتمتدّ من (لقنت) الى (ماردة)[5] .

وكانت (ماردة) أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ؛ فحاصرها أيضاً ، وكان أهلها في مَنَعَة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم . وعمل موسى دبّابة[6] دبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى شيء يشبه الاسمنت الصلب كان يسمى (الأشة ماسة Argamasa)[7] ، فنَبت عنه معاولهم[8] وعدّتهم . وثار العدو بالمسلمين على غفلة ، فاستشهد بأيدي العدو قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع : (برج الشهداء) . واستمر موسى محاصراً لماردة

---

(1) أخبار مجموعة (16) والبيان المغرب (2/20) ونفح الطيب (1/252).

(2) ماردة : كورة واسعة من نواحي الأندلس ، بينها وبين قرطبة ستة أيام ولها حصون وقرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/360) وتقويم البلدان (172 – 173).

(3) لقنت : حصنان من أعمال ماردة بالأندلس : لقنت الكبرى ولقنت الصغرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان (7/336).

(4) فتح الأندلس (11) وانظر نفح الطيب (1/252). ولقنت هي (Fuente de Cantos).

(5) فتح الأندلس (35).

(6) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، فتدفع في أصل الحصن ، فينقبه رجال في جوفها .

(7) انظر فجر الأندلس (93) ، وقد ورد هذا اللفظ بنصه محرفاً في نفح الطيب (1/253) فكتبه : (ألاشه ماشه) وهي كلمة لاتينية معربة (Alaya-Maya).

(8) نبت عنه : أراد أنها لم تعمل فيه ولم تنل منه ، والمعاول : جمع معول آلة الهدم .

حتى مستهل شوال سنة أربع وتسعين الهجرية ، فدخلها صلحاً يوم ١ شوال سنة أربع وتسعين الهجرية (٣٠ حزيران – يونيو ٧١٣ م) ، حيث صالحه أهلها على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى (جِلّيقيّة) وأموال الكنائس وحليّها للمسلمين[١].

خامساً – فتح إشبيلية ثانية :

حين كان موسى محاصراً (ماردة) ، ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين . وتجالب فلّهم من مدينة (لَبْلَة)[٢] و (باجة) وقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً[٣] ، وأتى فلّ المسلمين موسى من إشبيلية وهو بماردة ، فلما أن فتح ماردة وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها . ونهض الى (لبلة) ففتحها أيضاً ؛ فاستقامت

---

(١) البيان المغرب (١/٢٠ – ٢٢) ، ونفح الطيب (١/٢٥٣) وأخبار مجموعة (١٧) وما يليها . وقد وردت قصة تلوين شعره من ابيض الى أحمر الى اسود ارهاباً للمفاوضين من أهل الأندلس . والقصة كما يلي : «ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه في تقريره قوم من أماثلهم ، وأعطاهم الأمان ، واحتال – اي موسى – في توهيبهم في نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فاذا هو أبيض الرأس واللحية ، كما نصل خضابه (الخضاب بكسر الخاء ، ما يصبغ به الشعر . ونصل : ذهب أثره فظهر الشيب) ، فلم يتفق معه أمر ، وعاودوه وقبل الفطر بيوم فإذا هو قد قنأ لحيته بالحناء ، فجاءت كضرام عرفج (قنأ لحيته : صبغها . والضرام : النار . والعرفج – بزنة جعفر – شجر سريع الإلتهاب) فعجبوا من ذلك . وعاودوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سوّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ، ويتصورون في كل صورة أحبوا : كان ملكهم شيخاً ، فقد صار شاباً ، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك وأكملوا صلحهم مع موسى ...» وهي قصة مستبعدة الحدوث وهي أقرب الى خيال القصص منها الى حقائق التاريخ .

(٢) لبلة : بفتح أوله ثم السكون ولام أخرى . قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية ، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً ، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلا ، وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزروع والشجر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣١٩).

(٣) البيان المغرب (٢/٢٢) ونفح الطيب (١/٢٥٣).

الأمور فيما هنالك وعلا الإسلام[1] ، ثم انصرف عبد العزيز بن موسى إلى (إشبيلية)[2] .

والظاهر أن الذين غدروا بالمسلمين في (إشبيلية) لم يكونوا من أهلها أو أهل (لبلة) أو (باجة) ، فلو أن أهل هذه المدن هم الذين غدروا بالمسلمين لذكرت المصادر التاريخية التي أوردت هذا الخبر ، أن أهل لبلة وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم مهدّدون بالخطر . ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخمد الثورة ، بل تركهم على حالهم وأقام معهم فيها حتى استقامت الأمور هناك ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملتهم . لقد غدر بالمسلمين القوط من الفلول التي فرّت من حاميات البلاد عند اقتراب المسلمين إليها أو فتحهم لها ، حين استبان لهم قلّة عدد المسلمين[3] .

ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلاّ بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط ، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجدّ بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن[4] .

سادساً ــ مقتل لذريق :

أقام موسى شهراً في (ماردة) بعد افتتاحها يرتّب أمورها ويريح جنده بعدما بذلوه من جهود مضنية في فتح هذا البلد ، وينجز متطلبات جيشه الإدارية تمهيداً لمتابعة الفتح وتطهير الجزء الشمالي من غرب الأندلس من

---

(١) فتح الطيب (١/٢٥٣) وانظر البيان المغرب (٢/٢٢).
(٢) البيان المغرب (٢/٢٢).
(٣) انظر فجر الأندلس (٩٣ – ٩٤).
(٤) انظر فجر الأندلس (٩٦).

بقايا القوط وعلى رأسهم لذريق . وكان موسى قد أدرك أن مراكز المقاومة القوطية بدأت تتجمّع في هذه المنطقة بالذات لعرقلة مسيرة الفتح بالإفادة من وعورة المنطقة ، ظناً منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول اليها ، واستعداداً للهرب الى نواحي (قَشْتَالَة)[١] و (استرامادورة) اذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من شمال غربي الأندلس .

لقد كانت محاولة فلول القوط استرداد (إشبيلية) خطوة مدبّرة لقطع طريق الرجعة على قوات موسى ، لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمد الحركة قبل استفحالها ، كما تمكّن من القضاء على مركز المقاومة في (لبلة) ؛ فما كادت تسقط (ماردة) حتّى تراجع لذريق وتحصّن هو وجنوده في شعاب جبال (سيرا دي فرانثيا Sierra de Fancia) مما يلي وادي (أنة) إلى الشمال وأقاموا هناك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين . وقدّر موسى موقف عدوه تقديراً صائباً ، فاكتشف أن العدو له كمين في طريقه الى (طليطلة) ، ولم يكن موسى ليستطيع السير من (ماردة) الى (طليطلة) والعدوّ يهدد خطوط مواصلاته بهذا الكمين ، فكان لا بد له من القضاء على التجمعات المعادية ، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين (ماردة) و (طليطلة) . وخرج طارق بجيوشه ملبياً أوامر موسى ، وسار مسافة قدرها مائة وخمسين كيلو متراً في الطريق الموصل ما بين (طليطلة) (وطلبيرة) بحذاء واد يقال له : (الأروكامبو Valle de Arrocampo) وانتظر موسى في هذا الوادي في مكان يسمي المعرض Almaraz)[٢] بين (التاجة) ونهر (التيتار)[٣] .

---

(١) قشتالة : إقليم عظيم بالأندلس : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٣/٧).

(٢) استعرض موسى قواته في هذا الوادي فسمي : وادي المعرض . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨).

(٣) يقول بهذا الرأي سافدرا (Savedra Op. Cit. p. 98)وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء الى الصحة في صدد نهاية لذريق ، فان المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي (لكة) . وتكتفي المراجع العربية بالقول : بأنه =

وتابع موسى سيره بعد ذلك في الطريق الى (طليطلة) حيث التقى بطارق في موضع يقال له: (تايد)[1] أو (تايتر) أو (التيتار Teltar) وهو نهير في المنطقة. وخرج طارق معظماً له، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في تسرعه لاقتحام الاندلس من الوسط، فاعتذر اليه طارق وقال له: «إنما أنا مولاك وقائد من قوادك، ما فتحته وأصبته فإنما هو منسوب إليك»؛ واستلطفه حتّى رضي عنه موسى[2]، فاصطلح موسى مع طارق، وأظهر الرضا عنه، وأقرّه على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه[3].

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من (ماردة) الى (سلمنقة Salamanca)، ثم اجتاز الموضع المسمى (Puerto de Siete Carraras)، وصار في نقطة التقاء الطريقين الموصلين من (ماردة) الى (سلمنقة)، ومن (ألبة دي تورميس Alba de Tormes) الى (ثيوداد رودريجو Giudad Rodrigo)، ومضى في فج منسوب اليه[4] بحذاء نهير سمي منذ ذلك الحين بـ: (وادي موسى Valmuza). وظنّ لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذه الطريق الطويل وبعدهم عن أي مركز يستطيعون منه طلب المعونة، وانقضوا على جيش موسى في ناحية

= اختفى أو غرق. وسيرى القارىء في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة. انظر فجر الأندلس (٩٨).

(١) وردت كلمة: تايد في اخبار مجموعة (١٨) بدون نقط، ولعلها تايتر أو التيتار. انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨).

(٢) الرسالة الشريفية (١٩٣).

(٣) نفح الطيب (١/٢٥٥). وفي الطبري (٥/٢٥٦): عبر موسى بن نصير الى طارق في عشرة آلاف فتلقاه فترضاه، فرضي عنه وقبل منه عذره ووجهه منها الى مدينة طليطلة.. انتهى. وفي البيان المغرب (٢/١٢٣): اتفق الأكثرون أن التقاءهما كان على طليطلة. وذكر الطبري أنه كان على قرطبة، وذكر الرازي، أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسيره اليه، فلقيه بمقربة من طلبيرة.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) ونفح الطيب (١/٢٥٣).

يسميها بعض المؤرخين من المسلمين : (السواقي) وهي : (سيجويلا دي لوس كورنيخوس Segoyuela de Los Cornejos) بالقرب من بلدة (تماسس Tamames) ؛ وهناك وقعت فيه المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، ونظراً لأن المكان الذي وقعت فيه الموقعة كان قريباً من بحيرات (تماسس) ونهير (باربالوس Barbalos) الذي ينتهي عند السواقي ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر (برباط) وبحيرة (خاندة) ، وفي هذه المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان بن موسى ابن نصير ، وهزم القوط هزيمة نكراء[1] .

سابعاً ـ فتح طليطلة ثانية :

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة ، قد شجّع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في (طليطلة) على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر[2] .

وفي (طليطلة) سلّم طارق الى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس[3]

---

(١) انظر فجر الأندلس (٩٨ ــ ٩٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٨ ــ ٩٩).

(٢) فجر الأندلس (٩٩ ــ ١٠٠).

(٣) غنم طارق الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلى الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داوود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص . ومن المحقق أن المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثـار بينهم دهشة كبرى . ويذهب معظم المؤرخين المسلمين الى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة من مدينة (المائدة)، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة (هنارس Acala de Henares) ، وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داوود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) . وهي ليست كذلك بمائدة أصلا ، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة مائدة بهـذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، إذ لم تكن في قلعة (هنارس) إذذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٧٨) ، وانظر ما جاء عن المائدة في الطبري (٥/٢٥٦) وابن الأثير (٤/٢١٥) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٩) والأخبار=

وغيرها عند فتحه (طليطلة) لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين الهجرية يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برنزية لصرف رواتب الجند وذلك بدار السكة القوطية بطليطلة [1] ، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان اليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي علي بن رَباح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره [2] ومغيث الرومي [3] فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك ، فلما دخل وفد موسى الى الوليد قال علي بن رباح : « ... يا أمير المؤمنين ! تركت موسى بن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر

=المجموعة (١٧و١٩) والبيان المغرب (١٧/٢) ونفح الطيب (٢٤٨/١) ، وقد وردت عبارة صريحة لابن حيان تدل على أن هذه المائدة ما هي إلا مذبح كنيسة طليطلة وهي : « وهذه المائدة المنوه باسمها الى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل ، وتأنقت الأملاك في تفخيمها ، يزيد الآخر منها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ؛ وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فأصابها المسلمون هناك » . انظر نفح الطيب (٢٥٤/١ - ٢٥٥).

(١) سيرد تفصيل ذلك عند ذكر أعمال موسى الإدارية .

(٢) هو أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي ، كان فاضلا جليلا من جملة التابعين ، يروي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعقبة بن عامر وأبو هريرة وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم . انظر التفاصيل في رياض النفوس (٧٧/١ - ٧٨) وانظر الامامة والسياسة (٧٥/٢ - ٧٦) حول إيفاد علي بن رباح الى الوليد بن عبد الملك من قبل موسى بن نصير . وانظر ما جاء عن علي بن رباح في نفح الطيب (٢٦٠/١ - ٢٦١).

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٨٣).

من وجوه من معه ، بفتح من فتوحه » ، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خرّ ساجداً »[1] .

ثامناً – فتح شمال الأندلس :

لما انقضى فصل الشتاء ، واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد ، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس . وجمع جيوشه ، وأكمل أمورها الإدارية ، ثم زحف بها نحو (سَرَقُسْطَة)[2] الواقعة على الضفة اليمنى من نهر (ابرة) وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى الى الثغر الأعلى ، وافتتح (سرقسطة) وأعمالها ، وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلاّ فتح عليهما ، وغنّمهما الله تعالى ما فيه ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو ، فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كلّه ويكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه[3] . ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على (سرقسطة » حتى رعب أسقفها (بنسيو Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرّروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة

---

(١) الامامة والسياسة (٧٦/٢). وفي فجر الأندلس (١٠١) : « ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلا بيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً في تنقيص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد » . ومن الواضح أن موسى لو لم يثق كل الثقة بمغيث لما أوفده إلى الوليد ، والظاهر أن مغيثاً نقم على موسى عند عودتهم جميعاً إلى المشرق بعد أن استدعاهم الخليفة . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠).

(٢) سرقسطة : تعريب للاسم الروماني: (قيصر أجستا Caesar Augusta) لأن أغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة ٢٣ ق . م ، على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الأيبيريين باسم (سلدوبا Salduba). وانظر ما ورد عنها في معجم البلدان (٧١/٥).

(٣) نفح الطيب (٢٥٥/١ – ٢٥٦).

المدينة[1] ، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة . ولم يكد المسلمون يستقرّون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدّر لهذا المسجد أن يتّسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي[2] .

وبعد فتح (سرقسطة) فتح موسى (وَشْقَة)[3] و (لارِدَة)[4] و (طَرَّكُونَة)[5] ، وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً جرداء ، يتحدّث أهلها بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى (وهم أدلاء يوليان) ، فزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم[6] . وحين أوغل موسى وجاوز (سرقسطة) اشتدّ ذلك على الناس

---

(١) في فجر الأندلس (١٠٢) : « ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فنراهم في غزوتهم هذه أميل الى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالا سلمياً ، فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا ، وقد بلغ من إسرافه هذا أن العرب أنفسهم – وعلى رأسهم الخليفة – أنكروا عليه هذا المسلك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل » . كما ورد في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠ – ١٠١) مثل هذا المعنى .

وما ورد عن قصة الأسقف بنسيو أعلاه يناقض هذا الرأي ويعطي نموذجاً واقعياً حياً لرحمة المسلمين بالمغلوبين . فاذا ظهرت شدة من موسى في بعض الأحيان ، فلأن متطلبات الحرب هي التي اضطرته إلى ذلك ، كما أن الخليفة لم يستدع موسى لهذا السبب كما سنرى .

(٢) تاريخ علماء الأندلس (١/١١١) – مدريد ١٨٩١م ، وبغية الملتمس (٢٦٣) وصفة جزيرة الأندلس (٩٧) ونفح الطيب (٦/٤) .

(٣) وشقة : بليدة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٢٣) .

(٤) لاردة : مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة ؛ تتصل أعمالها بأعمال طركونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣١٢) .

(٥) طركونة : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطىء البحر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤٤) .

(٦) البيان المغرب (٢/٢٤) والامامة والسياسة (٢/٧٨) .

وقالوا : «أين تذهب بنا ؟! حسبنا ما في أيدينا » ، وكان موسى قال حين دخل (إفريقية) وذكر عقبة بن نافع : «لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أمـا كان معه رجل رشيد ؟! » ، فسمعه حنش الصنعاني ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ – من التغلغل عمقاً في الفتح – قام حنش فأخذ بعنانه ، ثم قال : «أيها الأمير ! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : «لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم . أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عزّ وجلّ وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوّخ لك ؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأحبّوا الدعة » ، فضحك موسى ثم قال : «أرشدك الله وكثّر في المسلمين أمثالك » ، ثم انصرف قافلاً الى الأندلس وهو يقول : «أما والله لو انقادوا اليّ لقدتهم الى روميّة (روما) ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله »[1] .

ولكنّ موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح ، وبينما كان يعدّ العدّة لفتح (جِلِيْقِيّة)[2] إذ أتاه مغيث الرومي[3] رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكفّ عن التوسّع في البلاد ، وأن يشخص إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير (جِلّيقيّة) ، فكان شديد الحرص على إقتحامها[4] . ولكنّ قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح (جليقية) . ولاطف مغيثاً – من أجل ذلك – وسأله إمهاله ، إلى أن ينفّذ عزمه في الدخول إلى (جليقية) ،

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٨٠ – ٨١).

(٢) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٣١).

(٣) سترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الاندلس والبحار .

(٤) نفح الطيب (١/٢٥٨).

والمسير معه في البلاد أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل مغيث ومشى معه[1] . وقد وهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب اليه في عهد المسلمين ، وهو : (بلاط مغيث) بجميع أرضه من أرض الخمس [2] نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته في غزو (جليقية) . وقَبِل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً لفتح (قَشتالة القديمة Castilla La Vieja) تأميناً للحدود الشمالية لإقليم (طليطلة)[3] .

وكان يتفرّع من (سرقسطة) طريقان رومانيان يتّجهان من الشرق إلى الغرب : الأول يذهب بحذاء نهر إبرة (الإبرو) حتى (هارو Haro) ، ومن هناك يتبع (برفيسكا Barivlesca) ثم (أماية) ، ثم (ليون)[4] و (أستَرقة) . والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتّجه الى (قَلَهُرّة) و (بلَنسية)[5] ، ويلتقي بالطريق الممتدمن (ماردة) الى (أستَرقة) في مدينة (بنافنتي) . وكان لا بدّ لموسى من السير في كل من هذين الطريقين ؛ فقسّم جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، والآخر قيادة طارق .

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأولى أدنى سفوح جبال (كَنْتَبْرِيّة) . وشرع طارق بمهاجمة (البشكنس) غربي نهر (إبرة) ، فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فُرْتُو ن) بدأ من الدخول في طاعة المسلمين بـــل إعتنق الإسلام ، ولذلك أعفيت (شيّـــة Ejea)

---

(١) نفح الطيب (١/٢٥٨).

(٢) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية (٢٠٤).

(٣) Saavedra. OP. Cit. p. 113 — 114.

(٤) ليون : بلد في منطقة جليقية . انظر تقويم البلدان (١٨٤ — ١٨٥).

(٥) بلنسية : كورة ومدينة بالأندلس شرقي قرطبة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٨ — ١٧٩).

منطقته من التخميس[1]، وإليه ينتسب بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى، الذين كان لهم شأن في تاريخ المسلمين في الأندلس[2]، ثم تابع طارق سيره، ففتح (أماية) و(استرقة) اللتين ذكرهما مؤرخو العرب خطأ في حملته سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١١م)[3] كما فتح مدينـــة ليون[4] في هذه السنة أيضاً.

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر (إبرة) في إقليم (قَشْتَالة)[5] فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية. وقد لقي بعض المقاومة عند حصن (بارو Villa Baruz) أو (بازو) في مقاطعة (بلد الوليــد) التي لا يزال يطلق عليها الاسبان اليوم (فاليا دوليد). وبدلاً من أن يعرّج على (استرقة) ليلتقي فيها بجيش طارق، انحرف إلى الشمال واخترق باب (تارنا Tarna)، وسار متابعاً مجرى نهير (النالون Nalon)، ثم حطّ رحاله عند قلعة (لُكْ Santa Maria de Lugo) بـ(أشتوريش) غير بعيد عن (أبيْط Oviedo)، وما زال بها حتى فتحها. ثم سار بنفسه حتى بلغ (خيخون Gijon) وأقرّ فيها حامية وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في تلك النواحي البعيدة، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة (بلاي Pena de Pelayo) على البحر الأخضر[6]. فطاعت الأعاجم، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين[7].

---

(١) الرسالة الشريفية (٢٠٠).

(٢) انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٣) انظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) واخبار مجموعة (١٥).

(٤) الأخبار المجموعة (٢٨)، وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١) وهو خطأ واضح. انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٥) قشتالة: إقليم عظيم بالاندلس، قصبته طليطلة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٩٣).

(٦) هو المحيط الأطلسي، وكان يسمى أيضاً: الاقيانوس وبحر الظلمات.

(٧) نفح الطيب (١/٢٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٤ - ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم =

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط ، فاطمأن الى أنه فتح شبه الجزيرة كلها ، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ؛ فتفرّق جنده ، وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد ، فمالت نفوسهم الى العودة ؛ فاكتفى موسى بوصوله الى (خيخون) وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي (أشتوريش) و (جليقيّة) ، وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلاّ ثلاثون رجلاً . والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشتغل العرب عنهم بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بينهم ، لاستطاعوا بسهولة القضاء على البقية الباقية من القوط ، ولكنّ العرب شغلوا بأمور أنفسهم ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتنتهز في المسلمين كلّ فرصة تسنح .

ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي ، كان لا بدّ أن يعود لا الى (طليطلة) أو (قرطبة) فقط ، بل الى (دمشق) رأساً ؛ فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجّله ، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهّل ، إذ أن رسولاً آخر من الوليد يكنى : أبا نصر ، بعثه الى موسى عندما استبطأه في القفول ، أتاه وهو في مدينة (لك) بـ (جليقية)[1] .

= في الأندلس (١٠٢ - ١٠٣).

(١) نفح الطيب (٢٥٨/١). وفي فجر الأندلس (١٠٦) ورد : « حتى لتذهب الروايات إلى أن الوليد بعث إليه رسولا آخر اسمه : أبو نصر ، لقيه في (لك) ، فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً وصل وموسى في (سرقسطة) في أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل ، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظنّ (جايانجوس) ». واقول : قد وردت ترجمة مغيث الرّومي في نفح الطيب (١١/٤-١٣) وهو لا يكنى : أبا نصر . ولماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذي أرسله الوليد إلى موسى وقد انقضت على وصول الرسول الأول ثلاثة أشهر ، وهي مدة طويلة بعد ما استقر في ذهن الوليد أن =

وهناك بعض المؤرخين ، يذكرون أن موسى بن نصير بعد أنْ افتتح (سرقسطة) بعث سراياه الى (قطالونة) ، ففتحت (برشلونة)[1] ، ومن هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغّلت في بلاد (غالة) ، فاستولت على (أربونة[2] Narbonne) وصخرة (إينيون Avignon) وحصن (لودون) على وادي (ردونة) وهو وادي نهر (الرون)[3] ، ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت (برشلونة) و (لاردة) وجزء من إقليم (قطالونية) وأنها قد وصلت الى جبال (البرتات) واجتازتها الى (قَرْقَشُونَة)[4] ، فهو نفس الطريق الذي اتبعه السمح بن مالك[5]

= موسى يريد أن يشق عصا الطاعة ، انظر الامامة والسياسة (٢/٧٥-٧٦) وأن موسى يطمع في فتح (غالة) والوصول إلى رومة . انظر الامامة والسياسة (٢/٨١) بل الوصول إلى أرض الشام عن طريق (إفرنجة). انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) في الوقت الذي سئم المسلمون فيه الفتح وأظهروا رغبتهم في العودة الى قرطبة ؟ لقد كان الوليد حريصاً على سلامة المسلمين ، فعارض منذ البداية في اقحامهم في بحر شديد الأهوال ، فلما نمي اليه ما شرع فيه موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه وأرسل أبا نصر رسولا ثانياً الى موسى يستعجله القفول الى دمشق ، لذلك نعتقد تماماً أن أبا نصر شخص آخر غير مغيث الرومي . وفي نفح الطيب (١/٥٨) نص صريح وهو : « وقفل معهم (أي مع موسى وطارق) الرسولان مغيث وأبو نصر » . انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٣ - ١٠٤).

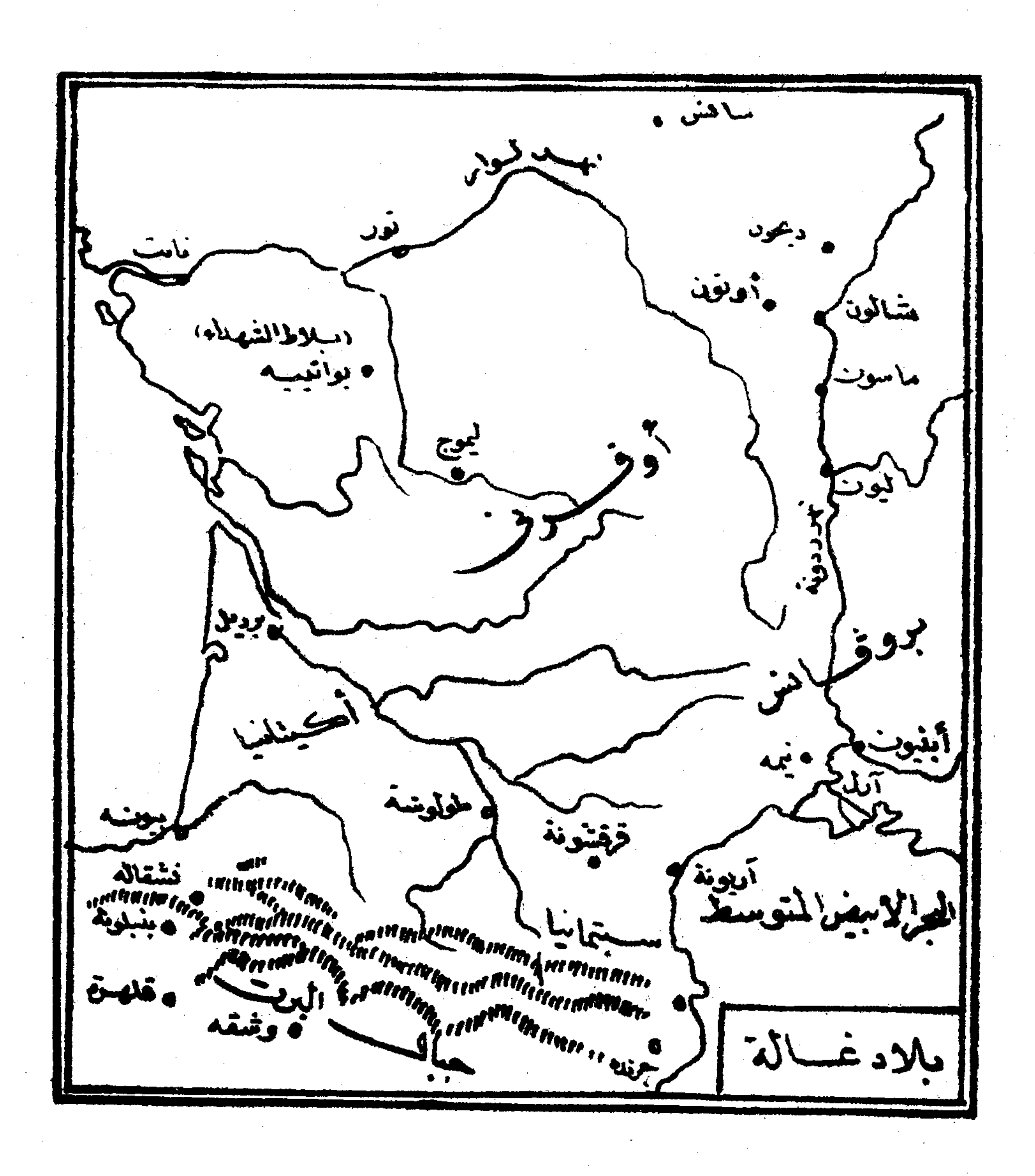
(١) برشلونة : مدينة في شمال شرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، ويعتبرها بعض جغرافي العرب ليست من مدن الأندلس . انظر تقويم البلدان (١٨٢ - ١٨٣).

(٢) أربونة ، مدينة في شمال شرقي قرقشونة تقع في الساحل الفرنسي الجنوبي . انظر ما جاء عنها في تقويم البلدان (١٨٢ - ١٨٣).

(٣) نفح الطيب (١/٢٥٦).

(٤) قرقشونة : بلد في جنوب فرنسا قريبة من حدود إسبانيا الشمالية . وفي معجم البلدان (٧/٥٩) : ان المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوماً . وقد ذكر المقري في نفح الطيب (١/٢٦٠) : أن موسى انتهى الى حصن من حصون العدو يقال له : قرقشونة . وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا و إيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) - الأمير شكيب أرسلان - مصر - ١٣٥٢ هـ . ويذكر المقري في نفح الطيب (١/٢١٨) وابن خلدون (٤/١١٧) : أن موسى توغل في الأندلس الى برشلونة من جهة الشرق وأربونة في الجوف .

(٥) سترد ترجمته في كتاب : قادة فتح الأندلس والبحار .


سانس
نهر لوار
نور
نانت
دجون
أوتون
شالون
ماسون
(بلاط الشهداء)
بواتييه
ليموج
أوفرن
ليون
نهر ردونة
برديل
بروفانس
أكيتانيا
أبنيون
نيمه
آرل
طولوشة
بيونه
قرقشونة
أربونة
نشقالة
بنبلونة
البحر الابيض المتوسط
سبتمانيا
قلهرة
البرت
وشقه
جبال
جرنده
بلاد غالة

بعد ذلك بسنوات، ولكنّ فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مستداماً إنما كان بقوات استطلاعية خفيفة استطاعت جمع المعلومات عن تلك المنطقة من بلاد فرنسا تمهيداً لفتحها فيما بعد[1].

هـ ــ فتح عبد العزيز بن موسى :

فتح عبدالعزيز ما بقي من مدائن الأندلس[2]، إذ لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة، فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد. وقد تجمعت في بعض الأقاليم غير المفتوحة وفي الجيوب الجبلية النائية الوعرة مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين، فاقتضى الأمر إخماد هذه المقاومات وإتمام فتح الأندلس.

سار عبدالعزيز على رأس جيشه لاستكمال فتح غرب الأندلس (البرتغال حالياً)، ويرجح سافدرا أن عبدالعزيز قام بهذه الحملة قبل رحيل أبيه الى دمشق فيقول: «يبدو لي ــ حسبما أعتقده ــ أنه بينما كان موسى وطارق يفتحان البلاد من (سرقسطة) عبر (قشتالة) القديمة، لم يكن عبدالعزيز الذي كان قد وصل الى (باجة) سنة ٧١٣م عاطلاً، إذ أنه شغل عام ٧١٤م بالزحف نحو (يَـابُرَة Evora)[3] و (شَنْتَرِيْن Santaren)[4]

---

(١) في البيان المغرب (٢٤/٢) ونفح الطيب (٢٥٩/١): أن موسى انتهى الى صنم، فوجد في صدره مكتوباً: «يا بني اسماعيل! الى هنا منتهاكم، وإذا سألتم إلى ماذا ترجعون؟ أخبرناكم: ترجعون الى الاختلاف ذات بينكم، حتى يضرب بعضكم رقاب بعض».. ومن الواضح أن هذه قصة خرافية نسجت فيما بعد تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلا، وأدى بهم الى ضياع الفردوس المفقود (الأندلس) وخروجهم منها أذلاء مغلوبين حين تفرقوا واختلفوا، وكانوا قد دخلوا أعزاء فاتحين حين اتحدوا وتعاونوا.

(٢) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦).

(٣) يابرة: بلد في غربي الأندلس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٤٩/٨).

(٤) شنترين: مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر (تاجة) قريب من انصبابه في البحر المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً، وبينها وبين باجة أربعة أيام. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٠/٥) وتقويم البلدان (١٧٢ ــ ١٧٣).

و (قُلُمْرِيّة Coimbra)[1] ، وظلّ متجهاً الى أقصى الغرب بقصد ملاقاة الفرق الإسلامية في (استرقة Astorga)[2]، ويستند سافدرا في رأيه هذا على عبارة وردت في الرسالة الشريفية نصها : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم ، وتصيرت ملكاً لهم ، إلا قسّم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد وهي : شنترين وقلمرية في الغرب و (شية) في الشرق ، وسائر البلاد خمّست وقسّمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير[3] » ، ومعنى هذا أن عبدالعزيز افتتح (شنترين) و (قلمرية) صلحاً ، وذلك أثناء وجود أبيه بالأندلس .

والحق أن موسى لم يكن ليترك ابنه عبدالعزيز — وهو القائد الذي عرف بشجاعته ومهارته — عاطلاً في أيامه ، ولو كان عبدالعزيز مع جيوش أبيه في فتوحه لظهر له أثر واضح كما ظهر لغيره مثل طارق بن زياد، وذلك في الصفحة الأخيرة من فتوحات موسى . كما أن وجود عبدالعزيز في (باجة) القريبة من تلك المناطق لا بد أن يغريه بفتحها . والأهم من كل ذلك ، أن الموقف العسكري الذي كان يحسب حسابه بدقّة متناهية موسى ابن نصير ، يحتّم عليه أن يحمي جناح تقدمه الأيسر ، وذلك أثناء فتوحاته الأخيرة ، وإلا تعرّضت خطوط مواصلاته الممتدة بالعمق شمالاً الى تهديد العدو الرابض في غرب الأندلس (البرتغال) ، فلم يكن باستطاعة موسى أن يتقدم شمالاً ما لم يؤمّن جناحه الأيسر بالحماية اللازمة ، وذلك بفتح هذه المنطقة ، ولم يكن هناك أولى بفتحها من عبدالعزيز بن موسى الذي كان قد وصل الى (باجة) القريبة من غربي الأندلس .

أما ما فتحه عبدالعزيز في اثناء ولايته الأندلس بعد مغادرة أبيه الأندلس

---

(١) قلمرية : مدينة بالأندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٥١).

٢) Savedra, op. cit. p. 127 نقلا عن : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٩ — ١١٠).

(٣) الرسالة الشريفية الى الأقطار الأندلسية (٢٠٠).

الى المشرق ، فسيرد في ترجمة عبد العزيز بن موسى[1] .

الإنسان :

١ ــ عودة موسى وطارق الى المشرق :

بادر موسى بالعودة من (لُكّ) بـ (جليقيّة) مع أبي نصر الرسول الثاني للوليد بن عبد الملك ، وكان مع أبي نصر رسالة الوليد الى موسى يوبّخ الوليد بها موسى ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه[2] ، فأخذ موسى في طريــق العودة في أواخر سنة خمس وتسعين الهجريــة (منتصف صيف ٧١٤ م) ، وكان مغيث الرومي قد خفّ للقائه ، فالتقيا بنواحي (ليون) ، وهناك أدركهما طارق عائداً من (استرقة) ، وساروا جميعاً فاخترقوا (فج موسى Valmuza) في طريقهم الى (طليطلة) . ولم يقم موسى في (طليطلة) وإنما مضى مُجِدّاً حتى دخل (قرطبة) ولقي فيها نفراً من كبار جنده ، ثم مضى الى (إشبيلية) حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث الرومي وأبونصر وكبار الجند في ذي الحجة سنة خمس وتسعين الهجرية ، وكان معهم (يوليان) . وفي (إشبيلية) استخلف موسى ابنه عبدالعزيز بعد أن اختارها عاصمة للأندلس ، لاتصالها بالبحر[3] ، وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْري[4] وزيراً له ومعيناً[5] ، وترك معه العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو[6] .

---

(١) انظر ما جاء في الأخبار المجموعة (٢١) ونفح الطيب (٢٦٣/١) وستورد ترجمة عبد العزيز في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

(٢) نفح الطيب (٢٥٨/١) .

(٣) نفح الطيب (٢٥٨/١) .

(٤) ورد اسمه في البيان المغرب (٣٠/٢): حبيب بن أبي عبده بن عقبة بن نافع ، وكذلك في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) . أما في تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) ، فقد ورد اسمه : حبيب بن أبي عبيدة .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦) ، وأخبار مجموعة (١٩) والبيان المغرب (٣٠/٢) .

(٦) المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) .

أبحر موسى ومن معه من (إشبيلية) وهو متلهف على الجهاد الذي فاته، آسف على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمّل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس الى الشام، مؤملاً أن يتخذ مُخْتَرَقه[1] بتلك الأرض طريقاً مُهْيَعاً[2] يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً[3].

وتذهب بعض المصادر العربية الى أن موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى[4]، وفي ذلك مبالغة واضحة، فهذا العدد الضخم من الأسرى يحتاج الى وسائط نقل لنقلهم بحراً وبراً من الأندلس الى دمشق، ويحتاج الى تدابير إدارية من الصعب جداً تحقيقها، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه، وأما الباقون منهم فقد تُركوا في المزارع يزرعونها وفي الأعمال الإدارية الأخرى يديرونها. ولكنه استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس من قريش ومن الأنصار وسائر العرب ومواليها، وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل: منهم أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى وملك قلعة (أوساف) وملك (ميورقة) و (منورقة) ومعه الغنائم من الذهب والفضة والجوهر محمولة على ثلاثين ومائة عجلة[5]، فكان مع موسى اربعمائة[6] بل هناك رواية أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط، ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم في موكبه ليدلّ على عظم الفتح الذي تمّ على يديه[7].

واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية وابنه مروان على (طنجة)

---

(1) مخترقه: أي المكان الذي يخترقه، أي يسلكه ويجتاز البلاد منه.

(2) مهيعاً: الواضح البين، وهو أيضاً الواسع المنبسط.

(3) نفح الطيب (١/٢٥٩).

(4) انظر نفح الطيب (١/٢٥٩).

(5) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٨٢).

(6) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).

(7) انظر فجر الأندلس (١٠٧).

و (السوس)[1]، فمرّ في طريق عودته بـ (القيروان)[2] ، ثم قدم (مصر) سنة خمس وتسعين (كانون الاول — ديسمبر ٧١٤ م) ، فأقام هناك ثلاثة أيام يأتيه أهل مصر في كل يوم ، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل موسى اليه صلة ومعروفاً كثيراً ، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم وجاءهم بنفسه فسلّم عليهم ، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين[3] .

وبلغ دمشق سنة ست وثمانين الهجرية (كانون الثاني — يناير ٧١٥ م) ، أي قبل وفاة الوليد بن عبدالملك بأربعين يوماً [4] .

ولما قدم موسى على الوليد ، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفيّ فيها ، وقد كان سليمان بن عبدالملك بعث الى موسى مَنْ لَقِيَه في الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالترّيث في مسيره وألاّ يعجل ، فإن الوليد بآخر رمقه . وقرأ موسى كتاب سليمان بن عبدالملك ، فقال : « خنت والله وغدرت وما وفيت ! والله لا تربّصتُ ولا تأخرت ولا تعجلت ! ولكني أسير بمسيري ، فإن وافيته حياً لم أتخلّف عنه ، وإن عجلت منيته فأمره الى الله » ، فرجع الرسول الى سليمان فأعلمه[5] . وكان سليمان قد أمر موسى بالتربّص[6] رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى ، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رُئي ولا سُمِع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ؛ فأبى موسي من ذلك ، ومنعه دينه منه ، وجَدّ في السير[7] ، حتى قدم والوليد حي ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلاّ

---

(١) نفح الطيب (٢٦١/١).

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).

(٣) الإمامة والسياسة (٨٢/٢ — ٨٣) .

(٤) فجر الأندلس (١٠٧).

(٥) الامامة والسياسة (٨٣/٢) وانظر البيان المغرب (٢٥/٢).

(٦) التربص : الانتظار .

(٧) جد في السير : أسرع .

يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفي واستخلف سليمان ، فحقد عليه وأهانه[1]. وقيل : إن موسى وصل الى دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استخلف[2].

(١) نفح الطيب (٢٦٢/١) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) وانظر المعجب في أخبار المغرب (٣٥/١). وفي الامامة والسياسة (٨٤/٢) : « لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، بعث إلى موسى ، فأتى به ، فعنفه بلسانه ، وكان فيما قال له يومئذ : « اجترأت ، وأمري خالفت ، والله لأقللن عددك ، ولأفرقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور ، وتخدعه من آل أبي سفيان ، وآل مروان » . فقال له موسى : « والله يا أمير المؤمنين ما تعتل عليّ بذنب ، سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك ، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه . فأما ما ذكر أمير المؤمنين ، من أنه يقل عددي ويفرق جمعي ، ويبدد مالي ، ويخفض حالي ، فذلك بيد الله والى الله ، وهو الذي يتولى النعمة على الاحسان إلي ، وبه أستعين ، ويعيذ الله عز وجل أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم ستحقه ولم يبلغه ذنب اجترمته » .

فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه ، وكانت بموسى نسمة (ربو) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف ، هاجت عليه ، وجعلت قرب العرق تنصب منه ، فما زال كذلك حتى سقط ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً ، إلى أن نظر سليمان إلى موسى ، وقد وقع مغشياً عليه ، قال عمر بن عبد العزيز : « ما مر بي يوم كان أعظم عندي ، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم لما رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد أثره في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه ، وهذا يفعل به ! » فالتفت إلي سليمان ، فقال : « يا أبا حفص ! ما أظن إلا قد خرجت من يميني ! » . فقال عمر : « فاغتنمت ذلك منه فقلت : يا أمير المؤمنين ! شيخ كبير بادن ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد أتيت على ما فيه من السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله ، العظيم الغناء عن المسلمين . قال عمر : منعني من الكلام فيه ، ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه ، وهو لحوح . قال عمر : فلما قال لي ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت أن الله قد أحسن اليه ، وأن سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب : أنا أضمه يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة . قال سليمان : فضمه إليك يا يزيد ، ولا تضيق عليه ، قال : فانصرف به يزيد ، وقد قدم اليه دابة ابنه مخلد ، فركبها موسى ، فأقام أياماً . قال : ثم إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى افتدى منه بثلاثة آلاف دينار » ... انتهى.

ومن الواضح أن المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية ، فالوليد تارة قاس لا يتورع عن تعذيب شيخ فان عذاباً يقربه من حافة القبر ، وهو رحيم تارة أخرى وفي نفس الوقت بحيث يوصي بهذا الشيخ خيراً فلا يرضى أن يضيق أحد عليه ! كما أن هذه القصة تناقض ما جاء عن سليمان من مزايا —

لقد قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً ـ وهذا ما نرجحه ـ ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيّراً على موسى تغيّراً لا سبيل الى إصلاحه ، فلم يحسن الوليد لقاء موسى ، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربّه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى ، ولهذا كان طبيعياً ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزّه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحّة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، فمن المستبعد ما يقال : إن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر[١] ، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه[٢] فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطر الى أن سأل العرب معونته ، فيقال : إن لخماً حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل حمّله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدّى مائة ألف وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلّب ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إياه إلا أنـه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية[٣] ، وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدي به نفسه ، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك موسى ويدفعه إلى الموكلين به ، فيخفّفون عنه العذاب ! ![٤] ، لأن سليمان لو كان

= فهو : « مفتاح الخير : أطلق الأسارى وخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز . الخ ، كما جاء في الطبري (٣٠٤/٥) ، فكيف يقوم على تعذيب شيخ له ماض مجيد كما وصفه عمر بن عبد العزيز بالذات وكما يعرف عنه الناس جميعاً ؟ !

يبدو أن هذه القصة وأمثالها من جملة القصص الموضوعة للتشنيع بسليمان وغيره من رجال العرب المسلمين من الخلفاء ومن الذين عملوا معهم في تلك الفترة الذهبية من تاريخ العرب والاسلام ، وأمثال هذه القصص ظاهرة التهافت والتناقض لا تستقيم مع خلق العرب وتعاليم الاسلام التي كانت سائدة حينذاك .

(١) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٨٤/٢ – ٨٥) .
(٢) تقصىّ حسابه : أي تتبعه وشدد البحث عنه لتعرّف حقيقته .
(٣) نفح الطيب (٢٦٢/١) .
(٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (٢٦٥/١ – ٢٦٦) .

قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك اولاده ولاة على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلّب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته[١] ، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقرّبين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرّفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير . أطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز[٢] ، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين . إننا نستبعد أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً هو موسى بن نصير ، أسس ملكاً وقضى سني حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرّد قالة ظالمة أو وشاية في حقّه ، حتّى قصة مقتل عبد العزيز بن موسى لم يكن لسليمان يد فيها ، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز ، وأرسل الى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبد العزيز ، والقبض على قتلته وإرسالهم إليه[٣] .

لقد كان موقف سليمان من موسى سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد .

ولكن ، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس وأقرّ سليمان هذا العزل ؟ ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يمهله حتّى يحقّق كلّ نياته التوسعية في الفتح ؟

---

(١) فجر الأندلس (١٠٨) .

(٢) الطبري (٥/٣٠٤) .

(٣) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦ – ١٠٧) . وفي الأخبار المجموعة (٢٢) : « ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى ، شق عليه ذلك ، فولى إفريقية بن يزيد ... وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يتشدد في ذلك وأن يقفلهما اليه ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس ... » .

٢ ـ أسباب استدعاء موسى الى دمشق وعزله :

كان للخلفاء أساليب خاصة لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم وتصرّفاتهم للإطمئنان الى أن أولئك الولاة والقادة لا يخرجون عن الخطّة التي رسمها لهم الخلفاء، وليحول الخلفاء ـ جهد الإمكان ـ دون خروج الولاة والقادة عليهم عند سنوح الفرصة المناسبة .

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على قادتهم وولاتهم، ـ خاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة ـ هي إرسال من يعتمدون عليهم من الرجال، لينقلوا اليهم بدقّة وسرعة وأمانة كل ما يرونه ضرورياً لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور في مختلف البلاد والأمصار كما يريدون .

كان مغيث الرومي أحد من يعتمد عليه الوليد بن عبد الملك، لأن عبد الملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولده الوليد، وقد نشأ بدمشق ودخل الأندلس مع طارق فاتحها . وقد وقع بينه وبين طارق، ثم وقع بينه وبين موسى، فرحل معهما إلى دمشق، ثم عاد ظافراً عليهما الى الأندلس . وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكَيْد[١]، وكان يطمع بولاية الأندلس، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيث الرومي فصرفه عن عزمه . وقد بالغ في إذاية موسى عند سليمان[٢] . ويروى لمغيث شعر خاطب به موسى بن نصير وطارق بن زياد منه قوله :

أعَنْتُكُمُ ولكن ما وفيتم   فسوف أعيث في غرب وشرق

وعارض يوماً مغيثٌ في محفل في الناس موسى بن نصير، فقال له موسى : «كفّ لسانك»، فقال مغيث : «لساني كالمفصل، ما أكفّه إلا حيث يقتل»[٣].

---

(١) نفح الطيب (١١/٤).
(٢) نفح الطيب (١٢/٤).
(٣) نفح الطيب (١٣/٤).

والظاهر أن مغيثاً هذا لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عند الوليد وعند سليمان من بعده طمعاً في تولي الأندلس من بعد موسى ، أو انتقاماً من موسى ، فحقّق سليمان جميع ما رمى به موسى عنده ، فأغرمه غرماً عظيماً[1] ومن هذا يتّضح أن من جملة ما رمى مغيث به موسى هو أنه لم يتصرّف بأمانة في الغنائم .

فهل كان اتهام موسى بنزاهته حقاً ؟ الحق أن مغيثاً ليس وحده اتّهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق نصوص الشرع في الغنائم ، فقد ذكروا أن سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقيّة ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة المنوّرة ، وكان على الغنائم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن الله أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإنّ موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك » ؛ فغضب سليمان وقام عن سريره ، فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : « نعم . قد أغناني الله بالحلال عن الحرام » ، وأمر بادخال ذلك بيت المال[2] .. ولكن ذلك لا يكفي لاثبات التهمة الموجّهة الى نزاهة موسى ، وهو الذي عرف بالتدين العميق كما سنرى ، ولو ثبت ذلك عليه لما توسّط له عمر بن عبد العزيز عند سليمان فعفا عن موسى[3] ، وعمر ابن عبد العزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف .

ولست أشك أن موسى كان نزيهاً غاية النزاهة ، فقد أغناه الله هو الآخر ، بالحلال عن الحرام ، فلماذا يتردى الى مهاوي الخيانة وقد فتحت عليه أبواب الخير ؟

فما هي الأسباب الحقيقية لاستدعاء موسى الى دمشق وعزله ؟

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرّر بالمسلمين ، وأنه

---

(١) نفح الطيب (١/٢٦٢).

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٨٤).

(٣) انظر الامامة والسياسة (٩٢ – ٩٣).

عرّضهم للمهالك بتغلغله الى حدود بعيدة في الأندلس ، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل الى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين الى رومية [1]، وأن موسى : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض اليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، فنمي هذا الخبر الى الوليد ، فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ؛ فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع ، وكتب له بذلك عهده ؛ ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها [2]. والظاهر أنّ الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكّر عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها ، إذ خشي تغلّب العدوّ عليهم [3]؛ فاذا كان هذا ما يعتقده عمر ابن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية[4] ، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية[5] ، والفتح كان في أوله ، والاندلس جد بعيد عن دار الخلافة ؟

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد خشي على المسلمين في الأندلس بعد إستقرار الفتح فيها ، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان على المسلمين في الأندلس من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً الى رومية والى القسطنطينية ؟

لقد كان طموح موسى في التوسّع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه الى

---

(1) الإمامة والسياسة (٢/٨١).
(2) نفح الطيب (١/٢١٨).
(3) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٩) والأخبار المجموعة (٢٣).
(4) الطبري (٥/٣٠٤).
(5) نفح الطيب (١/٣١٨) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤).

دمشق ، وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهرية لاستدعائه .

وهناك سبب آخر لا يقلّ خطورة عن السبب السابق ، هو اتّهام موسى بالخلع . فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك لما بلغه مسير موسى الى الأندلس ، ووصفت له ، ظن أنه يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ويمتنع بها ، وقيل له ذلك ؛ وأبطأت كتب موسى عليه ، لاشتغاله بما هنالك من العدو ، وتوطئته لفتح البلاد[1] ، مما زاد في شكوك الوليد في نيات موسى هذه في محاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة . ولعلّ الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقيّة والأندلس مما ضاعف تلك الشكوك وجعلها بعيدة عن الحدس قريبة من التصديق.

ولعلّ اتهام موسى بالخلع ، هو الذي يفسّر لنا ، لماذا لم تختلف نظرة سليمان على سلفه الوليد الى موسى مع ما بين السلف والخلف من تناقض كثير كما هو معروف ، ذلك لأن أصحاب السلطان إذا اختلفوا في كل شيء ، فإنهم يتفقون على شيء واحد ، هو عدم التغاضي عن كل من يريد التحرر من ربقتهم والاستقلال عنهم سواء كان إتهامه حقاً بذلك أم باطلاً . كما أنهم كانوا ولا يزالون يدخلون في حسابهم لمقاومة الذين يخرجون عليهم أو الذين يتهمونهم بالخروج زوراً وبهتاناً – يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات ، ويكفي أن يقدموا على أخذ المتهم بذلك في حالات الظن وفي حالات اليقين .

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد ، وقد أراد أن يوليه الأندلس بعد موسى ، فقال : «كيف أمر طارق بالأندلس ؟ »، فقال مغيث : « لو أمر أهلها بالصلاة الى أي قبلة شاءها ، لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا » ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدا له في ولايته[2] ، وهذا يدل بوضوح على السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة ، إذ يستبعد عن الولاية

---

(١) الامامة والسياسة (٧٥/١).

(٢) نفح الطيب (١٢/٤).

كلّ من يخشى خطره من بعيد أو قريب .

وكان يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة ، من أقرب المقرّبين الى سليمان بن عبد الملك ، وكان لموسى يد على المهلب بن أبي صفرة [1]، وقد سأل يزيدُ يوماً موسى : « أريد أن أسألك فاصغ إليّ » ، فقال موسى : « سل عما بَدَا لك » ، فقال : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومُداراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني سليمان بن عبد الملك) بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزخّار [2] ، وتيقّنت بُعد المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها ، واستملكت رجالاً لايعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الإمتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك. ثم إنك علمت أنّ سليمان ولي عهد ، وأنه المولىّ بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لا محالة [3] ؛ وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً) ، وما رضا هذا الرجل إلا بعيد ، ولكن لا آلو جهداً [4] ، فقال موسى : « يا ابن الكرام ! ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت : إذا جاء الحَيْن [5]، غطّى على العين ؟! » . فقال يزيد : « ما قصدت بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن أرى ما عندك ! » ، فقال موسى : « أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْدٍ ، ويقع في الفخّ وهو بمرأى عينه ؟ » [6] .

وسهر يزيد بن المهلّب ليلة عند موسى فقال له : « يا أبا عبد الرحمن !

---

(١) أنظر الامامة والسياسة (٢/٩٤ – ٩٥).

(٢) البحر الزخار : الطامي الممتلىء الجياش بالأمواج .

(٣) أشرف على الهلاك : أراد أنه قارب الموت لسوء حاله .

(٤) لا آلو جهداً : لا أقصر فيما لدي من الجهد والوسع أن أبذله في إرضائه عنك .

(٥) الحين : الهلاك والموت .

(٦) نفح الطيب (١/٢٦٥).

في كم تعتد من مواليك وأهل بيتك ؟ » . فقال له موسى : « في كثير » ، فقال يزيد : « يكونون ألفاً ؟ » ، فقال له موسى : « وألفاً وألفاً الى منقطع النفس » ، فقال له يزيد : « وأنت على ما وصفتَ ، وألقيتَ بيدك إلى التهلكة ؟ ! أفلا أقمت في قرار عزّك وموضع سلطانك ، وامتنعت بما قدمت به ؟ فإن أعطيت الرضى وإلا كنت على عزّك وسلطانك » ، فقال له : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة [1] » .

تلك هي أسباب إستدعاء موسى من الأندلس الى دمشق وعزله ، وهذا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى أخذها على موسى كل من الوليد وسليمان . وأياً كانت أسباب حنق الوليد وسليمان على موسى ، فان فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقّه وفضله ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدّر البطولة في هذا الموطن قدرها [2] . ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان أن موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية وأوروبا وسيطرته على تلك الاصقاع النائية سيطرة شخصية وبأولاده ومواليه وأتباعه ، مما فسح المجال لتقولات خصومه وحاسديه عليه ؛ ومن الواضح أن موسى — في حقيقة أمره — كان بعيداً كل البعد عن الاختلاس ، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي ظن الخلفاء أنه غرّر بالمسلمين وعرّضهم للأخطار ، إلاّ عن رغبته الأكيدة بالفتح ونشر رايات الإسلام مع تمكنه وثقته بقابليته وقابلية رجاله على تحمل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته ، فكان المسلمون في أمن ودعة لا في خطر وشدّة — كما ظنّ الخلفاء بما أوحى اليهم خصوم موسى وحاسدوه . كما أن موسى لم يفكر أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة ، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها ، وشدة ضبطه وابتعاده عن شق

---

(١) البيان المغرب (٢/٢٥ – ٢٦) وانظر البيان المغرب (١/٤٢).

(٢) دولة الاسلام في الأندلس – العصر الأول – القسم الأول. (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩).

عصا الطاعة ، والإنزلاق في مهاوي الفتن والفرقة ، كل ذلك يجعله بعيداً عن اتهام خصومه وحاسديه بالخلع أو الاستقلال الذاتي ، خاصة وأنه في ذلك الوقت كان قد بلغ حوالي الثمانين من عمره ، تلك السن التي لا تشجع على المغامرة وتجعل من صاحبها رجلاً ذا تجربة وخبرة بعيد النظر مقدراً لعواقب الأمور .

لقد ذهب موسى ضحية الدس والحسد ، فخسر العرب المسلمون بتنحيته بطلاً من ألمع أبطالهم ورجلاً من أنبغ رجالاتهم ، وكانت تنحيته نكسة قاصمة للفتح الإسلامي في الأندلس وأوربا .

ولكن ، هل خسر العرب والمسلمون موسى وحده نتيجة للدس والحسد ؟؟!

٣ ــ الرجل :

أ ــ الاداري :

كان موسى إدارياً حازماً ، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقيّة والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة ، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه ، وكان من أولئك الولاة الذين يفكّرون بما يعملون ، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون .

كان حسّان بن النعمان إدارياً ممتازاً كما مرّ بنا ، فلما ارتحل الى المشرق ، اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقيّة والمغرب ، فكثرت الفتن ، وخلت أكثر البلاد ، حتى قدم موسى بن نصير ، فتلافى أمرها ، ولمّ شعثها [1] . قال أبو عتيك في حسّان وخليفته موسى :

أقول لأصحابي عشيّة جاءنا بغير الذي نهوى البريد المبشّر

---

(١) الاستقصا (٨٤/١).

ألا ما الذي غال ابن نعمان دوننا   فقلّ متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوابق عبرة   فنعم الفتى المعزول والمتنظر [1]

وقال عبيد الله بن عوف الخولاني في حسّان وموسى أيضاً :

كنّا نؤمّل حسّاناً وإمرته   حتى أتانا [2] أمير غــير حسّان
النصر يقدمه والحزم سائقه   عفّ الخلائق ماضٍ غير وسنان
الحق نسبته والعدل ســيرته   جزل المواهب معطٍ غير منّان [3]

ولقد صدق الشاعر في وصف مزايا موسى : النصر في ركابه ، والحزم في قراراته ، والخلق الكريم من مزاياه ، والحق رائده ، والعدل سيرته ، والكرم هدفه ، والمواهب السامية خصاله .

كان موسى عاقلاً شجاعاً كريماً[4] ، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام في إفريقيّة والمغرب : ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ثم رجع إلى إفريقيّة ، ولم يبق بالبلاد (المغرب) من ينازعه من البربر ولا من الروم [5] . وقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين [6] . وفي سنة خمس وثمانين الهجرية تمّ إسلام أهل المغرب الأقصى وحوّلوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القِبْلَة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات [7] فاستأمن البربر اليه وأطاعوه [8] . وكان البربر قد ارتدوا اثنتي عشرة مرة من (طرابلس) إلى (طنجة) ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٦).
(٢) في الأصل : أتى ، والصحيح ما ذكرناه أعلاه ، لأن الوزن الشعري لا يستقيم إلا بهذا التصحيح .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/١٤٧).
(٤) نفح الطيب (١/٢٢٤) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٢).
(٥) نفح الطيب (١/٢٢٤).
(٦) البيان المغرب (١/٣٦).
(٧) البيان المغرب (١/٣٧).
(٨) ابن الأثير (٤/٢٠٦).

ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد ، فاستقرّوا هنالك ، فحينئذ استقرّ الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، وتناسوا الردّة[1] .

بهذه الخطّة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الإنسجام الفكري بين البربر والعرب بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر ، فوحّد بذلك صفوفهم وجمع كلمتهم مع إخوانهم العرب المسلمين ، فأصبح البربر مع العرب قوة موحّدة هائلة وجدت لها متنفساً في فتح الأندلس ، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين ، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد هو : إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض، حتى تكون كلمة الله هي العليا .

ومن أعمال موسى الإدارية : أنه ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس ، إذ لم يكد يستقر في (طليطلة) حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلّل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية – التي كانت في ذلك الحين من حقّ الخليفة وحده – إلاّ بأن الخليفة كان قد خوّله هذا الحق في إفريقيّة ، فأباحه لنفسه في الأندلس ، لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقيّة ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة في الأندلس بالعملة الإفريقيّة التي ضربها موسى قبل ذلك سنة تسعين الهجرية ؛ وقد رُسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقيّة : كانت لاتينية عربية ، ففي ناحية منها كتب : (محمد رسول الله) يحيط به النص التالي باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini. non Deux nisi. Solus Spiens. non Deo similis Alius.

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمانية أذرع كتب حولها باللاتينية :

Solidus Feritus in Spania.

---

(١) الاستقصا (١/٨٩).

ويلي ذلك تاريخ سكّها وهو سنة سبع وتسعين الهجرية[1].

ومن أعماله الإدارية التي تتّسم بالطابع العسكري أيضاً، تحسينه (دار الصناعة) التي كانت بمدينة (تونس)، والتي مرّ بنا ذكرها في ترجمة حسّان ابن النعمان. ودار الصناعة هي الدار التي أُعدّت لصناعة السفن لخوض المعارك البحرية ومهاجمة الجزر في البحر الأبيض المتوسط والدفاع عن سواحل إفريقيّة والمغرب، ونقل المواد والمعدات الى المجاهدين في البحر. فقد أمر موسى بدار الصناعة بتونس، وجرّ البحر اليها، فعظّم عليه الناس ذلك. ولكنّ موسى لم يلتفت إلى أقاويل الناس، فوضع يده، وبنى دار الصناعة بتونس، وجرّ البحر إليها مسيرة إثني عشر ميلاً، حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتى للمراكب إذا هبّت الأنواء والأرياح. ثم أمر بصناعة مائة مركب. وحين أصابت مراكب إحدى حملات المسلمين البحرية ريح عاصف، أمر موسى بتلك المراكب ومن نجى من النواتية، فأدخلهم دار الصناعة بتونس[2].

ومن الواضح أن الذي بدأ بإنشاء دار الصناعة بتونس هو حسّان بن النعمان سلف موسى على إفريقيّة والمغرب، وأن موسى حسّن هذه الدار وطهّر القناة التي توصلها بالبحر وجعل قابليتها في إنشاء السفن وتدريب النواتية أكثر كفاية ومقدرة، فأصبح بإمكان هذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهّل على موسى مهمته في جهاده البحري وفي فتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة، نشر اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين والإختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلّم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر

(١) Saovedra. Op. Cit. pp. 106-107. نقلا عن فجر الأندلس (١٠٠ – ١٠١).

(٢) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٢/٦٩ – ٧٠).

الأثر على عروبة المغرب . كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين ، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين للفتح . ولعلّ تولية طارق بن زياد ، وهو بربري ، على أصح الأقوال ، أخطر المناصب القيادية ، خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب ، وأن الكفاية وحدها كانت هي التي تُقدِّم وتؤخر في نظر موسى ، مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقيّة والمغرب أو في ساحات الأندلس وجزائر البحر الأبيض المتوسط .

لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني .

ب ــ لمحات من حياته :

كان موسى من التابعين رضي الله عنه ، روى عن تميم الدّاري وروى عنه يزيد بن مسروق اليحْصُبي[1] ، وعدّه المؤرخون من بين العلماء ورواة العلم[2] .

وكان ورعاً تَقياً لله[3] ، وقد وجد موسى أكثر مدن إفريقيّة خالية لاختلاف أيدي البربر عليها ، وكانت البلاد في قحط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد ابن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟! فقال : « هذا مقام

---

(١) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (٢/١٤٤) وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (٣١٧) وبغية الملتمس (٤٤٢) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٢) والبداية والنهاية (٩/١٧١) وانظر نفح الطيب (١/٢٥٩).

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (٢/١٤٤).

(٣) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢) ونفح الطيب (١/٢٢٤).

لا يدعى فيه لغير الله تعالى » ، فسقوا حتى رووا ورخصت الأسعار[1].
وفي رواية أن موسى لما قحط الناس خرج بالناس فاستسقى ، وأمر رجلاً يصلّي بالناس ، وخطب فيهم ، ثم أخذ في الدعاء للوليد فأكثر ، فأرسل إليه موسى : « إنا لم نأت لذلك ، فأقبل على ما قصدنا إليه وجلسنا من أجله » ، فلم يلتفت إلى كلامه ، وتمادى في حاله رجاء أن يبلغ ذلك الوليد فينال عنده منزلة ، فأمر به موسى فسُحب حتى أخرج من بين الناس ، ثم قام موسى فأخذ بالدعاء[2] .

وكان موسى عربياً فصيحاً ، وقد سبق من مُراجعة يزيد بن المهلّب ما يدل على بلاغته . وقد كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها : « إنها ليست الفتوح ، ولكنّها الحشر »[3] .

وكتب اليه عبد الله بن عبد الملك بن مروان[4] أميرُ مصر رسالة يهدّده فيها ، فكتب إليه موسى : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما وصفت فيه من إركاني إلى أبويك وعمك ، ولعمري إن كنت لذلك أهلاً ، ولو خبرت مني ما خبرا ، لما صغّرت مني ما عظّما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما ، فكيف أتاه الله لك . فأما انتقاصلك لهما فهما لك وأنت منهما ولهما منك ناصر لو قال وجد عليك مقالاً ، وكفاك جزاء العاق . فأما ما نلت من عرضي ، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك . وأما تهدّدك إياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فارعُد وأبرُق لغيري . وأما ما ذكرت مما كنت آتي به عمك عبد العزيز ، فلعمري إني ممّا نسبتني إليه من الكهانة لبعيد ، وإني من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك ، فكأنّك قد أظلّك البدر الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع ، فقد تمّ لها[5]

(١) ابن الأثير (٤/٢٠٦) ورياض النفوس (١/٧٨) ووفيات الأعيان (٤/٤٠٣).
(٢) رياض النفوس (١/٧٨).
(٣) نفح الطيب (١/٢٦٦).
(٤) انظر ترجمته في الولاة والقضاة (٥٨ – ٦٣) والنجوم الزاهرة (١/٢١٠ – ٢١٧).
(٥) الضمير للخلافة .

وتمت له ، ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي ، فلم نشعُر به حتى يحلّ بعِقْوتك[1] ، فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ولا تعود اليه ، فيومئذٍ تعلَم أكاهن أم عالم ، وتوقن أينّا النادم السادم[2] . والسلام[3] » ... وهذه الرسالة لا تدل على بلاغة موسى فقط ، بل تدل على قوة شخصيته وعـدم رضوخه للتهديد والوعيد ، حتى ولو جاء ذلك من أميره المباشر وابن عبد الملك أخ الوليد بن عبد الملك الخليفة القائم .

وقد جرت منازعة بين موسى وبين عبد الله بن يزيد بن أُسيد بمحضر عبد الملك بن مروان ، ألجأت موسى الى أن قال شعراً منه :

جاريت غير شؤم في مطاولة   لو نازع الحفلَ لم ينزِع الى حَصَرِ[4]

وكانت له معرفة مستفيضة بمزايا الأمم وخواصها نتيجة لتجربته الطويلة في الاختلاط بها ومحاربتها . سأل سليمان بن عبد الملك يوماً موسى فيما سأله : «أي الأمم كانوا أشد قتالاً ؟» ، فقال : «إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم ! ». فقال له : « أخبرني عن الروم » ، فقال : « أسود في حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء في مواكبهم . إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبةً فأوعال ، ترقل[5] في أجبال ، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة ! » . قال سليمان : « فأخبرني عن البربر » ، فقال : « هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب : لقاء ونجدة ، وصبراً وفروسية ، وسماحة وبادية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر »[6]. قال : « فأخبرني عن الأشبان[7] » ، فقال :

---

(1) عقة : الشعر الذي يولد عليه كل مولود .
(2) السدم : بفتحتين ، الندم والحزن .
(3) انظر الولاة والقضاة (٦٠ - ٦١) .
(4) نفح الطيب (٢٦٦/١) .
(5) ترقل : رقل في سيره ، أسرع . والمرقال : السريع .
(6) والاسلام هذب من خلقهم ، فأصبحوا كالعرب المسلمين سواء بسواء .
(7) الاشبان : الأسبان وهم سكان اسبانيا .

« ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون » ، فقال : « فأخبرني عن الإفرنج »[١] ، فقال : « هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدّة . والجلد والشدّة ، وبين ذلك أمم كثيرة ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ؛ وكلاً قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزيز البذوخ » ، فقال : « فأخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم ، أكانت عقباً »[٢] ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما هزمت لي راية قط ، ولا فضّ لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة ، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين »[٣] .

وكما كان موسى خبيراً بالأمم نتيجة لتجاربه الطويلة في الحرب والسلام ، كذلك كان خبيراً بالخيل لأنها عدّته الأولى في حربه وفي تنقّله وفي حياتــه العامة والخاصة .

سأل سليمان بن عبد الملك موسى حين قدم من الأندلس : أيّ الخيل رأيتها في تلك البلاد أصبر ؟ » ، فقال : « الشُقر »[٤] . وقال موسى : « إذا كان الأدهم[٥] أحمر العينين ، فانه يُتّهم بالحَرَن[٦] » . وقال موسى : « يُختبر العَسَر بأن يقفز الفرس خندقاً صغيراً سبع مرّات ، فإن رفع في كل المرّات يده اليمنى قبل اليسرى ، فاعلم أنه ليس بأعْسَر » ، والعسر[٧] مما يُكره في الخيل[٨] . وقال موسى : « تُختبر البلادةُ بأن تقف على عشرة

---

(١) الأفرنج : هم الفرنسيون ، سكان فرنسا .

(٢) عاقب بين الشيئين : أتى بأحدهما بعد الآخر . والمراد أن ينتصر مرة ويفشل أخرى .

(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠٠).

(٤) حلية الفرسان وشعار الشجعان (٩٤). وشقرة الخيل : حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب ، فان اسوداً فهو الكميت .

(٥) الدهمة : السواد ، يقال : فرس أدهم أي أسود .

(٦) حلية الفرسان (١٠٨).

(٧) العسر : قال الاصمعي : إذا عمل الرجل بشماله فهو أعسر ، وكذلك الفرس إذا قدم في مشيه شماله .

(٨) حلية الفرسان (١٠٩– ١١٠).

أذرع من الفرس ، وأرمه بخرقة أو ارمِ عِنانه بحصىً ، فإن وقف فاتّهمه ببلادة ، وكذلك إن عطست وأنت راكبه ، أو نفضْتَ بعض ثيابك ، ثم اركبه وألق على الأرض ثوباً أبيض ، وامش به عليه ، فان حَذِرَه فاعلم أنه ذكي النفس ، وإلا فاعلم أنه بليد »[1] .

لقد كان موسى عالماً فذاً ، ولولم تشغله الحروب لكان من ألمع علماء العرب المسلمين ، ولكان له في العلم شأن أي شأن . ومما ساعده على استيعاب مختلف العلوم ، ما كان يتمتّع به من ذكاء خارق وبديهة حاضرة .

حين قال لسليمان : « ما هزمت لي راية قط ، ولا فضّ لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين ، إلى أن شارفت الثمانين » ، قال سليمان : « فأين الراية التي حملتها يوم (مرج راهط) ، مع الضحّاك[2]؟ » ، فأجابه مرسى فوراً : « تلك يا أمير المؤمنين زبيريّة ، وإنما عنيت المروانية » ، فقال سليمان : « صدقت » ، وأعجبه قوله[3] .

وحين كان موسى في موكب سليمان إلى زيارة بيت الله الحرام وإداء فريضة الحج ، وبينما كان يسير يوماً إذ دعا سليمان بموسى ، فدعاه أحد رجال سليمان ، وكان موسى يساير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه . ثم دعا به سليمان، فناداه ذلك الرجل أيضاً ، فلم يلتفت إليه ، فقال له الرجل : « غفر الله لك ! ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟! إني أخافه وأخاف أن يغضب » ، فقال موسى : « ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد ، فأما هذا ، فانه يرضيه ما يرضي الصبي ، ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك » . ثم تقدّم موسى حتى لحق ولصق بسليمان ، فقال له : « أين كنت يا ابن نصير ؟! » ،

---

(١) حلية الفرسان (١١٠).

(٢) هو الضحاك بن قيس الفهري . انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر (٤/٧ – ٩) وانظر تفاصيل يوم مرج راهط في الطبري (٤/٤١٣ – ٤٢٠) وابن الأثير (٤/٥٨ – ٦٠) بين الضحاك ابن قيس الذي كان مع عبد الله بن الزبير وبين مروان بن الحكم وذلك سنة خمس وستين الهجرية .

(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠٠ – ١٠١).

فقال له : « يا أمير المؤمنين ! أين دوابنا من دوابك ! إني لمنذ دعاني أمير المؤمنين لفي كدّ ، حتى لحقت أمير المؤمنين » ، فضحك سليمان وأمر له بدوابّ من مراكبه ، فسايره وحادثه ، ثم انصرف عنه ، فالحق الرجل إليه ، فقال له موسى : « كيف رأيت ؟ » ، فقال : « أنت كنت به أعلم »[1] .

وكان موسى طويلاً جسيماً[2] ، وقد ذكروا أن جماعة من الناس كانوا جلوساً على سطح فسيح عند سليمان بن عبد الملك ، والناس يدخلون ، حتى دخل موسى من الباب ، فتحرّك السقف بالجالسين من شدّة وطئه[3] ولأنه كان بادناً جسيماً به نَسمة[4] لا تزال تعرض له[5] .

أيّ نوع من الرجال كان موسى ؟

لقد كان إدارياً حازماً لا يتكرّر مثله إلاّ نادراً : حازماً في قراراته ، جازماً في أوامره ، ملتزماً بالحق والعدل والإنصاف . وكان عاقلاً ألمعي الذكاء شجاعاً كريماً ، استطاع أن يجعل من شمالي إفريقيّة دولة متماسكة البنيان وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر في إسبانيا والجزر ، لهذه الدولة الناشئة عملة خاصة بها ودار صناعة خاصة بها ، وكان من التابعين ورعاً تقياً عالماً أديباً شاعراً ، وكان خبيراً بالرجال والأمم ...

فلا عجب بعد ذلك أن ينجح في نشر الإسلام في ربوع البربر ، وأن ينجح في مزج العرب والبربر ، وأن ينجح في تكوين (وحدة) سليمة ، ودولة (رصينة) ، وأن يفتح بلاداً شاسعة عبر البحار .

لقد كان موسى نسيج وحده ، وكان رجلاً في أمة ، وأمة في رجل .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/١٠١) .
(٢) الإمامة والسياسة (٢/١٠٢) .
(٣) الامامة والسياسة (٢/١٠١) .
(٤) النسمة : النفس والربو .
(٥) الإمامة والسياسة (٢/٩١) .

جـ - نهاية البطل :

توالت المصائب على الشيخ البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م)، ولعلّ من أعظم ما أصابه مقتل إبنه عبد العزيز في الأندلس، وكان قتله صدر رجب من سنة سبع وتسعين الهجرية[١]. ودخل وفد الأندلس على سليمان ومعهم رأس عبد العزيز بن موسى، فبعث إلى موسى فأتاه، فلما جلس وراء القوم قال له سليمان: «أتعرف هذا الرأس يا موسى؟»، فقال: «نعم! هذا رأس عبد العزيز ابن موسى»، فقام الوفد فتكلموا بما تكلموا به؛ ثم إنّ موسى قام فحمد الله، ثم قال: «وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين، فرحمة الله تعالى عليه، فلعمر الله ما علمته نهاره إلا صوّاماً، وليله إلا قوّاماً، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين...[٢]»، ثم قال: «هنيئاً له الشهادة، قتلتم والله صوّاماً قوّاماً»[٣]. وهذا موقف بطولي آخر لموسى لا يقلّ روعة عن مواقفه الأخرى في الفتوح، موقف الصابر المحتسب، الذي يصدع بالحق غير وجل ولا هيّاب.

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية حجَّ بالناس سليمان بن عبد الملك[٤]، فأمر سليمان موسى بالشخوص والحج معه، فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً[٥] موقورة جهازاً، وبحجرة من حجره وجائزة، فحجّ سليمان، وحجّ معه موسى[٦]، فتوفي موسى في (وادي القرى)[٧]، سنة سبع وتسعين الهجرية[٨] (٧١٨ م) وكان عمره

(١) البيان المغرب (٣١/٢).
(٢) الإمامة والسياسة (٩٧/٢).
(٣) البيان المغرب (٣٢/٢).
(٤) العبر (١١٥/١) وشذرات الذهب (١١٢/١).
(٥) نجيب: الفاضل على مثله، النفيس في نوعه، ونجائب الإبل: خيارها.
(٦) الإمامة والسياسة (١٠١/٢).
(٧) وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٨).
(٨) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجذوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتمس =

حين توفي ثمان وسبعين سنة قمرية ، لأنه ولد سنة تسع عشرة هجرية كما مرّ بنا ، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[1] .

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة ، ذلك لأنه : «كان قد جمع من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلّد، الذي لا يبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديده بلي الأعصار »[2] .

« رحمه الله ! فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحّم عليه ، وإنّ فعلَ سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه موسى نائباً عنه في الأندلس ، وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وَصَمَاته[3] التي تُعَدّ عليه طول الدهر »[4] .

الثالث :

ذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس ، فلما رآه سليمان قال : « ذهب سلطان الشيخ » . وأبصره موسى حين تكلّم ، فلم يفهم ما قال ؛ فلما سلّم قال : « يا أمير المؤمنين ! رأيتك لما نظرتني داخلاً تكلّمت بكلام ظننتك عنيتني به ! » . قال : « نعم . قلت : ذهب سلطان الشيخ » . قال له موسى : « أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ ، لقد أثر الله به في دينه أثراً حسناً ، ولقد كنت طويل الجهاد في الله ، حريصاً على إظهار دين الله ،

= (٤٤٢) والحلة السيراء (٢/٣٣٤) والعبر (١/١١٥ - ١١٦) وشذرات الذهب (١/١١٣) ونفح الطيب (١/٢٥٤).

(١) البيان المغرب (٢/٢٨) وفي الإمامة والسياسة (٢/١٠٢) : أن الذي صلى عليه هو سليمان بن عبد الملك .

(٢) نفح الطيب (١/٢٦٨) .

(٣) من وصماته : في قوله : « وإن فعل سليمان » ، والوصمات : العيوب ، واحدها وصمة ، بفتح الواو وسكون الصاد في المفرد .

(٤) نفح الطيب (١/٢٦٦).

حتى أظهره الله ؛ وكنتُ ممن أتمّ الله به موعده لنبيه . ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضر الغصن ، ميمون الطائر » ، فقال سليمان : « هو ذاك ؟! » ، فقال موسى : « وهو ذاك » ؛ فلم يزل يردّدها سليمان ، ويردّدها موسى ، حتى سكت سليمان[1] .

وصدق موسى فيما قاله سواءً صحّ هذا الخبر أم لم يصحّ ، فان أعمال موسى هي الدليل الذي ما بعده دليل على صدقه : فقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد فتكلّل جهاده بثمرات يانعة من الفتح الضخم الذي يضعه في مصاف أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين .

فما هو أسلوب موسى في القيادة ؟

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى : « ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوّك ؟ » . قال : « التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنت تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ » . قال : « كل هذا لم أفعله ! » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » . قال : « كنت أنزل السهل ، واستشعر الخوف والصبر ، واتحصّن بالسيف والمِغْفَر[2] ، وأستَعِينُ بالله ، وأرغب إليه في النصر » . فقال له سليمان : « فمن كان من العرب فرسانك ؟ » فقال : « حِمْيَر »[3] ، قال : « فأيّ الخيل رأيت في تلك البلاد أصبر ؟ » ... ويمضي سليمان في أسئلته عن الأمم المختلفة ومزاياها في القتال ، ويمضي موسى في أجوبته عن مزايا الأمم الحربية أجوبة مجرِّب حصيف لا أجوبة نظري حالم ، وشتان بين المجرِّب العملي ، والنظري الحالم[4] .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٩٩ — ١٠٠) .

(٢) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٣) حمير : هو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٣٢ — ٤٣٨) و (٢٧٨) .

(٤) انظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٢/١٠٠) والبيان المغرب (٢/٢٦ — ٢٧) .

لقد أجاب موسى في حديثه إلى سليمان عن مزاياه القيادية ، ولعلّ مجمل ما جاء في جواب موسى لسليمان هو : « أن موسى جعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والإستعانة به والتوكّل عليه ، والفزع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر . وأنه كان قائداً (تعرّضياً) يهاجم عدوّه دائماً ولا يؤمن بالدفاع . وأنه كان قائداً يستشعر الخوف من عدوه ولا يستهين به ، لذلك يعدّ له ما يستطيع من قوّة ومن رباط الخيل ، ويصبر على قتاله . وأنه يعتمد على (حِمْيَر) فرساناً له وقوة ضاربة لعدوّه وهم مَنْ هم رجولةً وبسالة وتضحية وفداء .

وأنه كان يعرف مزايا الأمم التي يقاتلها ، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة . وأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحرب وما لا يُستفاد !

تلك هي بعض مزايا قيادة موسى ، فإذا أضفنا إلى مزاياه تلك تجربته الطويلة في معاناة الحروب ، وأنه كان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة في الحرب[1] ، وأنه كان شجاعاً[2] ، أدركنا أسباب ما ذكره المؤرخون عن موسى : « إنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط حتى مات »[3] ، وإنه : « لم يبق في إفريقيّة والمغرب من ينازعه من البربر ولا من الروم »[4] .

لقد كان بعيد النظر يحسب لكل أمر حسابه ، فكان يهيء لكل قوة من قواته الأسلحة والعدّة الكاملة[5] قبل خوض غمار الحرب ، فإذا فتح مدينة أو بلاداً ، ترك فيها من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو[6].

---

(١) البداية والنهاية (٩/١٧١).

(٢) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢).

(٣) وفيات الأعيان (٤/٤٠٢) والإمامة والسياسة (٢/٨٠).

(٤) وفيات الأعيان (٤/٤٠٣).

(٥) وفيات الأعيان (٤/٤٠٣).

(٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).

وأدرك موسى بثاقب فكره ، أن سواحل إفريقيّة والمغرب الواسعة معرّضة للغزو من البحر سواء كان الغزو من البيزنطيين أو من سكان جزر البحر الأبيض المتوسط أومن بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذلك اهتمّ غاية الإهتمام بتّرصين دار الصناعة في تونس لصنع السفن وإدامتها وإعداد النواتية ؛ فأفاد من ذلك في تنقل قطعاته لغزو البحر أولاً ، ولـتكون تلك السفن والمرابطون من المسلمين في السواحل البحرية قوة ضاربة تدافع عن سواحل أرض المسلمين في شمالي إفريقيّة ؛ ذلك لأن موسى بما عرف عنه من مهارة حربية قدّر أن الهجوم على عدوّه المتربّص في جزر بحر الأبيض المتوسط وفي الأندلس هو أحسن وسائل الدفاع عن بلاد المسلمين في شمالي إفريقيّة ، والهجوم أجدى وسائل الدفاع كما تنص كتب التعبية العسكرية الحديثة عليه. وفعلاً ، فقد أجدت تدابير موسى هذه ؛ فلم تتعرّض إفريقيّة والمغرب في أيامـه لهجمات الأعداء ، كما حدث في أيام أسلافه منذ بدأ الفتح الإسلامي حتى تولى موسى بن نصير أمر شمال إفريقيّة ... بل كان موسى في مهمته أبعد مدى من ذلك ، إذ توسّع في فتوحه عبر البحر في الجزر والأندلس ، وأصبح أعداؤه مهددين في عقر ديارهم !... فكانت فتوحه عبر البحر –كما وصفها موسى – : « إنها ليست كالفتوح ، ولكنه الحشر » .

ومن مزايا قيادة موسى ، أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة ، فقد كان ماهراً في الحصار وفي قتال المدن . بعث سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة ابن عبد الملك إلى أرض الروم ، ووجّه معه خمسمائة وثلاثين ألف رجل ، وخمسمائة ممن ضمّه الديوان واكتتب في العطاء ، وتقلّب في الأرزاق . ودعا سليمان بموسى بعد أن رضي عنه على يد عمر بن عبد العزيز ، فقال سليمان له : « أشر عليّ يا موسى ، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل الله ، بعيد الأثر ، طويل الجهاد » ، فقال له موسى : « أرى يا أمير المؤمنين أن توجّهه بمن معه ، فلا يمرّ بحصن إلا صيّر عليه عشرة آلاف رجل ، حتى يفرّق نصف جيشه ؛ ثم يمضي بالباقي من جيشه ، حتى يأتي القسطنطينيّة ،

فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين » . فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى[1] .

هذه التعليمات العسكرية ، تدلّ بوضوح على ميزتين من مزايا قيادة موسى ، بالإضافة إلى مزيتيه الأخريين وهما : معرفته قتال المدن، ومعرفته أساليب الحصار ... وهاتان الميزيتان الجديدتانمهمّتان لكل قائد ناجح ، وهما : العناية بحماية خطوط المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد . فبقاء قوة جسيمة لحصار كل حصن منيع يجبر العدو على تخصيص قوة مناسبة لذلك الحصن من أجل حمايته ، كما أن القوة التي تطوّق الحصن تشل ذلك الحصن وتحول بين قواته المخصصة لحمايته وبين محاولتها قطع خطوط مواصلات المسلمين .

واهتمام موسى بتأمين خطوط مواصلاته وحمايتها ، كما لمسنا ذلك فعلاً في حروبه وكما رأينا ذلك في تعاليمه العسكرية ، يجعلنا نتساءل : كيف كان يطمح موسى أن يقود رجاله إلى (رومية) ليفتحها[2]؟.. وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدى أبعد من ذلك . فيقود رجاله مخترقاً ما بين الأندلس والقسطنطينية فاتحاً ما بينهما من أوربا ؟ فقد : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دُروبه ودُروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، الى أن يلحق بدار الخلافة » ، فنمي الخبر إلى الوليد بن عبد الملك، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والإنصراف ، ففتَّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها[3].

وليس من شك ، أن هناك صعوبات جسيمة وأخطاراً هائلة — من الناحية

---

(١) الإمامة والسياسة (٨٨/٢).
(٢) الإمامة والسياسة (٨١/٢).
(٣) نفح الطيب (٢١٨/١).

العسكرية ــ لتحقيق طموح موسى في فتح (رومية) والوصول إلى الشام عن طريق (القسطنطينية) من الأندلس ، ولكن هل مثل موسى في تجربته الطويلة المنتصرة في الحروب ، وفي مزاياه القيادية الفذة التي لا شك فيها ، يغرِّر بالمسلمين ولا يحسب حِسَابَ ما يحتاجه من قوات ومن قضايا إدارية لتحقيق مطامحه التوسعية في الفتح ونشر الإسلام ؟

من الواضح ، أن موسى نجح نجاحاً باهراً في السيطرة على شمالي إفريقيّة ، وأنه نجح نجاحاً باهراً في نشر الإسلام بين البربر الذين حسن إسلامهم ، فاستعمل عليهم مولاه طارق بن زياد البربري[1] ، فأصبحت لديه قوات جسيمة لا ينضب معينها من البربر المسلمين ؛ فكان مما ميّز فتح الأندلس على غيره من الفتوح العربية حتّى ذلك الوقت ، هو إشتراك المغاربة إلى جانب العرب إشتراكاً ايجابياً في هذا الفتح ؛ وهذا عمل عظيم من غير شك ، يشهد للعرب المسلمين بالمجد والفخار ، إذ نجحوا في إداء رسالتهم رسالة الإخاء والمساواة، فاكتسبوا إلى جانبهم أهل البلاد قلباً وقالباً ، فأصبح البربر المسلمون أشدّ حماسة من العرب المسلمين لتحقيق أهداف الإسلام ، فقاموا إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين ينشرون الرسالة الإسلامية في اوربا ، ويبذلون المهج والنفوس رخيصة في هذا السبيل[2].

فإذا نجح موسى في إيجاد قيادة ممتازة من البربر المسلمين ، وإيجاد عناصر مقاتلة ضخمة من البربر المسلمين ، تعمل تلك القيادة متعاونة إلى جانب القيادة العربية ، وتعمل تلك القوات متعاونة إلى جانب القوات العربية ، مع امتياز قوات البربر على القوات العربية بكثْرتها أولاً وبقرب بلادها من مناطق الفتح الجديدة ثانياً ، وإمكان إدامة القوات البربرية بالرجال والمعدّات بسهولة ويسر ــ كلّ ذلك يجعلنا نرجح أن مطامح موسى لها ما يبرِّرها وما يحقّق أهدافها ؛ خاصة وأن استكمال فتح الأندلس ، جعل منها قاعدة متقدمة

---

(١) انظر وفيات الأعيان (٤/٣٠٥).

(٢) انظر تاريخ المغرب العربي (٢٢٠).

أمامية للمسلمين يستندون عليها في فتوحاتهم الأوربية الأخرى ، كما أن موارد الأندلس وغنائم المسلمين منها تمد المسلمين بما يحتاجون إليه من القضايا الإدارية ...

إنّ أعمال موسى العسكرية كلّها تدلّ على أنّ خطواته في الفتح كانت متزنة جداً ، فليس من الصدفة مطلقاً أنه لم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

في المغرب وإفريقيّة قضى على كل مقاومة معادية من البربر ومن الروم في الصفحة الأولى من أيام جهاده . وفي الصفحة الثانية من ذلك الجهاد وبعد استتباب الأمن في ربوع شمالي إفريقيّة ، وبعد أن استأمن البربر وبذلوا الطاعة ، فقبل منهم وولّى عليهم والياً واستعمل على (طنجة) وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري ، وترك معه تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، رجع إلى إفريقيّة ، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم[1] . وبكلام آخر بعد أن وحّد البلاد وأشاع فيها الإنسجام الفكري بنشر الإسلام في ربوعها ، وقام بعملية المزج الفكري بالإسلام عقيدة وتضحية وفداء ، أصبح البربر المسلمون قوّة جبارة للعرب المسلمين لا عليهم ، وجدت لها متنفساً في الفتح عبر البحر . وبذلك تطوّرت خطط موسى العسكرية من الدفاع إلى الهجوم ، ومن التقيّد بشمال إفريقيّة إلى التطلّع إلى فتح جديد .

وحين رأى الوقت مناسباً لفتح الأندلس ، لم يندفع اندفاعاً أعمى على غير هدى ولا بصيرة ، بل بذل قصارى جهده لتنظيم دار الصناعة بتونس لتكون قادرة على إعداد السفن والملاّحين ، وأفاد من المنابع المتيسرة الأخرى للسفن والملاّحين ، ثم بعث (طريفاً) سنة إحدى وتسعين الهجرية بالسرايا حتى لا يغرّ بالمسلمين لاختبار إمكانية فتح الأندلس . فلما نجح طريف في

---

(١) وفيات الأعيان (٤٠٣/٤).

مهمته ، بعث طارق بن زياد سنة اثنتين وتسعين الهجرية بقوّات ضاربة إلى الأندلس ؛ وحين نجح طارق في مهمّته وخشي موسى على طارق وقواته من أخطار التغلغل بعيداً في الفتح داخل الأندلس ، أقدم موسى على العبور بنفسه مع قواته الضاربة الأخرى ، وتعاون مع طارق – كما رأينا – في تحقيق أهداف الفتح في الأندلس ، وكانت فتوح موسى في تسلسلها الزمني والجغرافي تسير حسب خطّة مرسومة دقيقة واضحة الأهداف جليّة المعالم بعيدة عن التهوُّر والأخطار .

ترى ! لو بقي موسى على رأس رجاله في الأندلس ، فهل كان بإمكانه تحقيق مطامحه التوسعية ؟

كلُّ الدلائل تدلّ على أن موسى ، لم يكن من أولئك القادة المتهورين الذين يلقون بأنفسهم وبرجالهم إلى التهلكة ، وتاريخ جهاده الطويل أكبر دليل على إثبات اتزانه في حروبه ، وأنه كان من أولئك القادة البعيدي النظر ، الذين يتبيّنون مواطىء أقدامهم قبل أن يتقدّموا خطوة واحدة إلى الأمام .

ولعلّ موسى وجد الطاقات البشرية الهائلة المتمثلة في البربر المسلمين ، والطاقات الإدارية الغنية المتمثلة في موارد شمال إفريقيّة والأندلس ومغانمهما الضخمة ، فأراد أن يسخِّر كلّ تلك الطاقات البشرية والإدارية في تحقيق فتوح جديدة عبر أوربا إلى رومية من جهة وإلى القسطنطينية من جهة أخرى ، فيحقّق حلماً طالما راود الخلفاء منذ أيام معاوية بن أبي سفيان الذي توغل سنة اثنتين وثلاثين الهجرية في أرض الروم ، فالتقى بالروم قريباً من القسطنطينية[1] ، ثم أرسل جيشاً خاصاً لفتح القسطنطينية سنة تسع وأربعين الهجرية[2] – وذلك بفتح القسطنطينية عبر أوربا بدلاً من فتحها من أرض الشام كما حاول الخلفاء من قبله ، فيقضي موسى على عاصمة البيزنطيين الذين كانوا خطراً حقيقياً يهدّد سلامة دولة

---

(١) العبر (٣٢/١).
(٢) الطبري (١٧٣/٤) وابن الأثير (١٨١/٣).

الإسلام في عقر دارها ... بل يذهب موسى الى أبعد مما كان يحلم به الخلفاء من قبله ، وهو محاولة فتح رومية أيضاً ، وبذلك يسيطر على أقوى عاصمتين من عواصم أعداء المسلمين .

مما تقدّم نستطيع أن نتبيّن بوضوح الحقائق التالية :

أولاً : إنّ موسى كان قائداً فذاً له قابليات ممتازة في القيادة .

ثانياً : إنه كان قائداً واقعياً بعيداً عن الخيال ، وإنه إذا قال فعل .

ثالثاً : إنه لم يكن من الذين يغرّرون برجالهم في الحروب من أجل الأمجاد الشخصية أو المكاسب الذاتية .

رابعاً : لذلك فتحقيق أحلامه في فتح القسطنطينية من الغرب ورومية – على الرغم من صعوبة ذلك وعظم متطلباته وتكاليفه من الرجال والقضايا الإدارية – كان بمقدور موسى أن ينجح بتحقيقها نظراً لمنابع الطاقات البشرّية الهائلة المتيسّرة لديه – خاصة من البربر الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ونظراً لقابليات القادة المتيسرين لديه – مثل طارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى بن نصير – ونظراً لمنابع الطاقات الإدارية الضخمة التي استحوذ عليها في الأندلس وشمال إفريقيّة .

خامساً : إنّ عزله عن قيادته وسحبه من الأندلس وهو في أوج انتصاراته خسارة لا تعوّض للمسلمين ، فقد حرم دولة الإسلام من نشر دين الله في أوربا ومن فتح بلاد شاسعة في أوربا أيضاً .

وقبل أن نختم تقدير مزايا موسى القياديّة ، لابدّ لنا من الإشارة إلى ناحية مهمّة من مزاياه ، وهي أنه كان قائداً يستأثر بالخطر دون أصحابه في الحرب ، وأنه كان دائماً في الأمام يصطلي بنار الحرب أكثر من كلّ قائد من قادته ومن كلّ رجل من رجاله ؛ لذلك فقد كان موسى يضرب بمثاله الشخصي لرجاله وقادته معاً أروع الأمثال في التضحية والإقدام ، ويكون دائماً مثالاً شخصياً لقواته في الشجاعة والبسالة يحتذون حذوه ويقتدون به .

ذكروا أن جعفر بن الأشتر قال : «كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيماً ، بضعاً وعشرين ليلة ، ثم لم نقدر عليه . فلما طال ذلك عليه ، نادى فينا : أن أصبحوا على تعبئة ! وظننا أنه قد بلغه مادة من العدو ، وقد دنت منا ، وأنه يريد التحوّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئة ، فقام فحمد الله ، ثم قال : أيها الناس ! إني متقدّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرت وحملت ، فكبّروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله ! أترى فقد عقله أم عزب عنه رأيه ؟! يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه ؟! فتقدّم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره ، فاستعددنا . ثم إن موسى كبّر وكبّر الناس ، وحمل وحمل الناس ...»[1] .

ولو ذهبنا نستقصي عدد مرات إقدامه على مهاجمة العدو أمام صفوف رجاله ، لطال تعداد مواقفه البطولية الفذّة .

إنه من أولئك القادة الذين لم يكونوا يعرفون للمستحيل معنىً ، وما أقلّ أمثاله من القادة الذين لا يحنون رؤوسهم للأهوال والصعاب .

وعند مقارنة ما سبق ذكره من أعمال موسى العسكرية ، بمبادىء الحرب ، يتّضح لنا ، أن موسى ، كان يطبق مبدأ (إختيار المقصد وإدامته) ، فقد كانت له أهداف واضحة في حربه توصله في النهاية إلى تحطيم إرادة العدو على القتال . وكان يطبق مبدأ (التعرّض) ، بل هو في حروبه كان قائداً تعرضياً مثالياً ، فلم يدافع في حياته العسكرية مطلقاً ، وكان دائماً يهاجم عدوّه . وكان يطبق مبدأ (المباغتة) كلما وجد إلى ذلك سبيلا . وكان يطبق مبدأ (تحشيد القوة) ، فيحشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدام كل ذلك في الزمان والمكان الحازمين . وكان يطبّق مبدأ (الأمن) ويوفّر الحماية لقواته ولخطوط مواصلاته من أجل وقايتها من مباغتة العدو لها ، وفعلاً لم

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٧٩).

يستطع العدو أن يباغت قوات موسى في كلّ حياته العسكرية . وكان يطبّق مبدأ (المرونة) لكي يُيَسِّر لقواته قابلية ممتازة للحركة براً وبحراً . وكان يطبّق مبدأ (التعاون) بين صفوف جيشه وبين قادته وبين أرتال قواته المتقدّمة بحيث يجعلها تحقق أهدافها بأقرب وقت وبأقل خسائر مادية ومعنوية . وكان يطبّق مبدأ (إدامة المعنويات) ، فيشيع في قطعاته الثقة بالنفس وبالقيادة والإعتماد على نصر الله . وكان يطبق مبدأ (الأمور الإدارية) فييسّر لقواته إعاشتها وعتادها وسلاحها ونقليتها ومتطلّباتها الإدارية الأخرى كافة في مختلف الظروف والأحوال .

لقد كانت لموسى قابلية فذّة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، وكان شجاعاً مقداماً قوي الإرادة ثابتها ، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردّد ولا يلقيها على عواتق الآخرين . وكان يعرف مبادىء الحرب ويطبقها بكفاية ومقدرة ، وكانت له نفسية لا تتبدّل في حالتي النصر والإندحار . وكان بعيد النظر ، له معرفة مستفيضة بنفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ونفسية رؤسائه وقابلياتهم ، وبمزايا الأمم والشعوب التي يحاربها ، وبمزايا الخيل والسلاح الذي يستعمله . وكان يثق برجاله ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب . وكانت له شخصية نافذة قوية وقابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيد .

تلك هي مجمل مزايا قيادة موسى ، وهي الجواب الواضح عن أسباب انتصاراته المتوالية الكثيرة ، بحيث لم تردّ له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

إنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي ، بل كان من الطبقة الأولى من أولئك القادة : طبقة خالد بن الوليد المخزومي والمثنى بن حارثة الشيباني وقتيبة بن مسلم الباهلي .

لقد كان موسى جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً ، وكان ولا يزال وسيبقى

من مفاخر التاريخ الإسلامي فاتحاً وإدارياً ، وقائداً وإنساناً .

موسى في التاريخ :

يذكر التاريخ لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط .

ويذكر له أنه رصّن الفتح الإسلامي في المغرب العربي ، فأصبحت شمال إفريقية عربياً إسلامياً الى الأبد .

ويذكر له أنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا .

ويذكر له أنه نشر العربية لغة والإسلام ديناً في شمال إفريقيّة وفي الأندلس.

ويذكر له أنه كان من أعـاظم قادة الفتح الإسلامي .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الإداري الحازم ، البطل المغوار ، القويّ الأمين ، القائد الفاتح ، موسى بن نصير اللّخْمي .

المصادر والمراجع



المصـــادر

(أ)

١ ـ ابن كثير (تفسير) ـ الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير ـ مطبعة المنار ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

٢ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ زكريا بن محمد القزويني ـ مطبعة دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ .

٣ ـ أخبار مجموعة في فتح الاندلس ـ مؤلف مجهول ـ نشره دون لافونتي القنطرة (Don Lafuente Alcantara) في مجموعة (Obras Arabigas) التي تصدرها «الأكاديمية التاريخية الملكية» ـ الجزء الأول ـ مدريد ـ ١٨٦٧ م .

٤ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ المقدسي المعروف بالبشاري ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٩٠٦ م .

٥ ـ الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ـ أحمد بن خـــالد الناصري السلاوي ـ القاهرة ـ ١٣١٠ هـ .

٦ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة .

٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصّحابة ـ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب بعز الدين ـ المطبعة الاسلامية ـ طهران ـ ١٣٧٧ هـ .

٨ ـ أسماء الصحابة الرّواة ـ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ

ملحق بجوامع السّيرة ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة .
٩ ـ الإصابة في تمييز الصّحابة ـ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .
١٠ ـ الأعلاق النفيسة ـ أبو علي أحمد بن عمر بن رستة ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٨٩١ م .
١١ ـ الإمامة والسياسة ـ المنسوب إلى أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٧ هـ ـ الطبعة الثانية .
١٢ ـ أنساب الأشراف ـ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ تحقيق الدكتور محمد حميد الله ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م ـ الجزء الأول .

(ب)

١٣ ـ البداية والنهاية في التاريخ ـ عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة .
١٤ ـ البغوي (تفسير) ـ الإمام البغوي ـ مطبعة المنار ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ ـ مطبوع تحت صفحات تفسير ابن كثير .
١٥ ـ بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ـ يحيى بن محمد بن خلدون ـ الجزائر ـ ١٣٢١ هـ .
١٦ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ـ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ـ مطبعة روخس ـ مجريط ـ ١٨٨٤ م .
١٧ ـ البلدان ـ أحمد بن يعقوب ـ مطبعة ليدن ـ ليدن ـ ١٨٩٢ م .
١٨ ـ البيان المغرب في أخبار المغرب ـ أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي ـ مكتبة صادر ـ بيروت .
١٩ ـ البيضاوي (تفسير) ـ القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد

الشيرازي البيضاوي — دار الكتب العربية الكبرى بمصر — القاهرة — ١٣٣٠ هـ .

(ت)

٢٠ — تاريخ افتتاح الأندلس — أبو بكر محمد المعروف بابن القوطيّة القرطبي — تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع — دار النشر للجامعيين — بيروت .
٢١ — تاريخ الأمم والملوك — أبو جعفر محمد بن جرير الطبري — مطبعة الاستقامة — القاهرة — ١٣٥٨ هـ .
٢٢ — تاريخ الخلفاء — عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي — المطبعة المنيرية — القاهرة — ١٣٥١ هـ .
٢٣ — تاريخ الخميس — حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري — مطبعة عثمان عبد الرازق — القاهرة — ١٣٠٢ هـ — الطبعة الأولى .
٢٤ — تاريخ العلماء والرواة بالأندلس — أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن القرضي — مكتبة الخانجي — القاهرة — ١٣٧٤هـ.
٢٥ — تاريخ اليعقوبي — أحمد بن يعقوب — مطبعة الغري — النجف — ١٣٥٨هـ.
٢٦ — تجريد أسماء الصحابة — أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين — مطبعة دار المعارف النظامية — حيدر آباد الدكن — ١٣١٥ هـ — الطبعة الأولى .
٢٧ — تقويم البلدان — اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة — دار الطباعة السلطانية — باريس — ١٨٤٠ م .
٢٨ — تهذيب الأسماء واللغات — الإمام النووي — المطبعة المنيرية — مصر .
٢٩ — تهذيب التهذيب — الإمام ابن حجر العسقلاني — مطبعة دار المعارف النظامية — حيدر آباد الدكن — ١٣٢٦ هـ .

(ج)

٣٠ — جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس — أبو عبد الله محمد بن فتوح

ابن عبد الله الحميدي ــ مطبعة الخانجي ــ القاهرة ــ ١٣٧٢ هـ .
٣١ ــ جمل فتوح الإسلام ــ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ملحق بجوامع السيرة .
٣٢ ــ جمهرة أنساب العرب ــ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ــ تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ١٣٨٢ هـ .

(ح)

٣٣ ــ الحلّة السيراء ــ أبو عبد الله محمد المعروف بابن الأبار ــ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .
٣٤ ــ حلية الفرسان وشعار الشجعان ــ علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي ــ تحقيق محمد عبد الغني حسن ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٥١ م.

(خ)

٣٥ ــ الخلاصة النقية في أمراء إفريقيّة ــ أبو عبد الله محمد بن الباجي المسعودي ــ مطبعة بيكار ــ تونس ــ ١٣٢٣ هـ .

(د)

٣٦ ــ دول الإسلام ــ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٣٦٨ هـ .

(ذ)

٣٧ ــ ذيل المذيّل ــ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ــ مطبعة الإستقامة ــ القاهرة ــ ١٣٥٨ هـ ــ طبع في آخر تاريخ الطبري .

(ر)

٣٨ ــ الروض الآنف ــ شرح السيرة النبوية لابن هشام ــ أبو القاسم عبد

الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي ـ مطبعة الجمالية ـ القاهرة ـ ١٣٣٣ هـ .
٣٩ ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ـ أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي ـ نشره الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.

(س)

٤٠ ـ سير أعلام النبلاء ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ مطبعة المعارف ـ القاهرة .
٤١ ـ السيرة الحلبيّة ـ علي الحلبي الشافعي ـ مطبعة مصطفى محمد ـ القاهرة .
٤٢ ـ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

(ش)

٤٣ ـ شذرات الذهب ـ ابن عماد الحنبلي ـ مطبعة القدسي ـ القاهرة ـ ١٣٥٠هـ .

(ص)

٤٤ ـ صفة جزيرة الأندلس ـ منتخبة من كتاب : « الروض المعطار في خبر الأقطار » ـ أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ـ نشره الاستاذ ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ م .

(ط)

٤٥ ـ طبقات ابن سعد ـ ابن سعد ـ دار بيروت وصادر ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ .

(ع)

٤٦ ـ العبر ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ـ تحقيق فؤاد سيد ـ مطبعة الكويت ـ الكويت ـ ١٩٦١ م .

٤٧ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ــ عبد الرحمن بن خلدون المغربي ــ مطبعة بولاق ــ القاهرة ــ ١٢٨٤ هـ .

(ف)

٤٨ ــ فتوح مصر والمغرب ــ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي ــ مطابع لجنة البيان العربي ــ القاهرة .
٤٩ ــ فتوح البلدان ــ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

(ك)

٥٠ ــ الكامل في التاريخ ــ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ــ مطبعة ذات التحرير ــ القاهرة ــ ١٣٠٣ هـ .
٥١ ــ الكشّاف (تفسير) ــ الإمام أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري ــ مطبعة بولاق ــ القاهرة ــ ١٣١٩ هـ ــ الطبعة الثانية .

(م)

٥٢ ــ مجلة المجمع العلمي العراقي ــ المجلد الثالث ــ الجزء الثاني ــ ١٣٧٤ هـ .
٥٣ ــ المختصر من أخبار البشر ــ اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة ــ المطبعة الحسينية ــ القاهرة ــ ١٣٢٥ هـ .
٥٤ ــ مختصر كتاب البلدان ــ أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه ــ مطبعة ليدن ــ ليدن ــ ١٨٨٥م .
٥٥ ــ مختصر سياسة الحروب ــ الهرثمي ــ تحقيق عبد الرؤوف عون ــ مطبعة مصر ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .
٥٦ ــ المسالك والممالك ــ أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي ــ تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسيني

ـ مطابع دار القلم ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ .
٥٧ ـ المسالك والممالك ـ أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة ـ أعادت مكتبة المثنى طبعه في طهران ـ ١٩٦٣ م .
٥٨ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ـ طبع سنة ١٨٤٦ م وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه سنة ١٩٦٣ م .
٥٩ ـ المعارف ـ ابن قتيبة ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .
٦٠ ـ معالم الإيمان ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ـ تونس ـ ١٣٢٠ هـ .
٦١ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ عبد الواحد المراكشي ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ .
٦٢ ـ المغرب في حلى المغرب ـ ابن سعيد الأندلسي ـ الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ م .
٦٣ ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري . طبع دي سلان (De Slan) ـ الجزائر ـ ١٩١١ م .
٦٤ ـ المواعظ والاعتبار ـ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ـ القاهرة ـ ١٢٧٠ هـ .
٦٥ ـ المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ـ ابن أبي دينار القيرواني ـ طبعة تونس ـ تونس ـ ١٢٨٦ هـ .

(ن)

٦٦ ـ النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردى الأتابكي ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٨ هـ .
٦٧ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ الشريف الإدريسي ـ نشره دوزي ودي جوجة ـ ليدن ـ ١٨٦٦ م .
٦٨ ـ نسب قريش ـ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ م .

٦٩ ـ نص جديد عن فتح العرب للمغرب ـ عبيد الله بن صالح ـ نشره الاستاذ ليفي بروفنسال وعلّق عليه الدكتور حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ـ ١٩٥٤ م.
٧٠ ـ نفح الطيب ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ ـ الطبعة الأولى.
٧١ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ أبو العباس أحمد القلقشندي ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م ـ الطبعة الأولى.

(و)

٧٢ ـ وفيات الأعيان ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ ـ الطبعة الأولى.
٧٣ ـ الولاة والقضاة ـ أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ـ ١٩٠٨ م.

المــــراجع

(أ)

١ ــ أطلس التاريخ الإسلامي ــ هاري . و . هازارد ــ ترجمة ابراهيم زكي خورشيد ــ مطبعة مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة .

٢ ــ الأعلام ــ خير الدين الزركلي ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ هـ ــ ١٣٧٨ هـ .

(ت)

٣ ــ تاريخ الجزائر العام ــ عبد الرحمن محمد الجيلالي ــ المطبعة العربية ــ الجزائر ــ ١٣٧٥ هـ .

٤ ــ تاريخ الجزائر في القديم والحديث ــ مبارك بن محمد الهلالي الميلي ــ مطبعة النهضة الجزائرية ــ الجزائر ١٣٥٠ هـ .

٥ ــ تاريخ الفتح العربي في ليبيا ــ الطاهر أحمد الزاوي ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ هـ .

٦ ــ تاريخ المغرب العربي ــ سعد زغلول عبد الحميد ــ مطبعة المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٥ م .

٧ ــ تاريخ المغرب ــ محمد بن عبد السلام بن عبود ــ دار الطباعة المغربية ــ تطوان ــ ١٩٥٧ م ــ الطبعة الثانية .

٨ ــ تاريخ المغرب الكبير ــ محمد علي دبوز ــ مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ــ ١٣٨٤ هـ .

٩ ــ تاريخ المغرب ــ عبد العزيز بنعبد الله ــ مطبعة الجامعة ــ الدار البيضاء .

١٠ ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ـ الأمير شكيب ارسلان ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ .
١١ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ـ مطبعة المعارف ـ لبنان ـ ١٩٦٢ م .

(خ)

١٢ ـ خريطة المغرب الاركيولوجية ـ أحمد المكناسي ـ دار كريماديس للطباعة ـ تطوان ـ ١٩٦١ م .
١٣ ـ خلاصة تاريخ تونس ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ تونس ـ الطبعة الثالثة .

(د)

١٤ ـ دولة الإسلام في الأندلس ـ محمد عبد الله عنان ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

(ر)

١٥ ـ الرسول القائد ـ محمود شيت خطاب ـ مطبعة دار القلم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م ـ الطبعة الثالثة .

(ع)

١٦ ـ العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ـ الدكتور عمر فروخ ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .

(ف)

١٧ ـ الفاروق القائد ـ محمود شيت خطاب ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ

١٩٦٥ م . الطبعة الثانية .
١٨ ـ فتح العرب للمغرب ـ الدكتور حسين مؤنس ـ مطبعة مصر ـ القاهرة .
١٩ ـ الفتوحات العربية الكبرى ـ جون باجون غلوب ـ تعريب وتعليق خيري حمّاد ـ منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٦٤ م .
٢٠ ـ فجر الأندلس ـ الدكتور حسين مؤنس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

(ق)

٢١ ـ قادة فتح الشام ومصر ـ محمود شيت خطاب ـ دار الفتح ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ .

(م)

٢٢ ـ موسى بن نصير ـ محمد عبد الغني حسن ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م .
٢٣ ـ موسى بن نصير ـ كامل محمود حبيب ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

(هـ)

٢٤ ـ هنيبعل ـ جورج مصروعة ـ بيروت .

المراجـع الاجنبية

1. Encyclopedia Britannica.
2. Chember's Encyclopedia .
3. Creswell (K. A. C.) , Earby Muslim architecture : Umayyads, Early Abbas - sids and Tulunids, Vol. II , Part II, Oxford, 1938.
4. Gibben : Decline and Fall of the Roman Empire.
5. Lane - Poole ; The Moors in Spain.
6. Scott : Moorish Empire in Europe
7. Finlay : Byzantine Empire.

الفهارس

١ ـ الأعلام .

٢ ـ الأماكن .

٣ ـ القبائل والملل والنحل .

٤ ـ الخرائط .

٥ ـ الموضوعات .

الأعلام

الأعلام

(س)

(ش)

(ض)

(ط)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

(ب)

الأماكن

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

القبائل والملل والنحل

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

الخرائط

(١) من كتاب فتح العرب للمغرب .
(٢) » » » » » .

الموضوعات

الصفحة

قادة الفتح الإسلامي

قادة فتح المغرب العربي

اللواء الركن
محمود شيت خطاب

محمود شيت خطاب
قادة فتح المغرب العربي



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
Dar El Fikr - Printers- Publishers- Distributors- Beirut- Lebanon

دار الفكر
بيروت - لبنان

قادة الفتح الإسلامي

قادة فتح المغرب العربي

الجزء الثاني

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا »

(القرآن الكريم)



الإهداء

إلى المجاهدين القدامى الذين بذلوا أرواحهم لنشر لغة القرآن وتعاليمه في ربوع إفريقية .

وإلى المجاهدين الجدد الذين بذلوا أرواحهم لتثبيت دعائم لغة القرآن وتعاليمه في إفريقية .

أهدي سير قادة الفتح الإسلامي الذين فتحوا إفريقيّة:
تحيّة الأبناء للآباء ، وعبرة الشهداء للأحياء .

محمود شيت خطّاب



القَادَةُ المَرؤُوسُونَ



قادة فتح ليبيا

١ . عمرو بن العاص[١] .

٢ . بسر بن أبي أرطاة العامري .

٣ . عقبة بن نافع الفهري[٢].

٤ . عبد الله بن الزبير بن العوّام .

(١) انظر ترجمته في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (١٢٣ - ٢٣).

(٢) انظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٩٥ = ١٣٦) .



بُسْرُ[1] بن أبي أرطاة[2] العامري القرشي

فاتح ودّان[3] من ليبيا

« ربّ فتح قد فتحه الله على يديه » .
(عمر بن الخطاب)

نسبه وأيامه الاولى :

هو بُسْر بن أبي أرْطَاة ، واسم أبي أرطاة : عُمَيْر بن عوَيْمر بن عمران بن الحُلَيْس بن سيّار بن نِزَار بن مَعيص[4] بن عامر بن لؤي بن

---

(١) بسر : ثمر النخل قبل ان يرطب ، والغض الطري من كل شيء ، والماء أول ما ينزل من السحاب ، جمعه : بسار . انظر المعجم الوسيط (١/٥٥) ، وبه سمي الرجل .

(٢) أرطاة : واحدة الأرطى : نبات شجري ، ينبت في الرمل ويخرج من أصل واحد كالعصي ، ورقه دقيق وثمره كالعناب ، وبه سمي وكني . انظر المعجم الوسيط (١/١٤) وترتيب القاموس المحيط (١/٩٨) . ومن كتبه : أرطأة فقد أخطأ . وقد جاء اسمه في جمهرة أنساب العرب (١٧٠) : بسر بن أرطاة بن أبي أرطاة وكذلك في الاستيعاب (١/١٥٧) ، وورد اسمه في المعارف (١٢٢) بسر بن أرطاة . أما في المصادر التاريخية ومنها تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٠) وفي نسب قريش (٤٣٩) أيضاً ، فقد ورد : بسر بن أبي أرطاة ، وبه أخذنا لشهرته .

(٣) ودان : كلمة ودان ، مأخوذة من الود ، وهو المحبة . وهي مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ويتبعها : زلة ، وهون ، وسوكنة ، وما جاورها ؛ ويطلق على الكل : بلاد ودان . وكانت ودان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة ، وقد كان عليها سور ، وقد تهدم الآن فلم يبق منه إلا آثاره ، وقد امتد عمرانها خارج السور . تقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٧٦٩) كيلومتراً ، والى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠) كيلومتراً . انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧) ومعجم البلدان (٨/٤٠٥) .

(٤) في الاستيعاب (١/١٥٧) : ورد : معيصر ، وهو تصحيف . انظر نسبه في جمهرة أنساب العرب (١٧٠) ونسب قريش (٤٣٩) وأسد الغابة (١/١٧٩) والإصابة (١/١٥٢) .

غالب بن فِهْر ، يكنى : أبا عبد الرحمن[1] ، وعداده من أهل الشام[2]

قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُسْر صغير . ولم يرو عنه أحد من المدنيين أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم[3] .

وقال أهل الشام : إنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير . وفي سنن أبي داوود بإسناد مصري قوي عن جُنَادَةَ بن أميـة قال : «كنّا مع بسر بن أبي أرطاة في البحر ، فأتي بسارق ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تقطع الأيدي في السفر » . وروى أبو حيّان في صحيحه ، أن بسر بن أبي أرطاة يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة »[4] .

يظهر مما تقدم ، أنه مختلف في صحبته[5] ، له صحبة فيما قيل ، وقيل : لا[6] : الشاميون وغيرهم يقولون : إنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث[7] ، وقال الدارقطني : « له صحبة » ، وقال ابن يونس : «كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم »[8] . وقال غيرهم : إنه لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قبض وهو صغير ، وهذا قول الواقدي وابن معين والإمام أحمد بن حنبل[9] .

وأرى أنه كان صحابياً ، لأنه تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب

---

(١) الاستيعاب (١٥٧/١) وأسد الغابة (١٧٩/١) والاصابة (١٥٢/١) .
(٢) أسد الغابة (١٧٩/١) والاستيعاب (١٦٦/١) وطبقات ابن سعد (٤٠٩/٧) .
(٣) طبقات ابن سعد (٤٠٩/٧) .
(٤) الاصابة (١٥٢/١) والاستيعاب (١٥٨/١) .
(٥) الاصابة (١٥٢/١) .
(٦) ميزان الاعتدال (١٤٤/١) .
(٧) طبقات ابن سعد (٤٠٩/٧).
(٨) الاصابة (١٥٣/١) .
(٩) الاستيعاب (١٥٧/١) .

رضي الله عنه ، وكانوا لا يؤمّرون في الفتوح غير الصحابة [١] ، وكان عمر ابن الخطاب لا يولي إلاّ الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي بإمرة غير صحابي ، وقد عمل جُنادة بن أمية وهو صحابي [٢] لا اختلاف في صحبته في البحر بإمرة بُسر كما عمل غيره من الصحابة بإمرته في غزواته الأخرى [٣] .

لقد نال بسر شرف الصُّحبة ، ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد لصغر سنّه .

جهاده :

١ ـ شهد بسر فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختطّ بها [٤] ، وكان أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مدداً إلى عمرو بن العاص لفتح مصر على اختلاف فيه ، فقد بعث عمر أربعة : الزبير بن العوّام وعُمير بن وهب وخارجة ابن حذافة [٥] وبسر ، والأكثر يقولون : الزبير والمقداد وعمير بن وهب وخارجة ابن حذافة ، وهو أولى بالصواب [٦] ، وكان فتح مصر سنة عشرين الهجرية [٧] .

٢ ـ ولا بدّ أن عمرو بن العاص لمس في بسر شجاعة وإقداماً وتضحية وفداء وحسن تدبير للحرب ، فلما أنجز عمرو فتح (طرابلس) الغرب [٨] ،

---

(١) الاصابة (١٩٤/٢) .

(٢) أسد الغابة (٢٩٨/١) وتهذيب ابن عساكر (٤٠٨/٣) .

(٣) انظر شروط تولي القيادة التي كان عمر بن الخطاب يعمل بموجبها في كتاب : الفاروق القائد .

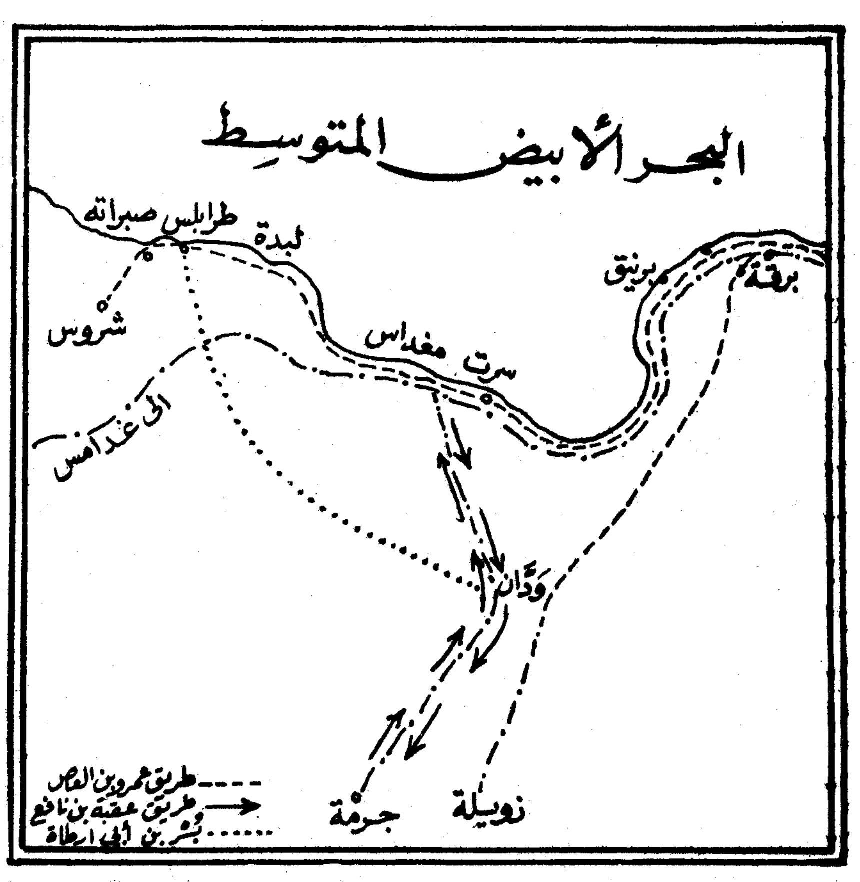
(٤) الاصابة (١٥٣/١) .

(٥) انظر ترجمتهم في كتاب : قادة فتح الشام ومصر .

(٦) الاستيعاب (١٥٨/١) ، وانظر أسد الغابة (١٧٩/١) وفي فتوح مصر والمغرب (٩١) : ان الأربعة هم : الزبير بن العوّام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد . وقال آخرون : بل خارجة بن حذافة الرابع ولا يعدون مسلمة .

(٧) ابن الأثير (٢١٨/٢) وابن خلدون (٢ الملحق ١١٤) وابو الفدا (١٦٣/١) والطبري (١٥٩/٣) وشذرات الذهب (٣١/١) والعبر (٢٣/١) .

(٨) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) : أن عمرو بن العاص بعث بسر بن أبي أرطاة وهو محاصر لأهل طرابلس الغرب ، وأرجح ما ذكرته في أعلاه ، لأن عمرو بن العاص لا يمكن أن يفرط ـ



خريطة الفتح العربي في ليبيا

وجّه بسراً إلى (وَدّان)، وذلك سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فصالح أهلها على ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد[1].

وكان بسر مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح في جيش العبادلة في غزو إفريقية[2].

٣ – ولاّه معاوية البحر[3] سنة ثلاث وأربعين الهجرية، فغزا الروم وشتّى بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية، وأنكر ذلك قوم فقالوا: لم يشتّ بسر بأرض الروم قط[4]، وقيل إنه شتا بـ(الحُمّة)[5] من أرض الروم[6].

وفي سنة أربع وأربعين غزا بسر في البحر[7].

٤ – وفي سنة ست وأربعين الهجرية خرج الى المغرب بعد معاوية بن حُدَيج عقبةُ بن نافع الفِهري ومعه بُسْر وشريك بن سُمَيّ المرادي، فأقبل حتى نزل بـ(مغداش)[8] من (سُرْت)[9]، وكان بسر توجّه إليها

= ببعض قواته في إرسالها إلى هدف آخر، بينما هو يحتاج الى كل جندي لفتح طرابلس هدفه السوقي (الستراتيجي).

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢). وانظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩ – ٧٠). وفي اليعقوبي (٢/١٣٤): أنه صالح أهل ودان وفزان. وفي تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١): أنه غزا ودان سنة ست وعشرين الهجرية.

(٢) انظر التفاصيل في رياض النفوس (١/٩ – ١٠)، وانظر فتح العرب للمغرب (١/٨١).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٠).

(٤) ابن الاثير (٣/١٦٩) والطبري (٤/١٣٧) والعبر (١/٥١) والبداية والنهاية (٨/٢٤).

(٥) الحمة: تدعى حمة ماكسين، في ديار ربيعة. انظر معجم البلدان (٣/٣٤٤).

(٦) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١).

(٧) الطبري (٤/١٦١) وابن الأثير (٣/١٧٥) والبداية والنهاية (٨/٢٧).

(٨) مغداش: بلد قريب من سرت في طرابلس الغرب من ليبيا. انظر هامش: فتوح مصر والمغرب (٢٦٢).

(٩) سرت: مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى باسمها الآن، وتبعد عن البحر الى الجنوب بنحو أربعة كيلومترات وتقع الى الجنوب الشرقي من طرابلس بنحو (٥٥٤) كم. انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦) ومعجم البلدان (٥/٦٢).

سنة ست وعشرين الهجرية من (سرت) فأدركه الشتاء [١]. فسار عقبة الى (ودان) واستعاد فتحها ثانية [٢].

٥ – وفي سنة خمسين الهجرية غزا بسر الروم [٣]، كما غزاهم صيفاً سنة إحدى وخمسين الهجرية [٤]، كما غزا الروم شِتاء سنة اثنتين وخمسين الهجرية [٥].

٦ – وقد فتح مدينة (مَجّانَة) بإفريقية ، وهي تسمى (قلعة بُسْر) بينها وبين (القيروان) خمس مراحل [٦].

٧ – وفي سنة إثنتين وخمسين الهجرية غزا بسر بلاد الروم [٧] وشتا بأرضهم [٨].

الانسان :

١ – قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُسر صغير [٩]، هو ومروان ابن الحكم ولدا في عام واحد [١٠]، وقد ولد مروان سنة اثنتين من الهجرة [١١]،

---

(١) فتح مصر والمغرب (٢٦٢) .
(٢) انظر تفاصيل قصة هذا الفتح في ترجمة عقبة بن نافع الفهري في الجزء الأول من هذا الكتاب.
(٣) الطبري (١٧٤/٤) وابن الاثير (١٨٢/٣) واليعقوبي (٢١٤/٢) .
(٤) الطبري (١٨٧/٤) وابن الأثير (١٨٦/٣) .
(٥) الطبري (٢١٤/٤) وابن الأثير (١٩٤/٣) .
(٦) مجانة : بلد بإفريقية وهي تسمى قلعة بسر وبها زعفران كثير ومعادن حديد وفضة ، بينها وبين القيروان خمس مراحل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٦٠) .
(٧) البداية والنهاية (٥٨/٨) .
(٨) الطبري (٢١٤/٤) وابن خلدون (١٧/٣) .
(٩) ميزان الاعتدال (١٤٤/١) وطبقات ابن سعد (٤٠٩/٧) والاصابة (١٥٣/١) وأسد الغابة (١٧٩/١) .
(١٠) تهذيب ابن عساكر (٢٢٠/٣) وفي سير أعلام النبلاء (٢٧٤/٣) : توفي النبي صلى الله عليه وسلم ولبسر ثمان سنين .
(١١) ابن الأثير (٧٥/٤) .

فيكون بُسر قد ولد في هذه السنة (٦٢٣ م).

أما ماورد في بعض المصادر من أنه ولد قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين [١]، وكان سنّه يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين أو ثلاث سنين [٢] فلا يستقيم مع المنطق، لأنه شهد فتح مصر واختط بها، وقد كان فتح مصر سنة عشرين الهجرية، وقد تولى بسر منصب القيادة وفتح (وَدّان) سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فليس من المعقول أن يكون عمره يوم شهد فتح مصر إحدى عشرة سنة وأن يكون عمره يوم تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في (إفريقية) أربع عشرة سنة، بل من المعقول أن يكون عمره يوم شهد فتح مصر ثمان عشرة سنة ويكون عمره يوم تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين إحدى وعشرين سنة. وعلى ذلك يكون بسر صحابياً سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير [٣]، وروى عنه أربعة أحاديث [٤]، وكان من أصحاب الفُتْيا من الصحابة [٥].

٢ ــ وعاش بُسْر في عهد أبي بكر فلم ينل أحد سيرته بسوء، وعاش في عهد عمر بن الخطاب مجاهداً وفاتحاً ومرابطاً، فكانت أيامه في عهد عمر أياماً مليئة بالخير والبركة على المسلمين. وعاش في عهد عثمان مجاهداً وفاتحاً ومرابطاً في مصر وإفريقية حتى بدت طلائع الفتن تظهر في أرجاء الدولة الإسلامية الفتية ــ ومنها أرض الكنانة ــ فلما انتزى محمد بن أبي حُذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مَناف في شوّال سنة خمس وثلاثين على عُقْبة بن عامر خليفة عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح فأخرجه من الفُسطاط ودعا إلى خلع عثمان بن عفّان وحرّض عليه بكل شيء يقدر عليه وأسعر

---

(١) أسد الغابة (١٧٩/١) والاصابة (١٥٢/١).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٢٢٠/٣).

(٣) الاصابة (١٥٢/١).

(٤) اسماء الصحابة الرواة ــ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٢٩٠).

(٥) أصحاب الفتيا من الصحابة ــ ملحق بجوامع السيرة (٣٢١).

البلاد : كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمِّرها ، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث ذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوِّحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : « ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب » ، ثم يخرج محمد بن حذيفة والناس كأنه يتلقى رسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا لقوهم قالوا : « لا خبر عندنا ! عليكم بالمسجد » ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، ثم يقوم القارىء بالكتاب ، فيقول : « إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عُمل في الإسلام وما صُنع في الإسلام » ، فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء ، ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ويَنْفُر الناس بما قرىء عليهم . فلما رأت ذلك شيعة عثمان اعتزلوا محمد بن أبي حذيفة وبارزوه وهم معاوية بن حُديج وخارجة بن حُذافة وبُسر ومَسْلَمَة بن مُخلّد الأنصاري وغيرهم في جمع كثير ، وبعثوا الى عثمان من يخبره بأمرهم وبصنيع ابن أبي حذيفة [1] .

وبعث عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص الزهري إلى مصر ليصلح أمر ابن أبي حذيفة ومن شايعه من أهلها وليعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن ابي حذيفة ، فخطبهم ثم قال : « ... بعث اليكم سعد بن مالك ليُفلِّ جماعتكم ويشتِّت كلمتكم ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا اليه » ، فخرج اليه منهم بمائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بني سعد وقد ضرب فُسطاطه وهو قائل ، فقلبوا عليه فسطاطه وشجُّوه وسبُّوه ، فركب راحلته وعاد راحلاً من حيث جاء ، وقال لهم : « ضربكم الله بالذل والفرقة وشتّت أمركم ، وجعل بأسكم بينكم ، ولا أرضاكم بأمير ، ولا أرضاه عنكم » ، فتابع

(١) الولاة والقضاة (١٤ – ١٥) .

أهل مصر ابن أبي حذيفة إلاّ أن يكون عصابة منهم معاوية بن حُدَيج وبسر [1] .

وسجن ابن أبي حذيفة رجالاً من أهل مصر في دورهم، منهم بُسر ومعاوية ابن حديج ، فلما قتل عثمان عقد شيعة عثمان لمعاوية بن حُديج عليهم وبايعوه ، فكان أول من بويع على الطلب بدم عثمان [2] .

وبعث ابن أبي حذيفة الى شيعة عثمان خيلاً ، فهُزم أصحاب ابن أبي حذيفة، فبعث إليهم بجيش آخر فاقتتلوا أول يوم من شهر رمضان سنة ست وثلاثين بـ(خَرَبْتا) [3] فقتل قائد جيش ابن أبي حذيفة وبعض أصحابه[4] .

وتولى مصر قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري الخزرجي لعلي بن أبي طالب ، فدخلها مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين الهجرية ، فاستمال شيعة عثمان بـ (خربتا) وبعث إليهم أعطياتهم ، فوفد عليه وفدهم فأكرمهم وأحسن إليهم [5] .

وبعث علي بن أبي طالب إلى قيس يأمره بقتال أهل (خربتا) وبـ (خربتا) يومئذ عشرة آلاف ، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي : « أنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم، وهم أسود العرب، منهم بسر بن أبي أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج » ، فأبى عليّ عليه إلاّ قتالهم ، فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب إلى علي : « إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري » ، فبعث عليّ الأشتر مالك بن حارث النخعي[6]، ولكنه مات

---

(١) الولاة والقضاة (١٦ – ١٧) .
(٢) الولاة والقضاة (١٨) .
(٣) خربتا : بلد حوالي الاسكندرية . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٤/٣) .
(٤) الولاة والقضاة (١٨ – ١٩) .
(٥) الولاة والقضاة (٢٠) .
(٦) الولاة والقضاة (٢١) .

في طريقه إلى مصر [١] .

وجمع عليّ لمحمد بن أبي بكر الصدّيق صلاة مصر وخراجها ، فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين الهجرية ، فلقي قيس بن سعد ابن عبادة فقال له : « إنه لا يمنعني نصحي لك ولأمير المؤمنين عزله إياي ! ولقد عزلني من غير وهن ولا عجز ، فاحفظ عني ما أوصيك به يَدُم صلاح حالك : دع معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلّد وبسر بن أبي أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه ، تكشفهم عن رأيهم . فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلّفوا عليك فلا تطلبهم ... » ، فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، فكتب إلى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فبعث برجاله إلى دور الخارجة فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فبلغهم ذلك فنصبوا له الحرب وهمّوا بالنهوض إليه ، فلما علم أنه لا قوّة له بهم أمسك عنهم [٢] .

٣ ـ واستطاع بسر اللحاق بمعاوية في أرض الشام مع بعض أصحابه [٣] ، فشهد مع معاوية معركة (صِفّين) [٤] على رجالة أهل دمشق [٥] وذلك سنة سبع وثلاثين الهجرية [٦] .

وفي سنة ثمان وثلاثين الهجرية دعا معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص وبسر بن أبي أرطاة وغيرهما من وجوه رجاله ، واستشارهم في أمر الاستيلاء على مصر ، فأشاروا عليه بفتحها ، فبعث جيشاً بقيادة عمرو بن العاص فملكها

---

(١) الولاة والقضاة (٢٣) .
(٢) الولاة والقضاة (٢٦ ـ ٢٧) .
(٣) انظر الولاة والقضاة (٢٨) .
(٤) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧٠) .
(٥) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١) وانظر العبر (١/٤٢) .
(٦) الطبري (٤/٢) وابن خلدون (٢ الملحق ١٧٦) .

وقتل محمد بن أبي بكر الصديق الذي كان عليها لعلي بن أبي طالب [(١)].

وفي سنة أربعين الهجرية بعث معاوية بن أبي سفيان بُسراً في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن ، فسار حتى قدم المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري [(٢)] عامل عليّ عليها ، فهرب أبو أيوب وأتى علياً الكوفة . ودخل بُسر المدينة فلم يقاتله أحد ، فصعد منبرها فنادى عليه : يا دينار ! يا نجار ! يا زريق (وهذه بطون من الأنصار) شيخي ... شيخي ... عهدته ههنا بالأمس ، فأين هو ؟؟؟؟ » ، يعني عثمان ، ثم قال : « والله لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركت بها محتلماً »، فأرسل إلى بني سلمة فقال : « والله ما لكم عندي أمان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله[(٣)] . فانطلق جابر إلى أم سلمة [(٤)] زوج

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الاثير (١٤١/٣ - ١٤٣) .

(٢) أبو أيوب الأنصاري : هو خالد بن زيد بن كليب من بني النجار ، من السابقين الأولين ، نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة فأقام عنده حتى بنى بيوته. شهد العقبة وبدراً وما بعدها وشهد الفتوح وداوم الغزو، استخلفه عليّ على المدينة لما خرج الى العراق ثم لحق به وشهد معه قتال الخوارج وقد توفي في غزاة القسطنطينية سنة خمسين الهجرية . انظر التفاصيل في الاصابة (٨٩/٢) وأسد الغابة (١٤٣٥) والاستيعاب (١٦٠٦/٤) وطبقات ابن سعد (٤٨٤/٣) وتهذيب الأسماء واللغات (القسم الأول ١٧٧/٢) .

(٣) جابر بن عبد الله الأنصاري السلمي : أحد الذين شهدوا العقبة ، وكان من المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يمنح أصحابه الماء يوم بدر ، شهد تسع عشرة غزوة تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لجابر حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم . أصيب بصره في أواخر أيامه ومات سنه ثمان وسبعين الهجرية على أصح الروايات . انظر التفاصيل في الإصابة (٢٢٢/١) والاستيعاب (٢١٩/١) وفيه : أنه لم يشهد بدراً لصغر سنه وأسد الغابة (٢٥٦/١) .

(٤) أم سلمة : بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية أم المؤمنين ، اسمها : هند ، واسم أبيها حذيفة ، ويلقب : زاد الراكب ، لأنه كان أحد الأجواد ، فكان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد . بل يكفي رفقته من الزاد . كانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الاسد بن المغيرة ، فمات عنها ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في جمادى الآخر سنة أربع وقيل سنة ثلاث ، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها، وهاجرا الى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا الى المدينة، وقيل إنها اول امرأة هاجرت الى الحبشة ، وأول ظعينة دخلت المدينة ، وقد ماتت في خلافة يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين الهجرية على الأصح . انظر التفاصيل في الإصابة (٢٤٠/٨) والاستيعاب (١٩٣٩/٤) وأسد الغابة (٥٨٨/٥) وطبقات ابن سعد (٨٦/٨) .

النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : « ماذا ترين؟ إن هذه بيعة ضلالة ، وقد خشيت أن أُقتل » ، فقالت : « أرى أن تبايع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة [١] وختني عبد الله بن زَمْعَة [٢] أن يبايعا » ، وكانت ابنتها زينب تحت ابن زَمْعَة ، فأتاه جابر وبايعه . وهدم بُسر دوراً بالمدينة ، ثم مضى حتى أتى مكة فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله ، فقال له بسر : « ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك [٣] » ، وقال « ما كنت لأوذي أبا موسى ! ما أعرفني بحقه وفضله ! » [٤] ، ثم أكره أهل مكة على البيعة [٥] .

وسار بُسر إلى اليمن وبها عبيد الله بن عباس [٦] عاملاً لعلي ، فلما بلغه

---

(١) عمر بن أبي سلمة : هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد ، ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمه أم المؤمنين أم سلمة ، شهد غزوة الخندق وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث في الصحيحين وغيرهما . ولي البحرين زمن علي بن أبي طالب وكان ممن شهد معه الجمل ومات بالمدينة سنة ثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان . أنظر التفاصيل في الإصابة (٤/٢٨٠) وأسد الغابة (٤/٧٩) والاستيعاب (٣/١١٥٩) .

(٢) عبد الله بن زمعة : هو عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى القرشي الأسدي ، ابن أخت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . كان يسكن المدينة وروى أحاديث ، وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . قتل يوم الدار سنة خمس وثلاثين الهجرية وقد ولد قبل الهجرة بخمس سنين . انظر التفاصيل في الاصابة (٤/٧١) وأسد الغابة (٣/١٦٤) والاستيعاب (٣/٩١٠) .

(٣) انظر الطبري (٤/١٠٧) . وفي ابن الأثير (٣/١٥٣) : أن أبا موسى خاف أن يقتله بسر فهرب منه .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٣) .

(٥) ابن الأثير (٣/١٥٣) .

(٦) عبيد الله بن عباس : هو عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، يكنى : أبا محمد . رأى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه . كان سخياً جواداً وكان يتجر ويذبح ويطعم في موضع المجزرة ، وكان جميلا جهيراً ، وكان يقول إذا لا موه في طلب العلم : « إن نشطت فهو لذتي ، وإن اغتممت فهو سلوتي » . مات النبي صلى الله عليه وسلم ولعبيد الله اثنا عشرة سنة ومات بالمدينة سنة ثمان وخمسين انظر التفاصيل في الاصابة (٤/١٩٨) وأسد الغابة (٣/٣٤٠) والاستيعاب (٣/١٠٠٩) .

مسيره فرّ إلى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف عبد الله بن عبد المدان الحارثي [1] على اليمن ؛ فأتاه بسر وقتله وقتل ابنه [2] » وأخذ بسر ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس هما عبد الرحمن وقثم فقتلهما [3] ، وكانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما أراد بسر قتلهما قال له الكناني : « لم تقتل هذين ولا ذنب لهما ، فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » ، فقتله وقتلهما بعده . وقيل : إن الكناني أخذ سيفه وقاتل عن الغلامين وهو يقول :

« الليث من يمنع حافات الدار ... ولا يزال مصلتاً دون الجار
ألا فتى أروع غير غدار » [4]

وقاتل حتى قتل ، فخرج نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن : « يا هذا ! قتلت الرجال ، فعلام تقتل هذين ؟! والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية والإسلام ! والله يا ابن أبي أرطاة ، إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة وعقوق الأرحام ، لسلطان سوء » . وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة من أصحاب علي في اليمن ، فبلغ علياً الخبر ، فأرسل جارية بن قُدامة السعدي [5] في ألفين ووهب بن مسعود [6] في ألفين ، فسار

---

(١) عبد الله بن عبد المدان الحارثي : وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وكان اسمه عبد الحجر ، فغيره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قام في قومه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن الردة . عاش الى خلافة علي وقتله بسر بن أبي أرطاة . أنظر التفاصيل في الاصابة (٩٨/٤) وأسدالغابة (٢٠٠/٣) والاستيعاب (٩٤٣/٣) .

(٢) الطبري (١٠٧/٤) وابن الأثير (١٥٣/٣) .

(٣) الطبري (١٠٧/٤) وابن الأثير (١٥٣/٣) والعبر (٦٣/١) والبداية والنهاية (٩٠/٨) وسير أعلام النبلاء (٣٣٧/٣) والمعارف (١٢٢) ونسب قريش (٢٦٤) والاستيعاب (١٥٩/١)

(٤) تهذيب ابن عساكر (٢٢٣/٣) .

(٥) جارية بن قدامة السعدي : هو جارية بن قدامة بن مالك بن زهير بن حصن بن رزاح بن سعد التميمي السعدي ، يقال له : عم الأحنف بن قيس التميمي ، وكان الأحنف يدعوه عمه على سبيل التعظيم له ، لأنهما لا يجتمعان إلا في سعد بن زيد مناة بن تميم . كان صحابياً نزل البصرة ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان من أصحاب علي بن أبي طالب في حروبه . انظر التفاصيل في الإصابة (٢٢٧/١) وأسد الغابة (٢٦٣/١) والاستيعاب (٢٢٦/١) وطبقات إبن سعد (٥٦/٧) .

(٦) وهب بن مسعود : هو وهب بن مسعود الخثعمي . انظر اليعقوبي (١٧٤/٢) ولم يرد له ذكر =

جارية حتى أتى (نَجْرَان)[1] فقتل بها ناساً من أصحاب عثمان، وهرب بسر وأصحابه منه، فأتبعه جارية حتى أتى مكة، فقال: «بايعوا أمير المؤمنين»، فقالوا: «قد هلك، فلمن نبايع؟»، فقال: «لمن بايع له أصحاب علي»، فبايعوا خوفاً منه. وأتى المدينة وأبو هريرة يصلي بالناس، فهرب منه فقال جارية: «لو وجدته لقتلته»، ثم قال لأهل المدينة: «بايعوا الحسن بن علي»، فبايعوه، وأقام يومه ثم عاد الى الكوفة، فرجع أبو هريرة يصلي بالناس[2].

يجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة هنا لنمحّص الأخبار الواردة عن أعمال بسر الذي كان عثمانياً من أصحاب معاوية[3]، وعن أعمال جارية بن قدامة الذي كان من أصحاب علي بن أبي طالب[4]: هل من المعقول أن يقتل بسر

= في الاصابة وأسد الغابة والاستيعاب وطبقات ابن سعد ولا في كتب الانساب التي بين أيدينا.

(1) نجران: مدينة من تهامة اليمن. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (126) وآثار البلاد وأخبار العباد (126) ومعجم البلدان (8/208).

(2) الطبري (4/107) وابن الأثير (3/153). وفيه: كانت أم ابني عبيد الله بن عباس أم الحكم جويرة بنت خويلد بن قارظ، وقيل: عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان، فلما قتل ولداها ولهت عليهما، فكانت لا تعقل ولا تصغى ولا تزال تنشدهما في المواسم فتقول:

يا من أحس بابني اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بابني اللذين هما ... مخ العظام، فمخي اليوم مزدهف
يا من أحس بابني اللذين هما ... قلبي وسمعي، فقلبي اليوم مختطف
من ذل والهة حيرى مدلهة ... على صبيين ذلا إذ غدا السلف
نبئت بسراً وما صدّقت ما زعموا ... من إفكهم ومن القول الذي اقترفوا
أحني على ودجي ابني مرهفة ... من الشفار كذاك الاثم يقترف

وتشظى: تفرق. والمزدهف: المستطار القلب من جزع أو حز ن. وانظر تهذيب ابن عساكر (3/223) والاستيعاب (1/160) مع اختلاف في عدد الأبيات وفي بعض الكلمات في المصدرين الأخيرين.

(3) الاصابة (1/153) وجمهرة أنساب العرب (264).

(4) اليعقوبي (2/174) وابن الأثير (3/153) والطبري (4/107).

طفلين صغيرين ويسبي النساء المسلمات[1] وهو عربي مسلم صحابي؟ وهل من المعقول أن يحرق جارية بيوت المسلمين في نجران[2] حتى سمي: محرقاً[3] مخالفاً أوامر علي بن أبي طالب الصريحة: «... ولا تقاتل إلا من قاتلك، ولا تجهز على جريح ولا تسخرنّ دابة وإن مشيت ومشى أصحابك، ولا تستأثرن على أهل المياه بمياههم، ولا تشربنّ إلا فضلهم عن طيب نفوسهم، ولا تشتمن مسلماً ولا مسلمة فتوجب على نفسك ما لعلك تؤدّب غيرك عليه، ولا تظلمن معاهداً ولا معاهدة... ومن تاب فاقبل توبته...»[4].

أولاً، أمر بسر، فإن قتل الأطفال يأباه العربي في الجاهلية، فكيف يفعله بسر في الاسلام، وتعاليم القتال في الإسلام صريحة في عدم قتل الأبرياء والأطفال والنساء وصيانة الأسرى والرهائن والجرحى[5].

ومن الناحية التاريخية أيضاً، فقد قيل: أن بسراً قتل الطفلين في اليمن كما ذكرنا: وقيل إنه قتلهما في المدينة[6]، وقيل: إن أمهما جويرة وقيل: بل هي عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان[7]!!

إن تعاليم الحرب في الجاهليـــة وتعاليمها في الإسلام لا تبيح مطلقاً قتل الأطفال، فكيف يقدم بسر على قتلهم وما هي الفائدة المتوخاة من ذلك؟

كما أن اختلاف المؤرخين وأصحاب السير تلقي ظلالاً من الشك على الحادث كله!

أما اتهام بسر بأنه سبى النساء العربيات المسلمات، فأمر لا يصدق أبداً،

---

(1) الاستيعاب (١/١٦١).
(2) الطبري (٤/١٠٧).
(3) اليعقوبي (٢/١٧٦).
(4) اليعقوبي (٢/١٧٥ - ١٧٦).
(5) انظر التفاصيل في الرسول القائد (٣٣٢ - ٣٤٠) الطبعة الثانية.
(6) الاستيعاب (١/١٦٠).
(7) انظر تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٤).

فقد أعاد عمر بن الخطاب سبايا المرتدين من العرب إلى عشائرهم وقال : « إني كرهت أن يصير السبي سُنّة في العرب »[1] ، ورضي عمر بن الخطاب أن يأخذ (الصدقة) بدل (الجزية) من عرب الجزيرة[2] لأنهم لم يقبلوا أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية[3] ، فكيف يمكن أن نصدّق أن صحابياً يسبي النساء العربيات المسلمات ؟؟؟!!

إن أي رجل – مهما يكن – من العرب المسلمين ، ما كان ليقدم على قتل الأطفال وسبي العربيات المسلمات في مثل تلك الأيام وفي مثل تلك الظروف والأحوال ، ولو أن ذلك الرجل لم يكن ليلتزم بتقاليد قومه أو بتعاليم دينه ، لما أقدم على مثل تلك الأعمال خوفاً على نفسه وحفاظاً على حياته ؛ وقد تولى بسر البصرة فيما بعد وهي تعجّ بأصحاب علي بن أبي طالب وبالهاشميين ، وقد تولى قيادات الجيوش في البر والبحر ، وهي لا تخلو من أصحاب علي ابن أبي طالب وبأنصاره وبأهل بيته ، فكيف يتركونه سالماً وقد ذبح أبناءهم وسبى نساءهم ؟؟

لقد كان بسر من رجالات العرب المسلمين المعروفين بشجاعتهم منذ عهد عمر بن الخطاب ، وقوله : « ما كنت لأوذي أبا موسى الأشعري ! ما أعرفني بحقه وفضله ! »[4] دليل على التزامه بالمثل الإسلامية وحرصه على احترامها وتطبيقها .

ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين القدامى بسراً ويذكروا قصة قتله طفلين صغيرين ، ثم يذكرون : « كان إذا دعا ربما استجيب له »[5] ، أي أنه من رجال الله الصالحين ، فكيف يستقيم هذا التناقض ؟!

---

(١) الفاروق عمر (١/٩٥) .
(٢) الطبري (٣/١٥٨) والبلاذري (١٨٥ – ١٨٦) .
(٣) الطبري (٣/١٥٨) وابن الأثير (٢/٢٠٦) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٣).
(٥) الإصابة (١/١٥٣) .

وثانياً ما يقال عن بسر يقـــال عن جارية بن قدامة صاحب علي بن أبي طالب، وأكثر من ذلك ، أن علياً ما كان ليسكت عن جارية بعد مخالفة جارية لأوامره الصريحة الحاسمة في التمسك بالحرب العادلة في قتاله ، وما كان ليسكت عنه حتى في حالة عدم إصدار أوامر صريحة اليه بعد الذي فعل من قتل وتحريق ؛ وقد كان من مزايا علي التي لا ينكرها أحد ، أنه من الرجال الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم !

ترى ! هل كان لانقسام المسلمين الى طائفتين يقتتلون ، فكان من بعض نتائج هذا الصراع الدموي في أيام الفتنة الكبرى ، أن كل طائفة حاولت أن تنتقص من أقدار رجال الطائفة الأخرى ، فكانت حرب الدعاية مستديمة لم تسكت منذ نشب القتال بين الطائفتين حتى اليوم .

ولكن بعض آثار تلك الحرب الدعائية المستديمة لا يصمد أمام العقل والمنطق ، فيجب أن يوضع لها حد وينتهي أثرها ، خاصة وأن انتقاص أقدار أولئك السلف الصالح هو انتقاص للمثل العليا التي يؤمنون بها ، فلمصلحة مَنْ نردّد الافتراءات المتهافتة التي لا يصدّقها العقل ولا يرتضيها الوجـــدان ، ويعفّ عن اقترافها أي إنسان حتى في هذه الأيام ؟؟ [1] .

٤ ــ وعاد بسر إلى الشام ، ثم ورد العراق في صحبة معاوية بن أبي سفيان بعد علي بن أبي طالب[2] وتولى (البصرة) سنة إحدى وأربعين الهجرية بعد أن صالح الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان [3] ، فأخذ بني زياد بن أبي

(١) أنا أعلم أنني اسير على الشوك في الدفاع (بحق) عن هذين الصحابيين الجليلين ، وقد تعمدت أن أذكر المصادر القديمة التي رددت عنها بعض ما ينتقص من قدريهما ، ومن المتوقع أن يرد علي من يردد أقوال تلك المصادر ، فأحب أن يتذكر من يحاول الرد أنني قرأت بامعان ما ورد عنهما في المصادر القديمة المعيسرة ، ولكن ما ورد عنهما في تلك المصادر ليس منزلا من السماء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فاذا ردد تلك الإفتراءات بعض المستشرقين من الأجانب المعروفين بدسهم وحقدهم على العرب والمسلمين ، فما عذر المستغربين العرب في ردهم ؟ . !

(٢) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٠) .

(٣) ابن الأثير (٣/١٦٥) .

سفيان وهم غلمان[1] ، ولكن بسراً أطلق بني زياد بأمر معاوية [2] . والظاهر أنه بقي على البصرة عاماً وبعض عام ، ثم عاد إلى الشام ليتولى قيادة أحد جيوش المسلمين في أرض الشام سنة ثلاث وأربعين الهجرية[3] ، وكاد ان يتفرّغ للجهاد من بعد ذلك براً وبحراً كما ذكرنا .

وقد خرف آخر عمره[4] ، ووسوس في آخر أيامه ومات وهو خرف [5] ، والظاهر أن مقتل عثمان هز أعصابه هزاً عنيفاً ، فكان إذا لقي إنساناً في أواخر عمره قال له : « أين شيخي عثمان » ويسلّ سيفه ، فلما رأوا ذلك منه جعلوا له سيفاً من خشب بدل سيفه ، حتى إذا ضرب لم يضرب[6] . وكان يهذي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ ، فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتى مات [7] .

مات بالمدينة ، وقيل بل مات بالشام في بقية من أيام معاوية[8] وفي رواية انه قد توفي بالمدينة أيام معاوية ، وقيل توفي بالشام أيام عبد الملك بن مروان[9] ، وفي رواية أنه توفي سنة ست وثمانين الهجرية في أيام الوليد بن عبد الملك[10] (٧٠٥ م) ، فاذا كان عبد الملك قد توفي للنصف من شوال سنة ست وثمانين الهجرية[11] فتولى بعده ابنه الوليد ، فتكون وفاة بسر بعد

---

(١) أنساب الأشراف (٤٩٢) .
(٢) أنساب الأشراف (٥٠٥) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٦٩) .
(٤) أسد الغابة (١/١٨٠) .
(٥) الإصابة (١/١٥٣) .
(٦) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٠) .
(٧) ابن الأثير (٣/١٥٤) .
(٨) الاستيعاب (١/١٦٦) .
(٩) أسد الغابة (١/١٨٠) وفي سير أعلام النبلاء (٣/٢٧٤)، أنه بقي الى حدود سنة سبعين.
(١٠) الاصابة (١/١٥٣) وبذلك أخذ صاحب الأعلام . انظر الأعلام (٢/٢٣) .
(١١) تاريخ بغداد (١٠/٣٩١) وتاريخ الخميس (٢/٣١٠) .

شوال من هذا العام .

ولي اليمن وله دار بالبصرة[1] ، وقد تحول فنزل الشام[2] ، وله عقب ببغداد والشام وله بمصر دار وحمام يسميان باسمه[3] .

فأي نوع من الرجال كان بسر ؟ إن مفتاح شخصيته هو الإخلاص ، وقد أخلص للخلفاء قبل عثمان ، فلما رأى الدس والشغب على عثمان بأساليب ليس من السهل على صاحب المثل العليا أن يتقبلها أو يرضخ لأصحابها من أمثال محمد بن حذيفة ورجاله ، انحاز بكل طاقاته الى جانب المنكرين لتلك الأعمال التي تفرّق صفوف المسلمين وتشغلهم عن أهدافهم العليا في نشر الإسلام والفتح ، فسجن بسر مع من سجن وهدم داره ونهبت أمواله ، فكان لكل ذلك أثره العميق على نفسية بسر .

واشتدت نقمة بسر حين علم بقتل عثمان بن عفان ظلماً وعدواناً ، فانحاز نهائياً بإخلاص وقناعة الى المطالبين بدم الخليفة المظلوم ، فلما بعثه معاوية بن أبي سفيان إلى الحجاز واليمن فتك بالذين أعانوا على قتل عثمان ، فما قيل له في أحد : إن هذا ممن أعان على عثمان إلا قتله[4] ، فترك ذلك أثراً في نفوس كثير من المسلمين حتى قالوا عنه : «كانت له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم[5] » ، وكان رجل سوء ؛ أهل المدينة ينكرون أن يكون له صحبة[6] .

لقد كان عثمانياً[7] أخلص لعثمان في أيام عثمان وبعده، وكان مقتنعاً

---

(١) الاستيعاب (١/١٦٦) .
(٢) طبقات ابن سعد (٧/٤٠٩) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٠) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٢) .
(٥) تهذيب ابن عساكر (١/٢٢٠) .
(٦) ميزان الإعتدال (١/١٤٤) .
(٧) طبقات ابن سعد (٧/٤٠٩) .

إلى أبعد الحدود ، بأن الذين أعانوا على عثمان اقترفوا إثماً لا يمكن السكوت أو التغاضي عنه ، ومن هنا جاءت قسوة بسر القاسية على أعداء عثمان ، واندفع بحماس شديد للمطالبة بثأر عثمان ومعاقبة كل من كانت له يد في الشغب عليه وفي قتله .

ترى ! هل كان بسر ملوماً في القصاص من قتلة عثمان ؟؟

القائد :

إذا كان هناك من يأخذ على بسر بعض أعماله إنساناً ، فليس هناك من يأخذ عليه أي عمل من أعماله قائداً .

لقد كان بسر على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام ، وكان من أسود العرب [1]. كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد فتح مصر : « أن افرض لمن شهد بيعة (الحديبية) أو قال : بيعة الرضوان[2] مائتين من الدنانير ، وأتمها لخارجة بن حذافة[3] لضيافته ، ولبسر بن أبي أرطاة لشجاعته » . وفي رواية ، أن عمر بن الخطاب جعل لعمرو بن العاص مائتين لأنه أمير ، ولبسر مائتين لأنه صاحب سيف ؛ وقال عمر بن الخطاب عن بسر : « ربّ فتح قد فتحه الله على يديه »[4] .

كانت له نكاية في الروم[5] ، وقد غزا الروم مرة فكانت ساقته [6] لا يزال يصاب منها طرف ، فجعل يلتمس أن يصيب الذين يلتمسون عورة

---

(١) الولاة والقضاة (٢١) .

(٢) انظر الرسول القائد (١٧٧ - ١٨٥) وسيرة ابن هشام (٣/٣٦٤) . وجوامع السيرة (٢٠٧ - ٢١١) والسيرة الحلبية (٣/١٩ - ٢٠) وعيون الأثر (٢/١١٩) .

(٣) انظر ترجمته في قادة فتح الشام ومصر .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٢٧٤) .

(٦) الساقة : جماعة من الرجال واجبها حماية مؤخرة الجيش من العدو واستحصال المعلومات عن تحركاته .

ساقته ، فيكمن لهم الكمين ، فلم تصب كمائنه ولم تظفر . فلما رأى ذلك تخلّف في مائة من جيشه ، ثم جعل يتأخر حتى تخلّف وحده ، فبينما هو يسير في بعض أودية الروم ، إذ رفع الى قرية فيها جوز كثير ، وإذا براذين مربوطة بأشجار الجوز وإلى جانب الأشجار كنيسة فيها فرسان — وكانت تلك براذين الذين كانوا يتعقبونه في ساقته . ونزل بسر عن فرسه فربطه مع تلك البراذين ، ثم مضى حتى أتى الكنيسة ، فدخلها ثم أغلق عليه وعليهم بابها ، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه وهو وحده ، فما استمالوا الى رماحهم حتى صرع منهم ثلاثة . وفقده أصحابه فلاموا انفسهم وقالوا : إنكم لأهل لأن تجعلوا مثلاً للناس ! إن أميركم خرج معكم فضيّعتموه حتى هلك ، ولم يهلك منكم أحد » ، فبينما هم يسيرون في الوادي إذ بهم قد أتوا على مرابط البراذين ، وإذا فرس بسر مربوط معها فعرفوه . وسمعوا الجلبة في الكنيسة فدخلوها ، فلما رآهم بسر سقط مغشياً عليه ، فأقبلوا على من كان باقياً فأسروه ، وقتلوا من قتلوا ، فأقبلت عليهم الأسارى يقولون لهم : « ننشدكم الله من هذا الذي دخل علينا » ؟ فقالوا : « بسر بن أبي أرطاة » ، فقالوا : « ما ولدت النساء مثله » ، فعمدوا إلى جلد فوضعوه في جوفه ، ثم عصبوه بعمائمهم ، وحملوه على شقه التي ليست بها جراحة ، حتى أتوا به العسكر ، فخاطوا جراحه ، فسلم وعوفي[1] .

ذلك هو مبلغ شجاعة بسر وإقدامه ، وذلك هو الذي حدا بعمر بن الخطاب الذي لم يجامل ابنه عبد الله بن عمر في العطاء ففرض له ثلاثة آلاف وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، فقال له ابنه : « يا أبت ! لم زدته عليّ ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لي ! » ، فقال عمر : « إن أبا أسامة كان أحبّ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١) وانظر سير أعلام النبلاء (٣/٢٧٤) .

منك »[1] . ذلك الذي حدا بعمر أن يفرض مائتين من الدنانير سنوياً لبسر لشجاعته ، فكان عطاؤه مساوياً لعطاء أمير مصر عمرو بن العاص ولعطاء من شهد بيعة الرضوان سواء بسواء .

وكان يرعى رجاله رعاية نادرة ويساويهم بنفسه في كل شيء .

كان بسر على شاتية بأرض الروم ، فوافق يوم الأضحى ، فالتمسوا الضحايا فلم يجدوها ، فقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إنا قد التمسنا الضحايا اليوم فلم نقدر منها على شيء — وكانت معه نجيبة[3] لم يشرب لبنها لقوح[4] ، ولم يجد شيئاً يضحي به إلا هذه النجيبة — فقال : « أنا مضح بها عني وعنكم ، فإن الإمام أب ووالد » ، ثم قام فنحرها وقال : « اللهم من بسر ومن يليه » ، ثم قسموا لحمها بين الأجناد ، حتى صار له منها جزء من الأجزاء مع الناس . وكان يقول : « والله ما عزمت[5] على قوم عزيمة إلا استغفرت لهم حينئذ ثم قلت : اللهم لا حرج عليهم »[6] .

قائد هذا شأنه : يرعى رجاله حقّ الرعاية ، ويستأثر دونهم بالخطر ، ويحرص على أرواحهم ، ويستغفر لهم قبل أن تزل أقدامهم ، لا بدّ أن يكون موضع ثقة رجاله ، ولا بدّ أن يكون محبوباً عندهم أثيراً لديهم .

إن مفتاح مزايا قيادة بسر ، هو ما يتمتع به من شجاعة خارقة وإقدام عجيب ، ولكن ذلك ليس كافياً لتسنّمه منصب القيادة في أيام عمر بن

---

(١) الخراج (٥١) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٣ ٢٢٢) .
(٣) نجيبة : مؤنث النجيب ، جمعها : نجائب يقال : نجائب الإبل ، أي خيارها ، ونجائب الأشياء ، لبابها وخالصها .
(٤) لقوح : لقحت الناقة ونحوها لقحاً ونقاحاً ، أي قبلت ماء الفحل ، فهي لقوح .
(٥) عزم : أمره وشدّد عليه . وعزيمة : ما عزمت عليه ، وعزيمة الله ، فرائضه التي أوجبها .
(٦) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١ — ٢٢٢) .

الخطاب ، فقد كان يريد من القائد أن يكون مكيناً لا يتهوّر ، عالماً بإدارة الحرب[1] ؛ لذلك ولاّه عمر بن الخطاب قيادة جيش من جيوش المسلمين في أيامه ، ولذلك أيضاً اعتمد عليه معاوية بن أبي سفيان في أيامه ، فكان أحد قواد معاوية وأكابر أصحابه[2] .

لقد كان بسر قائداً ممتازاً ، وكان فارساً شجاعاً فاتكاً من أفراد الأبطال[3].

بسر في التاريخ

يذكر التاريخ لبسر فتحه منطقة (وَدّان) من ليبيا ونشره الإسلام بين قبائل البربر الساكنة في ربوعها .

ويذكر له ، أنه كان من أبطال المسلمين المعدودين .

يرحم الله ، الفارس البطل ، القائد الفاتح ، بُسْر بن أبي أرطاة العامري القرشي .

---

(١) انظر شروط القائد عند عمر بن الخطاب في كتاب : الفاروق القائد .
(٢) جمهرة أنساب العرب (١٧٠) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٢٧٤) .

عبد الله بن الزبير بن العوّام الأسدي القرشي

فاتح مدينة صبراته (١أ) وسوسة (١)

« إنه ابن أبيه »
(محمد رسول الله)

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الله بن الزبير بن العَوّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ بن كِلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النّضر بن كِنانة (٢) .

أبوه : الزبير بن العَوّام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وجدّته لأبيه صفيّة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمّة أبيه خديجة

(١أ) صبراته : مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس الغرب بنحو (٦٧) كيلو متراً على ساحل البحر الابيض المتوسط . انشأها الفينيقيون حوالي سنة ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق.م ، وهي من اعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي ، وكانت اكبر من طرابلس وأعظم منها عمراناً ومدنية وأروح تجارة . انظر التفاصيل في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠) .

(١) سوسة : مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ /١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٤) .

(٢) المعارف (٢١٩) وجمهرة أنساب العرب (١١٧ - ١٢٣) .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٧ /٦٤) والنووي على مسلم (٥ /١٦٠) وسنن ابن ماجة (١ /٣٠) وجمهرة أنساب العرب (١٢١) والرياض النضرة (٢ /٣٥٥) وطبقات ابن سعد (٣ /١٠٥) . وانظر ترجمة الزبير في كتاب قادة الفتح الاسلامي الجزء الثالث عن : قادة فتح الشام ومصر .

بنت خُويلد أم المؤمنين ، وخالته عائشة أم المؤمنين[١] .

وعبد الله يكنّى : أبا بكر ، وأبا خُبَيْبْ[٢] ، وهو اسم أكبر أولاده[٣] .

كنّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم جدّه أبي أمه أبي بكر الصديق وسمّاه باسمه . هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل به ، فولدته بـ (قُباء)[٤] في السنة الأولى الهجرية ، وهو أوّل مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة[٥] ؛ فلما وُلد كبّر المسلمون وفرحوا به كثيراً ، لأن اليهود كانوا يقولون : « قد سحرناهم فلا يولد لهم ولد »[٦] ، وهذا الإدّعاء كان من جملة حرب الأعصاب التي شنّها اليهود على المسلمين في المدينة ؛ فحنّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة لاكها في فيه ثم حنّكه بها ، فكان ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم أول شيء دخل جوفه[٧] ، ثم دعا له وبرّك عليه[٨] ؛ وأذّن أبو بكر الصديق في أذنه حين ولد[٩] .

وكان ابن الزبير أول ما تكلّم به وهو صغير كلمة : السيف[١٠] .

وأحضره أبوه الزبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ /٢٦٦) وأسد الغابة (٣ /١٦١) .

(٢) المعارف (٢٢٤) والإصابة (٤ /٦٩) والاستيعاب (٣ /٩٠٥) وبلوغ الأرب (٣/ ١٩٦) .

(٣) أسد الغابة (٣ /١٦١) .

(٤) قباء : قرية على ميلين من المدينة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ /٢٠) .

(٥) الاستيعاب (٣ /٩٠٥) .

(٦) الاستيعاب (٣ /٩٠٦) وأسد الغابة (٣ /١٦٢) ،فهو أول مولود في الإسلام بعد الهجرة. انظر الإصابة (٤ /٧٠) وتاريخ أبي الفدا (١ /١٩٦) .

(٧) أسد الغابة (٣ /١٦١) وحلية الأولياء (١ /٣٣٣) .

(٨) الاستيعاب (٣ /٩٠٦) .

(٩) البداية والنهاية (٨ /٣٣٣) .

(١٠) تهذيب ابن عساكر (٧ /٤١٤) .

تبسّم ثم بايعه[١] ؛ فقد كُلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غلمة من قريش ترعرعوا : عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن أبي سلمة ، فقيل : « لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر » ، فأُتي بهم إليه ، فكأنهم تكعكعوا[٢] ، فاقتحم عبد الله بن الزبير أوّلهم ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه ابن أبيه »[٣] .

وأتى عبد الله النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم[٤] ، فلما فرغ قال : « يا عبد الله ! اذهب بهذا الدم فاهرقه[٥] حيث لا يراك أحد » ، فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الدم فشربه ورجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عبد الله ! ما صنعت بالدم ؟ » ، فقال : « جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى عن الناس » ، فقال : « لعلك شربته ؟! » ، فقال : « نعم ! » ، فقال « ولم شربت الدم ؟! ويل للناس منك وويل لك من الناس » ، فكانوا يرون أنّ القوّة التي به من ذلك الدم[٦].

وفي رواية أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « إني شربته لأزداد به علماً وإيماناً ، وليكون شيء من جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسدي ، وجسدي أولى به من الأرض » ، فقال : « أبشر ! لا تمسّك النار أبداً ... ويل لك من الناس ، وويل للناس منك »[٧] .

---

(١) الإصابة (٤ /٦٩) وأسد الغابة (٣ /١٦٢) .

(٢) تكعكع : هاب وتراجع بعدما أقدم .

(٣) الإصابة (٤ /٧٠) وتهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٨) .

(٤) حجم : حجم المريض ، عالجه بالحجامة ، وهي امتصاص الدم بالمحجم .

(٥) هرق الماء : صبه . هراق الماء يهريقه هراقة : صبه . وهراق الدم ، سفكه. يقال : هراق دم عدوه ، قتله .

(٦) الإصابة (٤ /٧٠) وحلية الأولياء (١ /٣٣٠) والبداية والنهاية (٨ /٣٣٣) .

(٧) البداية والنهاية (٨ /٣٣٣) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٨) .

لقد كان عبد الله صحابياً جليلاً [١] ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير [٢] وحدّث عنه بجملة من الحديث ، وروى عن أبيه وعمر وعثمان وغيرهم [٣] . وقد ظهرت عليه بوادر الحرص على الإمارة وهو صغير : أتي النبي صلى الله عليه وسلم بلصّ فأمر بقتله ، فقيل : « إنه سرق » ، فقال : « اقطعوا يده » ؛ ثم أتي به بعد ذلك إلى أبي بكر وقد سرق وقد قطعت قوائمه ، فقال أبو بكر : « ما أجد لك شيئاً إلا ما قضى فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أمر بقتلك ، فانه كان أعلم بك » ، فأمر بقتله أغيلمة من أبناء المهاجرين ، فقال ابن الزبير : « أمّروني عليكم » ، فأمّروه وانطلقوا به الى (البقيع)[٤] ، فقتلوه [٥] . وكان أول ما عُلم من أمر ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي ، فمرّ رجل فصاح عليهم فنفروا ؛ ومشى ابن الزبير القهقرى وقال : « يا صبيان إجعلوني أميركم وشدّوا بنا عليه » . ومرّ به عمر بن الخطّاب وهو صبي يلعب مع الصبيان ، ففروا ووقف ، فقال له : « ما لك لم تفر مع أصحابك ؟! » فقال : « يا أمير المؤمنين ! لم أذنب فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيّقة فأوسع لك » [٦] .

ونشأ في بيت كريم الآباء والأمهات والعمّات والخالات في محيط كله نور وهدى ، وجهاد وفداء ، قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحت رعاية جدّه لأمه الصديق أبي بكر رضي الله عنه وتحت كنف والده الزبير بطل أبطال المسلمين وبأحضان أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته

---

(١) البداية والنهاية (٨ /٣٣٢) .
(٢) الإصابة (٤ /٦٩) .
(٣) البداية والنهاية (٨ /٣٣٢) والإصابة (٤ /٦٩) .
(٤) البقيع : مقبرة أهل المدينة ، وهي داخل المدينة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ /٢٠٤)
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٩) .
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٩) .

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

لقد نشأ في محيط مناسب ليكون بطلاً مسدّداً ، فنال شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد لصغر سنه .

جهاده :

١ ـ شهد عبد الله معركة (اليرموك)[١] الحاسمة مع أبيه[٢] ، فلما انهزم الروم يوم (اليرموك) جعل يُجهز على جرحاهم[٣] . وشهد خطبة عمر بـ (الجابيّة)[٤] .

وشهد ابن الزبير فتح مصر ، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر[٥] وذلك سنة عشرين الهجرية .

وشهد مع عمرو بن العاص فتح (ليبيا) ، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع الى (صبراته) لفتحها ، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها . وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ، فصبّحوها من ليلتهم على غرّة ، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى ؛ فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ولم يهرب منهم أحد إلا من ركب البحر هارباً إلى (صقلية) . وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصُّن الروم به مرة ثانية ، وغنموا كل ما فيها وكان شيئاً كثيراً ، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم ، فحضر إلى (صبراته)[٦] .

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٦) وفوات الوفيات (١ /٤٤٥) والإصابة (٤ /٧١) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٦) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٦ - ٣٩٧) .
(٤) الجابية : قرية من أعمال دمشق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ /٣٣) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٦) عن شهوده خطبة عمر بن الخطاب بالجابية .
(٥) الطبري (٣ /١٩٩) .
(٦) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٢ - ٤٣) .

٢ ـ وشهد فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وكان الفتح على يديه[١] .

فقد سيّره عثمان في جماعة إلى (إفريقية) سنة ست وعشرين الهجرية ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مُجداً حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم . ولما وصل كثُر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل (جرجير) ملك (إفريقية) عن الخبر ، فقيل : « قد أتاهم عسكر » ، ففتّ ذلك في عضده ... ورأى عبد الله قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فلما أذّن سمع منادي (جرجير) يقول : « من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي » ، فخاف عبد الله بن سعد على نفسه . فحضر ابنِ الزبير عند عبد الله بن سعد وقال له : « تأمر منادياً ينادي : من أتاني برأس (جرجير) نفلته مائة ألف وزوّجته إبنته واستعملته على بلاده » ، ففعل ، فصار (جرجير) يخاف أشد من عبد الله بن سعد .

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : « إنّ أمرَنا يطول مع هؤلاء ، وهم في إمداد متصلة وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم . وقد رأيتُ أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرّة ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم » ؛ فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك .

وفي صباح الغد ، نفّذ ابن سعد خطّة ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ـ وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذّن بالظهر وهمّ الروم بالانصراف

---

(١) الإصابة (٤ /٧١) .

على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ... عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون[1] .

ونظر عبد الله فرأى (جرجير) وقد خرج من عسكره ، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله[2] . فقد رأى ابن الزبير (جرجير) وراء عسكره على برذون أشهب ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد ؛ فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه ... ثم حمل في الوجه الذي فيه (جرجير) وقال للفرسان الذين معه : « احموا ظهري » ... فخرق الصف الى (جرجير) وخرج صامداً له وما يظن هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسول اليه .. حتى دنا منه ، فعرف الشر ، فثنى برذونه مولياً ، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ودافّه[3] بالسيف وحزّ رأسه ونصبه في رمحه وكبّر ... فحمل المسلمون من الوجه الآخر ، فانهزم العدو في كل وجه ومنحَ الله المسلمين أكتافهم[4] وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير (جرجير) فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وأُخذت ابنة (جرجير) سبيّة ، فنقلها ابن الزبير ، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار[5] .

---

(١) ابن الاثير (٣ /٣٣ – ٣٥) وابن خلدون (٢ /١٢٩ ملحق) . وانظر فتح مصر والمغرب (٢٤٦ – ٢٤٩) والبلاذري (٢٢٧ – ٢٢٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١ /٢٧٠) ومعالم الإيمان (١ /١١١) والبيان المغرب (١ /٤ – ٨) والنجوم الزاهرة (١ /٧٩) والبدء والتاريخ (٥ /١٩٩) .

(٢) أسد الغابة (٣ /١٦٢) وابن الأثير (٣ /٣٤) .

(٣) داف : دافه مدافّة ودفافاً ، أجهز عليه.

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧ /٤٠١ – ٤٠٢) وانظر فتح مصر والمغرب (٢٤٦) .

(٥) ابن الأثير (٣ /٣٤ – ٣٥) .

ولما أراد ابن أبي سَرْح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير : « أنت أولى بهذا » ، فأرسله إلى عثمان بشيراً ، فأخبره بما فتح الله عليه[1] ، فأمره عثمان أن يخطب ، فلما خطب قال عثمان : « كأنه أبو بكر »[2] .

لقد كان فتح (إفريقية) على يده[3] .

٣ — وتولى حرب (إفريقية) معاوية بن حُدَيج السَّكوني بعد عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة .

فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج في حروبه ، وحين وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح (قمُونية)[4] ، بث السرايا في البلاد وبعث عبد الله بن الزبير الى (سُوْسَة) ففتحها[5] ، وكان ذلك سنة خمس وأربعين الهجرية[6] .

٤ — وحضر عبد الله بن الزبير الشام لغزو (القسطنطينية) أيام معاوية ابن أبي سفيان[7] فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين[8].

الإنسان :

١ . حياته :

ا — كان عبد الله من بني أسد أحد بيوتات قريش العشرة[9] ، ولد

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠٢) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠١) وفتح مصر والمغرب (٢٤٩) .

(٣) أسد الغابة (٣/ ١٦٣) والاصابة (٤/ ٧١) .

(٤) قمونية : مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٢)

(٥) الاستقصاء (١/ ٦٩) وانظر ترجمة معاوية بن حديج السكوني في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٦) رياض النفوس (١/ ١٧) والبيان المغرب (١/ ١٧) والاستقصا (١/ ٦٩) والخلاصة النقية (٤) .

(٧) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٣٩٦) .

(٨) ابن الأثير (٣/ ١٨١ — ١٨٢) والطبري (٤/ ١٧٣) .

(٩) انظر بطون قريش في سيرة ابن هشام (١/ ١٤٣ — ١٤٤) .

وترعرع في أحضان النبوّة وكنف الصديق أبي بكر ورعاية أبيه بطل الإسلام الزبير بن العوّام ، في بيت كريم الآباء والأمهات والعمات والخالات ، وكان أول مولود للمسلمين في المدينة المنورة بعد الهجرة .

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان أثيراً عند خليفته الصدّيق أبي بكر ، فاستقطع ابن الزبير من أبي بكر في خلافته جبل (سلع)[1] ، فقال له أبو بكر : « ما تصنع به ؟! » ، فقال : « لنا جبل بمكة يقال له جبل (خويلد) فأحب أن يكون لنا بالمدينة مثله » ؛ فأقطعه أبو بكر ناحية من (سلع) فبنى به بنائين لا يعرف لهما اليوم أثر[2] .

وبقي أثيراً عند عمر بن الخطاب من بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، يستشيره في الملمّات ويعتمد عليه في المهمّات .

وفي أيام عثمان بن عفان ، كان ابن الزبير أحد المقرّبين اليه ، فلما حاصره أهل الأمصار ، دافع عنه دفاعاً مستميتاً في يوم (الدار) ؛ فقد استخلفه عثمان على (الدار) قائداً للمدافعين عن عثمان ، فكان هو الذي يقاتل بالصامدين دفاعاً عن عثمان ، فيخرج بالكتيبة ويباشر القتال بنفسه ؛ فجرح بضعة عشر جرحاً غائرة : « ... فجرحت بضعة عشر جرحاً ، وإني لأصع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خير أعمالي .. » كما كان يقول ابن الزبير[3] ... وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطاة الجسري يمدحه ويلوم رجلاً[4] :

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولكن عبد الله طاعن دونه وضارب يوم الدار إذ كره الضرب

(١) سلع : جبل بسوق المدينة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ /١٠٧) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧ /٣٩٩) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٢) وانظر الاصابة (٤/٧١) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٣) .

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق ، وكان يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفتن في إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه .

وبعد مقتل عثمان بن عفان ، شهد معركة (الجمل) مع أبيه وخالته عائشة أم المؤمنين ، وكان على الرجالة [1] وكان من الأمراء يوم وقعة (الجمل)[2] ؛ فأخذ عبد الله بن الزبير من بين القتلى يوم (الجمل) وفيه بضع وأربعون جراحة ، فأعطت عائشة البشير الذي بشّرها بأنه لم يمت عشرة آلاف[3] ثم سجدت لله شكراً ، ولم يكن أحد أحبّ إليها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبيها من ابن الزبير ، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها [4] .

واعتزل ابن الزبير حروب عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان[5]، كما اعتزل غيره من كبار الصحابة ، وهذا يدلّ على شدّة تعلّقه بوحدة كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم ، ولست أرى اشتراك عبد الله في معركة (الجمل) دليلاً عكسياً لكراهيته سفك دماء المسلمين ، إذ كان ملتاعاً من قتل عثمان وكان لا يريد عقوق والده وخالته عائشة أم المؤمنين ، ويرى أن لرأييهما في المطالبة بدم عثمان والحرص على معاقبة قاتليه وزناً لا بد من احترامه وأخذه بنظر الإعتبار .

ب ــ وبايع عبد الله معاوية[6] بعد انتهاء الفتنة الكبرى وعودة الوحدة الشاملة إلى صفوف المسلمين .

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا لقيه قال : « مرحباً بابن عمّة رسول الله

---

(١) الإصابة (٤/٧١) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٣) .
(٣) الإصابة (٤/٧١) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٢) .
(٥) الإصابة (٤/٧١)
(٦) الإصابة (٤/٧١)

صلى الله عليه وسلّم وابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم »، ويأمر له بمائة ألف [1].

وسمع معاوية رجلاً يقول :

ابن رقاش ماجد سميدع يأتي فيعطى عن يد أو يمنع

فقال : « ذاك عبد الله بن الزبير » . ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فأوسع له معاوية عن سريره ، فلما انصرف عبد الله أقبل مروان على معاوية وقال له : « لله درّك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدني إلا صغيراً » ، فقال معاوية : « نفس عصام سوّدت عصاما »[2] .

وكان ابن الزبير يقف موقف المتحدي من معاوية في بعض الاحيان ، فقد لقي ابن الزبير معاوية في المدينة المنوّرة يوماً فقال له : « أدني[3] على الوليد بن عتبة[4]، فقد نزأ به خطله ، وذهب به جهله إلى غاية يقصر عنها الأنوق[5] ، ودون قرارها العقوق » ، فقال له معاوية : « والله ما يزال أحدكم يأتيني يغلي جوفه كغلي المرجل على ابن عمه » ، فقال ابن الزبير : « أما والله ما ذلك عن فرار منه ولا جبن عنه ، ولقد علمت قريش أني لست بالفه[6] الكهام[7] ، ولا بالهلباجة[8] النثر[9] » ، فقال له معاوية :

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٩) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٣) .

(٣) أدني : أعدني ، ويقال إن أدني أفصح من أعدني .

(٤) هو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان .

(٥) الأنوق : طير الرخم وهو يرتاد لبيضه شوامخ الجبال حيث يبعد متناوله ويخفي مكانه ، فلا يكاد إنسان يجده أو يصل اليه . والعرب تضرب المثل فيمن طلب ما يعز وجوده ويتعذر إدراكه ونيله فيقولون : إنه يطلب بيض الأنوق .

(٦) الفه : الفهاهة في الكلام ما يأتي على غير استقامة وهو الساقط لفظاً ومعنى .

(٧) الكهام : الكليل ، يقال : سيف كهام ، إذا كان نابياً فليلا) .

(٨) الهلباجة : الأحمق .

(٩) النثر : ذو الرأي السخيف واللب الضعيف .

« إنك لتهدّدني وقد عجزت عن غلام من قريش لم يبر[1] في سباق ولم يضرب في سياق[2] ، وإن شئت خلّينا بينك وبينه » ، فقال ابن الزبير : « ما مثلي يُهارش[3] به ، ولكن عندك من قريش والأنصار ومن ساكني (الحجون)[4] في الآطام[5] من إن سألته حملك على محجّة أبين من ظهر الجفير »[6]، قال : « ومن ذلك ؟! » ، فقال : « هو أبو جهم بن حذيفة » ، فقال معاوية : « تكلم يا أبا الجهم » ، فقال : « اعفني » ، فقال : « عزمت عليك لتقولنّ » ، قال : « نعم ، أمك هند وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وأسماء خير من هند . وأبوك أبو سفيان ، وأبوه الزبير ، ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير . وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله »[7].

لقد كان عبد الله يقف موقف الند للند من معاوية ... وأكثر .

والحق أن معاوية كان يبذل قصارى جهده لارضاء ابن الزبير عنه . حجّ معاوية فتلقّاه الناس ولم يتلقّه ابن الزبير ولكنه بعث أحد مواليه وقال له : « اذهب فانظر ما يقول لك معاوية » ؛ فلما رآه معاوية قال له : « أين ابن الزبير ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنه كان وكان ... » وجعل يعذره ،

---

(١) لم يبر في سباق : لم يسبق مجارياً فيفضله وتظهر غلبته عليه . يقال : أبر فلان على فلان ، إذا غلبه وزاد في الفضل عليه .

(٢) لا ضرب في سياق : لم يرض ولم يؤخذ بالتثقيف ولذع التأديب .

(٣) تهارش القوم : تقاتلوا .

(٤) الحجون : موضع معروف بمكة ، وإياه عنى الشاعر بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وقال الآخر :

هيجتني الى الحجون شجون ليته قد بدا لعيني الحجون

انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٢٧ - ٢٢٨) .

(٥) الآطام : جمع أطم ، والعرب تسمي ما كان مربعاً من البيوت كعبة ، وما كان مدوراً أطماً .

(٦) الجفير : الكنانة وهي جعبة السهام وجمعه : جفر ، قال الشماخ :

وخفّت نوايا من جنوب عشيرة كما خف من نبل المرامي جفيرها

(٧) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٤) .

فقال معاوية : « لا والله ، ولكنه في نفسه شيء » ؛ فلما كان بـ (مِنى)[1] مرّ به ابن الزبير وقد حلق معاوية رأسه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما أكثر جحرة[2] رأسك !!! » ، فقال : « إتّق الله ... لا تخرج عليك حيّة من بعض هذه الحجرة فتقتلك » . وأفاض معاوية من (منى) إلى مكة فلم يدخل عليه ابن الزبير ، فلما أراد معاوية أن يطوف قام إليه ابن الزبير فأخذ بيده وطاف معه حتى فرغ من طوافه ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ! إني أريد أن تنطلق معي فتنظر إلى بنائي » ، فا نطلق معه معاوية الى (قُعَيْقِعَان)[3] فنظر إلى بنائه ودوره ثم رجع معه حتى إذا كان بالباب قال : « يا أمير المؤمنين ! يقولون جاء معه أمير المؤمنين فنظر إلى بنائه ودوره ، ففعل ماذا ؟ لا والله لا أدعك حتى تعطيني مائة ألف » ، فأعطاه . وجاء مروان فقال : « والله ما رأيت مثلك ! جاءك رجل قد سمى : بيت مال الديوان ، وبيت الخلافة ، وبيت كذا ... فأعطيته مائة ألف » ، فقال معاوية : « ويلك فكيف أصْنع بابن الزبير ؟! »[4] .

وسأل ابن الزبير معاوية شيئاً فمنعه ، فقال : « والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية (يعني الكعبة) ، فلا أشتم لك عرضاً ولا أنضب[5] لك حسباً ، ولكن أسدل عمامتي بين يدي ذراعاً ومن خلفي ذراعاً في طريق أهل الشام ، وأذكر سيرة أبي بكر وعمر ، فيقول الناس ؛ من هذا ؟ فيقولون : ابن

---

(١) منى : الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي به الجمار من الحرم ، سمي بذلك لما يمنى به من الدماء ، أي يراق ، قال تعالى : (من مني يمنى) ، وهي بليدة على فرسخ من مكة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٥٨ — ١٦٠) .

(٢) جحرة : السنة الشديدة المجدبة القليلة المطر ، ولعله أراد : المجحر ، وهو الملجأ والمكمن .

(٣) قعيقعان : اسم جبل بمكة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٣٣) .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٦) .

(٥) نضب : غار ، نضب الماء ، غار في الأرض . نضب خيره ، قل . نضب ماء وجهه : لم يستح .

حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الصديق » ، فقال معاوية : « حسبك بهذا شراً... هات حوائجك »[1].

ونازع مروان بن الحكم عبد الله بن الزبير ، فكان هوى معاوية مع مروان ، فقال ابن الزبير : « يا أمير المؤمنين ! إن لك حقاً وطاعة ، فأطع الله نطعك ، فإنه لا طاعة لك علينا إلا في حق الله عزّ وجل ... »[2].

وكان عبد الله في المدينة ، وكان على المدينة مروان بن الحكم لمعاوية بن أبي سفيان ، فقام مروان على المنبر في المسجد وقال : « إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده » ، فقام عبد الرحمن ابن أبي بكر والحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وابن عباس ، فأنكروا ذلك[3] وامتنعوا من بيعة يزيد ، فامتنع الناس لامتناعهم[4] ، وكان ذلك سنة ست وخمسين الهجرية[5].

وركب معاوية إلى مكة معتمراً ، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة ، إستدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة فأوعده وتهدّده بانفراد[6] ، فقال لابن الزبير : « قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم يا ابن أخي ، فما إربك إلى الخلاف ؟ » ، فقال ابن الزبير : « أنا أقودهم ؟! » ، قال : « نعم ! » ، قال : « فارسل إليهم فان بايعوا كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت عليّ بأمر » ، فقال معاوية : « وتفعل ؟ » ، فقال ابن الزبير : « نعم » ثم قال : « يا أمير المؤمنين ! ! نحن في حرم الله عز وجل ، وعهد الله سبحانه ثقيل[7] » .

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٦) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٦) والبيان والتبيين (٢/٩٥ – ٩٦) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٩٩) .
(٤) أبو الفدا (١/١٨٧) .
(٥) الطبري (٤/٢٢٤) .
(٦) البداية والنهاية (٨/٧٩) .
(٧) الطبري (٤/٢٢٦) .

وفي رواية ، أن هؤلاء الخمسة اتفقوا على أن يكون ابن الزبير المخاطب لمعاوية عنهم ، فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ، وحملي ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمِّرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك ... » ، فسكتوا ، فقال : « ألا تجيبون ؟! » ، مرتين ؛ ثم أقبل على ابن الزبير فقال : « هات ! لعمري إنك خطيبهم » ، فقال : « نعم . نخيِّرك بين ثلاث خصال » ، فقال : « اعرضهنّ ! » ، فقال : « تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر » ، فقال معاوية : « ما صنعوا ؟ » ، فقال : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر » ، فقال : « ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الإختلاف » ، فقال : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه ، فاستخلفه ؛ وإن شئت فاصنع كما صنع عمر : جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه » ، فقال معاوية : « هل عندك غير هذا ؟ » فقال : « لا ! » ، فقال : « فأنتم ؟ » ، فقالوا : « قولنا قوله » ؛ فقال معاوية : « فإني أحببت أن أتقدّم إليكم : أنه قد أعذر من أنذر . إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ؛ وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » ... ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : « أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يردّ عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » ، ثم خرج وخرجوا معه ، فرقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ،

وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله » ، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر[١] . وكان هؤلاء الخمسة قعوداً ولم يوافقوا ولم يظهروا خلافاً ، لما تهدّدهم وتوعّدهم[٢] .

وامتنع ابن الزبير عن بيعة يزيد وتحوّل إلى مكة وعاذ بالحرم[٣] ؛ فقال معاوية ليزيد : « إني مهّدت لك الأمور ولم يبق أحد لم يبايعك غير هؤلاء الأربعة ، فأما عبد الرحمن (ابن أبي بكر) فرجل كبير نهايته اليوم أو غداً ، وأما ابن عمر فرجل قد غلب عليه الورع ، وأما الحسين فله قرابة فان ظفرت به فاصفح عنه ، وأما ابن الزبير فان ظفرت به فقطّعه إرْباً إرْباً »[٤] .

جـ — ومات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية[٥] ، فاستمرّ ابن الزبير بمكة ممتنعاً عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية[٦] .

وفي رواية ، أن ابن الزبير كان بالمدينة يوم مات معاوية ، وكان على المدينة حينذاك الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فكتب يزيد إلى الوليد : « أما بعد . فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ، والسلام » ، ولم يكن ليزيد همة إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته[٧] .

وبعث الوليد بن عتبة إلى مروان بن الحكم واستشاره في أمر هؤلاء النفر ، فقال : « أرى أن تدعوهم قبل أن يعلموا بموت معاوية إلى البيعة ، فإن أبوا ضربت أعناقهم » ، فأرسل من فوره عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان

---

(١) ابن الأثير (٣/٣٠٠ — ٣٠١) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٨٥) والبدء والتاريخ (٢/٦ — ٧) .
(٣) الإصابة (٤/٧١) وتهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٧) .
(٤) أبو الفدا (١/١٨٧) .
(٥) شذرات الذهب (١/٦٥) والعبر (١/٦٤) .
(٦) أبو الفدا (١/١٩١) .
(٧) ابن الاثير (٤/٥) .

إلى الحسين وابن الزبير – وهما في المسجد – فقال لهما : « أجيبا الأمير » ، فقالا : « انصرف ... الآن نأتيه » . وبعث الوليد ثانية الى عبد الله بن الزبير فامتنع عليه وماطله يوماً وليلة ، ثم ركب في مواليه وسار إلى مكة عن طريق (الفُرْعِ)[1] ، فبعث الوليد خلف ابن الزبير الرجال والفرسان فلم يقدروا على ردّه[2] .

وقدم ابن الزبير مكة ، فجعل يحرّض الناس على بني أمية ، وتثاقل عن طاعة يزيد وأظهر شتمه . وبلغ يزيد ذلك فوجد عليه .

وبقي ابن الزبير في مكة حتى خرج الحسين إلى العراق ، فقال ابن الزبير : « أنا على السمع والطاعة ، لا أغيّر ولا أبدّل » ، ومشى إلى يحيى ابن حكيم بن صفوان بن أمية الجمحي وهو والي مكة ليزيد فبايعه له على الخلافة ، فكتب يحيى بذلك إلى يزيد فقال : « لا أقبل هذا منه حتى يؤتى به في جامعة[3] ، فقال له ابنه معاوية : « يا أمير المؤمنين ! إدفع الشرّ عنك ما اندفع ، فان ابن الزبير رجل لحِز[4] لجوج ولا يطيع بهذا أبداً ، فكفّر عن يمينك واقبلها منه حتى تنظر ما يصير إليه أمره ، فان ذلك أفضل » ؛ فغضب يزيد وقال : « إن في ذلك لعجباً » ، فقال معاوية لابنه : « فادع عبد الله بن جعفر فسله عما أقول وتقول » ؛ فدعا ابن جعفر فذكر له قولهما ، فقال عبد الله : « أصاب أبو ليلى ووفق » ، فأبى يزيد أن يقبل ذلك ، وعزل الوليد بن عتبة عن المدينة وولاّها عمرو بن سعيد بن العاص ، وأرسل إليه : « إن أمير المؤمنين يقسم بالله ، لا يقبل من ابن الزبير شيئاً حتى يؤتى

---

(١) الفرع : قرية من نواحي الربذة عن يسار السقيا بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٣/٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٤٧/٨) وانظر ابن الأثير (٦/٤) .

(٣) الجامعة : الغل يجمع اليدين في العنق .

(٤) لحز : لحز فلان لحزاً ، شح وبخل . ولحز فلان : ضاقت نفسه فهو لحز ولحز . ولحزه : ألح عليه .

به في جامعة »[1].

وبعث يزيد الحصين بن نمير وعبد الله الأشعري الى ابن الزبير بجامعة ، فمرّاً بالمدينة ، فبعث إليه مروان معهما ابنه عبد العزيز بن مروان يكلّمه في ذلك ويهوّن عليه الأمر ، فقدموا عليه مكة وأبلغوه يمين يزيد ورسالته ، وقال له عبد العزيز : إن أبي أرسلني إليك عناية بأمرك وحفظاً لحرمتك ، فابرر يمين أمير المؤمنين ، فانما يجعل عليك جامعة فضة أو ذهب وتلبس عليها برنساً ، فلا تبدو إلا أن يُسمع صوتها » ؛ فكتب ابن الزبير إلى مروان يجزيه خيراً ويقول : « قد عرفت عنايتك ورأيك ، فأما هذا فإني لا أفعله أبداً ؛ فليكفّر يزيد عن يمينه أو يدع » ؛ وقال ابن الزبير : « اللهم إني عائذ ببيتك ، وقد عرضت عليهم السمع والطاعة فأبوا إلا أن يحلّوا بي ويستحلّوا مني ما حرّمت » ، فمن يومئذ سمي : العائذ . وأقام بمكة لا يعرض لأحد ولا يعرض له أحد . فكتب يزيد الى عمرو بن سعيد أن يوجّه إلى ابن الزبير جنداً ، فسأل عمرو : « من أعدى الناس لعبد الله بن الزبير » ، فقيل له : « أخوه عمرو بن الزبير » ، فوجهه إليه[2] ، ومعه جيش نحو ألفي رجل . وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه : بر يمين أمير المؤمنين ، وتعال حتى أجعل في عنقك جامعة من فضة لا ترى ، ولا يضرب الناس بعضهم بعضاً ، فإنك في بلد حرام » ؛ فأرسل عبد الله بن الزبير من قاتل رجال عمرو بن الزبير ، فتفرّق عن عمرو أصحابه[3] .

ونحّى ابن الزبير الحارث بن خالد عن الصلاة بمكة ، وكان عاملاً ليزيد ، وأمر مصعب بن عبد الرحمن أن يصلي بالناس ، فكان يصلي بهم . وكان ابن الزبير لا يقطع أمراً دون المسور بن مخرمة ومصعب وجبير بن شيبة

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١٠) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١٠ - ٤١١) .
(٣) ابن الأثير (٤/ ٧ - ٨) .

وعبد الرحمن بن صفوان بن أمية ، فكان يشاورهم في امره كله ويريهم أن الأمر شورى بينهم لا يستبد بشيء منه دونهم، ويصلي بهم الصلوات والجمع ويحجّ بهم[١] .

وفي سنة إحدى وستين الهجرية قتل الحسين بن علي رضي الله عنه ، فلما بلغ ابن الزبير قتل الحسين قام في الناس فعظّم قتله ، وعاب أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة[٢] ، فأظهر ابن الزبير الخلاف ليزيد وبويع بمكة ، فعزل يزيد عمرو بن سعيد عن المدينة وولاّها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فأقام الوليد يريد غرّة ابن الزبير فلا يجده إلا محترزاً ممتنعاً. وكان الوليد يفيض من (عرفات) ويفيض معه سائر الناس وابن الزبير واقف في أصحابه ، ثم يفيض بأصحابه . وعمل ابن الزبير بالمكر في أمر الوليد ، فكتب الى يزيد : « إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتّجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخُلُق ليّن الكنف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجتمع ما تفرّق ؛ فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ، والسلام » ، فبعث يزيد إلى الوليد فعزله ، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو فتى غرٌّ حدَث غمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضرّسه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله[٣] .

ووثب أهل المدينة على عثمان بن محمد بن أبي سفيان وأخرجوه ، فأرسل يزيد مسلم بن عقبة المري في جيش من أهل الشام وأمره بقتال أهل المدينة ، فاذا فرغ من ذلك سار إلى مكة ؛ فدخل مسلم المدينة فهرب منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبث فيها وأسرف في القتل ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤١١/٧) .

(٢) انظر نص خطاب ابن الزبير في ابن الأثير (٤٠/٤) .

(٣) الطبري (٣٦٧/٤ – ٣٦٨) وابن الأثير (٤١/٤) .

فسميت هذه الواقعة : وقعة (الحرّة)[1] . وفرغ مسلم من أهل المدينة[2] فتوجّه نحو مكة ، فلما كان في بعض الطريق مات فاستخلف حصين بن نمير الكندي فقال له : « إحذر خدائع قريش ولا تعاملهم إلا بالثِقاف[3] ثم القطاف » ؛ فمضى الحصين حتّى ورد مكة ، فقاتل بها ابن الزبير أياماً ؛ فضرب ابن الزبير فسطاطاً في المسجد ، فكان فيه نساء يسقين الجرحى ويداوينهم ، ويطعمن الجائع[4] .

وتلاحق بابن الزبير جماعات ممن بقي من أشراف المدينة ، وانضاف إليه بعض أهل اليمامة ليمنعوا البيت من أهل الشام . وصابر ابن الزبير أهل الشام الذين نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها حتّى بالنار ، فاحترق جدار البيت . واستمر حصار الكعبة حتّى جاء نعي يزيد بن معاوية الذي مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين الهجرية ، فعلم ابن الزبير بموت يزيد قبل أهل الشام فنادى فيهم : « يا أهل الشام ! قد أهلك الله طاغيتكم ، فمن أحبّ منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، فليفعل . ومن أحبّ أن يرجع إلى شامه ، فليرجع » ، فلم يصدّق الشاميون أهل مكة فيما أخبروهم به حتّى جاءهم الخبر اليقين ؛ فغلب أهل الشام هنالك وانقلبوا صاغرين[5] .

ولما بلغ الحصين خبر يزيد بعث إلى ابن الزبير فقال : « موعد ما بيننا

---

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار . وفي المدينة حرتان أحداهما : حرة واقم ، وفي هذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٥٦) و (٣/٢٦٢) .

(٢) انظر تفاصيل وقعة الحرة في الطبري (٤ / ٣٧٠ - ٣٨١) وابن الأثير (٤/٤٤ - ٤٨) والبداية والنهاية (٨/٢١٧ - ٢٢٤) .

(٣) الثقاف : الحصام والجلاد .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٢) .

(٥) البداية والنهاية (٧/٢٢٦) .

الليلة (الأبْطَح)[1] ، فالتقيا وتحادثا ؛ فكان مما قاله الحصين : « أنت أحقّ بهذا الأمر ! هلمّ فلنبايعك ، ثم اخرج معنا إلى الناس ، وتُهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم » ، فقال ابن الزبير : « أنا لا أهدر الدماء ! والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم » . وأخذ الحصين يكلّمه سراً وهو يجهر ويقول : « والله لا أفعل ! » ؛ فقال الحصين : « قبّح الله من يعدّل بعد ذاهباً وآيباً . قد كنت أظن أن لك رأياً ، وأنا أكلمك سراً وتكلّمني جهراً ، وأدعوك الى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة » ، ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة . وندم ابن الزبير على ما صنع ، فأرسل إلى الحصين : « أما المسير إلى الشام فلا أفعله ، ولكن بايعوا لي هناك ، فإني مؤمنكم وعادل فيكم » ، فقال الحصين : « إن لم تقدم بنفسك لا يتمّ الأمر ، فان هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر » . وسار الحصين إلى المدينة ، فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام ، فلم يتفرقوا وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام ، ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد ، فوصل أهل الشام دمشق وقد بويع معاوية بن يزيد[2] .

د ـ وبعد موت يزيد بويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة بالحجاز وسمي : أمير المؤمنين[3] كما بويع معاوية بن يزيد بالشام[4] وذلك سنة أربع وستين الهجرية[5]، فغلب ابن الزبير على الحجاز والعراقَيْن ومصر وأكثر الشام[6] وخُراسان[7] وأكثر السند[8] ، فنقض في هذه السنة الكعبة وبناها على

---

(١) الأبطح : الرمل المنبسط ، والأبطح يضاف الى مكة والى (منى) لأنه المسافة بينه وبينها واحدة ، وربما كان الى (منى) أقرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٥/١) .

(٢) ابن الأثير (٥١/٤) والطبري (٣٨٥/٤ – ٣٨٧) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤١٣/٧) .

(٤) ابن الأثير (٥١/٤) .

(٥) العبر (٦٩/١) وشذرات الذهب (٧١/١) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٦٧/١) .

(٦) تهذيب ابن عساكر (٣٩٦/٧) .

(٧) تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٧/١) .

(٨) فوات الوفيات (٤٤٦/١) .

قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل الحجر في البيت ، وكان قد تشقق البيت من المنجنيق وأحرق سقفه[1] ؛ وكسا الكعبة بالديباج ، وهو أول من كسا الكعبة بالديباج ، وكانت كسوتها المُسُوح[2] والأنْطاع[3] ، وقد كان يطيِّبها حتى يوجد ريحها في داخل الحرم[4].

وبقي معاوية بن يزيد خليفة بالشام شهرين أو أقل ومات[5] ، فغلب على دمشق الضحّاك بن قيس الفِهْري ، فدعا الى ابن الزبير ثم تركه ودعا إلى نفسه . وانحاز عنه مروان بن الحكم في بني أمية إلى أرض (حَوْرَان)[6] ، فوافاهم عبيد الله بن زياد من الكوفة على البريّة منهزماً من أهلها ، فقوي عزم مروان على طلب الخلافة[7] . وحارب مروان الضحاك بن قيس في (مرج راهط)[8] وانتصر عليه ، فبايعه أهل الشام[9] ، ففتح مروان مصر سنة خمس وستين الهجرية[10] .

ومات مروان سنة خمس وستين فعهد بالأمر إلى ابنه عبد الملك بن مروان[11] ،فخرج هذا العام المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة طالباً بثأر

---

(١) العبر (١/٧١) .

(٢) المسوح : جمع مسح وهو الكساء من شعر . والمسح : ثوب الراهب . جمع مسح : مسوح وأمساح .

(٣) الانطاع : جمع نطع ، وهو بساط من الجلد .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٣) .

(٥) العبر (١/٦٩) .

(٦) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٦٠).

(٧) العبر (١/٧٠) .

(٨) مرج راهط : بنواحي دمشق وهو من اشهر المروج . انظر معجم البلدان (٨/١٦) .

(٩) انظر تفاصيل معركة مرج راهط في الطبري (٤/٤١٣ - ٤٢٠) وابن الأثير (٤/٥٨-٦٠) والبداية والنهاية (٨/٢٤١ - ٢٤٤) .

(١٠) العبر (١/٧١) وابن الأثير (٤/٦٠) .

(١١) شذرات الذهب (١/٧٤) والعبر (١/٧١)

الحسين ، فاجتمع إليه جمع كثير واستولى على الكوفة وبايعه الناس بها [1] ، فأرسل الجنود لقتال عبيد الله بن زياد فقتل ابن زياد . وولى ابن الزبير أخاه مصعب بن الزبير البصرة فسار إلى قتال المختار بالكوفة فقتله وكان ذلك سنة سبع وستين الهجرية [2] .

وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية تجهّز عبد الملك وسار إلى العراق ، وتجهّز مصعب بن الزبير لملاقاته واقتتل الجمعان ، وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وصاروا معه في الباطن ، فتخلّوا عن مصعب . وقاتل مصعب حتّى قتل هو وولده [3] ، فدعا عبد الملك جند العراق إلى بيعته فبايعوه ، فسار حتّى دخل الكوفة [4] .

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية جهّز عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي في جيش إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير ؛ فخرج الحجّاج في ألفي فارس من أهل الشام ، فسلك طريق العراق ولم يعرض للمدينة حتّى نزل مدينة (الطائف) وجعل يبعث البعوث إلى (عرفة) ويرسل ابن الزبير الخيل فيلتقيان ، فيهزم خيل ابن الزبير وتظفر خيل الحجاج . وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم ومحاصرة ابن الزبير : « فانه قد كلّت شوكته ، وملّت جماعته ، وتفرق عنه عامة أصحابه » ، وسأله أن يمدّه برجال أيضاً . وارتحل الحجاج من الطائف ونزل (بئر ميمون) [5] .

---

(١) أبو الفدا (١٩٤/١) .

(٢) العبر (٧٢/١ - ٧٤) .

(٣) ابو الفدا (١٩٦/١) .

(٤) الطبري (١٠/٥ - ١١) . وفي اليعقوبي (١٢/٢) : أن أحدهم دخل على عبد الملك وبين يديه رأس مصعب فقال : « رأيت يا أمير المؤمنين في هذا الموضع عجباً ! » فقال : « وما رأيت ؟! » ، فقال : « رأيت رأس الحسين بن علي بين يدي عبيد الله بن زياد ، ورأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار ، ورأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، ورأيت رأس مصعب بين يديك » ، قال : « فخرج من ذلك البيت وأمر بهدمه » .

(٥) بئر ميمونة : هكذا وردت في البداية والنهاية (٤٢٥/٨) ، والصحيح هو بئر ميمون ، باسم ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي ، وهي بئر بمكة . انظر معجم البلدان (٨/٢) .

وحصر ابن الزبير بالمسجد ، فلما دخل ذو الحجة حج بالناس الحجاج في هذه السنة وعليه وعلى أصحابه السلاح وهم وقوف بـ (عرفات) وفي غيرها من المشاعر ،وابن الزبير محصور لم يتمكن من الحج في هذه السنة ، بل نحر بدناً يوم النحر ، كما لم يتمكن كثير ممن معه من الحج ، كما لم يتمكن كثير من أصحاب الحجاج من الطواف بالبيت ، فبقوا على إحرامهم لم يحصل لهم التحلل الثاني [١] .

ونصب الحجاج المنجنيق على (أبي قُبَيْس)[٢] ورمى الكعبة ، ولم يمنع ابن الزبير الناس من الطواف[٣] .

واستهلت سنة ثلاث وسبعين الهجرية وكان أهل الشام لا يزالون محاصرين أهل مكة ، وقد نصب الحجاج المجانيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك . وكان مع الحجاج الحبشة فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً . وكان مع الحجاج أيضاً خمس مجانيق فألحّ على مكة بالرمي من كل مكان وحبس عن أهلها الميرة والماء ، فكانوا يشربون من ماء (زمزم) . وجعلت الحجارة تقع في الكعبة والحجاج يصيح بأصحابه : « يا أهل الشام ! الله الله في الطاعة » ، فكانوا يحملون على ابن الزبير ، فيشتدّ عليهم وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب شيبة (أحد أبواب البيت الحرام) ثم يكرُّون عليه فيشتد عليهم ... فعل ذلك مراراً ، وقتل يومئذٍ جماعة منهم وهو يقول : « هذا وأنا ابنُ الحواري » . وقيل لابن الزبير : « ألا تكلّمهم في الصلح ؟ » ، فقال : « والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً ! والله لا أسألهم صلحاً أبداً » . ولما رمو الكعبة بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود ، حتى جعلت أصواتها

---

(١) البداية والنهاية (٨/٣٢٥) .

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على البيت العتيق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٩٤) و (٧/٣٠) .

(٣) ابن الأثير (٤/١٣٦) .

تعلو على صوت المنجنيق ، فنزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلاً ، فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة ، فلم يزل الحجاج يشجعهم ويقول : « إني خبير بهذه البلاد ، وهذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها ، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم » ؛ وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً ، فجعل الحجاج يقول : « ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم ، وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة »[1].

ولم يزل القتال بينهم شديداً ، حتى غلت الأسعار في مكة وأصاب الناس مجاعة شديدة ، فذبح ابن الزبير فرسه وقسّم لحمها على أصحابه ، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمدّ من الذرة بعشرين ، وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق يقوي بها نفوس أصحابه . وأجهد أهل مكة الحصار ، فبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان ، فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف ، وافترق الناس عن ابن الزبير ، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخُبيْب وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه . وحرّض الناس الحجاجُ وقال : « قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق » ، فتقدّموا واملؤوا ما بين الحجون والأبواء)[2] ؛ فدخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق[3] وقال : « يا أمه ! خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟؟ » ، فقالت : « أنت والله يا بُنيّ أعلم بنفسك ! إن كنت تعلم أنك على حق

---

(١) البداية والنهاية (٣٢٩/٨) وانظر الطبري (٢٩/٥ - ٣٠) وابن الأثير (١٣٦/٤) واليعقوبي (١٢/٢ - ١٣) والبدء والتاريخ (٢٥/٦ - ٢٦) وتاريخ أبي الفدا (١٩٦/١) وفوات الوفيات (٤٤٧/١) وابن خلدون (٣٧/٣ - ٣٨) والعبر (٨١/١ - ٨٢) وتهذيب ابن عساكر (٤١٥/٧) .

(٢) الأبواء : جبل يمين المصعد من المدينة الى مكة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٢/١) .

(٣) ابن خلدون (٣٨/٣) وابن الأثير (١٣٦/٤) .

وإليه تدعو ، فامض فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تُمكّن من رقبتك فيلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبدُ أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك . وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ؟ وكم خلودُك في الدنيا ؟! القتل أحسن » ، فدنا منها ابن الزبير وقبّل رأسها وقال : « هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ... ما ركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يُستَحلّ حرمه ، ولكنّي أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة مع بصيراتي ، فانظري يا أمّهْ ، فاني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتدّ حزنك وسلّمي لأمر الله ، فان ابنك لم يتعمّد إتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ، ولم يَجُر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي ، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي ، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني » . فقالت له أمه : « إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني ، وإن تقدّمتك ففي نفسي أخرج حتّى أنظر ما يصير إليه أمرك » ، فقال : « جزاك الله يا أمّه خيراً ، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد » ، فقالت : « لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق »[1] ، ثم قالت : « اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبرّه بأبيه وبي . اللهم قد سلّمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين »[2] . ودنا ابن الزبير فتناول يد أمه وقبّلها ، فقالت : « هذا وداع فلا تبعد » ، فقال : « إنيَ لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمرُّ بي ،

---

(١) الطبري (٥/ ٣٠ - ٣١) وابن خلدون (٣/ ٣٨ - ٣٩) وابن الأثير (٤/ ١٣٦ - ١٣٧ وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١٥ - ٤١٦) والبداية والنهاية (٨/ ٣٣٠) .

(٢) الطبري (٥/ ٣١) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١٦) وابن الأثير (٤/ ١٣٧) .

واعلمي يا أمّه أني إن قتلت ، فانما أنا لحم لا يضرُّني ما صنع بي » ، فقالت : « صدقت يا بني ! أتمم على بصيرتك ولا تمكِّن ابن أبي عقيل منك ، وادن مني أودِّعك » ، فدنا منها وقبّلها وعانقها فقالت حيث مسّت الدرع : « ما هذا صنيع من يريد ما تريد » ، فقال : « ما لبست هذه الدروع إلا لأشدّ منك » ، فقالت : « فانه لا يشدّ مني » ، فنزعها ثم أدرك كميّه وشدّ أسفل قميصه وجبّة خز تحت القميص ، فأدخل أسفلها في المنطقة ، وأمه تقول : « إلبس ثيابك مشمّرة » ، ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول :

إني إذا أعـرف يومي أصبرْ إذ بعضهم يعـرف ثم يُنْكِرْ

فسمعت أمه قوله فقالت : « تصبر والله إن شاء الله : أبوك أبو بكر والزبير وأمُّك صفية بنت عبد المطلب »[1] .

وخرج ابن الزبير وكان أهل الشام قد أخذوا بأبواب المسجد وهم من الأبواب الى (الحجون) ، فدفعهم ابن الزبير دفعة تراكموا منها فوقعوا على وجوههم وأكثر فيهم القتل ثم رجع إلى موضعه . وأرسلت أسماء مولى لها ينظر ما صنع الناس ، فأقبل إليها فقالت : « من رأيت معه ؟ » ، فقال : « معه أهل بيته ونفر قليل » ، فقالت : « خذلوه وأحبُّوا الحياة ولم ينظروا لدينهم ولا لأحسابهم » ، ثم قامت تصلي وتدعو وتقول : « اللهم إن عبد الله بن الزبير كان معظماً لحرمتك ، كريه اليه أن تُعصى ، وقد جاهد فيك أعداءك ، وبذل مهجة نفسه رجاء ثوابك ، اللهم فلا تخيِّبه ... اللهم ارحم ذلك السجود والنحيب والظمأ في تلك الهواجر ... اللهم لا أقوله تزكية ولكن الذي أعلم وأنت أعلم به ... اللهم وكان براً بالوالدين .. »[2] .

قال شاهد عيان من أهل حمص شهد وقعة ابن الزبير مع أهل الشام

---

(١) الطبري (٣١/٥) .

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤١٨/٧) .

يصف يوم ابن الزبير الأخير ، قال : « رأيته يوم الثلاثاء وإنا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب ندخله لا يدخله غيرنا ، فيخرج إلينا وحده في أثرنا ونحن منهزمون منه . ولقد رأيته يقف بالأبطح ما يدنو منه أحد ، حتى ظننا أنه لا يقتل »[1] .

وقال شاهد عيان آخر من أصحابه يصف اليوم الأخير من أيام ابن الزبير : « لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، بات ابن الزبير يصلي عامة الليل ... ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى ، ثم انتبه بالفجر فقال : أذّن يا سعد ! فأذّن عند المقام . وتوضأ ابن الزبير وركع ركعتي الفجر ، ثم تقدّم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه ، فقرأ : ن . والقلم حرفاً حرفاً ، ثم سلّم . فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : اكشفوا وجوهكم حتى انظر – وعليهم المغافر والعمائم – فكشفوا وجوههم فقال : يا آل الزبير ! لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب ، اصطلحنا في الله ، فلا يرعكم وقع السيوف ، فان ألم الدواء أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، وغضوا أبصاركم من البارقة ، وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا يلهينّكم السؤال عني ، فمن كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول .. احملوا على بركة الله » ، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم (الحجون) ، فرمى أحدهم فأصابته في وجهه ، فأرعش لها ودمي وجهه ، فقال :

فلسنا على الأعقاب تَدْمِي كُلُومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وقاتلهم قتالاً شديداً ، فتغادروا عليه فقتلوه »[2] .

وكان ذلك اليوم يدعو : « اللهم إني أحببت لقاءك فأحبب لقائي ،

---

(١) الطبري (٥/ ٣٣) .

(٢) ابن الأثير (٤/ ١٣٧ – ١٣٨) والطبرى (٥/ ٣٢ – ٣٣) وابن خلدون (٣/ ٣٩) .

وجاهدت فيك عدوّك فأثبني ثواب المجاهدين[1]» .

وجاء الخبر إلى الحجاج ، فسجد ... وسار حتى وقف عليه وطارق ابن عمرو ، فقال طارق : « ما ولدت النساء أذْكر من هذا » ، فقال الحجاج « تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟! » ، فقال : « نعم ، هو أعذر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عذر ! إنا محاصروه وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ، ينتصف منا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو » ، فبلغ كلاهُما عبد الملك ، فصوّب طارقاً ..[2] .

ولما قتل ابن الزبير كبّر أهل الشام فرحاً بقتله ، فسمع عبد الله بن عمر ابن الخطاب التكبير فيما بين المسجد الى الحجون ، فقال : « لقد كبّر حين ولادته من هو خير ممن كبّر عند قتله »[3] .

وبعث الحجاج برأسه ورؤوس بعض وجوه أصحابه إلى عبد الملك ، وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى[4] ، فقالت امه للحجاج : « لم صلبته ؟ » ، فقال : « إني استبقت أنا وابنك إلى هذه الخشبة ، فسبقني إليهـــا »[5] .

وقصد عُروة بن الزبير عبد الملك فقال : « ان الحجاج صلب عبد الله فهب لأمه جثته » ، فقال : « نعم » ، وكتب الى الحجاج يعظم صلبه ، فأنزل الحجاج جثة ابن الزبير وبعث به الى أمه فغسلته ، فلما أصابـــه الماء تقطع ، فغسلته عضواً عضواً فاستمسك ، وصلى عليه عروة[6] .

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٥) .
(٢) الطبري (٥/٣٣) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٦) .
(٤) ابن خلدون (٣/٣٩) .
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/٤١٧) .
(٦) ابن الأثير (٤/١٣٨) .

وفي رواية ، أن الحجاج حلف ألا ينزله من تلك الخشبة حتى تشفع فيه أمه ، فبقي سنة ، ثم مرّت تحته أمه فقالت : « أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ » ، فيقال : إن هذا الكلام قيل للحجاج إن معناه الشفاعة فيه ، فأنزله[1] .

وفي رواية ، أن عبد الله بن عمر مرّ بابن الزبير وهو مصلوب فقال : « رحمة الله عليك يا أبا خبيب ! أما والله لقد كنت صوّاماً قوّاماً » ، ثم قال : « أما آن لهـــذا الراكب ان ينزل ؟ » ، فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع ودفن هناك[2] .

قال ابن مليكة : « كنت ممن تولى غسله ، فجعلنا لا نتناول عضواً إلا جاء معنا ، فنغسله ونضعه في أكفانه ، ونتناول العضو الذي يليه فنغسله ونضعه في أكفانه ، حتّى فرغنا منه . فقامت أمه أسماء بنت أبي بكر فصلّت عليه ، وكانت قبل ذلك تقول : اللهم لا تمتني حتّى تقرّ عيني بخشبته ، فما أتى عليها بعد ذلك جمعة حتّى ماتت[3] » .

وفي رواية أنه لما أُنزل من الصلب حملته أمه إلى المدينة ودفنته في دار صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم زيدت تلك الدار في المسجد ، فابن الزبير مدفون في المسجد مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم[4] .

ودخل الحجاج مكة فبايع من بها من قريش لعبد الملك بن مروان[5] .

ه . ولد عبد الله بن الزبير في السنة الأولى الهجرية ، وهو أول مولود

(١) فوات الوفيات (١/ ٤٤٩) .
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٣٢) .
(٣) فوات الوفيات (١/ ٤٤٩) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٢١) .
(٥) الطبري (٥/ ٣٤) .

في الاسلام من المهاجرين في المدينة[١] ، وفي رواية انه ولد سنة اثنتين من الهجرة[٢] ، والأصح الأول[٣] ، ففي صحيح البخاري ، أن الزبير بن العوّام كان بالشام لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه قدم المدينة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فكساه ثوباً أبيض ؛ فاذا كان الأمر كذلك ، فمتى حملت أسماء منه بعد ذلك ؟ إن الذي يدل عليه الخبر أنها حملت منه قبل أن يسافر من مكة إلى الشام ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وتبعه أصحابه إرسالاً خرجت أسماء بنت أبي بكر بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم بأشهر ، فإن كان قدومها في شوّال محفوظاً ، فتكون هجرتها سنة إحدى[٤] . قالت أسماء : « حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، فخرجت وأنا متم[٥] ، فأتيت المدينة ، فنزلت بـ (قُباء) ، فولدته بـ (قباء) .. »[٦] أي أنه ولد سنة الهجرة (٦٢٢ م) ، وقتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٧] (٦٩٢ م) بمكة بعد حصار دام ستة أشهر وسبع عشرة ليلة[٨] ، وبقي خليفة تسع سنوات ، إذ أن بيعته كانت في سابع رجب سنة أربع وستين الهجرية[٩] ، حجّ بالناس خلالها ثماني حجّات[١٠] .

---

(١) الاستيعاب (٣/٩٠٥) وأسد الغابة (٣/١٦٣) والإصابة (٤ / ٧٠) .
(٢) فوات الوفيات (١/٤٤٦) والعبر (١/٤) وشذرات الذهب (١/١٠) .
(٣) الإصابة (٤/٦٩) والبداية والنهاية (٨/٣٣٢) .
(٤) الإصابة (٤/٦٩) .
(٥) متم : دنا ولادها .
(٦) الاستيعاب (٣/٩٠٦) وصفة الصفوة (١/٣٢٢) وأسد الغابة (٣/١٦١) والإصابة (٤/ ٦٩) والبداية والنهاية (٨/٣٣٢) .
(٧) البداية والنهاية (٨/٣٣١) وتهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٧) .
(٨) فوات الوفيات (١/٤٤٧) .
(٩) البداية والنهاية (٨/٣٤٢) والمعارف (٢٢٥) .
(١٠) الاستيعاب (٣/٩٠٧) .

كان عبد الله أكبر أولاد الزبير بن العوَّام[1]، له سبعة بنين هم: حمزة وخُبيب وثابت وموسى وعبّاد وقيس وعامر وعبد الله، وله بنات ايضاً.

أما حمزة، فكان أجود العرب، وكان عامل أبيه على البصرة، وله عقب بالمدينة. وأما خبيب فكان عقيماً. وأما ثابت فكان بذياً لسناً بئيساً، وله عقب، ومن ولده: الزبير بن عبد الله بن مصعب بن ثابت عامل هارون الرشيد على المدينة واليمن.

وأما موسى، فله عقب بالمدينة، منهم صديق بن موسى بن عبد الله ابن الزبير، وكان من سَرَوات قريش. وأما عبّاد فله عقب بالمدينة، وأما قيس فلا عقب له.

وأما عامر بن عبد الله، فكان من أعبد أهل زمانه، وكان لا يزوج بناته، وهو الذي سرقت نعله، فحلف ألا يشتري نعلاً مخافة أن يسرقها مسلم فيأثم في سرقته.

وأما عبد الله بن عبد الله، فكان أشبه القوم بأبيه.

وزوّج عبد الله بن الزبير بناته من بني أخيه[2].

ومكث عامر بن عبد الله بن الزبير بعد قتل أبيه حولاً لا يسأل أحداً لنفسه شيئاً، إلاّ الدعاء لأبيه[3].

و. والحق ان ابن الزبير كان خطراً داهماً على بني أمية، لأنه كان أولى منهم بالخلافة، قال الامام مالك: «ابن الزبير كان أفضل من مروان، وكان أولى بالأمر من مروان وابنه[4]».

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٦).
(٢) انظر تفاصيل اولاده في المعارف (٢٢٥ – ٢٢٦)
(٣) الاستيعاب (٣/٩١٠).
(٤) الاستيعاب (٣/٩١٠).

لذلك خرّ الحجاج ساجداً حين قتل ابن الزبير[1] ، وخرّ عبد الملك ابن مروان ساجداً حين علم بقتله[2] أيضاً . ولما قتل ارتجّت مكة بكاءً عليه ، فخطب الحجاج الناس فقال : « أيها الناس ! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتّى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم ، فأذاقه من عذابه الأليم ؛ وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير ، وكان في الجنة ، وهي أشرف من مكة ، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نُهي عنها أخرجه الله من الجنة . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » . وقيل إنه قال : « يا أهل مكة ! إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير ، فان ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتّى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها ، فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله ؛ ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء ، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، وإن ابن الزبير غيّر كتاب الله » فقال له عبد الله بن عمر : « لو شئت أن أقول لك : كذبت ، لقلت . والله إن ابن الزبير لم يغيّر كتاب الله ، بل كان قوّاماً صوّاماً عاملاً بالحق »[3].

وقد رثاه معمر بن أبي معمر الذهلي بأبيات :

لعمرك ما أبقيت في الناس حاجة	ولا كنت ملبوس الهدى متذبذبا
غداة دعاني مصعب فأجبته	وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحبا
أبوك حواريُّ الرسول وسيفه	فأنت بحمد الله من خيرنا أبا
وذاك أخوك المهتدى بضيائه	بمكة يدعونا دعاءً مثوّبا
ولم أك ذا وجهين : وجه لمصعب	مريض، ووجه لابن مروان إذ صبا

(١) البداية والنهاية (٨/٣٣١) .

(٢) ابن الأثير (٤/١٣٨) .

(٣) البداية والنهاية (٨/٣٣١ - ٣٣٢) .

وكنت امرأً ناصحته غير مؤثر ... عليه ابن مروان ولا متقربا
اليه بما تقذى به عين مصعب ... ولكنني ناصحت في الله مصعبا
الى أن رمته الحادثات بسهمها ... فبالله سهماً ما أسدَّ وأصوبا
فإن يك هذا الدهر أردى بمصعب ... وأصبح عبد الله شِلواً [1] ملحبا [2]
فكل امرىء حاسٍ من الموت جرعة ... وإن حاد عنها جهده وتهيّبا [3]

وقال آخر يرثيه :

ليبكي على الإسلام من كان باكياً ... فقد أوشكوا هلكى وما قدم العهد
وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها ... وقد ملَّها من كان يوقن بالوعد [4]

وقال نعيم بن مسعود الشيباني يرثيه :

ألا إن هذا الدين من بعد مصعب ... وبعد أخيه قد تنكّر أجمع
فللدين والدنيا بكينا وإنما ... على الدين والدنيا ـ لك الخير ـ يُجزعُ
فصممت الآذان من بعد مصعب ... ومن بعد عبد الله فالأنف يجدع
ففي كل عام مرتان عطاؤه ... وغيث لنا فيه مصيف ومربع
على ابن حواريّ النبي تحية ... من الله ، إن الله يعطي ويمنع [5]

وقال قيس بن الهيثم السلمي :

فقدنا مصعباً وأخاه لما ... نفت عنا سماؤهما المحولا
وكنا لا يُرام لنا حريم ... نسحب في مجالسنا الذيولا
ونرمي بالعداوة من رمانا ... ونوطئهم بها وطئاً ثقيلا
فوا لهفي ولهف أبي وأمي ... لقد أصبحت بعدهما ذليلا

---

(١) الشلو : جمعها أشلاء ، وأشلاء الانسان وغيره أعضاؤه بعد التفرق والبلى .

(٢) لحب : أنحله الكبر والضعف ، ويقال : لحب لحمه ، أي نحل . والملحب : المنحل الذي انتهى أمره .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٤٢) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٢٢ - ٤٢٣) .

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٢١) .

(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٢٢) .

ويا لهفاً على ما فات مني ... ألا أصبحت في القتلى قتيلا
ولم أصبح لأهـــل الشام نصباً ... يذكرني ابن مروان الذحولا[1]

وقال سُويد بن منجوف السدوسي يرثي عبد الله وأخيه مصعباً :

ألا قل لهذا العــاذل المتصعِّب ... تطاول هذا الليل من بعد مصعب
وبعد أخيه عائذ البيت إننا ... رمينا بجدع للعرانين[2] موعب[3]
فصرنا كشاء غاب عنها رعاؤُها ... معطلة جنح الظــلام لأذؤُب
فإن يك هذا الدهر أخنى بنابه ... وأنحى عليـــه بعد ناب بمخلب
وأصبح أهل الشام يرمون مصرنا ... بنبل بروها للعداوة صيّب
فإني لباك ما حييت عليهمـــا ... ومثنٍ ثناءً لست منـــه بمعتب
أرى الدين والدنيـــا جميعاً كأنما ... هوت بهما بالأمس عنقاء مغرب
فقد دخل المصرين حزن وذلـــة ... وذل لأهل المكَّتين ويــثرب
وبدّلت ممن كنت أهوى بقاءه ... معاشر حي ذي كلاع ويحصب
وعك ولخم والسّكون وفرقة ... برابرة الأجناس أخلاط صقلب
يقولون : هذا ابن الزبيري هالك ... وقد ذهبت أبناؤه كل مذهب[4]

لقد ترك موت ابن الزبير فراغاً هائلاً بين المسلمين عامة وبين أهل الحجاز خاصة لمزاياه الإنسانية والقيادية والفكرية ، وكان ككل ثائر يؤمن بعقيدة ويدافع عنها ويبذل في سبيلها ماله وروحه وأهله ثم يفشل في ثورته فيطول عليه اللوم والعتب ، ولو نجح لتبدل الحال غير الحال .

ولست أشك مطلقاً في سلامة عقيدته وصلابتها ، وأنه ذهب ضحية صلابة عقيدته وسموِّ مبادئه وعلوِّ أهدافه .

---

(١) انظر القصيدة كاملة في تهذيب ابن عساكر (٤٢٢/٧) . والذحول : الحقد والثأر ، جمع ذحل وتجمع على أذحال أيضاً .
(٢) العرانين : جمع عرنين والعرنين ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم . .
(٣) وعب الشيء : استأصله .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤٢٣/٧) .

إنه من أولئك المؤمنين الصادقين الذين يُقْدِمُون ولا يُحجمون ويصرّحون ولا يواربون ويستقيمون ولا يلتوون.

لقد كان ابن الزبير أحد شهداء العقيدة والمبدأ.

٢ ـ مزاياه:

أ ـ سماته الشخصية:

هو الصائل بالحق، القائل بالصدق، المحنّك بريق النبوّة، المبجل لشرف الأمومة والأبوّة، المشاهد في القيام، المواصل للصيام، ذو السيف الصارم، والرأي الحازم، مبارز الشجعان، وحافظ القرآن؛ إلتزق بالنبي لزوقاً، والتصق بالصديق لصوقاً، سبط عمّة النبي صفية، وابن أخت زوجته الصديقة الوفيّة[١]...

كان آدم نحيفاً ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود[٢] شهماً فصيحاً شديد البأس ذا أنفة له نفس شريفة وهمّة عالية[٣]، وكان عارضاه خفيفين وما اتّصلت لحيته حتّى بلغ ستين سنة[٤]، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلا، وكانت له لحية صفراء[٥]، وكانت له جمة مفروقة طويلة[٦].

وكان صوّاماً قوّاماً، بالحق قوالاً وللرحم وصّالاً، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء والبررة[٧].

---

(١) حلية الأولياء (١ / ٣٢٩).
(٢) فوات الوفيات (١ / ٤٤٧) والبداية والنهاية (٨ / ٣٣٥).
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٣٩٨) وتهذيب ابن عساكر (٨ / ٣٣٣).
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٣٩٧).
(٧) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٣٩٧).

قال وهب بن كيسان عنه : « ما رأيت ابن الزبير يعطي رجلاً كلمة قط لرغبة ولا لرهبة سلطان وغيره[1] .

وكان عزيز النفس أبياً ، قال ذو العقق الجذامي :

وشدّ أبو بكر لدى الركن شدّة   أبت لحصين[2] أن يطـاع فيغنما
مشدّ امرىء لم يدخل الذل قلبه   ولم يك أعمى عن هدى الله أبكما[3]

وقد ذكر بعضهم أنه كان كريماً ، وذكر آخرون أنه كان بخيلاً .

قالت عائشة بنت طلحة : خرجت مع أم المؤمنين عائشة ، فبينما نحن كذلك إذا براجز يقول :

أنشد من كان بعيد الهم   يدلّني اليوم على ابن أم
لـه أب في باذخ أشم   وأمه كالبـدر يوم تم
مقابل الخـال كريم العم   يجيرني من زمن ملم
أكوسه جرعتها بسم

فلما سمعت أم المؤمنين أبياته دعت به فقالت له من وراء الحجاب : يا عبد الله ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الدالُّ على الخير كفاعله ؛ فحاجتك رجل بين يديك ، سل عن ابن الزبير فإنه شرطك ، فخرج الرجل حتى أدرك ابن الزبير فحمله على راحلة وصنع اليه معروفاً » .

وسمع معاوية رجلاً يقول :

ابن رقاش ماجد سميدع   يؤتى فيعطي عن يد أو يمنع

فقال : « ذاك عبد الله بن الزبير[4] » .

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٢) .
(٢) هو حصين بن نمير .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٣) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٣) .

واقتحمت السنة نابغة بني جعدة ، فأتى ابن الزبير وهو جالس في المسجد وأنشده :

حكيت لنا الصدّيق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسوّيت بين الناس في الحق فاستووا ... فعاد صباحاً حالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ... دجى الليل جوّاب الفلاة غشمشم[1]
لتجبر منه جائياً غدرت به ... صروف الليالي والزمان المصمم

فأخذ بيده وأدخله دار النعم ، فأعطاه قلائص[2] سبعاً وجمالاً وخيلاً ، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً ، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحبّ صرفاً ، فقال له ابن الزبير : « ويح أبي ليلى ... لقد بلغ الجهد » ، فقال النابغة : « أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما وليت قريش فعدلت ، فاسترحمت فرحمت ، ووعدت خيراً فأنجزت ، فأنا والنبيّون « فُرّاط[3] العاصفين »[4] .

والذين يتهمونه بالبخل لا يخلو اتهامهم من التجني ، فالعربي بطبعه كريم ، فكيف إذا كان هذا العربي من أرفع البيوتات عماداً وأشرف الآباء والأمهات ؟؟

لقد كان ابن الزبير رجل دنيا ودين ، فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت : هذا رجل لم يرد الله طرفة عين ، وإذا نظرت اليه في أمر آخرته قلت : هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين[5] .

وقد كان يهتم بقيافته ، قال أبو الضحى : « رأيت على رأسه من المسك

---

(١) الغشوم : الذي يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه ، ويقال للحرب : غشوم ، لأنها تنال غير الجاني .

(٢) قلائص : جمع قلوص ، والقلوص من الابل ، الفتية المجتمعة الخلق .

(٣) الفراط : جمع فارط ، وهو السابق المتقدم .

(٤) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٧) وتهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٢ – ٤٠٣)

(٥) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٤) .

ما لو كان لي لكان رأس مالي[1] » . وقال عبد الواحد بن أيمن : « رأيت على ابن الزبير رداءً يمانياً عدنياً يصلي فيه[2] » .

وكان على جانب عظيم من النزاهة : فقد أوصت عائشة أم المؤمنين الى ابن الزبير[3] ، وأوصى اليه عبد الله بن عامر بن كُريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس[4] وأوصى اليه الزبير بن العوام وغيرهم[5].

إنه كما قال ابن عباس : « هو القارىء لكتاب الله والعفيف في الإسلام[6] »

سأل عمر بن عبد العزيز ابن أبي مليكة فقال : « صف لنا ابن الزبير » ، فقال : « عن أي حاليه تسأل؟ أعن دينه أو عن دنياه » ، فقال : « عن كل » ، فقال : « والله ما رأيت جلداً قط ركّب على لحم ، ولا لحماً على عصب ، ولا عصباً على عظم ، مثل جلده على لحمه ، ولا مثل لحمه على عصبه ، ولا مثل عصبه على عظمه ؛ ولا رأيت نفساً رُكبت بين جنبين مثل نفس له ركبت بين جنبيه . ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمرّ حجر من حجارة المنجنيق بلبنة مطبوخة من شرفات المسجد ، فمرّت بين لحيته وصدره ، فوالله ما خشع لهـا بصره ، ولا قطع لها قراءته ، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع . إن ابن الزبير كان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء اليها ، ولقد كان يركع فتكاد تقع الرخم على ظهره ، ويسجد فكأنه ثوب مطروح »[7] .

لقد كان ابن الزبير تطبيقاً عملياً لسجايا العربي ومبادىء المسلم . لقد كان

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٤) .
(٢) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٠) .
(٤) المعارف (٢٢٣) .
(٥) الرياض النضرة (٢ / ٣٦٧) .
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٣٩٩) .
(٧) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٠ - ٤٠١) والبداية والنهاية (٨ / ٣٣٤) .

ترجمة حيّة لمزايا العرب وفضائل الإسلام .

لقد كان رجل دنيا ودين حقاً .

ب – ورعه :

سئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال : «كان قارئاً لكتاب الله ، متّبعاً لسنّة رسول الله ، قانتاً لله ، صائماً في الهواجر من مخافة الله ، ابن حواري رسول الله ، وأمه بنت الصدّيق ، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله وزوجة رسول الله ، فلا يجهل حقّه إلا من عماه الله[1] » .

وقالت أسماء أمه : « إن كان لصواماً قواماً وصولاً للرحم[2] » .
وقال ابن عباس : «كان عفيفاً في الإسلام قارئاً للقرآن ، صواماً قواماً .. »[3]

وقال ابن مليكة لعمر بن عبد العزير : « إن في قلبك من ابن الزبير شيئاً ، ولو رأيته لما رأيت مناجياً قط مثله ولا مصلياً[4]» .

وقال عمرو بن دينار : «كان ابن الزبير يصلي في الحِجر ، والمنجنيق يصيب طرف ثوبه فما يلتفت اليه ، وكان يسمى : حمامة المسجد »[5].

ومرّ ابن عمر على ابن الزبير بعد صلبه ، فوقف عليه وقال : « رحمك الله ! فانك ما علمت صواماً قواماً وصولاً للرحم ، وإني لأرجو ألا يعذبك الله عزّ وجل » . وقال عنه : « يرحمك الله ، فوالله إن كنت لصوّاماً قوّاماً »[6].

وقال عمر بن دينار : « ما رأيت مصلياً قط أحسن صلاة من عبد الله

---

(١) البداية والنهاية (٨ /٤٤٥) .
(٢) البداية والنهاية (٨ / ٣٤٤) .
(٣) البداية والنهاية (٨/٣٣٤) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٤٠٠) .
(٥) فوات الوفيات (١ /٤٤٧) .
(٦) حلية الأولياء (١ /٣٣٤) .

ابن الزبير » ، وكان عبد الله إذا قام للصلاة كأنه عود [1] » ، من الخشوع [2] .

وقال عمرو بن دينار : « رأيت ابن الزبير يصلي في الحِجر خافضاً بصره ، فجاء حجر قدامه فذهب ببعض ثوبه فما انفتل » ، وكانت العصافير تنزل على ظهره اذا سجد ولا تحسبه إلا جذم حائط » [3] .

وكان حين يصلي كأنه غصن شجرة تصفقها الريح ، والمنجنيق يقع ههنا وههنا وهو لا يبالي . وقالت اسماء أمه : « دخلت على عبد الله بن الزبير ، فإذا هو يصلي ، فسقطت حيّة من السقف على ابنه هاشم ، فتطوّقت على بطنه وهو نائم ، فصاح أهل البيت : الحيّة ! .. الحيّة .. ولم يزالوا بها حتى قتلوها ، وعبد الله بن الزبير يصلي ، ما التفت ولا عجل ! ثم فرغ بعدما قتلت ، فقال : ما بالكم ؟! قالت أم هاشم : اي رحمك الله ! أرأيت ان كنا هنا ، أيهون عليك ابنك ؟! فقال : ويحك ، ما كانت التفاتة لو التفتها مبقية من صلاتي » [4] .

وقال حماد بن زيد بن ثابت البناني : «كنت أمرُّ بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرّك » [5] .

وكان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح ، ويركع ليله حتى يصبح ، ويسجد ليله حتى يصبح . وقال بعضهم : « ركع ابن الزبير يوماً فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه » [6] .

وقال عطاء : « كان ابن الزبير إذا صلى كأنه كعب راتب » [7] .

---

(١) حلية الأولياء (١ / ٣٣٥) .

(٢) صفة الصفوة (١ / ٣٢٢) .

(٣) صفة الصفوة (١ / ٣٢٢) .

(٤) صفة الصفوة (١ / ٣٢٣) .

(٥) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٣) .

(٦) البداية والنهاية (٨/٣٣٣ — ٣٣٤) .

(٧) حلية الأولياء (١ / ٣٣٥) والبداية والنهاية (٨ / ٣٣٦) . والكعب ما بين الانبوبتين من القصب ؛ والراتب : الثابت لم يتحرك .

وكان ابن الزبير يواصل الصيام سبعاً : يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى ، ويصوم بالمدينة فلا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة ، وكان إذا أفطر أول ما يفطر على لبن لَقْحَةَ[1] وسمن وصِبر[2] ؛ فأما اللبن فيعصمه ، وأما السمن فيقطع عنه العطش ، وأما الصبر فيفتق الأمعاء. قال ابن أبي مليكة : «كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام ويصبح في الثامن وهو أليننا » ، وكان لا يفطر في الشهر إلا ثلاثة أيام[3] .

وقال مجاهد : «لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة ، ولقد جاء سيل مرة فطبق البيت ، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة » ، وكان لا ينازع في ثلاث : في العبادة والشجاعة والفصاحة[4] .

لقد تعلّم ابن الزبير الصلاة من أبي بكر الصدّيق ، وتعلّم أبو بكر الصلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم [5].

لقد كان ابن الزبير ورعاً حقاً .

جـ ــ علمـــه :

كان ابن الزبير صحابياً جليلاً ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير[6] ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثين حديثاً[7] وروى عن أبيه وعمر وعثمان رضي الله عنهم وغيرهم ، وروى عن جماعة

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، جمعها : لقح ولقاح .
(٢) الصبر : عصارة شجر مر واحدته : صبرة .
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠١) والبداية والنهاية (٨ / ٣٣٤ – ٣٣٥) .
(٤) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٤) .
(٦) الاصابة (٤ / ٦٩) .
(٧) اسماء الصحابة الرواة – ملحق بجوامع السيرة لا بن حزم (٢٨١) .

من التابعين . وروى خطبة عمر بن الخطاب بـ (الجابية) بطولها[١] ، وكان من أصحاب الفتيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] . جعله عثمان بن عفان في النفر الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت[٣] ، فقد أرسل عثمان بن عفان الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير : « أن انسخوا الصحف في المصاحف » وقال للرهط القرشيين الثلاثة : « ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم » ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف بعث عثمان الى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا[٤] ، مما يدل على انه كان كاتباً قارئاً .

لقد كان من العلماء المجتهدين[٥] عالماً عابداً [٦] . خطب ابن الزبير بالحاج فقال : « يا معشر الحاج ! سلوني فعلينا كان التنزيل ، ونحن حضرنا التأويل » ، فقال رجل من أهل العراق : « انحلّ جرابي فدخلت فيه فأرة فقتلتها وأنا محرم » ، فقال : « اقتلوا الفويسقة » ، فقال : « أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر » ، فقال : « العشر الثمان وعرفة والنحر ، والشفع من تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه ، والوتر هو هذا اليوم (يعني يوم عرفة) » ؛ ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير [٧] .

وكان على جانب عظيم من الذكاء ، فقد كان له مائة غلام يتكلم كل غلام منهم غير لغة الآخر ، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته[٨]

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٢) .
(٢) اصحاب الفتيا من الصحابة – ملحق بجوامع السيرة لا بن حزم (٣٢٠) .
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٤) المصاحف (١٩) .
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٠) . وانظر البداية والنهاية (٨/ ٣٣٢) .
(٦) البداية والنهاية (٨/ ٣٣٢) .
(٧) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠٠) .
(٨) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٩) وتهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٣) .

لقد كان ابن الزبير من قادة الفكر الإسلامي في الصدر الأول من الإسلام ومن مؤسسي صرحه العتيد.

د ـ بلاغته :

كان ابن الزبير من خطباء الإسلام ، وكان لا ينازع في فصاحته صيتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان[1] ، وكان من خطباء قريش ـ أفصح العرب ـ المشهورين[2] .

خطب يوماً بالمدينة بحضور عثمان بن عفان وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم أبوه الزبير ، فلما نزل قال أبوه : « والله لكأني اسمع الى خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني »[3] .

وخطب بموسم الحج ، فلبّى أحسن تلبية وقال : « أما بعد . فإنكم جئتم من آفاق شتى وفوداً إلى الله عزّ وجل ، فحقّ على الله أن يكرم وفده ؛ فمن كان يطلب منكم ما عند الله ، فإن طالب ما عند الله لا يخيب ، فصدّقوا قولكم بفعل ، فان ملاك القول الفعل ... والنيّة النيّة ، والقلوب القلوب ... الله الله في أيامكم هذه ، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب . جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجونها » ، ثم لبّى ولبى الناس ، فلم ير الناس باكياً أكثر من يومئذٍ[4] .

وكتب ابن الزبير الى وهب بن كيسان بموعظة : « أما بعد . فان لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم : صدق الحديث وأداء الأمانة ، وكظم الغيظ ، وصبر على البلاء ، ورضى بالقضاء ، وشكر للنعماء ، وذل لحكم القرآن ؛ وإنما الأيام كالسوق ، ما نفق فيها حمل اليها

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠١) .
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٤) صفة الصفوة (١ / ٣٢٤) وحلية الأولياء (١ / ٣٦٦) والبداية والنهاية (٨ / ٣٤٤) .

– إن نفق الحق عنده حمل اليه وجاءه أهله ، وإن نفق الباطل عنده حمل اليه وجاءه أهله »[1] .

وكان عالماً بالشعر خبيراً بفنونه . أذن معاوية للناس يوماً فدخلوا عليه ، واحتفل المجلس وهو على سريره ، فأجال بصره فيهم ثم قال لابن الزبير : يا أبا خبيب ! أنشدني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالته » ، قال « نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف » ، فقال معاوية : « إن ساوت » ، فقال : « أنت بالخيار وأنت واف كاف » ، فقال : « نعم ! » ، فأنشده للأفوه الأودي .

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختّال وقال

فقال معاوية : « صدق ! » .

ولم أر في الخطوب أشدّ وقعاً وكيداً من معاداة الرجال

فقال معاوية : « صدق ! » .

وذقت مرارة الأشياء طراً فما شيء أمرّ من السؤال

فقال معاوية : « صدق ! » ، ثم قال معاوية : « هيه يا أبا خبيب ! » ، فقال : « الى هنا انتهى بي » ، فدعا معاوية بثلاثين عبداً في عنق كل واحد منهم بَدْرَة[2] ، فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا الى داره[3] .

ولما قتل مصعب بن الزبير ، صعد عبد الله بن الزبير المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم سكت فجعل لونه يحمر مرة ويصفرّ مرة ، فقال رجل من قريش لرجل الى جانبه : « ماله لا يتكلّم ؟! فوالله إنه لبيب الخطباء » ، فقال : « لعله يريد أن يذكر سيد العرب فيشتدّ ذلك عليه وغير ملوم » .

---

(١) صفة الصفوة (١ / ٣٢٤) وحلية الأولياء (١/٣٦٦) والبداية والنهاية (٨ / ٣٤٤)

(٢) بدرة : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا ويختلف باختلاف العهود .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠٥ – ٤٠٦) والبداية والنهاية (٨ / ٣٣٧) .

ثم تكلّم فقال : « الحمد لله له الخلق والأمر والدنيا والآخرة ، توئتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء . أما بعد ، فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه وإن كان معه الأنام طرّاً ، ولم يذل من كان الحق معه وإن كان فردا . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يحزننا حميمه ثم دعوى ذوي الألباب الى الصبر وكريم العزاء ، وأما الذي أفرحنا فإن قتل المصعب له شهادة ولنا ذخيرة . أسلمه النعام المصَالِم[1]! ألا وإن أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمّه وكانوا الخيار الصالحين . إنّا والله لا نموت حتفاً ولكن قصفاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . ألا إنما الدنيا عارية إلاّ من الملك الأعلى الذي لا يبيد ذكره ولا يذلّ سلطانه ، فإن تُقبل الدنيا عليّ لم آخذها أخذ الأشِر[2] البطر ، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخَرِق[3] المهين » ، ثم نزل[4] .

ونازع ابن الزبير مروان يوماً عند معاوية ، فقال ابن الزبير : « يا معاوية ! لا تـدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقِصِه[5] ، ويضرب صَفاتهم[6] بمعاوله ، فلولا مكانك لكان أخفّ على رقابنا من فراشة ، وأقل في نفوسنا من خشاشة[7] ، ولئن ملك أعنّة خيل تنقاد له ، ليركبنّ

---

(١) الأصلم : المقطوع الأذن . والمصلم : الأصلم ، قالوا : مشوا بآذان النعام المصلم ، كناية عن الذل والمهانة .

(٢) الأشر : أشراً ، بطر واستكبر فهو أشر ، قال تعالى في سورة القمر : (بل هو كذاب أشر) .

(٣) خرق : خرقاً ، حمق .

(٤) العقد الفريد (٢ / ٣٧٦ - ٣٧٧) .

(٥) مشاقصه : الحجارة الملس الصغار .

(٦) صفاتهم : صخرتهم الصماء .

(٧) الخشاشة : الحشرة الضئيلة .

منك طبقاً تخافه » ، فقال معاوية : « إن يطلب هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه ، وإن يتركه فإنما يتركه لمن هو فوقه ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ، ولا يذكركم عند مُلمّة : يسومكم خَسفا ، ويوردكم تلفا » ، فقال ابن الزبير : « إذاً والله نطلق عِقال الحرب بكتائب تمور كرِجْل الجراد[1] ، حافاتها الأسل[2] ، لها دويٌّ كدويِّ الريح تتبع غِطريفاً[3] من قريش لم تكن أمّة براعية ثَلّةٍ »[4] ، فقال معاوية : « أنا ابن هند ! إن أطلقت عِقال الحرب أكلت ذروةً السّنام وشربت عُنفوان المَكْرع ، وليس للآكل إلا الفِلْذَة ، ولا للشارب إلا الرَنْق »[5] .

ولما قدم ابن الزبير بفتح إفريقية ، أمره عثمان فقام خطيباً ، فلما فرغ من كلامه قال عثمان : « أيها الناس ! أنكحوا النساء على آبائهنّ وإخوتهنّ ، فإني لم أرَ في ولد أبي بكر أشبه به من هذا »[6] ، وذلك إعجاباً بخطاب ابن الزبير .

وعاب ابن الزبير قتلة عثمان فقال : « خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية ، فقتلهم الله كل قتلة ، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب » ، يريد : هربوا ليلاً[7] .

وكان شاعراً جيداً ، ومن شعره المشهور عنه :

وكم من عدوٍ قد أراد مساءتي ... بغيبٍ ، ولو لاقيتُه لتندّما

---

(١) رجل الجراد : جماعة الجراد .

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) الغطريف : الكريم ، ويريد به نفسه .

(٤) ثلة : العدد القليل من الغنم .

(٥) الرنق : الماء المشوب . انظر البيان والتبيين (٢ / ٩٨) .

(٦) البيان والتبيين (٢ / ١٠٢) .

(٧) كتاب الأضداد للأنباري (٣٤٢) .

كثير الخنا ، حتى إذا ما لقيتــه		أصرّ على إثمٍ وإن كان أقسما

واجتمع مروان بن الحكم وابن الزبير عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فذكر مروان بيتاً من شعر لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه		يعود رماداً بعد إذ هو ساطعُ

فتعجّب منه ، فقال ابن الزبير : « وما تعجُّبك ؟! لو شئت قلت ما هو أفضل منه :

ففوِّض الى الله الأمور إذا اعتَرَت		فبالله — لا بالأقربين — تدافعُ

قال مروان :

وداوِ ضمير القلب بالبِرِّ والتُقَى		ولا يستوي قلبان : قاسٍ وخاشع

وقال ابن الزبير :

ولا يستوي عبدان : عبد مصَلّمٌ		عُتُلٌ لأرحام الأقارب قاطع

وقال مروان :

وعبدٌ تجافى جنبــه عن فراشه		يبيت يناجي ربّه وهو راكع

وقال ابن الزبير :

وللخير أهلٌ يُعْرَفون بهديهم		إذا جمعتهم في الخطوب المجامع

وقال مروان :

وللشر أهلٌ يُعْرَفون بشكلهم		تُشير اليهم بالفجور الأصــابع

فسكت ابن الزبير ، فقالت له عائشة : « ما سمعت مجادلة قط أحسن من هذه ، ولكن لمروان إرث في الشعر ليس لك »[1] .

لقد كان ابن الزبير من أبرز خطباء العرب ومن أبلغ بلغائهم ، وكانت

---

(١) الحلة السيراء (١ / ٢٦ – ٢٨) .

له لَسَانة وفصاحة[1]

ه ـ **شجاعته :**

كان عبد الله بن الزبير فارس قريش في زمانه[2] غير منازع ، وكان فارس الخلفاء[3] غير منازع أيضاً . أول ما تكلّم به وهو صغير : السيف ، وكان يشتد بالسيف وهو ابن ثلاث وسبعين كأنه غلام . وكان الحجاج يقاتل ابن الزبير ، وابن الزبير في المسجد الحرام وهو يقول :

كُتب القتل والقتــال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول[4]

وكان يحمل على المقاتلين حتى يردّهم الى أبواب المسجد وهو يقول : « لو كان قرني واحداً كفيته » . وكان يُرمى بالمنجنيق فلا يرتعد صوته ولا يلتفت[5] .

وكانت جيوش الحجاج تدخل عليه من أبواب المسجد ، فكلما دخل عليه قوم من باب حمل عليهم وحده حتى يُخرجهم ، فبينما هو على هذه الحالة ، إذ جاءته شرفة من شرفات المسجد في رأسه فصرعته وهو يقول :

أسماء يا أسماء لا تبكيني لم يبق إلاّ حَسَبي وديـني
وصارم لانت بــه يميني[6]

وشدّ عليه أصحاب الحجاج فقال لأصحابه : «كسّروا أغماد سيوفكم ولا تميلوا عني ، فإني في الرعيل الأول » ، ثم حمل عليهم وحملوا معه ـ وكان يضرب بسيفين ، فلحق رجلاً فضربه ، فقطع يده ، وانهزموا ...

---

(١) الاستيعاب (٣ / ٩٠٦) .
(٢) فوات الوفيات (١ / ٤٤٥) .
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٣) .
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١٤) .
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٤ ـ ٤١٥) .
(٦) فوات الوفيات (١ / ٤٤٧) وحلية الأولياء (١ / ٣٣٣) وتهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١٥).

فجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، فجعل رجل أسود يسبّه ، فقال له : « إصبر يا ابن حام ! » ، ثم حمل عليه فصرعه . ثم دخل عليه أهل حمص من باب شيبة ، فقال : « من هؤلاء ؟ » ، فقالوا : « أهل حمص » ، فشدّ عليهم وجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، ثم انصرف وهو يقول :

« لو كان قرني واحداً كفيته أوردته الموت وذكّيته » .

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر ، فقال : « من هؤلاء ؟ » فقيل : « أهل الأردن » ، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ثم انصرف وهو يقول :

« لا عهد لي بغارة مثل السيل لا ينجلي قَتَامُها حتى الليل »

فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا فضربه بين عينيه ، فنكس رأسه وهو يقول :

« ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدما »

ثم اجتمعوا عليه ، فلم يزالوا يضربونه حتى قتلوه [1] .

ولما اشتدّت وطأة القتال بين ابن الزبير وبين الحجاج ، أتاه رجل من قريش فقال : « ألا يُفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟ » ، فقال ابن الزبير : « إنّ حرمة المسجد كحرمة البيت ، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم » ، ثم قال :

« ولست بمبتاع الحياة بُسبّة ولا مرتقٍ من خَشْيَة الموت سُلمّا » [2]

ولما بعث يزيد بن معاوية الى ابن الزبير قيداً من ذهب وسلسلة من فضة وأقسم لتأتيني فيها فقالوا : « بر قسم أمير المؤمنين ! » ، فقال

(١) الاستيعاب (٣ /٩٠٨ – ٩٠٩) .
(٢) فوات الوفيات (١ /٤٤٨) .

« ولا ألين لغير الحق أسأله   حتّى تلين لضرس الماضغ الحجر »

ثم قال : « والله لضربة بسيف بعز أحبّ اليّ من ضربة سوط في ذل »[1]

وأقبل على آل الزبير في أيام الحرب بينه وبين الحجاج ، فقال : « ليكن أحدكم سيفه وجهه ، ولا ينكسر سيفه فيدفع عن نفسه بيده كأنه امرأة . والله ما لقيت زحفاً قط إلا في الرعيل الأول ، وما ألمت جرحاً قط إلا أن يكون ألم الدواء »[2] .

وحين خيَّره الحجاج بين ثلاث : « إما أن يذهب في الأرض حيث شاء ، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد ، أو يقاتل حتّى يقتل » ، اختار القتال حتّى يقتل[3] !

ويقال : إن الحجاج ورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان قبل قتل ابن الزبير : « إعط ابن الزبير الأمان ، وحكِّمه في الولاية ، واستنزله عن الخلافة » ، فقال : « لا خلعها إلا الموت » ، ثم قال :

« الموت أكرم من إعطاء منقصة   إن لم نَمُت عَبْطة[4] فالغاية الهرم
إصبر فكل فتى لا بدّ مخـتـرم   والموت أسهل مما أمّلت جُشَمُ »[5]

لقد كان شديد البأس ذا أنفة ، له نفس شريفة وهمّة عالية »[6] ، وكان شهماً ذكراً شرساً[7] في القتال .

لقد كان ابن الزبير من أشجع شجعان العرب المسلمين ، وكان بطلاً من أعظم أبطالهم .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٣٤٣) وحلية الأولياء (١ / ٣٣١) .
(٢) حلية الأولياء (١ / ٣٣٢) وانظر البداية والنهاية (٨ / ٣٤٣) .
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٣٤١) .
(٤) عبطة : الموت في فناء السن وطراوة العمر .
(٥) فوات الوفيات (١ / ٤٥٠) .
(٦) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٥) .
(٧) الاستيعاب (٣ / ٩٠٦) .

القائـــد :

مفتاح قيادة ابن الزبير شجاعته الخارقة وإقدامه النادر .

لقد كان ابن أبيه شجاعة وإقداماً ، بل كان ابن أمه شجاعة وإقداماً ، وهي التي قالت له وقد حاق به الخطر من كل مكان قبيل مقتله : « يا بني لا تقبل منهم خطة عليك فيها الذل ، فوالله لضربة سيف في عزٍ خير من ضربة سوط في مذلة »[1] .

كان على يد أبيه الزبير نصر المسلمين في معركة (بابليون)[2] الحاسمة التي فتحت أبواب مصر على مصراعيها للمسلمين ، وكان ابن الزبير مع أبيه في فتحِ مصر ، فأفاد من ذلك اليوم أهم درس من دروسه التي طبّقها عملياً في معارك جهاده .

فقد أيقن الزبير أن حصار حصن (بَابِلْيُون)[3] سيطول ، وأن انتزاعه من الروم سيضع حداً لمقاومتهم المستميتة ودفاعهم المديد ... فاستطلع الزبير مراقي هذا الحصن ، ثم أقدم على ارتقائه مع بعض المغاوير الفدائيين ، حتى إذا أصبح على شرفاته تعالى صوته وصوت أصحابه : الله أكبر ... الله أكبر ... فانهارت معنويات الروم ، وهاجمه المسلمون من كل مكان ... ثم كانَ استسلام الرومِ للعرب المسلمين ...

ومضى ابن الزبير على خطة أبيه هذه يعضّ عليها بالنواجذ : يستطلع منافذ العدو ، ويطلّع على عوراته ، ثم يُقدم بشجاعة خارقة لوضع حد لمقاومة ذلك العدو .

ومن يضع حداً لمقاومة العدو ؛ غير الاستيلاء على حصونه المنيعة التي يحتمي وراء أسوارها ؟ كما فعل أبوه الزبير ، وغير قتل قائده ؟ كما فعل ابن

---

(١) فوات الوفيات (١ /٤٤٨) .

(٢) بابليون : حصن كان في مكان الفسطاط . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٢٠ – ٢١).

(٣) الولاة والقضاة (١٢) .

الزبير حين أقدم على قتل (جرجير) ، فانفرط عقد المقاومة المعادية ، فكان الفتح على يديه [1].

ولكن المعنويات لها أثر حاسم على النصر ، فلا بدّ من أن يعمل القائد المحنّك على زعزعة معنويات العدو قبل أن يضرب ضربته القاصمة في الوقت والمكان المناسبين ، وهذا ما فعله ابن الزبير فعلاً قبل أن يُقدم على قتل (جرجير) ، فقد أقنع ابن أبي سرح القائد العام حينذاك أن يأمر مناديه أن ينادي : « من أتاني برأس (جرجير) نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده » ، وذلك كردٍّ فعل لمحاولة (جرجير) تحطيم معنويات ابن أبي سرح في إذاعته : « من قتل عبد الله بن سعد بن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي » ، فخاف عبد الله بن سعد على نفسه ، ولكن (جرجير) صار يخاف أشد من ابن أبي سرح [2].

ولكن زعزعة معنويات العدو ، وقتل قائده على أهميتهما لا يؤديان إلى النصر ، ما لم يدعم هذين العاملين الحيويين بخطة دقيقة مدروسة لتكون نتائج المعركة نصراً مبيناً ، لذلك أعدّ ابن الزبير خطّة حكيمة مرنة ، وكانت مجمل خطته ، مباغتة العدو بقتالهم بعد رجوعهم الى خيامهم بقوات ضاربة من المسلمين مؤلفة من شجعان المسلمين وعلى رأسهم ابن الزبير .

وبهذه الخطة المرنة باغت ابن الزبير الروم وحلفاءهم بالأسلوب والمكان ، فانهارت مقاومتهم .

وربما يتبادر الى الأذهان السؤال التالي : لماذا فشل ابن الزبير في حرب الحجاج بن يوسف الثقفي ؟؟

إن الحجاج انتصر على ابن الزبير ، لأن أصحابه كانوا مزودين بالقضايا الإدارية بشكل ممتاز ، وكانت موارد الدولة الأموية تحت تصرّفهم ؛ أما

---

(١) أسد الغابة (٣ / ١٦٣) والإصابة (٧ / ١٦٢) .

(٢) ابن الأثير (٣ / ٣٣ – ٣٥) وابن خلدون (٢ / ٢٩) ملحق .

أصحاب ابن الزبير فقد شحّت مواردهم الإدارية فغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسّم لحمها في أصحابه[1].

لقد كان في مستودعات ابن الزبير قمح وشعير وذرة وتمر، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، وكان يحفظ مواد الإعاشة هذه ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق ويقول: «أنفس أصحابي قوية ما لم يفنَ»[2] يعني مواد الإعاشة.

ولكن الحصار أجهد أصحاب ابن الزبير[3]، لأن موادهم الإدارية شحّت، فكان من الطبيعي أن ينتصر الحجاج بعد أن جاع أصحاب ابن الزبير وتردّت حالتهم المعاشية.

إن ابن الزبير كان على حق عندما كان يسيطر على مستودعات تموينه سيطرة تامة، فلا مجال لانتقاد بعض المؤرخين القدامى حرص ابن الزبير على مواد التموين، فقد كان على يقين ان نفادها معناه الاستسلام.

لقد كانت المعركة الدائرة بين الحجاج وبين ابن الزبير معركة إدارية بالدرجة الأولى، ومثل هذه المعركة يكون عامل الوقت دائماً بصالح الغني على الفقير.

لقد كان انتصار الحجاج في معركته ضد ابن الزبير، لأنه كان صاحب موارد إدارية لا تنضب...

وقد اندحر ابن الزبير، لأن موارده الادارية كانت محدودة تعتمد على على مصادر خارجية تديمها عند الحاجة.

لقد كانت المعركة بين الطرفين غير متكافئة من الناحية الإدارية.

---

(1) ابن الأثير (٤ /١٣٨) وابن خلدون (٣ /٣٨).
(2) ابن الأثير (٤ /١٣٨).
(3) بن خلدون (٣/٣٨).

ولست أشك أن ابن الزبير وأصحابه كانوا يعرفون سلفاً أن نتائج المعركة الدائرة لن تكون في صالحهم ، فقال له أصحابه : « لو لحقت بموضع كذا ! » فقال : « بئس الشيخ أنا إذاً في الاسلام لئن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم[1] » ، فقاتل في معركة يائسة دفاعاً عن دينه وحقه وشرفه وأحسابه ، واستقبل مصيره المحتوم صابراً محتسباً ، وقتل معه مائة وأربعون رجلاً منهم من سال دمه في جوف الكعبة[2] .

لقد كان بحق ، فارس قريش ، بطلاً شجاعاً[3] ، وكان على صفات حميدة ، وقيامه على الإمارة إنما كان لله عزّ وجلّ ؛ ثم كان الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة ، وهو أرشد من مروان بن الحكم ، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت له البيعة في الآفاق وانتظم له الأمر[4] . وكان عالماً عابداً مهيباً وقوراً كثير الصيام والصلاة، شديد الخشوع جيِّد السياسة[5] .

فلا عجب أن تحبه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حباً جماً ، فقد روي عن عروة ابن الزبير قوله : « إن عائشة لم تكن تحب أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر مثل حبِّها ابن الزبير ، وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير »[6] .

لقد كانت له قابلية على إعطاء القرار السريع الصحيح ، شجاعاً مقداماً فارساً ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يتحمّل المسؤولية بلا تردّد ، يعرف مبادىء الحرب ، له نفسية لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار ، خبيراً بنفسيات

---

(١) ابن الأثير (٣ / ١٣٧) وابن خلدون (٣ / ٣٩) .
(٢) فوات الوفيات (١ / ٤٤٩) .
(٣) العبر (١ / ٨٢) .
(٤) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٩ – ٣٤٠) .
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٩) .
(٦) البداية والنهاية (٨ / ٣٣٦) .

رجاله وقابلياتهم ، يثق بجنوده ويحبهم ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب ، ذا شخصية قوية نافذة ، له ماض ناصع مجيد .

وكان يحرص على تطبيق أكثر مبادىء الحرب أهمية في حروبه ، وقد ظهر عملياً بوضوح أنه طبّق مبادىء : (إختيار المقصد وإدامته) و (التعرض) و (المباغتة) و (تحشيد القوّة) و (الأمن) و (المرونة) و (التعاون) و (إدامة المعنويات) و (الأمور الإدارية) .

لقد كان ابن الزبير قائداً فذاً .

ابن الزبير في التاريخ :

يذكر التاريخ لابن الزبير ، أنه كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شباب ابن الزبير الباكر حتّى قتل الزبير .

ويذكر له أنه كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد (جرجير) .

ويذكر له شجاعته النادرة وبطولته التي لا تتكرر وإقدامه المدهش .

ويذكر له ، أنه صاحب عقيدة راسخة ضحّى من أجلها بحياته .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي الورع ، الخطيب البليغ ، فارس العرب وبطل الإسلام ، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي .

قادة فتح تونس

١ ـ عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري[١] .

٢ ـ عبدالله بن الزبير بن العوام .

٣ ـ معاوية بن حديج السكوني[٢] .

٤ ـ عبدالملك بن مروان .

٥ ـ رويفع بن ثابت الأنصاري .

---

(١) انظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٥١ – ٧٤) .

(٢) انظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٧٥ – ٨٩) .



عبد الملك بن مروان الأموي

فاتح مدينة جلولاء[1]
وأول من سار بالناس في بلاد الروم

« ولد الناس أبناء ، وولد مروان أباً »

(عبد الله بن عمر)

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف[2] بن قصي القرشي الأموي[3] .

أبوه : مروان بن الحكم أمير المؤمنين[4] ، وأمه : عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[5] .

---

(١) جلولاء : مدينة مشهورة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٢٩) والمشترك وضعاً (١٠٦) ، وهي الآن خراب يعرف مكانها بعين جلولا : انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٤) .

(٢) فوات الوفيات (٢ / ٣١) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٠٩) وطبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٣) .

(٤) انظر ترجمته في الاستيعاب (٣ / ١٣٨٧ – ١٣٩٠) وأسد الغابة (٤ / ٣٤٨ – ٣٤٩) والاصابة (٦ / ١٥٦ – ١٥٧) وطبقات ابن سعد (٥ / ٣٥ – ٤٤) والمعارف (٣٥٣ – ٣٥٥) .

(٥) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٣) واليعقوبي (٢ / ١٤) وانظر ترجمتها في الاصابة (٨ / ١٤٢) يقول ابن قيس الرقيات :

أنت ابن عائشة التي ... فضلت أروم نسائها

لم تلتفت للداتها ... ومضت على غلوائها

انظر الطبري (٥ / ٢١١) .

وجدّه : الحكم بن أبي العاص، كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة[1] ، أسلم يوم الفتح وسكن المدينة ثم نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف ثم أُعيد الى المدينة في خلافة عثمان ومات بها[2] ، وكان له من الولد أحدٌ وعشرون ذكراً وثمان بنات[3].

وكان لعبد الملك من الاخوة والأخوات : معاوية وأم عمرو وعبيد الله وأبان وداوود وعبد العزيز وعبد الرحمن وأم عثمان وعمرو وأم عمرو وبشْر ومحمد .

أما معاوية بن مروان ، فكان مضعوفاً ويكنى أبا المغيرة ، وقد وقف على طحّان يوماً وفي عنق حمار الطحّان جُلجل فقال له : « لم جعلت في عنقه جلجلاً ؟ ! » ، فقال الطحّان : « ربما نعست فيقف ، فاذا لم أسمع صوت الجلجل صِحْتُ به » ، فقال : « أرأيت إن قام وحرّك رأسه ، ما علمك ؟ ! » ، فقال الطحّان : « ومن له بمثل عقل الأمير ؟ » .

وأما أبان بن مروان فكان على فلسطين لعبد الملك أخيه ، وكان الحجاج على شرطته . وأما عمرو بن مروان فلا عقب له . وأما محمد بن مروان فكان أشد بني مروان ، وهو قاتل ابراهيم بن الأشتر ومُصعب بن الزبير بدير (الجاثليق) بين الشام والكوفة ، وكان على الجزيرة . وأما داوود بن مروان فكان يكنى : أبا سليمان ، وكان أعور . وأما بشر بن مروان ، فكان يكنى : أبا مروان ، وكان على الكوفة ثم ضمّت اليه البصرة فشخص إليها ومات بالبصرة ، وهو أول أمير مات بها ، وله عقب .

وأما عبد العزيز بن مروان ، فيكنى : أبا الأصبغ ، وولي العهد بعد عبد الملك ، وهو أبو عمر بن عبد العزيز[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٥) .
(٢) انظر ترجمته في الإصابة (٢ / ٢٨) .
(٣) المعارف (٣٥٣) .
(٤) المعارف (٣٥٤ – ٣٥٥) .

وفي عبد مناف يجتمع عبد الملك بن مروان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب من جهة أمه وأبيه ، وعبد مناف هو أبو الهاشميين والأمويين جميعاً .

٢ ـ ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية (٦٤٦م) بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان[١] ، وشهد يوم (الدار)[٢] ، مع أبيه وهو ابن عشر سنين[٣] ، وهو أول من سمي : عبد الملك بالإسلام[٤] .

نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره ، وكان أول ما شاهده مجد الدولة الإسلامية وسيادتها ؛ وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب وسيرته وتتلمذ على عثمان ، فنشأ تقياً ورعاً قارئاً للقرآن عاملاً بتعاليمه مكباً على العلم .

وظهرت بوادر شجاعته في قتاله يوم الدار دفاعاً عن عثمان ، ويوم الجمل مع أبيه ، ثم اعتزل الفتنة الكبرى هو وأبوه ، فلم يشهدوا المعارك التي دارت بين علي بن أبي طالب من جهة وبين معاوية من جهة أخرى .

لقد كانت نشأة عبد الملك وأيامه الأولى لا غبار عليها سيرة وعملاً وعقيدة .

جهـــاده :

١ ـ قبل الخلافة :

شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين الهجرية ، وهو أول مشتىً شتوه بها ، فاستعمل معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة عبد الملك

---

(١) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٤) وفي فوات الوفيات (٢ / ٣٢) : انه ولد يوم جلس عثمان ابن عفان للخلافة ، والأول أصح .

(٢) يوم الدار : يوم محاصرة عثمان بن عفان وقتله، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية . انظر العبر (١ / ٣٦) .

(٣) الطبري (٥ / ٢١١) وطبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٤) .

(٤) تاريخ الخميس (٢ / ٣٠٨) وتاريخ بغداد (١٠ / ٣٨٩ ـ ٣٩٠) .

وهو يومئذ ابن ست عشرة سنة ، فركب عبد الملك بالناس البحر [1] .

وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حُدَيج السّكوني مرتين : مرة سنة إحدى وأربعين الهجرية [2] .

وغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية [3] ، فبعثه ابن حُديج الى (جَلُولاء) ففتحها [4] ، فقد سار عبد الملك الى (جلولاء) على رأس ألف رجل فحاصرها أياماً دون جدوى ، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى رجاله الذين كانوا في الساقة غباراً شديداً ، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته ، لذلك كرّ راجعاً فرأى سور جلولاء قد وقع ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها [5] .

واختلف الناس في الغنيمة ، فكتب ابن حديج في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان ، فكتب : « إن العسكر ردْءٌ للسرية ، فقسِّم ذلك بينهم » ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار وضرب للفرس بسهمين ، ولصاحبه بسهم ، فقال عبد الملك : « فأخذت لفرسي ونفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية » [6] .

كما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج على بعث أهل المدينة سنة خمسين الهجرية ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً [7] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤ / ٢٢٤) .
(٢) معجم البلدان (٢ / ٢٩٣) .
(٣) رياض النفوس (١ /١٨) والاستقصا (١ /٦٩) .
(٤) البلاذري (٢٣٧) .
(٥) فتح مصر والمغرب (٢٦١) وانظر الحلة السيراء (١ /٢٩ - ٣٠) .
(٦) فتح مصر والمغرب (٢٦١) وفي المصدر نفسه رواية أن الذي فتحها هو معاوية بن حديج .
(٧) البداية والنهاية (٨ /٦٣) .

٢ – بعد الخلافة :

أ – في إفريقية :

بعث عبد الملك زهير بن قيس البَلَوي[١] لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر وذلك سنة تسع وستين الهجرية[٢]، فانتصر ودخل (القيروان)، ولكنه قتل بعد ذلك[٣] .

وبعد فراغ عبد الملك بن مروان من عبد الله بن الزبير اختار قائداً قديراً هو حسّان بن النعمان الغساني ، فسيّره الى إفريقية وجعل له الولاية عليها وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٤] ففتح (قُرْطَاجَنَّة »[٥] وأتمّ تحرير المغرب العربي[٦] .

ب – في بلاد الروم :

حاصر المسلمون (القسطنطينية) أيام معاوية بن أبي سفيان سبع سنوات وكادوا أن يفتحوها ، فلما نشبت الاضطرابات الداخلية بين المسلمين ، اضطر عبد الملك على عقد هدنة مع الروم لينصرف الى معالجة الأزمة الداخلية .

وفي سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك سيطرته على الدولة الإسلامية ، فعين أخاه محمد بن مروان والياً على (الجزيرة)[٧] و (إرْمِينْيَة)[٨]

---

(١) انظر ترجمته في الجزء الأول من قادة فتح المغرب العربي (١٥٠ – ١٧٠) .

(٢) ابن الأثير (٤ / ١١٩) والاستقصا (١ / ٨١) .

(٣) انظر تفاصيل المعركة في كتاب : عبد الملك بن مروان (٢٥٠ – ٢٥٣) وفتح مصر والمغرب (٢٦٩) .

(٤) فتح مصر والمغرب (٦٩) وابن الأثير (٤ / ١٤٣) .

(٥) قرطاجنة : بلد قديم من نواحي إفريقية تقع على البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٥٢) .

(٦) انظر ترجمة حسان بن النعمان الغساني في الجزء الأول من قادة فتح المغرب العربي (١٧٢ – ٢٢٠) ، وهناك تفاصيل معاركه .

(٧) الجزيرة : هي التي بين دجلة والفرات تشتمل على ديار مضر وديار ربيعة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ٩٦) وانظر حدودها بالتفصيل في المسالك والممالك للاصطخري (٥٠) .

(٨) إرمينية : بلاد واسعة بين أذربيجان والروم . انظر التفاصيل في آثار البلاد (٤٩٥) ومعجم البلدان (١ / ٢٠٤) .

ليكون القائد في الجبهة المتاخمة للروم ، وقطع إرسال النقود التي كان يرسلها للروم ، فأعلن امبراطور الروم (جستنيان الثاني) الحرب وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين ، فلاقاه محمد بن مروان ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة ، وكان ذلك سنة أربع وسبعين الهجرية .

وبعد استقرار الأوضاع في دار الإسلام ، بدأ التوغل الإسلامي في داخل الأراضي البيزنطية ، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي بقيادة محمد بن مروان أو غيره من أمراء بني أمية . وفي سنة إحدى وثمانين الهجرية بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح (قَالِيْقالا)[١] وهي إحدى مدن الروم الكبيرة . وفي سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية داخل دولة الروم في آسيا الصغرى وهي مدينة (المُصَيّصَة)[٢] . وفي سنة سبع وسبعين الهجرية غزا عبد الملك بنفسه الروم ، ففتح مدينة (هِرَقْلَة)[٣] .

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولي على الحصون بعد تحقيق الوحدة في عهد عبد الملك[٤] .

جـ - في المشرق :

ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين الهجرية (خُراسان)[٥]

---

(١) قاليقالا : في معجم البلدان وردت : قاليقلا : مدينة بأرمينية من نواحي خلاط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ١٧) .

(٢) المصيصة : مدينة من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم، تقارب طرطوس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٨٠) .

(٣) هرقلة : مدينة ببلاد الروم اسمها Heraclèe . انظر العبر (١ / ٨٨) .

(٤) انظر التفاصيل في كتاب : عبد الملك بن مروان (٢٥٩ / ٢٦٥) . وانظر ترجمة عبد الله بن عبد الملك .

(٥) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق العجمي من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان الى جنوبها ، وتمتد في الشمال الى أقصى تخوم ايران . انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٤٥ - ١٦٠) ومعجم البلدان (٣ / ٤٠٧) .

و (سِجِسْتان)[1] الى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي ، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج[2] ، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدناً ومناطق جديدة[3] .

الانسان :

١ ـ قبل الخلافة :

أ ـ في المدينة :

ولد عبد الملك بالمدينة ، وكان من الطبقة الثانية من التابعين ، وكان قد جالس العلماء والفقهاء وحفظ عنهم ، وكان قليل الحديث[4] .

ولد في بيئة إسلامية كاملة من بيت شمله الإسلام أباً وأماً وأقارب ، فلم يدرك لحظة في الجاهلية . وقد حفظ القرآن في سن مبكرة وتلقى الثقافة العربية الاسلامية لغة وأدباً وعلماً فبلغ في كل ذلك شأواً بعيداً .

وعاش في بيت عثمان أمير المؤمنين برعاية مروان الذي كان من أقرب المقربين الى عثمان بن عفان ، فكان قريباً من رجال الحكم مطّلعاً على أساليبهم في إدارة الدولة الإسلامية وقيادة جيوشها .

وشهد مقتل عثمان وكان أحد المدافعين عن الخليفة ، فهزّ هذا الحادث نفسه من اعماقها ، وكان ذلك بمثابة صدمة له جعلته يراجع فكرته عن الناس والدنيا ، فتعلم درساً لم ينساه ابداً ، وهو ان سياسة اللين قد تؤدي الى أفدح الكوارث .

---

(١) سجستان : منطقة واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام ، وهي جنوبي هراة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٣٧) والمسالك والممالك (١٣٨) .

(٢) الطبري (٥ / ١٢٤) وابن الأثير (٤ / ١٧٣) وابن خلدون (٣ / ٤٦) .

(٣) انظر ترجمة المهلب بن أبي صفرة الأزدي .

(٤) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٣) .

وشهد بعد مقتل عثمان اضطراب الأمور واختلاف الصحابة وخروج أبيه وبني أمية الى مكة ثم إلى البصرة حيث شهد مع أبيه يوم (الجمل)، ثم عاد بعدها مع أبيه الى المدينة بعدما صالح أبوه علياً وبايعه، فقضت أسرته بعد يوم (الجمل) نحو خمس سنوات هادئة بعيدة عن أحداث الفتنة الكبرى[1].

وحين استقرّ أمر الخلافة لمعاوية سنة إحدى وأربعين الهجرية، عيّن مروان بن الحكم والياً على المدينة ثم على الحجاز، وذلك في سنة اثنتين وأربعين الهجرية[2] فلبث أميراً على الحجاز حتّى سنة ثمان وأربعين الهجرية[3].

وفي سنة خمس وأربعين الهجرية مات الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري[4]، وكان رئيس لديوان المدينة إذذاك، فكتب مروان إلى معاوية يستأذنه في تعيين عبد الملك رئيساً لهذا الديوان، فأجاب معاوية طلبه وعيّن عبد الملك رئيساً للديوان، فخطب يوماً بالمدينة فقال: «يا أهل المدينة إنّ أحق الناس أن يلزم الأمر الأول لأنتم، وقد سالت علينا أحاديث من قِبَل هذا المشرق لا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن، فالتزموا ما في مصحفكم الذي جمعكم عليه الإمام المظلوم رحمه الله، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله، فانه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشيرُ كان للإسلام رحمه الله، فاحكما ما أحكما واسقطا ما شذّ عنهما»[5].

وقد استعمل معاويةُ عبدَ الملك على جيش المدينة وهو ابن ست عشرة سنة[6]، فكان عبد الملك أول من سار بالناس من أهل المدينة في بلاد الروم

---

(١) في الإصابة (٦ /١٥٧) : إنه شهد (صفين) مع معاوية .
(٢) الطبري (٤ /١٣٣) .
(٣) أسد الغابة (٤ /٣٤٩) .
(٤) شذرات الذهب (١ (٥٤) .
(٥) طبقات ابن سعد (٥ /٢٣٣) .
(٦) طبقات ابن سعد (٥ /٢٢٤) .

سنة اثنتين وأربعين الهجرية[1] وغزا بأهل المدينة بلاد المغرب سنة خمس وأربعين الهجرية وسنة خمسين الهجرية..

ولم يزل عبد الملك مقيماً بالمدينة حتى قبيل وقعة (الحرّة)[2] فاستولى ابن الزبير على الحجاز وأجلى بني أمية من هنالك[3]. فقد وثب أهل المدينة فأخرجوا عامل يزيد بن معاوية وهو يومئذ عثمان بن محمد بن أبي سفيان عن المدينة وأخرجوا بني أمية، فخرج عبد الملك مع أبيه فلقيهم مُسْلم بنُ عقْبة بالطريق ــ وكان يزيد بن معاوية قد بعثه في جيش الى أهل المدينة، فرجع مروان معه وكان عبد الملك مجدوراً فتخلف (بذي خُشُب)[4]، وأمر رسولاً ان ينزل (مخيِّضَ)[5] وهي فيما بين المدينة وذي خُشُب على اثني عشر ميلاً من المدينة وآخر يحضر الوقعة يأتيه بالخبر، وهو يخاف أن تكون الدولة لأهل المدينة. وجلس عبد الملك في قصر مروان بـ (ذي خشب) يترقّب، فجاءه رسول يلوِّح بثوبه، فقال عبد الملك: «إن هذا لبشير»، فلما أتاه أخبره بانتصار أهل الشام على أهل المدينة، فسجد عبد الملك ودخل المدينة بعد أن برأ[6].

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٦٢).

(٢) انظر تفاصيل هذه الوقعة في ابن الأثير (٤ / ٤٤ - ٤٨).

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٦٣).

(٤) ذو خشب: واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث وفي المغازي. قال كثير:

وذا خشب من آخر الليل قلبت ... وتبغي به ليلى على غير موعد

وقال شاعر:

أبت عيني بذي خشب تنام ... وأبكتها المنازل والخيام

وأرقني حمام بات يدعو ... على فنن يجاوبه حمام

ألا يا صاحبي دعا ملامي ... فان القلب يغريه الملام

وعوجا تخبرا عن آل ليلى ... ألا إني بليلى مستهام

انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ٤٤٠ - ٤٤١).

(٥) مخيض: جاء ذكره في غزوة النبي صلى الله عليه وسلم لبني لحيان، وهي بين المدينة وذي خشب. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٤١١) وطبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٥).

(٦) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٥).

وكان أهل المدينة قد أخذوا على بني أمية حين أخرجوهم العهود والمواثيق ألاّ يدلوا على عورة لهم ولا يظاهروا عليهم عدواً ، فلما لقيهم مسلم بن عُقْبَة بـ (وادي القرى) ، قال مروان لابنه عبد الملك : « أدخل عليه قبلي لعلّه يجتزىء بك مني » ، فدخل عليه عبد الملك فقال له مسلم : « هات ما عندك . أخبرني خبر الناس وكيف ترى » ، فقال : « نعم ! » ثم أخبره خبر أهل المدينة ودلّه على عوراتهم وكيف يؤتون ومن أين يدخل عليهم وأين ينزل ! ثم دخل عليه مروان فقال : « إيه ما عندك ! » ، فقال : « أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟! » ، فقال : « بلى ! » ، فقال : « إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني » ، فقال : « أجل » ، ثم قال مسلم : « وأي رجل عبد الملك ! قلّ ما كلّمت من رجال قريش رجلاً به شِبْهاً »[1] .

وفي سنة أربع وستين الهجرية بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة فأخرج بني أمية ومروان بن الحكم عن المدينة الى الشام[2] ، فقدم عبد الملك مع أبيه الشام[3] ، فابتدأت صفحة جديدة من صفحات عبد الملك هناك تختلف كثيراً عن صفحته في المدينة المنورة .

لقد قضى عبد الملك حوالي أربعين عاماً متوالية من حياته في المدينة المنورة (من ٢٦ هـ — ٦٤ هـ) ، لم يبرحها إلا للجهاد أو لزيارات موقوتة ، لذلك فهو مدني كما اعتبره ابن سعد في طبقاته .

وكانت حياته في المدينة مشرقة الجوانب نيِّرة السمات في نواحيها المختلفة : عقلية وعلمية وروحية وإدارية وجهاداً .

دخل عبد الملك على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فسلّم وجلس ثم لم يلبس أن نهض ، فقال معاوية : « ما أكمل مروءة هذا الفتى !! » ،

---

(١) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٥ — ٢٢٦) .

(٢) ابن الأثير (٤/ ٥٧) .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٦٣) .

فقال عمرو : « أخذ أخلاقاً أربعة وترك أخلاقاً ثلاثة : إنه أخذ بأحسن البِشْر إذا لقي ، وبأحسن الحديث إذا حدّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر المؤونة إذا خُولف ؛ وترك مزاح من لا يوثق بعقله ولا دينه ، وترك مجالسة لئام الناس ، وترك من الكلام كل ما يعتذر منه »[1].

وكان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيِّب وعروة بن الزبير وقُبيصة ابن ذؤيب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الإمارة[2].

سمع عثمان وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية بن أبي سفيان وأم سلمة وبربرة مولاة عائشة ، وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان[3] ، وكان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً واسع العلم[4]. وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعبّاد والصلحاء ، وكان قبل الخلافة من العباد الزهاد[5].

قيل لابن عمر : « إنكم معشر أشياخ قريش توشكون أن تنقرضوا ، فمن نسأل بعدكم ؟ » ، فقال : « إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه »[6].

وقال نافع : « لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان » ، وقال ابن عمر : « ولد الناس أبناء وولد مروان أباً » ، يعني عبد الملك . ورآه ابن عمر يوماً وقد ذكر اختلاف الناس فقال : « لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه » . وقال عبد الملك : « كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوماً : يا

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٧ - ٣٨٩) .
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٦٢) وانظر تاريخ الخميس (٢/ ٣٠٨) .
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦٢) .
(٤) تاريخ الخميس (٢/ ٣٠٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٦٢) .
(٦) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٨ - ٣٨٩) .

عبد الملك ، إن فيك خصالاً ، وإنك لجدير أن تلي هذه الأمة ، فاحذر الدماء ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل ليدفع عن باب الجنّة بعد أن ينظر اليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق »[1] .

وكان أول من صلى في المسجد ما بين الظهر والعصر[2] .

وقال الشعبي : « ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان ، فاني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني منه ولا شعراً إلاّ زادني فيه »[3] .

وخطب مرة فقال : « إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غالٍ فيه ولا جاف عنه » ، وكان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة : « سبِّحوا حتى نأتي تلك الشجرة ... كبِّروا حتى نأتي تلك الشجرة ... » ، ونحو ذلك . ووقع من عبد الملك يوماً فلس في بئر قذرة ، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنه كان عليه اسم الله عزّ وجل »[4] .

وقال رجل من أهل الأردن : «كنا مع مسلم بن عقبة مَقْدَمه المدينة ، فدخلنا حائطاً بـ (ذي المَرْوَة)[5] ، فاذا شاب حسن الوجه والهيئة قائم يصلِّي ، فطفنا في الحائط ساعة وفرغ من صلاته ، فقال لي : يا عبد الله ! أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم ، فقال : أتؤمّون ابن الزبير ؟ فقلت : نعم ، فقال : ما أحبّ أن لي ما على ظهر الأرض كلّه وأني

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٦٢) .

(٢) فوات الوفيات (٢/ ٣٢) .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦٣) وابن الأثير (٤/ ١٩٩) .

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٦٤) .

(٥) ذو المروة : قرية بوادي القرى ، وقيل بين ذي خشب ووادي القرى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٩) .

سرت اليه ، وما على ظهر الأرض اليوم خير منه ؛ فاذا هو عبد الملك بن مروان » ، فابتلى به حتّى قتله في المسجد الحرام[1].

وكان يقال له : حمامة المسجد لعبادته ومداومته تلاوة القرآن[2]. وقال الأصمعي : « أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك ابن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية » . وكان عبد الملك يخطب ، فسمعه رجل من البادية ، فسأله رجل من قريش : «كيف تسمع ؟ » ، فقال : « لو كان كلام يؤتدم به لكان هذا » . وكان عبد الملك يوصي بنيه أن يحفظوا لغة العرب وقال : « إنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم » . وقال الجاحظ : «كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزهداً[3]» .

لقد كان مثالاً حياً للعلم والفضيلة والورع قبل أن يستخلف ، أما بعد أن أصبح خليفة ؟؟...

ب – في الشام :

مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين الهجرية ، وكان قد عهد بالأمر بعده الى ابنه معاوية بن يزيد فبقي في الخلافة شهرين أو أقل ومات ولم يستخلف أحداً[4].

وفي هذه السنة بويع عبد الله بن الزبير ، فأخرج بني أمية من المدينة إلى الشام[5] ، ولما علم الحصين بن نُمير بموت يزيد قال لابن الزبير : « إن يك هذا الرجل – يعني يزيد بن معاوية – قد هلك ، فأنت أحق الناس بهذا

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦) .
(٢) عبد الملك بن مروان (١١١) .
(٣) عبد الملك بن مروان (١١٢ – ١١٣) .
(٤) العبر (١/٦٩) .
(٥) ابن الأثير (٤/٥٧) .

الأمر ، هلمّ فلنبايعك ، ثم اخرج معي إلى الشام ، فان هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرّة »[١]،فلم يوافق عبد الله بن الزبير فأضاع على نفسه فرصة العمر .

وعاد جيش الشام من مكة الى دمشق ، وفي المدينة قالت بنو أمية : « لا تبرحوا حتى تحملونا الى الشام » ، ففعلوا[٢].

وغلب على الشام الضحاك بن قيس الفِهْري ، فدعا الى ابن الزبير ثم دعا الى نفسه . وانحاز عنه مروان بن الحكم في بني أمية الى أرض (حَوْرَان)[٣] فوافاهم عبيد الله بن زياد من الكوفة على البرية منهزماً من أهلها ؛ فقوي عزم مروان على طلب الخلافة ، وجرت أمور كثيرة الى أن التقى والضحاك بـ (مَرْج رَاهِط)[٤] شرقي (الغُوْطَة)[٥] ، فقتل الضحّاك وقتل معه نحو ثلاثة آلاف وانتصر مروان[٦] ، وذلك في آخر سنة أربع وستين الهجرية، فبايعه أهل الشام[٧] ، وكانت مبايعته يوم الاربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين الهجرية ، فبايع مروان بعد معركة (مرج راهط) لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بالخلافة[٨].

وولاّه مروان (هَجَر)[٩] ثم جعله الخليفة بعده[١٠].

---

(١) الطبري (٤/٣٨٥ – ٣٨٦) .
(٢) الطبري (٤/٣٨٦) .
(٣) حورا ن : كورة واسعة من أعمال دمشق . انظر معجم البلدان (٣/٣٦٠) .
(٤) مرج راهط : بنواحي دمشق وهو أشهر المروج ، انظر معجم البلدان (٨/٣١٤) .
(٥) الغوطة : الكورة التي منها دمشق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣١٤) .
(٦) انظر تفاصيل أحداث معركة مرج راهط في ابن الاثير (٤/٥٨ – ٦٠)
(٧) العبر (١/٧٠) .
(٨) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦) .
(٩) هجر : قاعدة البحرين ، وناحية البحرين كلها هجر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٤٦) .
(١٠) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠٩) .

لقد كان عبد الملك الساعد الأيمن لأبيه في هذه الفترة المليئة بالأحداث الخطيرة والمفاجآت ، وكان لآرائه السديدة ولقيادته الحكيمة أعظم الأثر في تسنّم أبيه منصب الخلافة بعد أن خرج عن المدينة طريداً شريداً لا قوة له ولا حول ، فجعل من مروان الذي كان رجلاً بلا غدٍ الرجل الأول في بلاد الشام ووريث بني أمية في الملك .

ولعلّ مروان ولّى ابنه (هجر) على بعدها ليكونَ المسؤول الأول عن تلك القاعدة البعيدة التي تنطلق منها جيوش أهل الشام لتستعيد العراق والمشرق من جهة والحجاز وأرض العرب من جهة أخرى ، وتعيدها الى حكم مروان بعد أن دانت لعبد الله بن الزبير ، ولكن الشوط لم يطل بمروان ، فمات سنة خمس وستين الهجرية [1].

٢ ــ بعد الخلافة :

أ ــ قبل الوحدة :

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين الهجرية [2] فكان على أرض الشام ومصر ، وكان ابن الزبير على البلاد الإسلامية الأخرى .

وبدأ عبد الملك يبذل قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة الى بلاد الإسلام ، فكانت في سنة سبع وستين الهجرية وقعة (الخَازِر) [3] اندحر فيها اهل الشام وكانوا أربعين ألفاً وظفر بهم إبراهيم بن الأشتر النخعي وقتل أمراء أهل الشام : عبيد الله بن زياد وحُصَين بن نُمَيْرْ السّكُوني الذي حاصر ابن الزبير وشُرَحْبيل بن ذي الكلاع [4].

---

(١) شذرات الذهب (١/٧٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦) .

(٣) الخازر : نهر بين أربيل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٨٨) .

(٤) العبر (١/٧٤) .

وفي سنة تسع وستين الهجرية قصد عبد الملك مصعب بن الزبير في العراق ، وقصد مصعب عبد الملك ، ثم فصل بينهما الشتاء ، فتوثب على دمشق في غيبة عبد الملك عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وأراد الخلافة ، فجاء عبد الملك وجرى بينهما قتال وحصار ، ثم نزل عمرو الى عبد الملك بالأمان[1] .

فقد سار عبد الملك الى مصعب لقتاله ، فكان دون (بُطْنَان حَبيب)[2] بليلة ، فجلس خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد فتذاكرا أمر عبد الملك ومسيرهما معه على خديعة منه لهما ومواعيد باطلة ، فقال عمرو : « فاني راجع » ، فشجّعه خالد على ذلك . ورجع عمرو الى دمشق فدخلها والسور يومئذ عليها وثيق ، فدعا أهل دمشق فأسرعوا اليه . وفقده عبد الملك وقال : « أين أبو أميّة ؟ » ، فقيل له : رجع ! فرجع عبد الملك بالناس الى دمشق ، ونزل عليها ، فأقام عليها ستة عشر ليلة حتّى فتحها له عمرو وبايعه ، فصفح عنه عبد الملك ، ثم اجمع على قتله فأرسل إليه يوماً يدعوه ، فوقع في نفسه انها رسالة شر ، فركب اليه فيمن معه ولبس درعاً . ودخل على عبد الملك فتحدّث ساعة ، وقد كان عهد الى عمه يحيى بن الحكم إذا خرج الى الصلاة أن يقتله . وأقبل عليه فقال : « أبا أميّة ! ما هذه الغوائل[3] والزُّبى[4] التي تحفر لنا ؟ » ، ثم ذكّره ما كان منه . وخرج عبد الملك الى الصلاة ورجع ، فلم يقدم عليه يحيى ، ثم أقدم هو ومن معه على عمرو بن سعيد فقتله[5] .

---

(١) العبر (١/٧٧) .

(٢) بطنان حبيب : بقنسرين ، نسب الى حبيب بن مسلمة الفهري ، وكان عبد الملك يشتو به . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢١٨) .

(٣) الغوائل : جمع غائلة ، الشر والفساد .

(٤) الزبى : جمع زبية ، الرابية لا يعلوها الماء ، وحفيرة يشتوي فيها ويختبز ، وحفرة في موضع عال تغطى فوهتها ، فاذا وطئها الأسد وقع فيها . وفي المثل : بلغ السيل الزبى .

(٥) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٧) وانظر روايات اخرى حول مقتله في ابن الأثير (٤/١١٦ - ١١٨) .

وأخرج عبد الملك سريره الى المسجد وخرج وجلس عليه بعد قتل عمرو[1]، ثم صعد المنبر وذكر عمراً فوقع فيه وذكر خلافه وشقاقه، ونزل من المنبر وهو يقول:

أدنيته مـــني ليسكن روعه ... فأصول صولة حـــازم متمكّن

غضباً ومحميـــة لديني إنـــه ... ليس المسيء سبيله كالمحسن[2]

وانتهز فرصة امتناع عمرو بن سعيد – إنتهز هذه الفرصة أحد قواد الضواحي، فخرج على عبد الملك في جبل (اللكّام)[3] وأتبعه خلق كثير من (الجراجمة) وهم من العناصر المخرِّبة الأجنبية التابعة للروم في داخل الدولة الإسلامية[4]، فلما انتهى عبد الملك من عمر أرسل الى هذا الخارج عليه فبذل له كل جمعة ألف دينار فركن الى ذلك ولم يفسد في البلاد. وأخيراً باغته أحد قادة عبد الملك فقتله وقتل من أعانه من العبيد ومن الروم ومن حلفائهم الجراجمة والانباط[5].

وفي سنة اثنتين وسبعين[6] تجهّز عبد الملك وطلب العراق، وسار مُصْعَب بن الزبير أيضاً طالباً الشام، فالتقى الجمعان بـ (مَسْكِن)[7]، فخان مصعباً بعض جيشه وفلت بعضهم ولحقوا بعبد الملك، وكان عبد الملك قد كتب اليهم يعدهم ويمنّيهم حتى أفسدهم. وجعل مُصْعَب كلما يقول لمقدّم من أمرائه: «تقدّم»، لا يطيعه. واستظهر عبد الملك فأرسل إلى مصعب يبذل له الأمان، فقال: «إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموطن

---

(١) ابن الأثير (٤/١١٧).

(٢) انظر مروج الذهب على هامش ابن الأثير (٥/٢١).

(٣) اللكام: هو جبل لبنان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٢٠) و(٧/٣٣٦ – ٣٣٧)

(٤) عبد الملك بن مروان (١٩٦).

(٥) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/١١٨ – ١١٩).

(٦) العبر (١/٨٠) وفي ابن الأثير (٤/١٢٥) ان ذلك كان سنة إحدى وسبعين.

(٧) مسكن: موضع قريب (أوانا) على نهر دجيل عند دير الجاثليق. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٥٤).

إلا غالباً أو مغلوباً » . وأثخن أهل الشام مصعباً بالرمي ، ثم شدّ عليه أحدهم فطعنه ، وقتل مع مصعب ولداه عيسى وعُرْوة ، وإبراهيم بن الأشتر سيد النخع وفارسها ومسلم بن عمرو والد قتيبة بن مسلم الباهلي ، واستولى عبد الملك على العراق وما يليها وبعث الأمراء على الأعمال [1] .

ودعا عبد الملك جند العراق الى بيعته فبايعوه ، وسار حتى دخل الكوفة فأقام بـ (النخيلة)[2] أربعين يوماً ، وخطب الناس بالكوفة فوعد المحسن وتوعّد المسيء فقال : « إن الجامعة التي وضعت في عنق عمرو بن سعيد عندي . والله لا أضعها في عنق رجل فأنتزعها إلا صعداً لا أفكّها عنه فكّاً ، فلا يبقينّ امروٌ إلا على نفسه ولا يولغنّ دمه ، والسلام »[3].

وفي الكوفة دخل رجل على عبد الملك وبين يديه رأس مصعب بن الزبير ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! لقد رأيت في هذا الموضع عجباً ! » ، فقال : « وما رأيت ؟! » ، فقال : « رأيت رأس الحسين بن علي بين يدي عبيد الله بن زياد ، ورأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن أبي عبيد ، ورأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، ورأيت رأس مصعب ابن الزبير بين يديك » ، فخرج عبد الملك من هذا البيت وأمر بهدمه [4] .

ولما فرغ عبد الملك من أمر مصعب في العراق ، بعث الحجاج بن يوسف الى عبد الله بن الزبير بمكة وكتب الى طارق بن عمرو أن يلحق بالحجاج ، فسار طارق في أصحابه وهم خمسة آلاف ، ولحق بالحجاج . وحصروا ابن الزبير وقاتلوه ونصبوا عليه المنجنيق . وحج بالناس الحجاج سنة اثنتين وسبعين الهجرية وابن الزبير محصور ، ثم صدر الحجاج وطارق فنزلا بئر

---

(١) العبر (١/٨٠ – ٨١) وانظر تفاصيل المعركة في ابن الأثير (٤/١٢٥ – ١٣٠) وابن خلدون (٣/٣٣ – ٣٥) .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٧٦)

(٣) ابن الأثير (٤/١٢٨) .

(٤) اليعقوبي (٢/١٢) .

ميمون ولمْ يطوفا بالبيت ولم يقربا النساء ولا الطيب إلى أن قتل ابن الزبير ، فطافا بالبيت وذبحا جزوراً ؛ وقد حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ستة أشهر وسبعة عشر يوماً ، وقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وبُعث برأسه الى عبد الملك بالشام ، فكتب اليه عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخُدْري وسلمة ابن الاكوع بالبيعة [١] .

وهكذا انطلق عبد الملك من نقطة الصفر سنة خمس وستين الهجرية حين تولى الخلافة وحين كان عرشه مزعزع الأركان حتى في دمشق نفسها ، وانتهى في سنة ثلاث وسبعين الهجرية الى القمـــة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها وأعاد الوحدة الشاملة الى دار الإسلام .

ب — بعد الوحدة :

اولا — إشاعة الاستقرار :

قضى على الخوارج في البحرين سنة ثلاث وسبعين الهجرية [٢] ، وأعاد بناء الكعبة على ما كان عليه قبل عبد الله بن الزبير [٣] ، وبعث المهلب بن أبي صفرة الى حرب الأزارقة [٤] . وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح ولاستعادة المناطق التي استعادها العدو في ايران وبلاد الروم وإفريقية [٥] ، وولّى الحجاج سنة خمس وسبعين الهجريـــة العراق [٦] ، فأعاد الأمن والاستقرار الى

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٨ — ٢٢٩) وانظر تفاصيل مقتل ابن الزبير في اليعقوبي (٢/١٣ — ١٤) وابن الأثير (٨/١٣٥ — ١٣٩) والطبري (٥/٢٩ — ٣٣) وابن خلدون (٣/٣٧ — ٣٩) والبداية والنهاية (٧/٣٢٩) وسمط النجوم العوالي (٣/١٤٠ — ١٤٤) .

(٢) انظر ابن الأثير (٤/١٤٠) .

(٣) انظر ابن الأثير (٤/١٤١) .

(٤) الأزارقة : فرقة من الخوارج . انظر تفاصيل حرب المهلب في ابن الأثير (٤/١٤١ — ١٤٢ .

(٥) انظر تفاصيل ذلك في ابن الأثير (٤/١٤٢ — ١٤٤) .

(٦) انظر ابن الأثير (٤/١٤٤ — ١٤٧) .

ربوع العراق والمشرق[1] ؛ وأخيراً استطـــاع الحجاج أن يقضي على شبيب الخارجي وجماعته الأقوياء الأشداء من الخوارج وذلك سنة سبع وسبعين الهجرية [2] .

وفي سنة اثنتين وثمانين ثار عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج ، فاستطاع الحجاج بمعاونة عبد الملك القضاء على أكبر ثورة داخلية هدّدت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة[3] ، وذلك سنة ثلاث وثمانين الهجرية [4] .

وكان من ثمرات الوحدة أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون وامتدت من نهر جيحون شرقاً الى قرطاجنة غرباً الى أعماق بلاد الروم شمالاً ، بعد أن كان عبد الملك يدفع الأتاوة لإمبراطور القسطنطينية قبل الوحدة .

ثانياً ـ الإصلاحات :

(١) إصدار العملة :

في سنة ست وسبعين الهجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم ، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام ، فانتفع الناس بذلك . وكان سبب ضربها ، أنه كتب في صدور الكتب الى الروم : قل هو الله أحد ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مع التاريخ ؛ فكتب ملك الروم الى عبد الملك : « إنكم قد أحدثتم كذا وكذا ... فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون » ، فعظم ذلك على عبد الملك وأحضر خالد بن يزيد ابن معاوية فاستشاره فيه ، فقال : « حرّم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى » ، فضرب الدراهم والدنانير ، كما ضرب الحجاج

---

(١) انظر ابن الأثير (٤/١٤٧ – ١٥١) .
(٢) انظر ابن الأثير (٤/١٦٦ – ١٦٧) .
(٣) انظر تفاصيل ذلك في ابن الأثير (٤/١٨٠ – ١٨٢) .
(٤) انظر تفاصيل ذلك في ابن الأثير (٤/١٨٣ – ١٩٠) .

الدراهم ونقش فيها : « قل هو الله أحد » .

ثم تطوّرت الدراهم والدنانير الإسلامية من بعد[1] ، وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي .

(٢) تعريب الدواوين :[2]

بقيت أهم دواوين الدولة العربية الإسلامية – دواوين الخراج –[3] وهي التي كانت تشرف على الشؤون المالية للدولة ، وكانت موجودة في عواصم الدولة العربية الإسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة . بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية ، كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام ، فكانت لغة الدواوين في العراق هي اللغة الفارسية ، ولغتها في الشام الرومية أي اليونانية ، وفي مصر اليونانية والقبطية . واستمر الحال على ذلك منذ دوّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الديوان لأول مرة في الإسلام[4] حتى عهد عبد الملك ، فكان من نتائج ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين الذين يعتبرون أجانب من غير العرب والمسلمين ، ومن نتائج ذلك أيضاً بقاء تلك اللغات سائدة حيّة معترف بها لغات رسمية ، يقبل الناس على تعلمها وإتقانها لحاجة الدولة إليها .

وشعر عبد الملك بتناقض هذا الوضع مع شخصية الدولة العربيـــة الإسلامية

---

(١) ابن الأثير (٤/١٦١) وابن خلدون (٣/٤٤ – ٤٥) والبلاذري (٤٥٢ – ٤٥٣) وانظر فوات الوفيات (٢/٣٢) وطبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٩) .

(٢) الدواوين : جمع ديوان ، والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال . انظر التفاصيل في الأحكام السلطانية للماوردي (١٩٩ – ٢١٨) .

(٣) الخراج : هو بيت المال مختص بالدخل وبالخرج . انظر الأحكام السلطانية للماوردي (٢١٣– ٢١٥) .

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٣/٣٠٠) و (٣/٢٩٥) وتاريخ عمر بن الخطاب لا بن الجوزي (٤٨ – ٤٩) والطبري (٣/١٠٨ – ١١٣) وابن الأثير (٢/١٩٤ – ١٩٥) ومقدمة ابـن خلدون (٢٤٣ – ٢٤٤) والخراج (٤٩ – ٥٦) والوزراء والكتاب (١١) والادارة الاسلامية في عز العرب (٤٤ - ٤٦) .

سيادتها ، وكان هو بالذات مهتماً بالإشراف على جميع شؤون الدولة حريصاً على أن تبلغ الإدارة فيها درجة عالية من الكفاءة والدقة والإنتظام ؛ ووجد عملياً أن هذا لا يمكن أن يتمّ ما دام هؤلاء الموظفون غريبين عن الدولة ، وما دامت اللغات التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغات أجنبية ؛ فقرّر عبد الملك إزالة هذا الوضع الشاذ ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية ، فتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في جميع الدواوين وفي الدولة ، وهذه هي الحركة التي تسمى في كتب التاريخ بحركة : (تعريب الدواوين) ، التي كانت لها نتائج عظيمة الأهمية بعيدة المدى .

كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو (سرجون بن منصور الرومي) وكان محتكراً لهذا العمل منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، فأمر عبد الملك رجلاً عربياً هو سليمان بن سعد الخشني الملقب : أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية الى العربية ، فقام سليمان بذلك منذ سنة إحدى وثمانين الهجرية وأتمّ التعريب بعد سنة ، وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن في مقابل هذا العمل . ولما أتمّ التعريب عزل عبد الملك (سرجون) وتولى سليمان رئاسة الديوان ، وحينذاك قال (سرجون) لكتاب الروم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » ... ثم أمر عبد الملك بتحويل جميع دواوين الشام على هذا النحو .

وكان رئيس ديوان العراق يسمى : (زاذان فروخ) وهو فارسي ، وكان محتكراً لهذا العمل أيضاً من أيام يزيد بن معاوية وقتل أيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، فجاء قتله مناسباً للوقت الذي اتّجهت فيه الدولة الى تعريب الدواوين ، فعين الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان على العراق بدلاً منه صالح بن عبد الرحمن ، وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية ، وكان صالح يحذق اللغتين معاً . وحدّد الحجّاج له أجلاً لينهي عمله ، فأتمّ مهمته بنجاح ... ثم أمر الحجاج بتعريب جميع دواوين

العراق من الفارسية الى العربية . وتخرّج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق ، لذا كان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله درّ صالح ! ما أعظم منّته على الكتّاب ! ! » .

ونقل ديوان الخراج في مصر من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية وكان ذلك في أيام عبد الله بن عبد الملك الذي تولى مصر بعد عبد العزيز بن مروان في أواخر عهد عبد الملك .

وتمّ تحول جميع دواوين الدولة في سائر أنحاء دار الإسلام إلى العربية في أوقات بعد ذلك .

بذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين ، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية ، فتحقّق نصر اللغة العربية على تلك اللغات الأجنبية . وكان تعريب الدواوين سبيلاً الى تعريب الجاليات الأجنبية والأقاليم ، فكان هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم .

لقد أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تؤدي الى الوظائف والمناصب العالية، فأقبل الموالي وغيرهم على تعلّمها وإتقانها ، فتكوّنت في الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربية ونبغوا في الكتابة والآداب العربية ، ومن أظهر الأمثلة في ذلك : عبد الحميد الكاتب ، ثم كبار الكتاب في عهد بني العبّاس .

لقد حفظ عبد الملك للأمة العربية إذن أكبر مقوّم لثقافتها وأغلى عنصر تعتزّ به — بعد دينها — في تكوين شخصيتها ، وكان لعبد الملك فضل لا يقدّر في ذلك [1] .

---

(١) عبد الملك بن مروان (٢٨٣ — ٢٨٧) وانظر الأحكام السلطانية للماوردي (١٩٩ — ٢٠٣) والوزراء والكتاب (٢٠ — ٢٩) وابن الأثير (١٤ — ٢٠٠) وفوات الوفيات (٢/٣٢) والإدارة الإسلامية في عز العرب (٨٨ — ٨٩) .

(٣) وفاته :

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة سنة ست وعشرين الهجرية (٦٤٦ م) كما ذكرنا سابقاً، وتوفي يوم الجمعة للنصف من شوال سنة ست وثمانين الهجرية[١] (٧٠٥ م) بدمشق[٢] وله ستون سنة قمرية، ودفن بباب الجابية الصغير[٣]، وكان نقش خاتمه: «آمنت بالله مخلصاً»[٤].

بويع بالخلافة في رمضان سنة خمس وستين الهجرية[٥]، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً، منها ثمان سنين كان مزاحماً لابن الزبير، وكانت ولايته بعد مقتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوماً، وفي هذه الفترة انفرد بمملكة الدنيا[٦] بعد اجتماع الناس عليه[٧]، فكانت الجماعة على عبد الملك سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٨].

وفي مرض موته قيل له: «كيف تجدك؟»، فقال: «أجدني كما قال الله تعالى: (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآية»[٩].

واستأذن قوم على عبد الملك وهو شديد المرض فدخلوا عليه وقد أسنده خصي إلى صدره، فقال لهم: «إنكم دخلتم عليّ عند إقبال آخرتي وإدبار دنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٩١) وتاريخ الخميس (٢/ ٣١١).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠٩) والمعارف (٣٥٧).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦٨). وقيل دفن خارج باب الجابية وباب الصغير. انظر تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩١).
(٤) تاريخ الخميس (٢/ ٣١١).
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٦).
(٦) تاريخ الخميس (٢/ ٣١١).
(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٣٥).
(٨) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩٠).
(٩) البداية والنهاية (٨/ ٦٨) وابن الأثير (٤/ ١٩٩).

وأنا خلوٌ من هذه الأشياء ... »[1].

وحين ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه وقال : « وددت أني كنت أكتسب يوماً بيوم ما يفوتني وأشتغل بطاعة الله » . ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصّاراً بالوادي فقال : « ما هذا ؟ » ، فقالوا : « قصّار » ، فقال : « يا ليتني كنت قصّاراً أعيش من عمل يدي » ، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : « الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرّون الينا ولا نفرُّ إليهم »[2].

ولما احتضر سمع غسّالاً يغسل الثياب ، فقال : « يا ليتني كنت غسالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ولم أل الخلافة »[3].

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء : « إن شرب الماء مات » ! ، فاشتد عطشه ، فقال : « يا وليد ! اسقني ماءً ! » فقال : « لا أعين عليك » ، فقال لابنته فاطمة : « أسقيني ماءً » ، فمنعها الوليد ، فقال : « لتدعنّها أو لأخلعنّك » ، فقال : « لم يبق بعد هذا شيء » ، فسقته فاطمة فمات. ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكي ، فقال : « كيف أمير المؤمنين ؟ » ، فقال : « هو أصلح ! » ، فلما خرج قال عبد الملك :

« ومستخبرٍ عنا يريد لنا الردى ومستخبرات والدموع سواجم »[4]

وقبل موته أوصى بنيه فقال : « أُوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلة وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حقّ الكبير ، وانظر مسلمة (ابن عبد الملك) فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذي عنه تفترون ومجنّكم الذي عنه ترمون ، وأكرموا الحجاج فانه الذي

(١) ابن الأثير (٤/١٩٩).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٦٨) وابن الأثير (٤/١٩٩).
(٣) البداية والنهاية (٨/٦٧).
(٤) ابن الأثير (٤/ ١٩٨).

وطّأ لكم المنابر ودوّخ لكم البلاد وأذلّ الأعداء ، وكونوا بني أم بررة لا تدبّ بينكم العقارب ، وكونوا في الحرب أحراراً فان القتال لا يقرّب منيّة ، وكونوا للمعروف مناراً ، فان المعروف يبقى أجره وذكره ، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب فانهم أصون له وأشكر لما يؤتى اليهم منه ، وتعهّدوا ذنوب ذوي الذنوب فان استقالوا فاقبلوا وإن عادوا فانتقموا »[1] .

ولما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم ثم قال : « الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً » وأنشد :

« فهل من خالدٍ إما هلكنا وهل بالموت للباقين عار !؟ »[2]

ولما احتضر دخل عليه الوليد ابنه فبكى ، فقال له عبد الملك : « ما هذا ؟! » ... أتحنّ حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا متّ فشمّر واتّزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قريشاً » ، ثم قال : « يا وليد ! إتّق الله فيما استخلفك فيه ، واحفظ وصيّتي ، وانظر الى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر الى أخي محمد فأمّره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر الى ابن عمّنا علي بن عباس فإنه قد انقطع الينا بمودّته ونصيحته وله نسب وحق ، فصل رحمه واعرف حقّه ، وانظر الى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهّد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتّت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالمحبّة ويذلّل الألسنة بالذكر الجميل ، ولله در القائل :

« إنّ الأمور إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش مفنّد[3]

---

(١) ابن الأثير (٤/١٩٨) .

(٢) البداية والنهاية (٨/٩٨) .

(٣) مفند : الضعيف الرأي .

عزّت فلم تكسر ، وإن هي بُدّدت فالكسر والتوهين للمتبـدّد »

ثم قال : « إذا أنا مت فادع الناس الى بيعتك ، فمن أبى فالسيف ، وعليك بالإحسان الى أخواتك فأكرمهن ، وأحبهن إليّ فاطمة » ثم قال : « اللهم احفظني فيها » ، فتزوجهـا عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمّها [1] .

وقبل وفاته قال : « ارفعوني » ، فرفعوه حتى شمّ الهواء وقال : « يا دنيا ! ما أطيبك !! إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقـير ، وإنا كنّا بك لفي غرور » ، ثم تمثّل بهذين البيتين :

« إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب [2] » .

ولما أيقن بالموت قال : « والله لوددت أني كنت منذ ولدت الى يومي هذا جمالاً [3] » .

وصلى على عبد الملك ابنه الوليد ، فتمثل أحد أولاده بقول الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنّه بنيـان قوم تهـدّما

ورثاه كثير من الشعراء منهم كثير عزة فقال :

سقاك ابن مروان من الغيث ميل أجش شمالي يجود ويهطـل
فما في حياة بعد موتك رغبة لحرٍ ، وإن كنّا الوليدَ نؤمِّل [4]

وانصرف الوليد بن عبد الملك بعد دفن عبد الملك فوراً الى المسجد ، فصعد المنبر واجتمع اليه الناس فقال : « إنا لله وإنا اليـه راجعون ،

---

(١) البداية والنهاية (٨/٦٧) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٦٨) .
(٣) سمط النجوم العوالي (٣/١٧٠) .
(٤) عبد الملك بن مروان (٣٢٤ - ٣٢٥) .

والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا » ، فبايعه الناس [1] ، فكان بذلك أول من عزّى نفسه وهنأها . ثم ألقى هذه الخطبة : « أيها الناس ! إنه لا مقدّم لما أخرّ الله ، ولا مؤخر لما قدّم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه ، الموت . وقد صار الى منازل الأبرار ، ولي هذه الأمة بالذي يحقّ عليه لله : من الشدّة على المريب ، واللين لأهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشنّ هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً ، أيها الناس ! عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، فإنّ الشيطان مع الفرد . أيها الناس ! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » ، ثم نزل [2] .

ودار الزمن دورته ، فانتهت صفحة من صفحات التاريخ العربي الإسلامي بموت عبد الملك ، وابتدأت صفحة جديدة من هذا التاريخ بتولية ابنه الوليد من بعده .

شخصيته :

أ . الرجل :

كان عبد الملك أبيض طويلاً رقيق الوجه أفوه مفتوح الفم مشبك الأسنان بالذهب [3] ، وكان مقرون الحاجبين كبير العينين مشرف الأنف حسن الجسم ليس بالقصيف ولا البادن ، أبيض الرأس واللحية [4]، وكان

(١) الطبري (٥/٢١٣) .
(٢) الطبري (٥/٢١٤) وابن الأثير (٤/٢٠٠) وابن خلدون (٣/٥٨ - ٥٩) وسمط النجوم العوالي (٣/١٧٢ - ١٧٣) .
(٣) تاريخ الخميس (٢/٣٠٨) .
(٤) تاريخ بغداد (١٠/٣٩١) .

مفتوح الفم فربما غفل فيفتح فمه فيدخل فيه الذباب ، ولهذا كان يقال له : أبو الذباب . وكان مشرق الوجه حسنه،لم يخضب بياض شعره ، وقيل إنه خضب بعد [1] .

وكان لعبد الملك رجلة ودهاء وعلم [2] ، وكان حازماً فطناً سائساً لأمور الدنيا ، لا يكل أمر دنياه الى غيره[3] ، وكان حازماً يقظاً لا يكل أمره الى سواه [4] .

ب . العالم :

ذكرنا فيما سلف كثيراً من اخبار تفرغه للعلم قبل خلافته حين كان في المدينة المنورة ، حتى أصبح حجة في الفقه وعلوم الدين واللغة ، وحتى أصبح أحد فقهاء المدينة الأربعة المعدودين ...

حج عبد الملك فلبّى بعد أن دخل الحرم حتى طاف بالبيت ثم أمسك عن التلبية ، ثم لم يزل يلبي حتى راح الى الموقف ، فذكر ذلك لعبد الله بن عمر فقال : « كل ذلك قد رأيت ، فأما نحن فإنما نأخذ بالتكبير»[5] .

وفي أيام الحج سأل عبد الملك قبيصة بن ذويب : « هل سمعت في الوداع بدعاء مؤقت ؟ » ، فقال : « لا » ، فقال عبد الملك : « ولا أنا » . وطاف عبد الملك للقدوم فلما صلى الركعتين قال له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : « عد الى الركن الأسود قبل ان تخرج الى الصفا » ، فالتفت الى قبيصة فقال قبيصة : « لم أر أحداً من أهل العلم يعود اليه » ، فقال عبد الملك : « طفت مع أبي فلم أره عاد اليه » ، ثم قال : « تعلم

(١) البداية والنهاية (٨/٦٢) .
(٢) اليعقوبي (٣/٢٠) .
(٣) البداية والنهاية (٨/٦٣) .
(٤) سمط النجوم العوالي (٣/١٥٩) .
(٥) طبقات ابن سعد (٥/٢٣٠) .

مني كما تعلّمت منك حيث أردت أن التزم البيت فأبيت عليّ » فقال : « أفعل يا أمير المؤمنين ! ما هو بأول علمٍ استفدت من علمك »[1] .

وخطب عبد الملك في حجّته في أربعة أيام : قبل التروية ويوم عرَفة والغد من يوم النحر ويوم النفر الأول ، أربعة أيام[2] .

وقال له رجل في الحج : « رأيت عمر لا يصلي حـتى يبلغ جمعاً ، وليست سنّة أحب الي من سنّة عمرْ » ، فقال عبد الملك : « رحم الله عمر ، فعثمان كان أعلم بعمر ، لو كان عمر فعل هذا لاتّبعه عثمان ، وما كان أحد أتْبَع لأمر عمر من عثمان ... »[3] .

لقد كان عبد الملك فقيهاً عالماً ، لذلك قال عنه بحق عبد الله بن عمر : « إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه »[4] .

ج . الأديب :

كان عبد الملك يقول لأولاده : « خلّتان لا تدعوهما إن قدرتم : تعلّم العربية ولباس الثياب الفاخرة ، فإنهما الزينة والمروءة الظاهرة »[5] .

لقد كان من المعدودين الذين لا يلحنون ، وكان بليغاً عالمـاً بالشعر متمكناً من لغة القرآن مقدّراً للشعراء والكتّاب والأدباء ، وحسبه أن يظهر في أيامه فطاحل شعراء العربية وأن يقدم على تعريب الدواوين حفاظاً على اللغة العربية .

دخل سلمة بن زيد بن وهب بن نباتة الفهمي على عبد الملك ، فقال له : « أي الزمان أدركت أفضل ، وأي الملوك أكمل ؟ » ، قال :

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٢٣٠ - ٢٣١) .
(٢) طبقات ابن سعد (٥/٢٣٠) .
(٣) طبقات ابن سعد (٥/٢٣٢ - ٢٣٣) .
(٤) تاريخ بغداد (١٠/٣٨٩) .
(٥) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٨) .

« أما الملوك فلم أر إلا ذامّـاً وحامداً ، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين ؛ وكلهم يذمّ زمانه ، لأنه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم ، وكل ما فيه منقطع غير الأمل ... فقال : « فأخبرني عن (فهم) »[1] ، فقال : « هم كما قال من قال :

دَرَج الليل والنهار على فَهُم بن عمرو فأصبحوا كالرَّميم
وخلت أرضهم فأضحت يباباً بعـد عزٍ وثروة ونعيم
وكذاك الزمان يذهب بالنا س ، وتبقى ديارهم كالرسوم »

فقال عبد الملك : « فمن يقول منكم :

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا يحبُّون الغنيَّ من الرجال
وإن كان الغني قليل خير بخيلاً بالقليل من النوال
فما أدري عَلامَ وفيم هذا وماذا يرتجون من البخال
أللدنيا ، فليس هناك دنيا ولا يُرْجى لحادثة الليالي » .

فقال : « أنا »[2] .

ومدح جرير الحجاج بن يوسف الثقفي بأبيات منها :

دعا الحجّاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابـا

فقال له الحجاج : « إنّ الطاقة تعجز عن مكافأتك ، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسر بكتابي هذا اليه ، فسار الى عبد الملك ، فأنشده القصيدة التي مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

(١) قبيلة عربية وهم : فهم بن عمرو بن قيس عيلان . انظر جمهرة أنساب العرب (٢٤٣) .
(٢) الطبري (٥/٢١٢) ، ومن شعر عبد الملك وقد هم بقتل بعض أهله ثم صفح عنه :

هممت بنفسي همة لو فعلتها لكان كثيراً بعدها ما ألومها
ولكنني من أسرة عبشمية إذا هي همت أدركتها حلومها

انظر الحلة السيراء (١/٣١) . وأسرة عبشمية : أي أسرة تنتسب الى عبد شمس من قريش .

فقال عبد الملك : « بل فؤادك يا ابن الفاعلة » ، حتى انتهى الى قوله فيهـــا :

تعزّت أمّ حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوي امتياح
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت إليّ ريشي ... وأثبتّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح؟!

فلما قال هذا البيت ، استوى عبد الملك جالساً - وكان متكئاً ، ثم قال : « من مدحنا فبمثل هذا فليمدح » ، ثم قال : « يا جرير ! أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب ؟ » ، فقال : « إذا لم تروها فلا أرواها الله » وقال : « يا أمير المؤمنين ! إن الإبل أباق ، ونحن مشايخ ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته ، فلو أمرت بالرعاة لها » ، فأمر له بثمانية أعبد ، وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضّة يقرعها بقضيب في يده ، فقال جرير : « والمحلب يا أمير المؤمنين ؟ » ، وأشار الى صحفة ، فنبذها اليه بالقضيب وقال : « خذها » ، وفي ذلك يقول :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرف[1]

وقال عبد الله بن الحجاج الثعلبي لعبد الملك :

يا ابن أبي العاصِ ويا خير فتى ... أنت سِداد الدين إن دين وَهى
أنت الذيَ لا يجعل الأمر سُدَى ... حِيبْتَ قريش عنكم حَوْب الرحى[2]
إنّ أبا العاصي وفي ذاك اعتصى ... أوصى بنيه فوعوا عنه الوَصَى
إن يسعروا الحرب ويأبوا ما أبي ... الطاعنين في النحور والكلى
شزراً ووصلاً للسيوف بالخُطى ... الى القتال فحووا ما قد حوى[3]

---

(1) سمط النجوم العوالي (٣/ ١٦١ - ١٦٢) .
(2) حاب : حوباً ، أثم . الحوب : الإثم . وتحوب : ترك الحرب .
(3) الطبري (٥/ ٢١٣) .

وركب عبد الملك بكراً ، فأنشأ قائده يقول :

يا أيها البكر الذي أراكا   غلبت أهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكـا   خليفة الله الذي امتطاكا
لم يُحْبِ بكراً مثل ما حباكا

فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم [1] .

ودخل أعرابي الى عبد الملك بن مروان فمدحه وأحسن ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، فقال له عبد الملك : « أتعرف أهجى بيت في الاسلام ؟ » ، قال : « نعم قول جرير :

« فغضّ الطرف إنك من نُميْر   فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا »

فقال عبد الملك : « أصبت ، فهل تعرف أرقّ بيت قيل في الاسلام » ، فقال : « نعم ، قول جرير ايضاً :

إنّ العيون التي في طرفها مرض   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهنّ أضعف خلق الله إنسانا »

فقال عبد الملك : « أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت في الاسلام ؟» ، فقال : « نعم » قوله فيك يا أمير المؤمنين :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح »

فقال عبد الملك : « أحسنت ، فهل تعرف جريراً ؟ » ، فقال الأعرابي : « لا والله ، وإني الى رؤيته لمشتاق » ، فقال : « هذا جرير وهذا الفرزدق ، وهذا الأخطل » ، فأنشأ الأعرابي يقول :

فحيّ الإله أبا حزرة   وأرغم أنفك يا أخطل
وجد الفرزدق أتعس به   ودق خياشيمك الجندل

---

(١) البداية والنهاية (٨/٦٤) وسمط النجوم العوالي (٣/١٦١)

فأنشأ الفرزدق يقول :

بل أرغم الله أنفاً أنت حامله ياذا الخنا ومقال الزور والخطل
ما انت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولاذي الرأي والجدل

فغضب جرير وأنشأ يقول :

أتشتمان سفاهاً خيركم حسباً ففيكما وإلهي الزور والخطل
شتمتماه على رفعي ووضعكما لا زلتما في سفال أيها الرجل[1]

وبعث عبد الملك الى عمر بن أبي ربيعة المخزومي والى جميل بن معمر العذري صاحب بثينة وكثير عزة وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي المدني ، وأوقر ناقة ذهباً وفضة ثم قال : « لينشد كل واحد منكم ثلاثة أبيات ، فأيكم كان أغزل شعراً فله الناقة وما عليها » ، فقال عمر بن أبي ربيعة :

فيا ليت أني حين تدنو منيتي شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك بعده وليت حنوطي من مُشاشك[2] والدم
وليت سليمى في المنام ضجيعتي لدى الجنّة الخضراء أو فيَ جهنم

وقال جميل :

حلفت يميناً يا بثينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعميت
حلفت لها بالبدن تدمي نحورها لقد شقيت نفسي بكم وعنيت
ولو أنّ راقي الموت يرقى جنازتي بمنطقها في الناطقين حييت

وقال كثير عزّة :

بأبي وأمي أنت من معشوقة ظفر العدو بها فغيّر حالها
ومشى إليّ بعيب عزّة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها
ولو أن عزة حاكمت شمس الضحى في الحسن عند موفّق لقضى لها

---

(١) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٢ - ١٦٣) .

(٢) مشاش : العظم لا مخ فيه .

فقال عبد الملك : « خذ الناقة يا صاحب جهنم »[1] .

وحضر مجلس عبد الملك يوماً قوم من وجوه العرب ، فقال لهم عبد الملك : « أي المناديل أفضل ؟ » ، فقال بعضهم : « مناديل مصر كأنها غِرْقيءُ بيض »[2] ، وقال بعضهم : « مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع » ، فقال عبد الملك : « ما صنعتم شيئاً ، أفضلها ما قاله عبدة بن الطبيب حيث يقول :

لما نزلنا ضربنا ظل أخبيــة ... وفار بالغلي للقوم المراجيل
ورد وأشقر لا يؤنيه طابخه ... ما قارب النضج منها فهو مأكول
ثم انثنينا على عوج مسوّمة ... أعرافهن لأيدينــا مناديل

ثم قال : « وما أطربني لقول طفيل الخيل »[3] :

إني وإن قلّ مالي لا يفارقني ... مثل النعامة في أوصالهــا طول
تقرُّ بهــا المريطى والجوز معتدل ... كأنــه سيّد بالمــاء مغسول[4]
أو ساهم الوجه لم تقطع أباجله ... يصان وهو بيوم الروع مبذول[5]

ودخلت عزّة على عبد الملك فسلّمت فردّ عليها السلام ورحّب بهــا وقال : « ما أقدمك يا عزة ؟ » ، فقالت : « شدّة الزمان ، وكثرة الألوان ، واحتباس القطر » ، فقال : « هل تروين لكثير :

وقد زعمت أني تغيّرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر »

فقالت : « أروي له هذا ، ولكني أروي قوله في قصيدة له :

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصمّ لو تمشي بها العصم زلّتِ »

---

(١) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٣ – ١٦٤) .
(٢) غرقيء : القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض .
(٣) هو طفيل بن عوف الغنوي ، يقال له المحبر لحسن شعره .
(٤) المريطى : اللهاة .
(٥) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٥) .

فقال لها : « ما كنت لتصيرين الى حاجته أو تهبين نفسك لي فأزوّجك منه » . فقالت : « الأمر اليك يا أمير المؤمنين ! ما كنت لأزهد في هذا الشرف الباقي لي ما دامتِ الدنيا أن يكون أمير المؤمنين وليّ » ، فعظم بذلك قدرها عنده وأمر لها بمال . وكتب الى كثير وهو بالكوفة ، فلما رحل الى الشام ووصل اليها ماتت عزة ...[1] .

ولما عزم عبد الملك على الخروج لمحاربة مصعب بن الزبير ، ناشدته زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ألا يخرج بنفسه وأن يستنيب غيره ؛ وألحّت عليه في المسألة ، فلما لم يسمع منها بكت وبكى من حولها من جواريها وحشمها ، فقال عبد الملك : « قاتل الله كثيراً ، كأنه رأى موقفنا هذا حين قال :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها نظم درّ يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها »[2]

وروى جرير بن عبد الحميد لعبد الملك :

لعمري لقد عمرت في الدهر برهة ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
فأضحى الذي قد كان مما يسرّني كلمح مضى في المزمنات الغوابر
فياليتني لم أغن في الملك ساعة ولم أله في لذّات عيش نواضر
وكنتُ كذي طمرين عاش ببلغة من الدهر حتى زار ضنك المقابر[3]

هكذا كان عبد الملك يفهم الشعر ويقوله ويحفظه ويقدّر الشعراء ويعطيهم الهدايا ويعقد المساجلات بينهم ويطرب للشعر المؤثر البليغ ... مما أدى الى ثورة شعرية في أيامه كان هو على رأس مشجعيها ، فقد سرى تقديره للشعر والشعراء الى ولاته ووجوه الدولة ، فكانوا جميعاً يثمنون الشعر والشعراء ،

(١) سمط النجوم العوالي (٣ / ١٦٦ - ١٦٧) .
(٢) سمط النجوم العوالي (١٦٩/٣) .
(٣) سمط النجوم العوالي (١٦٩/٣ - ١٧٠) .

مما جعل أيام عبد الملك من أزهى الأيام الذهبية للشعر العربي الإسلامي .

وأكثر من ذلك ، كان الشعر يوحي الى عبد الملك بالاطمئنان النفسي في أوقاته العصيبة .

كتب عبد الملك الى الحجاج أن : « ابعث إليّ رجلاً يصلح للدين والدنيا أتّخذه سميراً وجليساً وخليلاً » ، فقال الحجاج : « ماله إلاّ عامر الشعبي » ، وبعث به اليه ، فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتماً ، فقال : « ما بال أمير المؤمنين ؟ » ، فقال : « ذكرت قول زهير :

كأني وقد جاوزت سبعين حجـة   خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى   فكيف بمن يرمى وليس برامي
فلو أنـني أرمى بنبـل رأيتها   ولكنني أرمى بغـير سهام
على الراحتين تارة وعلى العصا   أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيـامي »

فقال الشعبي : « ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد ابن ربيعة وقد بلغ سبعين حجّة :

كأني وقد جاوزت سبعين حجّة   خلعت بها عن منكبيّ ردائيـا

ولما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال :

باتت تشكي اليّ النفس موهنة   وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثـاً تبلغي أملاً   وفي الثلاث وفـاء للثمانينا

ولما بلغ تسعين سنة قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

ولما بلغ عشراً ومائة سنة قال :

أليس ورائي إن تراخت منيّـتي   لزوم العصـا تحنى عليها الأضالع
أخبّر أخبار القرون التي خلت   أنوء كأني كلمـا قمت راكع

ولما بلغ ثلاثين ومائه وحضرته الوفاة قال :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
الى سنة ثم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها »[1] .

لقد كان عبد الملك من أكبر هوات الشعر بعد الاسلام ، لذلك كان يوصي مؤدب أولاده بقوله : « ... وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا »[2] ...

وكان عبد الملك كاتباً بليغاً . كتب الى عمر بن سعيد الأشدق حين خرج عليه : « أما بعد . فان رحمتي لك تصرفني عن الغضب عليك ، لتمكن الخدع منك . وخذلان التوفيق إياك . نهضت بأسباب وهمتك أطماعك أن تستفيد بها عزاً ، كنت جديراً لو اعتدلت أن لا تدفع بها ذلاً ، ومن رحل عنه حسن النظر واستوطنته الأماني ملك الحين[3] تصريفه ، واستترت عنه عواقب أمره ؛ وعن قليل يتبين من سلك سبيلك ، ونهض بمثل أسبابك ، أنه أسير غفلة ، وصريع خدع ومغيض[4] ندم . والرحم على الصفح عنك ما لم تحلل بك عواقب جهلك ، وتزجر عن الايقاع بك ، وأنت إن ارتدعت كنت في كنفٍ وستر . والسلام »[5] .

وكان خطيباً بليغاً يعد من خطباء العرب وبلغائهم . قيل لعبد الملك : « أسرع اليك الشيب » ، فقال : « كيف لا ! وأنا أعرض عقلي على الناس كل

---

(١) العقد الفريد (١ /١٩٨ – ١٩٩) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٦٦) .
(٣) الحين : الهلاك ، وقد حان الرجل أي هلك .
(٤) مغيض : الأجمة ، وهي مغيض ماء يجتمع فتنبت فيه الشجر
(٥) البيان والتبيين (٣ / ٤٠٢) .

جمعة مرة أو مرتين ». وقيل له مرة أخرى : « أسرع اليك الشيب ». فقال : « وتنسى ارتقاء المنابر ومخافة اللحن »[1].

وقال الأصمعي : « خطب عبد الملك فحصر فقال : إن اللسان بضعة من الإنسان ، وإنا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً ؛ ونحن أمراء الكلام ، فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلّت أغصانه ؛ وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عيّنا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب »[2].

وخطب يوماً خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً ثم قال : « يا رب ! إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ؛ اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي » ، فبلغ ذلك الحسن البصري فبكى وقال : « لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام »[3].

لقد كان عبد الملك أديباً لامعاً وخطيباً مفوهاً وعالماً من علماء اللغة والبيان.

د . السياسي :

لقد كان عبد الملك سياسياً محنكاً ما في ذلك أدنى شك .

كان ذكياً ألمعي الذكاء ، وقد ظهرت بوادر ذكائه ونجابته منذ طفولته : أربى من بني علي على عبد الملك – وعبد الملك يومئذ غلام ، فقال له كهل من كهولهم – لما رآه ممسكاً عن جواب المربّي عليه : « لو شكوته الى عمّه انتقم لك منه » ، فقال : « أمسك يا كهلُ ، فاني لا أعدّ انتقام غيري إنتقاماً »[4].

وخاض جلساء عبد الملك يوماً في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ،

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٦٤) .

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٦٤) .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦٧) .

(٤) البيان والتبيين (٢/ ٣٦١) .

فقال رجل منهم : « يا أمير المؤمنين ! في أي سنيك كنت يومئذٍ ؟ » ، فقال : « كنت دون المحتلم » ، فقال : « فما بلغ من حزنك عليه ؟ » ، فقال : « شغلني الغضب له عن الحزن عليه »[1].

وحين كان في المدينة استكمل دراساته العلمية والفقهية والأدبية فأصبح في كل ذلك علماً من الأعلام وإماماً من الأئمة .

ونشأ منذ نعومة أظفاره في بيئة حاكمة تمارس الحكم فعلاً ، فتعلّم منها كيف ولماذا ينجح الحاكمون ، وكيف ولماذا يفشلون في مهمتهم .

تعلم درسه الأول من مقتل عثمان بن عفان ، وأيقن أن (لينه) هو الذي جرّأ غيره على قتله وجرّأ المشاغبين على الشغب عليه ، فقال مرة : « ... وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته إلاّ باللين ، فإن عثمان لان لهم حتى رُكب ، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطّاب ما نال الناس منه ما نالوا . وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ! يا ثعلبة ، إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أُغيِرَ على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل وتظالم الناس وكانت الفتن ؛ فلا بدّ للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه »[2].

ومضى قُدماً على سيرته هذه في أيام خلافته كلها : حازماً الى حد إهدار دماء المفسدين الخطرين ، وغضاً للطرف – الى حد السماحة – عن المفسدين التافهين المغرّر بهم ؛ فكانت مجمل سياسته ما ذكره لأبنائه في وصيته لهم : « ... وتعهدوا ذنوب ذوي الذنوب ، فان استقالوا فاقبلوا ، وإن عادوا فانتقموا »[3] . وكما قال لابنه الوليد خليفته في وصيته الأخيرة : « ... فادع الناس الى بيعتك ، فمن أبى فالسيف »[4] ، وقال له : « ... شمّر واتئزر

---

(١) البيان والتبيين (٢/٣٦١ – ٣٦٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٣٣) .

(٣) ابن الأثير (٤/١٩٨) .

(٤) البداية والنهاية (٨/٦٧) .

والبس جلد النمر ، فمن قال برأسه كذا ، فقل بسيفك كذا »[1] .

كان لا يعفو عن صاحب أو قريب إذا هدّدوا ملكه . قال لِرَوْح بن زِنْباع وهو يتجهّز لقتال مصعب بن الزبير : « والله إن في أمور هذه الدنيا لعجباً ! لقد رأيتُني ومصعب بن الزبير أفقده الليلة الواحدة من الموضع الذي نجتمع فيه ، فكأني واله ، ويفقدني فيفعل مثل ذلك ، وقد كنت أوتى باللّطف فما أراه يجوز لي أكله حتى أبعث به الى مصعب أو ببعضه ، ثم صرنا الى السيف ؛ ولكن هذا الملك عقيم : ليس أحد يريده من ولد ولا والد إلا كان السيف ! ! »[2] .

وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب ، فقال : « أنهى عن ذكر عمر ، فانه مرارة للأمراء ، مفسدة للرعية »[3] .

وحج عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطب فقال : « أما بعد ! فانه كان قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون ، وإني والله لا أداوي هذه الأمة إلاّ بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد بن معاوية) . أيها الناس ! إنّا نتحمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر . هذا عمرو بن سعيد حقّـــه قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا ، وقلنا بسيفنا هكذا ، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب »[4] .

وقال عبد الملك يوماً : « كلّهم يرشح نفسه لهذا الأمر — يعني الخلافة —

---

(١) العقد الفريد (٣/١٦٢) .
(٢) طبقات ابن سعد (٥ /٢٢٧) .
(٣) البداية والنهاية (٨/٦٦) .
(٤) البداية والنهاية (٨/٦٤) .

ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول ومال مبذول . وعدل تطمئن له القلوب والعقول »[1] .

وقال لابنه الوليد : « إعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعيّة أو تملكه الرعيّة إلا حزم أو توان »[2] .

وخطب في مكة أيام حجّه فقال : « لقد قمت في هذا الأمر وما أدري أحداً أقوى عليه مني ولا أولى به ، ولو وجدت ذلك لوليته ، إن ابن الزبير لم يصلح أن يكون سائساً وكان يعطي مال الله كأنه يعطي ميراث أبيه ، وإن عمرو بن سعيد أراد الفتنة وأن يستحل الحرمة ويذهب الدين ، وما أراد صلاحاً للمسلمين فصرعه الله مصرعه ؛ وإني محتمل لكم كل أمر إلا نصب راية ، وإن الجامعة التي وضعتها في عنق عمرو عندي ، وإني أقسم بالله لا أضعها في عنق أحد فأنزعها إلا صعدا »[3] .

وكان يتغاضى عن الذين لا ينصبون لهم راية ولا يهدّدون ملكه بالزوال ، خاصة الرجال المعروفين بزهدهم وتقواهم ، وكان يصبر على هؤلاء صبر جميلاً ويسكتهم بالمال والعطاء .

دخل جابر بن عبد الله على عبد الملك فقرّبه ، فقال جابر : « يا أمير المؤمنين ! إن المدينة حيث ترى . وهي طيّبة سمّاها النبي عليه السلام ، وأهلها محصورون ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقّهم . فعل » ، فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه . وجعل جابر يلحّ عليه حتى أومأ قبيصة بن ذؤيب الى ابن جابر وهو قائده ، وكان جابر قد ذهب بصره ، أن أسكته ! فسكت جابر ! وأمر له عبد الملك بخمسة آلاف درهم . فقبضها جابر[4] .

---

(١) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٨) .
(٢) سمط النجوم العوالي (٣/١٦٨) .
(٣) اليعقوبي (٣/١٩) .
(٤) طبقات ابن سعد (٥/٢٣١) .

وأتاه علي بن عبد الله بن عباس . فذمّ ابن الزبير وأعلمه ما كان أبوه وأهل بيته لقوا منه لامتناعهم عن بيعته ، وإن أباه أوصاه ليلحق به ، فأحسن عبد الملك إجابته وحمله وحمل عياله الى الشام وأنزله داراً بدمشق ، ولم يزل يجري عليه أيامه كلها[1] .

وبعد الحجّ مرّ بالمدينة فخطب الناس على المنبر ، ثم أقام خطيباً له آخر وهو جالس على المنبر ، فذكر من خلاف أهل المدينة الطاعة وسوء رأيهم في عبد الملك وأهل بيته وما فعل أهل (الحَرَّة) ، ثم قال : « ما وجدت لكم مثلاً يا أهل المدينة إلا القرية التي ذكر الله في القرآن ، فان الله قال : (وضرب الله قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) فبرك ابن عَبْد فقال للخطيب : «كذبت ... كذبت ... لسنا كذلك . إقر الآية التي بعدها : (ولقد جاءهم رسول منهم فكذّبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون) ، وإنا آمنا بالله ورسله » ، فلما قال ذلك ابن عبد وثب الحرس عليه فالتفوّا به حتى ظننّا أنهم قاتلوه ! فأرسل اليهم عبد الملك فردّهم عنه ، فلما فرغ الخطيب ودخل عبد الملك الدار أدخل عليه ابن عبد ، فما أجاز أحداً أكثر من جائزته ولا كسا أحداً أكثر من كسوته[2] . قال عبد الرحمن ابن محمد بن عبد : « لما تكلّم عبد الملك بما تكلّم به ، وردّ عليه أبي ، وثبت الشرطة الى أبي فدخلوا به إلى عبد الملك ، فأغلظ له بعض الغلظة بين يدي أهل الشام ، فلما خرج أهل الشام قال له : يا ابن عبد ! قد رأيتُ ما صنعتَ ، وقد عفوت ذلك عنك ؛ وإياك أن تفعلها بوالٍ بعدي ، فأخشى أن لا يحمل لك ما حملتُ . إن أحبّ الناس إليّ هذا الحيّ من قريش ، وحليفنا منا وأنت أحدنا . وما دينك ؟ فقال : خمسمائة دينار ! فأمر له بخمسمائة دينار وأجازه بمائة دينار سوى ذلك ، وكساه كسوة فيها كساء

---

(١) اليعقوبي (٣/ ١٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٣١ - ٢٣٢) .

خز أخضر عندنا قطعة منه »[1].

وكتب أنس بن مالك الى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه: « لو أنّ رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه، لهاجرت إليه ملوكهم، ولنزل في قلوبهم بالمنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك؛ ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبّة وغير ذلك ما استطاعوا؛ وإني خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ورأيته وأكلت معه، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضرّ بي وفعل وفعل »، فلما قرأ عبد الملك هذا الكتاب بكى وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب الى الحجاج بكتاب غليظ، فجاء الى الحجاج فقرأه فتغيّر ثم قال إلى حامل الكتاب: « إنطلق بنا إليه نترضاه »[2].

وأتي عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: « اضربوا عنقه »، فقال: « يا أمير المؤمنين! ما كان هذا جزائي منك »، فقال: « وما جزاؤك؟! » فقال: « والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤوم، ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحّة ما ادّعيت، وكنت عليك خيراً من مائة ألف تنصحك، لقد كنت مع فلان فكر وهزم وتفرّق جمعه، وكنت مع فلان فقتل، وكنت مع فلان فهزم، حتى عدّ جماعة من الامراء — »، فضحك عبد الملك وخلّى سبيله[3].

وكان عبد الملك يراقب ولاته بشدة ويقظة وحزم، وكان شديد اليقظة كثير التعهد لولاته، فبلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية، فأمر بإشخاصه

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٢٣٢).

(٢) البداية والنهاية (٨/٦٥).

(٣) البداية والنهاية (٨/٦٥) وانظر سمط النجوم العوالي (٣/١٦٧).

اليه . فلما دخل عليه قال : « أقبلتَ هدية منذ وليتك » ؟ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال » ، فقال : « أجب فيما سألتك عنه ! أقبلت هدية منذ وليّتك ؟! » ، فقال : « نعم ! » ، فقال : « لئن كنت قبلت هدية ولم تعوّض إنك للئيم ، ولئن أنلت مهديك لامن مالك أو اسكتفيته [1] ما لم يُستكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوّض المهدي اليك من مالك وقبلت ما اتّهمك به عند من استكفاك وبسط لسان عاتبك ، وأطمع أهل عملك ، إنك لجاهل ؛ وما فيمن أتى أمراً لم تخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل ، مصطنع ! نحيّاه عن عمله » [2] .

وكتب عبد الملك الى الحجاج في أيام ابن الأشعث : « إنك أعزّ ما تكون بالله ، أحوج ما تكون اليه ، وأذل ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون اليهم ، فاذا عززت بالله فاعف له ، فانك به تعزّ واليه ترجع » [3] .

وكان يتوخى العدل في أحكامه ، وكان يأمر ولاته أن يتوخوا العدل في أحكامهم .

كان إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيافون على رأسه بالسيف ، فينشد أو يأمر من ينشد ويقول :

« إنا إذا نالت دواعي الهوى	وأنصت السامع للقـائل
واصطرع الناس بألبـابهم	نقضي بحكم عـادل فاصل
لا نجعل البـاطل حقاً ولا	نلفظ دون الحق بالبـاطل
نخاف أن تسفه أحلامنا	فنجهل الحق مـع الجاهل » [4]

---

(١) استكفيته : عهدت اليه بعمل من أعمال الدولة لولا الهدية ما عهدت الى مثله بهذا العمل .

(٢) البيان والتبيين (٣/ ٤٠٤) .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦٥) .

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٦٤ — ٦٥) .

وكان يتلقى الموعظة الحسنة ويتقبلها قبولاً حسناً . أذن للناس في الدخول عليه إذناً خاصاً ، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج ، فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الانسان ! إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم (بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ، (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين) ، (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) ، (وما نؤخره إلا لأجل معدود) . إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل اليك ، (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) ، وإني أحذرك يوم ينادي المنادي (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) . (ألا لعنة الله على الظالمين) » ، فلما قرأها عبد الملك تغيّر وجهه ودخل دار حرمه ، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياماً [1] .

وكتب زر بن حُبيش الى عبد الملك كتاباً وفي آخره : « ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك . فأنت أعلم بنفسك . واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادها وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زورع قد دنا حصادها »

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بلّ طرف ثوبه ، ثم قال : « صدق زر ، ولو كتب الينا بغير هذا كان أرفق » [2] .

وكتب عبد الله بن عمر الى عبد الملك : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عمر الى عبد الملك أمير المؤمنين . سلام عليك . فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فانك راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته

(١) البداية والنهاية (٨/٦٦) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٦٦) .

(الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً) ، لا أحد ، والسلام » ، فوجد عليه أصحاب عبد الملك إذ قدّم اسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا في كتبه الى معاوية ، فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه [1] .

وكان يعمل عمل من يتذكر حساب الله دائماً . وضع سماط عبد الملك بين يديه يوماً فقال لحاجبه : « إئذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد » ، فقال : « مات يا أمير المؤمنين ! » ، فقال : « فلأبيه عبد الله بن خالد بن أسيد » ، فقال : « مات » ، فقال : « فلخالد بن يزيد بن معاوية » ، فقال : « مات ! » فقال : « فلفلان وفلان » ، حتى عدّ أقواماً قد ماتوا وهو يعلم ذلك ، فأمر برفع السماط وأنشأ يقول :

« ذهبت لذتي وانقضت أيامهم وغبرت بعدهم ولست بخالد » [2]

ولما أراد عبد الملك الانصراف من الحج سنة خمس وسبعين الهجرية ، وقف على الكعبة فقال : « والله إني وددت أني لم أكن أحدثت فيها شيئاً ، وتركت ابن الزبير وما تقلّد » [3] .

وكان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني : يختار الرجال الأقوياء الأمناء ، ويولي الأمور للمختارين من الرجال ، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة ، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة ؛ وكان يؤمن أن إشاعة الانسجام والإلفة بين رجاله ، أجدى عليه وعلى مصير ملكه من إشاعة التناحر والكره بينهم ، فكان لا يشجع على اختلافهم ولا يرضى عن اختلافهم .

قال عمر بن عبد العزيز : « لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير ، استخلص ابراهيم بن محمد بن طلحة ، فقرّبه وعظم منزلته ،

---

(١) البداية والنهاية (٨/٦٣) .

(٢) البداية والنهاية (٨/٦٧) .

(٣) اليعقوبي (٨/١٩) .

فلم تزل تلك حاله عنده حتى خرج الى عبد الملك بن مروان ، فخرج له معادلاً لا يقصّر له في بر وإعظام حتى حضر به عبد الملك ؛ فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له : قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوّة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن المؤازرة ، وهو ابراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك وتعرف له ما عرفته . فقال عبد الملك : أذكرتنا رحماً قريباً وحقاً واجباً ، يا غلام ! إئذن لابراهيم بن محمد بن طلحة . فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه ، ثم قال له : يا ابن طلحة إن أبا محمد [1] ذكّرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة وما بلاه منك من الطاعة والنصيحة وحسن المؤازرة ، فلا تدعنّ حاجة في خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها . فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ أول الحوائج وأحق ما قُدّم بين الأمور ، ما كان فيه لله رضا ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه و لجماعة المسلمين نصيحة ؛ وعندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها . ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فاخلني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي . قال عبد الملك : دون أبي محمد؟ فقال : نعم دون أبي محمد . قال عبد الملك للحجاج : قم ! فلما خطرف الستر أقبل عليّ فقال : يا ابن طلحة ! قل نصيحتك . فقال : تا لله يا أمير المؤمنين ، لقد عمدت الى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه وبعده من الحق وقربه من الباطل ، فوليته الحرمين وهما ما هما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالي يطؤهم ويسومهم الخسف ، ويحكم فيهم بغير السنّة بعد الذي كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم ، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق وفيما بينك وبين نبيّك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته — أما والله لا

(١) كتبه الحجاج بن يوسف الثقفي .

تنجو هنالك إلا بحجة فاربَعْ[1] على نفسك أو دع . فقال له عبد الملك : كذبت ومنت وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك ، وقد يظن الخير بغير أهله ! قم فأنت الكاذب المائن ! قال : فقمت وما أعرف طريقاً ، فلما تخطرفت الستر لحقني لاحق فقال : احبسوا هذا ، وقال للحجاج : ادخل ؛ فدخل فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري . ثم خرج الآذِن فقال : ادخل يا ابن طلحة ، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وهو خارج وأنا داخل ، فاعتنقني وقبّل ما بين عينيّ وقال : أما إذا أجزى الله المتواخين خيراً بفضل تواصلهم ، فجزاك الله عني أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنّ ناظرك ولأعلينّ كعبك ولأتبعنّ الرجال عثرة قدميك . قال فقلت : يهزأ بي وحق الكعبة . فلما وصلت الى عبد الملك أدناني حتى أدناني مجلسي الأول ، ثم قال : يا ابن طلحة ! لعلّ أحـــداً شاركك في نصيحتك هذه ؟ ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ! ما أعلم أحداً أنصع عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج ، ولو كنت محابياً أحداً لغرض دنيا لحابيته ، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه . فقال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ولو أردتها لكانت لك في الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما ، ووليته العراقين وما هناك من الأمور التي لا يدحضها الأمثلة ، وأعلمته أنك استدعيتني الى ولايته عليهما استزادة له لألزمه بذلك من حقك ما يؤدي اليك من أجر نصيحتك ، فاخرج معه فإنك غير ذام لصحبته »[2] .

لقد كان يلتزم التزاماً مطلقاً بالمبادىء الأخلاقية السليمة . سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به ، فأمر من عنده بالانصراف ، فلما خلا به أراد الرجل أن يتكلم ، فقال له عبد الملك : « إحذر في كلامك ثلاثاً ؛ إياك أن تمدحني

---

(١) أربع : اطمأن وأقام ، أربع على نفسك : تمكث وانتظر .
(٢) العقد الفريد (١/٢٠٠ - ٢٠١) .

فاني أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب . أو تسعى إليّ بأحد من الرعيّة فانهم الى عدلي وعفوي أقرب منهم الى جوري وظلمي ، وإن شئت أقلتك » ، فقال الرجل : « أقِلْني ! » ، فأقاله . وكان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق : « إعفني من أربع وقل ما شئت : لا تطرني . ولا تجبني فيما لا أسألك عنه ، ولا تكذبني ، ولا تحملني على الرعية ، فإنهم الى رأفتي ومعدلتي أحوج »[1] .

وقال لمؤدب أولاده : « علّمهم الصدق كما تعلّمهم القرآن ، وجنّبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدباً ، وجنّبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلّمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستآكوا عرضاً ، ويمصّوا الماء مصّاً ولا يعبّوا عبّاً ، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب ، وليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم »[2] .

وقيل لعبد الملك : « أي الرجال أفضل ؟ » ، فقال : « من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وترك النصرة عن قوة » . وقال ايضاً : « لا طمأنينة قبل الخبرة ، فان الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم » . وقال : « خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذماً ، ولا يقولنّ أحدكم : ابدأ بمن تعول . فإن الخلق كلهم عيال الله ، وينبغي أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث »[3]

ولم أقرأ في حياتي كلها مثل هذه القصة التي تظهر محاولة عبد الملك بالمحافظة على (الثقة) المتبادلة بينه وبين رجاله – تلك الثقة التي لا بد منها لنجاح الراعي في رعيته . قال المضاء بن علوان كاتب مصعب بن الزبير : « دعاني عبد الملك بعد ما قتل مصعباً فقال لي : علمتَ أنه لم يبق من أصحاب مصعب

(١) البداية والنهاية (٨/٦٥) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٦٦) .
(٣) البداية والنهاية (٨/٦٥ – ٦٦) .

وخاصته أحد إلا كتبَ إليّ يطلب الأمان والجوائز والصلاة والإقطاعات ؟؟ فقلت : قد علمت يا أمير المؤمنين أنه لم يبق من أصحابك أحدٌ إلا وقد كتب إلى مصعب بمثل ذلك ، وهذه كتبهم عندي ! فقال ! فجئني بها . فجئته بإضبارة عظيمة ، فلما رآها قال : ما حاجتي أن أنظر فيها ، فأفسد صنائعي وأفسد قلوبهم !! يا غلام ! احرقها بالنار ... فأحرقت ... »[1] .

تلك هي مجمل سجايا عبد الملك السياسي : تربى تربية أعدّته إعداداً كاملاً للحكم ، واستكمل بناء شخصيته بالعلم والأدب والتقوى ، وأصبح قبل توليه الخلافة محط أنظار الناس باعتباره رجل الساعة إذا تولى الحكم اجتمعت عليه الأمة وأنقذها من التناحر والانقسامات فقال عنه ابن عمر : « لو كان هذا الغلام ، اجتمع الناس عليه »[2] . وقال له بريدة بن الحصيب : « إنك لجدير أن تلي هذه الأمة ، فاحذر الدماء ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر اليهـا على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق » ، وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمرو بن العاص[3] وكثير من قادة المسلمين وقادة الفكر المسلمين كما مرّ ذلك علينا من قبل .

وتولى الخلافة والبلاد متفرقة والدولة مقسمة ، والصفوف مبعثرة ، والأهواء متباينة ، والأمن مفقود ، والفتن قائمة .

فكيف يعيد إلى البلاد وحدتها والى الدولة عزتها ؟

هل يمكن السكوت على تقديم العرب الأتاوات للروم ، وكان العرب المسلمون من قبل يحاصرون (القسطنطينية) ويهددون دولة الروم بالزوال ؟

هل يمكن ان تبقى البلاد الإسلامية مقسمة الى دويلات في كل دويلة

---

(١) اليعقوبي (١٢/٣) .
(٢) البداية والنهاية (٦٢/٨) .
(٣) البداية والنهاية (٦٢/٨) .

شيع وأحزاب لا تعدّ ولا تحصى ؟

هل يمكن أن تبقى الأمصار محرومة من الأمن بعيدة عن الطمأنينة والاستقرار ؟

لقد وقفت سنة ثمان وستين الهجرية أربعة ألوية بـ (عرفات) : لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه ، ولواء مع ابن الزبير ، ولواء مع نجدة بن عامر الحروري ، ولواء مع بني أمية[1] ... فهل يمكن أن يرضى مثل هذه الحال للإسلام ودولته عربي مسلم ؟؟

وبدأ عبد الملك سيره الطويل في طريق شائكة ، وكان لا بدّ له من الحزم للقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية . فحكّم السيف بينه وبين الثائرين .

ولكنّه حكّم هذا السيف كآخر حل لما يعانيه من مشكلات ، وكانت ثورة ابن الزبير أقسى ما صادفه من عقبات .

فقد عرض الصلح على مصعب بن الزبير . فقال مصعب لرسول عبد الملك : « قل له السيف بيننا »[2] .

وقد أمر عبد الملك الحجاج أن يخيّر عبد الله بن الزبير بين ثلاث : إما أن يذهب في الأرض حيث شاء ، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد ، أو يقاتل حتى يقتل »[3] ، كما ورد على الحجاج كتاب عبد الملك قبل قتل ابن الزبير : « إعط ابن الزبير الأمان ، وحكّمه في الولايه ، واستنزله عن الخلافة » فقال ابن الزبير : « لا خلعها إلا الموت »[4] . كما قال ابن الزبير : « والله لا أسألهم صلحاً أبداً »[5] .

هذه عروض سلمية قدّمها عبد الملك ليتفادى سفك الدماء في حل مشكلة

---

(١) اليعقوبي (٣/ ١٤) .
(٢) ابن الأثير (٤/ ١٢٩) .
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٤١) .
(٤) فوات الوفيات (١/ ٤٥٠) .
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٩) .

ثورة ابن الزبير ، ولكنه لم ينجح في تلك العروض .

أما عمرو بن سعيد فكان كما قال له عبد الملك قبل قتله : « ... إني والله لو علمت أن الأمر يستقيم ونحن جميعاً باقيان ، لافتديتك بدم النواظر ، ولكني أعلم أنه ما اجتمع فحلان في إبل إلا غلب أحدهما »[1] .

إنه لم يكن يصبر على الظلم ولا يسكت على الجور . كتب الى الحجاج مرة : « بلغني عنك إسراف في القتل ، وتبذير في المال ، وهاتان خلتان لا أحتمل عليهما أحداً ، وقد حكمت عليك في العمد بالقَوَد ، وفي الخطأ بالديّة ، وفي الأموال أن تردّها الى مواضعها » وكتب في آخرها :

« وإن تر مني غفلةً قرشية فيا ربما قد غصّ بالماء شاربه
وإن تر مني غضبة أموية فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
سأملي لذي الذنب العظيم كأنني أخو غَفْلة عنه وقد جبّ غاربه
فان كفّ لم أعجل عليه ، وإن أبَى وثبتُ عليه وثبة لا أراقبه » .

ومع ما قدّم عبد الملك من خدمات لا تحصى للدولة الإسلامية ، ومع ما بذله من عروض سلمية قبل إقدامه على القتال ، ومع توخيه المصلحة العامة العليا قبل كل شيء ، فإنه لم يسلم من نقد المؤرخين وأصحاب الحديث ، فقيل عنه : «كان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء »[2] ، وقيل عنه : « أنّى له العدالة وقد سفك الدماء وفعل الأفاعيل ! »[3] .

ولا عجب في ذلك ، فعبد الملك قد انتقدَ نفسه بنفسه ، فقد كان يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخرة المسجد بدمشق ، فقالت له : « بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك » ، فقال : « إي والله ! والدما أيضاً قد شربتها » . وقال يوماً : « قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها ، ولا أحزن

(١) اليعقوبي (٣/ ١٦) .
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٦٣) .
(٣) ميزان الاعتدال (٢/ ١٥٣) .

على السيئة أرتكبها » ، فقال سعيد بن المسيب : « الآن تكامل موت قلبه » [1] .

هكذا دفع عبد الملك العالم التقي الورع ضريبة الحكم ، فقسى عليه المتزمّتون دون مبرّر .

لقد كان عبد الملك رجل دولة مثالي ، حازماً كل الحزم قوياً كل القوة قديراً مستقيماً نزيهاً .

كان يقسو على الخطرين ، ويتساهل مع التافهين . وكان يقدّر ذوي الماضي المجيد والأحساب والدين ، وكان يعدل بين الناس ، وكان متديناً تهزه المواعظ الحسنة ، وكان ملتزماً بالخلق الكريم .

كان يجمع ولا يفرق ، ويوحد ولا يشتّت ، ويعدل ولا يظلم ، ويصارح ولا يخاتل ، ويأمر بالحق والعدل والاحسان ... وقد صدق حين قال : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني » [2] .

إنه كان من أساطين الخلفاء الذين عملوا للوحدة العربية الإسلامية ، وهو بدون ريب مفخرة من أعظم مفاخر العرب والمسلمين في كل تاريخهم الخالد العريق .

القائـــد :

كانت لعبد الملك ممارسة طويلة للحرب ، فقد شهد قائداً لأهل المدينة قتال الروم وهو ابن ست عشرة سنة [3] ، ومنذ ذلك الوقت شهد المعارك قائداً مرؤوساً في بلاد الروم وفي البحر وفي إفريقية ، وقائداً عاماً في فتح جلولاء في إفريقية وفي حربه مصعب بن الزبير وقائداً أعلى لقوات المسلمين بعد عام المجاعة الذي كان بعد مقتل عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين

---

(١) البداية والنهاية (٨/٦٦) .
(٢) الطبري (٥/٢١٣) .
(٣) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٤) .

الهجرية حتّى توفاه الله سنة ست وثمانين الهجرية .

لقد تدرج عبد الملك القائد إذاً في المناصب القيادية بالتدريج حتّى تسم أرفع منصب قيادي في الدولة العربية الإسلامية بعد أن أصبح الرجل الأول في هذه الدولة لمدة ثلاث عشرة سنة ، فكان لتدرجه في تلك المناصب ومعاناته أهوال الحرب وصعابها نتيجةٌ مهمة هي اكتسابه الخبرة العملية في القيادة .

وبالإضافة الى التجربة العملية ، كانت له بعض المزايا القيادية .

أولها ، أنه كان لا يستبد برأيه ، بل كان يستشير رجاله المقربين في كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أي عمل عسكري .

وثانيها ، أنه كانت له موهبة فذة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب ، فكان يحيط نفسه دائماً بجماعة من ذوي القابليات الممتازة في القيادة والرأي ينصحونه ويسددون خطواته ويعاونونه في تحمّل أعباء مهمته .

وثالثها ، أنه كان يبذل جهوده السلمية قبل خوض كل معركة وحتّى في أثنائها لتجنب ويلات الحرب ــ خاصة إذا حارب بني قومه العرب وبني دينه المسلمين .

ورابعها ، أنه كان يحاول بكل طاقاته ، استمالة رجال خصمه باذلاً لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة والمال الكثير ...

وخامسها ، أنه كان يولي ثقته الكاملة لرجاله ، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

سادسها ، أنه كان ذا رأي سديد بصيراً بالحرب شجاعاً بالسيف .

استشار أصحابه سنة إحدى وسبعين الهجرية قبل حركته الى العراق لقتال مصعب ابن الزبير . فقال يحيى بن الحكم بن أبي العاص عمه : « إقنع بالشام واترك ابن الزبير والعراق » ، وقال بعضهم : « العام جدب ، وقد غزوت سنتين فلم تظفر فأقم عامك هذا » ، فقال عبد الملك : « الشام

بلد قليل المال ، ولا آمن نفاده ، وقد كتب كثير من أشراف العراق يدعونني إليهم » . وقال أخوه محمد بن مروان : « الرأي أن تطلب حقّك وتسير الى العراق ، فاني أرجو أن الله ينصرك » . وقال بعضهم : « الرأي أن تقيم وتبعث بعض أهلك وتمدّه بالجنود » ؛ فقال عبد الملك : « إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي ، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، وإني بصير بالحرب شجاع بالسيف إن احتجت إليه ؛ ومصعب شجاع من بيت شجاعة ، ولكنه لا علم له بالحرب ، يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ، ومعي من ينصح لي »[1] .

تلك هي بحق سمات قيادة عبد الملك التي جعلته ينتصر في كل معركة قادها منذ مارس القتال عملياً ولمدة أربع وأربعين سنة من حياته المليئة بالأحداث .

وكان من نتائج قيادته الرشيدة الحكيمة ذات النوايا السلمية ، أنه قضى على خصومه واحداً بعد آخر ، فاستطاع إخراس الفتن الداخلية التي جرّأت الروم على المسلمين وجرّأت الفرس على إستعادة كثير من بلادهم التي فتحها المسلمون ، وجرّأت أهل إفريقية من روم وبربر على الانتقاض حتى انحسر مدّ الفتح الإسلامي هناك الى حدود مصر تقريباً .

وكان من نتائج قيادته في المرحلة الثانية أنه استعاد المناطق الشاسعة من أرض فارس وإفريقية وامتداد الفتح الى مناطق جديدة في المشرق وفي بلاد الروم وفي إفريقية[2] .

والقضاء على الفتن الداخليه ، واستعادة توحيد البلاد وإشاعة الأمن والاستقرار في ربوعها ، وتقوية الجيش واختيار القادة الأكفاء لقيادته — كل ذلك أعاد للدولة العربية الإسلامية سابق مجدها وعزّها ، وأعاد الفرس

(١) ابن الأثير (٤/١٢٥) .

(٢) انظر مجمل فتوحاته الجديدة في اليعقوبي (٣/٢٦ – ٢٧) .

والروم والبربر والجراجمة صوابهم فخضعوا للمسلمين وأعطوا الجزية لهم عن يد وهم صاغرون .

ولكنّ قيادة عبد الملك كانت أبعد أثراً على الدولة الإسلامية ، فاقتطف ثمراتها اليانعة خلفاء عبد الملك من بعده ، فانطلق الفتح الى أعماق فرنسة والى حدود الصين والى أعماق بلاد الروم ، خاصة في أيام الوليد بن عبد الملك الذي لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئاً لو لم يوطّد عبد الملك له أكناف المملكة ويختار له القادة الأفذاذ والولاة الأقوياء .

لقد أعطى عبد الملك للدولة العربية الإسلامية في حياته مصلاً وقائياً أعاد لها شبابها ، وبقي تأثير هذا المصل في هذه الدولة حتّى بعد مماته ، وبذلك أفادت قيادته أمته وبلاده حياً وميتاً ...

إنه من أولئك القادة الذين لا يتكررون إلا نادراً ، ولا يجود بهم الزمن إلا قليلا .

عبد الملك في التاريخ

يذكر التاريخ لعبد الملك ، أنه كان خليفة الأدباء والعلماء وعالم الخلفاء والأدباء .

ويذكر له ، أنه حفظ الدولة وثبّت أركانها ، ومكّنها من البقاء والإستمرار .

ويذكر له ، أنه حقّق الوحدة الشاملة للدولة العربية الإسلامية ، وأعاد لها مجدها وقوتها .

ويذكر له ، أنه عمل على إستعادة هيبة الدولة في المناطق التي فتحت من قبل وأضاف اليها بلاداً جديدة .

ويذكر له ، أنه خلّص الدولة العربية الإسلامية من الاستعمار الاقتصادي ،

فكان أول من ضرب النقود العربية الإسلامية .

ويذكر له ، أنه خلّص الدولة العربية الإسلامية من الاستعمار الفكري ، فكان أوّل من عرّب الدواوين .

إنه من أبرز من خدم أمته وبلاده وعقيدته من الخلفاء .

رضي الله عن التابعي الجليل ، الإداري الحازم ، القائد الفاتح ، العالم الأديب ، بطل الوحدة ، ورجل الدولة ، عبد الملك بن مروان الأموي .

رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري

فاتح جزيرة جَرْبَة[1] من تونس الخضراء

الصحابي

كان رُوَيْفع بن ثابت بن سكَن بن عَدِيّ بن حارثة الأنصاري من بني مالك بن النجار صحابياً[2] روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من التابعين[3]، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد.

لقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي صلى الله عليه وسلم.

جهاده

كانت أرض الشام ميدانَ جهاد رويفع، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر وليبيا والنوبة، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبد الله بن سعد بن أبي سرح لفتح أفريقية ومعاوية بن حُدَيْج السَّكُوني لفتح المغرب.

---

(١) جربة: جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية (تونس) قرب قابس، كان يسكنها البربر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٧٣ - ٧٤).

(٢) أسد الغابة (٢/١٩١) والاصابة (٢/٢١٤) والاستيعاب (٢/٥٠٤) وفي تهذيب الاسماء واللغات (١/١٩٢): إنه رويفع بن ثابت بن سكن بن حارثة بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري البخاري.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٢) والاصابة (٢/٢١٤) وأسد الغابة (٢/١٩١).

وفي سنة خمس وأربعين الهجرية [1] غزا معاوية بن حُدَيج السَّكُوني المغرب فاستعاد فتح طرابُلُس الغرب وترك فيها رويفع بن ثابت والياً عليها سنة ست وأربعين الهجرية [2] فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة سبع وأربعين الهجرية [3] وفتح جزيرة (جَرْبة) التي كان يسكنها البربر [4] ثم انصرف من عامِهِ [5] الى طرابلس مقر عمله .

الإنسان

كان رويفع صحابياً جليلاً ، لا نعلم أنه شارك في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بقلبه أو بلسانه أو بسيفه ، بل بقي مستقراً في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة الى المسلمين .

سكن مصر واختط بها داراً ، وقد ولاّه معاوية بن حديج في أيام معاوية ابن أبي سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين الهجرية ، وتولّى (بَرْقَه) [6] لمَسْلَمَة بن مُخَلَّد حتى مات بها وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين الهجرية [7] (٦٧٦ م) وقبره بها [8] وقبره مشهور في

---

(١) رياض النفوس (١/١٧) والبيان المغرب (١/١٧) والاستقصا (١/٦٩) والخلاصة النقية (٤) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٢) والاصابة (٢/٢١٤) وأسد الغابة (٢/١٩١) .

(٣) الاستيعاب (٢/٥٠٤) وأسد الغابة (٢/١٩١) والعبر (١/٥٤) وشذرات الذهب (١/ ٥٥) .

(٤) معجم البلدان (٣/٧٣ – ٧٤) وانظر الاصابة (٢/٢١٤) وتاريخ المغرب الكبير (٢/ ٢٢) .

(٥) الاستيعاب (٢/٥٠٤) .

(٦) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية (تونس) ، واسم مدينتها إنطابلس (طرابلس الغرب) . انظر معجم البلدان (٢/١٣٣ – ١٣٥) وهذا الصقع باسم مدينة برقة تقع في مرج واسع انظر الاعلاق النفيسة (٣٤٣) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣) والمشترك وضعاً (٥٢) تقويم البلدان (١٤٨) .

(٧) الاصابة (٢/٢١٤) .

(٨) تهذيب الاسماء واللغات (١١/١٩٢) وأسد الغابة (٢/١٩١) .

الجبل الأخضر بـ (برقة)[1] في مدينة (البيضاء)[2] . وهو آخر من توفي من الصحابة هناك[3] .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أحاديث[4] وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة[5] . وكان خطيباً مفوهاً .

لقد كان رويفع إدارياً حازماً ، قوياً أميناً ، تقياً نقياً ، صادقاً وفياً ، كريماً سخيا .

ولا نعرف أنه أثرى من الغنائم أو من منصبه ، فعاش فقيراً ومات فقيراً دون ان يخلّف ديناراً ولا دارا .

لقد كان رويفع رجلاً .

القـــائد :

بذل رويفع قصارى جهده مجاهداً في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والمغرب العربي .

وقد شهد معارك كثيرة بريّة وبحريّة ، فقد سار بجيشة بحراً الى جزيرة (جربة) وفتحها[6] وقضى على فساد أهلها الذين كانوا يفسدون في البر والبحر[7] فنشر فيهم الدين الحنيف وضمّهم الى البربر المسلمين[9] .

---

(١) الأعلام للزركلي (٣/٦٥) الطبعة الثانية . .

(٢) البيضاء : مدينة في ليبيا تقع بين بنغازي ودرنة ، المسافة بينها وبين بنغازي (٢٠٠) كلم ، والمسافة بينها وبين درنة (١٠٠) كيلومتر .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٢) .

(٤) أسماء الصحابة الرواة – ملحق بجوامع السيرة لا بن حزم – (٢٨٦) .

(٥) أصحاب الفتيا من الصحابة – ملحق بجوامع السيرة لا بن حزم – (٣٢١) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٢) .

(٧) معجم البلدان (٣/٧٤) .

(٨) تاريخ المغرب الكبير (٢/٢٢) .

لقد كان رأس سلاح رويفع في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته النصر والتأييد والسلامة والظفر .

وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له والمحبّة من بعضهم لبعض : يتفقّد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويجعل عامة أصحابه في لين الكلمة بمنزلة الخاصة من غير أن ينقص أحداً من ذوي البلاء حقّه وثوابه .

وكان شجاعاً مقداماً كامل العقل طويل التجربة ، بعيد الصوت مأمون النقيبة ، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة ، يدخل الأمن عليهم والخوف على عدوّهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو . حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً سخياً ...

لقد كان قائداً ممتازاً .

رويفع في التاريخ :

يذكر التاريخ لرويفع أنه قضى حياته كلها مجاهداً وإدارياً ، ورافق أعلام الفتح الإسلامي من مبدأ سيرها الى أرض الشام ، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها في المغرب العربي .

ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام في أرض الشام ومصر والمغرب عامة وفي البربر خاصة .

ويذكر له أنه فتح جزيرة (جربة) ومات بعيداً عن أهله فاستقرّت نفسه مطمئنة في سفوح الجبل الأخضر الأشم من أرض ليبيا العربية في (برقة) حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار .

إنه نسي نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا ، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، التقي النقي ، الفارس البطل ، القائد الفاتح رُويفع بن ثابت الأنصاري النجاري .

قادة فتح الجزائر

١ – أبو المهاجر دينار [1] .

٢ – عقبة بن نافع الفهري [2] .

٣ – زهير بن قيس البلوي [3] .

٤ – حسّان بن النعمان الغسّاني [4]

---

(١) أنظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (١٣٧ – ١٤٩) .

(٢) أنظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٩٠ – ١٣٦) .

(٣) انظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (١٥٠ – ١٧٠) .

(٤) انظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (١٧٢ – ٢٢٠) .



قَادَةُ فَتْحِ المَغْرِبْ

١ ـ عقبة بن نافع الفهري [1] .

٢ ـ حسّان بن النعمان الغسّاني [2] .

٣ ـ موسى بن نصير اللخمي [3] .

---

(١) أنظر ترحمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٩٠ ـ ١٣٦) .

(٢) أنظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (١٧٢ ـ ٢٢٠) .

(٣) أنظر ترجمته في الجزء الأول من : قادة فتح المغرب العربي (٢٢١ ـ ٣٠٩) .



الخاتمة

موجز تاريخ المغرب العربي من الفتح الإسلامي حتى اليوم

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا » .

(القرآن الكريم)



مُسْتَهِل

- ١ -

في طريق عودتي الى الوطن عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) تعرّفت في باريس الى جماعة من الجزائريين ؛ أسماؤهم عربية ، وهم مسلمون ، ولكنّهم لا يعرفون كلمة عربيّة واحدة ، ويتكلّمون الفرنسية بطلاقة ، ويسمّون بلادهم (Algeria) بدلاً من : بلاد الجزائر .

وفي يوم من الأيام افتقدت أحدهم فسألت عنه أصحابه فقالوا : « خرج إلى النَّدِيّ مع كافر » ... !

كان أولئك النفر من الجزائريين فقراء معدمين ، وكانوا يرزحون تحت نير الاستعمار الفرنسي الغاشم ، وكانوا يعيشون أُجراءَ لذلك المستعمر ، غرباء عن بلادهم ، بعيدين عن عوامل القوّة المستمدّة من السيادة أو الأهل أو الأصحاب أو الثراء ؛ ولكنّهم كانوا مؤمنين بتفوقهم عرباً مسلمين ، معتزّين بخصائص دينهم وأمّتهم : فكان هذا الايمان وذلك الاعتزاز كل قوّتهم في هذه الحياة . كانوا فقراء مادياً ، ولكنّهم كانوا أغنياء معنوياً ... !

كانت فرنسا تدّعي حينذاك ، أن الجزائر جزء لا يتجزء من فرنسا ، وأن الجزائريين جزء لا يتجزأ من الشعب الفرنسي ؛ وكان الجزائريون وهم يعيشون في فرنسا يقولون : إن الجزائر جزء لا يتجزّأ من مكة المكرمة والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن الجزائريين جزء لا يتجزأ من الشعب العربي المسلم : أشقّاء العرب من الخليج الى المحيط ، وإخوة المسلمين من المحيط الى المحيط .

وما كان يردّده الجزائريون علناً ، كان يردّده إخوان لهم في اللغة والدين

من أهل ليبيا وتونس والمغرب ، وكان يردّده معهم كلّ العرب في ديار العرب وكلّ المسلمين في دار الاسلام .

كان الإيمان وحده مع شعب المغرب العربي ، وكانت الأساطيل والجيوش والقوّة القاهرة مع الاستعمار ؛ فانتصر الايمان على القوة ، وانتصر الحقّ على الباطل ، وأصبح المغرب العربي حراً مستقلاً ، يبني مستقبله المشرق بأيدي أبنائه ، وباء المستعمرون بالخزي والعار .

لقد كان طرد المستعمرين من المغرب العربي ، معجزةً من معجزات السماء ، وكان (القرآن الكريم) ، هو المدافع الأوحد عن المغرب العربي — الذي أصرّ على التمسّك بتعاليم القرآن ولغة القرآن ، وضحّى من أجل ذلك بالغالي الرخيص .

رأى الاستعمار ، أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف الأقطار وتباعد الديار هي الدين واللّغة ، وما دامت أمّة القرآن روحاً واحداً بالاسلام ، ولساناً واحداً بالعربيّة ، فان استغلالها موقوت وإن طال ، وإنّ استقلالها آت وإن تأخّر . لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب في الجزائر لفتنة البربر عن دينهم باصدار (الظهير)[1] المعروف ، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين ؛ ولكن دين الله كان أقوى من (ظهير) فرنسا ، ولغة المصحف كانت أبقى من لغة السيف[2] .

كيف انتشر الاسلام في المغرب العربي ؟ وما هو مجمل تاريخه بعد الفتح الإسلامي ؟ وكيف صاول الحروب الصليبيّة في القرون الوسطى والاستعمار في القرن العشرين ؟ وما هي عبرة تاريخ المغرب العربي للعرب خاصة وللمسلمين عــامة ؟

ذلك ما ستقرأه في هذه الخاتمة ، لعلّ فيها ذكرى لأولي الألباب .

---

(١) الظهير : المرسوم . وهذا الظهير هو الذي أطلق عليه اسم : الظهير البربري .

(٢) مقال للاستاذ أحمد حسن الزيات ص (٢) في العدد (١١١٨) من مجلة الرسالة الصادرة يوم الخميس ١٧ صفر ١٣٨٥ هـ .

انتشار الإسلام في المغرب العربي

- ٢ -

بدأ الفتح الإسلامي للمغرب سنة اثنتين وعشرين الهجرية بعمرو بن العاص [١] ، وانتهى فتحه حوالي سنة ثمان وثمانين الهجرية بموسى بن نصير اللّخمي [٢] ، وبذل الفاتحون خلال ست وستين سنة عشرات الألوف من الشهداء ، كان من بينهم قائدان من أعظم قادة الفتح الإسلامي ، هما : عُقْبة بن نافع الفِهري وزهير بن قيس البَلَويّ .

ولم يكن الفتح الإسلامي فتح إستعمار أو استعلاء ، بل كان فتح مبادىء ومُثل عليا ، إذ لم تكن الحرب في الإسلام ، إلاّ آخر الدواء ، فكانت تعاليم القتال في الاسلام تنصّ على ثلاثة مبادىء : أولها الإسلام ، وثانيها الجزية ، وآخرها الحرب [٣] .

وكان قادة الفتح الإسلامي ، وكان جنود الفتح الإسلامي ، يحملون الدعوة الإسلامية إلى الشعوب والأقوام شرقاً وغرباً ، وكانوا يحملون المصحف أولاً ، والسيف ثانياً ؛ وكانوا (دعاة) بالدرجة الأولى ، و (محاربين) بالدرجة الثانية .

---

(١) انظر العبر (١/٢٦) وانظر المغرب في حلى المغرب - الجزء الأول الخاص بمصر (٤٤ - ٤٥) ، والبلاذري (٢٢٧) . وانظر التفاصيل في : قادة فتح الشام ومصر (١٤٢ - ١٤٣) .

(٢) انظر التفاصيل في سيرة موسى بن نصير ص (٢٢١ - ٣٠٩) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) انظر التفاصيل في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٧٦ - ٤٨٦) .

وسارت الدعوة الإسلامية جنباً لجنب مع الفتح الإسلامي [1]، يحملها إلى العالم رهبان الليل وفرسان النهار، وقد قرأت في سير قادة الفتح كيف كانوا يضعون مصلحة الدعوة فوق كلّ مصلحة، وكيف كانوا يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

ومع قادة الفتح وجنوده، كان جيش من نوع آخر: من الفقهاء والمحدّثين والعلماء والقرّاء، وكان هؤلاء يعتبرون الدعوة من الجهاد الأكبر، ويعتبرون القتال من الجهاد الأصغر؛ وكانوا يؤمنون بأن تعليم القرآن والتفقّه في الدين ونشر الاسلام (عبادةً) من أجلّ العبادات وأرفعها قدراً.

وكان فتح الأندلس، وقيام البربر المسلمين بأوفرَ أعبائه، عاملاً من عوامل مزج العرب المسلمين بالبربر المسلمين في رباط من المصير الواحد والأهداف المشتركة، فأصبحوا جميعاً إخوةً في الله، لا فرق بين العرب والبربر في شيء، وأصبح البربر من قادة الفتح الإسلامي ومن جنوده كالعرب سواء بسواء.

وتولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة تسع وتسعين الهجرية [2]، فولّى اسماعيل بن عبيد الله [3] على حرب المغرب وخراجه وصدقاته في المحرّم سنة مائة الهجرية، وكان اسماعيل حسن السيرة ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلاّ أسلم، ولم يزل والياً على المغرب حتّى توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة الهجرية [4].

---

(١) انظر: الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية (٥٠ - ٥٣) والاسلام ظهوره وانتشاره (٢٥٧).

(٢) العبر (١/١١٨) وشذرات الذهب (١/١١٧) وفتوح مصر والمغرب (٢٨٧) وفتوح مصر وأخبارها (٢١٣).

(٣) في ابن خلدون (٤/١٨٨): إنه اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر.

(٤) فتوح مصر وأخبارها (٢١٣) وفتوح مصر والمغرب (٢٨٧ - ٢٨٨) وابن خلدون (٤/١٨٨).

ويرجع الفضل في إكمال إسلام البربر الى الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقد بعث الى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل منهم أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع [١] ، وأبو مسعود سعد ابن مسعود التجيبي [٢] ، وأبو عبد الرحمن الحبلي [٣] ، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله [٤] ، وموهب بن حيّ المعافري [٥] ، وحيّان ابن أبي جبلة القرشي [٦] ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي [٧] ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير [٨] ، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر [٩] .

---

(١) البيان المغرب (١/٤٨) ، وانظر رياض النفوس (١/٧٢) وقد غير محقق الكتاب ابن نافع الى ابن رافع حسب طبقات أبي العرب الذي يلقبه بالتنوخي أيضاً . ولقد ولي عبد الرحمن قضاء القيروان لموسى بن نصير سنة (٨٠) هـ . وتوفي بالقيروان سنة (١١٣) هـ .

(٢) البيان المغرب (١/٤٨) ورياض النفوس (١/٦٦ - ٦٧) .

(٣) رياض النفوس (١/٦٤) ، وانظر أيضاً ص (١/٦٦) ، حيث يسميه المالكي : عبد الله بن أبي يزيد الإفريقي ، انتفع به أهل إفريقية ، وبث فيهم علماً كثيراً . توفي بالقيروان سنة (١٠٠) هـ ، ودفن بباب تونس . وانظر معالم الايمان (١/١٣٨) : أبو عبد الرحمن ابن يزيد المعافري الإفريقي الحبلي .

(٤) رياض النفوس (١/٦٩ - ٧٢) : عرف بتاجر الله ، لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير كما جاء في رياض النفوس ص (٧٠) . وينسب اليه بناء جامع الزيتونة . توفي سنة (١٠٧) هـ . انظر معالم الايمان (١/١٤٦) .

(٥) رياض النفوس (١/٧٣) ومعالم الايمان (١/١٤٦) .

(٦) رياض النفوس (١/٧٣) : حيان قرشيّ بالولاء ، فهو مولى بني عبد الدار . سكن القيروان وانتفع به أهلها ، توفي سنة (١٢٥) هـ . وانظر معالم الايمان (١/١٥٨) : (حبان) .

(٧) رياض النفوس (١/٧٤) : كان فقيهاً مفتياً ، سكن القيروان ، وبها توفي سنة (١٢٨) هـ . وانظر معالم الايمان (١/١٦٠) .

(٨) رياض النفوس (١/٧٥) : أهم ما يعرف عنه ، أنه كان أحد الفقهاء ، وأنه ولي قضاء الجند بإفريقية على أيام هشام بن عبد الملك ، وأنه توفي في أول خلافة هشام . وانظر معالم الايمان (١/١٥٣) : جعيل .

(٩) هو نفس والي افريقية والمغرب على أيام عمر بن عبد العزيز ، واسمه الكامل كما يرد في رياض النفوس (١/٧٥) هو أبو عبد الحميد اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المخزومي . وهو قرشي ومخزومي بالولاء كما نعرف ، إذ كان جده أبو المهاجر مولى لمسلمة بن=

وبفضل جهود وجهاد هؤلاء التابعين وغيرهم ، تعلّم المغاربة أصول الإسلام ،فقرأوا القرآن، وعرفوا اللّغة الغربية، إذ كان أكثر أهل المغرب العربي حتى أيام هؤلاء التابعين لا يعرفون الحلال والحرام ، وكانت الخمر حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون فبيّنوا تحريمها (١) .

والحقيقة أنّ وجود مثل هؤلاء الأعلام من الدعاة في المغرب العربي ، لا يرجع الى خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقد رأينا أمثالهم في المغرب العربي من قبل (٢) . ولكنَّ الفترة التي حلّوا فيها كانت فترة استقرار نسبي بعد إكمال الفتح الإسلامي وامتداده عبر البحر الى الأندلس وجنوب فرنسا ، لذلك عاون الاستقرار على نشر الإسلام ديناً والعربيّة لغة ، كما عاون علم وورع وإخلاص هؤلاء التابعين في ترسيخ جذور العقيدة الإسلامية واللّغة العربية في العقول والقلوب معاً .

وساد الهدوء والسكون المغرب العربي في ظلّ الإسلام ، وظهرت بشائر عهد الإسلام في المغرب العربي سريعاً ، إذ حقّق الإسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة ، فقد صبغ البربر بالصبغة الإسلامية ، وجعل لسانهم جميعاً اللسان العربي .

وكانت هذه الحقيقة حداً فاصلاً في تاريخ البربر الطويل ، إذ عجزت الحضارات القديمة ، التي وصلت الى بلاد المغرب منذ أقدم العصور ، وهي الإغريقيّة واللاّتينيّة ، عن إدخال البربر في نطاقها ، واقتصر تأثيرها على بعض مدن مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقية . ولكن بعد طرد الروم من المغرب العربي واستقرار الفتح الإسلامي فيه ، دان البربر جميعاً بالدين الإسلامي ، ودخلوا في مضمار المدنيّة الإسلامية ، وأصبحوا

= مخلد . وكانت وفاة إسماعيل بالقيروان في سنة (١٣٢) هـ . وانظر معالم الايمان (١/١٥٤).

(١) البيان المغرب (١/٤٨) .

(٢) تاريخ المغرب العربي (٢٣٨) .

شعباً له رسالته في العالم الإسلامي . وهذا التطوّر في حياة البربر ، هو الذي يعتبر معجزة الإسلام ، حيث تمكّن من إنشاء وطن جديد له استعان به في ارتقاء سلّم الزعامة العالمية .

وتجلّت آية هذه المعجزة ، في أن الإسلام استطاع أن يجنّد من البربر جنداً جُدداً تسابقوا في مضمار الفتوح الأخرى ، وغدوا الجناح الأيسر لقوّات الإسلام . وكان أولئك البربر المسلمون يتحلّون بالحماسة والحميّة اللتين عُرف بهما المسلمون العرب في أيامهم الأولى ، والتي ظهرت في فتوحاتهم المبكّرة ، فأنجب البربر المسلمون قادة لا يقلّون عن قادة العرب المسلمين الأول في حماستهم لإعلاء كلمة الإسلام وتفانيهم في نصرته ، منهم : طارق بن زياد .

وقد ساهم هذا الوطن الجديد للإسلام في مشاريع الدولة الإسلامية الكبرى ضد البيزنطيين ، إذ كانت جيوش الدولة الإسلامية سنة (٧١٧) م تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتعمل جاهدة على فتحها . وقد اشتركت قوّات الإسلام من المغرب العربي في هذا الجهاد الرائع ، إذ أمدّت ولاية إفريقيّة والمغرب جيوش المسلمين بأساطيل ومؤن وعتاد شدّت من أزر الجند الإسلامي المحاصر للقسطنطينيّة ، وسجّلت اسمها الى جانب سائر الولايات الإسلامية الأخرى الداخلة في حظيرة الدولة الأموية ، والمشتركة في حرب البيزنطيين [١] .

لقد أصبحت شعوب المغرب العربي جزءاً من العالم العربي الجديد : يدينون بدين الإسلام ، وينهلون من ثقافة الإسلام [٢] ؛ وقد دخلوا في الإسلام غير مكرهين ، تدفعهم الى ذلك ظروف كثيرة ، منها مغريات الدين نفسه ،

---

(١) الأمويون والبيزنطيون (٢٦٢ - ٢٦٣) .

(٢) تاريخ إفريقية (٢٣) .

وما يعقب اعتناقه من تغييرات اجتماعية أو سياسية وربما مادية ، وكان للدعوة السلمية الى الدين أثرها الواضح في دفع التيار الإسلامي إلى الأمام [1] .

- ٣ -

دخل المغاربة في الإسلام واندمجوا في الحياة الإسلامية ، واكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الواضحة .

لم يُقبل المغاربة على المسيحية قبل الإسلام إلاّ بنطاق محدود [2] ، ولكنّهم اعتنقوا الإسلام – خاصة القبائل البدوية منهم – فألقوا بثقلهم مع الفتح الإسلامي وأيّدوه من أول الأمر ، بل كانوا عدّة العرب المسلمين في زحفهم وطليعة جندهم : دلّوهم على عورات البلاد ، وأعانوهم في جهادهم الرّومَ وأعوانهم .

وأشهر من أيّد الفتح الإسلامي من هذه القبائل البدوية قبيلة لُواته ونفزاوة ونفوسة وقبيلة زناتة ؛ وما دام هؤلاء قد أيّدوا الفتح الإسلامي منذ البداية ، فقد كانوا أسرع استجابة للإسلام ودخولاً فيه .

ولمّا انهارت مقاومة البيزنطيين وانبسط النفوذ الإسلامي على البلاد كلّها ، لم يشأ المتحضرون من أهل المغرب أن يتخلّفوا عن الركب ، فبدأوا بدورهم يدخلون في الإسلام أسوة بمن دخل فيه من البدو .

كان من أسباب انتشار الإسلام في المغرب وسرعة تقبُّل الناس له ، أن بعض قادة الفتح الإسلامي اتّخذوا سياسة كانت بعيدة الأثر في إنتشار الإسلام وفي إقبال أهل المغرب عليه .

فحسّان بن النعمان ، منح البربر الذين يؤيدون الفتح ويؤازرونه ، حتّ

---

(١) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية (٢/ ٣١) .

(٢) نظر التفاصيل في : الاسلام والثقافة العربية في افريقية (١/ ١٥٥ – ١٥٨) .

المساواة الكاملة مع العرب .

ووضح أمام البربر ما ينطوي عليه الإسلام من مساواة بالفاتحين العرب . ومن هذه المساواة إشراك البربر في جيش الفتح ، ومنحهم حقّهم المشروع في العطاء وفي قسمة فيء الحرب ومغانمها . فلم يعتبر العرب حكاماً والبربر محكومين . وإنما ساوى بينهم في الحقوق والواجبات . وهذا يخالف ما ألفه البربر من سياسة الرومان والروم ، حيث كان أهل المغرب مهما تبلغ ثقافتهم ومكانتهم يعتبرون من موالي الرومان والروم لهم المرتبة الثانية في المجتمع ، فإذا بهم بالإسلام يظفرون بالمساواة المطلقة .

بل اعتبر حسّان أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة . وأقرّ البربر على ما بيدهم من الأرض ، وبذلك ظهر للبربر أنّ محالفتهم للعرب لم يسلبهم أرضهم ولا ميزاتهم المادية [1] الأخرى .

لقد وجد البربر الذين استعبدوا بالأمس قبل الإسلام ، أنهم أصبحوا بالإسلام سادة لا عبيداً ، وفاتحين لا مغلوبين ، فأصبح المغرب قطراً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامي . وقد أصبح المغرب بعد انتشار الإسلام فيه . القاعدة المتقدمة التي انطلقت منه الدعوة الإسلامية الى القسم الغربي من القارة الإفريقية وإلى أوربا .

لقد شحن الدين الجديد المسلمين من العرب ومن غيرهم من الأمم الأخرى بالطاقات الحيوية ، فاندفعوا في حماسة ينشرون الدين الإسلامي ، وسرعان ما امتدّ الإسلام إلى الأندلس ، فاصطبغت كلها بالإسلام واتّخذت اللّغة العربية لغةً عامّة لها . وحدث في الأندلس ما حدث في كلٍّ مكان نزل فيه العرب ، فقد انتشرت الحضارة الإسلامية التي جاء بها العرب بين الذين

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقية (١/١٥٨ — ١٦٠) وانظر انتشار الاسلام في القارة الافريقية (١٤ — ١٦) .

اعتنقوا الإسلام وبين الذين آثروا أن يظلّوا على أديان آبائهم [1] أيضاً .

كانت الدعوة الإسلامية لا تخرج عن بضع كلمات ، وكان لها أثرها العميق في نفوس العرب وفي شخصيتهم ، كما كان لها أثرها البعيد في تاريخ العـالم .

تلك الدعوة التي جمع بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبائل العرب المشتتة ، وجمع بها النفوس المفككة . وهي إلى جانب ذلك ركن الإسلام وأساس عقيدة المسلمين : « لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله » . فقد كان العرب أعداءً على شفا حفرة من النار ، فألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً . قرآن منزل من عند الله ، يهدي به الى الرشد ، وليخرج به الناس من الظلمات إلى النور [2] .

— ٤ —

وقد شهد عصر الفتح الإسلامي (القرن الأول الهجري) ، تطوّراً صحب انتشار الإسلام ، وهو انتشار اللّغة العربية .

ويخيّل للمتأمّل أنّ اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً في بلاد المغرب منها في مصر ، لأنّ العربية وجدت في مصر لغات عريقة . أما في المغرب فإن الإغريقية واللاتينيّة لم تكن واسعة الإنتشار ، بل كانت لغة الحكومة ولغة سكّان المناطق الساحلية ، أما غالبيّة البربر ، فكانت أبعد من أن تتأثّر بهذه اللغة ، ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية ؛ ولم تكن لغات البربر غير المكتوبة ، تقوى على مغالبة اللغة العربية .

وكما أقبل البربر على الإسلام ، أقبلوا على اللّغة العربية ، ووجدوا

---

(١) العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط (١٨٠) .
(٢) تاريخ افريقية (٢٣) .

فيها أداة طيِّعة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم ، إذ تعدّدت لهجاتهم ، وكانت اللّغة العربية لغة مكتوبة يستطيعون عن طريقها أن يسجِّلوا تراثهم .

وكان إقبالهم على اللّغة العربية شديداً ، يدلّ على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم في القرن الثاني الهجري الى الشرق ، للإستزادة من العلم والتثبّت من اللّغة .

وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلِّف بها ، وبدراسة ما ورد في تراجم كتب طبقات فقهاء المغرب ، نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا في ثقافة العرب وفهموها حقّ الفهم .

وفي نفس الوقت الذي انتشر فيه الإسلام واللغة العربية ، كانت الثقافة العربية الوافدة الى مدارس (القيروان) وغيرها من مدن المغرب ، تسير بطريقها المرسوم نحو التفوّق والإزدهار [١] .

واستمرّ هذا التفوّق والإزدهار ينمو عبر القرون [٢] ، فكانت الحضارة العربية الإسلامية ما تزال – عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي – تهيمن على الشاطىء الإفريقي المطل على المحيط الأطلسي والممتد من مضيق جبل طارق حتّى السنغال [٣] ، واستمرّ انتشار الإسلام وتفوّق الثقافة العربية في المغرب العربي حتّى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي [٤] .

هكذا كان تطوّر الحركة الإسلامية وسيرها بالمغرب مدة قرن كامل هو قرن الفتح الإسلامي العظيم ، وهكذا كان حرص ولاة العرب شديداً على إشادة معالم الإسلام بهذا القطر وتثبيت أركانه وإقامة دعائمه ، حتّى ارتكز

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقية (١٦٢ – ١٦٣) .
(٢) انظر كتاب : النبوغ المغربي لتقرأ عجباً عن نبوغ المغاربة في الناحية الأدبية .
(٣) مختصر دراسة للتاريخ (٣/٣٠٨) .
(٤) الإسلام والثقافة العربية في افريقية (١/١٨٩) .

فيه ارتكازاً قوياً وتمكّن من نفوس سكّانه أيّما تمكّن ، فأصبح وكأنما آوى إلى وطن وسكنٍ هما أعرف به منه بهما .

نظر المغاربة فيما تخلّف بأيديهم من عادات الوثنيّة ، وبقايا الديانات الأخرى المحرّفة ، فلم يجدوا في ذلك شفاء غلّتهم ونقع أُوامهم ؛ فأخذوا يتطاولون بأعناقهم إلى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ، ورأوه موفّياً بأغراض الحياة ومآربها ، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد ؛ فكان الإسلام خير داعية ومرشد ، أنار أمامهم السبل ، وأبان لهم معالم الرّشد . وسرعان ما استمالهم إلى جانبه ، وأدخلهم في حظيرته ؛ وكان أكثر ظاهراته تأثيراً عليهم ثلاثة :

أ ـ يُسْرُ شريعته ، وسماحته غير المحدودة ، فكلٌّ تعاليمه هيّن سَهْل ، يمكن الإحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء . والإسلام دين الفِطرة الخالي من التكاليف الشّاقة التي تجعله عبئاً ثقيلاً على كواهل معتنقيه ، إذ ليس فيه إلاّ ما ينطبق على النظر والمصلحة العامّة .

ب ـ حسن معاملته لكل من يدين به ويحتمي بحماه ، فما هو إلاّ أن يتعلّق بسبب من أسبابه ، حتّى يصبحَ عضواً عاملاً في جماعته الكبيرة ، لا يميزه عن بقية أعضائها مميِّز ، ولا يفصل بينه وبينهم فاصل . فمثلاً ابن الكاهنة المغربية المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للإسلام ومحاربتها للآتين به حتّى ماتت [1] ، فإنه ما لبث أن وَلِيَ على قومه بعد إسلامه ، ولاّه حسّان ابن النّعمان الذي قاسى من أمّه الأمرّيْن [2] .

ج ـ رفق الولاة المسلمين وعدلهم وتشرُّبهم بروح العدل الذي جاء به الإسلام ، مع ما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة ؛ حتى

(١) هي الكاهنة داهيا التي تزعمت قومها جراوة وقاتلت المسلمين في جبال أوراس فهزمتهم ، وكان عليهم حسان بن النعمان .

(٢) انظر ترجمة حسان بن النعمان ص (١٧٢ ـ ٢٢٠) الجزء الأول من هذا الكتاب .

لقد أكبر هؤلاء المغاربة ديناً أنجب مثل أولئك الرجال الأفذاذ، وكوّن مثل تلك الشخصيّات الكبيرة التي يَنْدُرُ وجودها في التاريخ.

على أن المغاربة لم يعادوا الإسلام في أوّل الأمر، ولم يقاوموه تلك المقاومة العنيفة. إلاّ لجهلهم بحقيقته، وعدم إحاطة علمهم بمحاسنه ومزاياه. وقد فطن لذلك الولاة العرب بعد حين، فرتّبوا لهم الفقهاء والقرّاء يلقّنونهم العربيّة ويبصّرونهم بالدين. فلما اكتنهوا كنْهه وعرفوا حقيقته، وتمرّسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية، أصبحوا من أكبر دعاته وأحمى أنصاره: فهم الذين فتحوا الأندلس وسهّلوا طريقها للعرب، وما زالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها الى آخر العهد بها. وهم الذين اقتحموا مجاهل إفريقية، وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية الى السوادين كما هو معلوم[1].

وكانت نتيجة طبيعية أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم، ويتعلّموا لغة التنزيل الذي هو دُستور الإسلام وأقْنُومُه والمصدرُ الأوّل لجميع أحكامه وتعاليمه. فانما بالعربية تُفهم أُصوله وفروعه، وتُقرّر شرائعه وأحكامه. على أنه إذا كان الإسلام دينُ الفطرة والخُلق القويم، مستعلناً بذاته للإنتشار؛ فكذلك هذه الفُصحى، لغة البيان والشعر، تمتلك برقّتها القلوب، وتستلب العقول.

فما الذي قضى على العربية وأوقف سيرها لأمد بعيد جدّاً؟ إنها تلك الفتن والحروب التي نَشِبَت بين العرب والمغاربة فيما بعدُ، والتي كان مثارها التعصُّب الأعمى والعنصريّة المقيتة؛ ولكن العربية سادت خصوصاً بعد قيام الدول العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين[2] — في المغرب العربي.

---

(١) النبوغ المغربي (١/٣٩ – ٤١) وانظر التفاصيل في محاضرة عوامل انتشار الإسلام — علي عبد الرحمن الأمين — المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية (٣٤٩ – ٣٨٤).

(٢) النبوغ المغربي (١/٤٢ – ٤٣).

وعلى الرغم من أن فتح العرب المسلمين للمغرب العربي لم يدم - كإمبراطورية - لمدّة طويلة ، فإنّهم حقّقوا تغييراً جذرياً في المجتمع المغربي ، فقد انهارت المسيحيّة كحضارة للبحر الأبيض المتوسط على الرغم من العظمة التي كانت عليها أيام الفتح الإسلامي . أما في مصر فقد بقيت المسيحيّة ديناً للأقلية يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين في دولة واحدة . أما سبب إنهيار المسيحيّة في المغرب ، فانما يرجع إلى أن قبائل البربر كانت تعتبر المسيحيّة ديناً محلياً ، إلى جانب الاضطهاد الديني الذي لاقاه المسيحيون على أيدي كنيسة روما ومن قبائل الفاندال ومن الروم المتزمتين . ولما كان العرب أقرب إلى البربر في المغرب العربي سواء في اللغة أو الشكل من اليونان والرومان والروم ، لذا تمكّنوا من جمعهم في الحضارة الإسلامية التي أصبحت عميقة الجذور وأكثر قدرة على الانتشار صوب الجنوب من حضارة البحر الأبيض المتوسط[1].

---

(١) تاريخ افريقية (٢٧ - ٢٨) .

لمحات من تاريخ المغرب العربي بعد الإسلام

-٥-

المغرب

الأدارسة :

أ . بعد موت موسى بن نُصير ، صارت الخوارج تقصد بلاد المغرب وتنشر مذهبها فيه ؛ وقد أساء عامل الخليفة السيرة وظلم المغاربة [١] ، فأعلنوا الثورة على الخلافة سنة اثنتين وعشرين ومائة الهجرية [٢] (٧٢٩ م) ؛ فكانت هذه الثورة أول ثورة مغربية على الخلافة الإسلاميّة .

وبقي المغرب يعاني من ثورات الخوارج إلى أن وصل مؤسس الدولة المغربية إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب [٣] .

وبعد أن وحّد ادريس المغرب الأقصى ، ولّى وجهه شطر المغرب الأوسط ، ففتح (تلمسان) سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) ، ولكنه مات سنة ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) ودفن في مدينة (زرهون) .

وتولى إدريس الثاني المغرب ، إذ بايعه المغاربة يوم ولادته ، وبعد أن استوى إدريس الثاني منح البلاد إدارة حسنة ، وبنى مدينة (فاس) وجعلها

---

(١) هو عمر بن عبيد الله المرادي ، عامل عبيدالله بن الحبحاب على طنجة ، انظر ابن خلدون (٤/١٨٩).
(٢) ابن الأثير (٥/٩٢) .
(٣) انظر تاريخ المغرب (١/٧١ - ٧٢) وانظر الدرر السنية (٤٠) .

عاصمة المغرب ، وكان ذلك سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) . ومات إدريس الثاني سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) ، ففقدت المغرب بموته بطلاً من أبطاله الغر الميامين .

ب ـ تولى بعد إدريس الثاني ابنه محمد بن إدريس ، وبعده علي بن محمد ابن إدريس ، ثم تولى يحيى بن محمد بن إدريس ، وكان حكمه هو العصر الذهبي للدولة الإدريسيّة .

تولى يحيى بن محمد بن إدريس الملك سنة (٢٣٤ هـ) ، فوصلت الدولة في أيامه إلى غاية مجدها ؛ فقد امتد سلطانها وعظمت واستجدّت (فاس) في العمران ، ورحل الناس اليها من الثغور القاصية .

وكان ممن قدم (فاس) محمد بن عبد الله الفِهْري ، فنزل بعدوة (القرويين) مع أهل بلده الذين وفدوا معه الى (فاس) . ومات محمد ابن عبد الله الفهري وترك ابنتين وهما : فاطمة المدعوة : بأم البنين ، ومريم . وكان لهما إرث كبير ، فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين في رمضان من سنة (٢٤٥ هـ) ، فتمّ على نحو ما أرادته ، ولم تزل صائمة من يوم أُسِّسَ الى أن كمل بناؤه ، فصلّت فيه شكراً لله تعالى الذي وفّقها لذلك .

وقد كان هذا المسجد جامعة المغرب ، وكان ولا يزال حصن العربية لغةً والإسلام ديناً ، وكان لهذا الجامع فضل عظيم على نشر الثقافة بالمغرب البلد العربي الإسلامي . كما كان له حظ وافر جزيل في حفظ التراث العربي لإسلامي من الاندثار ، لا في المغرب وحدها بل في مختلف الأقطار الإسلامية ، فقد حمل الرسالة بأمانة بعد نكبة « الفردوس المفقود » .

أما دور جامع القرويين في بعث الشعور الوطني ، ونفخ روح الفداء والدفاع عن حوزة الوطن ، والذود عن الاسلام والشريعة المحمدية السمحاء ، فيمكن أن يعتبر أجلّ دور لعبته جامعة إسلامية في دار الإسلام منذ القدم ؛ فقد زخرت حياة جامع القرويين بالدعوات الصالحة للكفاح في سبيل الله . واستنفاد الهمم القوية للجهاد من أجل الدين والوطن . وما الحركة الوطنية

في القرن العشرين إلاّ إحدى بذرات هذا المعهد الذي ما زال قائماً يدعو الى الحق والى الصراط المستقيم[1].

وفي سنة (٣٠٥ هـ) أخضع قائد[2] الدولة العبيدية التي تأسست في (تونس) ملك الدولة الادريسية وأدخله تحت حكمه، وقضى على استقلال المغرب، وبذلك انتهى عصر الدولة الادريسية[3].

ملوك الطوائف :

جـ ـ ومن سنة : ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) الى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٢٦ م) كان المغرب صراع بين النفوذين الفاطمي والأموي، ويمكن تقسيم هذه الفترة الى قسمين : الأول من سنة ٣٠٥ هـ الى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) وهو عصر الصراع بين النفوذ الفاطمي والنفوذ الأموي، والثاني من سنة ٣٦٩ هـ الى سنة ٤٢٨ هـ، وهو عصر نفوذ الأمويين وحدهم، وكانت قبائل زناتة الخاضعة للأمويين تحكم المغرب.

ولما انقرضت الدولة الأموية في الأندلس، قامت بعدها دول كثيرة تعرف عند المؤرخين بملوك الطوائف.

وكانت في المغرب في هذا العصر دولة (مَغْرَاوَة)[4] امتدّ حكمها من سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وانتهى أمرها على يد المرابطين سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م).

---

(١) انظر مقال : دور جامعة القرويين في حفظ تراثنا الاسلامي – عبد اللطيف خالص – مجلة المغرب – العدد (٣) – ١٩٦٥ – ص (٣٠-٣٥)، وانظر التفاصيل في الكتاب الذهبي لجامعة القرويين.

(٢) هو مصالة بن حبوس المكناسي.

(٣) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (١/ ٧٣ – ٨٧) وانظر الدرر السنية (٤٠ – ٨٠).

(٤) مغراوة : قبيلة من زناتة البربرية. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٩٨).

المرابطون :

د ــ كان موطن المرابطين الأول الصحراء الكبرى ، وهم من قبيلة (صِنْهَاجَة)[1] وقد استمرّ حكمهم في المغرب من سنة ٤٦٢ هـ الى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، وكان حكماً قوياً حلّ محل الأسر المتنازعة التي كانت قد خلفت الأدارسة في حكم البلاد .

بدأت دولة المرابطين كما بدأت أكثر الأسر المغربيّة الرئيسة الحاكمة ، بوصفها حركة دينية . فقد استعان زعيم[2] من زعماء (صنهاجة) البربرية بأحد المصلحين الدينيين[3] على تعليم أفراد قبيلته أُصول الدين . ومن أجل تحقيق ذلك أنشأ المصلح الديني (رباطاً) في محل ناء من الصحراء ؛ فقصده كثير من الناس حتّى اجتمع عليه نحو ألف رجل ، فسمّاهم هو أو سمّاهم الناس بالمرابطين من أجل ملازمتهم لذلك الرِّباط .

ومن هذا الرِّباط إنبثقت نواة دينية عسكرية ما لبثت أن سيطرت على المغرب كلِّه وعلى الجزء الأعظم من الأندلس .

وبزعامة يوسف بن تاشفين استولى المرابطون على (فاس) وانتزع ما بقي من سلطة بيد (مَغْرَاوَة) وبني (يَفْرَن) ، وأسّس مدينة (مراكش) سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) وجعلها عاصمة ملكه . وتطلّع الى المغرب الأوسط فاستولى على عاصمته (تلمسان) وغيرها من المدن الكبرى حتّى صفا له أمر المغرِبَيْن : الأقصى والأوسط سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، وبلغت حدود مملكته الى السودان ونهر (النِّيْجَر) ، فتوجّهت اليه أنظار أهل الأندلس ، وتعلّقت به آمالهم في النجدة والإنقاذ[4] .

---

(١) قبيلة بربرية . انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) .

(٢) هو يحيى بن ابراهيم الكدالي . وكدالة : قبيلة من قبائل صنهاجة .

(٣) هو عبد الله بن ياسين الجزولي .

(٤) انظر النبوغ المغربي (١/٥٧ ــ ٦٠) .

وفي سنة (٤٧٩ هـ) انتصر يوسف على المسيحيين في الأندلس انتصاراً حاسماً ، عاش الإسلام بعده نحو أربعة قرون ، ولولا انتصاره هذا لكان المسيحيون قد قضوا على المسلمين في الأندلس في هذا العصر ، كما يعترف بذلك مؤرخوهم .

وفي سنة (٤٨٤ هـ) أخضع ملوك الطوائف في الأندلس وقضى عليهم وأنزلهم جميعاً من عروشهم، لأنهم كانوا يفضّلون مصلحتهم الخاصة على مصلحة دينهم وشرف بلادهم [١] .

وتوّج يوسف حياته الحافلة بتاج الصدق والإخلاص ، فأعلن انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية ، وبايع الخليفة العباسي ، وطلب منه تقليداً على ما بيده من الأقاليم ، فأجابه إلى ذلك ، وخاطبه بأمير المسلمين [٢] .

وفي سنة (٥٠٠ هـ) توفي يوسف بن تاشفين بعدما عاش مائة سنة قضى منها في الملك سبعة وأربعين عاماً ، كانت من أسعد أيام المغاربة ، ولم يبق في عصره نفاق ولا ظلم ولا سرقة ، فكانت المرأة تسير وحدها حاملة الذهب في جميع أقطار إفريقية والمغرب ولا تجد من يعترض سبيلها .

كان يوسف مؤمناً بالإسلام عقيدة وعملاً وتضحية وفداء وحضارة ؛ يخلص للإسلام، ويزهد بالدنيا ولا يهتمّ بنفسه ؛ وكان يحبّ أهل الصلاح ويقرّبهم اليه ، ويأخذ برأيهم ويكثر مشورتهم .

جـ ــ وتولى إمارة المسلمين من بعده ولده علي بن يوسف بن تاشفين ، فورث ملكاً عظيماً ، وتمتعت الأمة المغربية والأندلسيون في عصره بالسعادة والرفاهية والعدل ، وازدهرت في عهده الحضارة المغربية ، وقصده كثير من الفلاسفة والأدباء والفقهاء، وكان معروفاً بالحكمة والعدالة وحبّ الخير

---

(١) تاريخ المغرب (١/١٠٩) .

(٢) النبوغ المغربي (١/٦١) وانظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (٢٨١) .

للناس ، وكان كثير المشورة للمفكّرين والعلماء ، وكان كثير الجود والعطف على الفقراء والمساكين .

وكان قد ارتحل الى الأندلس عدّة مرات وجرت له مع الأسبان هنالك حروب كثيرة انتصر فيها عليهم دائماً ، واسترجع من أيديهم كثيراً من المدن والقلاع .

وهكذا ظلّ هذا الملك نحو عشر سنين متمتعاً بالسعادة والعز والسؤدد ، والأمة المغربية عزيزة محترمة ، إلى أن ثار عليه المهدي بن تومرت واشتبك معه في حروب عظيمة كان ابتداؤها سنة (٥١٦ هـ)[1] .

ودامت الحرب بين المرابطين والموحّدين خمسة وعشرين عاماً ، مات خلالها من أبطال المغرب والأندلس مئات الألوف ، وقضت على كثير من مشاريع الإصلاح التي كان يقوم بها المرابطون .

وبينما كانت هذه المعارك حامية مات علي بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٣٧ هـ) وخلّف المغرب والأندلس في معارك دامية .

وخلفه على عرش المرابطين ولده تاشفين ، وكان لا يقلّ عن أبيه شجاعة ومعرفة وقوة إرادة ، ولكنه سقط في المعركة قرب مدينة (وهران) سنة (٥٣٩ هـ) ولم يحكم سوى عامين ، فتولى بعده ابنه ابراهيم بن تاشفين آخر ملوك المرابطين ، وكان لا يزال طفلاً .

وحاصر عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين مدينة مراكش بعد وفاة تاشفين ، وظلّت هذه المدينة محصورة الى أن سقطت سنة (٥٤١ هـ) .

وقُتل ابراهيم بن تاشفين ومن معه صُبراً وهم نحو نيف وسبعين ألفاً ، وهكذا انتهى عصر المرابطين الذي دام تسعة وسبعين عاماً ، وكان من أعظم عصور المغرب[2] .

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (١/١٠٨ – ١١٥) .
(٢) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (١/١١٦ – ١١٧) .

والواقع أنّ المرابطين أسدوا الى المغرب خدمات جليلة ، لم يكن توحيد القوى الإسلامية أقلّها شأناً . لقد قضوا على الطائفية ، وأحيوا شعائر الإسلام ، ووفقوا الى فرض سلطة مركزية على القبائل المستقلة ، والى تحطيم الروح الإنشقاقية التي كان خليقاً بها أن تحول دون أي امتداد للسلطان المغربي الى الأندلس [1] .

الحياة الفكرية في المغرب أيام المرابطين :

هـ ـ إن المرابطين هم الذين مدّوا حياة الأندلس السياسية وأبقوها في قبضة الإسلام زُهاء أربعة قرون أخرى ، وهذا هو ما يغيـــظ المستشرق (دُوزي) ومن سلك سبيله في التحامل على الدولة المرابطية .

إنّ الإزدهار الذي عرفته الأندلس في أيام المرابطين ، يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف ، وخاصة في ميدان العلم والآداب . فمعظم أعلام الفلسفة والطب الأندلسيين عاشوا في هذا العصر أو نبغوا بعده بقليل .

لقد كان أساس دعوة المرابطين العلم ، وعليه قامت دولتهم . وكانت نزعة عبد الله بن ياسين الى علم الفقه والدين أقوى منها الى أي علم آخر ، لأنه كان عالماً دينياً ، فغلب هذا الميل على الدولة ؛ ومن ثَمّ كان تقديمها للفقهاء ، واختصاصها لهم دون من عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ، برغم ما صار اليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جرّاء فتح الأندلس وضمّها الى المغرب . إن وظائف الدولـــة كانت من نصيب رجال الشريعة ، وفيما عدا ذلك ، فإن العلماء كانوا قائمين بنشاطهم الفكري ، لا يعترض سبيلهم معترض [2] .

---

(١) الاسلام والعرب (١٤٢) .

(٢) انظر التفاصيل في : النبوغ المغربي (١/٦٦ – ٦٨) . وانظر الاسلام في المغرب والأندلس ص (٢٣٧ – ٢٥٤) .

كان المرابطون يهتمّون بعلوم الدين المتشبّع بالرُّوح السّلفي المتسامح ، الخالص من شوائب التنطّع والتعمّق ، الذي لا يجاري الخلافات المذهبيّة والبدع والأهواء ، وكان الزهد والتقشّف هما شعار الدولة وطابعها الخاص : عمل علي بن يوسف بن تاشفين وهو أمير المسلمين مع العمّال في بناء جامع مراكش ، وحمل الطوب والطابوق والحجر بيديه وعلى كاهله الى البنائين ، وكان صائماً في تلك المدة كلها ! فلم يكن تديُّن المرابطين خدعة ونفاقاً ، كما لم يكن مذهباً خاصاً ونحلة متميِّزة ، يضطهدون الناس من أجل الدفاع عنها وعدم مخالفتها .

ومهما يكن من أمر ، فإن علم الفقه على مذهب الإمام مالك قد واصل تقدُّمه في هذا العصر ، وعقدت المجالس الحافلة في كل من (سبتة) و (فاس) و (مراكش) للمناظرة عليه ، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول ، وظهر الإشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل ، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد . وعني كثيرون بعلم القراءات ، هذا العلم الذي لم ينقطع الإشتغال به في المغرب في مختلف العصور ، وهو من فروع التفسير . ونشط الإشتغال بعلم الحديث والرواية ، فكثرت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علوّ الإسناد والضبط والإتقان . وكان علم التصوُّف له مكانة أيضاً ، ولكن مما يلاحظ أن تصوّف المغاربة كان رياضة ومجاهدة ، ولم يكن هذا التصوف الفلسفي الذي أنكره الفقهاء . ولم تكن العلوم الفلسفية والرياضيّة والطب قليلة الحظ من العناية بها والإقبال عليها .

وظهر في هذا العصر أيضاً الإشتغال بالعلوم الأدبية واللسانيّة من نحوٍ ولغةٍ وشعرٍ وكتابة ، وكما نبغ في كل العلوم التي ذكرناها أفراد عديدون ، كذلك نبغ في الأدب والشعر أفراد نجد تراجمهم لأول مرة الى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين .

ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنبوغ في الأدب على الرجال ، بل إن

النساء شاركن أيضاً بنصيبهنّ في ذلك .

وإن ننس لا ننسى جامع ابن يوسف بمراكش الذي كان مثل جامع القرويين بفاس ، فهو من منشآت هذا العصر ؛ ومنذ بناه علي بن يوسف لم يزل المركز الثاني للدراسات العلمية والأدبية بالمغرب (١) .

لقد كان عصر المرابطين من العصور الذهبية في المغرب بالنسبة للحركة الفكرية العربية الإسلاميّة .

الموحدون :

و. أولاً : لم تكن دولة المرابطين أعظم استقراراً ولا أكثر اطمئناناً منها حينما ظهر المهدي بن تُوْمرت على مسرح التاريخ وضرب ضربته القويّة التي قوّضت ذلك البنيان الشامخ وأتت عليه من الأساس ؛ وقد استمرت دولة الموحدين من سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) الى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) .

والقوم في غفلة عما يجري حولهم ، ولعلّ ابن تومَرْت لم يرحل الى المشرق إلاّ وهو يحمل في رأسه فكرة الثورة على الواقع المغربي ، وخاصة في ميدان الاجتماع وما يرجع لنزعة الدولة العقَدِيّة والمذهبيّة .

كان المهدي رجلاً من (سوس) من قبيلة (هَرْغَة) بالذات ، إحدى قبائل (المصامِدة) ، واسمه محمد ؛ وإنما اشتهر بالمهدي بعد إعلانه لدعوته ، وهو ينتسب في آل البيت . خرج طالباً للعلم سنة (٥٠١ هـ) ، فدخل الأندلس ورحل الى المشرق ، فحجَّ ولقي الأئمة وحصل على علم غزير ؛ وكان ذا فصاحة ولسَن وحجّة قويّة ، الى ورع ونُسك وغيرة شديدة على الدين ، مما جعل منه داعية من الطراز الأوّل . ولم يلبث أن نزل الى الميدان مصلحاً دينياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو الى التوحيد

---

(١) انظر التفاصيل في : النبوغ المغربي (١/٦٨ — ٧٨) .

على طريقة الأشاعرة[1]، من تأويل المتشابهات وعدم إقرارها على ظاهرها فراراً من الوقوع في التجسيم، وكان أكثر ما يُحَفِّزُ همّته للعمل ما يراه من انتشار البغي والفساد، مع سكوت علماء الدين عن ذلك.

ويظهر من سيرته أنّ الرجل كان مخلصاً في دعوته أشدّ الإخلاص، وأنه لم يكن يهمّه ملك ولا دنيا إلاّ بلوغ قصده في محاربة الفساد وتجديد الدين. ولولا ذلك لما عرّض نفسه للخطر مراراً في غير موطنه، حيث لا يرجو ملكاً ولا يجد أعواناً. إنّ الرجل كان صاحب فكرة إصلاحيّة عمل لتنفيذها بالوسائل السلمية قبل أن يكون طالب ملك يرتكب كل الوسائل للحصول عليه.

وكما تنتشر النار في الهشيم كانت آراء ابن تومرت مع مذهبه في التوحيد تنتشر في القبائل، وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمّه الناس من كل جهة، فيعرف كيف يستميلهم اليه ويدخلهم في دعوته، حتى أصبح سلطاناً مطاعاً في جميع القبائل، والمغرب إذ ذاك وفي كل وقت، هو القبائل.

ثانياً: وكانت هذه الأخبار تصل الى مراكش، فتثير حفيظة الدولة عليه. وكلّما اشتدت صولته كلما أوجست الخيفة منه؛ فصمّمت العزم على مناوشته بالقتال، ومبادأته بالمحاربة، فأرسلت اليه أول طليعة في سنة (٥١٥ هـ)[2]، وهو بجبل (تينمّل) من بلاد (سوس) فهزمها.

ولا حاجة بنا إلى القول، إنّ المهدي ثابر في محاربة المرابطين ومناجزتهم القتال، وكانت الحرب بينهم سجالاً. وكان حرياً ان يشهد انهيار المرابطين، لولا أنّ المنيّة عاجلته، فتوفي في زهرة العمر سنة (٥٢٤ هـ)[3].

---

(١) انظر ما جاء عن الأشعرية في الملل والنحل للشهرستاني (١١٩/١ – ١٤٤) وانظر تاريخ الفكر العربي (٣٣١ – ٣٥١).

(٢) في ابن الأثير (٢٠٣/١٠ – ٢٠٥) أن ذلك جرى سنة (٥١٤ هـ).

(٣) ولد سنة (٤٨٥ هـ). وانظر العبر (٥٧/٤ – ٦٢) للاطلاع على مختصر ترجمته. =

ثالثاً : وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكُومِيّ ، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهدٍ منه ، فواصل عمله في محاربة المرابطين بدون هوادة ، وجمع همّة الموحدين على هذه الغاية ؛ فلم يضع السيف من يده حتّى قضى على دولة المرابطين ؛ فدانت لعبد المؤمن بلاد المغرب من أقصاها الى أقصاها ، وسرعان ما استقرّت الأحوال واستتبّ الأمن وعادت الأمور الى نصابها فقامت دولة الموحدين بمراكش شامخة البنيان رفيعة الأركان. ولئن كان المهدي بن تومرت هو صاحب دعوة الموحدين ، فإن عبد المؤمن هو رجل الدولة الذي اضطلع بتنفيذ جميع خطط الثورة ، والاستيلاء على مملكة المرابطين ، وتحقيق وحدة الشمال الافريقي ، مع الحرص على تطبيق الدعوة الموحّديّة في الحقلين الديني والاجتماعي بأمانة وإخلاص[1].

خرج عبد المؤمن على رأس رجاله ، فاستولى على بلاد (تَادَلَة)[2] و (درعة) و (عُمارة) وتسابق الناس الى الدخول في دعوته أفواجاً . ثم صرف عزمه لفتح بلاد المغرب ، فخرج من (تِيْنَمَلّ)[3] سنة (٥٣٤ هـ) في حرب طويلة دامت سبعَ سنين ، فلم يرجع منها حتّى استولى على المغربين الأقصى والأوسط ، وألقت اليه (فاس) و (تِلمسان) و (مراكش) بالمقاليد أواخر سنة (٥٤١ هـ) ، وخلصت له مملكة المرابطين في المغرب بأجمعها .

وبدأ يهتم بأمر الأندلس ، فما عتّم أن قَدِمَ عليه وفدها وهو بمراكش للبيعة سنة (٥٤٢ هـ) ، وأرسل اليها جيشاً بقصد تمهيدها ومدافعة العدو

= وانظر أيضاً ما جاء عنه في تاريخ أبي يعلى (ذيل تاريخ دمشق) ص (٢٩١-٢٩٣) . وانظر أيضاً : الاسلام في المغرب والأندلس ص (٢٥٥ - ٢٧٨) .

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان (٢/٤٠٢ - ٤٠٥) .

(٢) تادلة : من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان . انظر معجم البلدان (٢/٣٥٢) .

(٣) تينمل : في معجم البلدان (٢/٤٤٥) وردت : تين ملل ، وهي جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر .

الذي انتهز فرصة الحرب بين الموحدين والمرابطين ، فأغار على أطراف البلاد [1] .

وطمح إلى الاستيلاء على بقية الشمال الافريقي ، وكانت دولة بني زيزي الصنهاجيين المعروفين ببني حمّاد ، تسيطر على القسم الشرقي بما فيه من ولايات جزائرية وتونسيّة ، إلا أنها قد ضعف أمرها وتطاول عليها الثوّار من عرب بني هلال ، وعدا النورمانديون وهم إفرنج صقليّة على السواحل ، فاحتلوا (صفاقُس) و (سوسة) و (المهديّة) ، ولقي السكان منهم هولاً عظيماً ؛ فتوجّه عبد المؤمن الى هذه الناحية سنة (٥٤٦ هـ) ومهّد أمرها باستيلائه على (بَجَايَة) و (قلعة حمّاد) و (قُسنطينة) ؛ ورجع الى المغرب ، ثم عاد اليها سنة (٥٥٤ هـ) بجيش جرّار ، فدخل (تونس) وضرب الحصار على (المهديّة) وهي من أمنع ما يكون ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ؛ فتركها محاصرة براً وبحراً ، ومضى يحتل (طرابلس) و (صفاقُس) و (سوسة) وجبال (نفوسة) وسائر بلاد إفريقية الى (برقة) . ثم سقطت (المهديّة) في يديه أواخر هذه السنة ، بعد هزيمة الاسطول الذي أتى لنجدتها .

ورجع عبد المؤمن الى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ، فلم يسترح إلا قليلاً ، ثم عبر البحر الى الأندلس سنة (٥٥٦ هـ) ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببنائه وتحصينه ، فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ، فوفد عليه قوادها وأشياخها ، فأمر بغزو غرب الأندلس ، فغزي وكان الظفر فيه للمسلمين [2] .

وعاد الى المغرب ، وأخذ في الاستعداد للجهاد ، فأمر بانشاء الأساطيل ، ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعُدَد . وحين

---

(١) في ابن الأثير (١١/٤٣) : أن ذلك حدث سنة (٥٤١ هـ) .

(٢) في تاريخ المن بالإمامة (١٤٧) ان عبور عبد المؤمن كان سنة (٥٥٥ هـ) .

كان على أتمّ أهْبَة ، وافاه الأجل المحتوم في جمادى الثانية سنة (٥٥٨ هـ) برباط (سَلا)[١] . وكان أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار المغرب العربي ، وتكوينه منها دولة قوية زرعت الرُّعب في قلوب الأعداء ؛ فحقّق بذلك أعظم أمل لا يزال يخالج نفوس الساسة والمهتمين بمستقبل هذه البلاد ، خصوصاً في العصر الحاضر .

وتولى من بعده ابنه يوسف[٢] ، فسار على أثره في الحزم والتدبير وإدارة مملكته الشاسعة الأطراف ، وكان له بالأندلس اهتمام خاص . جاز إليها جوازه الأول سنة (٥٦٧ هـ)[٣] ، فاستولى على شرقيّها ، وكان هذا الجزء من الأندلس لم يدخل في طاعتهم من قبلُ ، وحقّق أمل والده في غزو أرض العدو ، فكانت له فيها وقائع منصورة . وأقام بالأندلس يغزو ويعمّر البلاد ويشيّد الآثار مدّة خمس سنين ، ثم رجع إلى المغرب .

وخرج إلى افريقيّة سنة (٥٧٥ هـ) ، فتعهّد نواحيها بالإصلاح والتنظيم ، وعاد الى (مراكش) بعد أن قضى سنتين في رحلته هذه .

ثم جاز الى الأندلس جوازه الثاني سنة (٥٧٩ هـ) ، حيث أصيب في ساحة الشرف على أبواب (شَنْتَرِيْن)[٤] ، وتوفي في ربيع الثاني سنة (٥٨٠ هـ) .

وبويع هناك لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة في أيامه الى منتهى القوّة والعظمة ، وكان عهده العهدَ الذهبيّ للمغرب سواء من الناحية العمرانية أو الحضارية أو ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة .

---

(١) سلا : مدينة بأقصى المغرب . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٩٩) .
(٢) انظر تفاصيل عنه في : تاريخ المن بالامامة (٢٣١ – ٢٣٧) .
(٣) في تاريخ المن بالامامة (٤٣٨) : أن ذلك حدث سنة (٥٦٦ هـ) .
(٤) شنترين : مدينة متصلة الأعمال بأعمال (باجــة) في غربي الأندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر (تاجة) قريب من انصبابه في البحر المحيط . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٠٠) .

كان المنصور ينظر بنفسه في المظالم ، حتى إنه لينظر في قضية الدرهم والدرهمين ، ويُنْصِف من نفسه ، ويمتثل لحكم القضاة . وبقدر ما كان له من جولات مظفّرة في تثبيت السلطة بأقطار إفريقيّة ، كان لا يغفل عن الأندلس ويسهر على حركة الجهاد فيه .

وأهمّ عمل قام به لضمان استتاب الأمن في المغرب ، هو توطين عرب بني هلال في منطقتين آهلتين بالسكان والخيرات [1] ، فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها من السلطة ، بعدما يعيثون في الأرض فساداً ، وبذلك انحسمت مادّتهم ، وأفادوا في تعريب المنطقتين المذكورتين وما اتّصل بهما من مواطن البربر .

أما أجلّ أعماله في الأندلس ، فهي المعركة الكبرى التي خاضها ضد الفونس الثاني ملك (قشتالة) ، وتسمى غزوة (الأرك) [2] باسم الحصن الذي دارت حوله ؛ إذ هزم العدو هزيمة شنعاء ، وقتل من رجاله عدد كبير . وكانت هذه المعركة أختَ (الزلاّقة) في خضد شوكة الإسبان والتمكين للاسلام في أرض الأندلس إلى أمدٍ بعيد .

رابعاً : وتوفي المنصور سنة (٥٩٥ هـ) وخلفه ولده محمد الناصر [3] ، وكان كأبيه همّة ونجدة ، وشجاعة . وفي أوائل أيامه واجه ثورة ابن غانية عدو الموحِّدين القوي بإفريقية ، فانتصر عليه انتصاراً حاسماً وأراح البلاد من فتنته وعبثه . وبعث من مرسى (الجزائر) الى جزائر شرق الأندلس المعروفة بجزائر (البَلْيَار) فاقتحمها ، وكانت هي مَعْقِل بني غانية ، استقلوا بها منذ اضمحلال دولة المرابطين ؛ وباستيلاء الناصر عليها ، انهار آخر حصن للمرابطين كانوا يروِّعون به أمن السكّانَ في شرق الأندلس

---

(١) أعمرهم ناحيتي الحوز والغرب .

(٢) في معجم البلدان (١/١٩٥) : إنها أركون ، وهي حصن منيع بالأندلس .

(٣) انظر ابن الأثير (٤٢/٥٧) .

وإفريقية ويهدّدون منه سلامة الدولة الموحِّدية .

ومع أن هذا العمل الذي افتتح به الناصر مدّة حكمه يدلّ على توفيقه وحسن سياسته ، فانّ الحظّ خانه في المعركة التي جرت بينه وبين القوّات المتحدة للممالك النصرانية بالأندلس في صفر سنة (٦٠٩ هـ) وتسمى بمعركة (العِقَاب) [١] ، وكانت من المعارك الحاسمة التي عجّلت بسقوط الأندلس ، وأدالت بها للنصرانيّة من دولة الإسلام ، ثم كانت هي مبدأ سقوط دولة الموحدين وإن دامت بعدها أكثر من نصف قرن .

خامساً : هذا الاستعراض السريع لما بذله الموحدون من جهود جبّارة في سبيل إقرار الوحدة المغربيّة والدفاع عن تراث الاسلام في الأندلس ، لممّا يدلّ على عقيدة راسخة وإيمان قوي بالمهمّة السامية التي كان على المسؤولين في الدول الجديدة أن يضطلعوا بها . فما كانت دعوة المهدي إلاّ دعـوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعث روح القوة والعزم في نفوس المسلمين ، فينهضون للعمل بجد لحماية بيضتهم وحفظ كيانهم المادي والمعنوي . وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحدون لمقاومة القوّات الاسبانية الحليفة من ممالك (قشتالة) و (ليون) و (أراغون) التي تدفّقت على الأندلس معزّزة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوروبا يريدون سحق المسلمين . كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في (صقليّة) [٢] أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مُدُن الشاطىء الإفريقي واستولت على ثغر (المهديّة) [٣] أعظم حصن في هذا الشاطىء . فلولا قيام الدولة الموحديّة التي استطاعت أن توحّد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار إفريقيّة الشمالية هذه القوّة العتيدة التي حاربت في آن واحد في كلتا

---

(١) العقاب : موضع بين جيان وقلعة رباح ، قاله في الروض المعطار .

(٢) انظر الفتح النورماني في كتاب : العرب في صقلية ص (١٢٩ – ١٣٣) .

(٣) المهدية : مدينة بينها وبين القيروان مرحلتان . انظر التفاصيل في المشترك وضعاً (٤٠٩) .

الجبهتين : الأندلسيّة والإفريقيّة ، لعصفت القوات النصرانيّة ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين .

سادساً : من أهم الفوارق بين المرابطين والموحدين ، هو أن الموحدين قطعوا تلك الصلة التي تقرّ بتبعيّة المغرب لدولة الخلافة العباسية ، كما كان عليه الأمر في دولة المرابطين . ومن ثم فانهم لم يحجموا عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال وصف الخليفة نفسه ، ولعلّ ما شجّعهم على ذلك هو حكمهم للأندلس وإفريقية الشمالية جميعاً ، فضلاً عن ضعف الخلافة العباسية في ذلك العهد . كما تميّزت دولة الموحدين بالسيطرة التامة على كامل التراب المغربي من بلاد (نُول)[1] الى (برقة) . وكانت دولة بحرية قوية ذات اسطول عظيم يضمن لها السيادة المطلقة على البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، بحيث لم تكتفِ بحماية الشاطىء الإفريقي ، بل منعت تدفّق القوّات الصليبيّة القادمة من الغرب على سواحل الشام[2] .

إهتمّ الموحّدون بالأدب ، يدلّك على ذلك نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر[3] ، حتى عمّت البدو والحضر والعرب والبربر ؛ فأخصبت الأفكار وتفتّحت العقول وآتت الآداب والفنون أُكلها الشهيّ وثمرها الجنيّ[4] .

كما اهتموا بالعلوم الأدبية : النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسّير ، فقد اتّسعت في هذا العصر دائرة انتشارها ، والآثار الباقية منها

---

(١) نول : مدينة في جنوبي بلاد المغرب فيها قبائل من البربر . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٨) .

(٢) انظر التفاصيل في كتاب : النبوغ المغربي (١/ ٩٩ – ١١٠) . وانظر أيضاً تاريخ المغرب (١/١٢١ – ١٧٢) .

(٣) انظر ما جاء في كتاب : المن بالامامة (١٥١ – ١٧٠) من قصائد في مدح عبد المؤمن ابن علي .

(٤) النبوغ المغربي (١/١١٢) .

الآن تدل على أن هناك نهضة حقيقية ، كانت تتدرّج في هذه العلوم في مدارج التطوّر والتقدّم.

في علوم النحو ظهر النحاة الذين كان لهم مقام كبير ، فألّفوا الكتب التي ما تزال تُعرِّف بعلوّ قدرهم ، وتنبيء عن رسوخ قدمهم في هذا العلم ، كأبي موسى الجزولي صاحب الكراسة الشهيرة في النحو ، وتسمى أيضاً : المقدمة الجزوليّة ، وبعضهم يسميها : القانون والاعتماد. وكابن معطٍ صاحب الألفية النحوية التي عمل ابن مالك ألفيّته على مثالها . بل إنّ التفوق في هذا العلم أدّى الى وجود مدارس نحوية هنا وهناك ، تفرّدت بآراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره ، فهذه مدرسة (فاس) التي يختلف أهلها مع مدرسة (تلمسان) في مسألة صَرف أبي هُرَيرَة ، وهي مدرسة (سبتة) التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نُوِّنَت اضطراراً . الخ ..

ومثل النحو ، اللغة والعروض والبيان ، فقد كانت لها سوق رائجة ، وكان اللغويون المعنيّون بحفظ متن اللغة كاللغويين الباحثين في مسائلها ، يأتون بالطريف المعجب في تسمية الأشياء وتحقيق معاني الألفاظ [1] .

سابعاً : أما الحركة العلمية فلم تكن أقلّ حظّاً من الحركة الأدبية في عصر الموحدين.

لقد بُذرت بذور النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت على عهد الموحدين في عهد المرابطين.

فهذا علم الفقه على مذهب مالك ، قد واصل تفرُّعه وانتشاره كما كان قبلُ أو أكثر . ونتيجة للتفاعل مع الدعوة الجديدة ، فقد مال أهله الى الترجيح والتأويل ، ونبذوا التعصُّب لأئمتهم ومشائخهم ، وجعلوا البحث والنظر

---

(١) انظر التفاصيل في النبوغ المغربي (١/١٢٦ - ١٣٣) .

رائدهم في معرفة الحقائق وتقرير الأحكام ؛ فرجعوا بذلك الى أصوله ومصادره الأولى من الكتاب والسنّة وما إليهما ، حيث وجدوا من الدولة الموحديّة ميلاً إليها وتعضيداً لأهلها ، لكن من غير أن تحملهم الى ذلك حملاً وتلزمهم به قسراً ، حتى اشتطّ يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وتصلّب في تنفيذ خطّة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصد الإجهاز عليه ، فأحرق كتب المذهب وعوّضها بالصحاح العشرة [1] والمنتخب الذي اختاره منها .

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضييق خناق الحريّة الفكريّة وتقييد إرادة أهل العلم ، فإنه أفاد الحركة العلمية من الوجهة العامة فائدة جلىّ ، حيث جعل الناس يُقَلّلون من الإكباب على النظر في علم الفروع المجرَّد ، وينصرفون الى دراسة الفقه في أصليه العظيمين : الكتاب والسُنّة ؛ فظهر الإشتغال بعلم التفسير ، وعكف الناس على تفهّم كلام الله عزّ وجلّ ودراسته دراسة علمية صحيحة ، ونبغ المفسّرون العديدون [2] . كما انتشر علم الحديث روايةً ودرايةً ، وأقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة [3] .

وبما أن النظر الفقهي قد تطوّر ، فإن التصوّف لم يبق يُعَدّ منكراً كذي قبل ، ولم يبق الفقهاء على أهله تلك الصولة . فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية ، وانبثّت مذاهبهم المختلفة في الناس . والجدير بالذكر أن النهضة الموحدية أثّرت على العقول في الأندلس والمغرب

---

(١) هي البخاري ومسلم والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي .

(٢) أمثال : عبد الجليل القصري والحراكي والمزدعي . انظر ترجمتهم في النبوغ المغربي (١٤٧/١ – ١٤٨) .

(٣) من المحدثين : ابو الخطاب وأبو عمر ابنا دحية السبتي وابن القطان الفاسي ومحمد بن قاسم التميمي . انظر ترجمتهم في النبوغ المغربي (١٤٩/١ – ١٥٤) .

تأثيراً متشابهاً ، فأصبح الفكر الإسلاميّ في كلا القطرين محرَّراً من القيود التي كانت تجعله يثور لأقلِّ بادرة من الخروج عن دائرة المسلّمات والقواعد والرسوم المتعارفة . فشتّان بين عهد المرابطين الذي كان فقهاؤه في كل من الأندلس والمغرب يحرِّمون كتاب : الإحياء للغزالي وغيرها من كتبه ويحرقونها ، وبين هذا العهد الذي ينبغ فيه مثل ابن عربي[1] الحاتمي وينشر كتابه : الفتوحات المكيّة وغيره ، فلا يحرِّك الفقهاء ساكناً في سبيل الإنكار عليه ، مع عظم الفرق بين محتويات الإحياء ومحتويات الفتوحات .

كذلك علم الكلام ، أخذ حظّه الكامـــل من الانتشار ، فقد كان ابن تومرت يُلزم أصحابه بدراسته إلزاماً ، وكان الموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الاشعري بالأخص ، ليس له من الإسلام إلا الاسم ، ومن ثمَّ سموا أنفسهم بالموحدين ، ونبذوا المرابطين خصومهم بالمجسِّمين .. وألّف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللّسان العربي والبربري ، فتأثّر الناس خُطاه وصنّفوا في هذا العلم الكتب العديدة . وعلى كل حال ، فإنّ علم التوحيد أو علم الكلام ــ كما سُمِّي قديماً ، قد انتشر في هذا العصر ، وما كان قبله إنّما كان من قبيل المحاولات الأولى . ومثله علم أصول الفقه ، فقد تبوّأ من بين العلوم في هذا العصر مكاناً عالياً وجدَ من القرائح المغربيّة مجالاً خصباً لنموِّه وازدهاره .

والذي نريد أن نسجِّله هنا ، هو أنَّ المذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها ، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر[2] .

---

(١) انظر ترجمته في تأريخ الفكر العربي (٥٢٧ – ٥٣٦) .

(٢) لم ينس ابن تومرت قط ، وهو في غمرة واجباته الادارية كلها ، واجبه الرئيس كمصلح ديني ، وكان يعلق على مفهوم وحدة الله المطلقة أهمية بالغة الى درجة جعلته يطلق على أتباعه اسم الموحدين ، وقد حرف الإسبان هذا الاسم الى (Almohade) الذي عرفت به منذ ذلك الحين أبرز أسرة من أسر مراكش الحاكمة . انظر : الاسلام والعرب (١٤٣) .

وحين قلنا : إن الموحدين كانوا يدعون الى الاجتهاد ، فنحن نعني ما نقول خلافاً لما شاع من أنهم كانوا على مذهب الظاهريّة ؛ فان أحداً من مؤرخيهم لم ينقل ذلك عنهم ؛ وليس يكفي أن يظهر المنصور إعجابه بابن حزم [1] لنحكم بأنه وقومه على مذهبه ، كيف والذي ثبت من عمله أنه جمع من كتب السنّة أحاديث في العبادات كان يمليها على الناس ويجعل لمن حفظها الجعل السني ؟ فالأمر يتعلق بالدعوة الى العمل بالسنّة أكثر من الانتماء الى مذهب معيّن [2] .

كذلك وقع انتشار مذهب الأشعري [3] بعيداً عما شيب به من تعاليم غالية [4] .

ثامناً : أما العلوم من فلسفة وطب وهندسة وغيرها ، فقد انتشرت انتشاراً كبيراً لم تبلغه في أيِّ عصر آخر ، حتى لقد كان هذا عصرها الذهبيّ في المغرب . وكان الموحدون أشبه الدول الإسلامية بالعباسيين في الاهتمام بهذه العلوم وتنشيط رجالها . شجّع الموحدون أبا بكر محمد بن طُفيل [5] أحد فلاسفة الإسلام ، وله تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلاهيات . وشجّعوا أبا الوليد بن رشد [6] الذي لخّص كتب أرسطوطاليس ، ووضع

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان (٣/١٣ — ١٧) ، وانظر ما جاء عن المذهب الظاهري في تاريخ المذاهب الإسلامية (٢/٣٥٣) وانظر المحلى لابن حزم وضحى الإسلام (٢/٢٣٦ — ٢٣٧) ولوامع الأنوار (١/٦٧) .

(٢) وفي تاريخ المذاهب الإسلامية (٢/٤١٦) : ان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي هو الذي عمم العمل بالمذهب الظاهري . أما في المعجب في تاريخ المغرب فقد جاء: « أنه دعا الى السنة والى ترك التمذهب بمذهب مالك ، والعمل على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا الى شيء سواهما » . وهذا يدل على أن ما جاء في أعلاه هو الصحيح .

(٣) انظر ما جاء عن مذهب الأشعري في : تاريخ المذاهب الإسلامية (١/١٩١ — ٢٠٦) .

(٤) النبوغ المغربي (١/١٢٤) .

(٥) انظر ترجمته في المعجب (٣١١ — ٤١٣) .

(٦) انظر ترجمته في المعجب (٣١٤ — ٣١٦) .

لها شروحاً ، تلك الشروح التي قُدِّر لها أن تخلّف أثراً عميقاً في الفلسفة الغربية عامة [1] .

ولم تقصر الهمّة الموحديّة على أختها العباسيّة في التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلّفات الغريبة من سائر الجهات ، حتى لقد جمع يوسف ابن عبد المؤمن الألوف المؤلّفة منها ، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي في الأندلس . وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة ، لا يولّوها إلاّ للعلماء الأفذاذ .

تاسعاً : وفي أيام المرابطين استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة وتقدّم فنّ المعمار بتقدّم حركة البناء ، إذ بنى يعقوب المنصور مدينة رباط الفتح الفيحاء ، وقصبة مراكش وجامعه الفخم ، ومنار الكُتُبيّة العظيم بمراكش أيضاً ومنار حسّان الضخم بالرباط ومنار (الخيرالدة) بإشبيلية الذي هو من أعاجيب الدنيا . وأنشأ في جامعه بمراكش المقصورة والمنبر للذين يتحرّكان ذاتياً ، وكانا موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك ، وكانت المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف شخص . كذلك بنى عدّة مساجد ومدارس في كل من إفريقية والأندلس والمغرب ، ومنها المسجد الأعظم بمدينة (سلا) ، ومدرسته الباقية الى الآن شاهدة بأنّ هذا المسجد يضاهي القرويين في الضخامة والجودة ، وكان من معاهد العلم المقصودة حتى احتيج الى بناء مدرسة حوله ويعدُّ بناء المدارس في هذا العهد من مظاهر التقدّم العلمي ، وقد أصبح تقليداً متّبعاً حتى من أفراد الشعب .

وكان في مراكش بيت للطلبة ، وكان مثابة لأهل العلم من أصليين ووافدين ؛ وكان هناك وظيفة يسمى صاحبها : رئيس الطلبة ، وكان الموحدون يطلقون اسم الطلبة على أهل العلم عامة وأهل الحديث خاصة ، ولا يولّون

---

(١) انظر : الاسلام والعرب (١٤٤) .

منصب رئيس الطلبة إلاّ العلماء الراسخين في العلم .

ومما حلىّ به المنصور جيد أعماله التمدينيّة ، بناء المستشفى العظيم في مراكش الذي يقول فيه صاحب المعجب : « ما أظنّ في الدنيا مثله » ، ويقول : « ... وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نَقَهَ المريضُ فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلّ ، وإن كان غنياً دُفع اليه ماله وتُرِك وسَبَبَهُ ؛ ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مَرِض بمراكش من غريب حُمل اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت » ، وكان يزور المستشفيات كل إسبوعٍ [1] .

عاشراً : وفي أيام الموحدين تقدّم علم النبات والفلاحة فضلاً عن الطب والكيمياء ، وبستان المسرّة أعظم دليل على ذلك . وبستان المسرّة أحدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش ، طوله ثلاثة أميال ، وعرضه قريب من ذلك ، وكان فيه كل فاكهة تُشتهى ، وجلب اليه الماء من (أغمات) زيادة على ما استنبط له من العيون الكثيرة ، وأنشأ فيه صِهْريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرِّن فيه الجنود وشيوخ الموحدين على العوم والتجديف .

وفي أيامهم تقدّمت الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والتزويق وعمل الفسيفساء [2] .

وفي أيامهم كان الإدريسي في صقليّةيتقرى البلاد بحراً وبراً لأجل أن يؤلف كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعاً مهماً للمستكشفين وأرباب الرحلات

---

(١) المعجب (٣٦٤ – ٣٦٥) .

(٢) لا يزال أهل المغرب مشهورين بذلك حتى اليوم ، والشاهد على ذلك ما صنعوه من نقوش رائعة في جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه الواقع في ضاحية الأعظمية من بغداد .

ومصممي الخرائط والمصورات الجغرافية[1].

وكان للمرأة نصيب وافر في هذه النهضة الشاملة الكاملة، فقد كانت المرأة المغربية دائماً عنصراً فعّالاً في تطوّر البلاد وتقدّمها وازدهارها، فقد شاركت في الأعمال السياسية والأدبية، وقد برز منهن في علم الكلام وفي علم الرواية والحديث وفي الفقه وفي التصوّف وفي العلوم الأدبية والكتابة والشعر[2].

لقد كان عصر الموحدين عصر نهضة علمية كبرى[3].

ز - سيطر الموحدون على منطقة ممتدة من الصحراء الكبرى الى الأندلس، ومن المحيط الأطلسي الى حدود مصر الغربيّة، بيد أن ترامي أطراف هذه الدولة جعل إدارتها أمراً عسيراً، وساعد على نشوب الثورات ضدّها على نحوٍ أفضى بها آخر الأمر الى الانهيار. والواقع أنّ كثيراً من الخدمات أسدتها دولة الموحدين الى المغرب، وهذه الخدمات هي ثمرة مباشرة للحكم المستنير الذي عرفته البلاد في عهد المنصور وسلفه عبد المؤمن. من هذه الخدمات دمج العناصر البربرية والعربيّة في الجيش في وحدة رصينة تخضع للعقيدة الواحدة لا للعنصر الواحد، ومنها نظام الإدارة الإقليمية الممتاز الذي وطّد أركان الدولة ومنحها الإستقرار.

بنو مَرِين :

ح - لم تكد تنقضي على وفاة يعقوب المنصور سنوات قليلة حتّى شرعت قبيلة بربريّة بدوية شجاعة، هي قبيلة بني مَرِيْن، تغزو المنطقة التي تشكّل

---

(١) انظر التفاصيل عن الإدريسي ومؤلفاته في كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي (١/ ٢٨١-٢٩٥).

(٢) النبوغ المغربي (١/ ١٤٤).

(٣) انظر التفاصيل في النبوغ المغربي (١/١١٨ - ١٤٥) وانظر أيضاً تاريخ المغرب (١/ ١٤٥ - ١٥١) و (١/١٦١ - ١٧٢).

اليوم جمهورية الجزائر .

وبنو مَرِيْن قبيلة من قبائل (زَنَاتة)[1] مثل (مَغْرَاوَة)[2] وبني (يَفْرَن)[3] ، وكانوا يسكنون في هذا العصر في الصحراء وهي من القبائل الرحّالة . وكان الموحدون إذا أرادوا أن يحاربوا أعداءهم يستعينون ببني مرين ، فقد كانوا مع يعقوب المنصور في الأندلس ، وخاضوا معه معركة (الأرك)[4] .

وكان زعيمهم الأمير عبد الحق بن محيو ، وإليه يرجع الفضل في تأسيس دولة بني مرين ، وقد مات سنة (٦١٤ هـ) ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة : أبو سعيد عثمان ، مات سنة (٦٣٨ هـ) ، وأبو معروف محمد ، مات سنة (٦٤٢ هـ) ، وأبو بكر بن عبد الحق ، مات سنة (٦٥٦ هـ) ، ويعقوب ابن عبد الحق ، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار ملك المغرب سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، ومن هذا التاريخ إبتدأ عصر بني مرين واستمرّ حتى سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٣ م) .

وقد اتّخذ المرينيون في الأندلس رُبطاً وجنوداً لمناوشة الإسبان في القتال ، وكان أول جيش ذهب منهم اليها في أيام يعقوب بن عبد الحق الذي جاز هو نفسه الى الأندلس أربع مرّات ، فكانوا يستولون فيها على الحصون والمدن العديدة ، ولكنهم يزفّونها هدية الى بني نصر[5] أصحاب الأندلس .

وقد استنفدت محاولات بني مرين الحربيّة المتكررة للاستيلاء على الجزائر وتونس قوّتهم العسكرية ، فقامت قيامتهم بالتهالك على السلطة وتنازع

---

(١) أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٩٥) . وفي صبح الأعشى (٣٦٢/١) : أن زناتة بكسر الزاي وفتح النون . وانظر نهاية الأرب للقلقشندي (٢٧٣) .

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب (٤٩٨) .

(٣) انظر جمهرة أنساب العرب (٥١ و ٤٩٨) .

(٤) انظر تفاصيل هذه المعركة في المعجب (٣٥٨ – ٣٦٠) .

(٥) بنو نصر : هم بنو الأحمر الذين كان منهم آخر ملوك الأندلس .

الإمارة فانتهى الأمر بسقوطهم وانتصاب دولة بني وطّاس[1] ، غير أنهم ليس فيهم غَنَاؤهم ، فضعفت الأمة واشتغلت بمشاكلها الداخلية وحروبها الأهلية . وفي هذه الأثناء كانت النداءات تتوالى —على العادة— من أهل الأندلس على المغرب ، وهو لا يستجيب لنداء ، لأنه كما علمت منتحر مضرّج بالدماء ، حتى حصلت الكارثة ونفذ سهم القضاء ، وفقد المسلمون الأندلس .

وفي عهد المرينيين وُفِّق البرتغاليون الى اكتساب موطىء قدم لهم في عدّة مدن ساحليّة من المغرب : في سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) احتلوا مدينة (سبتة) ، وفي سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٧ م) احتلوا مدينة (قصر المجاز) التي تسمى أيضاً : (قصر مصمودة) والتي كانت أقرب الموانىء المغربيّة الى الأندلس ، وفي سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤ م) احتلوا مدينة (طنجة) . ومنذ سنة ٨١٨ هـ والمغاربة في صراع عظيم مع البرتغاليين ، وقد دام هذا الصراع (٢٦٤) سنة ، إذ انتقم المغاربة من البرتغاليين وطردوهم سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) من آخر حصونهم .

هكذا أصبح الطالب مطلوباً ، وأصبح الحاكم محكوماً ، وأصبح السيد مسوداً ، وتلك هي عبرة تفسُّخ الحكم في عهد المرينيين .

وعلى الرغم من أنّ انتصارات المرينيين العسكريّة لا تضارع انتصارات الموحدين ، فقد تركت الدولة الجديدة طابَعَها المميِّز على الثقافة المغربيّة . وقد أسند المرينيون الى المؤرّخ ابن خلدون الوزارة ومنصب المدوِّن للتاريخ المغربي في بلاطهم . وبين المدارس الكثيرة التي بنوها مدارس فاس الجميلة . لقد شجّعوا التأليف ، وجمعوا الشرائع الدينيّة ونسّقوها ، وأنشأوا خزائن الكتب لا سيما خزانة القرويين التي أنشأوها سنة (٧٥٠ هـ) —كما خلعوا على الأعياد الدينيّة — التي لعبت ولا تزال تلعب في الحياة المغربيّة — شكلها

(١) فرع من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق .

الأخير . إنّ جانباً كبيراً من عادات المغاربة المصقولة في حضارة مدنهم وفي أعرافهم — على العموم — مردّه الى المرينيين[1] .

السعديون :

هـ — وجاء دور السعديين[2] في المغرب من سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٣ م) الى سنة ١٠٦٩ هـ (١٦٥٨ م) ، وهذه الدولة هي الدولة العربية الصريحة الثانية التي قامت في المغرب بعد الأدارسة ، بل هي الدولة العلوية الثانية بقطع النظر عما أرجف به خُصُومُها من الطّعن في نسبها . وهي لم تستند في قيامها الى (مهدويّة) ولا الى عَصَبيّة ، وإنما من أول الأمر كان منهاجها لتحقيق أمنية وطنية ، هي تنظيم قوات الجهاد وقيادتها لطرد الأجانب الذين احتلوا شواطىء البلاد . والعجيب أنّ البربر نصروهم على دولة بني وطّاس البربرية ، فلم ينظروا الى ما تقتضيه عصبيّة النسب والقومية من الإحتماء لهم والدفاع عن سلطانهم أن يزول .

لقد زاغت دولة بني وطّاس عن الصراط المستقيم ، واشتغلت بالتهالك على طلب السلطة ، وظنّت الملك هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال ، من غير نظر في مصالح الرعيّة ولا اهتمام بتحصين البلاد من هجمات العدو . فسرعان ما اختلّت الأمور ، وتعرّضت الأمة لشقاء الاحتلال وتحكّم الأجنبي فيها ، فكثرت إغارة البرتغاليين على الشواطىء ، واحتلّوا منها ما احتلّوا ، وأخذوا يُعدُّون العُدّة لضمّ أطراف المغرب بعضها الى بعض ، فكيف لا يتّحِدُ البربر والعرب على رفع هذا العار

---

(١) انظر التفاصيل في النبوغ المغربي (١/١٨٣ — ١٨٧) والإسلام والعرب (١٤٥ — ١٤٦) .

(٢) يسمون بالسعديين ، لأن المغاربة كانوا يتفاءلون بهم في حروبهم على البرتغال ، فهم ينسبون الى (السعد) ، أي الى الحظ .

عنهم وتلافي الخطر المُحيق بهم؟

دبّت عوامل الانحلال في جسم الدولة الوطّاسية ، وأخذ الضعف منها مأخذاً عظيماً ، فَقَصُرَت سلطتها على حواضر المغرب ، ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد النائية . وقد استنفذ مجهودَها واستفرغ قوّتها ما كان قائماً بين أفرادها من التنازع على نيل السلطة والإستبداد بصوبلجان المُلك ، ثم ما كانت تُعانيه من قتال العدو بالثغور المحتلة ، وخصوصاً القريبة من عاصمة الدولة (فاس) ؛ فلم يعد لديها قوّة كافية تمكّنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسيّة البعيدة حيث طغى سيلُ المستعمرين البرتغاليين ، لمّا عرفوا أنهم بمنجىً من طلب رجال الدولة وتعقُّب آثارهم ، ولذلك أخذوا في بناء المعاقل والحصون ، فضاق المسلمون بهم ذرعاً وغصّوا بمكانهم من تلك البلاد ، وساءهم أن يكون عبيدهم بالأمس أسيادهم اليوم .

وأخذ (المَصَامِدة) يبحثون عن شخص يقودهم ، فأُرشدوا الى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله[1] ، وكان مقيماً بـ (دَرْعَة) ، فبعثوا اليه فقَدِم عليهم . واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه ، فكان هو واضع الحجر الأساس في بناء الدولة الشامخ . وقد ساعده الحظّ وكُتِبَ له الظفر ، فأجلى الأعداء عن أرض الوطن ، وزحزح قدمهم التي كانت قد رسخت فيها ، فتيمّنَ المسلمون بطلعته وتفاءلوا بطائره[2] . وظلّ هذا الشريف يتزّعم قبائل السوس ويجاهد في سبيل الله ، إلى أن مات سنة (٩٢٣ هـ).

وخلّف ولدين ، وكان أبو العبّاس أحمدُ الأعرج أكبرهما ، فبايعه الناس بعد والده ، وقد حارب البرتغاليين وانتصر عليهم ، وفي سنة (٩٣٠ هـ)

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن ، وأول من هاجر من الحجاز الى المغرب جدهم أحمد بن محمد ابن القاسم في سنة (٦٦٤ هـ) ، ونزل درعة وتزوج هناك وخلف أولاداً . وانتقل احد جدودهم من درعة الى بلاد السوس، وهو علي بن مخلوف الذي كان فقيهاً يشتغل بالتعليم ، فبنى له أهل هوارة زاوية .

(٢) لذلك اطلقه عليهم المغاربة : السعديين ، تيمناً بهم في حروبهم البرتغاليين .

دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين . وفي سنة (٩٤٠ هـ) اتّفق مع الوطّاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون للأشراف السعديين من (تَادَلَة)[1] الى (السوس) ، وللوطّاسيين من (تَادَلَة) الى المغرب الأوسط .

ونهض الأخ الثاني أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي واستولى على الملك من أخيه وألقى القبض عليه سنة (٩٦٠ هـ) ، فاستطاع أن يقضي على الوطّاسيين سنة (٩٦١ هـ) ويدخل مدينة (فاس) ، فصفا له ملك المغرب ، ولكنه قتل سنة (٩٦٤ هـ) .

وتولّى الملك بعده ابنه عبد الله الغالب ، فحارب الأتراك والبرتغاليين ، وتوفي سنة (٩٨١ هـ) ، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل[2] . وكان لعبد الله الغالب أخوان تغرّبا بالجزائر مدّة توليته المُلْك خوفاً على نفسيهما منه ، وهما الغازي أبو مَرْوَان عبد الملك المعتصم بالله ، وأبو العبّاس أحمد المنصور الذهبي . فحين سمعا بوفاة أخيهما واستيلاء ابنه على الملك ، لم يَرْضَيَا ووثبا ودبّرا بينهما خطّة الدفاع عن حقّهما المغتصب ، فسافر الغازي أبو مروان الى القسطنطينية ومثل بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب اليه أن يمدّه بجيش يدخل معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه ، فلم يُجبه الى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الإسبان يهاجمونها في ذلك الحين ؛ فبقي هناك حتى جهّز السلطان حملة سِنان باشا التي انتزعت تونس من أيدي الإسبان ، فصحبها أبو مروان وأبلى فيها بلاء حسناً ، ثم كان هو أوّل من أبلغ بشارة الفتح الى السلطان ، فجازاه على ذلك بأن أمر كتيبة من الجيش التركي الجزائري يبلغ عددها أربعة آلاف رجل ، فدخلت معه المغرب .

وما أن شارف (فاس) حتى خرج اليه ابن أخيه ، لكنّ جيش هذا

(١) تادلة : من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٢/٢) .

(٢) يسميه المغاربة : المسلوخ ، والأوروبيون : الأسود .

انضمّ الى عمه : وكان الغازي يكاتب القوّاد والوزراء أيام مُقامه بالجزائر ويعدُهم ويمنّيهم ؛ فلما جاء كانوا كلهم على هواه ، فانقادوا اليه .

وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣ هـ) ، فأدخل عدّة إصلاحات على الإدارة والسياسة ، كان أهمّها ما كان مختصاً بتنظيم الجيش ، حيث اقتبس سائر نُظم الجندية العثمانية . وقد استطاع أن يتّحد مع العثمانيين وجعل منهم أصدقاء مخلصين للمغرب . وكان من نتائج اصلاح الجيش ، انه قهر جيش البرتغاليين الذي كان تعداده مائة ألف جندي[١] في معركة (وادي المخازن) الفاصلة[٢] وذلك في جمــادى الأولى سنة (٩٨٢ هـ) . ولكنّ بطل هذه المعركة عبد الملك بن محمد الشيخ لم يكتب له أن يشاهد نتيجتها ، لأنه تُوفي أثناء المعركة محموماً ؛ فلما انكشفت المعركة عن اندحار العدو ، وجد الناس سلطانهم قد توفي ، فبايعوا اخيه وخليفته ورفيقه في غربته السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذهبي .

كان المنصور عالماً الى درجة الاجتهاد ، وكان أديباً شاعراً كاتباً ، وكان سياسيّاً محنّكاً وشجاعاً وإدارياً منظماً ومصلحاً اجتماعياً كبيراً . وبالجملة ، فلقد اجتمعت فيه أوصاف الزّعامة وأشراط الإمامة .

ومن أعماله الخالدة ، أنه كان له مجلس شورى ، فكان قد اتّخذ يوم الأربعاء من كل اسبوع للمشورة وسمّاه : يوم الديوان ، فكان يجتمع في هذا اليوم المفكرون برئاسته ويبحثون القضايا التي تحتاج الى تفكير ودراسة .

العلويون :

ي – كان عصر العلويين من سنة ١٠٧٩ هـ (١٦٦٨ م) وهم لا يزالون يحكمون المغرب حتى اليوم ، ويمكن تقسيم فترة حكمهم الى :

---

(٣) كان هذا الجيش مؤلفاً من البرتغاليين والأسبان والألمان والايطاليين والسويسريين والفرنسيين بقيادة ملك البرتغال سبستيان (Sebostiân) .

(٤) أنظر تفاصيل هذه المعركة في تاريخ المغرب (٢/١٩ – ٢٢) .

أولاً – عصر التأسيس (١٠٧٩ هـ – ١١٣٩ هـ)

إنتثر عقد الدولة السعديّة وتقلّص ظلّها في المغرب ، إثر اشتداد النزاع وشبُوب الحرب بين أولاد المنصور الذّهــبي في طلب العرش والفَوْز بصَوْلجان الملك . وكان قد أمِرَ أمْرُ الدِّلائيين أهل الزاوية التي أسّسها الشيخ أبو بكر الدِّلائي [1] ؛ فاشتهرت بإيواء الطلبة ونشر العلم وإحياء رسوم الدين ، زيادة على بذل الطعام للصادر والوارد ، وإعانة المحتاجين وإغاثة الملهوفين ؛ فاغتنم رئيسها في هذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلائي حفيد الشيخ أبي بكر المذكور ، فرصةَ ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد ، فزحف الى (مكناس) و (فاس) فتملكهما ؛ ولم يلبث أن أسّس الدولة الدلائية التي قاومها محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين ، ولكنّه لم ينل منها ، إذ حصل الصلح بينه وبين الرئيس الدلائي .

ولما توفي محمد بن الشريف ، تولىّ أخوه رشيد ، فلم يَرْضَ بتقسيم المغرب ، وتقدّم واستولى على جُلّ بلاد المغرب ؛ ثم ظهر على الدلائيين وتتبّعهم حتى كاد يُفنيهم . وقصد زاويتهم فأوقع بها الواقعة الحاسمة وشرّد بأهلها ، فصفا له مُلك المغرب ، ولم يبقَ له منازع فيه وذلك سنة (١٠٧٩ هـ).

وتوفي رشيد بن الشريف سنة (١٠٨٢ هـ) ، فتولى بعده أخوه السلطان المظفّر أبو النصر اسماعيل بن الشريف ثالث سلاطين هذه الدولة وأعظمهم شهرة وأجلّهم قدراً . كان اسماعيل عاملاً لأخيه على بلاد المغرب ، ومتوطناً بمدينة (مكناس) التي صارت عاصمته من بعدُ . فلما تَمّتْ مبايعته نهض لتمهيد البلاد وإخضاع مَنْ كان خارجاً على الطاعة من أهل (السوس) وقبائل البربر ، فاستنزلهم جميعاً من صَياصيهم ، ولما طلبوا منه الأمان أجابهم الى ذلك ليتفرّغ الى منازلة الأجانب المُحْتَلّين لشواطيء المغرب ، والمستولين

---

(١) لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن ، وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية وادي أم الربيع قريباً من تادلة . انظر النبوغ المغربي (١/ ٢٦٩) .

على أهم ثغوره منذ اضطراب أحوال الدولة السعديّة . فسار الى (المهدية)[1] واستخلصها من يد الإسبان ، سنة (١٠٩٢ هـ) ، وطرد الإنكليز من (طنجة) سنة ١٠٩٥ هـ) ، وأرسل جيشاً كثيفاً الى (العرائش)[2] ففتحها سنة (١١٠١ هـ) ، كما فتح مدينة (أصيلا)[3] سنة (١١٠٢ هـ) ، ثم حاصر (سبتة) في عشرين ألف مقاتل ، كما حاصر مدينة (مليلة) ، وشدّد عليها الحصار مدّة طويلة . وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان واستولى عليها ، فامتدّت حكومته اليها جنوباً ، وشرقاً الى (بَسْكرة) من بلاد المغرب الأوسط ، وبذلك اتسعت مملكته وعظم صيته وهابه ملوك أوربا فمن دونهم . ويرجع الفضل في هذه الفتوحات الى جيش الريف الذي كان تحت قيادة القائد المشهور علي بن عبدالله الريفي الذي مات في حصار (سبتة)، وكان من أعظم القادة في هذا العصر .

وعاش مولاي إسماعيل كثيراً ، فقد مات سنة (١١٣٩ هـ) بعد أن بقي في الملك مدة سبع وخمسين سنة كانت من أحسن أيام المغاربة .

ثانياً ــ عصر نفوذ البَوَاخِرَة[4] (١١٣٩ هـ الى ١١٧١ هـ)

وما أن انتقل الى رحمة الله مولاي إسماعيل ، حتى قام خلفاؤه فنسفوا

---

(١) المهدية : مدينة منسوبة الى عبيد الله المهدي ، بينها وبين القيروان ستون ميلا تقطع بمرحلتين وهي بإفريقية (تونس) . والمهدية مدينة أخرى اختطها عبد المؤمن بن علي قرب (سلا) وهي المرادة واسمها (المعمورة) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٠٥) والبكري (٢٩) وخريطة المغرب للمكناسي .

(٢) العرائش ، مدينة على البحر المحيط جنوب مدينة ليكسوس . وهي مدينة إسلامية استولى عليها الاسبان سنة (١٦١٠ م) وحررها منهم مولاي اسماعيل العلوي سنة (١٦٨٩ م) . انظر خريطة المغرب ص (١٩) .

(٣) أصيلا : مدينة على البحر المحيط بين طنجة والعرائش .

(٤) البواخرة : جمع بخارى ، جمعه المغاربة بهذا الجمع ، والبخاري : واحد من هؤلاء الجنود السود . وجيش البواخرة : كونه مولاي اسماعيل من بقايا العبيد الذي أتى بهم المنصور الذهبي من السودان الى المغرب وسماهم: عبيد البخاري ، لأنه لما نظمهم وجمعهم أخرج اليهم=

بتنازعهم ذلك البنيان الشامخ نسفاً ، وبدّلوا أمن الدولة خوفاً وقوّتها ضعفاً . وقد دام هذا العصر اثنتين وثلاثين سنة كانت غاصة بالفوضى والاضطراب ، وشاهد فيها المغاربة كثيراً من المصائب والأهوال .

صارت الكلمة لرؤساء جيش البواخرة ، وصاروا يتصرّفون في المغرب كيف يشاءون ، وكان أغلب الملوك خاضعين لهؤلاء البواخرة إلاّ واحداً منهم هو مولاي عبد الله[1] ، فإنه نشب بينه وبينهم صراع عنيف أدّى في الأخير الى تغلّبه عليهم وإضعافهم .

وقد خسر المغرب في هذا العصر كثيراً من النفوس والأموال ، وارتبكت أموره أيّما ارتباك .

ثالثاً – عصر الإصلاح (١١٧١ هـ الى ١٢٠٤ هـ) :

وتولى محمد بن عبد الله بن اسماعيل المغرب ، وهو فخر المغرب وباعث نهضته ومجده من بين الأنقاض . وقد اجتمع عليه الناس بعد أبيه فبايعوه لما ظهر منه في أيام ولايته على مراكش في عهد أبيه من حسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي ؛ فلم يلبث أن ضرب على أيدي أهل الفساد ، وساح في أنحاء البلاد متفقداً لأمورها ، مستصلحاً لأحوالها ، فاجتمعت على محبته القلوب ، وأخلصت له الضمائر .

ثم أخذ يجدّد ما درس أو كاد من آثار عظمة المغرب : حصّن العواصم والثغور ، وشيّد بها الأبراج والمعاقل المنيعة ، وشحنها بالمدافع والجنود ، واستكثر من إنشاء السفن الحربيّة وتدريب البحّارة على العمل فيها ، وأجرى

= كتاب : صحيح البخاري، وقال لهم : « أنا وأنتم ندافع عن السنة النبوية التي جمعها الإمام البخاري في هذا الكتاب » . انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (٢/٥٤ – ٥٥) .

(١) هو عبد الله بن اسماعيل تولى لأول مرة سنة (١١٤١ هـ) وعزل وتولى مرات ، ومات سنة (١١٧١ هـ) .

تمارين عمليّة[1] للجيش والأسطول في عرض بحر الزّقاق وسواحل المحيط.

وبنى مدينة (الصّويرة)[2] واعتنى بها غاية الإعتناء، وقد جاء مرساها غاية في حسن البناء.

وعقد عدّة معاهدات مع ملوك أوربا وغيرها كلها في صالح المغرب، وكان من أعظم أنصار الدولة العثمانية وأصدق محبيها، فلما وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في أيام السلطان عبد الحميد الأول الذي تولى بعد السلطان مصطفى الثالث، بادر مولاي محمد فأرسل الى السلطان سفيراً بهدايا نفيسة وعرض عليه استعداده لكل ما يطلب منه من المعونة، وطرد سفيراً لروسيا الذي كان بـ (طنجة) وقتئذٍ لما بلغه الحرب المذكورة.

وعقد صداقات متينة مع ملوك وأمراء المسلمين، وكان حريصاً على تمتين الروابط الدينية بينه وبين ملوك الإسلام..

وتوفي مولاي محمد بن عبد الله سنة (١٢٠٤ هـ)، فاضطربت الأمور في المغرب.

لقد كان رجل علم وسياسة وحرب، وكان يحبّ المغاربة كثيراً ويحبّونه كثيراً.

رابعاً ــ عصر الجمود (١٢٠٤ هـ الى ١٢٧٦ هـ)

دام هذا العصر اثنتين وسبعين سنة قضاها المغاربة في الجهل والتأخّر والرجوع الى الوراء، في حين كانت دول أوربا في ازدهار؛ فصار المغرب ضعيفاً أمام الأوربيين.

وقد تربّع على عرش المغرب في هذه الفترة ثلاثة ملوك هم: مولاي

---

(١) مناورات أو كما يطلق عليها في بعض جيوش الدول العربية: مشاريع تدريبية.

(٢) الصويرة: مستعمرة فينيقية قديمة، تقع على البحر المحيط، أسس عليها محمد بن عبد الله الصويرة سنة ١٧٦٤ م.

اليزيد بن محمد (١٢٠٤ ه الى ١٢٠٦ ه) ، ومولاي سليمان بن محمد (١٢٠٦ه الى ١٢٣٨ ه) ، ومولاي عبد الرحمن بن هشام (١٢٣٨ ه الى ١٢٧٦ ه) .

وعلى العموم لم يكن في هذه الفترة اهتمام جديّ بالإصلاح أو بالجيش .

خامساً – عصر الامتيازات الاوربيّة (١٢٧٦ ه الى ١٣٣٠ ه)

دام هذا العصر مدّة أربع وخمسين سنة قضاها المغاربة في الجهل والجمود والانحطاط والتأخر ، فأصبح لفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وألمانيا والولايات المتحدة امتيازات في المغرب ، ودخل كثير من المغاربة تحت حكم الدول الأوربيّة ؛ ففقد المغرب في هذا العصر استقلاله الكامل ، وصارت دول أوربا تتنازع على خيرات المغرب .

وقد تربّع على عرش المغرب في هذا العصر أربعة ملوك : أولهم مولاي محمد بن عبد الرحمن (١٢٧٦ ه الى ١٢٩٠ ه) ، وفي أيامه نشبت الحرب بين إسبانيا والمغرب سنة ١٢٧٦ ه (١٨٥٩ م) ، فاحتل الإسبان (تطوان) وكان من ضمن شروط الصلح بين الطرفين : « **أن يسمح للرهبان ببناء كنيسة بفاس** » [١] . **وفي أيامه ظهرت مشكلة اليهود في المغرب ، إذ صاروا يطلبون من الأوربيين أن يحموهم ، وحاولوا بكل قوّة أن يحصلوا على امتيازات في المغرب ، وظهر منهم تطاول وطيش وتعدٍ على الناس** [٢] .

وملك المغرب بعد وفاة مولاي محمد بن عبد الرحمن ولده مولاي الحسن (١٢٩٠ ه الى ١٣١١ ه) ، وكان صالحاً قويّ الإرادة مخلصاً لدينه ، وكان

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (٢/٨٥ – ٨٩) ... انتبه رجاء ... هكذا بدأ الاستعمار يحطم الإسلام وحضارته باسم التمدين ... وتحت شعارات أخرى ... لقد بدأ (الغيم) الذي نزل منه ما نعانيه اليوم من (مطر) ...

(٢) إنتبه مرة ثانية رجاء . لقد عاشوا في حماية المسلمين قروناً طويلة ، فلما ضعف المسلمون أظهروا كيدهم وعداوتهم .

مثقفاً ثقافة دينيّة ، وكان رجل حرب وسياسة ودهاء . وقد قضى على الذين كانوا يثورون بأبيه من المغاربة ، فكان عهده عهد أمنٍ وسلام . كما استطاع أن يوقف الدول الغربية عند حدّها ، وحاول بكل قواه أن تتنازل الدول الأوربية عن امتيازاتها ، فبعث الوفود اليها واكتسب احترامها ، وحافظ على استقلال المغرب .

وقد حصّن شواطىء المغرب ، ونظم الجيش المغربي ، وانشأ معملاً للسلاح بفاس ، واقتنى مراكب بحرية للدفاع عن شواطىء المغرب ، وكان في علاقته مع دول أوربا دائم التيقظ والحذر ، وكان عازماً على ربط أنحاء مملكته بخطوط سكك الحديد وإنشاء المواصلات اللاّسلكية والسلكية ، إلاّ أن المنية عاجلته قبل أن يحقِّق أمل رعيّته فيه ، فمات مأسوفاً عليه [1] .

وتولى المغرب بعد أبيه مولاي عبدالعزيز بن الحسن (١٣١١ هـ الى ـ ١٣٢٥ هـ) ، وكان عمره ثلاث عشرة سنة ، وقد دام في الملك أربع عشرة سنة ؛ فضعفت الدولة في أيامه لصغر سنه ولأنه لم يكن كأبيه حنكةً ودهاءً . فقد اقترض من فرنسا لإخماد ثورة أبي حمارة الجيلالي بن إدريس الروكي ، وأعطى الحقّ لفرنسا في التدخّل في مالية المغرب ، فكان هذا التصرف سبباً في الأحداث الكبرى التي وقعت في هذا العهد ، وهي احتلال (وجدة)[2] و (الدار البيضاء) .

وقد استطاعت فرنسا أن ترضي جميع الدول الأوربية ذات المطامع في المغرب إلا ألمانيا ، فاشتد الصراع بين ألمانيا وفرنسا على المغرب ، فزار الإمبراطور غليوم الثاني مدينة (طنجة) سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) وصرّح بما يأتي : « أنا أقوم بزيارتي هذه لملك مستقل أتمنى أن تبقى سلطته

---

(١) انظر التفاصيل في النبوغ المغربي (١/٢٦٩ – ٢٧٣) وتاريخ المغرب (٢/٨٣ – ١٠١) .

(٢) وجدة : مدينة بالمغرب تقع غرب تلمسان بينهما ثلاث مراحل ، وهي بعيدة عن الساحل بمسافة قدرها أربعون ميلا . انظر التفاصيل في البكري (٨٧) .

العليا حرّة ويصبح المغرب مفتوحاً للتدخل السلمي من جميع الأمم دون احتكار أو امتياز على أي شكل من الأشكال » ، ثم غادر هذا الإمبراطور مدينة (طنجة) بعدما أحدث في العالم بهذا التصريح رجّة كبرى .

وعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء في إسبانيا سنة (١٩٠٦ م) ، فكان من جملة ما اتفق عليه المؤتمرون[1] : منع إدخال السلاح للمغرب ، ومنع الحكومة المغربية من شرائه إلا بموافقة الدول الأوربية ! ! !

أدت تلك الأحداث إلى إشاعة الفوضى في المغرب ، فقرّر كثير من المفكرين والعلماء وأهل الرأي أن يخلعوا مولاي عبدالعزير ويبايعوا أخاه مولاي عبدالحفيظ بن الحسن (١٣٢٥ هـ — ١٣٣٠ هـ) الذي كان خليفة لأخيه على مراكش ؛ فبايعه أهل مراكش يوم الجمعة ٦ رجب ١٣٢٥ هـ ، فجمع عبدالعزيز جيوشه للقضاء على حركة عبدالحفيظ ، ولكنّ القبائل[2] حاربته وهو في طريقه من (فاس) الى مراكش وهزمت جيشه . وفي طريق عودته الى (فاس) بلغه أن أهلها خلعوه وبايعوا أخاه ، فترك المغرب ونجى بنفسه وأهله لاجئاً الى الفرنسيين ، وقد استقر في (طنجة) الى أن وافاه الأجل سنة (١٣٦٢ هـ) .

واقترض عبد الحفيظ مائة مليون فرنك ذهبي من فرنسا ، فتم بذلك لفرنسا الاستيلاء على مالية المغرب كلها ؛ واتفق مع فرنسا على أن يكون رئيس بعثتها العسكرية رئيس الجيش المغربي فأصبح بذلك الجيش المغربي تحت نفوذ فرنسا ؛ كما اتفق مع فرنسا على أن يصبح على رأس إدارة الأشغال العامة مهندس فرنسي ، وبذلك صارت فرنسا المتصرفة لشؤون المغرب الحيوية .

ولما وصلت حالة المغرب الى هذا الدرك من الإضمحلال ، ثارت

---

(١) المؤتمرون من : المغرب وألمانيا والنمسا وبلجيكا والدانمارك وإسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإنكلترا وإيطاليا وهولندا والبرتغال .

(٢) قبائل الشاوية .

القبائل المغربية محاولة خلع عبدالحفيظ عن العرش المغربي ، فنصحته فرنسا بأن يستدعي الى (فاس) الجيش الفرنسي للقضاء على ثورة القبائل ، فوافق السلطان على استدعاء الجيش الفرنسي ؛ فدخل هذا الجيش مدينة (فاس) سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) ، ودخل الجيش الإسباني (العرائش) أيضـــاً .

وقّع عبدالحفيظ على معاهدة الحماية في ٣٠ نيسان ١٩١٢ تحت التهديد السياسي والضغط العسكري ، فأصبح المغرب تحت الحماية الفرنسية . ولكنّ عبدالحفيظ ظلّ يحارب معاهدة الحماية حرباً لا هوادة فيها ويضع أمامها كلّ ما يستطيع من العراقيل والعقبات ، وتنازل عن العرش ففارق (فاساً) في ٢٠ جمادى الأخيرة سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) متنازلاً لأخيه مولاي يوسف ، فأعلن ذلك يوم الاثنين ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) . وفي نفس الوقت غادر عبدالحفيظ الرباط مولياً وجهه شطر طنجة ، ومنها قصد أوربا ومكث هناك الى أن مات في فرنسا سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .

وهكذا سجل التاريخ أنّ مولاي عبدالحفيظ أُرغم على التوقيع على معاهدة الحماية ، ولكنه حاربها وضحى بالعرش من أجل استقلال المغرب .

لقد ظلّ المغرب ثلاثة عشر قرناً دولة مستقلة ، فلا عجب أن ترى الأمة المغربية في هذه المعاهدة وسيلة لإلغاء السيادة القومية الإسلامية والقضاء على نفوذ الإسلام [1] .

سادساً ـ عصر الحماية (١٣٣٠ هـ الى ١٣٧٥ هـ) = (١٩١٢م الى ١٩٥٥م)

يمكن تقسيم هذا العصر الى قسمين :

(١) العهد الأول : من سنة ١٣٣٠ هـ الى ١٣٤٦ هـ .

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب (٢/٨٣ ـ ١٢٣) وانظر الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس (٤/٩٩ ـ ١٠٧) .

(٢) العهد الثاني : من سنة ١٣٤٦ هـ الى ١٣٧٥ هـ .

العهد الأول (١٣٣٠ هـ الى ١٣٤٦ هـ) :

في هذا العهد احتلت الجيوش الفرنسية والإسبانية أرض المغرب ، وقد استطاع الفرنسيون أن يبسطوا نفوذهم على جميع السهول المغربية في مدة قصيرة ، أما جبال الأطلس وأغلب سكان جبال الريف ، فظلوا يقاتلون أكثر من ثماني عشرة سنة ، وأخيراً خضعوا لنظام الحماية بالقوة .

ونتيجة للإتفاق الفرنسي الإسباني ، فقد قُسم المغرب الى الأقسام التالية :

(١) منطقة النفوذ الفرنسي ، أو منطقة حماية فرنسا كما يسميها الفرنسيون ويسميها المغاربة : المنطقة الجنوبية ، وتقدّر مساحتها بـِ (٤٤٠٠٠) كيلومتراً مربعاً .

(٢) منطقة النفوذ الإسباني أو منطقة حماية إسبانيا كما يسميها الاسبان ويسميها المغاربة : المنطقة الشمالية ، وتقدّر مساحتها بـ (٢٢٠٠٠) كيلومتراً مربعاً .

(٣) منطقة طنجة ويسميها الأوربيون : المنطقة الدولية ، وتقدّر مساحتها بـ (٣٥٠) كيلومتراً مربعاً .

تربع على عرش المغرب في المنطقة الجنوبية للمغرب مولاي يوسف بن الحسن ، وكان طيب القلب متديناً ، ولكنه لم يكن سياسياً كأخيه عبدالحفيظ ولا قوي الإرادة كأبيه الحسن ، ولكنه كان يدافع عن حقوق المغرب ما أمكنه بلين واستعطاف ، فاستبدّت السلطات الفرنسية في عصره وصارت هي المصرِّفة لشؤون المغرب حسبما تشتهي وتريد .

فقد جاءت جاليات أوربية الى المغرب وسيطروا على ماليته ، وصاروا المتصرفين في جيوشه وقواته العسكرية .

ومات مولاي يوسف بن الحسن يوم الخميس ٢٦ جمادى الأولى

١٣٤٦ هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٢٧ م) ، وبموته انتهى العهد الأول الذي كان المغرب فيه ضعيفاً جداً .

العهد الثاني (١٣٣٠ هـ – ١٣٤٦ هـ) :

وفي هذه الفترة ، كانت المنطقة الشمالية تغلي كالمرجل على الإسبان ، ففي سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) قتل بعض أهل الريف ستة من العمال الإسبانيين الذين كانوا يشتغلون في مناجم الحديد ، فاحتل الإسبان مدينة (العرائش) سنة (١٩١١ م) وفي سنة (١٩١٣ م) وصلوا الى (تطوان) .

وقد وقف زعماء قبائل هذه المنطقة في وجه الجيوش الإسبانية ، ونشبت حرب بينهم وبين هذه الجيوش دامت أكثر من ثماني عشرة سنة ، وقد تزعَّم قبائل الناحية الغربية الشريف سيدي أحمد الريسوني ، وتزعَّم قبائل الناحية الشرقية أولاً السيد محمد أمزيان الذي مات سنة (١٣٣١ هـ) فتزعَّم تلك القبائل البطل السيد محمد بن عبدالكريم الخطّابي [١] .

وتولى الملك محمد الخامس بن يوسف المغرب سنة (١٣٤٦ هـ) ، فجاهد جهاد الأبطال لإنقاذ المغرب من الإستعمار ، وتعاون مع حزب الإستقلال [٢] الذي استطاع أن ينظم صفوف المغاربة ، فأزعج ذلك الاستعمار ، فخلعوا الملك ونفوه الى (كورسيكا) أولاً ثم نقل الى جزيرة (مدغشقر) وذلك في سنة ١٩٥٣ م ، وظل الملك مبعداً عن بلاده حتى سنة ١٩٥٥ م حيث أُعيد الى عرشه معززاً مكرماً تحت ضغط جهاد الشعب المغربي العظيم .

وقد توفي الملك محمد الخامس سنة ١٩٦١ ، فخلفه ابنه الملك الحسن

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب الحرب الريفية وسر انتصار الأمير محمد عبد الكريم الخطابي – الفريق الركن محمد أمين العمري – مطبعة دار السلام – بغداد – ١٩٢٥ م .

(٢) انظر مذكرة الحزب التاريخية التي قدمها الى الملك محمد الخامس في ١١ كانون الأول ١٩٤٤ م في تاريخ المغرب (٢/١٦١ – ١٦٥) .

الثاني بن محمد الخامس[1] ، وقد عزم على إكمال جهاد أبيه ، ولعل إقدامه على إعلان التجنيد الإجباري في خطابه بمناسبة ذكرى عيد الاستقلال الذي أذيع يوم ٣ نيسان ١٩٦٦ ، خطوة جبارة موفقة لاستعادة المغرب القوة الضاربة الرادعة لأعدائه المستعمرين[2] .

(١) انظر عشرة رجال من إفريقية (٧٣ – ٨٨) وداخل إفريقيا (٣٥ – ٦٠) .
(٢) ترد تفاصيل ذلك في قصة استعمار المغرب العربي واستقلاله .

الجزائر

-٦-

١ . عصر الدولة الرستميّة

١٤٤ هـ الى ٢٩٦ هـ

٧٦١م الى ٩٠٨ م

أ . الخوارج في المغرب :

في خلافة هشام بن عبدالملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب ظهرت **أوّلُ** فتنة للخوارج في المغرب .

ولما تغلّب آل عُقْبَة بن نافع الفِهْرِي على المغرب ووليه منهم حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ازداد حبلُ الأمن بالمغرب اضطراباً ، وقاتله الخوارج حتّى قتلوه واستولوا على القيروان سنة (١٤٠هـ) .

وكان أبو الخطّاب بن السمح الأباضي في (طرابلس) بين بربرها من هوارة وزناتة ، فقصد القيروان بجموعه وقاتل ورفجومة ونفزاوة وانتصر عليهما . فلما بلغه أنّ الخليفة المنصور العباسي جهز جيشاً لحرب خوارج المغرب ، عاد الى (طرابلس) وترك في القيروان عبدالرحمن ابن رستم .

ب . تأسيس الدولة الرستميّة :

عزم أبو جعفر المنصور على إعادة المغرب إلى سلطة الدولة العباسية ، فولى محمد بن الأشعث الخزاعي[1] مصر والمغرب وأمره بحرب البربر .

---

(١) انظر ما جاء عنه في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٢٢ – ١٢٤) .

وأرسل ابن الأشعث جيشاً بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي. وانهزم أبو الأحوص سنة (١٤٢ هـ)؛ فخرج ابن الأشعث بنفسه ليقود جيشه، فاستطاع أن ينتصر على أبي الخطاب ويقتله في صفر سنة (١٤٤ هـ).

وبلغ عبدالرحمن بن رستم مَقْتَلُ أبي الخطّاب، فتوجه الى المغرب الأوسط ونزل على قبيلة (لماية)، فقصده ابن الأشعث وحاصر قوات عبدالرحمن، ولكنّه عاد الى القيروان خائباً.

وبقي عبدالرحمن في منطقة قبيلة (لماية)، وقصده الأباضية هناك من كل مكان، فلما كثر جمعه أسس مدينة (تيهرت) سنة (١٤٤ هـ)، وبذلك تأسّست الدولة الرستمية، وحافظت على استقلالها زمناً طويلاً؛ ولم يكن أباضيتُها كغالب الخوارج همهم الثورة، بل كانوا كخوارج العرب همهم تنظيم دولة على مبادئهم.

وعبدالرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية (١٤٤ هـ — ١٦٨ هـ) (٧٦١ م — ٧٨٤ م) فارسي الأصل، بويع أولاً بالإمارة، ثم بالإمامة سنة (١٦٠ هـ)، وكان عالماً زاهداً متواضعاً، يجلس في المسجد للأرملة والفقير.

وبويع عبدالوهاب بن عبدالرحمن ١٦٨ هـ — ١٨٨ هـ (٧٨٤ م — ٨٠٣ م) بعد وفاة أبيه، وكان مرشحاً للإمامة في حياته. وقد اختلفت عليه الكلمة فأسكت الخصُوم بالحرب والسياسة.

وبويع أفلح بن عبدالوهاب ١٨٨ — ٢٣٨ هـ (٨٠٣ — ٨٥٢ م) بعد وفاة أبيه، وكان داهية استطاع أن يحافظ على هناء (تيهرت) مدة إمامته.

وبايعت (نفوسة) أبابكر بن أفلح ٢٣٨ — ٢٤١ هـ (٨٥٢ — ٨٥٥ م)، ولم يرضه بعض أهل مدينة (تيهرت)، وكان ميالاً الى الراحة مولعاً بالأدب، وقد أُخرج عنوة من (تيهرت).

وبويع أبو اليقظان محمد بن أفلح ٢٤١ — ٢٨١ هـ (٨٥٥ — ٨٩٤ م)،

فزحف الى (تيهرت) فامتنعت عليه سبع سنين . وأخيراً دخل (تيهرت) ، فعفا عن الثوار وأحيا رسوم الدولة ، وكان يباشر التدريس بنفسه ، وكان زاهداً ورعاً ناسكاً .

وبويع أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان بعد وفاة أبيه ٢٨١ – ٢٩٤ هـ (٨٩٤ – ٩٠٦ م) ، وكان شاباً كثير المروءة واسع الإحسان محبّباً لدى الناس قبل ولايته . فلما بويع اضطربت عليه الأمة ، وثارت به الفتن ، فأُخرج من (تيهرت) ثم عاد اليها ، وائتمر به بعض قرابته فقتلوه سنة ٢٩٤ هـ .

وبويع يعقوب بن أفلح وهو أخو أبي اليقظان ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، ولكنه لم يفلح في السيطرة على دولته .

وبويع اليقظان بن أبي اليقظان ٢٩٤ – ٢٩٦ هـ (٩٠٦ – ٩٠٩ م) بعد قتل أخيه حاتم بن أبي اليقظان ، فلم يتمتع بالملك طويلاً ، وبقي عامين وأمره في اضطراب الى أن قتله الشيعة في طائفة من أسرته في شوّال سنة ٢٩٦ هـ ، فانتهت به الدولة الرستمية .

ج . العلوم والآداب :

عني الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية ، وكانت عنايتهم بالعلوم الدينية شديدة : كان عبدالرحمن بن رستم مُفسّراً ، وقد برز ابنه عبدالوهاب في العلوم الدينية ، ونبغ أفلح في الأدب . وكان في (تيهرت) مكتبة تدعى : المعصومة ، حوت آلافاً من المجلدات .

وكانت العربية هي لسان الدولة الرسمي ، وكانت العربية لسان علومهم وآدابهم أيضاً .

وكان في المملكة التيهرتية مذاهب غير الأباضية ، منها الصُفْرية والواصلية ،

وآهل الرأي والقياس وأهل السنة والأثر ، مما يدلّ على وجود الحرية الدينية .

د. تيهَرْت [1] :

ويقال : إنها : تاهرت ، وهي اسم لمدينتين ، أحدهما على ربوة يحيط بها سور أُسّسَت قبل الإسلام ، وافتتحها عقبة بن نافع ، وقد ضعف عمرانها منذ العصر الرومي ، وانتعشت قليلاً أيام الرستميين . وبعد الرستميين خربت وأُسس مكانها تيهرت الفرنسية المدعوة اليوم : (تيارت) .

والثانية تيهرت الحديثة ، أسسها عبدالرحمن بن رستّم سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) غربي القديمة على خمسة أميال منها ، فعمرت واتسعت خطتها وطار في الآفاق صيتها حتّى دعيت : عراق المغرب .

ومنذ سقطت الدولة الرستمية ، أصبحت (تيهرت) نقطة عراك بين الشيعة وزناتة ، يتغلب عليها هؤلاء تارة وأولئك أخرى ؛ فأخذ عمرانها بالتراجع ، وأحرقت النار أسواقها في شوال سنة (٣٠٥ هـ) . وأخيراً تفرّق أهلها في البلاد سنة (٦٢٠ هـ) ، وكان ذلك آخر العهد بعمارتها ، وأرضها اليوم تحرث [2] .

٢. الدولة الإدريسيّة

أ ـ يراجع عصر الأدارسة في مجمل تاريخ المغرب للإطلاع على تأسيس الدولة الإدريسية ومجمل تاريخها [3] .

---

(١) انظر ما جاء عنها في البكري (٦٧ ـ ٦٩) .
(٢) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/٤٩ ـ ٧٨) وموجز تاريخ الجزائر (٩١ ـ ٩٢) .
(٣) أنظر (١٧٧ ـ ١٧٩) من هذا الكتاب .

ب. العلويّون في الجزائر :

كان المغرب الأوسط (الجزائر) لزناتة، وسيادتها لقبيلتين منها هما مغراوة ويفرن، وموطنهما نواحي (تلمسان) الى (وهران) الى (شلف) شمالاً و (غريس) من ناحية المعسكر جنوباً.

ولما أسس إدريس دولته في المغرب الأقصى، توجه نحو المغرب الأوسط كي يفتح لدولته طريقاً الى المشرق، فزحف في منتصف رجب سنة (١٧٣ هـ) في جموع (مطغرة) وغيرهم ونزل على (تلمسان) وصاحبها يومئذ محمد بن خزر من ملوك زناتة، فأطاعه وسلّم له المدينة، فدخلها إدريس من غير حرب؛ فأقام بها أشهراً بنى فيها المسجد الأعظم وذلك في صفر سنة (١٧٤ هـ).

ولحق بإدريس أخوه سليمان بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ونزل (تلمسان)، ثم لحق بجهات (تيهرت) بعد مهلك إدريس وطلب الأمر لنفسه هنالك. ولكنّ البربر لم يعاونوه، وطلبه ولاة الأغالبة، فلحق بِـ (تلمسان) وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك.

ولما هلك سليمان خلفه ابنه محمد، وكبر ابن عمه إدريس الأصغر، فنهض إدريس الى (تلمسان) سنة (١٩٩ هـ) وحارب المخالفين عليه من نقرة وبقية الخوارج، فبلغ (شلفاً) وما وراءه الى بلاد صنهاجة.

وأقام إدريس في (تلمسان) ثلاث سنوات، ثم اصطلح مع ابن الأغلب وعُيِّنت الحدود بينهما بوادي (شلف)، وعقد على المغرب الأوسط لابن عمه محمد بن سليمان وكرّ راجعاً الى عاصمته.

واستقر محمد في (عين الحوت) من ناحية (تلمسان) وتوفي بجبل (وهران)، وترك أبناءً اقتسموا مملكته[1].

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/٨١ – ٩٨) وموجز تاريخ الجزائر (٩٣ – ٩٥).

٣. عصر الدولة الأغلبيّة

أ. تأسيس الدولة الأغلبيَّة :

كان المغرب لعهد تأسيس الدولة العباسية يضطرب فِتَناً ، فلما كانت خلافة أبي جعفر المنصور اهتمّ بالمغرب ، فولى عليه محمد بن الأشعث الخزاعي . وكان الأغلب بن سالم التميمي [1] في خُراسان من أحزاب أبي مسلم الخراساني ، فقدم المغرب مع ابن الأشعث . فلما خضعت المغرب لابن الأشعث ولي على (الزاب) مقر ثوار الجزائر الأغلب كي يكون سداً منيعاً في وجه الثوار ، فنزل (طبنة) وجعلها قاعدته .

وفي سنة (١٤٨ هـ) عاد ابن الأشعث الى المشرق ، فقلد المنصورُ الأغلبَ إمارة المغرب ، فانتقل الى (القيروان) ، فقتل سنة (١٥٠ هـ) في إحدى محاولاته للقضاء على الثوار ، فصارت الإمارة الى آل أبي صُفْرة الأزديين [2] .

وانقضت إمارة آل المهلب بن أبي صفرة وولي الأمر هَرْثَمَةَ بن أعْين [3] ، فقدم (القيروان) سنة (١٧٧ هـ) ، وأقرَّ ابراهيم بن الأغلب على عمله في (طبنة) ؛ فبقي ابراهيم عاملاً لهرثمة ولخلفه محمد بن مقاتل العكيّ من بعده . وثار الناس بابن مقاتل وأخرجوه من (القيروان) ؛ فبلغ الخبر ابراهيم بن الأغلب ، فسار في جنوده ودخل (القيروان) ، وأعاد اليها أميره العكيّ ؛ ولكن الناس سئموا سيرة العكيّ ، وداخلوا ابراهيم بن الأغلب في مخاطبة الخليفة بولايته على المغرب .

وأخيراً ولىّ الرشيد سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) ابراهيم بن الأغلب على المغرب ، فابتدأت الدولة الأغلبية تابعةً لبني العباس اسماً ومستقلةً فعلاً .

---

(١) انظر ما جاء عنه في : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١٢٧ – ١٢٨) .

(٢) انظر ترجمة المهلب بن أبي صفرة الأزدي في مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد – الصادرة في سنة ١٩٦٤ م ، وسترد ترجمته تلك في كتابنا : قادة فتح المشرق الإسلامي .

(٣) انظر ما جاء عنه في الولاة والقضاة (١٣٦) .

ب . الجزائر الأغلبيّة :

امتدت سيطرة بني الأغلب بصورة عامة من (أدنة) غرباً الى وادي (ريغ) وشط (الجريد) جنوباً ، الى نواحي (سطيف) و (ميلة) شمالاً . ويظهر أن نفوذ الأغالبة في جبال (أوراس) ضعيف ، وكانوا يشرفون على (أوراس) من مدينة (باغاية) ، ومن مدن الجزائر الأغلبيّة (مجانة) و (تيفاش) و (بشرة) و (الغدير) .

ومجانة تعرف أيضاً بـ (مجانة المطاحن) ، وهي مدينة قديمة كبيرة عليها سور ، وحولها معادن الفضة والحديد والكحل والرصاص .

وبشرة على ثلاث مراحل من (الجريد) ، وهي أعظم مدائن نفزاوة . وتيفاش مدينة قديمة في سفح جبل ، وفيها آثار للأُول كثيرة . والغدير مدينة كبيرة وهي قريبة من مرج (بوعريريج) المعروف اليوم ، وتقع بين الجبال :

ج . سقوط الدولة الأغلبية :

تأسست الدولة الأغلبية سنة (١٨٤ هـ) وسقطت سنة (٢٩٦ هـ) ، وكان سقوطها على يد أبي عبد الله الشيعي الذي نزل بأرض كتامة سنة (٢٨٠ هـ) وأخذ في تمهيد الأمر لعبيد الله المهدي .

وخرج ابراهيم بن أحمد بن الأغلب غازياً لصقلية سنة (٢٨٤ هـ) وترك مكانه ابنه أبا العباس عبد الله وأوصاه بمسالمة الشيعي ، وإن غلب على إفريقيّة فليلحق بصقلية . وبلغ أبا العباس عن ابنه زيادة الله ما حمله على سجنه ، فصانع زيادة الله بعض الخدم على قتل والده وقتله سنة (٢٩٠ هـ) ، والحرب قائمة بين الأغلبيين والشيعة بنواحي (سطيف) ؛ ثم عكف زيادة الله على الملاهي وأهمل أمر الدولة ، فاستطاع أبو عبد الله الشيعي سنة (٢٩٦ هـ) القضاء على دولة الأغالبة بسهولة [1] .

---

(١) انظر التفاصيل في : تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/١٠١ – ١٠٨) وموجز تاريخ الجزائر (٩٥ – ٩٨) .

٤. عصر الدولة العبيدية

أ. الجزائر في القرن الثالث :

كانت الجزائر في القرن الثالث مقسمة بين إمارات حفظت التوازن بين ذوي السلطان ، وأرضت القبائل المتعادية باستقلال بعضها عن بعض ؛ فكان ذلك الانقسام مُسَكِّناً للثورات منشِّطاً للحياتين العلمية والإقتصادية.

وفي النصف الأخير من هذا القرن ، ساءت الحياة الاقتصادية وارتفعت الأسعار .

ولم يخف على أئمة الشيعة بالمشرق ما عليه المغرب من ضعف سياسي بسبب انقسامه إلى إمارات ، ومن ضعف مادي لما حلّ به من مجاعات ؛ فأرسلوا دعاتهم اليه لينشئوا فيه دولة لهم . وتأسّست الدولة العبيدية التي ابتلعت تلك الإمارات ووحّدت الإدارة ، ولكنّها أعادت للمغرب عهد الثورات .

ب. الدولة العبيدية :

تُنْسَبُ إلى عبيد الله المهدي أول أئمتها ، وكانت قاعدتها (المهديّة) نسبة اليه ، ثم انتقلت الى مصر فعرفت هناك باسم الدولة الفاطميّة .

وكان العبيديّون يزاحمون بني العبّاس في الملك والسياسة ، وينافسونهم في العلم والحضارة ، وبلغت دولتهم في المغرب ومصر رقيّاً لا يقلّ عن رقي الدولة العبّاسيّة ، وتركوا آثاراً تشهد لهم بفضل حضارتهم ، ولكن لم يكن منها في الجزائر غير ما كان لعمالهم بني حمدون [1] والصنهاجيين [2] ، وتصحّ نسبتها لهم لكونهم أساتذة أولئك العمال والآخذين بيدهم الى تلك المنزلة .

---

(١) يرد حديثهم في هذا القسم من تاريخ الجزائر .

(٢) يرد حديثهم في هذا القسم من تاريخ الجزائر .

ج . الشيعة الإسماعيلية بالجزائر :

شيعة الرجل من يُبَايِعُهُ ويناصره ، وهم عند المؤرخين من تولىّ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وفضّله على جميع الصحابة .

وكثرت فرق الشيعة ، فكان منها الزيديّة [1] أتباع زيد بن علي زين العابدين ، ومنها الإمامية [2] ، ومن شعب الإمامية : الإسماعيلية [3] ، وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد توفي في حياة والده ، ومع ذلك يرونه إماماً توصُّلاً إلى إمامة عقبه .

والإسماعيلية يسمّون أيضاً : الباطنيّة ، لقولهم بالإمام الباطن يريدون المستور ، ولقولهم : إنّ نصوص الشريعة رموز مراد بها بواطن لا يفهمها إلا الإمام ، وكان العبيديون من هؤلاء الإسماعيلية .

وكان الإسماعيلية ينتخبون الدعاة الأكفاء يبثّونهم في البلاد لنشر مذهبهم ، فأرسلوا اثنين من دعاتهم [4] ، فنزلا في ناحية (قسنطينة) وبثّا الإسماعيلية في الناس الى أن توفيا .

وخلفهما أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، فقدم مع حاج (كتامة) فدخل بلدهم سنة ٢٧٩ هـ ، وأخذ يبثُّ الإسماعيلية وذِكْرِ المهديّ وقرب ظهوره .

ولمّا تمكنت دعوته أسّس قرب (سطيف) الى ناحية (قسنطينة) مدينة سمّاها : دار الهجرة ، وسمّى أتباعه : المؤمنين . وقاد الأجناد ، وفتح البلاد ؛ ولحق به عبيد الله المهدي ، فظهر في (سجلماسة) وحبس بها ؛ فلمّا تغلّب أبو عبد الله على (إفريقيّة) ذهب اليه وأتى به وسلّم له الأمر .

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني (١/٢٠٧) والفرق بين الفرق (٢٢) .
(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني (١/٢١٨) والفرق بين الفرق (٢٣) .
(٣) انظر الملل والنحل للشهرستاني (٢/٥) .
(٤) هما السفياني والحلواني .

ودبّ الفساد بين المهدي وداعيته أبي عبد الله ، وتمشّت بينهما السعايات ، فأمر المهدي بقتل داعيته أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس ، فقتلا معا يـوم الثلاثاء منتصف جمادى الأخيرة سنة (٢٩٨ هـ) .

وقد بويع عبيد الله البيعة العامة في (رقادة) وتلقّب بالمهدي ، وذلك في ربيع الثاني سنة (٢٩٧ هـ) .

ولم يكن للعبيديين ثقة بأهل المغرب ، فشرع المهدي من فوره بتأسيس مدينة (المهديّة) واختار لها موقعاً حربيّاً مهماً ، وبالغ في تحصينها ، وانتقل اليها سنة (٣٠٨ هـ) وقال : « إنما بنيتها لتعتصم بها الفواطم ولو ساعة من نهار » .

وقد تولّى من العبيديين بالمغرب أربعة عشر إماماً وتولّى منهم بمصر عشرة أئمة ، واستقلّ عنهم المغرب أيام المستنصر بن الظاهر ، وانتهت دولتهم بموت العاضد في المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فحوّل وزيره صلاح الدين الأيوبي الدعوة الى العبّاسيين ، فكانت مدّتهم (٢٦٩) سنة [١] .

---

(١) أئمة العبيديين في المغرب

التسلسل	الامام	هـ	الولاية	م
١	عبيد الله المهدي	٢٩٧		٩٠٩
٢	ابنه محمد القائم	٣٢٢		٩٣٣
٣	ابنه اسماعيل المنصور	٣٣٤		٩٤٥
٤	ابنه معد المعز	٣٤١		٩٥٢
٥	ابنه نزار المعز	٣٦٥		٩٧٥
٦	ابنه منصور الحاكم	٣٨٦		٩٩٦
٧	ابنه علي الظاهر	٤١١		١٠٢٠
٨	ابنه معد المستنصر	٤٢٧		١٠٢٥
٩	ابنه أحمد المستعلي	٤٨٧		١٠٩٤
١٠	ابنه منصور الآمر	٤٩٥		١١٠١
١١	عبد المجيد الحافظ بن محمد بن المستنصر	٥٢٤		١١٣٠
١٢	ابنه يوسف الظافر	٥٤٤		١١٤٩
١٣	ابنه عيسى الفائز	٥٤٩		١١٥٤
١٤	أخوه عبد الله العاضد	٥٥٥		١١٦٠
١٥	سقوط الدولة الفاطمية	٥٦٧		١١٧١

د . الجزائر بين العبيديين والأمويين :

كانت الإمارات التي تنفصل عن دار الخلافة تكبر أمر الخلافة فلا تدّعيها ، ولم يجروٌ عليها غير الخوارج . وفي بداية القرن الرابع ادّعاها عبيد الله المهدي بالمغرب ثم عبد الرحمن الناصر بالأندلس ، وكان أسلاف الناصر يكتفون بالأندلس ولهم علاقات تجاريّة بسواحل المغرب ، وفي سنة (٢٩٠ هـ) أسّست طائفة من تجار الأندلس (وهران) ، وأقاموا بها الدعوة الأمويّة .

وقد أيّد العبيديين (كتامةُ) ثم (صنهاجةُ) وحاربتهم (زناتة) فهزموها سنة (٣١٥ هـ) ، فانتهز هذا الخلاف الأمويون وأرسل الناصر رسله الى محمد بن خزر عظيم زناتة ، فقدموا عليه بسجلماسة سنة (٣١٦ هـ) ، فأجابهم الى القيام بالدعوة للأمويين ، واستولى على (تنس) و (وهران) و (شلف) ، فأيّده موسى بن أبي العافية عظيم (مكناسة) بالمغرب الأقصى ونبذ أمر العبيديين .

ونهض العبيديون لمحاربة القبائل الأمويّة ، فكانت وقائع شديدة ولكنّها غير حاسمة ، واستمرت الحروب بين الموالين للعبيديين والموالين لبني أميّة ، وفي سنة (٣٨١ هـ) أصبح المغرب الأوسط (الجزائر) الى (الزاب) أموياً ، وكانت سنة (٣٩١ هـ) نهاية تطاحن الطرفين على الجزائر .

هـ . إمارة بني حمدون بالمسيلة [1] :

كان علي بن حمدون بن سماك بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسيّة ، قد اتّصل بالمهدي وابنه القائم بالمشرق وصحبهما إلى المغرب ، ولما بلغوا (طرابلس) أرسله المهدي إلى أبي عبد الله الشيعي ، فأدى الرسالة وانصرف

---

(١) المسيلة : اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي سنة ٣١٥ هـ وأمر ببنائها وتحصينها ، وسماها : المحمدية باسمه ، وجعل لها بابين . وبلغت المسيلة أيام علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى من العمارة والحضارة الى الغاية القصوى .

الى المهدي بـ (سجلماسة) ، وبقي في خدمته وخدمة ابنه أبي القاسم .

وأصبحت المسيلة عاصمة الزاب بدلاً من (طبنة) ، ورأس عمل المسيلة علي بن حمدون ، وكان له ابنان : جعفر ويحيى ، نشأ بدار أبي القاسم بالمهديّة وربيا مع أولاده .

ومات ابن حمدون سنة (٣٣٤ هـ) ، فخلفه ابنه جعفر ، ولكن اعداءه أوغروا صدر المعز بن المنصور ، فغادر المسيلة في أوليائه ولحق بزناتة سنة (٣٦٠ هـ) ؛ فجهّز المعز من يقاتله ، ولكنّه تغلّب على أعدائه ، واحْتزّ رأس قائدهم ، وذهب به الى المستنصر الأموي .

ولحق بالأندلس ، ولكنّ المنصور بن أبي عامر قتله بعد أن قضى على أعدائه من رجال الدولة ، فخشي من جعفر وقتله ففرّ أخوه يحيى الى مصر فنزل على العزيز بن المعز الى أن مات ،

و . الجزائر الصنهاجية :

كان بعض الصنهاجيين خاضعين للعبيديين ، وكان بعضهم مستقلاً في جبالهم . ومن أشهر رؤساء المستقلين منهم مناد بن منقوش الذي كان يقيم الدعوة العباسية ويعترف بإمرة الأغالبة ، ومات فخلفه ابنه (زيرى) الذي أصبح سنة (٣٣٥ هـ) وما بعدها من أعوان المنصور العبيدي .

وفي سنة (٣٤٧ هـ) فتح زيرى (تيهرت) ، فأضيف عمل تيهرت اليه . وفي سنة (٣٦٠ هـ) خرج جعفر بن علي بن حمدون عن (المسيلة) وقتل (زيرى) ، فولّى المعز ابنه (بلقين) على الأعمال الثلاثة : (أشير) والمسيلة وتيهرت . وفي سنة (٣٦٢ هـ) توجّه المعز الى مصر وعقد لبلقين على المغرب وسمّاه : يوسف وكنّاه : أبا الفتوح ، ولقّبه : سيف الدولة ، ثم أُضيفت اليه طرابلس سنة (٣٦٧ هـ) . ومات بلقين سنة (٣٧٣ هـ) في طريقه لحرب زناتة ، فاقتفى أثره خلفه حتّى أخضعوهم .

وقاتل منصور بن بلقين بن زيرى سنة (٣٧٧ هـ) كتامة ، فانهزمت

كتامة واستولى على (ميلة) و (سطيف) .

ولم يرتح العبيديون لتضخم قوة (صنهاجة) ، فدسّوا لها الدسائس ، فجاملهم ملوك صنهاجة ظاهرياً حتى ولي المعز بن باديس ، فأعلن سنة (٤٤٠ هـ) قطع دعوة بني عبيد ، ومحا اسمهم من السكة ، وأحرق بنودهم ، وهدم دار الاسماعيلية ، ودعا للعباسيين ؛ فعجز بنو عبيد عن الإنتقام من صنهاجة ، وأرسلوا لهم ببني (هلال)[١] و (سُلَيْم)[٢] ، ثم عاود يحيي بن تميم بن المعز دعوتهم ، وقام بها خلفه .

وكان يخالف على ملوك صنهاجة أقرباؤهم ويؤيدون الثوار عليهم ، ولكن لم يفت ذلك في عضدهم ولا حطّ من عظمتهم حتى استقلّ حماد بن بلقين بالوطن الجزائري سنة (٤٠٥ هـ) ، فانقسمت صنهاجة على نفسها الى دولتين : شرقية عاصمتها المنصوريَة ثم المهديّة ، وغربيّة عاصمتها (القلعة) ثم (بجَاية) .

ضعفت الدولة الشرقية بما أنسلخ منها ، ثم جاء الهلاليون فملكوا عليها الضواحي وبعض المدن . وتوالت عليها غارات (النُرمَان) بحراً حتى ملكوا عليها المهديّة آخر معاقلها سنة (٥٤٣ هـ) ، وبذلك انقرضت دولة صنهاجة الشرقية [٣] .

---

(١) هلال بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . انظر جمهرة أنساب العرب (٢٧٣) .

(٢) سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٦٨) .

(٣) أمراء الصنهاجيين

التسلسل	الأمير	سنة هـ	م
١	زيزى بن مناد	٣٣٥	٩٤٦
٢	ابنه بلقين	٣٦٠	٩٧٠
٣	ابنه منصور	٣٧٣	٩٨٣
٤	ابنه باديس	٣٨٦	٩٩٦

٥ . عصر الدولة الحمادية

أ . تأسيسها :

أستخلف آل زيرى بن مناد الصنهاجي عن العبيديين ، والمغرب يضطرم ناراً بالفتن الناشئة عن النزاع بين العبيديين والأمويين . وما كادوا يتغلّبون على الأمويين حتى دبّ الخلاف فيهم وتنازعوا أمرهم بينهم .

وعقد منصور بن بلقين لأخيه حماد على عمل (أشير) و (المسيلة) ليعالج أمر زنانة الأمويّة .

وتوفي منصور فخلفه ابنه باديس ، فأقرّ عمه حماداً على عمله وأفرده به سنة (٣٨٧ هـ) .

ولم يزل باديس مستعيناً بعمه حماد يستقدمه متى شاء الى (صبرة) ويخرجه لإطفاء الثورات . وفي سنة (٣٩٥ هـ) كلّفه بحرب زنـــانة ، فاشترط عليه ولاية المغرب الأوسط وكل ما يفتحه ، فوفى له بما شرط .

وفي سنة (٣٩٨ هـ) اختطّ حماد مدينة (القلعة) وصار ينزل بها وبـ (أشير) ، وبقي والياً على الزاب والمغرب الأوسط ، يصاول زناتة وينتصر عليها ؛ فطار صيته وعظمت هيبته ، حـــتى خشي باديس أن يخلع طاعته .

وفي سنة (٤٠٣ هـ) جاء تعيين المعز بن باديس من الحاكم صاحب مصر ليكون ولياً للعهد لأبيه باديس ، وكانت حاشية باديس قد سعوا

٥	ابنه المعز	٤٠٦	١٠١٦
٧	ابنه تميم	٤٥٤	١٠٦٢
٨	ابنه يحيى	٥٠١	١١٠٧
٩	ابنه علي	٥٠٩	١١١٥
١٠	ابنه الحسن	٥١٥	١١٢١
١١	وأخذت منه المهدية	٥٤٣	١١٤٨

وانظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/١١١ - ١٤٤) .

بحماد ؛ فأراد اختبار حماداً ، فارسل اليــه بالتنازل للمعز عن عمل (تيجس) و (قسنطينة) ، فأبـــى ذلك حماد ، وأفضى الأمر الى حرب أسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية .

وكانت الأمة تتبرم من سماع الدعاء للعبيديين على المنابر ، وكان آل زيرى مع الأمة باطناً ، وليس لهم مع العبيديين إلا ظواهر دعت اليهـــا السياسة ؛ فقطع حماد دعوة بني عبيد ودعا لبني العباس ، وذلك سنـــة (٤٠٥ هـ) .

وجهّز باديس جيشاً كبيراً لقتال حماد ، ولكنّ حماداً انتصر على جيش باديس ، فخرج باديس بنفسه لقتال عمه حماد وانتصر عليه حتى حاصره في (القلعة) ، وبينما كان حمـــاد يقاسي آلام الحصار ، نعى اليه باديس ، فأتاه الفرج من حيث لم يحتسب !

وتولّى بعد باديس المعز ، فسار المعز لحرب حماد سنة (٤٠٨ هـ) ، فأجلاه عن (باغاية) ، ثم كانت بينهما وقعة شديدة جرح فيها حماد ، ولكنه نجا بنفسه .

ومال حماد الى السلم ، فأرسل الى المعز يعرض عليه طاعته ، فتم الصلح بينهما ، وانتهت ببقاء حماد على ما كان عليه سابقاً ، وأورثـــه عقبه ملكاً نافسوا به بني عمِّهم .

ب . ملوك الدولة الحماديّة :

كان ملوك هذه الدولة أقرب الى البداوة ، إذ لم تدع لهم ثورات زناتة وغيرهم سبيلاً الى الترف ، بل حفظت عليهم الحيـــاة الحربية ، ولم ترتق الدولة في سلّم الحضارة إلاّ في عهد الناصر وابنه المنصور .

أولهم حمّاد بن بلقين ، أعلن استقلاله سنة (٤٠٥ هـ) ، ثم اصطلح مع المعز سنة (٤٠٨ هـ) ، ولم ينقض الصلح حتى توفي بالقلعة في رجب

وكان شجاعاً ثبتاً وداهية حصيفاً ، وقد قرأ الفقه بالقيروان .

وثانيهم القائد بن حمّاد ، خلف أباه ، وكان سديد الرأي عظيم القدرة . وقد استمرّ مع المعز على ما كان عليه والده ، ثم خالف عليه سنة (٤٣٢ هـ) ، فخطب للعباسيين ، فزحف اليه المعز وحاصره بالقلعة نحو سنتين وحاصر أيضاً (أشير) ، ثم اصطلحا .

وثالثهم محسن ، ولي بعد أبيه بعهده ، وكان جبّاراً فظاً ، مكث في الملك ثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ، ثم قتله ابن عمّه بلقين .

ورابعهم بلقين بن محمد بن حماد ، تغلّب على الملك بقتل ابن عمه ، وكان شهماً حازماً شجاعاً جريئاً سفاكاً للدماء ، وقد قتله الناصر بن علناس .

وخامسهم الناصر بن علناس بن حماد ، وهو الذي اختط (بجاية) ونسبها الى نفسه ، وعني بالعمارة . وقد توفي في (بجاية) ودفن فيها .

وسادسهم المنصور بن الناصر ، وكان شاعراً كاتباً ، وقد قتل في حروبه .

وسابعهم باديس بن المنصور ، ولي بعد أبيه ، وكان عظيم السطوة شديد البأس سريع البطش ، وقد توفي قبل أن يستكمل سنة في ملكه .

وثامنهم العزيز بن المنصور ، وكان حسن الخلق معتدل الطريقة . وقد طالت مدته فنالت الدولة على عهده أمناً ورقياً وعلماً ، وقد استوطن بجاية الى أن مات .

وتاسعهم يحيى بن العزيز ، حاصر المهدية دون جدوى ، وفتح تونس . وفي سنة (٥٤٧ هـ) استولى الموحدون على (بجاية) ونقلوا يحيى الى (مراكش) فتوفي في (سلا) سنة (٥٥٨ هـ) ، وكان فاضلاً

حليماً فصيح اللّسان والقلم ، مليح العبـارة بديع الإشارة ، مولعاً بالصيد مغرماً به [1] .

٦ ـ دولة المرابطين

يراجع ما جاء عنها في تاريخ المغرب في (١٨٠ ـ ١٨٥) [2] من هذا الكتاب .

٧ ـ الدولة الموحدية

يراجع ما جاء عنها في تاريخ المغرب في(١٨٥-١٩٩) [3] من هذا الكتاب .

٨ ـ الدولة الحفصية

٦٢٣ هـ ـ ٧٤٨ هـ

١٢٢٦ م ـ ١٣٤٧ م

للموحِّدين دولتان : المؤمنيّة والحفصيّة ، والحفصيون ينسبون الى أبي حفص عمر بن يحيى أحد العشرة من أصحاب ابن تومرت .

ومن أبنائه ، عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو (عبو) الذي تولّى تونس سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . ودعا المأمون لنفسه فأبى بيعته عبو وقبلها أخوه ابو زكريا ، وتغلّب على تونس في رجب سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ثم نقض بيعة المأمون سنة (٦٢٧ هـ) لسبِّه مهديهم ابن تومرت .

وفي سنة (٦٢٨ هـ) فتح أبو زكرياء (قسنطينة) و (بجاية) ، ثم فتح سنة (٦٣٢ هـ) مدينة الجزائر و(شلف) و (البطحاء) وسائر

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/١٨٩ ـ ٢٢٦) .
(٢) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/٢٢٩ ـ ٢٣٨) .
(٣) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/٢٤١ ـ ٢٨٠) .

مواطن (مغراوة) ، وذكر اسمه بعد المهدي سنة (٦٣٤ هـ) وبايعته الأندلس الشرقية سنة ٦٣٥ هـ) وفتح (تلمسان) سنة (٦٤٠ هـ) وتتابعت عليه البيعات من المغرب والأندلس ، فتمّ إرث الحفصيين للدولة ؤمنيّة لما فتحوا (مراكش) سنة (٦٦٨ هـ) .

ولكن الحفصيين لم يستطيعوا الإحتفاظ بهـذا الإرث لضعْف قوّتهم الحربيّة عن حماية الممالك النائية ، فانسلخت عنهم اكثر الجهات ، وانقرضت دولتهم سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧) م بعد أن عانت كثيراً من الثورات والفتن [١] .

دولة بني مرين

يراجع ما جاء عنها في تاريخ المغرب من هذا الكتاب (١٩٩ ــ ٢٠٢)

الدولة العبد الوادية (الزيانية)

٦٣٣ هـ ــ ٩٦٢ هـ

١٢٣٥ م ــ ١٥٥٤ م

بنو عبد الواد من بطون زناتة ، وأول ملوكهم يمغراسن بن زيان بن ثابت ، تولّى سنة (٦٣٣ هـ.) فأعلن استقلاله في (تلمسان) إذ لم يبق للموحدين بها سوى الخطبة ، وقد انتصر على جيش الموحدين سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

عاشت هذه الدولة مستقلة ، عاصمتها (تلمسان) ، والنفوذ الإداري فيها بيد السلطان الملقب بأمير المسلمين ، وهو دائماً من بيت آل زيان ، وولايته تكون غالباً بالعهد من الملك السابق ، وقد تكون بالغلبة والقهر والسطوة أو العصبية القبليّة .

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٢/٣٠٧ ــ ٣٣٠) .

وكانت حدود الجزائر الزيانية تمتد غرباً الى مدينة (وجدة) وتبلغ في بعض الأحيان شرقاً الى أعمال (قسنطينة) و (بجاية) وهي في ذلك تسير حسب تقدم الدولة وانتصاراتها على منافسيها من بني أبي حفص وبني مرين ، وبلغت حدودها الجنوبية الغربية الى (سجلماسة) — (تافيلالت) .

وقد تجرّأ الإسبان على احتلال (وهران) بحملة ترأسها الكردنال (كسيمينس) نفسه وذلك في سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) ، لأن ملوك عبد الواد ركنوا الى التواكل والتخاذل وأخلدوا الى الدعة ، فاعتدى الجيش الإسباني على حرمات الدين والإنسانية مرتكباً كلّ فاحشة ، وقتل نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء ، وانتهك حرمات المساجد والبيوتات الشريفة .

وفي اواخر رمضان سنة ٩١٥ هـ (١٥١١ م) اقتحم الإسبان أسوار (بجاية) وحطّموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة . ثم واصل الإسبان احتلال الأماكن السوقية (الاستراتيجية) في الجزائر وذلك سنة ٩٣٨ هـ (١٥٣١ م) .

تلك هي نتيجة ضعف الحكم وتخبّط الدولة في مشاكل سياسية وإدارية ، وانصراف المسؤولين عن المصلحة العامة الى مصلحتهم الخاصة [١] .

الدولة العثمانية

٩٢٠ هـ — ١٢٤٦ هـ

١٥١٤ م — ١٨٣٠ م

في نفس الوقت الذي ضعفت فيه قوى دول المغرب العربي الثلاث :

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر العام (١١٤/٢ — ١٨٧) وتاريخ الجزائر في القديم والحديث (٣٤٧/٢ — ٣٩٤) .

بني مرين وبني أبي حفص وبني عبد الواد الزيانيين بسبب ما كان بينها من التخاذل والشقاق مع تزاحم رؤسائها وقادتها على كراسي الزعامة ، في نفس ذلك الوقت — أي في القرن العاشر الهجري — اشتدّ تنمّر دولة الإسبان والبرتغال وجمهورية البندقيــة وجنوة الإيطاليتين ، فحمل كل منها على المغرب العربي جرياً وراء غايته الصليبية وجشعه الاستعماري ، وكان من نتائج ذلك احتلال أهم مدن سواحل المغرب العربي وأماكنه .

في نفس تلك الآونة ، وخلال هاتيك الأحداث المؤلمة ، ظهر أسطول الأخوين التركيين : بابا عروج وخير الدين من أبطــال رجال البحرية العثمانية ، متنقلاً بغربي البحر الأبيض المتوسط ، حامياً لدول المسلمين المنتشرة على ضفافه ، منجداً للمستضعفين من المسلمين . واشتهر هــذا الأسطول يومئذ بتطوعه في إنقاذ المضطهدين من أهل الأندلس ، ونقلهم الى سواحل المغرب العربي .

وتمكّن أصحاب هذا الأسطول من النزول في السّاحل التونسي والاتصال بصاحب تونس أبي عبد الله محمد الحفصي والتعاقد معه بمعاهدة وديّة ، على أن يكون الساحل التونسي موئلاً لهذا الأسطول ، وللخزينة الحفصيّة الخمس فيما يأتي به الأسطول من المغانم .

وفي سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) غزا هذا الأسطول (بجاية) وطرد عنها الأسبان ، وفي سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) فتح مدينة (جيجل) ، ثم تقدّم الى مدينة (الجزائر) نفسها بدعوة من أهلهــا درءاً لخطر الإسبان عنها ، فدخلهــا سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، ونزل الأتراك يومئذ بهذا القطر .

وأوّل ما عرفت الجزائر من نظام حكم الأتراك هم جماعة البيلرباي) أي أمير الأمراء ، وهو لقب يمنحه السلطان العثماني مع كسوة الشرف لأمير الناحية ؛ وكانت الجزائر حينذاك إحدى الولايات الثــلاث بالامبراطورية

العثمانية التي كان يطلق علـى رئيسها هذا اللقب مثـل ولاية الأناضول والروميلي في تركية أوربا .

ولأمير أمراء الجزائر التصّرف المطلق في المملكة الجزائرية وما يليها شرقاً الى الحدود المصرّية بما فيها من ولايات تونس وليبيا . ثم حُـدّ من سلطة حاكم الجزائر ، واقتصر له على المغرب الأوسط فقط ، وخرجت تونس وليبيا من حكمه . وبموجب ذلك تغيرّ لقبه ثلاث مرات ، فحوِّل أولاً الى الباشوية ، ثم الأغوية ، ثم الداياوّية حسب الترتيب التالي :

أ . عصر الفتح التركي من سنة ٩٢٠ هـ — ٩٥٠هـ(١٥١٤م— ١٥٤٤م) .

ب. عصرُ البيلرباي من سنة ٩٥٠ هـ — ٩٩٥ هـ (١٥٤٤ م — ١٥٨٧ م) .

ج . عصر الباشوات من سنة ٩٩٥هـ — ١٠٦٩ هـ (١٥٨٧م — ١٦٥٩ م) .

د . عصر الأغوات من سنة ١٠٦٩ هـ — ١٠٨١ هـ (١٦٥٩ م — ١٦٧١م).

هـ . عصر الدايات من سنة ١٠٨١ هـ — ١٢٤٦ هـ (١٦٧١ م — ١٨٣٠ م) .

وكان حكـّام بلاد الجزائر وولاتها في عهد البيلرباي والباشوات مخلصين لحكومة الباب العالي في استانبول . الى ان حدث خلال القرن الثاني عشر الهجري ما كان سبباً في تضعضع دعائم الصلة الأدبية التي كانت تربط ما بين حكومة الجزائر والباب العالي ، حيث شعر ولاة الجزائر بضعف السلطنة العثمانية وقصورها عن اتخاذ أسطول قويّ للدفـاع به عن نفسها وعن ممالكها النائية ، فجاهروا بقطع صلتهم بالباب العالي ، واستبدّت السلطة العسكرية المحليّة بالأمر ، واحتكرت لنفسها تولية حاكم الجزائر الأعلى بانتخابه من بين أفرادها أو من طائفة الرؤساء وقرصان البحر وتارة من بين الأتراك من غير مراعاة لنسبه أو حسبه أو منبته ، إنما هو تركي وكفى ؛ ولم يبق للباب العالي حينئذ غير الموافقة على من ينتخب لهذا المنصب من بين هؤلاء ، ويومئذ أصبح نظام الحكم التركي في الجزائر انتخابياً مستقلا ،

وللحاكم الجزائري الحريّة المطلقة فيما يفعله ، فله صلاحية الاتصالات السياسية بالأجانب ، وله حلّ المشاكل الخارجيّة بنفسه ، وله إعلان الحرب والسلم وإمضاء المعاهدات وإبرام العقود الدولية وقبول الممثلين الدبلوماسيين [1] .. الخ

واخيراً احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٢٤٦ هـ [2] (١٨٣٠ م) كما ستقرأ ذلك في قصة استعمار الجزائر .

٢ - تونس

-٧-

١ . الدولة الأغلبية

أ . يراجع ما جاء عنها في تاريخ الجزائر [3] من هذا الكتاب (٢٢٢ -٢٢٣) .

ب . أهم الحوادث في أيام هذه الدولة هي :

أولاً : فتح صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب (٢٠١ هـ - ٢٢٣ هـ) وذلك على يد أسد بن الفرات [4] سنة (٢١٢ هـ) .

ثانياً : إكمال فتح صقلية في أيام الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣ هـ - ٢٢٦ هـ) .

ثالثاً : فتحت جزيرة (مالطة) في سنة (٢٥٥ هـ) في أيام محمد

---

(١) انظر التفاصيل في تاريخ الجزائر العام (٢/٢٧٠ - ٣٩٦) .

(٢) في الفتوحات الإسلامية لابن دحلان (٢/٣١٦) أن احتلال فرنسا للجزائر كان سنة ١٢٤٥ هـ .

(٣) وانظر ما جاء عنها في خلاصة تاريخ تونس (٦٤ - ٧٧) .

(٤) ترد ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

الثاني بن أحمد (٢٥٠ ه ٢٦١ ه) .

رابعاً : إبتنى سنة ٢٦٤ ه مدينة (رَقّادَة) قرب القيروان ابراهيم الأصغر بن أحمد أخو محمد الثاني (٢٦١ ه — ٢٨٩ ه) . وهو الذي غزا ايطاليا ونازل مدينة (كُسَنْتَة) وتسمى اليوم (كُوسَنْتَة) .

٢ . الدولة العبيدية

أ . يراجع ما جاء عنها في تاريخ الجزائر من هذا الكتاب (٢٢٤) .

ب. أهم الحوادث في أيام هذه الدولة هي :

أولاً : بنى عبيد الله المهدي أول الفاطميين بإفريقية مدينة (المهدية) ، وكان ابتداء بنائه لها سنة (٣٠٣ه) وجعلها دار مملكته .

جـ — فتح القائم بأمر الله نزار ابو القاسم (٣٢٢ ه — ٣٣٤ه) مدينة (جنوة) بايطاليا بقيادة يعقوب بن اسحق ، وغزا (كُرْسِكا) و (سردانية) وغيرهما ، وبذلك علا صيت المسلمين في البحر وخشيتهم نصارى السواحل .

د — أنشأ مدينة (المنصورية)[١] قرب القيروان اسماعيل المنصور ابن القائم بأمر الله (٣٣٤ ه — ٣٤١ه)[٢] .

٣ . الدولة الصنهاجية

أ . يراجع ما جاء عنها في تاريخ الجزائر من هذا الكتاب (٢٢٨ — ٢٢٩) .

ب . في أيام تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ ه — ٥٠١ ه) استولى

---

(١) هي مدينة صبرة .

(٢) انظر التفاصيل في خلاصة تاريخ تونس (٧٨ — ٨٧) .

النورمانديون على (صقليّة) سنة (٤٨٤ هـ) بعد أن دام فيها ملك الإسلام أكثر من سبعين ومائتي عام . كما هاجم أسطول (جنوة) في ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين الف مقاتل (المهـديّة) وأحرقوا وسبوا ، وذلك في سنة (٤٨٠ هـ) ، حتى اضطر تميم هذا للركون الى الصلح على مال أخذوه وانصرفوا . ثم قصده بعدها أهل (روما) في ثـلاث وعشرين سفينة حربيّة ، فهزمهم تميم وقتل كثيراً منهم ، فأقلعوا خائبين .

جـ – وفي أيام يحيى بن تميم (٥٠١ هـ – ٥٠٩هـ) أنشأ أسطولاً عظيماً غزا به بلاد الروم منها (جنوة) و (سردانية) ، فصالحه أهلها على أموال طائلة .

د – وفي أيام الحسن بن علي بن يحيى بن تميم (٥١٥ هـ – ٥٤٣هـ) زحف النورمانديون ثانية سنة (٥٣٦ هـ) في ثلاثمائة مركب مشحونة بالجنود ، فتغلبوا على (سوسة) و (صفاقس) ، كما دخلوا (المهديّة) سنة (٥٤٣ هـ) ، ولم يلبثوا أن ملكوا معظم الثغور ، فأصبحت البلاد التونسيّة نهباً مقسوماً بين النورمانديين في السواحل والأعراب في الداخل ، وبـذلك انقرضت الدولة الصنهاجيّة من إفريقية [1] .

٤ – الدولة الموحديّة

يراجع ما جاء عنها في تاريخ المغرب من هذا الكتاب (١٨٥–١٩٩) [2].

٥ – الدولة الحفصية

يراجع ما جاء عنها في تاريخ الجزائر من هذا الكتاب (٢٣٣–٢٣٤) [3].

---

(١) انظر التفاصيل في مختصر تاريخ تونس (٨٨ – ١٠٠) .
(٢) وانظر أيضاً ما جاء عنها في مختصر تاريخ تونس (١٠١ – ١٠٤) .
(٣) وانظر أيضاً ما جاء عنها في مختصر تاريخ تونس (١٠٥ – ١٣٢) .

٦ ـ الدولة العثمانية

٩٨١ هـ الى ١١١٧ هـ

١٥٧٣ م الى ١٧٠٥ م

أ ـ يراجع ما جاء عنها في تاريخ الجزائر من هذا الكتاب (٢٣٥ـ٢٣٨)

ب ـ في أيام الحسن بن محمد أبي عبد الله (٩٣٢ هـ ـ ٩٤٢ هـ) زحف ملك الإسبان (شارلكان) على مدينة تونس سنة ٩٤٢ هـ (١٥٥٣ م) وأمر جيوشه بنهب المدينة، فاستباحوها بالقتل والأسر والسبي، حتى قيل: إن عدد سكان تونس كان مائة وثمانين ألفاً قتل منهم الثلث وأسر الثلث ونجا الثلث. ومن أفظع ما ارتكبه الإسبان هجومهم على جامع الزيتونة وتبديدهم ما كان فيه من نفائس المخطوطات، فأصبحت أثراً بعد عين.

ونصب شارلكان الحسن على كرسيّ الحفصيين وشرّك معه في النظر أحد قادة الإسبان العسكريين.

ثم إن شارلكان قبل مبارحته لتونس أمضى معاهدة مع الحسن الحفصي بتاريخ ٦ صفر ٩٤٢ هـ، تقضي بالترخيص للإسبان بسكنى جميع أنحاء القطر وإقامة طقوس دينهم، والتنازل لهم عن مدائن (عنابة) و (بنزرت) و (حلق الوادي) وأن يدفع الحسن للإسبان جزية ضخمة من المال سنوياً!!!

ولكن الحماية الإسبانية لم تكن لتدوم طويلاً لأنها جور وظلم، فقدم العثمانيون في أيام السلطان سليم الثاني بقيادة سنان باشا. فأبحر من القسطنطينية في غرّة ربيع الأنوار سنة (٩٨١ هـ) على رأس أسطول يضمّ ألف سفينة، فتمكن سنان من سحق الإسبان يوم ٢٥ جمادى الأولى (٩٨١ هـ)، وكان من جملة الأسارى المقبوض عليهم في هذه المعركة الأمير محمد بن الحسن الحفصي الذي أرسله سنان باشا الى الإستانة، فبقي معتقلاً بها إلى أن قضى

نجبه غير مأسوف عليه ، لأنه تعاون مع الأجنبي ، وبموته انقرضت السلالة الحفصيّة بعد أن حكمت ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاماً .

جـ . لما أتمّ سنان باشا فتح تونس وأعمالها ، كانت باكورة أعماله إلحاق القطر التونسي بالولايات العثمانيـــة ، فأصبح جزءاً من ممتلكاتها في إفريقية الشمالية الممتدة من الجزائر الى مصر . ثم اعتنى بحراسة البلاد ، فرتّب لها أربعـــة آلاف جندي من المتطوعين المشهورين باسم (الانكشارية [1]) ، وأناط نظر كل مائة منهم الى ضابط يسمى (الداي) ، وجعل لهم رئيساً وهو (الأغا) ، وخصص لجباية المال مأموراً يكنى بـ (الباي) ، ثم عاد سنان باشا الى الإستانة .

د . واستمرّ الحال على هذا الترتيب إلى أن ثار صغار الجند برؤساء الديوان وفتكوا بهم لجورهم سنة (٩٩٩ هـ) ، فعقـــد حينئذ الباشا وكبراء العسكر مجلساً أجمع رأيهم فيه على تقديم أحد الدايات للنظر في شؤون الإنكشارية وحفظ مدينة تونس .

هـ . وفي سنة (١٠٥٠ هـ) توفي آخر الدايات ، وبعد وفاته أخذ أمر الداي في التراجع حتى صار اسماً بلا مسمى ، وأصبح النفوذ والرياسة في يد (البايات) منذ سنة (١٠٤١ هـ) .

و . وفي سنة (١١١٧ هـ) انتقلت السلطات من يد (البايات) الى البيت الحسيني نسبة الى حسين باي الأكبر بن علي تركي ..

ز . وفي ١٢ جمادى الثانيـــة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م) احتلت فرنسا تونس وفرضت عليها الحماية ، وبقيت العائلة الحسينية تحكم

---

(١) وينطق بها : الينشرية ، ومعناها : الجنود الجدد ، وهم من الجيوش غير النظامية التي كانت بالدولة العثمانية قبل السلطان محمود .

تونس شكلياً حتى إعلان استقلال تونس ، والقضاء على هذه هذه الأسرة بإعلان الجمهورية كمـــا سيرد ذلك [1] في قصة استعمار تونس واستقلالها .

قصة استعمار المغرب العربي واستقلاله

-٨-

١ - الجزائر

أ . كانت الجزائر أولى المستعمرات الفرنسية في المغرب العربي ، وكانت قبل استعمارها ضمن أجزاء الإمبراطورية العثمانية وإن كان نفوذ السلطان بها نفوذاً إسمياً بحتاً ، إذ كان الداي صاحب النفوذ الفعلي الذي كانت حكومته على جانب كبير من الفوضى وسوء الإدارة .

وفي محادثة جرت بين القنصل الفرنسي والداي ، صفع الداي القنصل الفرنسي بمروحة في يده ، وكان ذلك سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ، فأرادت فرنسا الثأر لكرامة القنصل وانتوت غزو الجزائر ، ولكنّ الحق أنّ ذلك لم يكن سبب الغزو بل إنّ الحكومة الفرنسية أرادت ستر فشلها أمام المعارضة في بلادها ، حتى لقد أوشك الحكم الملكي الاستبدادي الذي أقامه شارل العاشر أن ينهار ، فأرادت الحكومة الفرنسية ان تقدِّم للشعب الفرنسي ما يلهيه على الحالة السيئة التي وصل اليها . وأكثر من هذا كان الأسطول الفرنسي مرابطاً في ميناء (طولون) لا يستطيع الخروج منها الى البحر الأبيض المتوسط بسبب عدم وجود قواعد فرنسية أو صديقة يتجه إليها خارج فرنسا .

---

(١) انظر التفاصيل في مختصر تاريخ تونس (١٢٩ – ١٨٨) .

وفي تموز (يونية) عام ١٢٤٥ هـ (١٨٣٠ م) وصلت الحملة البحرية الفرنسية [١] إلى (سيدي فروج) واستولت على مدينة الجزائر في الرابع من آب ١٨٣٠ م. فتقهقر الجيش التركي الى الداخل واضطر على التسليم قبل الخامس من تشرين الأول (نوفمبر) .

وحتى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) لم تكن فرنسا قد استولت على أكثر من ثلاث مدن ساحلية منفصلة عن بعضها ، بسبب مقاومة شعب الجزائر الذين تجمعوا تحت قيادة **(الأمير عبد القادر الجزائري)** ، وكانت المقاومة قوية ، إلى حدٍّ أن وجدت فرنسا نفسها مضطرة الى أن تعترف بسلطة الأمير في الداخل ، واتخذ الأمير مدينة (معسكر) عاصمة له .

وفي سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) تجدّد القتال بين الجانبين عنيفاً شاقاً وكانت حجّة فرنسا ، أن بعض القبائل الجزائرية طلبت حمايتها ، ولكنّ فرنسا اعترفت بسلطة الأمير عبد القادر الجزائري مرة أُخرى سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) .

وتجدّد القتال بين الطرفين في سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) وأستمرّ عنيفاً طوال سبع سنين ، طُرد فيها الفرنسيون إلى السواحل الشمالية أكثر من مرّة ، وتقهقر الأمير عبد القادر أيضاً أكثر من مرة ، حتى اضطر الى اللجوء الى المغرب ، فضغطت فرنسا على سلطان المغرب كي يطرد الأمير البطل من بلاده وإلا تعرّضت بلاده للغزو ، فأمره السلطان مكْرهاً بالخروج من المغرب ، فاضطر الأمير عبد القادر الى التسليم سنة ١١٦٤ هـ (١٨٤٧ م) ، فقبضت الحكومة الفرنسية عليه وألقي به في السجن خمس سنوات ، ثم أفرج عنه الإمبراطور نابليون الثالث في سنة ١٢٦٩هـ (١٨٥٢ م) على أن يقيم خارج البلاد ، فاختار سوريّة مقاماً

---

(١) ودع شارل العاشر هذه الحملة بخطبة صليبية جاء فيها : « إن العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الفرنسي ، سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية جميعها » . انظر الوحدة العربية (١٥٨) .



الأمير عبد القادر الجزائري
رحمه الله

له وظلّ بها الى ان مات .

وبقي الحكم العسكري طابع الإدارة الفرنسيّة في الجزائر حتى سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠ م) ، حيث أعلنت الجزائر جزءاً من فرنسا ، وجُعل لها نواب يمثلونها في الجمعية الوطنية الفرنسيّة [١] .

ب . كيف كان الإستعمار الفرنسي في الجزائر ؟

بعد انتصار فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ م ، تعهدت فرنسا باحترام حقوق شعب الجزائر الدينيّة والمدنية وعدم التعرّض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وأراضيهم وتقاليدهم ، ولكنّهم حين دخلوا مدينة الجزائر أستولوا على جميع ما في خزائنها ومخازنها من نقود وغلاّت ، ثم أعملوا يد النهب والسلب فيها ، واقترفوا من أنواع الفظائع ما كان عنواناً للسيرة الظالمة التي اعتزموا السير عليها في حكم الجزائر .

لقد كان تصرّف الغزاة سيّئاً كل السوء ووحشياً كلّ الوحشيّة ، مما كان مثار دهشة ونقد اللجنة التي عيّنها ملك فرنسا بعد احتلال السواحل الجزائريّة بثلاث سنين ، لتفقّد الأحوال وتنوير الحكومة الفرنسية بأحوال البلاد المحتلّة ، وممّا جاء في تقرير هذه اللّجنة : « إنّ المرء لو يقف لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط ، بل كان يخالف العقل أيضاً ، حيث إننا برغم الإستسلام الشريف الذي تمّ من جانب الجزائريين ، لم نراع حرمة العادات والأرواح ، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية ، وصادرنا أملاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها ، واستولينا بالظلم والضغط على الأملاك الخاصة دون أي مقابل ، ثم أجبرنا المالكين الذين حرمناهم بتلك الطريقة من أملاكهم على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها ، بل نفقات تدمير

---

(١) انظر التفاصيل في : استعمار إفريقيا (١٥٥ – ١٥٧) ، وانظر موجز تاريخ الجزائر (١٩٥ – ٢٠٥) .

مساجدهم . وقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والإعدام رجالاً لم تثبت إدانتهم ، ولم تجر محاكمتهم لمجرد الشكّ ، وقتلنا رجالاً يحملون جوازات مرور ، وذبحنا جماعات من السكّان لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم ، وقدّمنا للمحاكمة رجالاً مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد ، لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون إلينا ويقفون أمام غطرستنا متوسلين لإنقاذ مواطنيهم المساكين ، ووجدنا قضاة لم يتورّعوا عن محاكمتهم ، ورجالاً لم يحجموا عن تنفيذ الإعدام فيهم . وقد ألقينا في غياهب السجون الانفراديّة المظلمة رؤساء قبائل قدّموا لنا مؤناً وملاجىء ، وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربريّة البرابرة الذين جئنا لتمدينهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم » .

ومما فعله الفرنسيون بالجزائر إصدار الجمعية الوطنية الفرنسية قراراً بعد الاحتلال بنحو عشرين سنة باعتبار الجزائر أرضاً فرنسية وتطبيق قوانين فرنسا عليها دون منح الحقوق السياسية لشعب الجزائر . وهكذا ألغت فرنسا بهذا القرار الظالم شخصية الجزائر وحرمتها من أيّ شكل من أشكال الحكم الوطني ، فقسمتها الى محافظات [١] جعلت على رأسها حُكّاماً فرنسيين ، ثم جعلت على رأس إقليم الجزائر كلّه حاكماً فرنسياً عاماً . ثم أخذت فرنسا تزعم أن الجزائر جزء لا يتجزّأ من الوطن الفرنسي لا يمكن أن تنفصل عنه في أيّ حال من الأحوال .

وأصبحت الجزائر بعد مائة عام من احتلالها أي في سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) كما يلي [٢] :

نسبة الأميين فيها من العرب المسلمين ٩٥٪ ، وعدد الطلاب في مدارس الجزائر ستون ألفاً من بين أكثر من مليون فتى في سنّ الدراسة ، وهدف

---

(١) يطلق على المحافظات اسم الألوية ، جمع لواء ، في العراق ، وهي تشابه كلمة محافظة في الجمهورية العربية المتحدة وسورية . ويطلق على المحافظ في العراق كلمة : متصرف .

(٢) انظر التفاصيل في كتاب : تاريخ الجزائر لتوفيق المدني الذي طبع ونشر في الجزائر سنة ١٩٣١ م .

التعليم إنشاء جيل متفرنس لا يعرف عن العرب والإسلام شيئاً . والحالة الصحية سيئة جداً ، والأمراض الخبيثة تفتك بالشعب فتكاً ذريعاً .

وقد بلغ عدد الذين نزحوا من فرنسا الى الجزائر حتى سنة (١٩٣١ م) نحو (٦٣٠) ألفاً أقطعتهم السلطات الحاكمة مليوناً وسبعمائة الف هكتار من أراضي الدولة والبلديات بأثمان إسميّة ولآجال طويلـة ، وانتزعوا من الأهالي أراضيهم بأبخس الأثمان . وتكاد تكون مزارع كروم العنب حكراً عـلى المستعمرين وحدهم ، أما مزارع الزيتون فالمستعمرون يملكون نحو نصفها .

واستثمار المعادن حكر للمستعمرين ، وكذلك الصناعات ؛ والإدارة الحكومية إدارة فرنسية تحت سلطان الحاكم العسكري العام ، ورؤساء المصالح فرنسيون ، والوظائف المهمة محصورة فيهم .

وقد أصدرت السلطات الفرنسية عام ١٢٧٦ هـ (١٨٥٩ م) مرسوماً يُخرج القبائل العربية من نطاق القضاء الإسلامي ويجعلها تابعة لقضاء خاص ، وشجعت التبشير فيهم تشجيعاً عظيماً ، وكان مما يلقنه المبشرون لهم أنهم أوربيون مسيحيون في أصولهم ، وأن العروبة والإسلام أجنبيّان عنهم .

وقد أصبح أغلب سكان القرى والبراري عمـالاً زراعيين عند المستعمرين ، وكادت حالتهم تشبه حالة عبيد الأرض في القرون الوسطى ، لا يملكون حرّيتهم ولا يكادون يحصلون عـلى ما يسدُّ رمقهم ويستر عورتهم .

وفي سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) أوفدت الجمعية الوطنية الفرنسية لجنة برلمانية الى الجزائر ، فكان مما ذكرتـه في تقريرها : ١ - إنّ حالة الجزائريين الإقتصادية سيئة للغاية ، ٢ - إنّ الجهود التي تبذلها السلطات الفرنسية في الميدانين الإجتماعي والإقتصادي لم تفـد غير الاوربيين ، ٣ - إن غالبيّة الجزائريين في فقر وجهل وبؤس مفزع يتزايد كلما اتجه

المرء الى الجنوب ، ٤ — إن اجرة العامل الزراعي منخفضة جداً ، ٥ — إن خطط التجديد والتنظيم لم تكد تتناول إلاَّ المناطق الأوروبيّة ، ٦ — إنّ الزرّاع الجزائريين يعيشون على منتجات أرض جدباء عسيرة ، ٧ — إنّ الأوربيين لا يدفعون إلاّ ضرائب خفيفة [١] .

فماذا بعد الضغط الشديد غير الإنفجار الشديد ؟

ج — إنّ جذور الثورة الجزائرية تمتد الى عام (١٨٣٠ م) حين نزل أوّل جندي فرنسي في الجزائر ، ولكن هذه الثورة كانت في مدٍ وجزرٍ حتى تحقق للجزائر النصر الحاسم على فرنسا ، فانتصر الحق على الباطل ، والنور على الظلام .

إنتهت ثورة البطل عبد القادر الجزائري سنة (١٨٤٦ م) بعد أن ظلّت تقاوم سبعة عشر عاماً [٢] ، وفي سنة (١٨٥٧ م) ثار الشعب الجزائري بقيادة (لالا فاطمة) . فاضطر الحاكم العام الفرنسي [٣] إلى أن يخرج لإخمادها بنفسه على رأس جميع قواته ، فتمكن بعد عدّة معارك دامية أن يهزم الثوار ويأسر الزعيمة الوطنية الثائرة (لالا فاطمة) وبذلك أُخمدت الثورة الوطنية الجزائرية الثانية .

وفي عام (١٨٦٤ م) ثار الشعب الجزائري بزعامة (سي سليمان) في جنوب الجزائر ، فخفت القوات الفرنسية للقضاء على الثورة ، ولكنّ الثوار كمنوا لها وطوّقوها وكبّدوها خسائر فادحة ، وكان من جملة القتلى قائد الحملة الفرنسية [٤] . ولكنّ قائد الثورة استشهد فخلفه اخوه

---

(١) انظر التفاصيل في الوحدة العربية (١٥٦ — ١٠٨) ، وانظر ايضاً : اضواء على الإستعمار الفرنسي للجزائر (٥ — ٢١) وكتاب : عشت مع ثوار الجزائر (١٣ — ٩٣) .

(٢) مات البطل عبد القادر الجزائري في دمشق ، ونقلت رفاته الى الجزائر فوصلت مدينة الجزائر يوم ٥ — ١٩٦٦/٧ واستقبلت إستقبالا فخماً ، ودفنت الرفاة يوم ١٩٦٦/٧/٦ .

(٣) الجنرال بوبريتر .

(٤) راندون .

(سي الأزرق) ؛ فأسرع نابليون الثالث بإرسال أقوى قوّاته الى الجزائر . وفتك الثوار بالفرنسيين ، فجردت فرنسا جميع جنودها ، واستمرّت الإشتباكات عشرين عاماً ، وأخيراً أخمد الفرنسيون الثورة سنة (١٨٨٤ م) وبلغ مجموع شهداء الجزائر خلال نصف قرن مليوني شهيد .

ولم يخضع الشعب الجزائري الذي فقد نصف تعداده وكل موارده تقريباً ، وفي سنة (١٩٣٠ م) خرج من بين الجماهير زعيم وطني هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري هو الزعيم خالد الجزائري فحفر في القلوب شعار : « الجزائر عربية ، ولن يقرّ لها قرار إلاّ بعد تحرّرها من الاستعمار » ، وبعد وفاته عام ١٩٣٧ م خلفه مصالي الحاج الذي كوّن حزب الأمة الجزائري الذي لم يلبث أن حلّته السلطات الفرنسية وألقت بأكثر أعضائه وبزعيمه في السجون [١] .

وكانت الجزائر بنوع خاص ملجأ للحركة الفرنسية الديغولية [٢] بعدما سقطت فرنسا تحت أقـدام الألمان في الحرب العالمية الثانية ، وكان رجال هذه الحركة يشيدون بشعب الجزائر لما قدّموه لهم من معونة عظمى ويتملقونهم ويغدقون عليهم الوعود ، ولكنّهم لم يلبثوا أن نسوا يـد الجزائر عليهم ونكثوا بما قطعوه على أنفسهم من عهود للجزائر ، إذ لم تضع الحرب العالمية الثانية أوزارهـا إلاّ وعادوا إلى سيرتهم الباغية الأولى .. !

فقد أخذ الجزائريون يطالبون بالاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، فكافأتهم الحركة الديغولية مكافأة اللئيم الغادر كما فعل أسلافهم من قبل ، فأوقعت بالجزائريين مذبحة هائلة ذهب ضحيتها نحو (٤٥٠٠٠) نسمة في

---

(١) انظر : عشت مع ثوار الجزائر (١٢٣ - ١٢٦) . وانظر التفاصيل في الوحدة العربية (٤٠٨ - ٤١٦) والجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة (١٨ - ٣١) والجزائر الثائرة (٥٣ - ٦٩)
(٢) نسبة الى الجنرال ديغول رئيس جمهورية فرنسا حالياً .

سنة (١٩٤٥ م) ، حيث قصفت منطقة (قسنطينة) و (سطيفة) بالطائرات والمدافع ، ودُمِّرتِ المدنُ والقرى فوق رؤوس أهلها .

وتجدّدت حركة الجهاد سنة (١٩٥٤ م) فسارعت فرنسا الى حشد جيش بلغ تعداده أربعمائة ألف جندي مجهزين بأحدث الأسلحة الفتّاكة ، وأخذت تبيد أهل الجزائر بدون رحمة ؛ فقرّرت هيئة الأمم المتحدة عام (١٩٥٥ م) مناقشة قضية الجزائر ، ولكن فرنسا سحبت وفدها ، وأنذرت بالانسحاب نهائياً من هيئة الأمم المتحدة ، وفعلت مثل ذلك سنة (١٩٥٦ م) حينما قرَّرت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة مناقشة هذه القضية والتوصية بإيجاد حلٍ سلمي لها [1] .

وقد لاقى الجزائريون صنوفاً من التعذيب تشمئز منه البشرية [2] وكان المعذّبون على الأكثر من الذين يتّهمون بمعاونة الثوار ، وهذه التهمة كافية من دون إثبات لتعذيب المرء رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً أم شيخاً عذاباً لا يُعذّبه أحد !! ..

ولكنّ الشعب الجزائري ظلّ صامداً يخوض معركة مصيريّة بقيادة جبهة التحرير ، وتهاوت الحكومات الفرنسية الواحدة بعد الأخرى على مذبح المسألة الجزائرية . وكان من الواضح أنّ فرنسا أصبحت تتوق إلى وضع حـــد لثورة الجزائر . التي أثبتت الأيام بأنها لن تنته أو تخمد جذوتها قبل أن تقضي على فرنسا نفسها .

وفي سنة (١٩٥٨ م) تولّى الجنرال دي غول رئاسة الجمهورية الفرنسية ، فحاول اتخاذ إجراء لإيقاف إطلاق النار في الجزائر دون جدوى. وفي سنة (١٩٦٠ م) أعلن دي غول إستعداده لفتح مفاوضات مع

---

(١) انظر التفاصيل في : الوحدة العربية (١٦٨ — ١٦٩) .

(٢) انظر التفاصيل في : ضد التعذيب في الجزائر (٤٧ — ٦٣) وذكريات معركة الجزائر (٣١ — ٤٧) .

الجزائريين ، ولكنّ الجزائريين رفضوا شروط فرنسا في المفاوضات ، وطلبوا إجراء استفتاء في الجزائر تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ م ، اتّخذ مجلس تضامن الشعوب الإفريقيّة الآسيوية بالإجماع قراراته التي جاء فيها بشأن الجزائر « إنّ المجلس قرّر مطالبة جميع الشعوب والحكومات المستقلة في إفريقيّة وآسيا ، بتطبيق المقاطعة الاقتصادية ضدّ فرنسا ، والإعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية » ؛ وهاجم المجلس المساعدات التي تقدّمها منظمة حلف شمال الأطلسي لاستمرار الحرب الاستعمارية التي تشنّها فرنسا على الشعب الجزائري ، وأيد اقتراح الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بإجراء مفاوضات مع حكومة فرنسا على الشروط والوسائل التي تمليها ممارسة حق تقرير المصير بحريّة تامّة .

وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ م ناقش مؤتمر وزراء خارجية الدول العربية الذي عقد في بغداد والذي اشترك فيه الجزائريون ، قضية الجزائر ، وأصدر قرارات مهمّة حولها تأييداً للجزائر .

وفي ١٥ آذار (مارس) سنة ١٩٦١ م أعلنت الحكومة الفرنسية أنها على استعداد للدخول في مفاوضات رسمية مع زعماء الجزائر ، وفي ١٧ آذار سنة ١٩٦١ م اعلنت حكومة الجزائر موافقتها على العرض الذي قدّمته رسمياً حكومة فرنسا بإجراء مفاوضات بين الجانبين لإقرار السلام في الجزائر .

وتعثّرت المفاوضات ، ولكنّ القتال توقف في آذار (مارس) ١٩٦٢ م رسمياً بين قوات الاستعمار الفرنسي وقوات جبهة التحرير الجزائرية بعدما عُقد الإتفاق بين الحكومة الفرنسية وحكومة الجزائر المؤقتة إثر مفاوضات سرِّية ناجحة في (إيفيان) ، وقد تضمنت اعتراف فرنسا بحق الجزائر في الإستقلال وتقرير المصير ، والإعتراف للشعب الجزائري

بحقوق السيادة على أراضيه [1] .

وانتصرت الجزائر بعد أن سقط من أبنائها مليون شهيد .

٢ ــ تونس

أ . كان الفرنسيون يتطلّعون الى استعمار تونس بعد نجاحهم في الحصول على موطىء قدم لهم في الجزائر ، وقد بعث استيلاء فرنسا على قسم من الجزائر الرعب في كل من باي تونس وسلطان المغرب ، حتى لقد أرسل الأول تهنئة لهم على هذا النصر وعرض عليهم أن يتولى ابنه السلطنة فيها بإسم الفرنسيين [2] ! !

وأخذت فرنسا منذ انكشف لها موقف باي تونس المتميّع تتدخل في الشؤون التونسيّة ، وكان للفرنسيين جالية كبيرة العدد في تونس تعمل في التجارة ، وكان بعض أفرادها الأغنياء أصحاب نفوذ في بلاط الباي ، وكان لتونس جيش لم يزد تعداده على بضعة آلاف وسلاحهم من الطراز القـديم .

وكان الباي محمد الصادق الذي تولى عرش تونس في سنة (١٨٥٩م) أول من حدّ سلطته حين منح الشعب دستوراً في سنة (١٨٦١ م) أُنشىء بمقتضاه المجلس الكبير الذي كان كلّ أعضائه معيّنين من الباي ، ويملك - ولو من الوجهة النظرية - حق الإشراف على أعمال الوزراء ، كما يملك حقّ التشريع وإقرار الميزانية .

وكان الإصلاح الذي أراد الباي إدخاله سبباً في كثرة النفقات ، الأمر

---

(١) انظر التفاصيل في : الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة (٩٨ - ١٢١) وانظر مستقبل افريقيا السياسي (١٧٢ - ١٧٩) . والجزائر الثائرة (١١٧ - ٢١٦) .

(٢) وصدق الله العظيم : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ». والآية الكريمة من سورة المجادلة (٥٨ : ٢٢) .

الذي لم تتحمله الميزانية ، مما اضطر الباي الى عقد القروض .

وفي سنة (١٨٦٥ م) عجزت الحكومة عن دفع فوائد القروض الضخمة التي عليها ، فتدخلت الدول الأجنبية ، وجمعت الديون في دين موحّد بفائدة ١٢ ٪ بلغ أربعين مليوناً من الجنيهات . ولكنّ ذلك لم يحل المعضلة ، فتألّفت لجنة مختلطة جعلت أوّل همّها إقامة إدارة ماليّة صالحة لأجل ضمان دفع فوائد الديون ، وكذلك من أجل تنظيم الإيرادات والمصروفات . كما أُلفت لجنة أخرى إداريّة يرأسها تونسي الى جانب اللجنة المختلطة لتشرف على تنفيذ قراراتها ، وكان ذلك في سنة (١٨٦٩م) .

ولكنّ المنافسة بين الدول الأجنبية أعضاء اللجنة ، أدّت الى عدم انتظام عمل اللجنة ، وكانت المنافسة أقوى ما تكون بين فرنسا وإيطاليا . وكثيراً ما كانت فرنسا تلجأ الى الإلحاح على الباي في طلب المزيد من الامتيازات لرعاياها ، وكان الباي يلجأ الى القنصل البريطاني مدّعياً أنّ الإمتيازات بيد السلطان العثماني الذي تؤيِّدُهُ بريطانيا وتدفعه الى ارسال مراسيم جديدة الى الباي تؤكِّد تبعيّة الباي له ، كما حدث في سنتي (١٨٧١ م) و (١٨٧٤ م) .

وكانت فرنسا تنظر الى استيلائها على تونس كخطوة طبيعيّة لوجودها في الجزائر ، لا سيما وليس هناك حدود طبيعيّة تفصل بين تونس والجزائر .

وبذلت فرنسا جهودها السياسية للحصول على موافقة الدول الكبرى خاصّة بريطانيا وإيطاليا وألمانيا لإطلاق يدها في احتلال تونس .

وفي ٢٨ تموز (يوليه) سنة (١٨٧٧ م) ، قدّم القنصل الفرنسي مشروع معاهدة الى الباي ، فرفضه كما رفض كلّ مفاوضة فيه . ولم تكن فرنسا حينذاك مستعدة لإستخدام القوة العسكرية ، ولكن حصول إيطاليا على إمتياز مدّ خط حديدي في تونس ، عجّل بالتدخل الفرنسي ،

فصرّح وزير خارجية فرنسا « إن تونس امتداد طبيعي للجزائر » .

وأعادت فرنسا محاولتها لإقناع الباي بمزايا الحماية الفرنسية وذلك في كانون الثاني (يناير) من سنة (١٨٨١ م) ، ثم سارعت لإيجاد المبرر للتدخل ، فادّعت أن بعض القبائل التي تسكن المناطق الغربيّة على الحدود الجزائريّة قد تكرّرت اعتداءاتها ، وادّعت فرنسا رغبتها في تأديب هذه القبائل التي لا يملك الباي سلطة ما عليها .

وفي نيسان (إبريل) من سنة (١٨٨١ م) أبلغت فرنسا البايّ انّ الجنود الفرنسيين سيعبرون الحدود الغربية التونسيّة لتأديب هذه القبائل ، وطلبت من الباي المساعدة من اجل تسهيل مهمتها ، فأمر الباي جيشه بالإنسحاب أمام القوّات الفرنسيّة !!!

وفي نهاية نيسان (إبريل) عبر الجنود الفرنسيّون الحدود التونسيّة دون مقاومة ، وفي أوّل مايس (مايو) وصلت حملة بحريّة احتلت ميناء (بنزرت) وتقدّمت الى العاصمة وحاصرتها ، وقدّمت المعاهدة التي حملت اسم معاهدة (باردو) الى الباي فوقعّها في ١٢ مايس (مايو) . وفي هذه المعاهدة ما يخوّل فرنسا احتلال الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً ، وتمثيل الباي وتونس في البلاد الاجنبية ، وتحرم الباي من إبرام أيّ عقد ذي صيغة عامة مع أيّ دولة دون علمها وموافقتها.

ولم تكتف فرنسا بما فرضته من الشروط التي قضت على سيادة تونس، بل أجبرت الباي على إصدار مرسوم بإعتبار ممثلها في تونس وزيراً للخارجية. وفي سنة (١٨٨٣ م) أُجبر الباي على توقيع معاهدة جديدة أقرّ فيها الباي بوضع بلاده تحت الحماية الفرنسيّة ، على أن يمثل فرنسا في تونس مقيم عام توضع في يده جميع السلطات التي تكفل له تقديم المشورة الى الباي ، ويكون الباي ملزماً بقبولها [1] .

---

(١) انظر التفاصيل في: استعمار إفريقيا (١٥٩-١٦٤) وانظر الوحدة العربية (١٧٠-١٧٢) .

ب . كيف كان الإستعمار الفرنسي في تونس ؟

هكذا حلّت فرنسا محلّ الدولة التونسية ، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكماً شبه مباشر ، وجعلت ممثلها في تونس هو الحاكم الأعلى والآمر المستبد فيها . ومن ثم أخذت تسير على نفس الخطة الرهيبة التي سارت عليها في الجزائر : جعل هذا القطر مستعمرة فرنسية ، ونهب ثروات الشعب التونسي ، وتجريده من مقوماته القومية والدينية ، وتغيير لسانه ودينه ، ومحاولة اقتطاعه من كيانه العربي وتحويله الى فرنسي ، وتشجيع هجرة الفرنسيين إليه ، وإقطاعهم المزارع والأملاك المُصَادَرَة ، وتأييدهم بكلّ وسائل التأييد ليساعدوا على تحقيق مخطّطات الإستعمار ، والإستعانة بقوّة الحديد والنار والقمع والتنكيل والتشريد للسيطرة على التونسيين .

ومع أنّ فرنسا أبقت الباي يمثل الدولة التونسيّة ويعبّر عن كيان تونس خلافاً للجزائر ، إلاّ أنها سلبته كلّ سلطاته ، وقيّدته بقيود جعلته لا يتحرّك إلاّ كما تريد فرنسا .

وكان يتولّى السلطة التنفيذيّة مجلس وزراء تونسي ، ولكنّ فرنسا شلّتْ يد هذا المجلس ، إذ وضعت بجانب كلّ وزيرٍ مديراً فرنسياً بيده كلّ السلطة [1] ؛ وأحدثت منصب : (أمين السر العام) مرتبطاً بالمقيم العام الفرنسي وربطت به جميع المديرين الفرنسيين .

وقد وُضع الى جانب كلّ حاكم عام إداري (محافظ) في الإقليم مراقبٌ فرنسي ؛ وجعل الأمر والنهي كلّه إليه ، وُجعل مسؤولاً أمام المقيم العام وحده . وقد سلخت المنطقة الجنوبيّة عن السلطة المدنيّة التونسية ، وجعلت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضِعُون للمقيم العــام .

---

(١) كان وضع الوزير التونسي كما قال الرصافي :

المستشار هو الذي شرب الطـــلى فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟!

وقد ملئت دوائر الحكومة بالموظفين الفرنسيين من جميع الدرجات استهدافاً لإضعاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الفرنسية ؛ وكادت وظائف التونسيين تقتصر علـــى الدرجات الثانوية التافهة ، إذا استثنينا الوظائف العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليها مثل الوزارات والحكام الإداريين ، الذين كانوا أشباحاً ليس لهم من الأمر شيء !

وأُشهر سيف الإرهاب على الحريات العامة بسلسلة من المراسيم واللوائح الجائرة . فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لأقسى العقوبات ، والاجتماعات العامة مقيدة أيضاً بقيود شديدة ، وحرية التنقل للتونسيين داخل بلادهم مقيدة أيضاً بقيود شديدة . وسُنّت قوانين الخدمة الإجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل تعلنه السلطات بالأجر أو بالشّكل الذي تراه ، وكثيراً ما أعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع إستثماريّة واستعماريّة وزراعية تخص المستعمرين الفرنسيين ، وأجبرت التونسيين على خدمة تلك المشاريع !!

واستولت فرنسا على الأراضي الأميرية ، ووزّعتها على المستعمرين الفرنسيين ، ثم أصدرت تشريعاً ألحقت بموجبه الأراضي البور بأملاك الدولة وأخذت تتعسّف في تحديدها وتُدخل فيها مساحات واسعة من أملاك الأهلين الخاصة المجاورة وتُقطعها الى المستعمرين ، وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات . ووضَعَت فرنسا يدها على مصادر الريّ في المنطقة الجنوبيّة واعتبرتها ملكاً للدولة ، ثم أخذت توجِّه صرفها الى أراضي المستعمرين في هذه المنطقة . وألحقت أراضي القبائل وغاباتهم بأملاك الدولة ، وأخذت تُقطع منها ما تشاء للمستعمرين . ولم تعفّ فرنسا عن أراضي الوقف الخاصة والعامة ، فأمرت إدارة الوقف بوضع ألفي هكتار سنوياً تحت أمر إدارة خاصة أنشأتها مقابل ثمن بخس يقدِّره خبير فرنسي لتوزيعها على المستعمرين .

وقد حصرت فرنسا إمتيازات المعادن بالفرنسيين ، وَوضَعَت شتّى العراقيل في طريق الصناعات الوطنية حتى كادت تقضي عليها ، وحمت الصناعات والسلع الفرنسية بالامتيازات والاستثناءات حتى غدت المتحكمة في السوق .

ولا يحظى من أطفال العرب الذين هم في سنّ التعليم بمقاعد مدرسيّة حكومية إلاّ نحو العُشْر ، وقد كان عدد الذين هم في مدارس الحكومة منهم سنة (١٩٤٧م) نحو (٦٠٠٠٠) من (٧٠٠٠٠٠) ، في حين كان عدد أبناء الأوربيين في مدارس الحكومة نحو (٦٥٠٠٠) أي أن جميع أولاد المستعمرين في المدارس الحكوميّة .

وكان منهج التعليم في المدارس الحكومية فرنسياً صرفاً ، لا يكاد يوجد فيه للعربية والدين الإسلامي مكان .

وعناية السلطات الفرنسيّة بالمرافق الصحيّة والإجتماعية بالنسبة للعرب ، تبدو مظاهره في انتشار الأمراض وسوء المسكن والغذاء وضعف البنية والحياة المتخلفة التي يعانيها السواد الأعظم من التونسيين .

وجنّدت فرنسا شبابَ تونس وأبعدتهم عن بيئتهم العربية الإسلامية تحقيقاً لخطتها الرهيبة في فرنستهم .

وفتحت أبواب التجنس بالجنسية الفرنسيّة أمام التونسيين لسلخهم عن الكيان العربي الإسلامي ودمجهم في الحياة الفرنسيّة .

وضربت فرنسا ستاراً حديدياً على تونس لتجعله في عزلة عن البلاد العربية على النحو الذي فعلته في الجزائر[١] .

جـ . حين أجبرت فرنسا الباي على توقيع معاهدة ١٢ مايس (مايو) سنة (١٨٨١ م) ، قامت الثورات في الجنوب والشرق بقيادة علي بن

---

(١) انظر التفاصيل في : الوحدة العربية (١٧٠ — ١٧٦)

خليفة ، فأعلنت فرنسا أنها ستتعاون مع الباي لسحقها ؛ ولكن جنود الباي لم يقدّموا معونة ما ، بل أُعلن الجهاد على فرنسا . واستفحلت الثورة ، وبلغ من عنفها أنّ فرنسا لجأت إلى استخدام الأسطول ، وأرسلت حملة أخرى قوامها (٤٥) ألفاً من الجنود ضربت (صفاقس) و (قابس) بالقنابل واحتلّت (تونس) و (القيروان) [١] .

واستمرّت الثورة شهوراً ، ومع أنّ القوّة غلبت الحقّ ، فقد ظلّت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم فرنسا بزعامة علي بن خليفة نحو ثلاثين سنة . لم تكد فرنسا تقضي على ثورة علي بن خليفة عام (١٩١١ م) ، حتى نشبت في الجنوب ثورة ثانية قامت بها قبائل **بني زيد** سنة (١٩١٥ م) واستمرّت عنيفة سنتين ، وكلّفت فرنسا كثيراً من الضحايا والمال .

وفي مطلع القرن العشرين ، أخذت الحركات الوطنية في تونس تدخل في نطاق التنظيم ، ومن أوائل قادة الحركة الوطنية التونسية ومنظميها **علي باش وعبد العزيز الثعالبي بإنشائه الحزب الحر الدستوري ، ثم تولى هذه القيادة الحزب الدستوري الجديد وما يزال .**

وفي سنة (١٩٢١ م) اندلعت نيران المظاهرات الصاخبة في تونس احتجاجاً على اعتقال الثعالبي ومحاكمته بتهمة التآمر على فرنسا مع الأعداء! فأطلقت فرنسا سراح الثعالبي ، ووعدت بالنظر في مطالب تونس .

وتشجع الباي **محمد الناصر** وتقدّم بطلب الإستقلال والسيادة ، وهدّد بالتخلي عن العرش إذا لم تلب مطالبه . وتوتّرت الحالة بين الباي والمقيم العام ، فأرسل هذا قوّة من الجيش حاصرت القصر سنة (١٩٢٢ م) ، فقامت مظاهرات جديدة شملت المدن التونسية ، وأوشك الحال أن ينقلب الى ثورة عاصفة ، ممّا اضطر السلطات الفرنسيّة الى التراجع والتهدئة وإغداق الوعود ؛ ولكن ما كادت الأمور تهدأ في تونس حتى نسيت فرنسا وعودها واشتدّت في مطاردة الوطنيين وتشريدهم .

---

(١) إستعمار إفريقيا (١٦٤) .

ولم يكن هذا ليطفىء الشعلة ، إذ انبعثت الحركة الوطنية من جديد على يد الحزب الدستوري الجديد الذي تأسّس سنة (١٩٣٢ م) ، وكان من أول خطواته عقد مؤتمر سنة (١٩٣٣ م) تقرّر فيه إقرار ميثـاق قومي لتونس ، تضمّن وجوب تحرير البلاد من ربقـة فرنسا واستقلالها استقلالاً تامـاً .

وعمدت فرنسا الى مطاردة رجال الحزب واعتقال من ظفرت بهـم ونفيهم الى الصحارى واستعمال خُطّة البطش والإرهاب ، فكان الردّ على ذلك من التونسيين قيامهم بالمظاهرات الصاخبة في مختلف أنحاء البلاد .

وفي سنة (١٩٣٦ م) أصبح جميع الشعب التونسي تقريباً متكتّلاً في هذا الحزب ، وفي سنة (١٩٣٨ م) نشبت الإضطرابات الواسعـة في تونس وقامت المظاهرات التي ظهرت فيها قوة الحزب .

وأعلنت فرنسا حلّ الحزب الحر الدستوري واعتبرتـه غير قانوني ، فعمد الذين استطاعوا الإفلات من رجاله الى التنظيم السِّري ، وكان تنظيماً قوياً أزعج فرنسا أشدّ الإزعاج قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنـائها ، وظلّ يمارس نشاطه الى سنة (١٩٥٤ م) ، حيث أعلنت فرنسا إلغاء قرارها نتيجة للخطوة التي خطتها فرنسا نحو إرضاء تونس .

وفي سنة (١٩٥٠ م) أُثيرت القضية التونسية في هيئة الأمم المتحدة من الدول العربية بمناصرة الدول الآسيوية والإسلامية ، ووقف مندوبو هذه الدول يندّدون بفرنسا ويؤيدون تونس في الحرية والاستقلال .

واشتدت حركة الجهاد التونسي منذ أواسط سنة ١٩٥٣ م وتطوّرت الى أن أصبحت حرباً تحريريّة ، وصار لها كتائب تضم الآلاف من المجاهدين المنظّمين المسلّحين ، وقـد أخذت بحركاتها واندفاعها تثـير الرعبَ في الفرنسيين سلطات ومستوطنين ، وفي الموالين والمتعاونين من التونسيين مـع فرنسا ، حيث أخذت تفتك فيهم فتكاً ذريعاً ؛ وقد استطاع المجاهدون

السيطرة التامّة على المناطق الجبلية الواقعة في غرب تونس والممتدة من الشمال الى الجنوب ، فضلاً عن نشاطها في مدن وريف المناطق الأخرى.

وجنّ جنون السلطات الفرنسية ، فطاردت واعتقلت وقتلت وحاكمت وأعدمت كثيراً من التونسيين بمحاكمات صورية وبتهمٍ ضعيفة ، كما قتلت كثيراً بدون محاكمة ونَسَفَت كثيراً من المنازل في مدن عديدة ، واعتقلت المئات من الشباب التونسي ، وعمدت الى أسلوب في غاية الفظاعة ، حيث أنشأت منظّمة سريّة للفتك بمن يناصرون الحركة الوطنية من كبار التونسيين واغتالت بعضهم فعلاً .

وضاعفت فرنسا عدد جنودها في تونس ، فبلغ مجموع قوّاتها خمسين آلفاً ، وأنشأت بالإضافة اليها ثمانٍ وأربعين وَحْدَة مقاتلة متنقّلة من المستوطنين الفرنسيين لتتولّى حماية مَنْ يعيش منهم في المناطق المنعزلة ، وأنشأت وحدات مقاتلة أخرى منهم لتتولّى حماية الذين يعيشون منهم في المدن وسلّحت كلّ قادر على حمل السّلاح من المستوطنين في المدن والريف تسليحاً قوياً للدفاع عن نفسه وذويه .

ولم يكن كلّ ذلك ليضعف حركة الجهاد ، فازداد نشاطها قوةً وتأثيراً ، وكان من تأثير ذلك تأليف وزارة تونسية جديدة اشتركت فيها عناصر وطنية أجرت المفاوضات مع فرنسا وكسبت لتونس مكاسب غير يسيرة تعتبر خطوة إلى الأمام نحو الحرية والإستقلال .

وفي ربيع سنة (١٩٥٦ م) تمّت خطوة ثانية نحو تحقيق سيادة تونس . حيث اعترفت فرنسا بموجب ميثاق وقّعته مع الحكومة التونسية في ٢٠ آذار (مارس) سنة (١٩٥٦ م) بسيادة تونس الخارجيّة بالإضافة الى سيادتها الداخليّة التي اعترَفَتْ بها من قبلُ ، فأصبح لتونس بذلك الحقّ في إنشاء جيش تونس وتمثيل نفسها في الخارج .

وأُجيب طلب تونس بالإنضمام الى هيئة الأمم في خريف عام (١٩٥٦) ،

فكانت هذه الخطوة متممة للخطوات السابقة .

وفي تموز (يوليه) سنة ١٩٥٧ م قرّر المجلس التأسيسي التونسي خلع باي تونس محمد الأمين وإعلان الحكم الجمهوري ، فتولى الرئيس الحبيب بورقيبة منصب رئيس جمهورية تونس [١] .

٣ - المغرب (مراكش)

أ . أولاً : بدأت فرنسا تتطلّعُ إلى المغرب منذ احتلّت الجزائر ، ولكنّها لم تبدأ خطواتها الجدِّية في هذا السبيل إلاّ بعد أن انتهت من احتلال تونس سنة ١٨٨٣ م .

وكانت فرنسا تدرك أنّ أكثر الدول الغربيّة تتطلّع الى المغرب ، مثل إيطاليا التي ساءها احتلال فرنسا لتونس ، وإسبانيا التي تواجه المغرب وترى نفسها أحقّ الدول بإحتلاله ، وإنكلترا التي تسيطر على (جبل طارق) لا سيما بعد أن احتلّت مصر سنة (١٨٨٢م) ووضعت يدها على قناة السويس وأصبح البحر الأبيض المتوسط طريقها الى الهند ، وكذلك ألمانيا التي بدأت تتطلّع الى الحصول على المستعمرات .

وبدأت فرنسا بأن عقدت مع إيطاليا إتفاقاً في سنة (١٩٠٢م) يطلق يدها في المغرب نظير إطلاق يد إيطاليا في طرابلس ، وفي سنة (١٩٠٤ م) عقدت اتفاقاً مماثلاً مع بريطانيا نظير إطلاق يد بريطانيا في مصر ، وعقدت إتفاقاً ثالثاً مع إسبانيا يبيح لها احتلال المغرب إذا تركت جزءاً منه الى اسبانيا . . ولكنّ فرنسا عجزت عن عقد اتفاق مماثل مع ألمانيا ، لا سيما وقد أسرعت ألمانيا وعقدت اتفاقاً مع المغرب في سنة (١٩٠٥ م) ، وزار

(١) انظر التفاصيل في : الوحدة العربية (٤١٧ – ٤٢٤) وانظر : الإسلام والعرب (١٥٩ – ١٦٢) ، وانظر مستقبل إفريقيا السياسي (١٨٠ – ١٨٤) .

امبراطور ألمانيا على أثره مدينة (طنجة) ، وأعلن تأييده لإستقـلال المغرب ، فكان ذلك داعياً الى عقد مؤتمر الجزيرة [١] في سنة (١٩٠٦م) الذي ضمّ فرنسا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا وألمانيا والسويد وأمريكا وإسبانيا والنمسا والمغرب . وكان سلطان المغرب يرى في هذا المؤتمر نجاحاً لسياسته التي ترمي الى تدويل مسألة المغرب مما يمنع فرنسا من احتلال بلاده .

ولكنّ فرنسا اتّخذت من ثورة بعض القبائل حجّة للتدخّل، فاحتلت مدينة (وجدة) على الحدود الجزائرية في سنة (١٩٠٧ م) ، كما أنزلت بعض جنودها في (الدار البيضاء) في نفس السنة بحجّة حمايـة المصالح الفرنسيّة وأرواح الفرنسيين المقيمين في البلاد ، وانتهى الحال بتثبيت السلطان عبد الحفيظ وانسحاب الفرنسيين في سنة (١٩٠٩ م) .

وفي سنة (١٩١١ م) أرسل السلطان عبد الحفيظ الذي كان قد ثار على اخيه عبد العزيز في سنة (١٩٠٨ م) وانتزع منه العرش مستنداً على الجيش ـ الى فرنسا يطلب حمايتها من أجل سحق الثورات المتكورة ، فاضطر السلطان الى أن يعقد معاهدة ـ لغرض حماية العرش ـ تعطي فرنسا حقّ التدخل إذا طلب منها السلطان ذلك ، وأحتجّت ألمانيا وبادرت بإرسال البارجة (النّمر) [٢] الى ميناء (أغادير) بحجّة حماية المصالح الألمانيّة . ولكن سرعان ما وصلت الدولتان الى اتفاق بينهما يطلق يد فرنسا في المغرب مقابل التنازل لألمانيا عن الكمرون [٣] ، وبذلك أصبح الجو مهيئاً لفرنسا للعمل [٤] . وانتهى الأمر بتوقيع السلطان معاهدة مـع فرنسا في ١١ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ (٣٠ آذار ١٩١٢ م) يضع فيهـا

---

(١) Algeciras في إسبانيا الجنوبية وهي الجزيرة الخضراء .

(٢) Panther

(٣) تنازلت فرنسا لألمانيا عن (١٠٧٠٠٠) ميل مربع في الكمرون .

(٤) في تاريخ المغرب (١٠١/٢) ـ عبد العزيز بنعبد الله : أن البارجة الألمانية قدمت أغادير في سنة ١٩١٠ م .

السلطان بلاده تحت الحماية الفرنسية .

وقد وقّع السلطان عبد الحفيظ هذه المعاهدة ودموعه تجري على خدّيه ، ثم أعلن بعد قليل أي في ١١ آب (١٩١٢ م) تنازله عن العرش بمذكرة قال فيها : « رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب أن نقوم بها كملك نحو شعب ، ، فقرّرنا التنازل » ، فخلفه على العرش أخوه السلطان يوسف .

وعلى الرغم من أن الفرنسيين زعموا في السنوات التالية ، أن الشعب المغربي قد رحّب بهم كمحررين من الظلم والفقر ، فالحقيقة هي أنّ فرنسا احتاجت الى عشرين سنة أخرى لكي تحتلّ كامل الأراضي المغربيّة وتخضعها لسيطرتها [١] .

ثانياً : فماذا عن الإستعمار الإسباني في المغرب ؟

كما عقدت فرنسا معاهدة مع ألمانيا ، سارعت فرنسا فعقدت معاهدة بينها وبين إسبانيا نصّت على بقاء المنطقة الشمالية من المغرب التي تبلغ مساحتها نحو عشرين ألف كيلو متر مربع تحت الإحتلال الإسباني ، على أن تكون داخلة في نطاق سيادة السلطان الدينيّة والمدنيّة ، يمثّله فيها خليفة عنه يختاره من بين مرشحين ترشحهما له إسبانيا ، وأن يكون لإسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية من حقوق وصلاحيات سياسية وإدارية ومالية وعسكرية ، وأن يكون لها مقيم عام له من الصّلاحيّات ما للمقيم الفرنسي في المنطقة الجنوبية [٢] .

وفي سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) قتـل بعض أهل الريف ستّة من العُمّال الإسبانيين الذين كانوا يشتغلون في مناجم الحديد ، فاحتلّت الجنود

---

(١) انظر التفاصيل في استعمار إفريقيا (١٦٨ - ١٧٠) والوحدة العربية (١٨٢ - ١٩٥) والإسلام والعرب (١٤٩ - ١٥٤) وتاريخ المغرب (٢/٩٦ - ١٠١) .

(٢) الوحدة العربية (١٨٦) .

الإسبان مدينة (العرائش) في حزيران (يونيه) (١٩١١ م) ، وفي ١٠ منه احتلّت (القصر الكبير) ، وقد وصلت الجيوش الإسبانية إلى (تطوان) في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣١ هـ (١٩ شباط [فبراير] ١٩١٣ م)[1] .

ب – كيف كان الإستعمار الفرنسي والإسباني في المغرب ؟

منذ احتلال المغرب ، أخذت كلٌ من فرنسا وإسبانيا تُطبّقان مناهج استعمارها الظالمة التي تماثل ما يُطبّق في الجزائر وتونس ، وتحكمان البلاد بالحديد والنار ، وتقبضان على مصالحهما ومرافقهما بيد من حديد ، وتستغلاّن خيراتها لصالح رعاياهما الذين تدفّقوا على المغرب ، وتحولان دون أيّ تقدّم علمي واقتصادي وعمراني بشكل جديّ ، وتحاربان العربيّة لغة والإسلام ديناً حرباً شعواء ، وتبثّان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الأهلين تحقيقاً لهدف تغيير وجه البلاد وهدم كيانها وقلبها إلى مستعمرة لغةً ووجهاً وديناً واستثماراً .

ومن أوّل ما فعله الفرنسيون وتابعهم فيه الإسبان ، إستصدار مراسيم من السلطان بإعتبار المقيم العام الواسطة الوحيدة بينه وبين الدول الأجنبية وباعتبار هذا المقيم القائد الأعلى للقوّات البريّة والبحريّة ، فغدا بذلك ذا شخصية مزدوجة : يمثّل دولته فرنسا أو إسبانيا من جهة ، ويمثّل المغرب سياسياً وعسكرياً . ونتيجة لذلك أُلغيت وزارة الخارجية والحربية في المغرب ، وقصرت الحكومة المحلّية فيه وزارتها على الشؤون الإدارية ، وأنشئت في دار الإقامة العامة مكاتب سياسية ومدنية وعسكرية لمساعدة المقيم العام في مهامّه المزدوجة .

وقد استصدرت فرنسا من السلطان عام (١٩٣٠ م) مرسوماً عرف

---

(١) تاريخ المغرب (٢/١٣٨) وانظر تاريخ المغرب في القرن العشرين (٨٨ – ٩٧) الشرق والغرب (٢/١٠٩ – ١٢٠) .

بالظهير البربري[1] ، ينص على الإعتراف بكيان بربري مفترق عن الكيان العربي ، وبعادات وتقاليد بربرية مفترقة عن العادات والتقاليد العربية والإسلامية ، وتأليف هيئات قبلية باسم القبائل للنظر في شؤون القبائل البربرية وفق عاداتها وتقاليدها القديمة ، وجعل لكل جماعة أمين سر فرنسي ليكون مصدر الوحي والأوامر في كل هذه الأمور ؛ وذلك تفريقاً بين سكان المغرب الذين غدوا شعباً واحداً طابعه العروبة والإسلام ، وإثارة النعرات بينهم ، وسلخ القبائل البربرية عن الإسلام والعروبة ، وتهيئة المجال للتبشير بالنصرانية بين القبائل ، مع الدعاية بأن أصل البربر أوربي ودينهم المسيحية ، وأن العروبة والإسلام أجنبيان عن البربر .

وكانت مناطق البوادي تدار من عامل مغربي يلقب بالقائد ، وكانت المدن تدار من عامل مغربي أيضاً يلقب بالباشا ، وقد أقام الفرنسيون الى جانب كل من القُوّاد والباشوات مراقباً فرنسياً صار هو الحاكم المطلق ، وحظر على القواد والباشوات إتخاذ أي قرار أو القيام بأي عمل بدون موافقة المراقبين الفرنسيين ...

ونزعوا ثماني مناطق من يد العمّال المغاربة وأناطوها بحكام فرنسيين ، وهي أهم ولايات المغرب من حيث السكّان والثروة والنشاط ، ليتسنّى لهم تنفيذ الخطّة الرهيبة فيها بدون أي رقيب أو حسيب ، وجعلوا موظفي هذه المناطق من الفرنسيين .

وقد ساروا في ذلك وفق خطّة استبدال الموظفين المغاربة بالموظفين الفرنسيين ، بمقياس واسع ، حتى أصبح المغرب بحق مستعمرة موظفين .

وقد أقيم ضباط إستخبارات [2] في كل ناحية من أنحاء البلاد ، صاروا كابوساً ثقيلاً على الشعب المغربي بما كانوا يحيطون به الناس من

---

(١) انظر ما جاء عن الظهير البربري في : تاريخ المغرب في القرن العشرين (١٧٥ - ١٨٣) .

(٢) ضباط مباحث .

رقابة شديدة ، ويبثّون بينهم من الدسائس وينصبونه لهم من المكائد ويثيرون فيهم من النعرات .

وقد أنشيء في البلاد خمس عشرة بلديّة جميع رؤسائها من الفرنسيين ، حتى بلديات المدن التي ليس فيها فرنسيون ، وأنشيء في كل منطقة غرف للزراعة وأخرى للصناعة والتجـارة حصرت عضويتها في الفرنسيين . ثم أُنشيء بعد فترة قليلة من إنشاء تلك الغرف مجلس سميّ بمجلس شورى الحكومة ، مهمته تنسيق أعمال ونشاط تلك الغرف ، وأعضاؤه فرنسيون كذلك !

وفُتحت أبواب البلاد للمهاجرين الفرنسيين ، وأُقطع الزراعيون منهم مساحات واسعة من أجود الأراضي انتزع معظمها من يد المغاربة ، ومنحوا أنواع المساعدات المالية من خزينة الدولة ، وخُصوا بامتيازات مكنتهم من التوطّن والإثراء ، ومن جملة تلك الإمتيازات خفض الضرائب عنهم الى النصف ، وتشريع العمل الإجباري على المغاربة في المشاريع العامة بالمجان أو بالأجرة الزهيدة ، واعتبار شقّ الترع وحفر الآبار وتعبيد الطرق وإنشاء المخافر في الأراضي الممنوحة للمستعمرين مما يدخل في نطاق هذا التشريع .

وعدّلت أنظمة الكمارك ومنح الفرنسيون فوائد عظيمة ، من جملتها إعفاء كثير من السلع والمصنوعات الفرنسية من الرسوم أو خفضها ، فتيسّر بذلك لهم إحتكار الأسواق المغربيّة والتحكم فيها .

وتكاد الشركات الصناعية والتجاريّـة والزراعيّة تنحصر في أيدي الفرنسيين ، وقد منحت الإمتيازات العديدة لهم بما في ذلك المعادن والمنافع والمرافق العامّة ووسائل النقل والموانىء .

ووضعت العراقيل والمشاكل في وجه كلّ فلاّح مغربي أراد شراء آلة زراعيّة حديثة ، وفي وجه كل تاجر مغربي أراد أن تكون له صلات تجاريّة

خارجيّة تصديريّة أو إستيراديّة ، ووضع نظام من شأنه أن تستولي الإدارة الفرنسية على ما تقدِّره هي زائداً على الإستهلاك المحلي من غلاّت محليّة وحيوانات بالثمن الذي تقدِّره هي أيضاً ، وتتولى تلك الإدارة تصديره الى الخارج .

وقد أدّت هذه السياسة الى إفقار الشعب ، وانحطاط مستوى معيشته ، وانتشار البطالة والمجاعات ، وموت الصناعات المحليَّة ، وشلّ كلّ نشاط إقتصادي مغربي .

وكان عدد الطلاّب المغاربة في مدارس الحكومة في سنة (١٩٤٧ م) نحو (٤٥٠٠٠) من أصل مليون وربع في سنّ الدراسة ، بينما كان عدد الطلاّب الفرنسيين في مدارس الحكومة نحو (٧٦٠٠٠) وهم جميع من هم في سنّ الدراسة منهم . وكانت المدارس الحكومية ذات مناهج فرنسية ، هدفها إضعاف الروح العربية والوطنية والدينيّة ومحاربة اللّغة العربية والدين الإسلامي حرباً لا هوادة فيها .

وكانت الشؤون الصحية مهملة ، وكان يصرف نحو ثمانين بالمائة من ميزانية الصحة على مستشفيات وعيادات ومصحَّات الجالية الفرنسيَّة .

وكان المغرب يعاني ما يعاني من وطأة الحكم العسكري وحالة الطوارىء ، فحرم المغاربة من حرِّيتهم ومُنِعوا من تأسيس النوادي والجمعيات والأحزاب وحتى الفرق الرياضيّة والكشفيّة مع وجود نصوص قانونية تسمح بذلك ، والقليل الموجود من ذلك غير قانوني يقوم بقوّة الظروف بدون إذن السلطات.

وما تفعله فرنسا في شباب الجزائر وتونس تفعله في الشباب المغربي أيضاً ، حيث تجندهم بالألوف وترسلهم إلى مختلف الجهات النائية وتعزلهم عن بيئتهم العربية الإسلامية وتفسِّخ أخلاقهم ليكونوا فرنسيين في تفكيرهم وولائهم وأساليبهم الحياتية .

وضربت فرنسا ستاراً كثيفاً حول المغرب لعزله عن البلاد العربية على

النحو الذي تفعله في تونس والجزائر[1] .

لقد أصبح الشعب المغربي أسوأ حالاً مما كان عليه عام ١٩١٢ م[2] .

ج . أولاً : بدأ جهاد المغرب بثورة عارمة كردّ فعلٍ لإجبار فرنسا السلطان عبد الحفيظ على توقيع معاهدة الحماية ، فما كاد نبأ توقيع المعاهدة بـ (فاس) يطرق الأسماع ، حتى انتفض السكان والقبائل المجاورة وطوّقوا مدينة (فاس) وامتلأت أسوارها بآلاف المجاهدين . وثار الجيش المغربي على ضبّاطه الفرنسيين ، وكانت ملحمة دامية قتل فيها عدد من الفرنسيين في ١٧ نيسان (ابريل) سنة (١٩١٢ م) ، وشارك في الحملة الجماعية على الإحتلال الفرنسي العلماء والتجّار والنساء والأطفال ، فنسفت فرنسا جانباً من المدينة وأعدمت عشرات السكّان ، وتجمعت السلطات في المغرب بيد شخصية عسكرية هي اللواء[3] ليوتي الذي قدم مدينة (فاس) يوم ٢٨ مايس (مايو) في خضم الفوران الشعبيّ الذي ما لبث ان شمل المغرب عن بكرة أبيه[4] ، فثار **بنو مطير وكروان وزعير وتادلا ، وزحف الهيبة بن الشيخ ماء العينين** على العاصمة (مراكش) ، ونقل السلطان عبد الحفيظ بعد تنازله عن العرش الى فرنسا ، فبويع أخوه مولاي يوسف من الغد ؛ فسيّر ليوتي خمسة آلاف جندي لصدّ الهيبة وجيشه الزاحف نحو (الشاويّة) .

وأندلعت الثورة في (تافيلالت) عام (١٩١٦ م) ، ثم الملوية

---

(١) انظر التفاصيل في : الوحدة العربية (١٨٥ – ١٩١) .

(٢) الإسلام والعرب (١٥٤ – ١٥٥) وانظر : تاريخ المغرب (٢/١٠٧ – ١١٦) وانظر تاريخ المغرب في القرن العشرين (٢٠١–٢٣١) عن المنطقة الإسبانية في المغرب ومدينة طنجة الدولية.

(٣) اللواء رتبة عسكرية تعادل رتبة الجنرال .

(٤) يلاحظ أن العمال المغاربة الذين كانوا يشتغلون اذذاك في مد سكة الحديد بين الرباط وسلا غادروا أعمالهم في جنح الليل دون المطالبة بأجورهم (كتاب اندري كوليز – ١٩٣٠ – ص ١٠٤) نقلا عن تاريخ المغرب (١٠٢) .

العلوية عام (١٩١٩ م) ، وظــلّ جيش الإحتلال الفرنسي يواجه الحملات القبلية طوال أربع سنوات (١٩٢٠ - ١٩٢٣) في الأطلس الصغير وبين (لكوس) و (الملويّة) .

واتّسع نطاق المقاومة المسلّحة في الأطلس والصحراء والشمال والجنوب، فاستمرت في زيان وبني مكيلد الى عام (١٩٢٣ م) ، وفي وادي العبيد من (١٩٢٩ م) الى (١٩٣١ م) ، وفي آيــت يحي وآيت إسحاق والبحيرة الى عام (١٩٢٣ م) ، وفي (ملول) وأعالي الأطلس الى عام (١٩٣٣ م) . وقد اصطدم القواد الإقطاعيون الذين باعوا ضمائرهم لفرنسا بصمود شعبي أجّجته الحملات التي تبلورت في مراكش على المستعمر وأعوانه . أما في الشمال فقد هزم **محمد امزيان** بالريف عام (١٩٠٩ م) ثلاث فرق إسبانية ، فقدت من رجالها قائدان برتبة لواء وعشرة آلاف جندي . وامتدت حركة الفداء الى (الساقية الحمراء) و (السوس) و (الأطلس الكبير) إلى عام (١٩٣٥ م) ، وقــد ذاق الفرنسيون الأمَرَّيْن في (تافيلالت) و (آيت عطة) على يد **الشريف السملالي المعروف بموحاحمو** الذي جاهد الفرنسيين من عام (١٩١٧ م) الى عام (١٩٢٩ م) وكبّدهم خسائر فادحة ، ثم واصل الجهاد خلفه **أبو القاسم النقادي** الى عام (١٩٣٥ م) .

وكانت الأمة المغربية من نهر السنغال الى سواحل البحر الأبيض المتوسط قد قامت قومة رجل واحد لمناوأة الإستعمار حتّى السلطان نفسه بعد توقيعه عقد الحماية ، ولم تنجح أساليب الإستعمار في صد تيــار ثورة المغرب العارمة[1] .

وفي سنة (١٩٣٠ م) أجبرت السلطات الفرنسية السلطان على إصدار

---

(١) انظر التفاصيل في : تاريخ المغرب (٢/١٠٢-١٠٤) وانظر : الوحدة العربية (٤٢٤-٤٢٦) .

الظهير المعروف بالظهير البربري ، القاضي بنزع إختصاص القضاء الشرعي الإسلامي من النظر في شؤون القبائل البربريّة وتسويتها وفق العادات والتقاليد القديمة ، تنفيذاً للخطّة الفرنسية الرهيبة في تفريق صفوف الشعب المغربي عملاً بالقول المأثور : « فرِّق تسد » ، والإستفادة من وجود السلالة البربرية لمناهضة السلالة العربية[1] ، مع أن البربر قد اندمجوا في العروبة والإسلام منذ اثني عشر قرناً وغدوا مع مواطنيهم شعباً واحداً .

وقد اشتدّت في ظروف صدور هذا الظهير حركة التبشير بين القبائل كوسيلة من وسائل تلك الخطّة أيضاً ، فأثار هذا كلّه هياج الناس في مختلف أنحاء المغرب وغضبهم لكيانهم العربي الإسلامي وجعلهم يقومون بمظاهرات إحتجاجيّة صاخبة كان ينشأ عنها إشتباكات دموية .

وقد قابلت السلطات هذه المظاهرات بالقمع والمطاردة ، فاكتظّت السجون والمعتقلات بالناس ، ولكنّ ذلك لم يزد الهياج إلاّ اضطراماً ، فأخذت الوفود تتألّف في كلّ ناحية من العرب والبربر والمستعربين على السواء ، وتأتي الى (فاس) لترفع إحتجاجها للسلطان ، وكانت السلطات ترصّدهم وتحول دون وصولهم الى العاصمة أو دون مقابلتهم للسلطان ، ولكن بعضهم تمكّن من إختراق الحواجز ومقابلة السلطان ، وتقديم العرائض المتضمنة تأييد الشعب عربه وبربره ومدنه وباديته للشريعة الإسلامية والمحاكم الشرعيّة ، وطلب توطيدها وتوطيد اللغة العربيّة في الدواوين ، وإيقاف حركة المبشِّرين ، ومنعهم من التجول في البوادي وشهود الأسواق وإخراجهم من البلاد ... الخ[2] .

وتردّدت أصداء الإحتجاج على الظهير البربري خارج حدود المغرب ، فقد بدأ العالم الإسلامي وكأنه أحسّ فجأة بوجود (قضية مغربيّة) ،

---

(١) انظر تاريخ المغرب في القرن العشرين (١٧٦ - ١٧٧) .
(٢) الوحدة العربية (٤٢٦) .

فارتفعت الأصوات الحانقة من تونس الى القاهرة الى بغداد ، وتقدّم **الأمير شكيب أرسلان** بالنصح الى المسلمين : « بأن يكفُّوا عن التلهّي بالإحتجاج الى صحفهم وحكوماتهم ، وأن يوجّهوا الإحتجاج الى عصبة الأمم والدول الكبرى والحكومة الفرنسية ومجلس الشيوخ والنواب الفرنسيين » و : « أن يمتنعُوا عن التعامل مع فرنسا بيعاً وشراءً[1] » ثم ظهرت آثار هذا الظهير البعيدة خارج حدود المغرب في اجتماعات الأمم المتحدة في نيويورك سنة (١٩٥٢ م) و (١٩٥٣ م) ، إذ أكد بعض البارزين من مندوبي الدول الإسلامية أنهم إنما أدركوا وجود قضية مغربية بعد سنة (١٩٣٠ م) والظهير البربري هو الذي استثار شكوكهم واستأثر باهتمامهم[2] . وهكذا جنت فرنسا على نفسها بهذا الظهير ، وعلى نفسها جنت براقش .

ثانياً : بعد الحرب العالمية الثانية انبرى **عبد الكريم الخطابي** ليواصل سلسلة الغارات على الإسبان في المنطقة الشمالية من المغرب .

ومرض عبد الكريم الخطّابي : فتزعم ولده **محمد عبد الكريم**[3] المجاهدين الذين كان جهادهم في أوّل الأمر متّسماً بسمة حرب العصابات ، وكانت تشتد حتى يبلغ عدد المجاهدين أحياناً الألوف من الرجال ، فتشغل عشرات الألوف من الجند الإسباني ، وتكبّد إسبانيا خسائر جسيمة مادية ومعنوية .

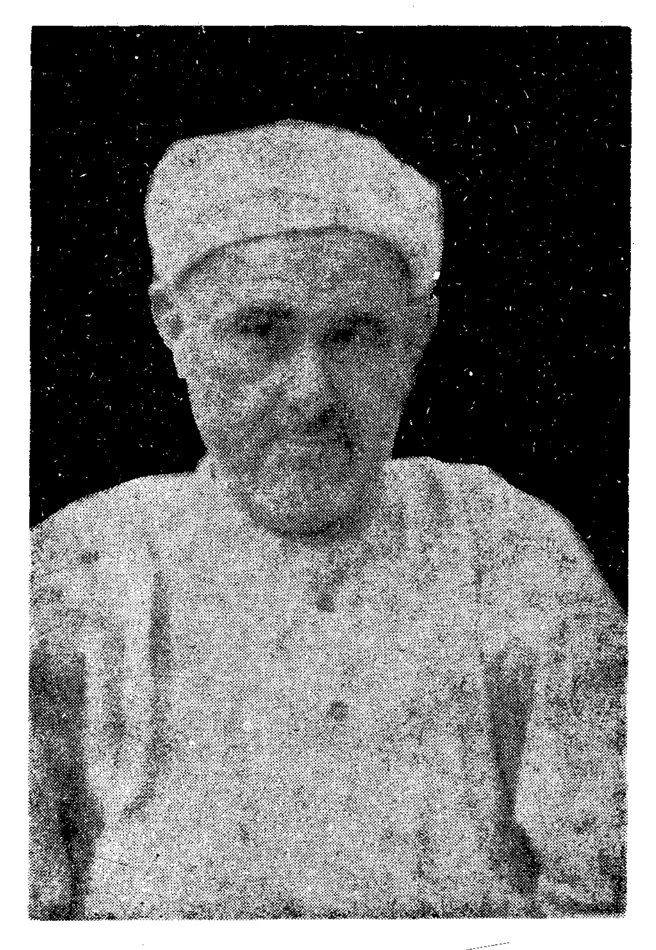
وحين برز الأمير محمد عبد الكريم الخطابي عام (١٩٢٠ م) ، إنضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات ، فانقلبت الحالة من حركة عصابات

---

(١) تاريخ المغرب في القرن العشرين (١٨١) .

(٢) تاريخ المغرب في القرن العشرين (١٨٢ – ١٨٣) .

(٣) انظر كتاب : الأمير عبد الكريم الخطابي من سلسلة أعلام الحرية – محمد عبد المنعم ابراهيم المحامي ومحمد عبد الوارث الصوفي – مطبعة المكتبة العلمية – القاهرة – ١٩٥٨ م .



الأمير عبد الكريم الخطابي

الى حرب منظمة ، وأخذ الجيش الريفي بقيادة الخطّابي يتقدّم في جميع الميادين وتنهار أمامه القوى الإسبانية رغم تفوّقها الساحق في العَدد والعُدد ، ولم تنته سنة (١٩٢٤ م) حتى أصبحت معظم المنطقة الإسبانية تحت سيطرته ، ولم يبق في يد الإسبان إلاّ بعض المدن الساحلية مثل (مليلة) و (سبتة) لأنهما كانتا محصَّنتين تحصيناً قوياً .

وقد أعلن الأمير إستقلال الريف وأنشأ جمهورية تولى رئاستها ، وأخذ يمارس سلطاته .

وثار الرأي العام الإسباني بالحرب ، وشاع التمرُّد بين الجيش الإسباني نتيجة لما حلّ به من خسائر وما لحق به من هزائم ، فاضطرّ رئيس حكومة إسبانيا (بريمو دي ريفيرا) إلى استنفار جميع الجيش الإسباني من جهة ، واستأنف المفاوضات مع جمهورية المغرب ، فأصر البطل الخطّابي على الجلاء عن المغرب ودفع تعويضات ضخمة من المال والمدافع والطائرات ، فانسحبت إسبانيا من مائتي مركز من مراكزها ورفضت شروط الأمير الخطّابي .

وعلمت فرنسا بالأمر ، فجنّ جنونها من احتمال جنوح إسبانيا الى الصلح خشية من استفحال أمر الثورة في الريف وامتداد حركتها التحررية الى سائر انحاء المغرب ؛ فضغطت على إسبانيا من جهة وسارعت إلى إرسال جيوشها وأساطيلها لشدّ عضدها من جهة أخرى ، فنسّقت جهودها العسكرية مع إسبانيا وذلك بعد تعيين المشير [١] بيتان الذي كان من أنصار مواصلة الحرب قائداً للحركات [٢] العسكرية في المغرب ، وكانت مجمل خطّة بيتان : تطويق الريف وإثارة القبائل على الأمير الخطّابي ، ثم مهاجمة قلب المقاومة الريفية بتنسيق الخطط العسكرية

---

(١) المشير : المارشال .

(٢) الحركات : تقابلها كلمة العمليات في بعض الجيوش العربية .

الفرنسية والإسبانية . ونجح بيتان في إقناع الإسبان بالنزول في (الحسيمة) بإسناد الأسطول الفرنسي ، ثم احتلال (أغادير) . وتأزّمت الحالة في المغرب لأن الثورة الريفية اندلعت في المدن لا سيما بعد وصول الثوار الى (تازة) و (تطوان) في حملات موفّقة ، وبعد أن تواردت رسل أمير الريف الى قواد الأطلس تدعوهم للإنقضاض تضامناً مع ثورة الريف ، وقاطع الشعب مدارس الحماية، خاصة بناحية (فاس) ، فأحسّت فرنسا بتزايد الخطر الداهم الذي أصبح يهدّدها لا في المغرب وحده بل في مستعمراتها الإفريقية ؛ فحشدت في ربيع عام (١٩٢٦ م) اثنين وخمسين جنرالاً ومائة وعشرين ألف رجل واثنين وعشرين سرباً من الطائرات وعتاداً ضخماً ، ونسّقت حركاتها العسكرية مع الإسبان ، فغدا الأمير الخطابي يواجه قوى دولتين في آن واحد ، ويقاتل في جبهتين قوات العدو المتفوقة على قواته فواقاً ساحقاً ؛ ولكنّ الخطابي ورجاله صمدوا ببسالة أمام الإسبان والفرنسيين بشكل يدعو إلى الإعجاب والتقدير الشديدين .

ولكنّ دعاة الهزيمة والمتخاذلين فتّوا من عضد الأمير البطل ، كما ازداد ضغط قوّات العدو على رجاله ، فاستسلم لفرنسا التي وعدته بالرعاية في مايس (مايو) عام (١٩٢٦ م) ، ولكنّ فرنسا نكثت كالعادة بوعودهـــا فنفته مع أخيه وعائلته الى جزيرة (لاريفيون) فقضى في منفاه إحدى وعشرين سنة . ولما قرّرت فرنسا نقله عام (١٩٤٧ م) الى بلادها ، دبّر مكتب المغرب العربي لدى نزول الأمير بقناة السويس خطّة لفراره ، فاستقرّ مع عائلته في القاهرة واتصل بالملك محمد الخامس ملك المغرب عام (١٩٦٠ م) أثناء رحلته الى الشرق ، فأقنعه بالعودة الى الوطن للإستقرار في (طنجة) ، ولكنّ المنيّة عاجلته في ١١ رمضان ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م) [١] .

---

(١) انظر : تاريخ المغرب (٢/١٠٤ – ١٠٦) والوحدة العربية (٤٣٧–٤٣٨) وانظر=

ثالثاً : فماذا عن الكفاح السياسي للمغرب ؟

بدأت حركة الكفاح السياسي موازية للثورة المسلّحة ، تذكيها وتدعو إليها ، فانبثق في (الدار البيضاء) عام (١٩٢٤ م) مركز للنشر والتوزيع تابع لقادة الريف ، كما انعقد مؤتمر في فرنسا في السنة التالية نظّمه العمال المغاربة لتنسيق العمل التضامني مع جيش الثورة .

وظهرت في المغرب حركة دينيّة ، ما لبثت أن أسفرت عن حركة وطنية هدفت الى تحرير البلاد والعقول معاً ، باستعادة السيادة للوطن والطهارة الأصيلة للعقيدة الإسلامية ، وتأسّسَت بالحواضر الكبرى جماعات سريّة ركّزت عملها السياسي على دعوة سلفية أساسها النهوض بالتعليم وبث اللّغة العربية ونشر الإسلام عقيدة وتضحية وفداءً ، وتوطيد العلاقات المتينة بين الحركات الوطنية المغربية وبين جامعة القرويين .

وقد شعرت فرنسا بخطر الوحدة الدينية ، ففكر ليوتي منذ عام (١٩١٣ م) ـ بدعوى حفظ التقاليد البربريّة ـ في تفرقة الأمة بوضع الحجر الأساسي للسياسة البربريّة وبعث الأعراف الجاهليّة ، وتمخّض العمل الإستعماري السرِّي عن صدور الظهير البربري سنة (١٩٣٠ م) ، لتفكيك أوصال وحدة المغرب العربي بمحاولة تمسيح وتجنيس المغاربة تحقيقاً لأهدافهم في إدماج المغرب ضمن الحظيرة الفرنسيَّة . وهكذا حاول الإستعمار فَرْنَسَةَ البلاد بتحطيم وحدة النظام ووحدة اللّغة ، وإقرار الفرنسيّة في المحاكم والمدارس والدوائر ، واستئصال العربية والشريعة الإسلامية مما سمي بالمدارس البربريّة والمحاكم العرفية [1] .

وقد كان ردّ الفعل الشعبي عنيفاً : إحتشدت الجماهير في المساجد

= التفاصيل في كتاب : الحرب الريفية وسر انتصار الأمير محمد عبد الكريم الخطابي ـ الفريق الركن محمد أمين العمري .

(١) من العرف : التقاليد ، وهي محاكم تحكم بالعرف لا بالشريعة .

للتنديد بسياسة إدماج المغاربة بالفرنسيين لغة ودينا ، واكتظت الشوارع بالمتظاهرين ، وتشكلت بفاس لجنة تمثل سائر طبقات الأمة للإتصال بالإدارة الفرنسية من أجل إلغاء الظهير البربري وتوحيد القضاء والإعتراف برسمية اللغة العربية ؛ وتعززت هذه الحركة المنبثقة من جامعة القرويين بقيادة شيوخ أمثال عبد الرحمن بن القرشي وعلال الفاسي ، بصريخ علماء الأزهر الشريف وعلماء المسلمين في دار الإسلام.

وتبلورت هذه الموجة العارمة بتنسيق كتلة العمل الوطني أو الحزب الوطني ، الذي كان يؤجج الحماسة في الشعب وينور الرأي العام في أوروبا وفي البلاد العربية والإسلامية عن طريق طلبة المغرب في فرنسا ولجنة الدفاع عن المغرب في القاهرة وشخصيات مثل الأمير شكيب أرسلان ، وأوفدت الكتلة الوطنية رسلاً الى المؤتمر الاسلامي بالقدس لكشف نيات الإستعمار .

واتصل **علال الفاسي** لأول مرة بالملك **محمد الخامس بن يوسف** باسم الكتلة الوطنية سنة (١٩٣٣ م) فاستغل الملك الفرصة للتعبير عن رضاه عن الحركة الوطنية وعزمه الوطيد على استرجاع حقوق المغرب ؛ وكانت فرنسا قد كونت ضمن حكومتها وزارة : فرنسا ما وراء البحار ، فاحتج الملك وألغيت الوزارة .

وأظهر الملك تضامنه مع الشعب وسخطاً على المستعمر عام (١٩٣٤م) حين قطع جولته الى (فاس) وعاد الى (الرباط) احتجاجاً على تصرفات المستعمرين .

وواصلت الكتلة الوطنية جهادها ، ولكن المستعمر حلها في آذار (مارس) سنة (١٩٣٧ م) ، ولكن العمل السري ظل موصولاً باسم : « الحركة الوطنية لتحقيق المطالب » ، ريثما انعقد مؤتمر جديد في الرباط خلال نيسان (ابريل) سنة (**١٩٣٧ م**) قرر إطلاق اسم

جديد على الحركة هو : « الحزب الوطني لتحقيق المطالب المستعجلة » ، الذي تصدى للإصلاح الإجتماعي زيادة على مجهوده السياسي .

كما وضع حزب الإصلاح في منطقة الإستعمار الإسباني من المغرب برنامجاً للإصلاح يناسب الوضع في المنطقة الشمالية من المغرب .

ولم تكد الحرب العالمية تشتعل حتى أعلن الملك والحركة الوطنية مؤآزرتهم للحلفاء حتى النّصر ، ولكن تعسف المقيم العام الفرنسي ازداد، فعاد الوطنيون منذ سنة (١٩٤٠ م) الى التنديد بالإستعمار . وفي سنة (١٩٤٣ م) تقرّر دعم العمل الوطني بكفاح : « رابطة الدفاع عن مراكش في مصر » للمطالبة بالوحدة والاستقلال ، ثم تأسست عام (١٩٤٤ م) : « جبهة شمال إفريقيا » بين أقطار المغرب العربي ، وكان استقلال سوريّة ولبنان يؤجج الوعي لإسترجاع السيادة المغربيّة .

وفي كانون الثاني (يناير) عام (١٩٤٤ م) ، انعقد في الرباط مؤتمر ضمّ الحزب الوطني الذي سمي بحزب الإستقلال وعدّة شخصيات من الحركة القوميّة والهيئات الحرّة ، فوقّع المؤتمرون على ميثاق وطني أبرز تعسُّف نظام الحماية ، وأعلن انبثاق عهد الحرّية وطالب بالإستقلال والوحدة .

ورفع ميثاق الإستقلال الى الملك **محمد الخامس** ، فعقد في ١٣ كانون الثاني (يناير) مجلس الوزراء مع بعض الرؤساء والأعيان والعلماء ، فصادق الحاضرون على المطاليب الوطنية ، وتشكّلت لجنة من وزيرين للإتصال بحزب الإستقلال وبحث مشروع إقناع الإقامة العامة ، ولكن المفاوضات مع المقيم العام كانت دون جدوى .

واشتدّ جهاد المغرب وتساقط الشهداء ، وازدحمت السجون ، ولكنّ ذلك لم يفتّ من عضد المغرب شعباً وحكومة .

وفي سنة (١٩٤٧ م) انعقد مؤتمر المغرب العربي ، فنادى المؤتمرون : ببطلان الحماية المفروضة على المغرب وتونس ، وعدم الإعتراف بأيِّ حق لفرنسا في الجزائر ، وضرورة إعلان استقلال المغرب وجلاء الأجانب عنه ، ورفض الإنضمام الى الإتحاد الفرنسي .

وزار الملك **محمد الخامس** باريس سنة (١٩٥٠ م) ، وكان موقفه صارماً هناك في مطالبته بإستقلال المغرب ، فلما عاد الملك الى الرباط إستقبله الشعب استقبال الأبطال .

وارتفعت الأصوات العربية والإسلامية في دوائر هيئة الأمم سنة (١٩٥٠م) مطالبة باستقلال المغرب ، فعمدت فرنسا في الداخل الى الإرهاب والقمع والإعتقالات ، وفي الخارج الى إنكار حقّ العرب والمسلمين في التدخل في شؤون المغرب لأنه من شؤونها الداخلية !!!

وفي سنة (١٩٥١ م) قرّرت هيئة الأمم مطالبة فرنسا بمنح المغرب حكماً ذاتياً ، فتجاهلت فرنسا هذا القرار !

وعاد النقاش في هيئة الأمم عام (١٩٥٢ م) ، فرأت فرنسا في هذه المرّة أن تعمد الى التمويه كما فعلت في تونس ، فقدمت للملك مشاريع زعمت أنها مشاريع إصلاحيّة ، وأخذت تضغط عليه لتوقيعها حتى تسكت الأصوات المرتفعة ، ولكنّ الملك أبى توقيعها ، فما كان من فرنسا إلاّ أن دبّرت في آذار (مارس) سنة (١٩٥٣ م) مع صنائعها حركة توقيع مضابط لخلع الملك ، فلم تثنه هذه الحركة عن موقفه الصلب الأبي ؛ فخطت فرنسا في آب (أغسطس) سنة (١٩٥٣ م) خطوة حاسمة حيث جمعت مأجوريها وصنائعها تحت رئاسة كبيرهم الجلاّوي ، وجعلتهم يقرِّرون خلعه [1] والمناداة بقريب له اسمه : محمد بن عرفة [2]، واهن

---

(١) انظر قصة انقلاب الجلاوي في كتاب : داخل إفريقيا (٤٨ – ٥٤) .

(٢) انظر ما جاء عن محمد بن عرفة في كتاب : داخل افريقيا (٣٨ – ٤٤)

النفس والقلب والعقل ملكاً مكان محمد الخامس . وخلعت فرنسا الملك محمد بن يوسف ونقلته وأسرته الى جزيرة (كورسيكا) حيث فرضت عليه الإقامة في نطاق حصار شديد ، ثم نقلته بعد عدة شهور الى جزيرة مدغشقر) .

وانفجر الشعب المغربي مؤيّداً بالعرب والمسلمين في كل مكان ، واشتدّت حركة الجهاد المغربي سنة (١٩٥٥ م) ، فحشدت فرنسا قوّات ضخمة لقمعها ، وأوقعت في بعض مناطق المغرب مذابح إبادة وإفناء اشترك فيها المستوطنون الفرنسيون ، ومع ذلك لم تستطع فرنسا إخماد نار الثورة العارمة ولا إضعافها . واشتدّت أصوات الإستنكار في بلاد العرب ودار الإسلام لهذه البربرية الغاشمة ، مما جعل فرنسا ترضخ للأمر الواقع وتعيد الملك محمد بن يوسف سنة (١٩٥٥ م) إلى عرشه ، والتفاوض على أساس الحكم الذاتي والسيادة .

وفي سنة (١٩٥٦ م) عقد إتفاق بين فرنسا والمغرب نصّ على : إلغاء معاهدة الحماية والإعتراف باستقلال المغرب وسيادته .

ولم يكن بدّ لإسبانيا بعد ذلك من أن تحذو حذو فرنسا ، فدعت الملك الى (مدريد) في نيسان (ابريل) عام (١٩٥٦ م) وفاوضته وعقدت معه في السابع من الشهر إتفاقاً أعلنت به إلغاءها الحماية واعترافها باستقلال المغرب وسيادته وقبولها امتداد حكم وإدارة الحكومة المغربية الى المنطقة الإسبانية ، وبذلك قبلت إسبانيا بالوحدة المغربية [1] .

وتخلّص المغرب من الاستعمار الفرنسي والإسباني بفضل تضامن ملكه وشعبه ، وأصبح عضواً في هيئة الأمم المتحدة وفي الجامعة العربية ، وأخذ مكانه اللائق بماضيه المشرف بين الدول العربية وبين دول العالم .

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الوحدة العربية (١٩١ - ١٩٥) و (٤٢٤ - ٤٣٩) وتاريخ المغرب (١١٧ - ١٣٩) وانظر : عهد الاستقلال في عهد محمد الخامس في كتاب تاريخ المغرب في القرن العشرين (٤٩١ - ٥٠٧) وانظر مستقبل المغرب السياسي (١٦٢ - ١٧٢) .

٤ - ليبيا

أ . في منتصف القرن التاسع عشر ، والعالم الإسلامي كلّه تقريباً يتّحد سياسياً تحت علم واحد ، هو خلافة آل عثمان ؛ في ذلك الوقت كانت الإمبراطورية العثمانية جداراً يريد أن ينقضّ ، ولا يمنعه من الإنقضاض إلا بقايا من عوامل البقاء التي كانت تقاوم ذلك الفناء .

وكان مما أغرى الدول الأجنبية بدولة الخلافة العثمانية فوق ما هي عليه من ضعف وانحلال ، أنها كانت تضم خير بقاع العالم موقعاً وثروة مما يسيل له لعاب الذئاب المتربِّصة [1] .

كانت الدولة العثمانية مشغولة بسوء حالها في الدّاخل ، وتألّب العناصر التي تجمعها الإمبراطورية العثمانية – وخاصة في البلقان ؛ وفي ذلك الوقت أعدت إيطاليا العدّة وأرسلت إنذارها الشهير فجأةً الى (الباب العالي) في ٢٧ أيلول (سبتمبر) سنة (١٩١١ م) الذي تشير فيه الى : سوء النظام في طرابلس الغرب وبنغازي ، ومصالحها العسكرية وتهديد طرابلس لها لقربها من إيطاليا ، وتجاهل الدولة العثمانية رغائب إيطاليا في طرابلس ، وإهمالها مصالح ايطاليا الاقتصادية ، والتحريض على الرعايا الاوربيين والطليان خاصة واضطهادهم ، وقرار إيطاليا بإحتلال طرابلس ، وعلى الخلافة العثمانية أن تسهِّل ذلك وكانت مدّة الإنذار تنتهي خلال أربع وعشرين ساعة [2] .

ولكنّ القصة لا تبدأ هكـذا .

كانت إيطاليا قد بدأت توثق صلاتها الإقتصادية والثقافية بشمال إفريقية :

---

(١) عمر المختار (٥ – ٨) .
(٢) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (٢٦ – ٢٧) .

في تونس وطرابلس خاصة ، وكان بعض رعاياها قد هاجروا الى هناك ، وقد أنشأ مصرف روما فرعاً له في طرابلس الغرب وبرقة سنة (١٩٠٥م) يقدّم القروض ، ويستثمر الأموال ، كما أنشأت إيطاليا في (بنغازي) مكتباً للبريد كان الطليان يرسلون به ما يريدون من رسائل وتقارير بغير رقابة ، كما كانت لهم سفينة تحمل البريد العثماني . وأنشأت إيطاليا بعض المدارس لنشر اللغة الإيطالية وبثّ الثقافة الإيطاليّة ، كما بنت بعض المستشفيات . وأهمّ من ذلك كلّه أنّ إيطاليا أخذت ترسل البعثات المختلفة عن طريق الجمعية الإيطالية للكشوف الجغرافيّة والتجارة بميلانو ، كان آخرها بعثة للتفتيش عن الفوسفات ، وانضمّ إليها ضبّاط من أركان حرب الطليان ، إستطاع أعضاؤها أن يضعوا المخططات والخرائط الحربيّة .

وعجّلت الحوادث الأزمة المغربية واحتلال الفرنسيين مدينة (فاس) سنة (١٩١١ م) ، فاتّصلت إيطاليا بالدول العظمى لتحقيق إحتلال طرابلس ، وحصلت على موافقة بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية وألمانيا ، ووافقت النمسا بشرط ألاّ تتعدّى العمليات الحربية منطقة شمال إفريقيّة وألاّ تسري الى ممتلكات تركيا في آسيا وأوربا وخاصة في البلقان [١].

وكانت إيطاليا تشعر شعوراً كاذباً بالعظمة ، مبعثه النجاح في الوصول الى الوحدة الإيطالية بحدّ السّيف وهزيمة قوات دول كبرى كالنمسا وتملّق دول أخرى للطليان كفرنسا ؛ ووصل هذا الشعور الكاذب بالعظمة — في وسط ما تعانيه إيطاليا من اضطرابات وأزمات سياسيّة واجتماعيّة واقتصادية — الى حدّ المناداة بعودة الإمبراطوريّة الرومانيّة . وخيّل لبعض الكتّاب الحالمين ، أنّ الحصول على هذه المستعمرات الخارجية ، لن يكون السبيل للوصول الى الحلول العمليّة للأزمات الاقتصادية والاجتماعية فحسب ، بل سبيلاً أيضاً لأن تأخذ (إيطاليا الكبرى) مكانها وسط الدول العظمى

---

(٣) قضية ليبيا (٤٦ — ٤٧) .

في العالم !! ... فكان الدافع الى الاستعمار الإيطالي هو الشعور بالنقص الذي عاناه الطليان شعباً وحكومة ، حين قارنوا دولتهم الهزيلة بالدول الكبرى ، الى جانب سبب آخر هو الرغبة في التخلص من المشكلات الداخليّة التي كانت ترزح تحتها الطبقات الدنيا ، والذي سبّب كثيراً من الإزعاج للحكومة الإيطالية [١] .

وحصلت إيطاليا سنة (١٩٠٤ م) على وعد بإطلاق يدها في طرابلس، إذا تغاضت عن إطلاق يد فرنسا في المغرب ، فأرسلت الى هناك البعوث لكشف الداخل ومسح الأراضي ، كما أنشأت المدارس والمصارف ، كأنّ ليبيا أصبحت أرضاً إيطاليّة ، وكادت إيطاليا تحتل طرابلس سنة (١٩٠٨م) لولا أنْ أرسلت الدولة العثمانية إليها جيشاً لتقوية الحامية فيها ، فانصرفت إيطاليا إلى حين .

وجاءت الفرصة المناسبة سنة (١٩١١ م) ، فقدّمت إيطاليا إنذارها الى الدولة العثمانية كما ذكرنا ، ومع ما في هذا الإنذار من افتراء صريح وتعدٍّ واضح ، فقد ردّت عليه الدولة العثمانية رداً ضعيفاً متخاذلاً..!

ولكنّ إيطاليا لم تقنع بمحاولة الدولة العثمانية عدم حدوث تغيير عسكري في ليبيا أثناء المفاوضات [٢] ، بل سلم ممثلها في مساء يوم ٢٩ أيلول سنة (١٩١١ م) الى الصدر الأعظم [٣] بلاغاً بإعلان الحرب .

وبادرت الدولة العثمانية بإرسال برقيات باسم السلطان للدول الأوربيّة ، يطلب اليها التوسّط بين تركيا وإيطاليا ، على أن تحقن الدماء ويعطى لإيطاليا مركز ممتاز في ليبيا ، ولكن الدول الأوربية اعتذرت عن الوساطة ، وبقي على تركيا والعالم الإسلامي والشعب الليبي أن يواجهوا الغزو الإيطالي [٤] .

---

(١) انظر استعمار افريقيا (٢٢٥) .
(٢) انظر جهاد الأبطال (٢٨ - ٢٩) .
(٣) رئيس الوزراء العثماني .
(٤) قضية ليبيا (٤٨) .

وبدأ الغزو الإيطالي بقصف (دَرْنَة) يوم ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة (١٩١١ م) وطرابلس يوم ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ، وفي خلال هذا الشهر احتلّ الإيطاليون طرابلس ودرنة وبنغازي ؛ وكان لتركيا حوالي خمسة آلاف رجل في طرابلس وألفين في برقة ، ولكنّ الحاميات التركيّة كانت ضعيفة ناقصة العتاد والسِّلاح [١] .

وكانت الحملة الإيطالية تتألّف من (٣٤٠,٠٠٠) رجل و (٦٣٠٠) حصان و (١٠٥٠) عجلة و (٤٨) مدفع ميدان (صحراء) ، و (٢٤) مدفع جبلي (قوس) ، وكان طريق البحر مفتوحاً لنقل الإحتياطي والعتاد والسلاح عند الحاجة [٢] .

وتقهقرت القوّات التركية الضعيفة أمام تفوّق الطليان الساحق ، فلم يأت شهر تشرين الثاني (نوفمبر) حتى أعلنت إيطاليا ضمّ إقليمي طرابلس وبرقة الى المملكة الإيطالية . وأخيراً سلّمت تركيا بالأمر الواقع وعقدت مع ايطاليا معاهدة (لوزان) في سنة (١٩١٢ م) ، نصّت على تنازلها عن هذا الجزء من ممتلكاتها لإيطاليا ، مع احتفاظها بحق تعيين القاضي الشرعي ليرعى شؤون السكان الدينية [٣] .

ب ـ كيف كان الإستعمار الإيطالي في ليبيا؟

تخضع ليبيا لوزارة المستعمرات الإيطالية ، وكانت الوزارة مقسّمة الى إدارات ، تختص كل إدارة بالإشراف على نوع من أنواع الخدمات ، وكلّ إدارة تشرف على اختصاصها في المستعمرة كلّها ، ولكنّ أكثر

---

(١) انظر قضية ليبيا (٤٨) وانظر تفاصيل معركة طرابلس في جهاد الأبطال (٤٨ - ٥٥)

(٢) قضية ليبيا (٤٩)، وكل عسكري يعرف أن مثل هذه الحملة تحتاج الى مدة طويلة لاكمال حشدها وتزويدها بالقضايا الإدارية ، مما يدل على أن ايطاليا قد أعدت أمر غزو ليبيا منذ أمد طويل .

(٣) استعمار افريقيا (٢٢٧ - ٢٢٨) . وانظر الشرق والغرب (٢/١٨٣ ١٩٨) .

الإدارات عملاً كانت إدارة الزراعة التي كانت تشرف على تهجير العمّال الإيطاليين إلى ليبيا وإقطاعهم الأراضي وتأجيرهم الآلات من أجل استثمار الأرض .

وكان حكم الإيطاليين لمستعمراتهم – ومنها ليبيا – حكماً مباشراً ، فكان الحاكم العام في ليبيا هو رئيس ليبيا الأعلى . وقسِّمت ليبيا الى عدد من الوحدات الإدارية الكبيرة فالصغيرة ، وانبثّ الرجال العسكريون يرأسون كلّ هذه الوحدات الإدارية ولا يعتمدون على الوطنيين مطلقاً ، وإذا كانت إيطاليا قد اعترفت بأهمية بعض الشخصيات الوطنية ، إلاّ أنه كان اعترافاً شخصياً ولم توكل إليهم عملاً من الأعمال .

وقُسِّمت الحكومة في ليبيا الى إدارات كما هو الحال في إيطاليا ، وتبعت كلّ إدارة منها رئاستها في وزارة المستعمرات التي كانت تستعين بالإخصائيين في مختلف الوزارات الأخرى . وكان جميع رؤساء هذه الإدارات ووكلائها وموظفيها من الإيطاليين ، وإن كانت قد استعانت بعدد قليل من الوطنيين على شرط أن يجيدوا الإيطاليّة ويظهروا لها الإخلاص والولاء . ولم تسمح إيطاليا بقيام أيّة هيئة استشارية حتى وإن كانت إيطالية خالصة ، فجميع السلطات الإداريّة والتشريعيّة والقضائيّة مركّزة في يد الحاكم العام . كما أقيمت المراكز الحربيّة في مختلف أجزاء البلاد تحتلّها حاميات من الجيش الايطالي على قدم الإستعداد للقتال ، إذ لم تهدأ الأحوال مطلقاً في ليبيا . ولم يكن شق الطرق الذي تمّ بسرعة في ليبيا إلاّ عملاً حربياً قُصد به الوصول الى أجزاء البلاد بسرعة وسهولة ويسر من أجل القضاء على كلِّ مقاومة ، كما كان أفراد الشرطة كلّهم من الإيطاليين ، ولم يسمح للوطنيين بالإندماج فيها مطلقاً [١] .

ولم يبدأ استغلال الإيطاليين الزراعة في ليبيا إلاّ بعد سنة (١٩٣٢م) ،

---

(١) استعمار إفريقيا (٢٢٨ – ٢٢٩) .

حيث أمكن القضاء على الثورات في ليبيا ، وكأنّما كانت أعمال (اللواء غرازباني) وقسوته التي استعملها في إبادة الليبيين مقدمة لمجيء الإيطاليين الى ليبيا . وحين قدم (اللواء بالبو) وجد الأرض خالية من السكّان لأنّ غرازباني أباد أكثرهم ، فانــتزع بالبو ملكيّة الأراضي ، واستولى عليها دون أن يدفع تعويضاً ما ، وكانت تلك الأراضي تمتــدّ مسافة (١٨٠٠) كيلو متر عــلى طول ساحل برقة ، ويختلف عمقها بين عشرين ومائتي كيلو متر ، ووضعت الأراضي في يد (مصرف التوفير) الإيطالي ، كي يساعد القادمين من المستوطنين بالقروض ، كما صودرت الأراضي التي كانت ملكاً للزوايا السنوسيّة . وبدأ قدوم المستوطنين في سنة (١٩٣٣ م) ، فقدم منهم (٣٧٨) أسرة إيطالية ، فوزع عليهم (٣٦) ألفاً من الأفدنة . وحتى سنة (١٩٣٧ م) قدمت (٧٣٣٠) أسرة ، فكان أن عُدِلَ عن فكرة المساحات الكبيرة الى فكرة المساحات الصغيرة ، مع إمــداد الأسرات بالمــال والأدوات والمسكن والحيوانات الزراعيّة ، وقسطت أثمان هذه الأراضي على عشرين سنة ، كما أعطيت مساحات أخرى لمؤسستين زراعيتين [٢] ، وأعطيت كل مؤسسة منهما أرضاً لتوزيعها على المزارعين .

وقد اعتمدت الجالية الإيطالية في حياتها على ما يأتيها من إيطــاليا ، فاستوردت المنسوجات والآلات وأدوات البنــاء والسكر والشاي والبُنّ والبترول ... الخ [٣] .

وقد أصدرت إيطاليا القوانين التي تنص على التفرقة الإجتماعية بين الإيطاليين وبين سكّان ليبيا منذ سنة (١٩٣٧ م) ، وجعلت للأوربيين امتيازات خاصة للتمتع بها مع حرمان الوطنيين من أنواع من العمل معيّنة ، فحرم

---

(٢) هما : أ – Enite peria Colonizazione Della Libya

ب – Instute Nationale Della prevedenzo Sociale

(٣) انظر التفاصيل في استعمار افريقيا (٢٨٤ – ٢٨٥) .

عليهم ركوب الدرجة الأولى من القطارات ، كما جعلت لهم حافلات نقل خاصة لا يركبها غيرهم ، كما حرموا من دخول بعض النوادي والمدارس[1] .

وكان اهتمام الإيطاليين بالصحّة العامّة في ليبيا قليلاً ، وكان اهتمامهم بالتعليم أقلّ من القليل ، مما أشاع الأمراض والجهل بين الوطنيين بشكل يدعو الى الحزن والرثاء.

ج ـ فماذا عن جهاد ليبيا للتخلّص من نير الاستعمار ؟

أولاً : تطوّع أهل ليبيا للقتال إلى جانب الأتراك من أوّل لحظة من لحظات الغزو الإيطالي عام (١٩١١م) ، فما كانت القوات التركية القليلة العَدَد والعُدَد لتصمد للغزو الإيطالي لولا نهوض أهل البلاد في طرابلس وبرقة وتطوّعهم للقتال وانضمامهم الى المعسكرات التركية .

وفي طرابلس كان **لسليمان الباروني نائب الجبل وفرحات نائب طرابلس** فضل كبير في استنفار القبائل العربية للجهاد ، فلحقت هذه القوات غير النظامية بالقوات التركية وخضعت لقيادتها وكثُرت غاراتها على الطليان ، وكان سكّان السواحل من (زوارة) غرباً الى (مصراته) شرقاً وفي منطقة الجبل من (غريان) الى (نالوت) هم عماد حركات الجهاد الأولى ، كما لحق بهم بعض أهالي الجنوب **كالسيد محمد بن عبدالله البُوسَيْفِي من أولاد أبي سيف.**

أما في برقة فقد قام **الشيخ أحمد العيساوي ممثل السنوسيّة ووكيل زاويتها** ، فكتب الى شيوخ الزوايا القريبة يطلب منهم دعوة المجاهدين الى القتال [2]

ومن جهة أخرى أرسلت الدولة العثمانية عدداً من الضباط على رأسهم

---

(١) استعمار افريقيا (٣٢٥) .

(٢) انظر قضية ليبيا (٤٩ ـ ٥٠) ، وانظر تفاصيل المعارك في جهاد الأبطال (٥٧ ـ ٧٩) .

أنور[1] وعزيز المصري ومصطفى كمال [2] ، وجعلت القيــادة لأنور ، وقسّمت الجبهة الى ثلاث مناطق : الأولى في بنغازي بقيادة عزيز المصري، والثانية في درنة بقيادة مصطفى كمال ، والثالثة في طبرق بقيادة **ناظم بك** .

على أنّ المتطوعين والمجاهدين كانوا عماد القوة العثمانية في هذا الميدان كما كانوا في ميدان طرابلس ، وقد عمل أنور بك منذ وصوله على أن يطوف بالقبائل ويزور الزوايا السنوسيّة ويدعو الجميع الى الجهاد واتّصل **بالسيد أحمد الشريف بالكفرة** ينبئه بخيانــة الطليان ويرجوه أن يرسل منشوراً الى أتباعه ليحاربوا أعداء دينهم [3] .

وحدثت مع الطليان معارك ومناوشات كثيرة ، وكانت الخطة الإيطالية ترمي الى التقدّم من بنغازي الى (درنة) والإطباق على الهضبة الوسطى، ولكنّ المقاومة الشديدة ردّتهم الى الساحل [4] .

واستمرّت الصفحة الأولى من الحرب في ليبيــا من ٣ تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٩١١ م) الى ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٩١٢ م) ، حين وقّع الطليان والعثمانيون معاهدة الصلح في أوشي (لوزان) ، وبمقتضاها تعهّدت الدولتان بإيقــاف الحرب ، وتعهّد العثمانيون باستقدام ضبّاطهم وجيوشهم وموظفيهم المدنيين من طرابلس[5].

ثانياً : لم يقر الشعب اللّيبي الدولةّ العثمانيّة على الصلح ، ولم يقبل أن يضع السّلاح ، بل قرّر الإستمرار على المقاومة .

وقد انقسمت حركة الجهاد الى شعبتين : إحداهما في طرابلس والثانية في برقة .

---

(١) هو أنور باشا الذي أصبح من أعظم رجال الدولة العثمانية فيما بعد .

(٢) هو كمال أتاتورك أول رئيس للجمهورية التركية .

(٣) السنوسية دين ودولة (١٣٨) .

(٤) Sanusi Cyranoica p p. 112 — 113.

(٥) راجع تفاصيل معاهدة أوشي والملاحق والاتفاق السري من جهاد الأبطال (٩٩ – ١٠٦).

أمّا في طرابلس فقد عقد زعماء الحركة الوطنية اجتماعات في لواء الجبل العربي ولواء (فزّان) و (ورفلة) لدرس الموقف الراهن ، فقرّروا إعلان استقلال ليبيا وإنشاء حكومة وطنية برئاسة الشيخ سليمان الباروني .

وكان من أهم ما فعله الباروني هو إنشاء خط دفاعي إزاء الإيطاليين يبتدىء من ورفلة ماراً أمام غريان والزعترية ومنطروس وبئر الخشب في جهة العزيزية وأمام العجلات والعلالقة وزوارة في بلاد الساحل .

أما في برقة ، فلما انتهت الأنباء الى السيد أحمد الشريف عن الصلح بين العثمانيين والطليان ، أرسل خطاباً إلى أنور قال فيه : « نحن والصلح على طرفي نقيض ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه ، إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد الى العدو » ، وحذّر من أثر توقيع الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار ، وما يحدثه من نفور شديد من الدولة العثمانية .

على أن أنور حين استدعته حكومته بعد توقيع الصلح ، رأى من واجبه قبل أن يغادر ليبيا أن يزور السيد أحمد الشريف في (الجغبوب) ليبلغه ما صحّ عليه عزم السلطان ، وبأنه ترك القيادة بعده لعزيز المصري ، وأبلغ السيد أوامر الخليفة العثماني ، وهي : إسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته ، وأخبره أنّ الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها ، تاركاً لها الحقّ في أن تقرر مصيرها وتدافع عنْ نفسها » .

ومن الواضح أنّ هذا التبليغ قد دعم نهائياً أركان الإمارة السنوسية المستقلّة .

واستمرّ الجهاد في طرابلس وبرقة .

ففي طرابلس استطاع الطليان أن يحتلوا منطقة (الجفرة) الى الجبل بما في ذلك غريان ومسلاته ومصراته وبني الوليد في مدّة ثلاثة أشهرتقريباً ، ولم يحدث صدام كبير مع العرب إلا في (القصبات) في ١٤ كانون الأول

(ديسمبر) سنة (١٩١٢ م) وفي بني الوليد في ٦ كانون الثاني (يناير) سنة (١٩١٣ م)

ولبث الباروني يجمع جيشاً كبيراً من العرب في منطقة الجبل الغربية بعد سقوط غريان ، فاشتبك معه الطليان في (جندوبة) في ٢٣ آذار (مارس) سنة (١٩١٣ م) واحتلوا منطقة الجبل حتى (نالوت) والحدود الفرنسيّة ، وانسحب المجاهدون الى (يفرن) وهم يعانون نفاذ المؤن وانقطاع الإمداد ، وزحف الطليان جنوباً واحتلوا غدامس في نيسان (ابريل) و (مزده) في تموز (يوليه) ، وجهّزوا حملة كبيرة لاحتلال فزّان ، فزحفوا من سرت الى سوكنه . وهبَّ أهل فزّان للدفاع عن بلادهم بقوة كبيرة يقودها **محمد بن عبد الله** ، ونازلوا الطليان في ثلاث معارك كبيرة في (الشب) و (أشكدة) [1] و(المحروقة) [2] قتل فيها القائد العربي محمد بن عبد الله البوسَيْفي [3] .

وأخيراً قبل المجاهدون عروض إيطاليا بإصدار العفو العام عنهم ، ولكنّ قسماً منهم رفضوا هذا العفو وارتحلوا بأسلحتهم الى فزّان لمواجهة الجهاد هناك [4] .

ثالثاً : أما في برقة فقد استمرّ القتال بقيادة عزيز المصري وإشراف السيد أحمد الشريف ، وكان الطليان قد قرّروا احتلال (الجبل الأخضر) فحدثت بينهم وبين المجاهدين معارك متعددة أهمها معركة (درنة) التي نشبت يوم الجمعة ١٦ مايس (مايو) سنة (١٩١٣ م) ، وفيها اشترك السيد **أحمد الشريف مع قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة** ، فهزم الطليان وارتدوا الى (درنة) .

---

(١) الشب ، وأشكدة : مكانان بقرب براك ، يوجد في الأول معدن الشب .

(٢) المحروقة : بلدة بوادي الشاطىء من أعمال فزان .

(٣) انظر تفاصيل هذه المعارك في جهاد الأبطال (١٢٠ – ١٣٣) .

(٤) تحية من القلب لهؤلاء المجاهدين الذين آثروا الشهادة على الذل .

وفي هذه الآونة تعرّض المجاهدون في برقة لخطر شديد نتيجة لعاملين: الأول ضغط ايطاليا على الدولة العثمانية حتى تكفّ عن مساعدة المجاهدين وتستدعي قواتها من برقة. والثاني سعي ايطاليا حتى تمنع الحكومة المصرية عن المجاهدين الأسلحة والذخيرة والمؤن التي تصل اليهم من مصر.

لذلك أُستدعي عزيز المصري وأُمِر بالإنسحاب بمن معه من الضبّاط والسّلاح والعتاد نحو الحدود المصرية، ولم يرض المجاهدون عن هذا الإنسحاب؛ فحاولوا استبقاء القوة أو الإستيلاء على سلاحها، وأرسل السيد أحمد الشريف **السيد عمر المختار** لأخذ السّلاح من قوة عزيز المصري عنوة؛ ولكن القوة العثمانية كانت قد تقدّمت نحو (السلّوم) بعد أن اصطدمت بقوة من المجاهدين غربي السلّوم، واستطاع عزيز المصري أن يبلغ الإسكندرية في ١٦ تموز (يوليه) ويذهب منها الى الآستانة.

وبعد انسحاب القوّة التركية العاملة في برقة وجبل الأخضر بكامل معدّاتها، وانقطاع المدد عبر الحدرد المصريّة، وقع عبء مقاومة الغزو الإيطالي على أهالي ليبيا وحدهم، فاشتبك المجاهدون مع الطليان في عدة معارك بدأت في شباط (فبراير) سنة (١٩١٤ م) وانتهت في أواخر تموز (يوليه) قبل بدء الحرب العالمية الأولى بأيام قلائل.

وفي ٣ آذار (مارس) احتل الإيطاليون (مرزق) في فزان، وبذلك احتلّ الطليان معظم ولاية فزان [1].

رابعاً: وابتدأت الصفحة الرابعة من الجهاد اللّيبي بحرب العصابات في ولاية فزّان، فقد ألفّ العرب عصابات مسلحة بقيادة **سالم بن عبد النبي الزنتاني**، فهاجم (القاهرة) [2] يوم ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة

---

(١) انظر التفاصيل في القضية الليبية (٥٨ – ٦١) وجهاد الأبطال (١٣٣).

(٢) القاهرة: ربوة عالية في سبهة، وفي رأسها قصر قديم فيه بئر. وسبهة تتكون من ثلاث =

(١٩١٤ م) واحتلها وغنم ما فيها من سلاح وعتاد وأرزاق. واشتبكت قوّات المجاهدين بالطليان في معارك كثيرة ، منهـا معركة (المحروقة) وغيرها ، فلم تستطع القيادة الإيطالية الصمود ، فأخلت (مرزق) يوم ١٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة (١٩١٤ م) ، كما خرج الطليان من (غات) وتركوا كلّ ما فيها ، وخرجوا من (الجفرة) يـوم ٢٧ كانون الثاني سنة (١٩١٥ م) ، وبخروجهـم من الجفرة خلت الجهات الجنوبية كلّها منهم ، وبقيت مراكزهم في (سرت) وما دونها من المراكز الشمالية الى طرابلس .

وكان انسحاب الطليان من فزّان عاملاً بعيداً لرفع الروح المعنوية عند المجاهدين ، وقد تطوّع كثير من القبائل للجهاد على المستعمر الغاصب .

وجمع الطليان قوّات كبيرة وأرغموا سكّان السواحل التي يحتلّونهـا بالانضمام الى قوّاتهم ، وكان على رأسهم **رمضان السويحلي زعيم مصراتة**، فالتقوا بالمجاهدين عند (القرضابية) [١] أو قصر بوهادي ، فما لبثت القوات العربية التي جنّدها الطليان أن انقلبت على الطليان بقيادة رمضان السويحلي ، فاندحر الطليان وتكبّدوا خسائر فادحة ، وكان ذلك يوم ٢٩ نيسان (ابريل) سنة (١٩١٥ م) .

كانت هذه المعركة حاسمة في حصر نفوذ الطليان في ساحل طرابلس وتقوية روح المقاومة بين المجاهدين [٢] .

= قرى إحداها القاهرة، وقد اتخذ منها الطليان حصناً بعد احتلالهم فزان للدفاع عن سبهة وأحاطوها بسياج من المدافع والأسلاك الشائكة حتى أصبحت منيعة جداً . انظر جهاد الأبطال (١٤٢) .

(١) القرضابية : بئر تقع شرقي قصر سرت على مسافة قريبة منه ، وقصر بوهادي أطلال لقصر قديم يسمى بهذا الاسم ويقع في الجنوب الغربي من قصر سرت ، وبما ان الطليان كانوا يشغلون المسافة بين القرضابية وقصر بوهادي وقت المعركة ، نسبت المعركة الى كل منهما . انظر جهاد الأبطال (١٥١) .

(٢) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (١٤٨ – ١٥٧) والقضية الليبية (٦١ – ٦٣) .

خامساً : وكان لاندلاع نار الحرب العالمية الأولى أثر بعيد في تطوّر الحركة الوطنية الليبية ، فقد كان من شأن هـــذه الحرب أن تشغل إيطاليا عن استعادة مواقعها المفقودة في ليبيا والقناعة بسواحل طرابلس وبرقـــة ، ولكنّ أهل ليبيا لم يتركوا وشأنهم في الجهاد على ايطاليا ، بل أخـــذت الدولة العثمانية تطمع من جديـــد في استعادة مركزها السابق في ليبيا ، وتطمع أن تتخذ منها قاعدة للهجوم من حدودها الشرقية على البريطانيين في مصر ، ومن حدودها الغربية والجنوبية للهجوم على فرنسا في تونس وإفريقية الغربية ، وبهذا استطاعت تركيا أن تحوّل أهالي برقة عن كفاحهم الأصلي على الطليان ، الى ميدان جديد لا ناقة لهم فيه ولا جمل .

وأرسلت تركيا لهذا الغرض **نوري بك وجعفراً العسكري** [1] الى برقة وكانت خطّتهم أن يهادن السنوسيون الطليان ويشتركوا مع الضباط العثمانيين في إعداد حملة من المجاهدين لمهاجمة الإنكليز ، وتعهدت تركيا بإرسال العتاد والمال وبعض الضبّاط عن طريق الغواصات الالمانية .

وتردّد السيد أحمد الشريف طويلاً قبـــل أن يوافق على خطة العثمانيين [2] ، وكان جعفر العسكري ونوري بك والسيد هلال السنوسي قد حاولوا أن يناوشوا البريطانيين عند الحدود ، فانسحب هؤلاء من السلّوم الى (مرسي مطروح) واستعدّوا للحرب ، فلم يجد السيد بدّاً من الموافقة على القتال .

وتقدّمت الكتائب السنوسيّة بقيـــادة الضباط الأتراك وزحفت الى (سيدي براني) ، وهناك انضمت اليها قوة مصرية أعلنت الثورة على الانكليز قوامها خمسون جندياً وأربعة ضباط برئاسة **محمد صالح حرب (باشا) قائد مرسي مطروح .**

---

(١) هو أخو أنور باشا ، وجعفر العسكري عراقي أصبح رئيساً للوزراء وقتل في انقلاب بكر صدقي في سنة ١٩٣٦ م .

(٢) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (١٩٢ – ١٩٥) .

وأخفق الأتراك في غزو مصر ، فغادر السيد أحمد الشريف برقة الى الآستانة ثم الى المدينة المنوّرة حيث توفي سنة (١٩٣٣ م) .

وبزعامة السيد **محمد ادريس السنوسي** انتقلت السنوسيّة من الكفاح الى محاولة إقرار الحقوق عن طريق المفاوضات [١] ، لتضميد جروح المجاهدين بالحصول على الوقت الكافي وإكمال نواقصهم الإدارية والمعنوية بعدما تكبدوا خسائر فادحة في حرب البريطانيين ، استعداداً لصراع حتمي وشيك .

وفي الوقت الذي كُلِّف فيه نوري بتنفيذ خطّة الدولة العثمانية في برقة خاصة ، أُرسل سليمان الباروني في عام (١٩١٥ م — ١٩١٦ م) لاستئناف الجهاد في طرابلس ، فنزل مصراتة وجمع شيوخ البلاد وبدأ في تأسيس الحكومة الجديدة، وبذل جهوداً مشكورة لتحقيق وحدة الصف .

وفي سنة (١٩١٨ م) انسحب العثمانيون من ليبيا تاركين لأهلها عبء استمرار المقاومة على الطليان . وفي هذه الآونة ظهرت المحاولة الثانية لبلورة الحركة الوطنية في طرابلس ، وذلك باعلان الجمهورية الطرابلسية ، وفي ١٣ صفر سنة (١٣٣٧ هـ) الموافق ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (١٩١٨ م) أُعلن نبأ قيام الجمهورية في طرابلس [٢] .

وفي أواخر آب (اغسطس) سنة (١٩١٩ م) حُلّت الجمهورية بعد عقد الصلح مع الايطاليين [٣] ولكنّ الطليان نكثوا عهودهم ، فأنشأ رمضان السويحلي حزب الإصلاح ، وأصدر الحزب منشوراً يتضمّن مبادئه ويدعو الى العمل من أجل إسعاد الوطن ورقيّه ونشر أسباب الرخاء في ربوعه [٤].

---

(١) انظر التفاصيل في القضية الليبية (٦٤ — ٦٥) ، وانظر أيضاً جهاد الأبطال (٢١٢ — ٢١٦)

(٢) تراجع النصوص الخاصة بالجمهورية في : الدولة العربية المتحدة لأمين سعيد (١/٣٢٦ — ٣٣٦) وانظر القضية الليبية (٦٤ — ٧٩) وجهاد الأبطال (٢٢٢ — ٢٥٠) .

(٣) هو الصلح المعروف بصلح بنيادم .

(٤) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (٢٥٢ — ٢٧٨) وقضية ليبيا (٩٠ — ٩٨) .

ولكنّ المستعمرين أخذوا يحرّكون الأحقاد ، فظهرت بوادر الفتنة ؛ فكان مما رآه رمضان السويحلي لدرء الخطر أن يفتح (ورفلة) وبذلك يؤمن ما وراءه الى فزّان ويمكنه الإتصال بأنصاره فيها وفي غريان ونالوت وزوارة والزاوية . وفي ٢٤ آب (اغسطس) سنة (١٩٢٠ م) صبّح رمضان بجيشه ورفلة ، فاستشهد **رمضان السويحلي** [١] عليه رضوان الله ، فكان استشهاده خسارة كبرى للحركة الوطنية الطرابلسيّة ، فقد كانت زعامته هي المحرّك للجهاد في طرابلس منذ سنة (١٩١١ م) .

وبذلك انتهت الصفحة الخامسة من جهاد ليبيا المشرّف .

سادساً : وعقد مؤتمر غريان في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (١٩٢٠ م) بعد أن اختار كلّ بلد مَنْ يُمَثِّلُه ما عدا بلاد البربر ، فقد حالت الفتنة التي كانت قائمة بينهم وبين العرب والتي اثارها المستعمر — دون اشتراكهم فيه ، فكان من أهم مقررات المؤتمر توحيد الكفاح في ليبيا بين برقة وطرابلس . وبعد اجتماع ممثلي طرابلس بممثلي السنوسية في (سرت) اتّفق الطرفان على توحيد الكلمة ، فبايعوا السيد إدريس السنوسي بالإمارة في حدود مقررات غريان ، وكان قبول البيعة في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (١٩٢٢ م) [٢] .

وكانت هناك محاولات للتفاهم بين الطليان والليبيين ، ولكنّها أخفقت نتيجة لاتّباع إيطاليا سياسة المراوغة والدس بين شعب ليبيا ؛ فاستؤنفت الحرب من جديد في طرابلس ، كما استؤنفت الحرب في برقة ، فحشد الإيطاليون جيوشاً ضخمة لم يستطع المجاهدون مقاومتها برغم ما بذلوه من تضحيات جسام ، فاحتلّ الايطاليون كثيراً من المدن الليبية : غريان في ١٧ تشرين الثاني سنة (١٩٢٢ م) وهي مقر الحكومة الوطنية ، وأطبقوا

---

(١) انظر لمحات من حياة رمضان السويحلي في جهاد الأبطال (١٧٧ – ١٨٠) .

(٢) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (٢٩٦ – ٣٠٧) وقضية ليبيا (٩٤ – ٩٨) .

على المجاهدين من الشمال والجنوب ، واحتلوا مصراتة في ٢٦ شباط (فبراير) سنة (١٩٢٣ م) ، وفي أواخر أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٢٣ م) قضى الإيطاليون على آخر محاولة للمقاومة في طرابلس .

وهكذا استمرّ جهاد طرابلس البطولي الفذ أربعة عشر عاماً [١] ، وبذلك انتهت الصفحة السادسة من جهاد ليبيا المشرّف .

سابعاً : أما في برقة ، فقد ولى السيد إدريس السّنوسي القيادة العامة للمجاهد البطل عمر المختار .

وقصّة جهاد هذا البطل من أروع قصص الجهاد ، تذكّرنا بجهاد السلف الصالح من أبطال العرب المسلمين في سبيل الدفاع عن دارالإسلام .

كان عمر المختار شيخ زاوية (القصور) [٢] أوّل مَنْ خرج بجيش لنجدة الأتراك بعد نزول الطليان في برقة سنة (١٩١١ م) ، فقد استنفر القبائل وقاد المجاهدين ، فكان وصول هذه النجدة في الوقت المناسب مُثبّتاً لأقدام العثمانيين الذين استطاعوا مع السنوسيين إرغام الطليان على التقهقر الى بنغازي .

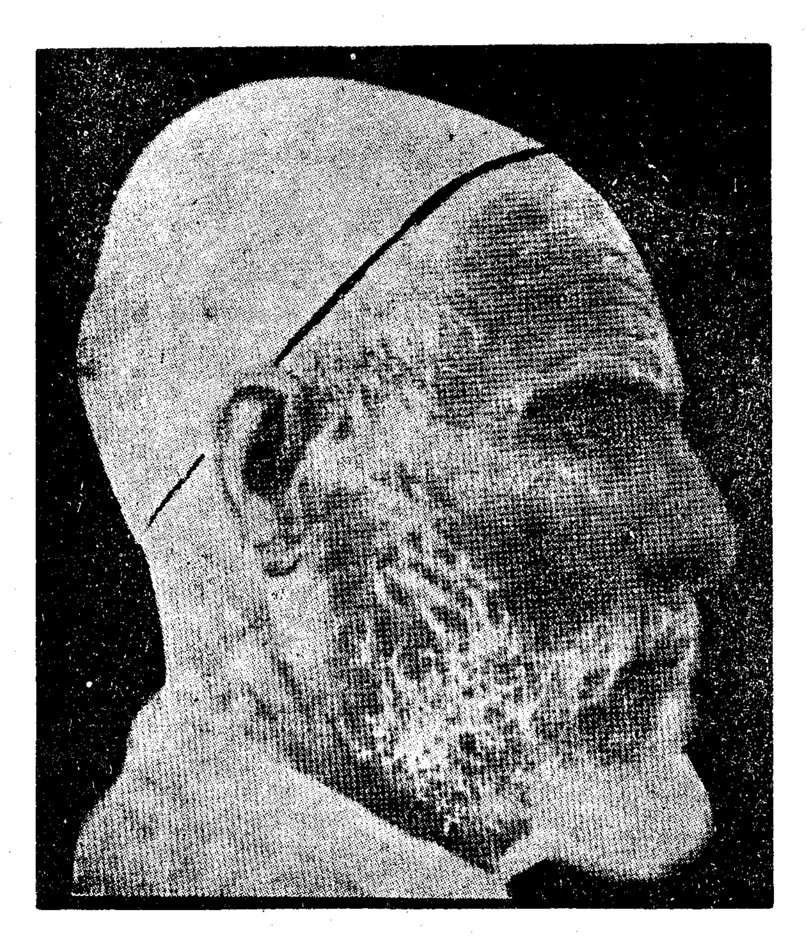
لقد رَشّحَ عمرَ المختار لتوليّ قيادةَ المجاهدين العامّة جهادهُ المُرُّ واستبساله وصموده الطويل أمام الطليان ، فلّما تولىَ هذه القيادة كان موضع ثقة المجاهدين ومحط آمالهم ، لذلك فقد أعطى القوس باريها في توليّه القيادة .

واستقرّ عمر المختار في الجبل الأخضر ، ونظم معسكرات المجاهدين ، وعيّن القادة للمجاهدين ، ثم بدأ الجهاد فاستمرّت المناوشات بين الطليان والمجاهدين في الجبل الأخضر طوال عامي (١٩٢٤ م) و (١٩٢٥ م) .

---

(١) انظر التفاصيل في جهاد الأبطال (٣٣٢ – ٣٧٢) .

(٢) القصور : مدينة تقع بالجبل الأخضر قرب مدينة (المرج) .



البطل عمر المختار

وحاول الطليان التفريق بين صفوف المجاهدين وأخذهم بالتهديد تارة وبالحيلة تارة أخرى ؛ فكانت الطائرات تُلقي المنشورات ، وكانت الوفود تجيء بوعود الطليان ، دون جدوى . . . . فرأت إيطاليا ألاّ سبيل الى هزيمة المجاهدين في الجبل الأخضر إلاّ بقطع الإمــداد عنهم من الغرب والشرق ، وحصرهم في منطقة الجبل الضيّقة، وذلك باحتلال (الجغبوب) وفزّان و (الكفرة) وغيرها من المواقع السوقيّة [1] .

واحتلّ الطليان (الجغبوب) في ٨ شباط (فبراير) سنة (١٩٢٦م) فكان احتلالها مصيبة جديدة تضاف الى المتاعب التي استقبلت عمر المختار .

وكان عمر المختار يتّخذ مقر قيادته في منطقة (شحات) ويبلغ عدد المجاهدين معه حوالي خمسمائة وألفاً ، منهم أربعمائة فارس تقريباً . وقد أبعد المختارُ الأسرَ والعائلات وغير المقاتلين عن منطقة القتال ، وزوّد جنوده بعدد من (القِرَب) المعدّة لإمداد المجاهدين بالماء ، وبذلك جعل من المجاهدين قوّة مستعدة للقتال .

وسرعان ما اشتبك المجاهدون بالطليان في معارك دامية في تموز(يوليه) سنة (١٩٢٧ م) ، ثم استمرّت مناوشاتهم للعدو حتى بداية الشهر التالي ، وقد أُصيب الطليان بخسارة فادحة ، ولكنّ الطليان بما لديهم من فواق عسكري ساحق إستطاعوا أن يُضَيِّقُوا نطاق الحصار على المجاهدين .

وأعدّ الطليان خطّة للإستيلاء على (فزّان) ، فخرجت في أواخر كانون الثاني (يناير) سنة (١٩٢٨ م) قوّتان إحداهما من (غدامس) والأخرى من الجبل الأخضر ، وكان الجيش بقيادة غرازياني .

والتحم المجاهدون بالطليان في معركة حامية استمرّت خمسة أيــام ، فانهزم الطليان شرّ هزيمة ، كما انتصر المجاهدون على القوة الطليانية التي

---

(١) السوقية : الإستراتيجية .

قصدت (فزّان) في محاولة ثانية لاحتلالها ، كما انتصروا على الطليان في حملتهم الثالثة للإستيلاء على (فزّان) .

وتوالت انتصارات مجاهدي عمر المختار على الطليان ، فضيّق الطليان الحصار على المجاهدين في الجبل الأخضر ومنعوا عنهم الإمدادات الإداريّة .

وعيّن موسوليني اللواء بادوليو حاكماً على طرابلس وَبرْقة في كانون الثاني سنة (١٩٢٩ م) ، وكان تعيينه المرحلة الحاسمة بين الطليان والمجاهدين في برقة والجبل الأخضر .

وفي ٢٤ يناير أكمل الطليان احتلال منطقة (فزّان) بعد ثمانية أشهر من المقاومة برز فيها المجاهد **أحمد سيف النّصر** ، فاستطاع بذلك بادوليو القضاء على المقاومة في طرابلس نهائياً ، وأن يركز جهوده على الجبل الأخضر .

وفاوض بادوليو عمر المختار ، فعرض المختار شروطه ، فكان منها : ألاّ تتدخّل الحكومة الإيطالية في أمور ديننا ، وأن تكون اللّغة العربية لغة رسمية معترفاً بها في دواوين الحكومة الإيطالية ، وأن تفتح مدارس خاصة يدرّس فيها التوحيد والتفسير والحديث والفقه وسائر العلوم ، وأن تفتح مدارس لتعليم اللغة العربيّة ، وأن يلغى القانون الذي وضعته إيطاليا والذي ينصّ على عدم المساواة في الحقوق بين الوطني والإيطالي إلاّ إذا تجنس الأول بالجنسيّة الإيطاليّة !! ... الخ [1] .

وتظاهر بادوليو بقبول الشروط ، ولكنّه نكث بوعوده ، فأصدر عمر المختار في ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٩٢٩ م) نداءً الى أهالي طرابلس وبرقة أعلن فيه : أنّ غرض الطليان من التظاهر بالمفاوضات هو كسب الوقت لصالحهم ، كما أعلن فيه انتهاء الهدنة بين المجاهدين والطليان [2] .

---

(١) انظر شروط عمر المختار في قضية ليبيا (١١١ - ١١٤) .

(٢) انظر تفاصيل نداء عمر المختار في قضية ليبيا (١١٥ - ١١٧) .

وفي هذه الاثناء كانت إيطاليا تعدّ العدّة للقضاء على معاقل المجاهدين في الجبل الأخضر ، فعيّنت غرازياني نائباً للوالي في برقة بتاريخ ١١ كانون الثاني سنة (١٩٣٠ م) ، وأطلقت يده لإخماد الثـورة . وحصر غرازياني المجاهدين في الجبل الأخضر ومنع كلّ اتصال بينهم وبين السكّان غـير المحاربين فجمع جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم جميعاً في مركز (بنينة) وهو بنـاء قديم لا سقف له ذاقوا فيه مرّ العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ، ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا ومكثوا فيها مدة من الزمن أُعيدوا بعدها إلى (بنينة) حيث أُفنوا بالجوع والعطش وغيره .

ثم حصر غرازياني سكّان الجبل الأخضر في بقعة ضيّقة من الأرض بين (طلمية) و (بنينة) بعد أن زج زعماؤهم في السجون وألحق بهم من الإهانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سيد الشرقاوي مع خمسة عشر شيخاً شرّ قتلة ، وذلك بأن أمر بإركابهم في الطائرات وإلقائهم من علو اربعمائة متر على مشهد من أهلهم !!

ثم رحّل سكان برقة الغربيّة ، فصادر نقودهم ومواشيهم ، وساقهم بحراسة الفرسان والمدرّعات ، ولم يسمح لأحد بالإنحراف عن الطريق ولو للاستسقاء ، ومن ينحرف عن الطريق أو يحاول الإستراحة يعاقب بالقتل فوراً ، لا فرق بين رجل وإمرأة وطفل ، ثم حشرهم في صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطاع . أما سكان برقة الشرقية فلم يكن نصيبهم من الضرر بأقلّ من نصيب إخوانهم ، حيث نفوا مع نسائهم وأطفالهم الى (العقيلة) ... ويبلغ عدد هذه القبائل ثلاثين قبيلة وعدتها ثمانون الف نسمة ، حشرت بأجمعها في بقاع (بنينة) و (طلمينة) و (العقيلة) القاحلة ، ومنعت من التجوّل خارج الأسلاك الشائكة التي ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشستية حيواناتهم ومواشيهم [١] .

---

(١) الفظائع السود والحمر (٦٧ — ٦٨) .

وفي نيسان (ابريل) سنة (١٩٣٠ م) ، أنشأ غرازياني ما سمي : المحكمة الطائرة ، وهي وسيلة من أبشع الوسائل التي ابتدعها جزار ليبيا ليمنع الإتصال بين الأهالي والمجاهدين ، وهي محكمة عرفيّة سيّارة تنتقل في أرجاء البلاد على متن الطائرات ، وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة وتمنحها لمرتزقة الفاشيست . وكانت هذه المحكمة تعقد جلساتها في الهواء الطلق في الميادين العامة في المدن وفي المناجع[1] ، وكانت إجراءات المحاكمة والتنفيذ تمّ بسرعة عظيمة ، فلا يُسمح للمتّهمين بالدفاع عن أنفسهم ، ولا تفحص المحكمة شهادة الشهود ، بل يكفي مجرّد الإتّهام لاستصدار الحكم بالإعدام على المتهمين .

وكانت خاتمة هذه التدابير قطع الطريق على المجاهدين من الجنوب باحتلال (الكفرة) آخر معاقل السنوسيّة ، وكانت هذه الواحة قد أصبحت بعد سقوط (فزّان) بيد الطليان ، نقطة تجمع لقوات المجاهدين المنسحبين اليها من المناطق الشمالية ، وقد تمّ احتلالها في ١٩ كانون الثاني (يناير) سنة (١٩٣١ م) .

كان الموقف من الناحية العسكرية يائساً بالنسبة للمجاهدين ، ولكنّ عمر المختار أبى إلاّ أن يقاتل إلى آخر إطلاقة وآخر جندي ، فاستمرّ على مناوشة الطليان بحرب العصابات . وقد ذكر اللواء غزازياني في بيان له : أنّ المعارك التي وقعت بين جنوده وبين السيد عمر هي (٢٦٣) معركة في مدّة لا تتجاوز عشرين شهراً هي مدّة توليه قيادة الجيش الإيطالي في برقة قبل مقتل المختار .

وقد استمرّت المصادمات بين قوات المجاهدين وقوة من خيّالة الطليان بالقرب من (سلطنة) ، وقدّر لتلك المعركة الصغيرة أن تكون خاتمة مرحلة جهاد الشعب الليبي في سبيل حريته ونهاية حامل اللواء : السيد عمر المختار .

---

(١) المناجع : جمع منجع ، وهو الموضع ، يقصد لما فيه من كلأ وماء .

فقد أسر الطليان في هذه المعركة السيد عمر ، وأرسل إلى بنغازي فوصل إليها مساء يوم السبت ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٥٠ هـ ، وحوكم يوم الثلاثاء ٣ جمادى الأولى سنة ١٩٥٠ هـ ، (١٥ أيلول – سبتمبر – ١٩٣١ م) ، وكانت المحاكمة صورية لأن الطليان كانوا قبل المحاكمة بيوم واحد قد أعدوا المشنقة وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره !!.

وعقدت المحكمة في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة من مساء يوم ١٥ أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٣١ م) في بنغازي وختمت الجلسة في الساعة السادسة مساءً ، فحكمت على السيد عمر المختار بالإعدام شنقاً . وفي الساعة التاسعة صباحاً من يوم ١٦ أيلول سنة (١٩٣١ م) نُفِّذ حكم الإعدام بالشهيد البطل على مشهد من عشرين ألف نسمة من أهالي البلاد جمعتهم السلطة الإيطالية قسراً ، ثم دفن الشهيد سراً وأُخفيت معالم القبر حتى لا يعثر عليه أحد [1] .

وبذلك إنتهت الصفحة السابعة من جهاد ليبيا [2] .

ثامناً : ماذا عانى المجاهدون الليبيون خاصة وشعب ليبيا عامة من الإيطاليين ؟

إنّ ما ارتكبه الإستعمار الإيطالي في ليبيا من فظائع تقشعر من هوله القلوب والعقول معاً ، دليل على همجيّة المستعمر الغاشم من جهة ودليل على ما يتحلى به الشعب الليبّي من بطولة وصبر وفداء من جهة ثانية .

في ١٢ تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٩١١ م) ، قتل الطليان في ناحية (المنشية) من الأهالي عدداً يتراوح بين أربعة آلاف وسبعة آلاف نسمة ، ومثّلوا بالكثيرين واعتدوا على الحرمات .

---

(١) في بنغازي اليوم مدفن فخم للشهيد يزوره الناس تبركاً وعبرة ، رضي الله عن الشهيد البطل وجعله قدوة صالحة وأسوة حسنة لكل عربي من بلاد العرب ولكل مسلم في دار الإسلام .

(٢) انظر التفاصيل في : عمر المختار (٦٠ – ١٠٦) وقضية ليبيا (٩٩ – ١٢٦) .

وفي يوم ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٩١١ م)، أشعلوا النار في أحد أحياء طرابلس الواقع خلف بنك روما وذبحوا أكثر سكانه.

وفي ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) أعدموا حوالي خمسين نسمة بين نساء وأطفال في ثكنة الفرسان بمدينة طرابلس.

وأمعنوا في إهانة الدين الإسلامي ومنعوا الأهالي من إقامة شعائرهم، وصار جنودهم يدخلون المساجد وهم سكارى إزدراء بالمسلمين وتعطيلاً لعبادتهم. ونسفوا كثيراً من المساجد، ومنعوا أداء فريضة الحج بحجة أنّ الوباء منتشر في الحجاز! وألقى قائد (طبرق) الإيطالي بالمصحف الشريف إلى الأرض ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من الأهلين وهو يقول: «إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشراً ما دام هذا الكتاب بين أيديكم»!!

ثم اتخذوا من الأضرحة والمساجد إصطبلات لدوابهم وخيولهم، ونشط المبشّرون الطليان في دعوتهم وعمدت الحكومة إلى إرغام النساء على التنصّر والزّواج من الطليان.

ومنذ عام (١٩١٤ م) إلى عام (١٩٢٨ م)، غدت فظائع الطليان صفحات متسلسلة الحوادث متشابهة الوقائع تعذيباً وتقتيلاً ونكاية بالعرب وضغطاً على حرياتهم واغتصاباً لأملاكهم ونهباً لأموالهم وإحراقاً لبيوتهم.

وفي عهد موسليني ابتداءً من عام (١٩٢٢ م)، قرّر الطليان إمتلاك البلدان العربية القائمة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وإبادة أهل هذه البلاد وإفنائهم وتحويلها إلى رقعة لاتينيّة!!

وكان القضاء على اللّغة العربية لغة الدين، والعمل على تنصير العرب وإضعاف الدين والأخلاق من الوسائل التي اتّبعها الطليان في حرب الإبادة والإفناء وقد أكثروا من دور الفحش والدعارة وأشاعوا الفاحشة، لإضعاف روح المقاومة عند الليبيين.

وأقبح ما عمله بادوليو ، أنه أمر بأن ترصف صالة قصره بالبلاط المنقوش عليه اسم : « محمد » عليه أفضل الصلاة والسلام .

وفي عام (١٩٢٣ م) قتلوا من أهالي (جفارة) عند احتلالها ما يزيد على ألف رجل صبراً أمام نسائهم وأطفالهم ، ثم أتوا بعشرة سيدات من أهل (جفارة) فجردوهنّ من ثيابهنّ وشنقوهنّ عاريات ، وابقوهنّ سبعة أيام معلقات على هذه الحالة !!

وكانت (المحكمة الطائرة) التي ابتكرها غرازياني تحكم على المتّهمين خلال لحظات بالموت وتنفّذ حكمها عليهم فوراً .

وحشد غرازياني العرب في معسكرات الإعتقال ، وكان مجموعهم حوالي ثمانين ألف نسمة ، وكانت هذه المعسكرات تدعى : معسكرات الموت ، محاطة بالأسلاك الشائكة ، فكان معدّل موت الأطفال في تلك المعسكرات ٩٠٪ ، وأمراض العيون متفشية تنتهي غالباً بالعمى ، وقد فتك الطليان بـ (٥٧٠٩٢٨) نسمة من سكان طرابلس وبرقة فقط .

وعندما دخل الطليان (الكفرة) في كانون الثاني (يناير) سنة (١٩٣١ م) ولم يجدوا بها سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، إستباحوا قرى هذه الواحة ثلاثة أيام بطولها ، إرتكبوا خلالها ما لا يوصف من نهب وتشنيع وسبي نساء وذبح شيوخ وأطفال وإحراق دور وتدمير مزارع وإنتهاك حرمة المساجد ودوس مصاحف شريفة .

وظلّ غرازياني يعدم حوالي ثلاثين نسمة يومياً في أثناء حكمه على ليبيا الذي انتهى سنة (١٩٣٤ م) .

تلك قطرات قليلة من طوفان البلاء وسيل العذاب الذي صبّه الإستعمار الإيطالي على أبناء ليبيا [١] !!

---

(١) انظر التفاصيل في : عمر المختار (١٠٧ – ١٢٠) .

تاسعاً : اطمأن الإيطاليون بعد مقتل عمر المختار الى سلطانهم في ليبيا : أمير البلاد الشرعي سيد إدريس السنوسي في مهجره بمصر ، وأهل الحل والعقد الليبيين بعيدون عن البلاد ، ونصف الشعب او أكثر من نصفه قد هلك بيد الإيطاليين أو أُخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً ، والبقيّة الباقية من الليبيين مستضعفون لا حول لهم ولا قوّة يعانون الجهل والفقر والمرض .

ومضت السنون ثقيلةً مُثْقَلَةً بالمآسي ، حتى بدأت الحرب العالمية الثانية في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩ م ، فحرصت إيطاليا أول الأمر على عدم دخولها ، حتى إذا رأت فرنسا تنهار على أثر حرب الصاعقة الألمانية ، أعلنت إيطاليا الحرب على انكلترا وفرنسا في ١٠ حزيران (يونيو) سنة (١٩٤٠ م) .

واندحرت إيطاليا باندحار ألمانيا في شمال إفريقية ، وفي ٧ شباط (فبراير) سنة (١٩٤٣ م) كانت جيوش رومل قد تركت ليبيا كلها [١].

وكانت فرحة عظيمة شاملة عمّت شعب ليبيا وعبّر عنها السيد إدريس السنوسي بقوله : « إني أحمد الله الذي جعاني أشهد خروج هؤلاء الطليان الظالمين من بلادنا » [٢] **.**

وتدفّق الليبيون عائدين من مهاجرهم الى بلادهم ، وابتدأت صفحة الإحتلال البريطاني الفرنسي في ليبيا ، فكان هذا الإستعمار المزدوج شراً جديداً . عمل على التفريق بين أهل طرابلس وبرقة، وحكمت البلاد بإدارة عسكرية مؤقتة ، وسارت هذه الإدارة شوطاً بعيداً في عقد الإتفاق مع الولايات المتحدة الامريكية ومنحها قواعد عسكرية في البلاد ، وخطت تلك الإدارة خطوات واسعة في السيطرة الإقتصادية على البلاد وتمكين

---

(٢) انظر تفاصيل الحرب في فرنسا : في كتاب أسرار الحرب العالمية الثانية (٩٩ – ١١٨) .
(٣) انظر : عمر المختار (١٢٤) .

المصالح البريطانية فيها ، وأخذت بريطانيا تعمل بكل الوسائل لإدماج ليبيا في مستعمراتها إدماجاً تاماً [1] .

وكان ينبغي أن تنتهي الإدارات العسكريّة البريطانية والفرنسيّة في ليبيا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام (١٩٤٥ م) ، ولكنّ بريطانيا وفرنسا حرصتا على استمرار الإدارة العسكريّة سنوات حتى تمهل لرجالها الفرصة في تمكين أقدامهم .

وانتقل جهاد ليبيا الى الميدان السياسي ، فعُرضت قضيتها أول الأمر على مجلس وزراء خارجية الدول العظمى المنعقد في لندن عام (١٩٤٥م) ، ثم في باريس سنة (١٩٤٦) ، فتعارضت آراء الدول الأربع [2] فيما يتّصل بليبيا ، واستمرّت المساومات حولها بين الدول الكبرى . وفي آب (اغسطس) سنة (١٩٤٦ م) عُقد مؤتمر الصلح في باريس لإعداد معاهدة الصلح مع إيطاليا ، فتولّى الوفد المصري في هذا المؤتمر الدفاع عن حق ليبيا في الاستقلال . وفي ١٥ أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٤٧ م) عقدت معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وتتعلق المادة (٣٣) والملحق (١١) بمستعمرات إيطاليا الإفريقية ، وتنصّ المادة على : « أنّ إيطاليا تتنازل عن جميع حقوقها في تلك المستعمرات ، وحتى يتمّ البت نهائياً في مصير هذه المستعمرات تستمرّ الإدارة الحالية قائمة فيها » وهذا معناه استبدال الإستعمار الايطالي بالإستعمار البريطاني – الفرنسي في ليبيا .

وانتقلت قضية ليبيا الى هيئة الأمم في ١٥ أيلول (سبتمبر) سنة (١٩٤٨ م) ، وكانت هذه القضية أول قضيّة في جدول أعمال اللجنة السياسية في (ليك سكسس)، ودارت المناقشات حول ثلاث نقاط : مبدأ استقلال ليبيا ، ووحدة ليبيا بمناطقها الثلاث [3] ، ووصاية الأمم

---

(١) انظر التفاصيل في : قضية ليبيا (١٧٥ – ١٩٢) وانظر مستقبل إفريقيا (١٨٥ – ١٩٨).
(٢) الولايات المتحدة ، بريطانيا ، الاتحاد السوفياتي ، فرنسا .
(٣) برقة ، طرابلس ، فزان .

المتحدة وتنظيمها ، فانقسمت الآراء حول ذلك أيضاً .

واستمر عرض قضيّة ليبيا ضمن المستعمرات الإيطالية السابقة على الهيئة الدولية سنة (١٩٤٩ م) و سنة (١٩٥٠ م) ، وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة (١٩٥١ م) تمّ إعلان ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة تحت ملكيّة السيد محمد إدريس السنوسي باسم : المملكة الليبيّة المتّحدة ، فكان ذلك تتويجاً للجهاد الدائب المشرّف الذي خاضته ليبيا على الإستعمار الإيطالي والبريطاني والفرنسي .

عاشراً : أصبحت ليبيا عضواً في هيئة الأمم المتحدة وفي الجامعة العربية ، وتخلّصت بالتدريج من القواعد الإستعمارية في بلادها ، وقد كانت تعاني في أول استقلالها ضائقة اقتصادية خانقة لضعف مواردها ، ولكنّ تفجر البترول فيها جعلها من الدول الغنية نسبياً .

وحين كنت في زيارة ليبيا عام (١٩٥٤ م) ، كان كل مظهر فيها سواء كان شعبياً أم حكومياً يدلّ على الفقر الشديد ، ولكن حين زرتها عام (١٩٦٥ م) كانت علامات الرفاه بادية عليها في الصعيدين الشعبي والحكومي ، ووجدت الحكومة تعمّر البلاد وتبني المدن الكبيرة بسرعة مذهلة [١] وتشق الطرق وتنشيء المستشفيات وتقيم المؤسسات الصناعية والزراعية والإجتماعية ، وتنشيء الجامعات [٢] . . . الخ حسب خطة مرسومة تنفّذ بحرص ودقة .

لقد حدثت معجزتان في ليبيا : الأولى خروج الإيطاليين فيها ، وكانوا يريدون أن يبقوا فيها الى الأبد ، والثانية تفجر النفط فيها مما بدّل حالتها الاقتصادية من حال الى حال .

---

(١) كما حدث في تعمير مدينة البيضاء التي فيها ضريح سيدي رويفع بن ثابت الأنصاري .

(٢) كالجامعة الإسلامية – جامعة السنوسي – في البيضاء على غرار الأزهر الشريف ، وكالجامعة الليبية في بنغازي .

وقبل ان نختم حديثنا عن ليبيا ، لا بدّ لنا أن نثمّن ثورة ليبيا ، فإن هذه الثورة لم تعط حقّها حتى اليوم .

فقد استمرّت هذه الثورة عشرين عاماً (١٩١١ م – ١٩٣١ م) ، فقدت ليبيا نصف سكّانها شهداء ومهاجرين ، فإذا تذكّرنا جسامة الضحايا بالأموال والأرواح ، وتذكّرنا شراسة الإستعمار الإيطالي الذي فعل الأفاعيل في أبناء ليبيا فبزّ بذلك حتى الإستعمار الفرنسي والإستعمار البريطاني ، وإذا تذكّرنا أن تلك الفترة التي ثار فيها الليبيون كانت من فترات قوّة الإستعمار وسطوته وجبروته ، لأن الأفكار التحرريّة لم تكن شائعة بين الأمم ، كما لم تكن هناك دول تتبنّى إسناد الشعوب التي تطالب بالحريّة والإستقلال ، بل كانت المنافع والإستغلال والمساومات هي السائدة بالدرجة الأولى بين الدول الكبرى ؛ وإذا تذكّرنا أنّ الشعب الليبي كان وحده في الميدان ، لأن الدول العربية الشقيقة كانت هي الأخرى مُسْتَعْبَدَةً أو ضعيفة لا قيمة لها في المجال الدولي ، لذلك فقد دعمت هذه الدول والدول الإسلامية ثورة ليبيا معنوياً بالعواطف الكريمة على الأكثر لا بالمال والرجال وفي أروقة الهيئات الدولية كما فعلت في ثورة الجزائر مثلاً ، إذا تذكّرنا كلّ ذلك استطعنا أن نقدّر ثورة الشعب اللّيبي حقّ قدرها .

هذه الثورة صمدت وحدها في الميدان عشرين سنة ، في وقت كان الإستعمار في أوج جبروته ، تجاه مستعمر شرس ظالم ، بدون مساعدة خارجية ذات شأن ؛ وكلُّ ذلك يجعل لها قيمة خاصّة في تاريخ الثورات التحرريّة ، عند مقارنتها بالثورات التحرريّة التي شبّت بعد الحرب العالمية الثانية ، بعد رسوخ الأفكار والمبادىء التحرريّة ، وتبنّي دول قويّة لها ، ووجود هيئة الأمم المتخدة ومجلس الأمن ، وانتشار وسائل الإعلام في العالم بحيث

يعرف العالم كلّه ما يجري في أي جزء من أجزائه فوراً ، ثم وجود الجامعة العربية ودول عربية وإسلامية مستقلة تدعم كل بلد عربي وإسلامي مادياً ومعنوياً ، كما فعلت في دعم ثورة الجزائر .

إنّ ثورة ليبيا تستحق الإعجاب والتقدير [٢] .

دروس من التاريخ لحاضر المغرب العربي ومستقبله

- ٩ -

١ - الأعداء

أ . حرب صليبيّة :

إذا كانت الحرب الصليبيّة تعني من إحدى زواياها الحروب التي شنّها الغرب الأوربي على المسلمين في القرون الوسطى بدافع التعصّب الديني ، وانتقاماً لما حلّ بالمسيحيّة وكنيستها من انكماش في النفوذ والسلطان نتيجة لانتصار الإسلام ، فإن معنى ذلك أن تلك الحركة لم تكن محدودة بميدان معيّن ، وإنما كان من الممكن أن تشتعل نيرانها في كلّ بلد يعثر فيه الصليبيون الغربيّون على مسلمين . وهكذا صارت إسبانيا وآسيا الصغرى وشمال إفريقية ميادين للمعركة الصليبية ، وذلك بالإضافة الى الميادين المعروفة في الشام وشبه الجزيرة العربية والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود . ولو كانت الحروب الصليبية مجرد حرب لاسترداد

(١) أعتب على مثقفي ليبيا كل العتب على إهمالهم إبراز ثورة بلادهم وشعبهم في مؤلفات ذات قيمة ، فمن المؤسف أن تموت بطولات فذة نادرة مع أصحابها فلا يعرف عنها الناس شيئاً بعد حين ، وآمل ان يعكف المثقفون على هذه الناحية الحيوية من تاريخ بلادهم قبل أن يموت من بقي من المجاهدين .

الأرضي المقدّسة من المسلمين وحماية حجّاج الغرب القاصدين الى تلك الأراضي ، لاقتصر ميدانها على بلاد الشّام [1] ، ولكنّ الحركة الصليبيّة كانت أوسع من ذلك بكثير ، فقد كانت المتنفّس الذي عبّر به الغرب الأوربي في العصور الوسطى عن حماسه الديني من ناحية وعن نقمته على الإسلام والمسلمين من ناحية أخرى ، وعن رغبته في التوسع والإستعمار من جهة ثالثة ، وأخيراً عن ثورته على الأوضاع الفكرية والإجتماعية والإقتصادية التي سادت الغرب الأوربي في العصور الوسطى .

ولا أدلّ على ذلك من اتجاه حملة لويس التاسع سنة (١٢٧٠ م) – وهي الحملة الصليبيّة الثامنة – نحو تونس دون مبرّر ولا داع . فاذا لم يكن من أهداف الحروب الصليبية ضرب المسلمين أينما وُجدوا ، فبماذا نعلل إصرار لويس على الإتجاه بحملته على تونس بالذات ، في الوقت الذي كان أميرها أبو عبد الله محمد الحفصي تربطه علاقة وديّة بالحكّام المسيحيين في أوربا ، حتى لقد اتهمه المقريزي بميوله للفرنج واستخدامهم ، ووصفه بأنه : « لا يصلح أن يلي أمور المسلمين » [2] . ثم ألم تكن بلاد الشّام أولى عندئذٍ بجهود لويس التاسع بعد أن سقطت انطاكية في يد السلطان بيبرس سنة (١٢٦٨ م) وأخذت بقيّة المعاقل الصليبيّة تنتظر دورها على يد المماليك ؟ إن لويس وهو الذي عرف بتقواه وحماسه لحرب المسلمين ، حاول أن ينشر المسيحية في شمال إفريقية .

وانتهت حملة لويس الى الفشل الذريع لتفشي الأمراض في الصليبيين ، حتى مات لويس نفسه في تونس (١٢٧٠ م) ، ولكن ليس معنى ذلك أنّ شمال إفريقيّة قد غاب عن فكر الصليبيين . ولعلّ خير ما يشهد على أهميّة شمال إفريقيّة للصليبيين ، أنّ رومان لول [3] أوصى مجمع فينّا

(١) الشام : سورية والأردن وفلسطين ولبنان .
(٢) السلوك (٦٠١/١) .
(٣) Roman Lull .

(١٣١١ م – ١٣١٢ م) بالقيام بحملة صليبية تتخذ طريق إسبانيا فشمال إفريقية للوصول الى مصر والشّام ، بل أن رومان لول الذي تعلّم اللغة العربية وأجاد التفاهم بها ، أراد أن يستغلّ هذا السِّلاح في التبشير بالمسيحيّة بين المسلمين في شمال إفريقيّة ، فقام بمهمته التبشيرية الأولى سنة (١٢٩٢ م) عندما أبحر من (جنوى) إلى تونس ، فاتُّهم بالشرك والحض على الكفر وحكم عليه بالإعدام ثم خفّضت هذه العقوبة الى النفي ، ومن ثم استطاع النجاة بنفسه في صعوبة . على أنه لم يلبث أن عاد إلى شمال إفريقيّة سنة (١٣٠٧ م) لمعاودة الكرّة ومحاولة نشر المسيحيّة بين المسلمين وبخاصة البربر ، فنزل في (بجاية) ، ولكنّ الرأي العام الإسلامي هناك ثار به فألقي به في السجن وظلّ في السجن ستة أشهر حتى طرد من البلاد . وعاد لول سنة (١٣١٥ م) ، غير أنه بعد أن أقام مدّة في تونس انتقل الى (بجاية) حيث أُعدم رجماً بالحجارة في أوائل عام (١٣١٦ م) .

وقد ظلّ شمال إفريقية يحتل مكانه في تفكير دعاة الحروب الصليبيّة ، فعانى المغرب العربي من غزوات الصليبيين كثيراً . وفي سنة (١٣٩٠ م) أبحرت قوّة صليبية صوب (المهديّة) بقيادة لويس الثاني البوربوني . وحاصر الصليبيون (المهديّة) تسعة أسابيع ، ثم تفاوض الطرفان للصلح فتوصلا إلى اتفاق على شروط الصلح ، أهمها عقد هدنة لمدة عشر سنوات ، تعهّد صاحب تونس بألاّ يتعرّض طوالها للمسيحيين في بلاده بأذنى ... الخ

على أنّ المغرب العربي لم يَسْلم بعد ذلك من هجمات الأوربيين ، حتى قرّر بعض المؤرخين ، أنّ الحروب الصليبية نقلت ميدانها من المشرق الى المغرب في القرن الخامس عشر بالذات ، وقد تزعّم حركة الهجوم على المغرب الإسبان والبرتغاليون ، فنجح الإسبان في احتلال أجزاء من ساحل الجزائر حصّنوها وأقاموا فيها قلاعاً لهم ، في حين احتلّ البرتغاليون أجزاء من الساحل الغربي لإفريقية . وإزاء الهجمات الأوربيّة على بلاد

المغرب لم يسع المغاربة سوى أن يسلّحوا السفن لقطع الطرق على السفن الأوربية والقيام بدورهم بهجمات مقابلة [1] على شاطىء البلدان الأوربيّة. وقد وصفت بعض المراجع تلك الأعمال البحرية التي قام بها المغاربة بأنها ضرب من ضروب القرصنة ، ولكنّها في حقيقة أمرها لم تكن إلا لوناً من الحرب الدينية من جهة ودفاعاً عن الوطن من جهة اخرى [2] .

وما فعله الصليبيون في شمال إفريقية بالمسلمين من قتل وهتك للأعراض معروف جداً تشمئز الإنسانية منه : « إن المسيحي الذي يبيد أعداء دينه لا يكون بذلك قد خرج عن حدود القداسة والطهارة ، بل إنه بعمله هذا إنما ينحر القرابين دليلاً لتقواه ، وأنّ المسلمين كانوا ويجب أن يظلّوا في نظر رعاياهم من المسيحيين ومن الغرب مغتصبين ؛ وعلى المسيحي شرعاً وقانوناً أن يسلبهم ما يمتلكونه من سلطان وأموال ، لأن ما وصل إلى أيديهم من ذلك كلّه جاء بطريق الإغتصاب غير المشروع ، وعلى الغرب أن ينتزع هذا بالحرب ، يعاونه في ذلك المسيحي الشرقي بالثورة الداخلية على الحكّام المسلمين » ... تلك هي النظرية الصليبية وسياسة الغرب طبقاً لما يقوله المؤرخ (جيبون) نقلاً عن المؤرخ (فلوري) في خطابه السادس عن تاريخ الكنيسة[3].

ولم يكن الإستعمار الغربي للمغرب العربي الذي ابتدأ في أواخر القرن التاسع عشر إلاّ امتداداً للحروب الصليبية ، ويقول المؤرخ دريو : « ... فإن فرنسا برغم تأييدها الظاهر « لمحمد علي »[4] لم تنس أنها كانت مهد الحملات الصليبية ضدّ الإسلام ، وأنه كان لزاماً عليها أن تستمر في أداء هذه الرسالة ،

---

(١) الهجوم المقابل: هو الإصطلاح العسكري الذي يستعمل في الجيش العراقي ، وتستعمل بعض الجيوش العربية مصطلح : الهجوم المضاد لإعطاء هذا المعنى بالضبط .

(٢) انظر التفاصيل في : الحركة الصليبية (٢/١٢٣٧ - ١٢٤٦) .

(٣) انظر الشرق والغرب (١/٧٨ - ٧٩) ، وبالطبع هذه المبادىء تعارض ما جاء به المسيح عليه السلام .

(٤) خديوي مصر وأبو العائلة المالكة التي انتهت بخلع الملك فاروق سنة ١٩٥٢ م .

فتقوم برفع الصليب الأول فوق أراضي إفريقية الإسلامية ، ولم يكن غزو فرنسا للجزائر إلاّ مقدمة لحركة واسعة كانت ترمي إلى تطويق الإسلام الإفريقي من الشمال ومن الجنوب وحبسه بين فكي كمّاشة رهيبة . هذا الإسلام الذي غزا إفريقية من البحر الأبيض المتوسط إلى الكونغو والزمبيز ، والذي انتشر على سطح القارة الإفريقية على وجه التقريب ... » ، ثم يقول : « لقد كان لزاماً على الغرب أن يحاصر الإسلام من كل جانب ، وأن يقضي على الجهود التي كان يبذلها الإسلام لإقامة العقبات أمام غزو أوربا المسيحيّة لإفريقية » . ويقول مؤرخو الغرب : « إنه كان من حق أوربا أن تستولي على الأراضي الإفريقية التي سيطر عليها الإسلام بقوّة السِّلاح ، دون أن تلقي أوربا بالاً لرغبات شعوبها ، وإن هذا العمل وإن كان يعتبر خرقاً لأحكام القانون الدولي بما للشعوب من حق في الحرية ، إلاّ أنّ هذه الإعتبارات جميعاً لا يُعْتَدّ بها إلاّ بين الدول المسيحيّة ؛ أما في إفريقية الإسلامية فإنّ هذا العمل عمل مشروع وعادل وعمل إنساني في تطبيقه ، لأن الغرب بهذا يكفل لهذه الشعوب الخلاص من استبداد (الإسلام) الذي سيطر عليها لأكثر من ألف سنة ، واسترداد تلك البلاد تحت حكم الغرب الذي ورث روما وإعادة شعوب إفريقية إلى أحضان المسيحية » .

إن الإستعمار الغربي للمغرب العربي هو تجديد للحملات الصليبية ، فالصراع على هذه المناطق كان صراعاً بين الجنسين العربي[1] الذي سيطر عليها بالمبادىء الإسلاميّة وبين الجنس الأوربي الذي يريد أن يستخلصها ؛ وقد أعلن ساسة الغرب ضرورة تضافر جهود الشعوب الأوربيّة وتركيز أنظارها لا على الأراضي المقدّسة فحسب كما حدث في الحملات الصليبيّة الأولى ، بل على إفريقية للقضاء على الوجود الإسلامي فيها ، كما يحول

(٣) لعل من المفيد أن نذكر هنا ، بأن تعبير العرب في المغرب العربي معناه الاسلام ، وأن الإسلام هناك معناه العرب ، ولا فرق بين هذين التعبيرين في المغرب العربي كما هو الحال في المشرق العربي .

دون الخطر الكامن في الأمة العربية وهو خطر دائم يمكن أن يتبلور ويتحقّق في كل لحظة متى تم تحقيق الوحدة العربية والتجمع الإسلامي في آسيا وإفريقية. فلا عجب أن يسرع فلاسفة أوربا في مناداتهم : « بأنّ على الغرب أن يخضع إفريقية العربية الإسلامية إلى سلطانه ، إلى قوانينه ، إلى مبادئه ، إلى لغته » .

كما راح رجال الدين في أوربا يناشدون أبناءها التطوّع في حملة صليبيّة سلميّة للإستيطان في سائر أنحاء إفريقية ، حتى يكونوا جنود الطليعة للزحف الغربي المسيحي .

كما أخذ البابا (ليون الثالث عشر) يعيد الدور الذي قام به البابا (أوريان الثاني) الذي دعا للحملة الصليبية الأولى والذي طالب في رسالة منه الحكومات الفرنسيّة والإيطالية بتوجيه حملة صليبية جديدة على الإسلام في إفريقية ، كما طالب المسيحيين بأن يكون من بينهم من ينهض بالدور الذي قام به بطرس الناسك وأمثاله لتزعّم حركة التسلّل الديني داخل إفريقية ...

ناشد البابا الدول الغربيّة بأن تضع حداً للمنافسة القائمة فيما بينها حول السيطرة على إفريقيّة ، وأن تواجه البلاد الإسلامية بسياسة وأسلوب موحّدَيْن حتى تعجل أوربا بالسيطرة العربيّة الإسلاميّة[1] .

وحين احتلّ البريطانيون القدسَ في ٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة (١٩١٨ م) قال اللواء (اللنبي) قائد جيش الإحتلال البريطاني : « الآن انتهت الحرب الصليبية » .

وحين احتل اللواء (غورو) سوريّة في ٢٤ تموز (يوليو) سنة (١٩٢٠ م) وقف شامخاً بخِسّة أمام قبر البطل صلاح الدين الأيوبي سالاً سيفه مظهراً بطولته أمام القبر الطاهر ، قارعاً أحجار القبر بسيفه الملطّخ بالعار ، قائلاً :

---

(١) انظر التفاصيل في : الشرق والغرب (١/ ٣٩ – ٤٣) .

« لقد عدنا يا صلاح الدين ، فأين أنت ؟ »[1] !!

تلك هي لمحات عن الحرب الصليبية في المغرب العربي ، يشهد على أهدافها قادة الفكر الغربي ومؤرخوه وفلاسفته ورجال دينه من أعلى المستويات ورجاله العسكريون .

نسيطر عليهم فنعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه » ، وكان فيما تكلّم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته : « أُوصي الخليفة من بعدي ، بذمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم »[2] ، وقال علي بن أبي طالب : « إنما قبلوا عقد الذمة ، لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا »[3] ، وكان التطبيق العملي لذلك أنهم عاشوا بين أظهرنا قروناً طويلة مكرّمين معزّزين ...

ويسيطروا علينا ، فيمارسون حربَ إبادةٍ لا هوادة فيها ، يستحِلّون المحرّمات ، ويدوسون المقدّسات .

ويهاجمون بلادنا فيسمُّون ذلك تحريراً ، وندافع عن أنفسنا فيسمُّون ذلك قرصنة وتعصّباً .

ولست ألومهم فيما يقولون ، ولكنني أرثي لأبنائنا حين يردِّدون كالببغاء ما يزعمون !!!

ب . التبشير :

الباعث الأول في رأي القائمين على التبشير إنما هو : « القضاء على

---

(١) ولو كان في سورية يومئذ مثل صلاح الدين لما وقف غورو في الشام ، بل لما غادر مأمنه في باريس خوفاً ورهبة وإشفاقاً .

(٢) انظر الخراج لأبي يوسف (١٢٥) .

(٣) احكام الذميين والمستأمنين (٧٠) والكاساني (٧/١١١) وسنن الدارقطني (٢/٣٥٠) : « من كانت له ذمّتنا فدمه كدمنا » وانظر أحكام أهل الذمة (١/٣٤) .

الأديان غير النصرانية »[١] توصلاً إلى استعمار أتباعها. إن المعركة بين المبشّرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة (دين)، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسيّة والإقتصادية.

والإستعمار يخشى قوّة الإسلام، لأنّ الإسلام القويّ خطر يهدّد الإستعمار. قال الكاردينال لافيجيري الفرنسي: «وبينما كان الإسلام على وشك أن ينهار في أوربا مع عرش السلاطين (من آل عثمان)، كان لا يزال ناشطاً في تقدمه وفتوحه على أبواب مملكتنا الإفريقية».

ويبدو بوضوح أنّ أشدّ الأديان مراساً في إباء الإستعمار إنما هو الإسلام، لذلك يتمنّى المبشرون أن ينصّروا المسلمين كلهم[٢]، ومع أنّ التبشير يتناول البوذيين والبرهميين أيضاً، فإن المقصود الأول بالمجهود التبشيري هم المسلمون[٣].

والمبشرون مجمعون على أنّ جميع الوسائل، مهما كانت يجب أن تُستَغَل في سبيل التبشير[٤]، حتى أعمال البر يجب أن تستغل استغلالاً بحتاً، من ذلك قولهم: «كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير، ويجب أن يبقيا كذلك. أما أعمال الإحسان فيجب أن تستعمل بحكمة كيلا تذهب في غير سبيلها»[٥].

فماذا عن التبشير في المغرب العربي؟

الفرنسيون يسمون المغرب العربي: شمال إفريقيّة، ويجعلون سكّانه قسمين: مسلمين وأوربيين، أما المسلمون فهم العرب والبربر والسكّان

---

(١) Missionay Gutlook 35. B.

(٢) Christian Workers CF. 17

(٣) Christian Workers 7 F., CF Jung 67

(٤) C F. Jussup 26, 37; Bliss (B) 313

(٥) انظر التفاصيل في: التبشير والاستعمار في البلاد العربية (٣٤ – ٥٧).

الذين هم من أصل تركي أو زنجي ممن يدين بالإسلام ، وأما الأوربيون فهم الفرنسيون والإنكليز والأمريكان وسائر الذين هم من أصل أوربي أو أمريكي ومن أهل المشرق الذين يدينون بالنصرانية أو باليهوديّة .

لقد كان للأوروبيين في المغرب العربي في أيام الإستعمار الفرنسي والإيطالي والإسباني مركز ممتاز في السياسة والإدارة والمجتمع ، وأما المسلمون فكانوا يعاملون معاملة المستعبدين في كل شيء [1] .

والواقع أن فرنسا ترى ـ كسائر الدول المستعمِرَة ـ أنّ الوعي الإسلامي خطر على النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية .

في عام ١٩٥٧ م ، صدر في باريس كتاب أسمه : « الملفُّ السري لشمال إفريقيّة » ، ألّفه بيار فونتين وملأه بالحقد والمغالطات ، ولكنّه كشف عن عقدة الخوف من العروبة والإسلام ، فكان ممّا قاله : « إنّ قضية السيطرة الإسلامية قضيّة رئيسية بالنسبة الى شمال إفريقيّة ، وستكون غداً قضية أكثر ثقلاً فيما يتعلّق بالمسلمين في القارة السوداء ، أولئك المسلمين الذين يقومون بعبادات محبّبة جداً الى أصحاب عدد من المذاهب الفطرية والوثنية ... الخ » .

هؤلاء المبشرون يرون القوة الكامنة في الإسلام هي التهديد القوي للإستعمار [2] .

ورحل الإستعمار عن المغرب العربي الى غير رجعة ، ورحل معه أذنابه من المبشرين ، ولكنّ آثارهم لا تزال باقية فيما غرسوه في العقول والقلوب معاً من استعمار فكري بغيض ، قال المستر (نبروز) رئيس الجامعة الامريكية في بيروت : « إنّ المبشِّرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر ، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات ،

---

(١) وثبة المغرب ص (٨٣ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠١ – ١٠٢ ، ١٠٧ – ١٠٨ ، ١١٣ – ١١٤ .

(١) انظر التفاصيل في : التبشير والاستعمار في البلاد العربية (٢٣٣ – ٢٤٦) .

إلاّ أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة . لقد برهن التعليم عن أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان » ، وقال اللواء الفرنسي جورج كـاترو : « إن المدارس الفرنسية إنما هي الاساس العريق القدم لسيطرتنا على المشرق »[1] وما يقال عن سوريا ولبنان يقال عن المغرب العربي .

لقد قنع المبشرون أن يكون عملهم (الإنساني) قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل[2] وذلك بمناهجهم التعليمية المريبة ، وقـد نجحوا في ذلك أعظم النجاح في المغرب العربي وفي البلاد العربية الأخرى وفي دار الإسلام .

رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربيّة الإسلامية ، وأنها مصدر عزّة للشرق[3] للعرب والمسلمين . ثم إنهم أيقنوا أنّ أمة لهـا هذه الثقافة لا يمكن أن تخنع أو تذلّ أو تبيد . وهكذا انصرفت أذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين الى تشويه وجه هذه الثقافة والى الحطّ من شأنها في نفوسَ أصحابها . وكان العمل عليهم سهلاً ، أو هكذا ظنوّه ، فقسّموا ذلك العمل قسمين : قسماً يتناول حقيقة الرسالة التي أدّيناهـا نحن الشرقيين العرب المسلمين ، وما فيها من أوجه العظمة ، والحقائق التي كانت أساس الرقي الإنساني أو ما فيها من الآراء الصحيحة الخالدة على الدهر . ثم قسماً من الحقائق الحديثة التي لم تعرف قبل العصر الحاضر .

أما القسم الأوّل فساروا فيه ينحلون حقائقه الصحيحة وآراءه الصائبة غير العرب وغير المسلمين ، يجمع هذا كلّه قول أرنست رينان الفرنسي :

---

(١) هكذا ضاعت وهكذا تعود (١٥٨) .

(٢) Islam and Missions 277.

(٤) زار كاتب صيني شهير المجمع العلمي العراقي يوم ١٩٦٦/٦/١٣ ، فرأى خريطة العالم للادريسي ، فأبدى إعجابه بها وقال : « إنها ليست مفخرة للعرب وللمسلمين وحدهم ، بل هي مفخرة للشرقيين كلهم » .

« الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية » ؛ فكلّ مظهر عزيز في الفلسفة الإسلامية عند رينان وأتباع رينان إنما هو للفرس أو لليونان أو للنساطرة واليعاقبة ، وأنه مشكوك فيه ، وكتب المبشرين والمستعمرين مملوءة بمثل هذا التجني على العبقرية العربيّة الإسلاميّة .

ونحن لا ننكر أن يكون العرب قد بنوا فلسفتهم على أساس ما قدّمه اليونان للعالم ، ولكن من غير الإنصاف أن نقول : إنّ العرب لم يكونوا سوى نَقَلَة ، سوى حمالين ، حملوا الفلسفة كما هي من اليونان الى العالم. إنّ العرب قد زادوا في الفلسفة ونـاقشوا ونقّحوا وصحّحوا وشرحوا وأدّوا رسالة قلّ أن أدتّ مثلها أمةٌ في التاريخ [١] .

ولكنّ الإستعمار يريد أن يسدل دائماً دون وجود الإسلام ستـاراً كثيفاً ، ونحن لا نستغرب أن يحاول الإستعمار تحطيم رعاياه من الأمم المغلوبة على أمرها ، ولكن ما عذر الدول العربّية بعـد استقلالها في الإستمرار على سياسة المستعمر والإصرار في تنفيذها في الناحية الثقافية ؟؟!!

وإذا كان للعرب حق واضح في أن يسيروا على رأس الموكب الفلسفي، فإن حقّهم في « أدبهم العربي » أوضح . إنّ العرب مشهورون بالأدب ، ويكفيهم فخراً أن الأدب العربي أقدم الآداب الحيّة الى اليوم ؛ فـلا الأدب الهندي ، ولا الأدب اليوناني واللاّتيني قد عاش بعد أن طلع العرب بأدبهم على العالم ، وحسبنا أن نعلم أنّ اكثر الأدب الأوربي الحديث قد قام على أسس معروفة في الأدب العربي نفسهَ .

إنّ المبشرين والإستعمار يحاربون العرب والمسلمين ، ولكنّ أشد ما يلقاه العرب والمسلمين هو أن هؤلاء يستخدمون في هذا السبيل أفراداً من العرب والمسلمين أحياناً ، أفراداً لا يتورّعون أحياناً عن أن يُسخّروا

---

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة – عمر فروخ – الطبعة الثانية وانظر تاريخ الفكر العربي (٢٨٨ – ٣١٥) .

العلم والضمير ويقلبوا الحقائق والأرقام رأساً على عقب حباً بالزُلْفى أو الإتّجار[1] !!

ومن وسائل المبشرين والمستعمرين للتشويش على الثقافة العربية الإسلامية الدعوة المريبة الى العاميّة ، فهم يرون أنّ تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتمّ ما دام هناك « لغة واحدة » يتكلّم بها العرب ويعبّر بها العرب والمسلمين عن آرائهم ، وما دام هناك « حرف عربي » يربط حاضر المسلمين إلى تراثهم الماضي ، فإذا حمل المبشرون والمستعمرون العرب ، على الكتابة باللغة العامية ، أصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به أو لغات متعددة ، ثم إذا هم استطاعوا أن يحملوا المسلمين على التخلّي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاّتيني مكانه ، انقطعت صلة العرب تماماً بأدبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية .

وكان زعيم الحركة الرامية الى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون ، فقد حاول أن يثبت دعوته في المغرب العربي وفي مصر وفي سورية ولبنان خاصة ، وكذلك سعى لهذه الغاية مبشرون واستعماريون من أمم أخرى[2] !!

وهكذا نجد بوضوح أنّ الحملة على العربية الفصحى إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين وحملة على العروبة والاسلام وأُمنية في أن يصبح القرآن كتاب دين لا صلة له بالحياة . غير أنّ الله الذي جعل القرآن من عناصر الخلود ما حفظه الى اليوم بينما جعل اللغات

---

(٢) انظر التفاصيل في التبشير والاستعمار (٢١٧ – ٢٢٣) .

(٣) انظر التفاصيل في التبشير والاستعمار (٢٢٤ – ٢٣١) وانظر أباطيل وأسرار (١٤١ – ٣٠٦) . وتحية للشاعر الكبير عزيز أباظة الذي قال في خطابه معلقاً على الدعوة الى العامية في احتفالات الجوائز التقديرية لسنة ١٩٦٥ أمام الرئيس جمال عبد الناصر : « إنهم يا سيادة الرئيس قليلو العدد ، ولكنهم كثيرو المدد » .

التي كانت في عصره أو بعد عصره أيضاً قد بادت وانقرض المتكلّمون فيهـا ، سيجعله خالداً أبداً : « إنا نحن نزّلنـا الذكر وإنا له لحافظون [١] » .

كما أنّ الدعوة الى الشعر الحر دعوة مريبة أيضاً ، هدفها تحطيم الشعر العربي بقوافيه وأوزانه ، ليكون هذراً لا شعراً ، وليمسخ هذا الشعر وهو عمود من أعمدة الأدب العربي المجيد .

ولكن إذا كانت الدعوة الى العامية ، والى هجر الحرف العربي ، والى الشعر الحر دعوة أساسها مستورد من منابع استعمارية وتبشيرية ، فما عُذر بعض أبنائنا في تبنّي تلك الدعوات المشبوهة المريبة ؟؟

ج . الصهيونية وإسرائيل :

واستغلّ المبشّرون الصهيونيّة لأنهم كانوا يتّفقون معها في عدائهم للعرب والمسلمين ، ولم يصرّ المبشرون على إنشاء الوطن القومي اليهودي إلاّ لأن إنشاءه يضعف العرب ، وإلاّ لأن فلسطين إحدى نقاط الهجوم على العالم العربي الإسلامي .

والقوة اليهودية قوّة هدّامة ، لها تاريخ أسود في الفتن والدسائس وفي إثارة الحروب والمجازر ، وفي خلق المآسي والأحزان للبشرية [٢] .

وما أصدق قول الكاتب الانكليزي (شسترتون A'K Chesterton) : « أعرف كثيراً من اليهود الذين يعملون على تحطيم يقين الأمم بالديانة المسيحية [٣] » ، وهم يعملون على تحطيم يقين المسلمين بدينهم ومثلهم العليا .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجر (١٥ : ٩) .

(٢) انظر : تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم، والصهيونية وربيبتها إسرائيل ، وإسرائيل قاعدة عدوانية ، وانظر التبشير والاستعمار (١٧٩ – ١٩٠) .

(٣) الخطر اليهودي (١٥) .

واليهودي يهودي قبل كلّ شيء ، مهما تكن جنسيّته ومهما يعتنق من عقائد ومبادىء في الظاهر ليخدم باعتناقها نفسه وأمّته ، فهو يتجنّس بالجنسيّة الإنكليزية أو الأمريكية أو الفرنسية ، ويؤيد جنسيّته طالما كان ذلك من مصلحة اليهودية ، فاذا تعارضت المصلحتان لم يكن إلاّ يهودياً ، فعضد يهوديته وضحى بجنسيّته الأخرى [1] .

وعداء اليهودية للأديان واضح ، فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر من بروتوكولات حكماء صهيون : « حينما نمكّن لأنفسنا فنكون سادة الأرض ، لن نبيح قيام أيّ دين غير ديننا . ولهذا السبب يجب علينا أن نحطّم كلّ عقائد الإيمان ، وإذ تكون النتيجة الموقتة لهذا هي إثمار ملحدين ، فلن يدخل هذا في موضوعنا ، ولكنّه سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التي ستصغي الى تعاليمنا على دين موسى الذي وكّل الينا — بعقيدته الصارمة — واجب إخضاع كلّ الأمم تحت أقدامنا » . ومن الواضح أنّ علماء اليهود يَجِدُّون بكلّ ما وسعهم لهدم الأديان عن طريق المذاهب الإجتماعية والسياسيّة والفكريّة ، وأنهم القائمون على دراسة علم الأديان المقارن متوسلين به الى نشر الإلحاد ونسف الإيمان من النفوس ، وأن تلاميذهم من المسلمين والمسيحيين في كلّ الأقطار يروّجون لآرائهم الهدّامة بين الناس جهلاً وكبراً . ولو استقلّ هؤلاء التلاميذ في تفكيرهم لكشفوا ما في آراء أساتذتهم اليهود من زيف ، وما وراء نظرياتهم من سوء النية [2] .

ولم تكن نظرة زعماء الصهيونية وتطلّعهم الى قارتي آسيا وإفريقيّة وليدة اليوم ، أو حديثة العهد ، بل اتجه تفكيرهم الى هاتين القارتين الكبيرتين منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ففي عام (١٨٩٧ م) انعقد

---

(١) الخطر اليهودي (٧٤ — ٧٥) .
(٢) انظر : الخطر اليهودي (١٦٩) .

مؤتمر صهيوني في (بازل) بسويسرا ضمّ قادة الصهيونية بزعامة (تيودور هرتزل) لإنشاء وطن قومي يجمع شتات اليهود في جميع العالم .

وقد فكّر زعماء الصهيونية في مشاريع كثيرة لتحقيق هذا الحلم ... إذ فكروا في استعمار أوغندة ، وقبرص ، والأرجنتين ، وبيرو ، وأكوادور ، وأستراليا وغيرها .

وحينما انعقد المؤتمر الصهيوني الرابع عام (١٩٠٣ م) في لندن بزعامة تيودور هرتزل ، تقدم جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني في هذا المؤتمر بمشروع تهويد أوغندة وقبرص ، كما تقدّم اللورد لانزاو وزير الخارجية البريطانية في ذلك بمشروع آخر لتهويد منطقة العريش في مصر .

ولم يخف زعماء الصهيونية أطماعهم الإستعمارية . بل إنهم لم يرسموا خططهم لإغتصاب فلسطين فحسب عن طريق القوى الإستعمارية المتعاونة مع الصهيونية العالمية ، فقد صرّح تيودور هرتزل في المؤتمر الصهيوني الرابع في عام (١٩٠٣ م) يقول : « يجب أن تكون قاعدتنا فلسطين أو بالقرب منها ، وسنستعمر أوغندة فيما بعد » .

وكتب هرتزل الى لورد روتشيلد يقول : « يجب أن تبدأ الدولة اليهودية بإنشاء محطّات متفرِّقة . وقد تكون المحطّة الأولى لمستعمراتنا ، والتي ستكون نواة لوطننا في شرق إفريقية ، ثم تقام محطّة أخرى في الأرجنتين ، وكذلك في المغرب » .

وقد ذكر الحاخام عمانوئيل ايفانوفتش في اجتماع سِرِّي عُقد في مدينة بودابست عام (١٩٥٤ م) وضمّ جميــع حاخامات أوربا : « إنّ الصهيونية العالمية تهدف الى تحقيق إشعال نيران حرب عالمية ثالثة ، والقضاء على الأخباس غير الإسرائيليّة[١] » .

---

(١) انظر : الإستعمار الصهيوني في آسيا وإفريقيا (٣ – ٤) .

وقد كشفت إسرائيل عن نفسها بنفسها أمام الشعوب الآسيوية والإفريقية لمواقفها العدوانية ضدّ قضايا الإستقلال وتحرير شعوب هاتين القارتين دفاعاً عن المصالح الإستعمارية ، ومن تلك المواقف الخاصة بالمغرب العربي :

أولاً : صوّتت في الأمم المتحدة في عام (١٩٥٢ م) ضدّ استقلال تونس .

ثانياً : صوّتت في الأمم المتحدة في عامي (١٩٥٣ م) و (١٩٥٤ م) ضدّ استقلال المغرب .

ثالثاً : وقفت ضد استقلال الجزائر عام (١٩٥٦ م) وكذلك في عام (١٩٥٧ م) ، كما صوّتت الى جانب فرنسا ضد القرار الذي أعدّته دول إفريقية لإستقلال الجزائر عام (١٩٥٨ م) وأيّدت فرنسا ضدّ القرار الآسيوي ـ الإفريقي الذي اعترف بحق الجزائر في الإستقلال في كانون الأول (ديسمبر) سنة (١٩٥٨ م) ، كما أعلنت إسرائيل رأيها على لسان دافيد بن غوريون رئيس وزرائها لديغول رئيس جمهورية فرنسا حول وجوب تقسيم الجزائر على غرار ما حدث في فلسطين ، كما اعترضت على تكليف فرنسا بالدخول في مفاوضات لوضع الشروط اللاّزمة لتقرير المصير ، كما قدّمت مساعدتها لسوستيل وغيْره من الإستعماريين الإرهابيين من رجال منظّمة الجيش الفرنسي السريّة الإرهابية (O . A . S) ، وقد اعترفت صحيفة الفيكارو الفرنسية الصادرة في ٧ / ٢ / ١٩٦٢ م بأن إسرائيل أرسلت عدداً كبيراً من رجال المغاوير الإسرائيليين الى الجزائر لمساعدة المنظمة الإرهابية ، وهؤلاء الإرهابيون كانوا يقومون بأعمال إرهابية ضدّ العرب في الجزائر [١] .

إنّ الصهيونية وإسرائيل من أخطر أعداء المغرب العربي في حاضره

(١) انظر : الإستعمار الصهيوني في آسيا وافريقيا (٨١ – ٨٣) ، وقد وقفت إسرائيل ضد استقلال الجزائر مع الإستعمار حتى آخر لحظة .

ومستقبله ، لأن في قوته قوةً للعرب في كلِّ مكان ، وقوة العرب خطر داهم يهدِّد كيان إسرائيل ، فلا عجب بعد ذلك أن تقف الصهيونية العالمية وإسرائيل في صفٍّ أعداء المغرب العربي ، وأن تحاول سِرّاً وعلانية أن تهدمه ، ولعل جولة رئيس وزراء إسرائيل في سبعة أقطار إفريقية خلال شهر حزيران (يونية) سنة (١٩٦٦ م) دليل على محاولة إسرائيل تثبيت مركزها السياسي والإقتصادي في تلك الأقطار لتهديد مصالح المغرب العربي في إفريقية وتطويقه بالدول الموالية لإسرائيل وإضعاف تأثير المغرب العربي مادياً ومعنوياً في جزء كبير من أجزاء إفريقيّة [١] .

٢ — دروس من التاريخ للمغرب العربي وللعرب

أ — يُعاني المغرب العربي مشاكل كثيرة بعد استقلاله ، نتيجة للحروب الصليبية التي خاضها منذ القرون الوسطى ، ونتيجة للإستعمار في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ونتيجة لتربّص الصهيونية وإسرائيل به حاضراً ومستقبلاً .

فهو يعاني من مشاكل بنيانه السياسي ، ويعاني من مشكلات الإدارة لنقص الموظفين المدرّبين فيه ، ويعاني مشكلات الحياة الإقتصادية ، ويعاني مشاكل التعليم ويعاني مشاكل إجتماعيّة [٢] ، فقد تركه الإستعمار خراباً وزادته الحرب العالمية الثانية التي كان مسرحاً لها خراباً على خراب ، فلم يَحظَ بالحريّة والسيادة إلاّ بعد أن شمله التدمير الشامل مادياً ومعنوياً .

هذه المشاكل الضخمة تحتاج إلى التخطيط السليم لحلّها حلاً جذرياً وتحتاج إلى الوقت المناسب لوضع هذا التخطيط في حيِّز التنفيذ .

---

(١) أصبح لإسرائيل حتى عام (١٩٦٦ م) علاقات سياسية واقتصادية بسبع وعشرين دولة إفريقية مستقلة ، وهي تحاول مضاعفة تلك العلاقات مع دول إفريقية أخرى .

(٢) انظر : مشاكل آسيا وإفريقيا (١٥ — ١١٠) .

وليس من شأني أن أدخل في تفاصيل التخطيط السليم لحلّ مشاكل المغرب العربي، لأنّ هذا الكتاب ليس المجال المناسب لمثل هذه التفاصيل.

ولكنّني أحبُّ أن أنوِّه بالأساس السليم لمثل هذا التخطيط السليم إستناداً إلى عبرة التاريخ، وهذا الأساس بكلمة واحدة هو: الأخلاق.

والأخلاق في جوهرها الصافي ومُثُلها العليا، هي الإسلام في جوهره الصافي وفي مُثُله العلْيا، قال الله سبحانه وتعالى يصف نبيَّه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: «وإنك لعلى خلق عظيم»[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بُعثت لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»، وقال: «ألا أخبركم بأحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟» فسكت القوم، فأعادها مرّتين أو ثلاثاً، قال القوم: نعم يا رسول الله، قال: «أحسنكم خُلُقاً»[2].

إنّ الدين هو ما كان لله، وما كان من عند الله؛ ومفهوم الله ليس شخصاً وُجد في زمن، وتأثّر ببيئة دون أخرى، إنما مفهوم الله حقيقة أبديّة خالدة ترتفع فوق المستويات وتتجرّد عمّا للكائنات جميعها من صفات... هو الكمال المطلق في ذاته. وصفاته جلّ شأنه سبحانه وتعالى يقصر عقل الإنسان عن أن يحدِّدها على نحو ما هي عليه، وأن يصل إلى تصويرها في تعبيره وفي شرحه الى واقع أمرها.

هذه الحقيقة الأبدية الخالدة، وهذا الكمال المطلق، هو الذي نسب اليه الدين... ويوصي به إلى مَنْ اصطفاه ويكلِّفُه بتبليغه إلى النّاس. والدين بعد ذلك هو ما أُنزل من عند الله للناس جميعاً، وما طلب من الرّسول إبلاغه إليهم حتّى لا يكون على الله حجّة بعد الرسل.

---

(١) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ٤)، وانظر ما جاء في القرآن الكريم عن: علم تهذيب الأخلاق في: تفصيل آيات القرآن الكريم (٦٢٤ – ٧٠٧).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢/١٨٥)، وانظر تفاصيل ما جاء عن مكارم الأخلاق في مفتاح كنوز السنة (٢٧ – ٢٩).

وإذا كان الدين هو المنزل من عند الله الحقيقة الخالدة الكاملة كمالاً مطلقاً ، فلا يكون إلا صورة من صور هذا الكمال ، لا يشوبها نقص ، ولا يعتريها باطل ، ولا ينفذ إليها غرض يميِّز فريقاً عن فريق ، ويفصل بين جيل وجيل .

وإذا كان من مفهوم الدين أيضاً ، أنه ما يجب اتباعه بعد الإيمان به ، وتجب الطّاعة له والتمسّك به — وكان قبل ذلك صورة من كمال الله جلّ شأنه — فاتباعه والسير على هداه يحقِّق حتماً الإستقامة في سلوك الإنسان المتبع المؤمن به ، وفي تفكيره ، وفي وجدانه ، وصلاته على الآخرين معه ، لأنه يستحيل أن يؤدي الكمال إلى نقص ، كما يستحيل أن يستتبع الحق باطلاً [1] .

وتاريخ المغرب العربي يدلّ بوضوح على أن المغاربة حين كانوا مسلمين حقاً ، كانوا هم القوة الضاربة لفتح الأندلس وجنوب فرنسا [2] وجزر بحر الأبيض المتوسط وبعض مدن إيطاليا وسويسرا [3] ، وكانت للمسلمين أساطيل قويّة في الأندلس والمغرب العربي [4] ، فلما أصبحوا مسلمين جغرافيين خسروا البلاد التي فتحوها في أوربا ، ثم هاجمهم الأوربيون في عقر دارهم وأصبح عبيدهم بالأمس سادتهم اليوم ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم .

لقد وجدنا بعض ملوك الطوائف في الأندلس يُمالىء الإسبان على إخوانهم في الدِّين ، ووجدنا الأخ يقتل أخاه ، ووجدنا الإبن يخون أباه ، ووجدنا

(١) الدين والحضارة الإنسانية (٧٦) وانظر فصل : فضل الإسلام كدين في : الدين والحضارة الإنسانية (٩١ — ١١٤) .

(٢) انظر ترجمة موسى بن نصير في الجزء الأول من هذا الكتاب (٢٢٠ — ٣٠٩) .

(٣) انظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٦٠ — ١٦٢) .

(٤) انظر تاريخ غزوات العرب (١٣٩ — ١٥٩) .

متاع الدنيا يغريهم فلا يدافعون عن دار الإسلام ، ووجدناهم يشتغلون في الفتن الداخلية ويضيعون طاقاتهم سدى بينهم ، فعادت إلى المسلمين الجاهلية بأجلى مظاهرها ، وأصبحوا أمما بعد أن كانوا أمة واحدة ، وأصبحوا أعداء بعد أن كانوا إخوة كالبنيان المرصوص .

لقد كان (الإسلام) هو العامل الحاسم في انتصار ثورة المليون شهيد في الجزائر ، وهي آخر ثورات المغرب العربي من أجل الحريّة والإستقلال .

ذلك ما يؤمن به المخلصون للعرب حقاً وللمسلمين ، أما الأدعياء والعملاء والمبتلون بالإستعمار الفكري البغيض ، فلا قيمة لآرائهم لأنّ ولاءهم للإستعمار ولأعداء العرب والمسلمين ، ولأنهم يخضعون إلى جيوبهم لا إلى قلوبهم ، ولأنهم يجهلون روح الإسلام وتاريخه وحضارته ولو كانوا من حاملي أعلى الشهادات العلمية من جامعات الغرب ، فهم قد ملأوا فراغهم الفكري بادعاءات أعداء العرب والمسلمين .

يقول الوزير الجزائري عمار أوزيغان : « لا يمكن لأية حركة ثورية ، أن تأمل بالنجاح ، ما لم تغرس جذورها الثورية في الواقع التاريخي » ، ويعلّق على ذلك بقوله : « إن موقفنا إزاء الإسلام يختلف لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب ، ذلك لأن رفض الإيديولوجيا الإسلامية في بلاد مستعمرة يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تجدّد أخرق تنادي به فئة منفصلة عن الشعب ، غريبة الحياة والفكر ، إمتصّها أو شلّتها إيديولوجيا العدو المستعمر .

« ما أكثر الذين انتقدوا الإسلام دون أن يعرفوه ! إنهم يشاركون في الجهل (رينان) الذي لم يكن يرى فيه إلا مذهباً هو – على حد زعمه – أثقل السلاسل التي حملتها الإنسانية في تاريخها »[1] .

ويقول : « إنّ الوضوح السياسي ، والفعالية الثورية ، يستلزمان الإحتفاظ

---

(١) الجهاد الأفضل (٢٥٥ – ٢٥٦) .

بالقيم الروحية التي يمكن أن تغذي نهضتنا في الحياة الصناعية المتقدمة »[1].

ويستدل على أثر الإسلام في جذور الثورة الجزائرية بعد الإستعمار الفرنسي للجزائر عام (١٨٣٠ م) فيقول: « وفي مقاومة الإحتلال الفرنسي عام (١٨٣٠ م)، كان الجنود المسلمون أوّل المتطوعين الذين لبّوا نداء الأمير عبد القادر في محاولةٍ لإنقاذ الوطن والدين »[2].

ويقول عن المُدّعين بالتحرّر: « إنّ ادعاء الكفاح ضدّ الإستعمار مع تصريح المدّعي بأنه أقرب إلى فلاح ثري ملحد أوربي، منه إلى العامل الزراعي المؤمن الجزائري، يعني أنه يرسم حداً خاطئاً على الصعيد السياسي، وأنه يثير جدلاً بيزنطياً ناسياً العدوّ الرئيسي: النظام الإستعماري، مصدر الجهل والظلام.

« وتصريح هذا المدّعي بأنه مفكّر (حر)، دون أن يكافح في سبيل فصل الكنيسة عن الدولة فصلاً حقيقياً، ونسيانه حتّى مساعدة المسلمين لنيل الحريّة الدينيّة، وبشكل أخصّ وقوفه ضدّ التدخّل الفرنسي لاختيار رجال الإمامة والإفتاء الذين يعيّنهم حاكم مسيحي أو يهودي أو دون إله! هذا كلّه يعني رفض الدفاع عن أكثر الحقوق بداهة: حرية الضمير. يعني رفض الدفاع عن الديمقراطية، والإمتناع عملياً عن المساس بمؤسسات الظلم الإستعماري، والمشاركة في ترسيخ الركود الإقتصادي والإجتماعي وازدياد التخلّف العقائدي.

« وإنها لمفارقة، أن يكون الولاء للإسلام الذي اضطهده الإستعمار واستخفّ به، هو الأكثر ثورية بالفعل!!!..

« إنّ حركة (الإصلاح الديني) حركة نهضة إسلامية ذات طابع ثقافي وسياسي ... وكان منهجها يتلخّص في الصيغة الأخاذة: الإسلام ديننا

---

(١) الجهاد الأفضل (٢٦٠).

(٢) الجهاد الأفضل (١٨).

والعربيّة لغتنا ، والجزائر وطننا ...»[1]

«وكان عملها بادىء الأمر ، خصوصاً في المدن الكبرى ، عملاً أخلاقياً خالصاً ، إذ أخذت تحارب الكحول ، وخرافات الدروشة ، وتطالب بإعادة أملاك الوَقْف إلى وضعها السابق ، والتعليم باللّغة العَربيّة .

«وقد اتّهَمَت الإدارة الفرنسيّة والصحافة الموالية لها ، جمعية العلماء[2] بأنهم متعصّبون (وهّابيون) ، يعملون للوحدة العربية والجامعة العربية ... »[3]

أي إنّ الفرنسيين وأذنابهم كانوا يقولون عنهم : إنهم رجعيّون ...

ويقول عن عبد الحميد بن باديس : «كان الشيخ عبد الحميد بن باديس – أدام الله ذكره – أول رئيس لجمعية العلماء ، خطيباً ساحراً ، ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب . وكان يساند كلّ عمل مناهض للإستعمار ...

«وكان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً وحكيماً ، لا يتطلّب من كلّ مرحلة تاريخية أكثر ممّا تقدر أن تعطي . كان أب المؤتمر الإسلامي الجزائري حيث تحقّق اتحاد جميع الإتجاهات المناهضة للإستعمار ، وكان هذا المؤتمر إستنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الإتحاد والعمل دون إستثناء ودون عصبيّة »[4].

ويقول عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي : « ... أنكر الزواج المختلط قبل القضاء على الطغيان الإستعماري فقال : من يتزوج فرنسية يُدخـل

---

(١) وهذا الشعار هو الذي كتب النصر لثورة الجزائر ، وهو الذي كان سائداً في أيام القتال ، وهو الذي جعل الثوار الجزائريين يصبرون ويُصابرون ....
ولم يكن للشعارات المستوردة نصيب في أيام الخطر وأيام الدم والدموع والحديد ...
ولكنها برزت أيام الدعة والراحة ... ولا أزيد .

(٢) الإمام عبد الحميد بن باديس هو رئيس جمعية العلماء بالجزائر ، وبعد وفاته أصبح محمد البشير الإبراهيمي رئيسها .

(٣) الجهاد الأفضل (٢٢ – ٢٣) .

(٤) الجهاد الأفضل (٢٧) .

الإستعمار إلى بيته »[1] .

ويقول : « لقد كان الدين الإسلامي وثاقاً يُمتِّن اتحاد مختلف العناصر في القوة الشعبية التي تزخر بها بلادنا (الجزائر) .

« غير أن العدو الإستعماري ، كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحولها إلى ثكنات أو إصطبلات ! كانت هذه معابد تُهدم ويتمّ الخلاص منها ، إلاّ أنّ الجامع كان أيضاً الجامعة ، كما هي الزيتونة في تونس والقرويين في (فاس) وكما هو الأزهر في القاهرة ؛ فهدم جامع كان يعني هدم مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات وبيتاً للشعب وجمعية استشارة أو شورى ، ومتحفاً موسيقياً يدرَّس فيه تجويد القرآن ...

« لن نشدِّد على الروح الصليبية التي تجلّت في تحويل الجامع إلى كنيسة ، وإقامة الأنصاب التذكاريّة يعلّق عليها الصليب الحديدي فوق العبارة اللاّتينيّة التي معناها[2] : (سننتصر بهذه الإشارة !) ، ولا شعارات المدينة ، كشعار مدينة الجزائر الذي عُمِّم في العالم كلّه بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء ، منتصراً على هلال صغير منكّس فوق البحر .

« وكان العدو الإستعماري ذكياً في إختياره موظفي الجوامع من بين العسكريين المتقاعدين ، وسوّاس الخيل ، وعمّال البلدية ، وعمّال الكهرباء ... وإذا برهن طالب الوظيفة على إخلاصه للنظام الإستعماري ، وحفظه عن ظهر قلب « الـ ٦٠ فصلاً » اعتبر مستوفياً للشروط المطلوبة ليمنح إجازة (كشيخ للإسلام) موقّعة بإمضاء الحاكم العام ! ولم يكن على المفتي الأكبر أكثر من أن يختار من المحفوظات النصّ الصالح ليكون خطبة الجمعة ، مع حرصه أن يخضع (كلمات الله) إلى الرقابة المهينة المحدقة عليه ، التي يمارسها (الإله الآخر) ــ المفوّض السامي . وإذ يصغي إلى المذياع وهو ينقل الصدى

---

(١) الجهاز الأفضل (٢٦) .

(٢) العبارة هي : « In Hoc Signo Vinces » .

المحرك الآتي من عبارات (الله أكبر) ، يتصوّر هو ، كاهن السلطة الناري ، أنّ جمهور المصلّين الذين يسجدون فيلمس جبينهم السجّادة التي تغطي الأرض ، يشبهون حشداً من العبيد الراكعين الذين يقدِّمون خضوعهم وأرواحهم قرابين !

« وكان العدو الإستعماري بارع الذّكاء في محاربته المستمرَّة المميتة للّغة العربية ، اللّغة الأجنبيّة (في الجزائر العربية) ، حين كان يغلق كلّ مدرسة عربية موجودة على بعد ثلاثة كيلومترات من أيّة مدرسة فرنسية غايتها تعليم بعض المفردات الكافية لإدارة العمّال الزراعيين ، كما تعلّم البغال بضع كلمات تجعل قيادتها أقلّ إزعاجاً .

« وكان العدو الإستعماري يدرك مدى الخطورة في ازدهار اللّغة العربية الصحيحة ... فإن تعليم الصغار الجزائريين لغتهم الأم ، يعني تخلّصهم من عار أنهم أطفال (الساحة العامة) أيتام ، ولقطاء ، ومشرّدون ، يعني إيقاظ وعيهم بجدارتهم وكرامتهم ، يعني تجنيبهم خطر المراهقة التي لا جذور لها والتي تتدهور في هاوية الكحول والفجور ، يعني أن تعاد للشاب العزب روحه الواثقة القويّة الصافية ليدرك منشأ الفعل الإنعكاسي الإستعماري ..

« إنّ تعلّم اللّغة العربية من جديد ، هو إحياء التربية الطبيعية والعقلية والتاريخية التي تتيح أن نكشف السبب في أن جبل الجرجورة (الجبل الحديدي) الروماني الذي لم تصله المسيحية ، قد أطلق على أعلى قمم الأطلس في منطقة التل ، اسم : (لالاَ خدِيجَة) ، الزوجة الأولى للنبي العربي وأم المؤمنين »[1] ..

ثم يمضي فيقول : « لقد كان الإستعمار أكثر ذكاءً حينما اختبر أنه لا يمكن فصل الدين عن السياسة دون تهديد الإستقرار بنظام حكم مطلق .

« وقد رفض بوقاحة كليّة ، أن يطبِّق النّصُوص الديمقراطية في قانون

---

(١) الجهاد الأفضل (٢٩ – ٣١) .

الجزائر عام (١٩٤٧ م) ، الذي تعهّدت بموجبه فرنسا بضمان حريّة العبادة الإسلامية وتعليم اللّغة العربية »[١] .

ويمضي الوزير الثائر عمار[٢] يفسّر إسلاميّة ثورة الجزائر وعروبتها بقوّة ووضوح في لحن من ألحان العلم والإيمان ، فيلطم بما يقوله أفواه المتشدّقين بعداوة الإسلام والعرب تظاهراً بالتحرّر والعلم ... الخ وبشعارات لا تعدّ ولا تحصى كلها زور وبهتان .

إنّ انتصار ثورة الجزائر واتضاح طابعها العربي الإسلامي ، تصحيح للخطأ الفاحش المريب الذي وقع فيه بعض (المفسّرين) من المشرق العربي في محاولة لستر افتضاح مفاهيمهم ... هذه المفاهيم التي عاشت خلال نصف قرن تبشّر بأنه لا ثوريّة إلاّ بنفي الإسلام ، ومحاربة الإسلام ... ثم فاجأتهم أعظم ثورات العصر بروحها الإسلامية الكاملة ، فراحوا يعتذرون لثورة الجزائر ، مُقْسمين بأغلظ الأيمان ، أنها ظاهرة جزائرية سببها رعونة الفرنسيين ، وأنها لا تصلح للنقل ولا للتطبيق ... ولا داعي للمغالاة في أهمية هذا الحدث الذي يُرجى زواله بإذن الله !!! ...

وهكذا أثبتوا أنهم ليسوا فقط عاجزين عن الإكتشاف ، بل وعاجزين حتى عن التعَلُّم »[٣] .

إنّ رسالة الأمة العربية هي الإسلام ، بها خرجنا للعالم ، فأسهمنا في تطوير الحضارة البشريّة ، وأثرينا تاريخ الإنسان ، ودَفَعْنا بالقيم الفاضلة الى مدارج أعلى ، ومفاهيم أنبل[٤] .

---

(١) الجهاد الأفضل (٣٤) .
(٢) بدأ عمار حياته الثورية ماركسياً شيوعياً ، فوصل من خلال الثورة الى روح الإسلام والى الوجود الإسلامي .
(٣) الغزو الفكري (٧) .
(٤) الغزو الفكري (١٣) .

ولولا أن اعتصم شعب الجزائر بوجوده الإسلامي ، فقهر هذا الوجود محاولات فرنسا لإفناء الوجود العربي ... وبذلك بقيت الجزائر وبفضل الإسلام ، للعرب ولإفريقيّة [١] .

وما يقال عن الجزائر ، يقال عن كل بلد في المغرب العربي ، وعن البلاد العربية كلها [٢] .

لقد انبعثت ثورات المغرب العربيّ كلّها من مفاهيم إسلاميّة أصيلة : عروبتها في إسلامها ، وإسلامها في عروبتها ، من جامع القرويين في المغرب ، ومن جامع الزيتونة في تونس ، ومن جمعية العلماء في الجزائر ، ومن الزوايا السنوسية في ليبيا [٣] ، فمن الحق أن نعترف بفضل هذه المعاهد على استقلال المغرب العربي وحريته ، لا أن نقابلها بالعقوق ونكران الجميل ، ونتنكّر لها تنكّراً لا يفيد غير الإستعمار وإسرائيل .

إن هذه المعاهد ، مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين ، وهي مصدر من أعظم مصادرنا الحضارية ، وبهذه المعاهد نمتاز ونتفوق على جامعات الغرب لا بغيرها ، إذ لا نستطيع منافسة جامعاته الأخرى بجامعاتنا الحديثة ، بل نستطيع منافسته بهذه المعاهد المباركة ، بما فيها من علم أصيل تنفرد به ، وبما لها من تاريخ علمي عريق ، وبما لها من ماضٍ مشرّف في الجهاد .

إنّ هذه المعاهد كانت ولا تزال من ألدّ أعداء الإستعمار بكلّ أشكاله ، وقد حاول المستعمرون تخريبها دون جدوى ، فهل نخرّب بيوتنا بأيدينا ، فنفعل عن طيبة خاطر ما عجز الإستعمار عن فعله بها على الرغم من كل طغيانه وجبروته وعدائه للعرب والمسلمين ؟! .

---

(١) الغزو الفكري (١٨) .
(٢) إنه ليس ثورياً من يهاجم الإسلام ، بل هو ثُوْري .
(٣) انظر السنوسي الكبير في كتاب دراسات في التاريخ الليبي (١٥ - ٧٣) والسنوسية في كتاب قضية ليبيا (٣٤ - ٤٢) .

لقد اتخذت الحركات الثورية في المغرب العربي طابع الإصلاح الديني قبل ان يكون لجماعة الوطنيين أهمية بارزة[1] فمن حقّ هذه المعاهد على الوطنيين أن يدعموها ماديّاً ومعنوياً، وأن يصدّوا عنها كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

ومما يُلاحظ أن كلّ حركة تحريريّة قامت في العالم الإسلامي كان أساسها الدين، لا يُستثنى من ذلك حركة مصطفى كمال في تركيا الذي أصدر منشورات تهيب بالمسلمين لنصرته، وتمسّح بالسيد السنوسي لالتماس بركته؛ ولكنّه ما فتىء أن تنكّر للإسلام والمسلمين بعد انتصاره، كما يفعل غيره من المتزعمين في الأقطار الإسلامية الأخرى، حينما يتمكّنون من أمرهم، ولا يبقون بحاجة الى تملّق الشعور الديني الذي هو الرابطة الجامعة بين مسلمي المشرق والمغرب.

ويتساءل المخلصون في كل بلد إسلامي: هل إنّ هؤلاء الزعماء كانوا منافقين في تظاهرهم بنصرة الدين عند خوض المعارك التحريرية، ثم أظهروا ما بهم من عداوة له، أم أن الفكرة الدينيّة، وبالأخص دين الإسلام، لم تعد تطابق مقتضيات العصر والتطوّر الذي طرأ على الحياة الإنسانية بسبب تقدم العلم وانتشار الحرّيّات؟؟!.

ونحن لا يمكننا أن نتّهم أحداً بالنفاق، ولا سيّما الذين أبلوا البلاءَ الحسن في رفع سيطرة العدوّ عن بلاد الإسلام. ولكنّ الذي يحقّ أن يقال هو أنّ هؤلاء القادة لم يستطيعوا التوفيق بين التعاليم الإسلامية وروح العصر؛ فذهب فريق منهم إلى إنكارها، وزعم أنّ القرن العشرين لا يحتمل فكرة التديُّن بحال، وذهب فريق آخر إلى تأويلها وقلب مفاهيمها لتساير العصر والمدنيّة الحديثة.

والفريق الأول مقلّد لكثير من المفكّرين والكتّاب الغربيين الذين درجوا على إنكار الدين، ودعوى مناقضته للعلم، من لدن عصر النهضة إلى الآن،

---

(١) التطورات السياسية في المملكة المغربية (٤٥).

وهو إنما تثقّف بثقافة الغرب ، وقد أعفى نفسه من التفكير الجدي في هذه المسائل . فلا جرم أن يقع تحت تأثير التقليد في هذا الغلط الفظيع ، ذلك لأنّ الغربيين إذا انتقدوا الدين فانما ينتقدون نظام الكهنوت وسيطرة الكنيسة على الأفكار ، وهذا إذا كان في المسيحية ، فإنّ من المسلّم به أنه ليس في الإسلام كهنوت ولا رجال دين يتحكّمون في عقول الناس . والمسلمون إنما تقدّموا تقدّمهم المدهش في العلوم والمعارف لمّا كانوا متمسكين بتعاليم دينهم ، قائمين على شعائره في القرون الثلاثة الأولى التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، بعكس المسيحيين الذين لم يتقدّموا تقدمهم المشهود إلاّ حينما فصلوا الدين عن الدولة ، وانطلقوا متحررين من قيود الكنيسة وعبث رجال الكهنوت .

وليس معنى هذا أننا ننال من المسيحية ، وهي باعتقادنا دين سماوي مقدّس ، ولكنّنا نقرر حقيقة واقعية ، وهي أن الدين لا يمنع مطلقاً من التطوّر إلا إذا تطوّر هو ودخلته التكييفات البشرية التي تُبعد به عن سماحته الأصلية . فالمسيحية التي منعت أتباعها من إرتقاء سلّم الحضارة ، ليس هي دين المسيح عليه السلام ، والإسلام الذي قعد بأهله عن مجاراة سنن الكون في العصور المتأخرة إنما هو إسلام الطوائف والشيع المختلفة ... وهذا ما لم يستطع إدراكه الفريق الأول من الحكّام المسيطرين على بلاد الإسلام .

وأمّا الفريق الثاني الذي يجنح إلى التأويل وقلب المفاهيم ، فهم من الذين تثقفوا بثقافة الغرب أيضاً ، وسمعوا أن الإسلام دين متطوِّر صالح لكلّ زمان ومكان ، من غير أن يكون لهم إلمام بحقائقه ولا معرفة بأصوله ، وقد استولى عليهم غرور الثقافة وغرور الحكم ، فسوّلت لهم أنفسهم أن باستطاعتهم أن يجدِّدوا في الدين ليثبتوا هذه الصلاحية ، فركبوا رؤوسهم وصاروا يحطِّمون أحكام الشرع ، ويُحلِّون ما حرم الله .

ولعلّ أول ما يبدأون به من هذا التجديد المقلوب ، هو اصطناع قوانين الغربيين واستبدالها بأحكام الشرع الشريف .

ونحن إذ ندعو المسلمين إلى التمسُّك بدينهم إنما ندعوهم إلى إحياء السنن التي كانت سبب رقيِّ أسلافهم ، وإماتة البدع التي أخّرت خلفهم المتخلِّف ، وبذلك نحدوهم إلى التقدّم المنشود من غير أن ينسلخوا من دينهم الحق ، كما فعل الغربيون الذين يقتدون بهم[1] .

إن الغرب لا يخشى شيئاً خشيته للإسلام : « ومنذ أن جمع (محمد) أتباعه في مطلع القرن السابع وبدأ أول الإنتشار العربي ، أصبح على العالم الغربي ، أن يحسب حساب الإسلام كقوّة دائمة صلبة تواجهه عبر البحر الأبيض . إنّ قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ثلاثمائة وألف سنة في نهضته وانهياره »[2] .

وكان التبشير ــ كما رأينا ــ هو التمهيد للغزو المسلح ، ولكنّ خبرة المبشرين أثبتت استحالة تنصير المسلمين ، بل اكتشفت أن الهجوم السافر يستفزّ عناصر المقاومة . كذلك كان يعرف المبشرون أنّ عصر السيطرة الإستعمارية إلى زوال ، وأن القوات المسلّحة التي ساندت تصرفاتهم ونشاطهم زائلة ، فأعدوا غزواً من نوع آخر ، هو الغزو الفكري .

بهذا الغزو حاولوا إعادة ترتيب عقل المسلم ، بحيث يفكِّر منطلقاً من مقدمات صليبية دون أن يخلع دينه ، ولا حاجة لتعميده بالماء المقدّس ، فقد عُمِّد بالفكر غير المقدّس .

وإذا تشرّب المسلم طقوس الحضارة الغربية ــ وهي حضارة مسيحية في سداها ولحمتها ــ واطمأنّ اليها ، بل أيقن بتفوقها عليه ، لا مجرّد التفوّق المادي ، بل أيضاً الفكري والروحي ، انهارت مقاومته ، وأصبح كالمدينة المفتوحة عنْوة ، مستباحة لكلٍّ ناهب ومقتحم .

---

(١) انظر : مفاهيم إسلامية (٧ ــ ٩) .

(٢) من مقدمة كتاب العرب ــ انتوني ناتنك ــ لندن ــ ١٩٦٤ ــ نقلا عن : الماركسية والغزو الفكري (٢٣) .

إنّ سبيل البعث لكلِّ حضارة ، هي إيمانها بتفوقها ، واعتزازها بخصائصها .

وما أسخف أن نُتّهم بمعاداة التقدّم العلمي والصناعي الغربي ... بالعكس[1] ... إن ما نعنيه بالغزو الفكري أو الإستعمار الفكري ، هو : أن تؤمن بأن عدوك الألد هو ولي نعمتك ... وأن ينشأ جيل يؤمن بأنه يدين حتى بالحريّة لأوربا ... لا أنه فقد الحريّة بسبب أوربا التي احتلّت بلادهم وقضت على حريتهم[2] .

الحرب سِجال بيننا وبين الحضارة الغربية ، وأرض المعركة الآن هي الفكر ... محاولة اقتحام القلعة الإسلامية بالأفكار والمبادىء والقيم ... حتى يتمّ خلع القيم الإسلامية ، وتدمير المثل العربية ، لكي يتحوّل المواطن العربي إلى فرد يحاكي الحضارة الغربيّة ، ويقضي العمر في اقتفاء أثرها بلا أمل في التفوّق ... وبلا شخصية ... قد رضي بدور الظل ... وأنّى للظل أن يسبق سيده[3] ؟ .

إسرائيل والغرب كلّه ، يعون خطورة انتشار الإسلام في إفريقيّة ... ويدركون أن الإسلام هو الرباط الوثيق بين إفريقية السوداء والعرب[4] .

ولا ألوم إسرائيل والغرب في كفاحهم المستميت للإسلام والعرب ، ولكن ما عذر العرب والمسلمين في استخذائهم لهذا الكفاح ، كما حدث في السكوت المطبق على استشهاد البطل أحمدوبلّلو[5] عدو الصهيونية والإستعمار الأول ، والداعية العظيم لنشر الإسلام في إفريقيّة ؟ .

ولو لم يكن في ديننا ومبادئه ما يحقّق للنّاس رغبتهم في إقامة المجتمع

---

(١) الماركسية والغزو الفكري (٤١) .
(٢) الغزو الفكري (١٣٧) .
(٣) الماركسية والغزو الفكري (٥٤) .
(٤) الماركسية والغزو الفكري (٤٨) .
(٥) انظر : الشهيد احمدو بلو (٢٧ – ٣٥) .

المثالي المتعاون المتراحم ، لأمكن أن نلتمس العذر للذين يستوردون المبادىء من الشرق والغرب . ولكن ما دام في الإسلام نظم إجتماعية إلهيّة ، وقواعد حكيمة ، تكفل إيجاد الحياة المنظّمة الراقية السعيدة وتفوق النظم التي وضعها (كارل ماركس) اليهودي الأصل وغيره من البشر ما دام فيه الذي يطلبه الإنسان في الدنيا والآخرة ، لو أرادهما معاً ، فلماذا يترك المرء دينه وعقيدته ونظمه وتشريعاته ، وينحدر إلى المبادىء المستوردة[1] ؟

إن الإسلام هو دين الحريّة والمساواة ، فقد محا من أول الأمر النعرة الجاهلية ، وحرّم التفاخر بالأحساب والأنساب ، وأوضح أنّ أصل النّاس جميعاً واحد، خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، وأكرمهم عند الله أتقاهم[2] كما قضى الإسلام على التعصّب للجنس والتعصّب للقبيلة والتعصّب للطبقة[3] ، كما قضى على التفرقة العنصرية[4] .

لقد بلغ الإستعمار الفكري المدى في بعض القلوب والعقول العربيّة المسلمة ، دون أن نحسب حساب تأثير هذا الإستعمار التدميري في العرب والمسلمين ، ودون أن نفكّر أنّه استعمار أقسى من الإستعمار السياسي والعسكري والإقتصادي ، وأنه (غاية) لكلّ أنواع هذه الإستعمارات : « ولكنّ الغرب ما زالت له (السيادة) في الميدانين الإقتصادي والثقافي ، فالسيطرة الثقافية المستمرة للغرب هي بقيّة من بقايا سيطرته السياسية السابقة . أما على الصعيد السياسي ، فإن البلاد التي كانت خاضعة لسيطرة الغرب بطريقة مباشرة ، قد استردّت الآن كلّها تقريباً إستقلالها من الغرب . ولكنّ هذه البلاد التي استقلّت سياسياً ما زالت غير متحرّرة تماماً من الوجهة الثقافية ، فهي لا تزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربية دون تمييز ودون

---

(١) الإسلام والمبادىء المستوردة (٦٥ — ٦٦) .
(٢) تطور المجتمع الإسلامي العربي (٢٣) .
(٣) التسامح في الإسلام (٥ — ١٦) .
(٤) انظر : معركة المصحف في العالم الإسلامي (٩٢ — ٩٣) .

أيّ انتقاد لها »[1] . «على أنّ كل هذه البلاد التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية ، قد استغلّت حريتها على نحوٍ غير متوقّع على الإطلاق . فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضدّ السيطرة السياسية للغرب ، ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كُلِّل بالنجاح في كلِّ الحالات حتى الآن . ولقد كان من المتوقّع بعد أن تمكّنت من أن تتحرّر سياسياً من الغرب ، أن تستخدم هذه الحريّة الجديدة التي اكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام . أي إنه كان من المتوقّع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثاً لكي ترجع الى أسلوبها التقليدي في الحياة ، وهو الأسلوب الذي كان سائداً في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب ، ولكنّ الذي حدث في جميع الحالات تقريباً ، كما نعلم ، هو أن البلاد التي تحرّرت حديثاً قد استخدمت حريّتها للغرض العكسي تماماً، أي أنها قد استخدمتها لتقتبس بمحض اختيارها عناصر من المدنية الغربية ، أعني من أسلوب الحياة الحديثة ، وقد فعلت ذلك بحماسة ، وبلغت حماستها هذه حداً لم يكن الحكّام الغربيون السابقون يجرأون على أن يفرضوا المدنية الغربية عليهم ، ذلك لأن نظام الحكم الأجنبي يتعيّن عليه دائماً أن يكون أكثر حذراً من نظام الحكم القومي ، وهناك أمور لا يجروٌ النظام الأجنبي على فعلها مطلقاً ، ومع ذلك يجروٌ عليها النظام القومي »[2] . « ولكنني أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البشري كلِّه ، وضمنه الغرب ذاته ، أن يتجه الجزء غير الغربي من العالم إلى قبول المدنية بكل عناصرها دون تمييز ، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضار فيها . وأقول : إنّ هذا يكون من سوء الحظ ، لأنّ المدنية الغربية ، شأنها شأن أيّة مدنية أخرى ، فيها أوجه نافعة وأوجه ضارّة »[3] . ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة ، ليس غاية في

(١) محاضرات آرنولد اتونيبي (٣٥) .
(٢) محاضرات آرنولد اتونيبي (٣٦) .
(٣) محاضرات آرنولد اتونيبي (٣٧) .

ذاته ، وانما هو وسيلة لغاية أخرى ، هي رفع المستوى (الروحي) للحياة »[1] « وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادي ، يوجد رأس المال الإنساني ، وهو أهمّ رأس مال يملكه البشر[2] » . « وهكذا فمن الممكن أن تؤدي الفردية إلى نتائج ضارّة بالمجتمع ، إذا لم توضع تحت السيطرة الأخلاقية »[3] . « ففي الغرب أناس قد اعتادوا حياة النشاط العملي إلى حد أنهم يصرفون أوقاتهم في ممارسة أمور عملية تافهة لا جدوى منها ، حتى لا يضطروا الى مواجهة أنفسهم مواجهة روحيّة صريحة ، والتحوّل إلى عالمهم الداخلي ، وممارسة التأمل الباطن في حياتهم . هذه الصفة هي ما يسميه علماء النفس بالطابع الإنبساطي الذي يتمّ على حساب الطابع الإنطوائي . والواقع أنّ عجز الإنسان عن التأمل الروحي الباطن ، يتضمّن إهداراً لإنسانيته لا يقل عن ذلك الذي يتضمنه عجزه عن النشاط العملي . فلكي يكون المرء إنساناً بحق ، عليه أن يجمع ويوفق بين نوعي السلوك هذين في الظاهر والباطن . وهكذا فإن التأمّل والصلاة ليسا بأقل أهمية من النشاط العملي الخارجي من حيث هما عنصر ضروري لا غناء عنه في حياة الإنسان »[4] . « إن تعاليم البعوث التبشيرية المسيحية — على خلاف تعاليم الإسلام — تهدم الإستقلال الذاتي في الإفريقي وتعطّل تصرّفه المطبوع »[5] . « إنّ إنتشار الإسلام بين الإفريقيين — إذا روجعت أسبابه جميعاً — إنما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة لم تكن في العالم حضارة تضارعها أو تقوى على مغالبتها ، وإنّ وصول الإسلام إلى القارة الإفريقية كان ملازماً لوصوله

---

(١) محاضرات آرنولد توينبي (٤٠) .

(٢) محاضرات آرنولد توينبي (٤٢) .

(٣) محاضرات آرنولد توينبي (٤٢) .

(٤) محاضرات آرنولد توينبي (٤٤) .

(٥) انظر : شبه جزيرة سيراليون — كريستوفر فايف (CristoPher Fyfe) نقلا عن كتاب : ما يقال عن الإسلام (١٤٠ — ١٤١) .

إلى القارة الأوربية نفسها وامتداده إلى الأقطار البعيدة من القارة الآسيوية، وقد كان امتياز حضارته سبباً كافياً لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذي يصل اليه العربي المطبوع على الترحّل والسياحة ، يعينه على مطاوعة هذه النزعة أنه اقتبس كلّ ما يقتبس من اليونان والأمم القديمة من علوم الجغرافية والفلك وزاد عليها حبّ الكشف الذي سرى إلى جميع المسلمين مع سريان الشوق إلى زيارة مكة ومعاهد الإسلام الأولى . وبينما كان الأوربيون يُعَوِّلُونَ على السِّحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ويحسنون الإنتفاع بكثير من العقاقير ، ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الأطباء في علاج بعض الأمراض إلى هذه الأيام »[1] .

ب ـ إن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنيّة التي جادت بها أوربا على العالم ، بحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء ؛ وإنما يؤدي رسالته بالروح والقوّة المعنوية التي تزداد أوربا كلّ يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان والإستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنّة ، والزهد في حطام الدنيا وتحمُّل الأذى في ذات الله صابراً محتسباً ، وصدق الله العظيم : « ولا تَهِنوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يَرْجُون »[2] ، فقوّة المؤمن وسرُّ انتصاره في إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامي لا يروم إلاّ ما تراه أوربا من العرض القريب ، ولا يطمح إلاّ فيما تطمح فيه أوربا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلاّ بما تؤمن به أوربا من المحسوسات والماديّات ؛ كانت أوربا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي

---

(١) سلسلة كتب باتين (Batten) عن أواسط إفريقية نقلا عن كتاب : ما يقال عن الإسلام (١٤١ - ١٤٢) .

(٢) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ١٠٤) وانظر تفسيرها في الجامع لأحكام القرآن (٥/٣٧٣ - ٣٧٥) .

يتخلّف عنها في القوّة الماديّة تخلّفاً شائناً ولا يفوقها في القوّة المعنوية[1] » .

إنّ الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح بآمالها الكبرى أعظم القوى الدافعة ، كما أنها تسلّحها بدروع من الصّبر والشّجاعة تواجه بهما جميع الإحتمالات وتقهر بهما مختلف المصاعب والعقبات . وإذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدّم ضرورية ولازمة ، فانّ الحوافز الروحيّة والمعنوية هي وحدها القادرة على منح هذا التقدّم أنبلَ المُثُلِ العُليا وأشرف الغايات والمقاصد[2] .

ينبغي إعداد الجيل المؤمن الصادق الجديد بخوض المعركة المقدّسة ، ولكي يكون الإعداد سليماً ناجحاً ، لا بدّ من تغيير الأسس التي يقوم عليها التعليم الديني في البلاد العربية ، وإعادة النظر في البرامج الدينيّة بحيث يصبح تعليم الدين إجبارياً في جميع مراحل التعليم الإبتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي . ويجب أن تشتمل الدروس الدينية على دراسة التراث الإسلامي ، ودراسة القرآن الكريم ، والتركيز على جوانب الجهاد وما ورد فيه من آيات تجعل من المسلم شجاعاً أبيّاً عزيزاً كريماً فدائياً يضحي بنفسه في سبيل الله إعزازاً للأمة وتحريراً للوطن[3] .

يبدأ إعداد الجيل في البيت ، ثم في المدرسة ، ثم في الجامعة ، ثم في الحياة تطبيقاً عملياً لنظريات الإسلام وقواعده ، فلا فائدة من عقيدة بلا عمل ، وإذا لم يتأثّر المرء بالعقيدة التي يؤمن بها ، فلا يستطيع أن يؤثّر بها على الآخرين .

حينذاك سينشأ جيل لا يكذب ، ولا يسرق ، ولا يخون ، ولا يغشّ

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢٧٠) .

(٢) الميثاق الوطني — الباب الثامن — نقلا عن خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية (٤٠٥ — ٤٠٦) .

(٣) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية (٤١١) .

أحداً ، ولا يمالىء أجنبياً على أخيه ولا على أمته ، ولا يرضخ للظلم ، ولا يخشى إلا الله ، شجاع مقدام ، أمين مستقيم ، فارس في النهار راهب في الليل ، يتمنّى الشهادة في سبيل عقيدته ويضحّي بنفسه وماله في سبيل إعلاء كلمة الله .

هذا الجيل أو هذه الأمة ، التي على كلّ فرد من أفرادها داخل ضميره رقيب شهيد يحاسبه على كلّ عمل من أعماله ليلاً ونهاراً ، فيوفّر على الدولة كثيراً من الشُرَطِ والمراقبين والمفتّشين ، فلا يعمل إلاّ ما يُرْضي اللهَ ورسوله وبلاده ، هذه الأمّة لا يمكن أن تقهر أبداً .

لقد فتح العرب المسلمون العالم بالإسلام ، وسادوا به ، وأصبحوا أعظم دول الدنيا قوة وتماسكاً وحضارة بالعقيدة الإسلامية ، ولن يستعيدوا مكانتهم السامية إلا بالإسلام عقيدة وعملاً وتضحية وفداء وسياسة واقتصاداً وحرباً وسلاماً .

وتاريخ المغرب العربي ، بل تاريخ العرب كله خير شاهد عملي على ذلك .

أرسل سعد بن أبي وقّاص رِبْعِي بن عامر الى رستم قائد الفرس قبل معركة القادسية الحاسمة ، فلما وصل رِبْعِيْ إلى مقر رستم ، قال له أصحاب رستم : « ضع سلاحك » ، فقال : « إني لم آتكُم فأضع سلاحي بأمركم ، أنتم دعوتموني ، فإن أبيتم أن آتيكم إلاّ كما أريد وإلاّ رجعتُ » ، فأخبروا رستم فقال : « إئذنوا له ، هل هو إلاّ رجل واحد ؟! » ، فأقبل يتوكّأ علَى رمحه وزُجّه[1] نصلٌ ، يقارب الخطو ويزجّ النمارق والبُسُط ، فما ترك لهم غرفةً ولا بساطاً إلاّ أفسده وتركه منتهكاً مُخَرَّقاً ، فلمّا دنا من رستم تعلّق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبُسُط ، فقالوا : « ما حملك على هذا ؟! » قال : « إنّا لا نستحبّ القعود على زينتكم هذه » ،

---

(١) الزج : الحديدة في أسفل الرمح .

فكلّمه رستم فقال ربعي : « إنّ اللهَ ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومنَ ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قَبِلَ مِنّا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضَه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتّى نُفضِيَ إلى موعود الله » . قال رستم : « وما موعود الله؟ » ، قال : « الجنّة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي [1] » .

إنّ في الإسلام من عناصر القوة طاقات لا تنضب ، وليست عناصر قوة الإسلام مقصورة على جانب دون جانب ، وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً : في الايمان بالله إيماناً يحرِّر الضمير والوجدان ، وفي الاعتصام بالحقّ اعتصاماً يزهق الباطل امامه ويندحر ، وفي معرفة الضعف النفسي والتطهّر منه حتّى تأخذ النفس طريقها إلى العزّة والسمو الروحي ، وفي العلم المقوِّم لشخصية الإنسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادي وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة ، وفي الثروة وتعمير الأرض واستثمار قوى الكون والإنتفاع بما في الطبيعة من بركات الله وخيراته وتوزيعها على أفراد الأسرة الإنسانية بالكفاية [2] .

إنّ القوة الدافعة التي يعطيها الإسلام للعرب والمسلمين ، والنور الذي يغمر قلوب المؤمنين به منهم ، فيجعلهم يضحُّون بكل ثبات في سبيل مُثُلِهم العُليا ، والتعاليم السمحة [3] التي تروِّض أخلاقهم وتبدلها من حال الى حال ، والأسس المتينة التي تقاوم الإستبداد السياسي والتمييز العنصري

---

(١) الطبري (٣/٣٣ - ٣٤) .

(٢) عناصر القوة في الإسلام (٣) .

(٣) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام - محمد الغزالي - وسماحة الإسلام - الدكتور أحمد الحوفي .

والإستغلال والظلم ، كلُّ ذلك يجعل هذا الدين ضرورة من ضرورات العرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم .

فلماذا نخشى على مسيرتنا من الإسلام ؟ إنّه قوتنا وتاريخنا وشرفنا ونورنا الذي يكشف لنا الظلمات . إنّه القوّة التي نتفوّق بها على أعدائنا ، القوة التي تبني ولا تخرِّب ، وتوحِّد ولا تفرِّق ، إنّه القوة التي تخشاها الصهيونية ويخشاها الإستعمار ، ولا قوة غير الإسلام تقض مضاجع الأعداء[1] .

يقول الدكتور محمد البهي في مقدمته لتفسير ابن باديس : « ظاهرتان جديرتان بالنظر والإعتبار في تحرير الشعوب العربية والإسلامية من الإستعمار الغربي ، منذ ابتدأت حركات التحرّر في القرن التاسع عشر حتّى الآن :

« الظاهرة الأولى : أنّ المشعل الذي كان يقود هذه الحركات هو مشعل الإسلام ! وأنّ بذور الثورات ضد الإستعمار كانت المبادىء والتعاليم الإسلامية. ففي مصر والهند وفي المغرب العربي وفي اندونيسيا ، وفي البلاد العربية ، وفي غيرها من البلاد الإفريقيّة والإسلامية التي ينتمي أكثر سكّانها إلى الإسلام ، كان القرآن الكريم والتمسّك به مصدر الثورة ، وباعث حركة التحرير فيها ، وكان العلماء وطلاب الجمعيات أو المعاهد الإسلامية ، هم المضحُّون والفدائيون في العمل على طرد الإستعمار .

« والظاهرة الثانية : أن الذين تولّوا توجيه السياسة ، بعد الإستقلال ، ونجاح هذه الحركات نجاحاً جزئياً في الشكل السياسي — من الذين تثقفوا على الغرب (المستعمر) ولم تكن لهم صلة قويّة بالإسلام ، وتاريخ دعوته ، وفهم مبادئه .

«كان أرباب (القديم) هم محركي الثورات وقادتها ، وأصحاب (الجديد) هم روّاد الدولة وساستها . وأسباب ذلك عديدة : منها ما يعود

---

(١) انظر : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (٣٥ — ٣٨) .

الى العلماء أنفسهم ، ومنها ما يرجع إلى السياسة الإستعمارية منذ أن احتلّت بلداً من هذه البلاد .

« ولولا الدعوة إلى الإسلام وتعاليمه ، ولولا حضّ المسلمين على مقاومة الإستعمار باسم الإيمان بالإسلام والجهاد في سبيل الله ، ما أثّرت حركة تحريرية في هذه البلاد ، ولذاب مجتمع (العبيد) في خدمة مجتمع (الأحرار) .
« فالإسلام في أيِّ بلد — واللّغة العربية معه في البلاد العربية — كان جماع التاريخ لكلِّ بلد ، ووعاء الأمجاد والكفاح ، من أجل القيم العليا لماضي كلِّ شعب من هذه الشعوب ، وبذلك حفظ للشعب كيانه وشخصيته ومقومات هذه الشخصية .

« وهناك ظاهرة ثالثة تصحب هاتين الظاهرتين : وهي ظاهرة العجز عن تحويل مجتمعات هذه الشعوب بعد استقلالها إلى مجتمعات إسلاميّة ، وجعل القيم الإسلامية فيها أصولاً وأهدافاً لها .

« ولعلّ بُعد صلة روّاد السياسة فيها — بعد الإستقلال — عن المبادىء الإسلامية وفهمها فهماً سليماً ، بالإضافة إلى صنوف التبعيات الإقتصادية والثقافيّة والسياسيّة والتعليميّة التي أحكم المستعمر شدّ وثاقها باتجاهاته وبجوانب حياته في بلده الأصيل ، من الأسباب التي وقفت في طريق هذا التحويل ، إن كانت هناك يوماً ما رغبة فيه .

« والذي يبدو في أفق هذه المجتمعات حتى الآن ... الإكتفاء بالإشارة إلى أنّ الإسلام دين الدولة الرّسمي ! وقد تلقى هذه الإشارة أحياناً معارضة يحملها المجدِّدون أولياء الإستعمار الماضي ، ومن الذين يخدعون أنفسهم باسم (العلمانية) .

« والإشارة مع ذلك ، إلى أنّ الإسلام دين الدولة الرسمي ليس لها صدق ما أو واقع في حياة المجتمع : سوى ترك الأفراد يتردّدون على

المساجد في أسلوبها التقليدي ، وضعف فاعليتها في التوجيه »[1] .

ذلك حق ، وأضيف على ذلك ، أنّ المستعمر لم يترك البلاد إلاّ بعد أن خلّف وراءه تلاميذ مخلصين لمبادئه وقوانينه، حتى لقد سمعنا – مع الأسف الشديد – من بعض هؤلاء تُهَماً للإسلام لم يستطع المستعمر في أيامه السود أن يتفوّه بها أو ببعضها !!

ودعنا من ادعاءاتهم بأنهم (وطنيون) وأنهم (متحرِّرون) ، وأنهم (تقدميون) ، فواقعهم المرير يكذِّب تلك الإدعاءات .

وإذا استطاع هؤلاء أن يغشُّوا بعض الناس ساعة ، فلن يستطيعوا أن يغشُّوا النّاس إلى قيام الساعة .

وإلى هؤلاء أقول : مَنْ تحكمون في بلادكم غير العرب والمسلمين ، فاذا عادى المستعمر تراث العرب وعقيدة الإسلام ، ليقضي على مقومات شعوبكم فيسهل عليه حكمها ، فلماذا تقتفون آثار الأعداء بعد الإستقلال ؟

وصدق الله العظيم : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتَبَيّن لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال »[2] .

لقد ساد المغاربة بالقرآن ، ولن يسودوا بغيره .

وتخلصوا من الإستعمار بالقرآن ، ولن يتخلصوا من آثاره الباقية بغيره .

وحين كانوا متمسكين بالقرآن ، أقاموا (وحدة) رصينة ، وأسسوا (دولة) عظيمة ، وأنشأوا (حضارة) خالدة ، وكوّنوا (قوة) هائلة ، وحملوا (رسالة) سماوية واجبة الأداء لجزر البحر الأبيض المتوسط ولأوربا وللعالم[3] ...

---

(١) مقدمة تفسير ابن باديس (٥ – ٧) .

(٢) الآية الكريمة من سورة ابراهيم (١٤ : ٤٥) .

(٣) انظر التفاصيل في : الفاروق القائد (١١ – ١٦) .

وحين تخلّوا عن القرآن ، تداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد ، وأصبح عبيدهم بالأمس أسيادهم اليوم ، ووصل بهم التناحر والخصام [1] الى حد أن يقبلوا (وساطة) عدو من أعداء الإسلام وصديق حميم لإسرائيل [2] للتصالح فيما بينهم ووضع حدٍّ للحرب والخصام .

إنّ وحدة المغرب العربي تحت لواء القرآن ، ليستعيد مكانته السامية بين دول العالم ، هي الدرس الأول من تاريخه الطويل .

واللّغة العربية ، هي من مقومات المغرب العربي في تاريخه العريق ، وهي من مقومات حاضره ومستقبله ، وهي صلته بتراث آبائه وأجداده وبعقيدته وبالدول الشقيقة في المشرق العربي .

إن الدعوة إلى العامية ، والدعوة إلى جعل هذه اللّغة لغة ثانوية كما حاول المستعمرون من قَبْلُ ، دعوات مريبة يجب أن تموت في مهدها ، وما أصدق شعار جمعية العلماء بالجزائر : « الإسلام ديننا ، والعربيّة لغتنا ، والجزائر وطننا » ، فالعربية لغة المغرب ، وهي لغة القرآن ولغة آبائه وأجداده الغر الميامين .

إن سيادة اللّغة العربية سيادة مطلقة في المغرب العربي ، هي الدرس الثاني من تاريخه الطويل .

وقد عمل المستعمر في أيامه على إشاعة الفاحشة والتهتّك في المغرب العربي ، حتى تسهل السيطرة على أبنائه ، إذ لا يؤمل من الديوثين والبغايا غير الخنوع والإستخذاء .

والخلق الكريم ، هو روح تعاليم الإسلام وقوامه ، فلا دين لمن لا خلاق

---

(١) انظر : العرب والاسلام – للندوي – (٧٦ – ٨٤) .

(٢) هو هيلاسلاسي ملك الحبشة الذي سحق شعب أرتيريا المسلم ، وقد تدخل بين الجزائر والمغرب عام ١٩٦٤ م لإيقاف الحرب بين القطرين الشقيقين . .

له ، فيجب أن تُسحق مواطن الريبة سحقاً لا هوادة فيها ، ليعود الملوّثون إلى تقاليدهم شرفاً واستقامة ورجولة .

ومكافحة التخنث بكل أسبابه ووسائله ، هو الدرس الثالث للمغرب العربي من تاريخه الطويل (1) .

وقد نقل المستعمر في أيامه قوانينه الفاجرة التي تبيح الفحشاء والمنكر والبغي ، حتى يستطيع أن يلوِّث المغاربة بمـا يتنافى مع تقاليدهم العريقة وشرفهم الرفيع .

وقانون الله أجدى من قانون البشر ، لأنّ في قانون الله الطهارة والسموّ ، وفي قانون البشر الفجور والرذيلة ، فهل نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟

لا بدّ أن يُنَقِّي المغرب العربي بلاده من فجور القانون الوضعي ، وهذا هو الدرس الرابع من تاريخه الطويل .

وقد كان لجامع القرويين في المغرب ولجامع الزيتونة في تونس ولجمعية العلماء في الجزائر وللزوايا السنوسية في ليبيا ، جهاد مشرِّف للمستعمر الغاشم ، فمنها تخرّج قادة الجهاد ومنها انطلق الثوار ، وهي التي حفظت للمغرب العربي عقيدته الإسلامية ولغته العربية ، وهي التي كانت ولا تزال موطن الشرف الرفيع وموئل الفضيلة والعلم ، فهي قوة أيّ قوّة للمغاربة ، وهي مفخرة من أعظم مفاخرهم .

إنّ هذه المعاهد هي الميزة البارزة للمغرب العربي على معاهد الغرب ، فإذا أضعفناها أو قضينا عليها ، فقد فقدنا قوّة ضخمة وتراثاً أصيلاً وصمّاماً أميناً ضدّ التفرنج والإنحراف .

---

(1) أنظر : ردود على أباطيل وتمحيصات لحقائق دينية (٣٢٩ - ٣٣١) وانظر : فتاة الشرق في حضارة الغرب (١١٥ - ١٢٤) .

إنّ الحفاظ على هذه المعاهد ودعمها مادياً ومعنوياً ، هو الدرس الخامس من تاريخ المغرب العربي العريق .

وقد استطاع المغربُ العربي أن يطرد الإستعمار السياسي والعسكري والإقتصادي من بلاده ، ولكنّ الإستعمار الفكري لا يزال ينيخ بكلكله على القلوب والعقول معاً .

والإستعمار الفكري هو أخطر أنواع الإستعمار على الإطلاق كما هو معروف ، فهو الذي يحطِّم شخصية المغاربة ويجعلهم يذوبون في حضارة الغرب والشرق طائعين مختارين ، وبذلك يكونون قد طردوا الإستعمار من باب ضيِّق وأدخلوه إلى بلادهم من باب فسيح ...

إنّ المغاربة ليسوا محتاجين لاستيراد المبادىء والقيم من الشرق أو الغرب مبهورين متخاذلين، لأنهم يملكون من المبادىء والقيم ما يشرِّف كل أمة في الأرض ويغنيها عن غيرها ... وهذا هو الدرس السادس من تاريخ المغرب العربي العريق .

والدعوة إلى الإسلام في إفريقيّة عامة وفي المناطق المتاخمة للمغرب العربي خاصة ، قوّة عظيمة للمغرب العربي نفسه ، لأنّ المسلمين حلفاء طبيعيّون للمغاربة ، ولأنهم يكوِّنون الخطوط الدفاعية الأمامية لحماية المغرب العربي . والدعوة إلى الإسلام في إفريقيّة كانت ولا تزال من فضائل المغاربة ، وهذه الدعوة قد تكون بالدعاة المغاربة وقد تكون من أهل البلاد الأصليين الذين يتلقّون تعليمهم الديني في معاهد المغرب العربي الدينية أو في الأزهر الشريف ، وقد يكون الدعاة تلامذة هؤلاء وهؤلاء ، ومن هنا تبرز أهميّة المعاهد الدينيّة وعلى رأسها القرويين والزيتونة ومدارس جمعية العلماء الجزائريين والزوايا السنوسية والجامعة الاسلامية في ليبيا والأزهر الشريف .

لقد نجح الدعاة الأولون في نشر الإسلام في ربوع افريقيّة ، فكان مع

جيش فتح الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري جنود من السودان – جمع أسود – ، وكان جهادهم في الأندلس وفي جزر البحر الأبيض المتوسط مشرِّفاً رائعاً .

ونجح الدعاة في العصر الحاضر ، على رغم المبشِّرين والإستعمار وأذنابه ، فاستطاع الشهيد أحمدو بللو وحده أن ينشر الإسلام بين ما يزيد على مائتي ألف نسمة في إفريقيّة ، مما أثار ثائرة الإستعمار والمبشرين والصهيونية عليه فأردوه قتيلاً .

إنّ الدعوة إلى الإسلام ، هي الدرس السابع من تاريخ المغرب العربي العريق .

والمبشرون بمختلف أشكالهم وألوانهم وأساليبهم ، هم رأس رمح الإستعمار ومقدمته ومرسخو أقدامه ورؤوس جواسيسه ودعاة مبادئه ورافعوا راياته ومفرقو صفوف المغاربة ومشككوهم بتراثهم وعقائدهم وتاريخهم .

وقد كان للمبشرين ماضٍ أسود ملطّخ بالعار في المغرب العربي وفي كلِّ بلد إسلامي ، حتى لقد ثبت أنهم كانوا وراء فتنة الجنوب في السودان يغذونها بالمال والسِّلاح والمخطّطات ، وقد وُجِدَت كمياتٌ ضخمة من الأسلحة في كنائس هؤلاء المبشرين في السودان .

إنّ الحذر من المبشرين وتحديد نشاطهم والقضاء على محاولاتهم ، هو الدرس الثامن من تاريخ المغرب العربي العريق .

والصهيونية منذ نشأتها في القرن التاسع عشر تطلّعت إلى المغرب (مراكش) ليكون وطناً قومياً لها .

وكانت الصهيونية وراء استعمار المغرب وتونس والجزائر بافتعال الأزمات الإقتصادية في تلك البلاد .

واليهود كانوا أعواناً للمستعمر على المغاربة ، منذ كان الإسلام في

المغرب العربي حتى اليوم.

وقد برز نشاطهم بوضوح في ايام الإستعمار الفرنسي والإيطالي والإسباني في المغرب العربي، إذ طعنوا المغاربة العرب الذين آووهم قروناً طويلة مكرّمين معزّزين من الخلف في أيام محنتهم السوداء بالإستعمار.

وقد تضاعف خطر الصهيونية بعد خلق إسرائيل في فلسطين، فلا بد من الحذر منهم ومراقبتهم وسحق محاولاتهم السريّة والعلنية، وهذا هو الدرس التاسع من تاريخ المغرب العربي العريق.

والصليبيون لا يزالون يتطلّعون إلى المغرب العربي بنهم وحرص شديدين ؛ فإذا كان المغاربة قد نالوا استقلالهم وحريّتهم بجهاد أبنائهم وتضحياتهم ؛ فإن الصليبيين لم يقطعوا أملهم من الإستحواذ على المغرب العربي بطرق وأساليب جديدة، وهم الآن كالحيّات حين تسبت في أيام الشتاء، تبدو في مظهرها الخارجي ميتةً ولكنها في الحقيقة حيّة تدبُّ على الأرض بعد انقضاء فصل البرد وعودة أيام الربيع.

يجب ألاّ يغرّ المغاربة سُبَات الصليبيين في هذه الأيام، فالحيّة هي الحيّة خطراً ومكراً، وهذا هو الدرس العاشر من تاريخ المغرب العربي العريق.

والزراعة دعامة من دعامات المغرب العربي الإقتصاديّة، وقد كانت تلك البلاد مخزناً من مخازن الحبوب في العالم: موّنت المجاهدين الفاتحين في القرن الأول للهجرة، وأمدّت حوض البحر الأبيض المتوسط بالإنتاج الزراعي.

وقد عمل الإستعمار عمله المدمِّر في الحقول والغابات والبساتين، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فدمّرت ما بقي على عروشه، وكانت فترة الجهاد الأصغر بعد الحرب العالمية الثانية حتى الإستقلال فترة قاتمة من فترات التخريب الذي مارسه المستعمرون في تلك البلاد.

إنّ إعادة الطاقة الزراعية وتحسينها ، هي الدرس الحادي عشر من تاريخ المغرب العربي العريق .

وكان المغرب العربي مزدهراً بالصناعات المختلفة في العهد الذهبي من حكم الإسلام ، فلما نشبت الخلافات بين أبنائه وشاع التفرق بينهم تأخّرت الصناعة من جملة ما تأخّر في تلك البلاد .

وجاء الإستعمار فكان من سياسته حرمان المغاربة من صناعاتهم المحليّة لجعلهم فقراء الى الواردات الصناعيّة الأجنبيّة .

ولنضرب مثلاً بدار الصناعة التي أسّسها حسّان بن النُعْمان الأزدي الغسّاني في تونس ، فقد أنتجت هذه الدار سيلاً جارفاً من السفن الحربية أقضّت مضاجع الغرب وحملت الفاتحين إلى الأندلس وإلى جزر البحر الأبيض المتوسط وإلى جنوب إيطاليا .

وكان المغاربة مشهورين بصناعة السفن الحربية ، تلك السفن التي حمت بلادهم من العدو وجعلت كفّتهم راجحة على أعدائهم في ساحات القتال البحري .

وقد استمرّت هذه الصناعة قوية متينة حتّى أوائل أيام الإستعمار الغربي للمغرب العربي ، فكان من أوّل أعمال المستعمر هو تدمير هذه الصناعة تدميراً كاملاً في المغرب العربي .

وهذا التدمير أفقد المغاربة سلاحهم الأول في مصاولة الغرب في ميادين البحار .

وما يقال عن صناعة السُّفن الحربية ، يقال عن صناعة الأسلحة الأخرى التي كان للمغاربة التفوق على الغرب في صناعتها حتّى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي .

إنّ استعادة المغرب العربي لدوره الطليعي في صناعة السفن والأسلحة ،

ضروري لتقوية جيوشه والاكتفاء الذاتي بما تنتجه البلاد من سفن وسلاح.

واستعادة المغرب العربي لصناعاته المختلفة وإدخال التحسينات عليها، وإدخال صناعات جديدة، ضرورية لحماية الإقتصاد الوطني وصيانته وتقوية جيوشه.

إنّ إستعادة المغرب العربي لمكانته الرفيعة في الصناعات الحربيّة وغيرها، هو الدرس الثاني عشر من تاريخ المغرب العربي العريق.

والجيش القوي بتدريبه وتسليحه وتجهيزه وتنظيمه وقيادته ومعنوياته هو الرّادع القويّ لكل اعتداء خارجي، والقوّة من أهم عوامل جعل الأمة محترمة الجانب مسموعة الكلمة، لها حريّة العمل داخل بلادها وخارجها.

وعندما كان المغاربة أقوياء بجيوشهم وأساطيلهم كانوا سادة البحر الأبيض المتوسط وقادة حضارته ومالكي زمام دوله؛ فلمّا انهارت جيوشهم تجرّأ عليهم مَن كان يخشاهم بالأمس وهاجمهم في عقر دارهم.

إنّ الجيش القوي، هو الدرس الثالث عشر من دروس تاريخ المغرب العربي العريق[1].

والإلتزام بالمبادىء الخلقية الرفيعة عامل مهم في العلاقات السياسية الخارجيّة والداخليّة.

والذين يزعمون أنّ الأخلاق الكريمة تتنافى مع السياسة وتناقضها، وأنّ السياسي لا يلتزم بالمُثُل العليا ويجب أن يتحلّى بالمبادىء المكيافيليّة التي تقول: «الغاية تبرِّر الواسطة»، مخطئون كلّ الخطأ أو جهلاء كلّ الجهل.

إنّ الخلق القويم له علاقة حاسمة بالسياسي وبالسياسة وبالأحزاب

---

(١) اذاعت محطات الاذاعة يوم ١٩٦٦/٦/١٩ قرار المغرب بفرض التجنيد الإجباري الذي يلزم الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عاماً وثلاثين عاماً بالخدمة العسكرية لمدة ثمانية عشر شهراً بغية تهيئتهم للدفاع عن بلادهم. وهذا القرار حكيم صائب يدعو إلى التقدير والإعجاب.

والتكتلات والمنظّمات ... الخ التي تزاول السياسة ، لأنّ الشعب أفراداً وجماعات في الدّاخل ، والدول في الخارج ، لا تمنح ثقتها لمن لا خلاق له .

والخلق الكريم هو الإسلام .

لقد ساندت فئات من أهل المغرب المستعمرين من الفرنسيين والإسبان وقاتلوا إخوانهم من أهل الريف الذين كانوا يجاهدون المستعمرين بقيادة محمد ابن عبد الكريم الخطّابي[1] ، ولو كان هؤلاء مسلمين حقاً لكانت سيوفهم لإخوانهم لا عليهم .

إنّ من أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم خاصة وفساد أخلاقهم عامة إلاّ مَن رحم ربُّك[2] .

إننا بما نملك من عقيدة سامية لا نحتاج معها إلى استيراد العقائد من الشرق أو الغرب ، بل نحتاج إلى استيراد العلم والصناعة فقط دون المبادىء والعقائد .

وسياستنا يجب أن تكون مستمدة من عقيدتنا : لا غربيّة ولا شرقيّة .

فقد قاسينا من الغرب ما قاسينا : إستعماراً وجهلاً وفقراً ومرضاً .

وليس الشرق بأحرص علينا من الغرب ، وحالة المسلمين في الإتحاد السوفياتي أكبر دليل على ما نقول .

كان الحزب الشيوعي الفرنسي مع فرنسا على الجزائر .

وكانت الأحزاب الشيوعية مع الصهيونية على العرب في مشكلة فلسطين .

وقد دعمت الدول الشيوعية العرب في بعض الحالات ، ولكنّ دعمهم كان الكلام فقط . وقد كان الشيوعيون من أوائل من اعترف باسرائيل .

وكتب ستالين في كتابه : الماركسية والمسألة القومية ، طبعة سنة ١٩٤٦ :

---

(١) لماذا تأخر المسلمون (٥٤) .

(٢) لماذا تأخر المسلمون (٧٤) .

« إنّ الصهيونية حركة رجعيّة يجب محاربتها » ، فلما طُبع كتاب ستالين هذا في موسكو سنة ١٩٤٩ – اي بعد مولد إسرائيل – حُذفت هذه العبارة وطارت[١] ! !...

إن الشرق والغرب لا يعطفون على القضايا العربية والإسلامية إلاّ ضمن نطاق مصالحهم.

ولا يعطف على العرب والمسلمين قلبياً غير العرب والمسلمين.

لذلك يجب أن تكون سياستنا نابعة من عقيدتنا ومِن حضارتنا ومن تربة أرضنا الطيبة .

إنّ الالتزام بالمبادىء الخلقية الرفيعة في السياسة الخارجية والداخلية هو الدرس الرابع عشر من تاريخ المغرب العريق.

وحبُّ الدنيا وكراهية الموت أثر من آثار تخلّي المسلمين عن عقيدتهم الإسلامية ، فقد كان انتصار المسلمين الأولين على أعدائهم في أيام الفتح الإسلامي العظيم ، هو لأنهم يقاتلون لينالوا إحدى الحُسْنَيَيْن : الشهادة أو النّصر ، وكان أحدهم حين يموت شهيداً يردّد الآية الكريمة : « وعجلت إليك ربي لترضى »[١] .

وما أصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » فقال قائل : « ومن قلّة نحن يومئذٍ ؟ » ، قال : « بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غُثَاء كغثاء السّيل ، وسينزعن الله من صدور عدوّكم المهابة منكم ، وليقذفنّ في قلوبكم الوَهَن » . قال قائل : « يا رسول الله ! وما الوهن ؟ » ، قال : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت »[٣] .

---

(١) هكذا ضاعت وهكذا تعود (٧٤) .

(٢) الآية الكريمة من سورة طه (٢٠ : ٨٤) .

(٣) رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان . قوله صلى الله عليه وسلم : =

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّ الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وانّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، واني سألت ربّي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامّة ، وأن لا يسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم وفقر قوّتهم) ، وانّ ربّي قال لي : يا محمد ! إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ ، واني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامّة (أي قحط) ، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها — أو قال : مَن بين أقطارها — حتّى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً »[1] .

هذان الحديثان من أعلام النبوّة الّتي ظهر بها صدقه صلى الله عليه وسلّم بعد قرون من وفاته ورفع روحه إلى الرفيق الأعلى ؛ فما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الأجانب إلاّ بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأجانب على أنفسهم[2] .

إنّ كراهية الدنيا وحبّ الموت في سبيل الدفاع عن الوطن وعن العقيدة ،

تداعى ، أصله تتداعى ، أي يجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الآكلة وهي جمع آكل – كالفعلة جمع فاعل – الى قصعة الطعام . والغثاء بالضم : ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ، ويضرب مثلا لما لا قيمة له ولا فائدة . والوهن بالنون : الضعف . وإنما سأله السائل عن سببه ، فأجابه صلى الله عليه وسلم ، بأن سببه هو : حب الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة وإعلاء كلمه الله ، وكراهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة .

وقد ورد هذا الحديث في تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » والآية الكريمة من سورة الأنعام (٦ : ٥٦) .

انظر تفسير المنار (٧/٤٩٠ – ٥٠١) .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي بزيادة على رواية مسلم

(٢) ، انظر التفاصيل في تفسير المنار (٧/٤٩٠ – ٥٠١) .

هما الدرس الخامس عشر من تاريخ المغرب العريق[1].

واستعادة الثقة بالنفس واستعادة المعنويات العالية الى نفوس المغاربة أفراداً وجماعات وشعوباً ضروري لبناء الحاضر والمستقبل.

لقد توالت على المغرب العربي قرون وأحقاب عانى ما عانى فيها من معاول تهديم المبشرين والمستعمرين، حتى أصبح المغاربة يظنّون أن رجال الغرب هم الرجال، وتاريخهم هو التاريخ، ولغاتهم هي اللّغات الحيّة، وثقافتهم هي الثقافة، وحضارتهم هي الحضارة، وأساليبهم الحياتية هي الأساليب المجدية المفيدة في القرن العشرين.

إنّ فقد الثقة بالنفس هو من أشدّ الأمراض الإجتماعية وأخبث الآفات الروحيّة، لا يتسلّط هذا الدّاء على إنسان إلاّ أودى به، ولا على أمّة إلاّ ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاءَ عليلٌ يعتقد بحقٍ أو بباطل أنّ علّته قاتلته؟ وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوّة المعنوية هي رأس الأدوية، وأنّ من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء، فكيف يصلح إنسان أو تصلح جماعة أو شعب، وهو يعتقد وهم يعتقدون أنه وأنّهم لا يصلح ولا يصلحون ولا يمكن أن يصلح على يده أو على أيديهم شيء، وأنه وأنهم إذا اجتهد أو اجتهدوا أو قعد أو قعدوا فهو وهم لا يقدر ولا يقدرون أن يضارع او يضارعوا الأوربي والأوربيين في شيء.

وكيف يمكن أن يناهض شعب الأوربيين في معترك وهم موقنون أن التفوّق الأخير سيكون لا محالة للأوربيين؟

كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا يقاتل رجلاً إلاّ قتله،

(١) اثبت الجنود المرتزقة من المغاربة شجاعة نادرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية حين كانوا يقاتلون تحت لواء الطليان والفرنسيين والاسبان، بل إن المغاربة هم الذين رجحوا كفة فرانكو في اسبانيا على الشيوعيين عام ١٩٣٦، ولو أبدى هؤلاء مثل تلك الشجاعةدفاعاً عن بلادهم لتبدل الحال غير الحال.

فقيل له في ذلك فأجاب : «كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله وظنّ هو أيضاً أني قاتله ، فكنت أنا ونفسه عليه » .

وهكذا أصبح المغاربة في الأعصر الأخيرة ، يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلاّ سينتهي بصرع المغربي ولو طال كفاحه[1] .

إنّ القنوط موت ، والمغاربة كانوا سادة جزء كبير من أوربا ، وقد أثبتوا في ثوراتهم التحررية أنهم هم الرجال ، وأنّ الاوربيين الى جانب إقدام المغاربة وشجاعتهم لا شيء ، وهذا هو الدرس السادس عشر من تاريخ المغرب العربي العريق .

ومن أعظم أسباب تأخُّر المغاربة هو الجهل ، الذي يجعل فيهم من لا يفرِّق بين الناقة والبعير ، فيتقبّل السفسطة قضيّة مسلمّة ولا يعرف كيف يردّ عليها .

والعلم الناقص من أهم أسباب تأخُّرهم ، بل هو أشد خطراً من الجهل البسيط ، لأنّ الجاهل إذا قيّض الله له مرشداً عالماً أطاعه ولم يتفلسف عليه ، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنّه لا يدري [2] ..!

إنّ إقبال المغاربة على تعلُّم الهندسة الميكانيكية والهندسة النفطية والكيمياء والفيزياء ومختلف العلوم الأخرى ، هو الدرس السابع عشر من تاريخ المغرب العربي العريق [3] .

والدعوة الى العنصرية في المغرب العربي دعوة مريبة أفاد منها المستعمرون إلى أبعد الحدود ، فقد حاولوا استثارة العرب على البربر ، والبربر على العرب ، وحاولوا تنصير البربر ، وأقرّوا (الظهير البربري) ، ليوهموا المغاربة

---

(١) انظر التفاصيل في : لماذا تأخر المسلمون (١٤٩ - ١٦١) .
(٢) لماذا تأخر المسلمون (٧٣) .
(٣) وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث على العلم . انظر التفاصيل في : لماذا تأخر المسلمون (١٤١ - ١٤٧) .

أنهم أمّتان لا أمّة واحدة وشعبان لا شعب واحد .

إنّ العرب عاشوا مع البربر أربعة عشر قرناً اختلطت فيها الدماء ، وامتزجت فيها الآراء ، وكانت الرابطة التي تربطهما على الزمن أقوى من كلّ روابط الدنيا ، تلك الرابطة هي رابطة العقيدة الواحدة المستمدّة من رسالة السماء : الإسلام .

هذه الرابطة تحطمت على صخرتها محاولات المستعمرين في التفريق بين العرب والبربر ؛ وإذا كان المستعمرون قد أصابوا نجاحاً محدوداً في التفرقة ، فذلك بمعاونة عملائهم من العرب ومن البربر على حدّ سواء .

هؤلاء العملاء خانوا دينهم ووطنهم [1] ، فنبذهم الوطن ، وأصبحوا لعنة في التاريخ .

إنّ البربر لا يسوؤهم أن يقال : إنهم عرب ، بل يسوؤهم بأن يقال : إنهم غير عرب [2] . والعرب في المغرب العربي معناه الإسلام ، والإسلام معناه العرب ، ولا فرق بين العرب والإسلام هناك ، وهذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلّمه أهل المشرق من أهل المغرب .

إنّ الدعوة الى العنصرية من صالح الإستعمار وأعداء المغاربة من صهاينة ومبشرين ومستعمرين وعملاء ، وهذا هو الدرس الثامن عشر من تاريخ المغرب العربي العريق .

ولكن ، هل هذه الدروس المستنبطة من تاريخ المغرب العربي هي للمغاربة وحدهم ، أم أنّ فائدتها تعمّ المشارقة أيضاً .

إنّها للمشرق كما هي للمغرب ، فالمغرب العربي جزء من المشرق العربي ، وهما جزء من دار الإسلام .

---

(١) انظر التفاصيل في : لماذا تأخر المسلمون (٥٤ – ٦٧) .
(٢) ذلك ما ذكره الاستاذ الجليل عبد الله كنون عالم المغرب .

إنّ المشارقة والمغاربة، لهم تاريخ واحد، وحضارة واحدة، ولغة واحدة، وعقيدة واحدة، ومصير مشترك واحد.

إنّ ضعفَ المغرب العربي ضعفٌ للمشرق العربي؛ وقوّةَ المغرب العربي، قوةٌ للمشرق العربي، والمغرب والمشرق شقيقان في الماضي والحاضر والمستقبل.

وحين كان المغرب العربي في ثوراته بالإستعمار، كان المشرق العربي يشاطر المغرب العربي في آلامه وآماله، وكان لأحداث المغرب العربي صدى عميق في المشرق العربي يتغلغل في كلّ بلد وفي كلّ قرية وفي كل بيت.

وحين انتصرت ثورات المغرب العربي على الإستعمار، غمر المشرق العربي الفرح وعمّت التهاني، وامتلأت المساجد بالمصلين شكراً لله.

انتصر المغرب العربي على الإستعمار بالرغم من سطوته وجبروته وعزمه الأكيد على البقاء في المغرب العربي إلى الأبد.

كان الطليان يردِّدون نشيدهم عند استعمار ليبيا الذي يحرِّض على قتال المسلمين ومحو القرآن...

«يا أماه...! أتمي صلاتَك ولا تبكي.

«بل اضحكي وتأمّلي...

«ألا تعلمين أنّ إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فَرِحاً مسروراً..

«لأبذل دمي في سبيل سحق الأمّة الملعونة (١).

«ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان (٢)

«سأقاتل بكل قوّتي لمحو القرآن..

---

(١) كذا.

(٢) الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين وهو تزوج البكر والثيب. ولكن الافرنج تبيح لهم عصبيتهم الإفتراء على الاسلام، وتبيح لهم مدنيتهم الزنا، حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم، ولا سيما الطليان منهم. انظر تعليق السيد رشيد رضا في هامش: لماذا تأخر المسلمون (٥٢).

« ..... وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك ..

« ... وإنْ سألك أحدٌ عن عدم حدادك عليّ ...

« فأجيبيه : إنه مات في محاربة الإسلام ... »[١] .

وما يردِّد النشيد الإيطالي ، يردِّده النشيد الفرنسي والإسباني في المغرب العربي ، ويردِّده نشيد كل مستعمر في الشرق العربي في كل مكان فيه عرب وفيه مسلمون ...

وقد انتهى الإستعمار إلى الأبد ، وبقي القرآن إلى الأبد ..

بل إنّ حرب الإستعمار للقرآن عقيدة ولغة ، كان له ردٌّ فعل عند المغاربة في التمسُّك بالقرآن عقيدة ولغةً[٢] .

وقد حدث مثل ذلك في العراق أثناء المدِّ الشيوعي الأحمر عام (١٩٥٩ م) حيث عاد الناس إلى الإسلام ، وامتلأت الجوامع بالمصلِّين بشكل غير إعتيادي . ومثل ردِّ الفعل هذا ، سيقابل كل من يتنكّر للقرآن عقيدة ولغة في بلاد العرب ودار الإسلام ، فليفهم ذلك الحاكمون العربُ والمسلمون في كلِّ زمان ومكان .

لقد حفظ القرآن الكريم للمغرب العربي عقيدته ولغته منذ حلّ الإسلام في المغرب العربي منذ أربعة عشر قرناً حتّى اليوم .

وكان القرآن الكريم ولا يزال وسيبقى هو السِّلاح الفذ ، لصون عقيدة

---

(١) انظر التفاصيل في : لماذا تأخر المسلمون (٥٢ - ٥٣) .

(٢) اثناء زيارتي لليبيا عام ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) ، حدثني صديق عن امام جامع بنغازي الكبير ، فذكر أن الايطاليين حين فرضوا على الناس أن يتجنسوا بالجنسية الإيطالية لينالوا الوظائف ، ومنها الدينية ، رفض هذا الامام الجنسية الإيطالية واعتكف في داره ومارس تعليم الأطفال قراءة القرآن ، فكان رزقه يأتيه رغداً ، فلما طرد الايطاليون من ليبيا عاد الى جامعه إماماً . تحية تقدير للامام المؤمن الورع ، الذي رفض الدنيا من أجل دينه ، فنال الدنيا والآخرة ، وتحيه لأمثاله المؤمنين الصادقين في كل مكان من دار الإسلام .

الإسلام ولغة العرب من المحيط إلى الخليج ومن المحيط إلى المحيط .

وقد كان القرآن للمغاربة أيام الإستعمار الظالم ، هو القوة الضاربة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وانتصر القرآن عقيدة ولغة في المغرب العربي ، على الإستعمار بما له من قوة ومال وسلطان وجبروت .

وسينتصر على الإستعمار وعلى عملائه وأذنابه من الغربيين والشرقيين ومن أشباه العرب والمسلمين على حد سواء .

إنّه الصخرة الصلدة التي تتحطّمُ عليها رؤوس المستعمرين وأعوانهم ، وهو السِّلاح الأوحد للحِفاظ على العروبة والإسلام .

وصدق الله العظيم . « إنّا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون » [1] .

إلى الإسلام من جديد يا أبناء العرب والمسلمين قادة وشعوباً ، فيه تريحون وتستريحون ، وبه تتوحّدون وتُوَحِّدون ، وبه يعود لكم مجدكم وعزّكم ، وبه تقودون العالم الى الحق والخير والنور كما فعل أجدادكم من قَبْلُ : « ولو أنَّ أهلَ القُرَى آمنوا واتّقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يَكْسِبون » [2] .

والحمد لله الذي أتاح لي التفرُّغ لكتابة تاريخ قادة فتح المغرب العربي ، وأدعوه أن يتمّ عليّ نعمته لكتابة تاريخ قادة فتح المشرق الإسلامي ، وقادة فتح الأندلس والبحار ، وقادة فتح أوربا ، لإكمال تاريخ قادة الفتح الإسلامي الذين حملوا رايات الإسلام شرقاً وغرباً .

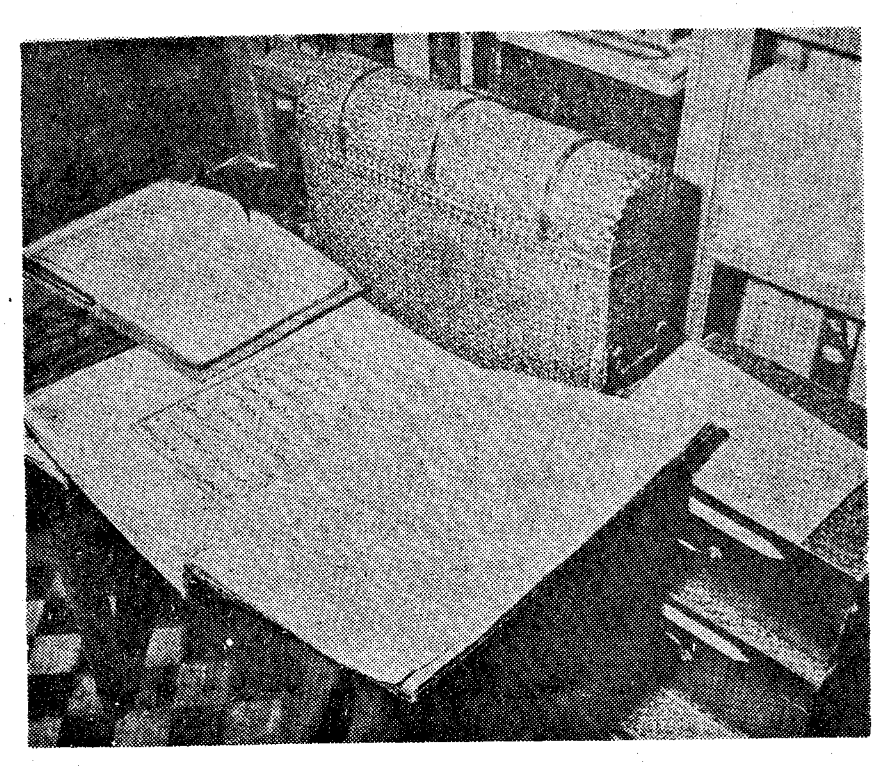
وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ؛ سيِّد القادات ، وقائد السادات . ورضي الله عن أصحابه وخريجي مدرسته ومعتنقي مبادئه وحاملي راياته .

والله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وأسأله التوفيق والسداد .

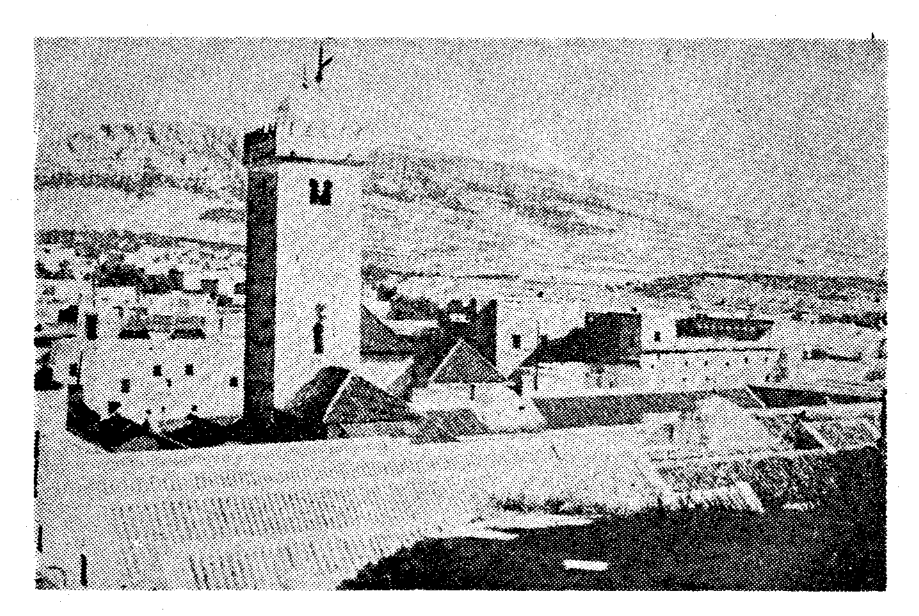
---

(٢) الآية الكريمة من سورة الحجر (١٥ : ٩) .

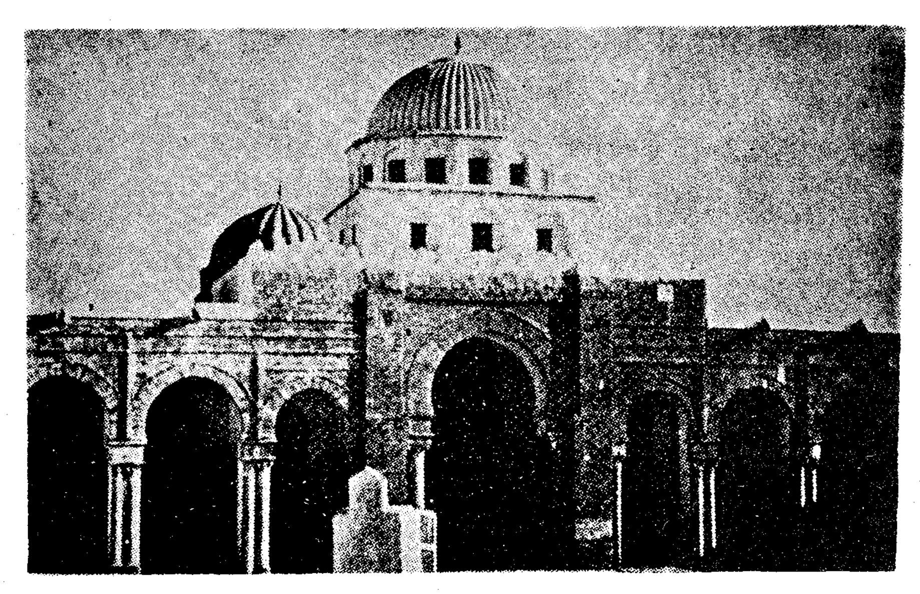
(١) الآية الكريمة من سورة الأعراف (٧ : ٩٦) .



القرآن في جامع القرويين بفاس



جامع القرويين بفاس



مسجد عقبة بن نافع

المصادر والمراجع



المصـــادر

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) :

١ . الحلّة السيراء ـ تحقيق الدكتورحسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.

ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) :

٢ . المؤنس في أخبـــار إفريقية وتونس ـ تونس ـ ١٢٨٠ ه .

ابن أبي زرع :

٣ . الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ـ فاس ـ طبع حجر .

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثـــير الجزري الملقّب بعزالـــدين) :

٤ . أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طهران ـ ١٣٧٧ ه .

٥ . تجريد أسماء الصحابة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣١٥ ه .

٦ . الكامل في التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٠٣ ه .

ابن اسحق (محمد بن اسحق بن يسار بن جبار بن كونان) :

٧ . فتوح مصر وأقاليمها ـ القاهرة ـ ١٢٧٥ ه .

ابن باديس (عبد الحميد بن باديس) :

٨ . تفسير ابن باديس ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ ه .

ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي) :
٩ . النجوم الزّاهرة – القاهرة – ١٣٤٨ هـ .

ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير) :
١٠ . رحلة ابن جبير – القاهرة – ١٣٥٦ هـ .

ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي) :
١١ . تاريخ عمر بن الخطاب – القاهرة .

ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني) :
١٢ . الإصابة في تمييز الصحابة – القاهرة – ١٣٢٥ هـ .
١٣ . تهذيب التهذيب – حيدر آباد الدكن – ١٣٢٧ هـ .
١٤ . فتح الباري بشرح البخاري – بولاق – ١٣٠١ هـ .

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :
١٥ . أسماء الصحابة الرّواة وما لكل واحد منهم من العدد – ملحق بجوامع السيرة – القاهرة .
١٦ . أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا – ملحق بجوامع السيرة – القاهرة .
١٧ . جمل فتوح الإسلام – ملحق بجوامع السيرة – القاهرة .
١٨ . جوامع السيرة – القاهرة .
١٩ . الفصل في الملل والنحل – القاهرة – ١٣٢١ هـ .
٢٠ . المحلّى – القاهرة – ١٣٤٧ هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي) :
٢١ . صورة الأرض – باشراف كرامرز – الطبعة الثانية – لايدن ١٩٣٨ م .

ابن حيّان (حيان بن خلف) .
٢٢ . المقتبس في تاريخ رجال الأندلس – باريس – ١٩٣٧ م .
ابن خردّاذبة (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة) :
٢٣ – المسالك والممالك – أعادت مكتبة المثنى طبعه في طهران – ١٩٦٣م .
ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب) :
٢٤ . الإحاطة في أخبار غرناطة – باشراف محمد عبد الله عنان – القاهرة – ١٩٥٦ م .
٢٥ . أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يجرّ ذلك من شجون الكلام – نشره ليڤي پروفنسال – الرباط – ١٩٥٦م .
٢٦ . المغرب العربي في العصر الوسيط (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس) باشراف أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني – الدّار البيضاء – ١٩٦٤ م
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) :
٢٧ . العبر وديوان المبتدأ والخبر – بولاق – ١٢٨٤ هـ .
٢٨ . المقدمة – طبعة مصطفى محمد – القاهرة .
ابن خلدون (يحيى بن محمد بن خلدون) :
٢٩ . بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – الجزائر – ١٣٢١هـ.
ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان) :
٣٠ . وفيّات الأعيان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – القاهرة – ١٩٤٨ م .
ابن دحلان (للسيد أحمد بن زيني دحلان) :
٣١ . الفتوحات الإسلاميّة – القاهرة – ١٣٤٥ هـ .
ابن دحية :
٣٢ . المطرب من أشعار المغرب – القاهرة – ١٩٥٤ م .

ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر بن رستة) :
٣٣ . الاعلاق النفيسة ــ لايدن ــ ١٨٩١ م .

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزّهري) :
٣٤ . الطبقات الكبرى ــ بيروت ــ ١٣٧٦ هـ .

ابن سعيد (ابن سعيد الأندلسي) :
٣٥ . المغرب في حلى المغرب ــ الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ م .
٣٦ . المغرب في حلى المغرب ــ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ م .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر) :
٣٧ . الإستيعاب في معرفة الأصحاب ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ القاهرة .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) :
٣٨ . فتوح مصر وأخبارها ــ لايدن ــ ١٩٢٠ م .
٣٩ . فتوح مصر والمغرب ــ القاهرة .
٤٠ . فتوح مصر والمغرب والأندلس ــ نشر شارل توري (**Torrey**) ــ لايدن ــ ١٩٢٠ م .

ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه) :
٤١ . العقد الفريد ــ القاهرة ــ ١٣٤٦ هـ .

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي) :
٤٢ . البيان المغرب في أخبار المغرب ــ بيروت .

ابن عساكر (أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن عساكر الشافعي) :
٤٣ . التاريخ الكبير (تهذيب ابن عساكر) ــ دمشق ــ ١٣٢٩ هـ .

ابن غلبون :
٤٤ . التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ـ نشر الطاهر أحمد الزاوي ـ القاهرة ـ ١٣٤٩ هـ .

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني) :
٤٥ . مختصر كتاب البلدان ـ لايدن ـ ١٨٨٥ م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :
٤٦ . الإمامة والسياسة ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .
٤٧ . الشعر والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .
٤٨ . عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .
٤٩ . المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ ١٩٦٠ م .

ابن القرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي) :
٥٠ . تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ـ القاهرة ـ ١٣٧٤ هـ .

ابن القوطيّة (أبو بكر محمد المعروف بابن القوطيّة القرطبي) :
٥١ . تاريخ افتتاح الأندلس ـ تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع ـ بيروت .

ابن القيِّم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزيّة):
٥٢ . أحكام أهل الذمة ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح ـ دمشق ـ ١٣٨١ هـ .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي) :
٥٣ . البداية والنهاية في التاريخ ـ القاهرة ـ .
٥٤ . تفسير ابن كثير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .
٥٥ . فضائل القرآن ـ ملحق بالتفسير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

ابن ماجة (محمد بن يزيد بن ماجة القزويني) :
٥٦ . سنن ابن ماجة ـ القاهرة ـ ١٣١٣ هـ .

ابن المعتز (عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد) :
٥٧ . طبقات الشعراء — تحقيق عبد الستار أحمد فراج — القاهرة — ١٣٧٥ هـ .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) :
٥٨ . السيرة النبوية — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة — ١٣٥٦ هـ .

أبو زهرة (محمد أبو زهرة) :
٥٩ . تاريخ المذاهب الإسلامية — القاهرة .

أبو الفدا (إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة) :
٦٠ . تقويم البلدان — باريس — ١٨٤٠ م .
٦١ . المختصر من أخبار البشر — القاهرة — ١٣٢٥ م .

أبو يعلى (أبو يعلى حمزة بن القلانسي) :
٦٢ . ذيل تاريخ دمشق — بيروت — ١٩٠٨ م .

أبو يوسف (القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة) :
٦٣ . الخراج — القاهرة — ١٣٤٦ هـ .

أحمد بن حنبل (الإمام أحمد بن حنبل) :
٦٤ . مسند الإمام أحمد بن حنبل — القاهرة — ١٣١٣ هـ .

الإدريسي (الشريف الإدريسي) :
٦٥ . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق — نشره دوزي ودي جوجة — لايدن — ١٨٦٦ م .

الإسفرائيني (عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني التميمي) :
٦٦ . الفرق بين الفرق — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة .

الأصبهاني (أبو الفرج الأصبهاني) :
٦٧ . الأغاني – بيروت – ١٩٥٥ م .

الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني) :
٦٨ . حلية الأولياء – القاهرة – ١٣٥٦ هـ .

الاصطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :
٦٩ . المسالك والممالك – تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني – ١٣٨١ هـ .

الألوسي (محمود شكري الألوسي) :
٧٠ . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب – تحقيق محمد بهجت الأثري – القاهرة – الطبعة الثالثة .

الباجي (أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي) :
٧١ . الخلاصة النقية في أمراء إفريقية – تونس – ١٣٢٣ هـ .

البخاري (أبو عبد الله محمد بن اسماعبل البخاري) :
٧٢ . صحيح البخاري – بولاق – ١٣٠٠ هـ .

البشاري (المقدسي المعروف بالبشاري) :
٧٣ . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – لايدن – ١٩٠٦ م .

البغوي (الإمام البغوي) :
٧٤ . تفسير البغوي – القاهرة – ١٣٤٧ هـ .

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري) :
٧٥ . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب – طبع دي سلان (De Slan) – الجزائر – ١٩١١ م .

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) :

٧٦ . أنساب الأشراف ــ الجزء الأول ــ تحقيق محمد حميد الله (الدكتور)ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .
٧٧ . أنساب الأشراف ــ الجزء الرابع القسم الثاني ــ القدس ــ ١٩٣٨ م .
٧٨ . أنساب الأشراف ــ الجزء الخامس ــ القدس ــ ١٩٣٦ م .
٧٩ ــ فتوح البلدان ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) :
٨٠ . البدء والتاريخ ــ مطهر بن طاهر المقدسي ــ نشره كلمان هوار ــ باريس ١٨٩٩ م .

البلوي (يوسف محمد البلوي) :
٨١ . ألف باء ــ القاهرة ــ ١٢٨٧ هـ .

البيضاوي (القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي) :
٨٢ . تفسير البيضاوي ــ القاهرة ــ ١٣٣٠ هـ .

التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم التيجاني) :
٨٣ . رحلة التيجاني ــ تونس ــ ١٩٥٨ م .

الجزنائي (أبو الحسن علي الجزنائي) :
٨٤ . زهرة الآس في بناء مدينة فاس ــ طبع الفرد بيل (A. Bel) ــ الجزائر ــ ١٣٤٠ هـ .

الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري) :
٨٥ . الوزراء والكتاب ــ القاهرة .

الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي) :
٨٦ . صفة الصفوة ــ حيدر آباد الدكن ــ ١٣٥٥ هـ .

الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي) :
٨٧ . إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبيّة) ــ القاهرة ــ

طبعة مصطفى محمد .

الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي) :

٨٨ . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ــ القاهرة ــ ١٣٧٢ هـ .

الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري) :

٨٩ . الرّوض المعطار في خبر الأقطار ــ نشره مع ترجمة فرنسيّة وتعليقات ليفي بروفنسال ــ لايدن ــ ١٩٣٦ م .

٩٠ . صفة جزيرة الأندلس ــ مختصر من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار ــ نشره ليفي بروفنسال ــ القاهرة ــ ١٩٣٧ م .

الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي) :

٩١ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ القاهرة ــ ١٣٥٠ هـ .

الخزرجي (أحمد بن عبد الله الخزرجي) :

٩٢ . خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ــ القاهرة ــ ١٣٢٢ هـ .

الخشني (محمد بن الحارث بن أسد الخشني) :

٩٣ . تاريخ قضاة قرطبة ــ نشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا ــ مدريد ــ ١٩١٤ م .

الخطيب البغدادي :

٩٤ . تاريخ بغداد ــ القاهرة ــ ١٢٤٩ هـ .

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب) :

٩٥ . مفاتيح العلوم ــ لايدن ــ ١٨٩٥ م ، والقاهرة ــ ١٣٤٤ هـ .

الدبّاغ (عبد الرحمن ومحمد بن عبد الله الأنصاري) :

٩٦ . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ــ تونس ــ ١٣٢٠ هـ .

الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري) :

٩٧ . تاريخ الخميس ــ القاهرة ــ ١٣٠٢ هـ .

الدينوري (أبو حنيفة الدينوري) :
٩٨ . الأخبار الطوال ــ القاهرة ــ ١٣٣٠ هـ .

الذّهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي) :
٩٩ . تاريخ الإسلام ــ القاهرة ــ ١٣٦٨ هـ .
١٠٠ . دول الاسلام ــ القاهرة ــ ١٣٦٨ هـ .
١٠١ ــ سير أعلام النبلاء ــ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ القاهرة .
١٠٢ . العبر ــ تحقيق فؤاد سيد ــ الكويت ــ ١٩٦١م .
١٠٣ . ميزان الاعتدال ــ القاهرة ــ ١٣٢٤ هـ .

الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري) :
١٠٤ . نسب قريش ــ نشره لأول مرّة ليفي بروفنسال ــ القاهرة .

الزمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزّمخشري) :
١٠٥ ــ تفسير الكشّاف ــ بولاق ــ ١٣١٩ هـ ــ الطبعة الثانية .

السفاريني (محمد بن أحمد السفاريني) :
١٠٦ . لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرر المضيّة في عقد الفرقة المرضيّة ــ جدّه ــ ١٣٨٠ هـ .

السّلاوي (أحمد بن خالد الناصري السّلاوي) :
١٠٧ ــ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ــ الدار البيضاء ــ ١٩٥٤م .

سيد الناس (ابن سيد الناس) :
١٠٨ ــ عيون الأثر ــ القاهرة ــ ١٣٥٦ هـ .

السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي) :
١٠٩ . تاريخ الخلفاء ــ القاهرة ــ ١٣٥١ هـ .

الشافعي (الإمام الشافعي) :
١١٠ . الأم ــ بولاق ــ ١٣٢٢ هـ ــ الطبعة الأولى .

الشماخي :
١١١ . سير علماء ومشايخ جبل نفوسة – طبع حجر – القاهرة .
الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني) :
١١٢ . الملل والنحل – ليبزج – ١٩٢٣ م .
صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة) :
١١٣ . تاريخ المنّ بالامامة على المستضعفين – تحقيق عبد الهادي التازي – بيروت – ١٣٨٣ هـ .
الضبي (أحمد بن يحي بن عميرة الضبّي) :
١١٤ . بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس – بجريط – ١٨٨٤ م .
ضيف (الدكتور شوقي ضيف) :
١١٥ . المغرب في حلى المغرب – ألّفه بالموارثة في مائة وخمس عشرة سنة ستة من أهل الأندلس : أبو محمد الحجاري وعبد الملك بن سعيد ، أحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبد الملك وموسى بن محمد وعلي بن موسى – حقّقه وعلّق عليه الدكتور شوقي ضيف – القاهرة .
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) :
١١٦ . تاريخ الأمم والملوك – القاهرة – ١٣٥٨ هـ .
١١٧ . الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء – لأيدن ١٩٣٣ م .
١١٨ . المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين – القاهرة
عبيد بن صالح :
١١٩ . نصّ جديد عن فتح العرب للمغرب – نشره ليفي بروفنسال – علّق عليه الدكتور حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد – ١٩٥٤ م .

عبد الرحمن بن عبد الله (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي) :
١٢٠ . الرّوض الآنف (شرح السيرة النبوية لابن هشام ـ القاهرة ـ ١٣٣٣ هـ .

عبد الرحمن بن محمد (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري) :
١٢١ . معالم الايمان ـ تونس ـ ١٣٢٠ هـ .

العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي) :
١٢٢ . سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ ١٣٧٩ هـ .

علي بن عبد الرحمن (علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي) :
١٢٣ . حلية الفرسان وشعار الشجعان ـ تحقيق محمد عبد الغني حسن ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

الغسّاني (محمد بن عبد الوهاب) :
١٢٤ . رحلة الوزير في افتكاك الأسير ـ العرايش ـ ١٩٤٠ م .

قدامة بن جعفر (أبو الفرج) :
١٢٥ . كتاب الخراج وصنعة الكتابة ـ لايدن ـ ١٨٨٩ م .

القرشي (يحي بن آدم القرشي) :
١٢٦ . كتاب الخراج ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) :
١٢٧ . الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

القزويني (زكريا بن محمد القزويني) :
١٢٨ . آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ .

القلقشندي (أبو العبّاس أحمد القلقشندي) :
١٢٩ . صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ القاهرة ـ ١٩١٣ م .
١٣٠ . نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تحقيق ابراهيم الأبياري ـ

القاهرة — ١٩٥٩ م .

الكتاني (عبد الحي الكتاني) :

١٣١ . فهرس الفهارس — فاس — ١٣٤٦ هـ .

الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي) :

١٣٢ . الأصنام — القاهرة — ١٣٣٢ هـ .

الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي) :

١٣٣ . كتاب الولاة والقضاة — لايدن — ١٩١٢ م .

لافونتي (دون لافونتي القنطرة Don Lafuente Alcantara) :

١٣٤ . أخبار مجموعة في فتح الأندلس — مؤلف مجهول — نشره دون لافونتي القنطرة — الجزء الأول — مدريد — ١٨٦٧ م .

المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله) :

١٣٥ . رياض النفوس — الجزء الأول — نشر وتحقيق حسين مؤنس — القاهرة — ١٩٥١ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري) :

١٣٦ . الأحكام السلطانية — القاهرة — ١٣٢٧ هـ .

المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير المبرد) :

١٣٧ . الكامل — القاهرة — ١٣٤٧ هـ .

محمد رشيد رضا :

١٣٨ . تفسير المنار — القاهرة — ١٣٢٥ هـ .

محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي :

١٣٩ . فوات الوفيات — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة — ١٩٥١ م .

المراكشي : (عبد الواحد المراكشي) :

١٤٠ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :

١٤١ . مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م ـ الطبعة الرابعة .

المقدسي (شمس الدين المعروف بالبشاري) : انظر البشاري .

المقري (أبو العباس أحمد) :

١٤٢ . نفح الطيب ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ .

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) :

١٤٣ . إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ـ نشر وتحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م .

١٤٤ . المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ القاهرة ـ ١٩٠٦ م الى ١٩٠٨ م .

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) :

١٤٥ . تاريخ قضاة الأندلس المسمى : المرتبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا ـ نشره ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م .

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) .

١٤٦ . نهاية الأرب في فنون الأدب ـ طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي) :

١٤٧ . شرح النووي على مسلم ـ القاهرة ـ ١٢٨٣ هـ .

١٤٨ . تهذيب الأسماء واللغات ـ القاهرة .

الهرتمس :

١٤٩ . مختصر سياسة الحروب ـ تحقيق عبد الرؤوف عون ـ القاهرة ـ

١٩٦٤ م .

الورجلاني (أبو يعقوب بن ابراهيم) :

١٥٠ . الدليل لأهل العقول ـ القاهرة ـ طبع حجر .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) :

١٥١ . المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ لايدن ـ ١٨٤٦ م .

١٥٢ . معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣٢٣ هـ .

المــــراجع

احسان عباس :

١ . العرب في صقلية ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

أحمد أمين (الدكتور) :

٢ . ضحى الاسلام ــ القاهرة ــ ١٣٥٢ هـ ــ الطبعة الثانية .

أحمد النائب الأنصاري :

٣ . المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ــ القاهرة ــ ١٣١٧ هـ .

أحمد بن أبي الضياف :

٤ . إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ــ ١٩٦٣ م .

أحمد توفيق المدني :

٥ . الجزائر ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .

٦ . خريطة القطر الجزائري ــ طبعة كاربونيل ــ الجزائر .

٧ . المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ــ الجزائر .

أحمد فكري :

٨ . المسجد الجامع بالقيروان ــ القاهرة ــ ١٩٣٦ م .

٩ . مساجد القاهرة ومدارسها ــ المدخل ــ الاسكندرية ــ ١٩٦٣ م .

أرسلان (الأمير شكيب أرسلان) :
١٠ . تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ .

أشفورد (دوجلاس أشفورد) :
١١ . التطوّرات السياسية في المملكة المغربية ـ ترجمة الدكتورة عائدة سليمان عارف والدكتور أحمد مصطفى أبي حاكمة ـ بيروت ـ ١٩٦٣ م .

الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامي :
١٢ . تقويم البلدان الإسلامية ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

أنجل جونزالز بالنسيا (Angel Gonzalez) :
١٣ . تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة حسين مؤنس (الدكتور) ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م .

أوزيغان (عمار أوزيغان) :
١٤ . الجهاد الأفضل ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

أوليفر (رولاند أوليفر وجون فيج) :
١٥ . تاريخ افريقية ـ ترجمة الدكتورة عقيلة محمد رمضان ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

ايتاليندر (رولف ايتاليندر) :
١٦ . عشرة رجال ـ ترجمة أحمد عبد القادر ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م .

بانيكار (سردار بانيكار) :
١٧ . مشاكل آسيا وافريقيا ـ ترجمة ماهر نسيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

بروفنسال (ليفي بروفنسال) :
١٨ . الإسلام في المغرب والأندلس ـ ترجمة الدكتور السيد محمد عبد

العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م .

البهي (محمد البهي ـ الدكتور) :

١٩ . الدين والحضارة الإنسانية ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

بلومنتريت (كونثر بلومنتريت)

٢٠ . المشير فون رونشتد ـ ترجمة اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ ـ بيروت ـ ١٩٦٦ م .

التونسي (محمد خليفة التونسي) :

٢١ . الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) ـ ترجمة محمد خليفة التونسي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة .

٢٢ . التسامح في الإسلام ـ التونسي ومحمد أحمد حسونة ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ م .

التل (عبد الله التل) :

٢٣ . خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحيّة ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ .

توينبي (أرنولد توينبي) :

٢٤ ـ محاضرات توينبي ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ م .

٢٥ . مختصر دراسة للتاريخ ـ ترجمة فؤاد محمد شبل وأحمد عزة عبد الكريم ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

الجزائري (مسعود مجاهد الجزائري) :

٢٦ . أضواء على الإستعمار الفرنسي للجزائر ـ القاهرة .

جول (جول لابوم) :

٢٧ . تفصيل آيات القرآن الكريم ـ ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة ـ ١٣٤٣ هـ .

الجيلالي (عبد الرحمن محمد الجيلالي) :
٢٨ . تاريخ الجزائر العام ــ الجزائر ــ ١٣٧٥ هـ .

حامد إسماعيل (حامد اسماعيل سيد أحمد) :
٢٩ . الإستعمار الصهيوني في آسيا وافريقيا ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .

حامد عبد القادر :
٣٠ . الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم ــ القاهرة ــ ١٣٥٧ هـ .

الخربوطلي (الدكتور علي حسني الخربوطلي) :
٣١ . عبد الله بن الزبير ــ القاهرة ــ ١٩٦٥ هـ .

حسن ابراهيم (حسن ابراهيم حسن) :
٣٢ . انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .
٣٣ . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ــ الجزء الأول ــ القاهرة ــ ١٩٥٧ م .

حسن أحمد محمود :
٣٤ . الإسلام والثقافة العربية في افريقية ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .
٣٥ ــ قيام دولة المرابطين ــ القاهرة ــ ١٩٥٧ م .

حسن حسني عبد الوهاب :
٣٧ ــ خلاصة تاريخ تونس ــ تونس ــ ١٣٧٣ هـ ــ الطبعة الثالثة .

حسن سليمان محمود :
٣٨ . ليبيا بين الماضي والحاضر ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ م .

حسين مؤنس :
٣٩ . فتح العرب للمغرب ــ القاهرة ــ ١٩٤٧ م .
٤٠ . فجر الأندلس ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

حمدي حافظ وصاحبه :
٤١ . الجزائر : كفاح شعب ومستقبل أمة ــ القاهرة .

أحمد الحوفي :
٤٢ . سماحة الإسلام ــ القاهرة .

خطّاب (محمود شيت خطاب) :
٤٣ . المهلب بن أبي صفرة الأزدي ــ بغداد ــ ١٩٦٤ .

خلف الله (عبد الغني عبد الله خلف الله ــ الدكتور) :
٤٤ . مستقبل افريقيا السياسي ــ القاهرة ــ ١٩٦١ م ــ الطبعة الثانية .

دبوز (محمد علي دبوز) :
٤٥ . تاريخ المغرب الكبير ــ القاهرة ــ ١٣٨٤ هـ .

الدر (نقولا الدر) :
٤٦ . هكذا ضاعت وهكذا تعود ــ بيروت ــ ١٩٦٤ م .

دروزة (محمد عزة دروزة) :
٤٧ . تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ــ القاهرة ــ سلسلة : إخترنا لك رقم (٨٥) .
٤٨ . الوحدة العربية ــ بيروت ــ ١٣٧٦ هـ .

دوزي (R. Dozy) :
٤٩ . تاريخ مسلمي اسبانيا ــ ترجمة حسن حبشي ــ القاهرة .

روم لاندو :
٥٠ . تاريخ المغرب في القرن العشرين ــ ترجمة نقولا زيادة ــ بيروت ــ ١٩٦٣ م .

الريس (الدكتور ضياء الدين الريس) :
عبد الملك بن مروان ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ م .

زاهر رياض (الدكتور) :

٥١ . استعمار إفريقية ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ .

الزاوي (الطاهر أحمد الزاوي) :

٥٢ . تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ .

٥٣ . جهاد الأبطال ـ القاهرة ـ ١٩٥٠ م .

٥٤ . ترتيب القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

الزركلي (خير الدين الزركلي) :

٥٥ . الأعلام ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ الى ١٣٧٨ هـ .

زيدان (عبد الكريم زيدان ـ الدكتور) :

٥٦ . أحكام الذميين والمستأمنين ـ بغداد ـ ١٣٨٢ هـ .

سرور (الدكتور محمد جمال الدين سرور) :

٥٧ . الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ الطبعة الثانية .

سعد زغلول عبد الحميد :

٥٨ . فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الشعبية ـ مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية ـ ١٩٦٣ م .

٥٩ . تاريخ المغرب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

سعد زغلول فؤاد :

٦٠ . عشت مع ثوار الجزائر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م .

سعدى ياسين :

٦١ . ذكريات معركة الجزائر ـ ترجمة منى ابراهيم حنفي ـ القاهرة .

السنوسي (محمد بن علي السنوسي) :

٦٢ . الدرر السنية في أخبار السلالة السنوسية ـ القاهرة ـ ١٣٨٠ هـ ـ الطبعة الثالثة .

سيد سابق :
٦٣ . عناصر القوّة في الإسلام ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى .

سيدة اسماعيل الكاشف :
٦٤ . مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ م .
٦٥ . مصر في فجر الإسلام (من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية) ــ القاهرة ــ ١٩٤٧ م .

سيمون (بيير هنري سيمون) :
٦٦ . ضد التعذيب في الجزائر ــ ترجمة بهيج شعبان ــ بيروت ــ ١٩٥٧ م.

شاكر (محمود محمد شاكر) :
٦٧ . أباطيل وأسمار ــ القاهرة ــ ١٣٨٥ هـ .

شلبي (محمود شلبي) :
٦٨ . عمر المختار ــ القاهرة ــ ١٩٥٨ م .

الشنيطي (محمود الشنيطي) :
٦٩ . قضية ليبيا ــ القاهرة ــ ١٩٥١ م .

عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور) :
٧٠ . الحركة الصليبية ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .

عبد الحميد العبادي :
٧١ . المجمل في تاريخ الأندلس ــ القاهرة ــ ١٩٥٨ م .

عبد السّلام بن سوده :
٧٢ . دليل مؤرخ المغرب الأقصى ــ تطوان ــ ١٩٥٠ م .

عبد العزيز سالم (الدكتور) :
٧٣ . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح الإسلامي حتّى سقوط الخلافة بقرطبة) ــ بيروت ــ الطبعة الأولى .

عبد العزيز طريح شرف :
٧٤ . جغرافية ليبية ــ الاسكندرية ــ ١٩٦٣ م .

عبد العزيز بنعبد الله :
٧٥ . تاريخ المغرب ــ الدار البيضاء .

العقّاد (عباس محمود العقاد) :
٧٦ . ما يقال عن الإسلام ــ القاهرة .

عنان (محمد عبد الله) :
٧٧ . دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول) ــ القاهرة ــ ١٩٤٣ م .

العمري (الفريق الركن محمد أمين العمري) :
٧٨ . الحرب الريفية ــ بغداد ــ ١٩٢٥ م .

عبد المنعم ماجد :
٧٩ . التاريخ السياسي للدولة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ م .
٨٠ . مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ م .

الغنيت (محمد علي الغنيت) :
٨١ . من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ــ القاهرة .

الغزالي (محمد الغزالي) :
٨٢ . معركة المصحف في العالم الإسلامي ــ القاهرة ــ ١٣٨٣ هـ .

غليسبي (جوان غليسبي) :
٨٣ . الجزائر الثائرة ــ ترجمة خيري حماد ــ بيروت ــ ١٩٦١ م .

فروخ (الدكتور عمر فروخ) :
٨٤ . تاريخ الفكر العربي أيام ابن خلدون ــ بيروت ــ ١٣٨٦ هـ .
٨٥ . التبشير والإستعمار ــ بالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي ــ بيروت ــ ١٩٦٤ م ــ الطبعة الثالثة .

٨٦ . عبقرية العرب في العلم والفلسفة ـ بيروت ـ ١٩٥٢ م ـ الطبعة الثانية
٨٧ . العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .
٨٨ . وثبة المغرب ـ بيروت ـ ١٣٨١ هـ .

فلهوزن :
٨٩ . تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويّة ـ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

فنسنك (الدكتور) :
٩٠ . مفتاح كنوز السنة ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ .

كامل محمود حبيب :
٩١ . موسى بن نصير ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

كراتشوفسكي (اغناطيوس كراتشوفسكي) :
٩٢ . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م .

كرد علي (محمد كرد علي) :
الادارة الإسلامية في عز العرب ـ القاهرة .

كشك (محمد جلال كشك) :
٩٣ . الغزو الفكري ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .
٩٤ . الماركسيّة والغزو الفكري ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

كلوب (جون باجوت كلوب) :
٩٥ . الفتوحات العربيّة الكبرى ـ تعريب وتعليق خيري حماد ـ بيروت ـ ١٩٦٢ م .

كنون (عبد الله كنون) :
٩٦ . مفاهيم إسلاميّة ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

٩٧ . النبوغ المغربي في الأدب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦١ م ـ الطبعة الثانية .

مبارك محمد الميلي :

٩٨ . تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـ الجزائر ـ ١٣٥٠ هـ .

مجمع البحوث الإسلامية (المؤتمر الأول) :

٩٩ . كتاب بحوث المؤتمر ـ الأزهر الشريف ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

محمد الحامد :

١٠٠ . ردود على أباطيل وتمحيص لحقائق دينية ـ دمشق .

محمد الطيّب بن أحمد ادريس الأشهب :

١٠١ . برقة العربية أمس واليوم ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م .

محمد عبد السلام بن عبّود :

١٠٢ . تاريخ المغرب ـ تطوان ـ ١٩٥٧ م ـ الطبعة الثانية .

محمد عبد الغني حسن :

١٠٣ . موسى بن نصير ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م .

محمد عبد المنعم ابراهيم ومحمد عبد الوارث الصّوفي :

١٠٤ . الأمير عبد الكريم الخطابي ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصيّاد :

١٠٥ . ملامح المغرب العربي ـ الاسكندرية ـ ١٩٥٩ م .

محمد عبد الهادي شعيرة (بالاشتراك) :

١٠٦ . تاريخ ليبيا والعالم الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م .

محمد بن عثمان الحشائشي التونسي :

١٠٧ . جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ـ نسخة بالآلة الكاتبة عن مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس ـ مكتبة بلدية الاسكندرية ـ رقم ٢٥٩١ ب .

محمد فؤاد عبد الباقي :
١٠٨ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .

محمود حلمي :
١٠٩ . تطوّر المجتمع الإسلامي العربي ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .

مديرية التدريب العسكري للجيش العراقي :
١١٠ . إسرائيل قاعدة عدوانية ــ بغداد ــ ١٩٦٥ م .

مصروعة (جورج مصروعة) :
١١١ . الصهيونية وربيبتها إسرائيل ــ بغداد ــ ١٩٦٥ م .
١١٢ . هنيبعل ــ بيروت .

مصطفى بعيو :
١١٣ . دراسات في التاريخ اللوبي ــ الاسكندرية ــ ١٩٥٣ م .
١١٤ . المجمل في تاريخ لوبيا من أقدم العصور الى العصر الحاضر ــ الاسكندرية ــ ١٩٤٧ م .

المكناسي (أحمد المكناسي) :
١١٥ . خريطة المغرب الاركيولوجية ــ تطوان ــ ١٩٦١ م .

المملكة المغربية :
١١٦ . جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف ــ المغرب .

الندوى (أبو الحسن علي الحسني الندوي) :
١١٧ . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ــ بيروت ــ ١٣٨٥ هـ ــ الطبعة السادسة .

النشّار (الدكتور سامي النشار) :
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ــ القاهرة ــ ١٩٥٤ .

النمر (عبد المنعم النمر) :

١١٨ . الإسلام والمبادىء المستوردة – القاهرة – ١٣٨٠ هـ .

هازارد (هاري . و . هازارد) :

١١٩ . أطلس التاريخ الإسلامي – ترجمة ا براهيم زكي خورشيد – القاهرة .

يحيي بن بوعزيز :

١٢٠ . الموجز في تاريخ الجزائر – بيروت – ١٩٦٥ م .

المراجع الأجنبيــة

1. Chember's Encyclopedia.
2. Creswell (K.A.C.). Early Muslim Architecture Umayyads, Early Abbasids and Tulunids. Vol. II, Part II, Oxford, 1938.
3. Encyclopedia Britannica.
4. Gayangos, Pascual. The History of the Mohammedan Dinasties in Spain, 2 Vols. London, 1840-1843.
5. Gibbon. Decline and Fall of the Roman Empire.
6. Irving, Washington. Legends' of the Conqest of Spain.
7. Lane-Poole. The Moors in Spain.
8. Scott: Morish Empire in Europe.
9. Thomas, W. Arnold: The Preaching of Islam. London, 1935.
10. Finlay: Byzantine Empire.

التصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١ هـ	(١٢٣ — ٢٣)	(١٢٣ — ١٦٣)
١٤	٧ و ٨	أبو حيان	ابن حبّان
٢٠	٦	محمد بن حذيفة	محمد بن أبي حذيفة
٢٩	٢ هـ	عنها	عنهما
٣١	٧	محمد بن حذيفة	محمد بن أبي حذيفة
٣٦	٨	النضد	النضر
٣٦	٤ هـ	وأروح	وأروج
٥٢	٩	يحيي ابن	يحيي بن
٥٢	١٥	لابنه	لأبيه
٥٤	١١	يَتْجه	يَتّجه
٥٦	١ هـ	لأنه	لأنّ
٥٩	٢٠	رمو	رموا
٦٤	٧	كلاهما	كلامهما
٦٥	٩	ابن مليكة	ابن أبي مليكة
٦٦	٧	إرسالاً	أرسالاً
٦٨	٥	فأذاقه من	فأذاقه الله من

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٨	٢٢	صا	صبا
٦٩	٧	ليبكي	ليبكِ
٧٥	٧	عماه	أعماه
٧٥	١٠	ابن مليكة	ابن أبي مليكة
٧٥	١٠	العزير	العزيز
٧٥	١٧	عمر	عمرو
٨١	٥	يحزننا	يجدها
٨١	٥	دعوى	يرعوى
٨١	٥	ذوي	ذوو
٨١	١١	إلا من	من
٨٥	١٣	يقطر	تقطر
٨٦	١	تلين	يلين
٩٠	١٤	ابن	بن
٩٠	١٥	حتّها	حبُّها
٩٩	١٣	على عقد	الى عقد
١٠١	١٧	ينساه	ينسه
١٠٢	٩	رئيس	رئيساً
١٠٣	٧	بن عقبة	ابن عُقْبَة
١٠٤	٢١	يلبس	يلبث
١١٠	١١	ستة عشر	ست عشرة
١١١	٩	عمر	عمرو
١١١	١٥	فلت	أفلت
١١٥	١٤	معترف	معترفاً
١١٦	٢٥	لبنهى	لينهى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩	٣	يفوتني	يقوتني
١١٩	١٩	وانظر	وانظروا
١٢٣	١٦	شخصيته	٤ ـ شخصيته
١٢٣	١٣	بن	ابن
١٢٨	٢٢	ولو أن	ولو أنّ
١٣٢	٧	هوات	هواة
١٣٢	٩	عمر	عمرو
١٣٦	١٣	صبر	صبراً
١٣٧	٩	ضرب الله	ضرب الله مثلاً
١٣٧	١١	إقر	إقرأ
١٣٨	١٠	الى حامل	لحامل
١٤١	١١	لذتي	لداتي
١٤٢	١ هـ	كتبه	كنية
١٤٤	١٧	الحديت	الحديث
١٤٤	١٨	بالمحافظة	المحافظة
١٤٥	١٩	الأتاواة	الأتاوات
١٤٦	١٦	الولايه	الولاية
١٤٨	٤	مثالي	مثالياً
١٤٨	٢٠	المجاعة	الجماعة
١٥٠	٢٠	الداخليه	الداخلية
١٥٣	٤ هـ	زويفع	رويفع
١٥٣	٥ هـ	البخاري	النجاري
١٥٤	١١	برقه	برقة
١٦٣	٥	يعرفو ن	يعرفون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٣	١٥	يتجزء	يتجزّأ
١٦٤	٢٢	ستقرأه	ستقروءه
١٧١	١٠	يسلبهم	تسلبهم
١٧٨	١٨	لإسلامي	الإسلامي
١٧٨	٢٤	واستنفاد	واستنفار
١٧٩	٨	كان المغرب	كان في المغرب
١٩٤	٣	تحملهم الى ذلك	تحملهم على ذلك
١٩٥	١١	ونبذوا	ونبزوا
١٩٥	١٧	وجدَ	ووجدَ
١٩٧	٨	المرابطين	الموحدين
٢٠٥	١١	أخيه	أخاه
٢٠٥	١٢	أبي العباس	أبا العباس
٢١٢	٨	عبد العزير	عبد العزيز
٢١٩	١٢	حاتم	أبي حاتم
٢٢٦	٥ هـ	معد المعز	معد العزيز
٢٢٨	٣	نشأ	نشآ
٢٢٩	١٠	بن	ابن
٢٣٤	٩	دولة بني مرين	٩ ـــ دولة بني مرين
٢٣٤	١١	الدولة العبد الواديّة	١٠ ـــ الدولة العبدالواديّة
٢٣٥	١٨	الدولة العمانية	١١ ـــ الدولة العثمانية
٢٣٨	٧	٢ ـــ تونس	تونس
٢٤٣	١٧	على الحالة	عن الحالة
٢٥٠	٣	١٨٨٠	١٨٨٤
٢٥٧	١٧	الى المستعمرين	المستعمرين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٩	٨	لم	ولم
٢٦٧	٢٤	تجارية	تجاريّة
٢٨١	١٧	لخلافة	الخلافة
٢٨٢	١ هـ	(٣)	(١)
٢٨٥	٦	الإدارية	الإداريّة
٢٨٦	٢ و ٤	غرازباني	غرازياني
٢٨٦	١٥	(٢)	(١)
٢٨٦	١٩	(٣)	(٢)
٢٨٦	١ هـ	(٢)	(١)
٢٨٦	٣ هـ	(٣)	(٢)
٢٨٧	٩	الإلطالي	الإيطالي
٢٨٧	١٦	من	بن
٢٨٩	٧	العجلات	العجيلات
٢٩٠	٢ هـ	الحروقة	المحروقة
٢٩٠	٣	الجبل الغربية	الجبل الغربي
٢٩٢	١٢	بالإنضمام	على الإنضمام
٢٩٣	٧	للهجوم	قاعدة للهجوم
٢٩٣	٩	فنة	فيه
٢٩٣	١٧	السيد	السيد أحمد السنوسي
٢٩٦	٦	القمادة	القيادة
٣٠٠	١١	طلميه	طلميته
٣٠٠	٢٢	طلمينه	طلميته
٣٠٠	١١	زعماؤهم	زعماءهم
٣٠٢	٣	١٩٥٠	١٣٥٠

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٤	٤	بعشرة	بعشر
٣٠٥	٢	سيد	السيّد
٣٠٥	٢	مهجره	مهاجره
٣٠٥	١ هـ	(٢)	(١)
٣٠٥	٢ هـ	(٣)	(٢)
٣٠٦	٦	تمهل	تتيح
٣٠٨	١٤	والرجال	ولا بالرجال
٣٠٨	١٥	وفي	ولا في
٣٠٩	٤	(٢)	(١)
٣١٤	١٦	العربيّة	على البلاد العربيّة
٣١٥	١٢	ويسيطروا	ويسيطرون
٣١٥	٤ هـ	سنن	وفي سنن
٣١٧	١٤	المسلمين	المسلمون
٣١٧	٢ هـ	(١)	(٢)
٣١٨	١	عن أنه	على أنه
٣١٨	٥	سوريا	سوريّة
٣١٨	٣ هـ	(٤)	(٣)
٣١٩	١٣	في تنفيذها	على تنفيذها
٣١٩	٢١	والمسلمين	والمسلمون
٣٢٠	٦	والمسلمين	والمسلمون
٣٢٠	١ هـ	(٢)	(١)
٣٢٠	٢ هـ	(٣)	(٢)
٣٢٣	٢٢	والأخباس	والأجناس

الفهارس



فهرست الأعلام

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الأمـــاكن

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(م)

القبائل والملل والنحل [1]

---

(١) لم نذكر العرب والمسلمين والإسلام ، لورودها في أكثر صفحات الكتاب .

الخرائط والتصاوير

فهرس الموضوعات

الصفحة

الكتاب القـــادم

الصديق القائد

آثار المؤلف الصادرة

الكتب العسكرية :

١ – القضايا الإدارية في الميدان – مطبعة الجيش العراقي – بغداد – ١٩٥٢ .

٢ – التدريب الفردي ليلاً – بالاشتراك مع اللواء الركن شاكر محمود شكري – مطبعة شفيق – بغداد – ١٩٥٤ .

كتب التاريخ العسكري :

٣ – الرّسول القائد – الطبعة الأولى – بغداد – ١٩٥٨ .
الطبعة الثانية – بيروت – ١٩٦٢ .
الطبعة الثالثة – القاهرة – ١٩٦٤ .

٤ – قادة فتح العراق والجزيرة – دار القلم – القاهرة – ١٩٦٤ .

٥ – المهلّب بن أبي صفرة الأزدي – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٤ .

٦ – الفاروق القائد – الطبعة الأولى – بغداد – ١٩٦٥ .
الطبعة الثانية – بيروت – ١٩٦٦ .

٧ – الأحنف بن قيس التميمي – مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٦٥ .

٨ – قتيبة بن مسلم الباهلي – مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٦٥ .

٩ – عقبة بن نافع الفهري – مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٦٥ .

١٠ – أبو موسى الأشعري – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٥ .

١١ – أبو عبيدة بن الجرّاح – مجلّة المجمع العلمي العربي – دمشق – ١٩٦٥ .

١٢ ــ قادة فتح بلاد فارس ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٩٦٥

١٣ ــ قادة فتح الشام ومصر ــ دار الفتح بيروت ــ ٩٦٥

١٤ ــ قادة فتح المغرب العربي ــ الجزء الأول ــ دار الفتح ــ بيروت ١٩٦٦ .

١٥ ــ قادة فتح المغرب العربي ــ الجزء الثاني ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٩٦٦ .

كتب السياسة العسكرية :

١٦ ــ طريق النّصر في معركة الثأر ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٩٦٦ .

١٧ ــ حقيقة إسرائيل ــ معهد الدّراسات العربية العليا ــ القاهرة ــ (تحت الطبع) .

كتب اللغة العسكرية :

١٨ ــ المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ــ الجزء الأول ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٩٦٦ .

١٩ ــ المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ــ الجزء الثاني ــ دار الفتح ــ بيروت ــ ١٩٦٦ .

كتب تاريخ الحرب :

٢٠ ــ المشير فون رونشتد (أسرار الحرب العالميّة الثانية) ــ اللواء كونثر بلومنتريت ــ ترجمة عن الانكليزية .

الطبعة الأولى ــ بغداد ــ ١٩٦٠ .

الطبعة الثانية ــ بيروت ــ ١٩٦٥ .